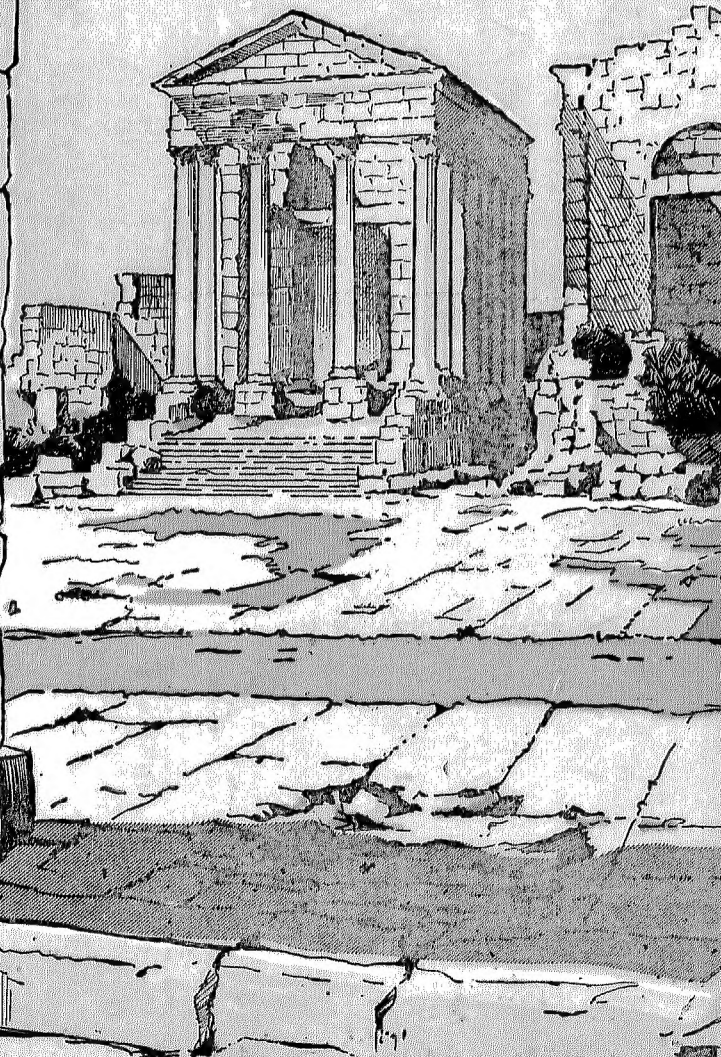


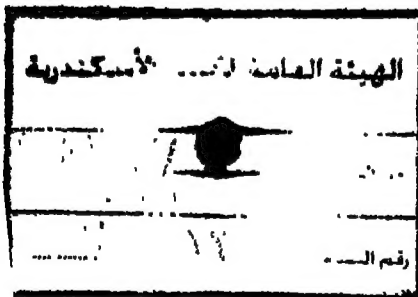
مدينة المغرب العربي في التاريخ



مدنية المغرب العربى في التاريخ

الجزء الاول

عشرون قرنا من تاريخ افريقية
من عصور ما قبل التاريخ الى آخر العهد العثماني
البيزنطى



تأليف
احمد صفر
متفقد التعليم



دار النشر بـ تونس
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

كلمة الناشر

عزيزى القارىء

انه لمن دواعى الفخر والاعتزاز ان ننشر اليوم هذا الاثر الذى بين يديك فهو اثر تاريخي كما ترى طرق التاريخ لا كما طرقته كتب التاريخ الأخرى فلقد اتجه فيه الأستاذ احمد صفر وجهة جديدة وانتحى فيه ناخية ما زالت لحد الان غامضة غريبة ولعلها مجهولة وهى تاريخ الحضارة فى هذه البلاد : بلاد المغرب العربى منذ اقدم العصور نعم منذ اقدم العصور التى عرفتھا الانسانية فلا تعجب مثلا ان قال لك الأستاذ احمد صفر ان لك مدينة عاصرت المدينة المصرية • فهو يسير بك خلال العصور ويجتاز بك القرون فى رفق وتؤدة ويجعلك تعيش مع الاجداد القدامى وتشاطرهم مسكنهم وماكلهم وحتى فنهم وتراقبهم فى حلهم وترحالهم وينتقل بك هكذا عصرا فعصرا وجيلا فجيلا ، واحيانا يقف بك عند بعض الاحداث ليتأمل ويستخلص ويقرر • وهذا لعمري يجعلك تعيش عيشة طويلة مليئة بالاحداث والمعلومات • فتاريخنا منذ بدء التاريخ حافل ماجد بشهادة المؤرخين الاجانب وهو ما حرص الأستاذ احمد صفر - ابقاه الله - على جمع شتاته ولم شعثه وسبكه فى اسلوب علمى واضح وهو السهل الممتنع فى تعبيره وهو التدقيق الدقيق فى تحقيقه وهو الحصافة فى مقارنته وتاملاته واحكامه كل ذلك فى نزاهة وصدق واخلاص •

ولقد خصصنا الصفحات الاولى من الكتاب للمعلم بنشرنا البرامج

الرسومية لتعليم التاريخ وارادفها الاستاذ صفر بتوجيهاته القيمة ونصائحها الغالية لتعليم هذه المادة معتمدا خصوصا على تجربته في الحقل المدرسى طيلة حياته التعليمية واثناء قيامه بمهمته التفقدية ولقد كان منا هذا العطف على التعليم والمعلم لان كلامن المؤلف والناشر ينتمى الى اسرة التعليم ويحن الى كل ما ينتمى الى اسرة التعليم . فالرجاء من بقية القراء المعذرة .

ويبدأ هذا البحث فى الكتاب من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة عشر قرنا وينتهى الى آخر عهد الوندال اى فترة تعد عشرين قرنا تقريبا .

ولعل ما سنصادفه من التشجيع وما سنلمسه فيك من التقدير سيبيحنا على نشر ما بقى من هذا الاثر القيم الذى يذكر فيشكر .

هذا ايها القارئ الكريم الكتاب بين يديك وفى انتظار راىك فاقراء واحكم له او عليه . فانت الشاهد وانت الحكم

الخاتمة

على بوسلة



اعتذار

تسللت بعض الاخطاء المطبعية فالرجاء اصلاحها قبل الشروع فى المطالعة وذلك حسب ما يوجد فى جدول الاخطاء باخر الكتاب .

البرامج الرسمية

الباب الاول

الاهداف

- اشعار التلميذ بانه عضو من مجموعة بشرية وفرد من اسرة كبيرة في حاجة الى التعاون والتضامن والالتحام .
- حمله على ادراك ان الحضارة التي يتمتع بها هي نتيجة حضارات سابقة وثمره عمل اجيال متتابعة وانه في استطاعة جيله ان يكون بدوره حلقة من حلقات مسلسلها المتواصلة .
- الوصول به الى تصور معنى الامة والوطن تصورا واضحا صحيحا والسمو به عن المغالاة والتعصب .



الباب الثاني

الحصص والبرنامج

الفصل الاول

السنة الخامسة

الفقرة ١ - الحصص
حصص اسبوعية ذات خمسة واربعين دقيقة .

الفقرة ٢ - البرنامج

بدء التاريخ

اللوبيون او الليبيون (البربر) - دخول الليبيين التراب المصرى
(فى عهد رمسيس الثانى اى فى القرن الثالث عشر قبل المسيح)
ثم توالى الهجومات الى ان بسطوا نفوذهم على (الدلتا) ، احتكاكهم
بالمدينة المصرية - الاتصالات بالاقريطين والفنيقيين واليونانيين،
(القرن الثانى عشر قبل الميلاد) ، آثار ذلك الاتصال .

المدينة الليبية :

الصيد وتربية المواشى - الرحل والمستقرون - المسكن (الكهوف
الأكواخ المتنقلة ، القصور) - المأكول والملبس والاسلحة - العائلة
الليبية - القبيلة (شبه جمهورية صغيرة خاضعة الى حكم الجماعة)
- التفاف عدد القبائل حول سلطة اغليد (امير او قائد)

المدينة الفنيقية القرطاجية :

التعريف بالفنيقيين - الفنيقيون بافريقية - المراكز التجارية -
تاسيس قرطاج - التجارة والاسفار البحرية - الرحلات (رحلة
حنون ورحلة خيملكن) الصناعة والفلاحة - الحكومة يسيرها رجال
التجارة - الجيش (ماجور) - العادات - الدين - الصراع بين قرطاج

ورومة - عملقار - (الحرب الاولى) • حنبعل وشيبيون الافريقي
(الحرب الثانية) صدر بعل وشيبيون الايميلي (الحرب الثالثة) -
تهديم قرطاج وزوال الامبراطورية القرطاجية •

المدنية الرومانية :

حدود (افريكا) الرومانية - الممالك الافريقية المستقلة : نوميديا -
مقاومة يوغرطة النوميدي - يوبا الاول - يوبا الثاني - بطليموس -
البطل المقاوم تاكفاريناس - التوسع في النفوذ الروماني ومد السلطنة
على كامل تراب شمال افريقية - الفلاحة - مطور رومة - القموح -
الزياتين - تربية المواشى - جلب المياه والرى - الصناعة والتجارة
الطرق - المعالم والاثار الرومانية (المسارح ، المعابد ، الحمامات)
المدارس والتعليم : اللغة اللاتينية - الديانة : الاصنام ، آلهة الرومان
انتشار الديانة النصرانية (الكنائس) - اغوستانيوس الافريقى •

المدنية العربية الاسلامية :

ظهور الاسلام - النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة - الهجرة
وانتصار الاسلام - الخلفاء الراشدون - الفتوحات الاسلامية الاولى:
غزو افريقية (عبد الله بن سعد) وقتل الفريق جرجير بسببلة
المحاولة الثانية لفتح افريقية : عقبة بن نافع وتأسيس القيروان -
المقاومة : كسيلة والكاهنة - انتصار حسان بن النعمان - السولة
الاولون •

الحضارة فى عهد الدولة الاغلبية :

ابراهيم بن الاغلب وابو ابراهيم احمد - العمران وانشاء المدن :
العباسية ، رقادة - البناءات الدينية : جامع عقبة بالقيروان ، جامع
الزيتونة بتونس - البناءات الدفاعية : رباط المنستير ، رباط سوسة ،
الاسوار - نظام الحكم : الحكومة الاغلبية على نمط حكومة بغداد (اللون
الاسود شعار الدولة العباسية ببغداد كما هو شعار الاغلبية بالقيروان)
الوزير ، الحاجب ، قائد الجيش ، رئيس البريد ، القضاة ، الولاة -
العلاقات الدبلوماسية : وفود شارلمان - اقتبالهم بالعباسية ، الهدايا
الى شارلمان - ابراهيم بن الاغلب وهارون الرشيد - سياسة جلب
المياه : المواجه ، الاحواض ، القنوات والحنايا - الازدهار الاقتصادى:
الفلاحة ، التجارة ، الصناعة - السياسة الجبائية : العشر وضرائب
اخرى غير شرعية •

التعليم : الكتاب ، الجامع ، الرباط •

الجند : يتحفظ للثورة ويهدد الامن - غزو صقلية بقيادة اسد بن
الغفرات .

الحضارة في عهد الدولة الفاطمية :

عبيد الله المهدي - الشيعة - تاسيس المهديية - إنتقال التخت من
رقادة (القيروان) الى المهديية - الحكومة الفاطمية (الشعار الابيض)
حامل المظلة - ابقاء الاطارات الادارية الموجودة في عهد الاغالبة -
توحيد شمال افريقية - جلب المياه : انشاء مواجل واحواض اخرى،
الزيادة في ارتفاع حنايا الاغالبة - المقاومة : ثورة ابي يزيد صاحب
الحمار في عهد ابي القاسم وانتشار دعايته ضد الفاطميين، انتصاراته،
انهزامه امام المهديية وموته في عهد ابي العباس اسماعيل الذي لقب
نفسه بالمنصور وانشأ المنصورية او صبرة قرب القيروان - ازدهار
افريقية في عهد (المعز) ، الاستيلاء على مصر بواسطة قائده جوهري،
انشاء القاهرة المعزية والجامع الازهر - انتقال المعز الى مصر .

الحضارة في عهد الدولة الصنهاجية :

بولكين بن زيري الصنهاجي خليفة الفاطميين بالمنصورية -
الانقسام وتصدع الوحدة : الامارة الشرقية (قاعدتها القيروان) ،
الامارة الغربية (قاعدتها قلعة بني حماد) - المعز بن باديس - التمدن
الافريقي - الفلاحة - الصناعة - التجارة - العمران - النهضة الادبية
- نبذ مذهب الشيعة ونبذ دعوة الفاطميين - زحف بنو هلال
ونتائجهم - سقوط الامارة الحمادية والامارة الزيرية - تنافى حياة
البدو والسلب والنهب مع حضارة المدن - القضاء على الفلاحة
والتجارة والاقتصاد - تعريب البلاد : انتشار اللغة العربية - انتقال
مبعت الحضارة ومركز السلطة الافريقية الى المغرب الاقصى .

الحضارة في عهد المرابطين :

قبيلة الملتيمين الصحراوية - نشأة المرابطين : ابن ياسين، يوسف
ابن تاشفين - كون المرابطين في آن واحد حزبا دينيا مفرطا في
التشدد والصلابة والتمسك بالشكليات وفرقة عسكرية مستعدة
للمقتال ومتاهبة للحرب - الاستيلاء على بلاد المغرب وتاسيس مراكز
(١٠٦٢) - الاستيلاء على بلاد الجزائر (تلمسان) - الاسراع الى
نجدة المسلمين بالاندلس وبلاد المغرب والتاثر بالحضارة الاندلسية
(ظهور ذلك جليا في الهندسة المعمارية : الجامع الكبير بتلمسان
والجامع الكبير بالجزائر ومشابهتهما بجامع قرطبة) .

الحضارة في عهد الموحدين :

ابن تومرت - عبد المؤمن بن علي - مذهب الموحدين : ما هو وكونه
رد فعل ضد مذهب المرابطين - انشاء جمعية منظمة وحزب عسوي
عتيد : الجامعة او مجلس العشرة تم مجلس الخمسين ثم شبكة متينة
من جامعات وفروع وشعب منتشرة في الداخل - استيلاء عبد المؤمن
على المغرب تم الاندلس ثم على كامل تراب شمال افريقيا - طرده
الفرمان من المهدي سنة ١١٦٠ - الآثار والعلوم والآداب : برج حسان
بالبطاط ، جامع الرباط وسورها ، جامع مراكش ، الكتبية ، ابن
الطيفيل ، ابن رشد - انقسام الامبراطورية الى ثلاث ممالك مستقلة :
الدولة الحفصية بافريقية (تونس) داخل في ذلك عمالة قسنطينية
وطرابلس - الدولة الزناتية او دولة بني عبد الواحد بالمغرب الاوسط
(تلمسان) : الجزائر ووهران - دولة بني مرين بالمغرب الاقصى (فاس)

الحضارة في عهد الدولة الحفصية :

الدولة الحفصية وتوطرها - ابو زكرياء واستقلاله عن الموحدين
في المغرب (١٢٢٨) - مقر الحفصيين بالقصبة بنونس العاصمة -
نظام المملكة : مجلس المشائخ ، الجيش من المغاربة ، الحرس الملكي ،
وزير تحت نظره الديوان والمصالح الادارية والعمال في داخل
المملكة ، ادارة الكمارك منظمة احسن نظام وعلى راسها امير من
العائلة المالكة - الحياة الادبية : بلاط الامير ملتقى العلماء والادباء
والشعراء والمغنيين ، ابن خلدون اول من وضع علم الاجتماع والتاريخ
الامام ابن عرفة - بناء المساجد : جامع القصبة - بناء المدارس -
الحياة الاقتصادية : الفلاحة ، الصناعة ، التجارة - بناء الاسواق
بالعاصمة (سوق العطارين) - الحنايا لجلب المياه الى تونس .

بدء هجرة الاندلسيين الى تونس :

قدوم المهاجرين الاولين من بلاد الاندلس : من مسلمين (الصناعة
والفلاحة) ويهود (التجارة) - العلاقات التجارية بين تونس وبلدان
النصارى - الفنادق صيد التن والمرجان في مياه تونس بجهة طبرقة
- تصدير الحبوب والاصواف والجلود والعسل واستيراد الاشياء
المصنوعة (اسلحة ، اجواخ ، اوراق الخ ٠٠٠) - القرصنة وبيع
العلوج (الاسرى من النصارى) - الصراع بين الاتراك والاسبان
(طور الحروب الصليبية : عروج ، خير الدين ، سنان باشا) .

الفصل الثاني

الفقرة ١ - الحصة

السنة السادسة

حصة سبوعية ذات خمسة واربعين دقيقة

الفقرة ٢ - البرنامج

الاكتشافات والاختراعات :

الاكتشافات الكبرى (السفر) - الاختراعات (البارود ، المطبعة ،

الخ ٠٠) - نتائج هذه الاكتشافات والاختراعات .

الاسبان والاتراك :

تداعى الامبراطورية الموحدية وما تسبب عنه من انحطاط كبير
وفوضى وانقسام وعدم استقرار وطمح الاسبان والاتراك فى الاستيلاء
على افريقيا الشمالية .

دولة الاشراف بالمغرب :

خطر الهجوم الاسبانى والتركى وما انجر عنه من يقظة دينية
سياسية بالمغرب - استيلاء الاشراف السعديين على العرش - احمد
المنصور - صيرورة المغرب وحده دولة لها ادارتها المركزية بينما
تونس وتلمسان تتخبطان فى الفوضى - سلامة المغرب وحده من
الاحتلال الاسبانى ومن الاحتلال التركى .

الاسبان :

انتهاء الاسبان فى آخر القرن الخامس عشر من استرجاع
سيادتهم وبسط نفوذهم على اسبانيا (احتلال غرناطة ١٤٩٢)
وطمعهم فى التمدادى للاستيلاء على افريقية (اسباب دينية صليبية ،
اسباب سياسية ، اسباب استراتيجية وكذلك اطماع مادية)
استيلاؤهم على المرسى الكبير (١٥٠٥) ثم وهران وبجاية وغيرهما
وعلى طرابلس وجربة - انشاء حصون وقلاع فى تلك المراكز التى
سموها (بريزيديو) بعضها موجود الى اليوم .

الاتراك :

نزول عروج واخيه خير الدين بمدينة الجزائر ، استنجد الجزائريين بهما لطرده الاسبان - استيلاء عروج الذي صار سلطان الجزائر على مراكز كثيرة - مونه في احدى الوقائع (١٥١٨) - نشاط خير الدين ودخوله تحت طاعة السلطان العثماني (سليم) وفي خدمته - حصوله على اعانة تركيا ومساعدتها المالية والحربية - انتصاراته على الاسبان بسبب هذه المساعدة - دخول الجزائر تحت النفوذ العثماني

خير الدين بتونس :

دخول خير الدين القصبة بتونس ، استنجد مولاى الحسن الحفصي بالاسبان (الامبراطور شارل كان) - سيدى عرفة شيخ الشايبية بالفيروان - الاسبان بالمهدية وبحلق الوادي وتونس وجربة ، القائد سنان باشا : طرد الاسبان نهائيا وبسط النفوذ العثماني .

الاستيلاء العثماني :

النظام التركي في تونس بعد سنان باشا ، الباشا - الداي - الباي - البلاد التونسية في القرن السابع عشر (الحادي عشر هـ) - الدولة المرادية وانجازاتها .

الدولة الحسينية : (من ١٧٠٥ الى ١٩٥٧ = ٢٥٢ سنة)

حسين بن علي وتأسيس الدولة الحسينية - حمودة باشا باي (١٧٨٢ - ١٨١٤) - سياسته - انجازاته .

يقظة اوروبا :

ظهور الدول الاوروبية الكبرى : فرنسا ، انكلترا - الانقلاب الاقتصادي والاختراعات الكبرى : المحركات البخارية ، القطار ، الكهرباء - احتلال الفرنسيين للجزائر - مقاومة الجزائريين للفرنسيين - عبد القادر وكفاحه .

دسائس الفرنسيين لدى البايات :

احمد باي ومحاولات الاصلاح (١٨٣٧ - ١٨٥٤) - مصطفى

خزندار ومحمود بن عياد - ظهور خير الدين - محمد باي - عهد
الامان سنة ١٨٥٧ م - مساعي خير الدين *

عصر الصادق باي :

دستور سنة ١٨٦١ - الثورة سنة ١٨٦٤ - مظالم حكومة البايات -
ترفيف الاداءات - خزندار وسرقاته - ثورة على بن غدام الماجري -
قمعها - إلغاء دستور ١٨٦١ - خير الدين ومحاولات اصلاحه امور
البلاد : تنظيم المالية ، تشجيع الفلاحة ، اصلاح التعليم - دسائس
دائرة الباي - عزل خير الدين *

تونس ودسائس الدول :

مساعي فرنسا للاستيلاء على تونس - اتفاق فرنسا السري مع
الامان والانقليز في مؤتمر برلين - دسائس ايطاليا *

انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية :

مهاجمة الفرنسيين لتونس - معاهدة باردو (القصر السعيد) -
كفاح الامة التونسية ضد الغاصبين : صفاقس ، قابس ، قفصة -
حكومة الحماية - النظام الاداري والعدلي - الاستعمار الفرنسي *

الحرب العالمية الاولى :

الحرب العالمية الاولى ونتائجها في الشرق والغرب - الاحتلال
الفرنسي للمغرب الأقصى - بداية الحركة القومية في تونس : باش
حائبة ، عبد العزيز الثعالبي ، البشير صفر *

حركة الدستور الجديد :

الدستور الجديد وحركته قبل الحرب العالمية الثانية - مؤتمر قصر
هلال - ٩ افريل - شخصية الحبيب بوقيبة واعضاده - الحرب
العالمية الثانية ونتائجها في تونس - قيام الحبيب بوقيبة بخدمة
القضية التونسية في الخارج - فرحات حشاد والكفاح الاجتماعي -
النهضة العلمية والثقافية *

الكفاح الاخير ١٩٥٢ - ١٩٥٤ :

قيام الثورة في كامل البلاد التونسية - المطالبة بالاستقلال -
اغتيال فرحات حشاد والهادى شاكر - مقابلة مرطاج - المذاكرات
وعقد الاتفاقيات - الاستقلال الداخلى .

الاستقلال التام :

الاستقلال التام : ٢٠ مارس - المجلس التاسيسي - دخول تونس
فى المنظمة الدولية - انجازات الاستقلال الاولى - الحبيب بورقيبة
يتولى لأول مرة رئاسة الحكومة - الاصلاحات الادارية - مجلة الاحوال
الشخصية - الدبلوماسية التونسية - الجيش التونسى .

الجمهورية التونسية :

اعلان الجمهورية التونسية وسقوط الدولة الحسينية : ٢٥ جويلية
١٩٥٧ انتخاب الحبيب بورقيبة اول رئيس للجمهورية التونسية -
انجازات الجمهورية .

مؤتمر طانجة :

المغرب العربى الكبير .



الباب الثالث

توجيهات

ينبغي :

(١) - ان نبدا دروس التاريخ بتشخيص الماضي في اذهان التلاميذ وذلك بتكوين سلم زمني تسير في اعداده من الحاضر الذي نعيش فيه الى الماضي البعيد ونجعل تفسيمااته مبنية لمختلف اطوار الحضارة التي مرت بالبلاد مبندئين في ذلك باقربها اليينا ويكفى ان نخصص لهذا العمل حصة او حصتين .

(٢) - ان نركز دروس التاريخ على الملاحظة الحية فنستخدم الى اقصى حد جميع الوسائل والامكانيات الموجودة في البلدة او في جوارها (جوامع ، مدارس ، آثار ، معالم ، اطلال ، اماكن تاريخية ، متاحف ، مكتبات ، نقود ومسكوكات عتيقة الخ . . .) ونستمر ايضا الوثائق التاريخية والرسوم والصور اذ بملاحظتها ومقارنتها بما وقعت مشاهدته على العين يدرك الاطفال ما هو اعم من التاريخ المحلي .

(٣) - ان نحسن التصوير لحياة الاقدمين المادية والاجتماعية حتى يشعر التلاميذ كأنهم يعيشون مع اولئك الاقدمين ولا ننسى ان نبين ما للمدنيات الاجنبية (الشرقية منها والغربية) من تاثير على مدنيتنا القومية بسبب الاختلاط والتحاكك والتساكن .

(٤) - ان نستعين بالخرائط الجغرافية لربط الوقائع التاريخية بمواقعها .

(٥) - ان نفتتيز جميع الفرص لتعريف الطفل بمفاخر امته وتنشئته على محبتها دون ان نكون فيه عنصرية مقوطة تمنعه من ادراك ما للامم الاخرى من خصال ومزايا ومن حظ في خدمة الانسانية وتقديم الحضارة .

من الحاضر القريب الى الماضى البعيد

من المفيد ان يبدأ المعلم دروسه التاريخية بمقدمة يسير فيها سيرا معاكسا لمجرى التاريخ اى ذاهبا من الحاضر الى الماضى مع وضع علامات للمراحل الاساسية فوق خط افقى او عمودى مدرج

مثال ذلك :

(١) ان بلادنا هى البلاد التونسية - وهى الان مستقلة تمام الاستقلال - فما هو تاريخ حصولنا على هذا الاستقلال ؟ - سنة ١٩٥٦ (نضع علامة فوق السلم التاريخى)

(٢) قولنا ان تونس تحصلت على استقلالها فى التاريخ المذكور يدل على انها لم تكن مستقلة قبل ذلك التاريخ . فكيف كانت حينئذ قبل تحصيلها على الاستقلال ؟ - كانت تحت حماية دولة اجنبية وهى الدولة الفرنسية ، وهو ما يسمى بالاستعمار الفرنسى نعرف الان تاريخ انتهاء الاستعمار الفرنسى وقد وضعنا علامة ذلك فوق السلم التاريخى ، اذ ان تاريخ نهاية الاستعمار هو تاريخ بداية الاستقلال لكن ما هو تاريخ بداية الاستعمار الفرنسى او نظام الحماية الفرنسية ؟ - سنة ١٨٨١ (نضع علامة لذلك فى المكان المناسب فوق السلم التاريخى)

فلاستعمار دام حينئذ بالبلاد التونسية من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٩٥٦ اى كم سنة ؟ - ٧٥ سنة (اى عمر انسان تقريبا)
وكم ينقص هذه المدة لتصير قرنا ، اذا عرفنا ان القرن هو مائة سنة ؟ - ٢٥

فيمكن حينئذ ان نقول بان الاستعمار الفرنسى دام بالبلاد التونسية (ثلاثة ارباع القرن) (او قرنا الاربع)
(٣) اذا استثنينا اليهود (الذين هم تونسيون ايضا) فما هو دين التونسيين وما هى لغتهم ؟ - الدين الاسلامى واللغة العربية متى دخل الدين الاسلامى ومتى دخلت اللغة العربية البلاد

التونسية ؟ - مع دخول العرب وتأسيس القيروان سنة ٦٧٠ (نضع لذلك علامة في المكان المناسب فوق السلم التاريخي)

فابناء تونس هم مسلمون منذ كم سنة ؟ - يقع حساب تلك المدة من سنة ٦٧٠ الى العام الذي يلقي فيه المعلم درسه - فاذا كان ذلك سنة ١٩٥٧ فان تلك المدة تكون ١٩٥٧ - ٦٧٠ = ١٢٨٧ سنة (١٣ قرنا تقريبا)

(٤) وان اجدادنا كانوا قبل ذلك الساربخ لا يتكلمون بالعربية ولا يدينون بالدين الاسلامي . فكيف كان دينهم ؟ - عبادة الاوثان او الديانة المسيحية اى دين سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام (مثل الفرنسيين والايطاليين اليوم والنصارى بصفة عامة) ومتى دخلت الديانة المسيحية بلادنا ؟

انتشر الدين المسيحي بالبلاد التونسية سنة ٣١٣ (علامة لذلك) فكم سنة بقى اجدادنا يدينون بالمسيحية او النصرانية ؟ - ٦٧٠ - ٣١٣ = ٣٥٧ سنة (اى ثلاثة قرون ونصف تقريبا) وولد سيدنا عيسى سنة (٠) وهو ابتداء التاريخ المسيحي (نضع علامة لذلك باللون الاحمر فوق السلم التاريخي)

(٥) عرفنا الان كيف كان دين التونسيين قبل الاسلام والان نريد ان نعرف كيف كانت لغتهم ؟ هل كانوا يتكلمون العربية مثلما نتكلم اليوم ؟ - لا ، لان هذه اللغة اتت مع العرب كما ذكرنا .

ان اجدادنا كانوا يعرفون بالليبيين (مثلما ان اجداد الفرنسيين كانوا يعرفون فى القديم بالغاليين او الغلوا) وكانت لغتهم هى اللغة الليبية

ولكن كانت هناك طبقة من المثقفين من اجدادنا يحسنون التكلم باللغة اللاتينية . وهى لغة الرومان من سكان ايطاليا وما هو سبب وجود هذه اللغة ببلادنا ؟ - لان الرومان كانوا احتلوا بلادنا سنة ١٤٦ قبل المسيح (نضع علامة لذلك فى مكانه بالسلم التاريخي) وان كثيرا من الانار مثل قصر الجم وبناءات قديمة تدل على استيلاء الرومان على بلادنا

(٦) وكبف كانت بلادنا قبل استيلاء الرومان عليها ؟ كانت بلادنا تحت نفوذ الفنيقيين الذين قدموا من بلادهم وهى فنيقية

(بلاد الشام الآن) واسسوا مدينة قرطاج سنة ٨١٤ قبل الميلاد
(نضع علامة لذلك في المكان المناسب)
ولذلك فان بلادنا دامت تحت حكم قرطاج من سنة ٨١٤ الى سنة
١٤٦ قبل الميلاد . اى كم سنة ؟ ٨١٤ - ١٤٦ = سنة (ستة
قرون ونصف تقريبا)

(٧) وكيف كانت بلادنا قبل ذلك التاريخ اى قبل تأسيس
قرطاج وقبل النفوذ القرطاجى الفينيقى ؟ - كانت بلادنا ليبية ،
وكانت لغتنا الليبية .

فلنبدا حينئذ بالدور الليبي وبحياة الليبيين فى ذلك العهد القديم
والقديم جدا منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة ، ثم لتتبع معا مجرى
التاريخ شيئا فشيئا - الفينيقيون - الرومان - العرب والاسلام -
الاستعمار الفرنسى . . . الى ان نصل الى يومنا الحاضر ووقتنا
الزاهر وهو وقت الاستقلال التام ونظام الجمهورية التونسية : وهذا
هو تاريخ تونس .

- فلا بد حينئذ من تحفيظ بعض التواريخ الهامة حتى تكون لهم
منبه علامات تنير لهم طريق القرون الغابرة وترفع عن اذهانهم الغموض
واللبلة . ومن اكبر اسباب هذا الغموض ما يصادفه الطفل الصغير
من الصعوبة فى تصور المسافة الزمنية التى تفصله عن الماضى البعيد
المتحدث عنه ، وفى تخيل نسبة زمن بعيد مع زمن آخر ابعد او
اقرب . . . فالصغير لا يتصور الماضى ولا يلتفت إليه ولا يفهمه مثلما
يتصوره ويراه ويفهمه الرجل الكبير ، فهو يعيش فى الحاضر ويتطلع
ويتحفظ الى المستقبل ، وليس له فى حياته الجديدة الناشئة مباحث
طويل مثل ماضينا يمكنه من تصور القرون الفائتة بواسطة المقارنة .
فاذا التفت الى ماضيه فهو لا يجد سوى بضع سنين ، ما بين
الثلاث والعشر ، فكيف نحدثه حينئذ عن ماض بعيد وبعيد جدا ؟
وكيف نريد ان يتصور قرونا قبل المسيح وقرونا بعده وآلاف من
السنين الغابرة ؟

فمن اللازم حينئذ ان نجسم مسألة الزمن وان نجعلها محسوسة
نوعا ما باستعمال (انسلم التاريخى) ، ولا بد من ان نفكر فى وضع
علامات توضح للطفل الصغير هذه المسافات فى الزمن مثلما توضح
نصب الطرقات المسافات فى الفضاء . وبذلك يمكن للطفل ادراك
هذه المراحل التاريخية والمسافات الزمنية ادراكا بصريا محسوسا ،
والمقارنة بينها بسهولة . . .

ما هو التاريخ ؟

ينبغي ان تكون دروس التاريخ حية ، وهى لا تكون حية الا اذا استعملنا الاشياء الميثة ، اذ يكفى ان نفخ فيها الروح ، وان نعيد اليها الحياة لنجعلها تكشف الغطاء عن الماضى وتقص على تلاميذنا مباشرة قصة الزمن الغابر ، واننا لو فكرنا قليلا لادركنا ان التاريخ موجود حولنا ونحن عنه غافلون ، لاننا لا نلاحظ ، ولا نتأمل ، ولا ننتبه للحوادث التى تمر امامنا ، والتى يتكون منها التاريخ . . .

فان المهن والحرف ، واساليب الحياة ، ووسائل التنقل والاسفار ، والازياء واللباس ، ان كل ذلك فى تطور مستمر ، ويمكن لمن لم يتجاوز حتى الخمسين سنة من عمره ان يدرك ان منها ما زال وانقرض واضمحل ، ومنها ما نشأ وظهر منذ مدة قريبة ، ومنها ما هو فى طريق الزوال والاضمحلال . كان التنقل والاسفار فى العربات التى تجرها الخيل والبغال ، فصرنا نمتطى متن القطار ونركب السيارة ، ولا نكتفى بذلك بل نطير فى الفضاء ، وكانت الحروب بالسيوف والرمح ، فاصبحت بالمدافع والمصفحات وحتى بالقنابل الذرية ، وكيفية جلوسنا وكيفية حديثنا واجتماعاتنا ، وكيفية اكلنا وشربنا ولبسنا ، وكيفية مراسلاتنا واتصالاتنا . . كل ذلك قد تطور وما زال يتطور . . .

وكل ذلك هو التاريخ .

فلنتحدث عن المهن والصنائع التى ماتت واضمحلت وذهبت فى طي النسيان ، ولنسال عنها ابناءنا واجدادنا الموجودين بقيد الحياة ولنبحث عن الاسباب الداعية الى موتها وزوالها . . . وهناك مهن اخرى لم تمت ولم تضحل بل نراها قد تطورت وتقدمت وتحسنت ، فلنبحث عن حالها فى الماضى ، ولنقارن ذلك بما صارت اليه فى وقتنا الحاضر ، ولنبحث عن العوامل التى ساعدت على ذلك التطور ، ويمكن ان نقول مثل ذلك فيما يتعلق بوسائل التنوير ، ووسائل التدفئة . . ووسائل الكتابة ، وهلم جرا . وكل ذلك هو التاريخ .

على انه لا يمكن ان نصل الى نتيجة عامة الا اذا قمنا بتلك الابحاث والدراسات في جميع انحاء البلاد التونسية ، اذ ان هذه الاشياء لا تضمحل ولا تنشا ولا تتطور في جميع الجهات في وقت واحد او بكيفية واحدة ، فان التمدن يتسرب قليلا قليلا ، وان الرقي لا يعم دفعة واحدة بل يظهر في جهة قبل اخرى ، وربما لا يصل الى بعض الجهات بتاتا فتبقى على حالها البدائية ٠٠٠ وهذا ايضا ما يجب معرفته والبحث عنه وعن اسبابه بواسطة الاسفار والسياحات والمراسلات المدرسية وتبادل الآثار ، وكل ذلك هو التاريخ .

فان ادوات الطبخ ، ومواعين الشرب والاكل ليست متماثلة ومتشابهة في جميع انحاء القطر التونسي . . وعلى الاخص يمكن ان نلاحظ ان اساليب الحياة ووسائل العيش بالمدن هي غير تلك الاساليب والوسائل بالقرى والحقول والارياف ومن هنا ندرک اتساع هذه الموضوعات وهذه الدراسات والابحاث والمقارنات . فهي مترامية الاطراف ، كثيرة المسالك ممتدة الافاق ، وهي منجم لا ينفد ، وكنز لا يفنى ، منجم كله تشويق ، وكنز كله رغبة واهتمام ونشاط بالنسبة للمعلم والمتعلم على حد سواء ، وحتى بالنسبة للاباء انفسهم خصوصا اذا وقع طبع نتائج هذه الابحاث والتدقيقات الهامة في المجلات المدرسية ووقع تبادل هذه المجلات وتوزيعها في جميع الانحاء والاقطار .

اننا لسنا في حاجة اليوم الى ذم وانتقاد تعليم التاريخ مثلما هو موجود ومثلما نفهمه ، وهو الذي يركز على استعمال الكتب ويختصر في نطاق البرامج المسطرة فهذا التعليم الميت هو بدون شك مخالف للفهم الحديث ، وان ما نشاهده من نحالة ان لم نقل من سخافة ما تبقى من هذا التعليم ينبغي ان يفتح بصائرنا وان يدفعنا الى نبذ تلك الطرق العقيمة ، والاقلاع عن تلك الاساليب البالية التي لا تشرف المعلمين ، ولا تدله على صواب الراى ورشاد العقل .

اذن فلا بد من اظهار ما في تعليم التاريخ بتلك الاساليب العتيقة من الاضرار والاعطال ، فهو معاكس للاهداف التربوية على طول الخط ، فلنتساءل ماذا يتبقى بعد الانتهاء من الدراسة ، في ذهن الشبان مما هو تاريخي باتم معنى الكلمة فهل نجد في حافظتهم فكرة جليلة وواضحة حول الحوادث الماضية ؟ وهل نراهم اكتسبوا فكرة وقادة وقريحة نقادة ، وهل ادركوا معنى المقاومة والجهاد المستمر ليتمكن لهم القيام بعد ذلك بدور المواطنين العاملين ؟ وهل نراهم قد ادركوا

معنى التطور ؟ وهل تصوروا معنى الثبات فى العمل ؟ ومعنى المجهودات المبذولة فى جميع الميادين للتحصيل على مستقبل احسن ؟ وهل تكون فيهم على الاقل شغف وحب للبحث النزيه وادراك صحيح لمعنى التاريخ . وهو ما يمكن ان نسميه (بالحاسة او الملكة التاريخية) .

ان الابحاث والتجارب التى وقع القيام بها فى بعض الاوساط الشعبية بفرنسا فيما يتعلق بما يتحصل عليه الاطفال من المعلومات التاريخية ، قد اقامت الدليل على عدم صلوحية (ان لم نقل على خطر وضرر) التعليم التاريخى المجرد الجاف الذى لا يتفق مع ما يتطلبه الطفل ، فلا يندمج مع روحه ، ولا ينفرس فى نفسه ، ولا يكون شخصيته . وهذا ما ايده ايضا تلکم الاجوبة المضحكة التى يجيب بها التلاميذ احيانا فى مختلف الامتحانات والاختبارات .

ان التاريخ التقليدى قد نشأ وتكون من ابناء الجبايرة والرجال العظام ، ومن سرد الحوادث المتتابعة والاخبار اليومية . ولذلك ترى تاريخنا المحلى زاخرا بالحديث عن العائلات العظيمة والعريقة فى المجد والشرف ، من ولاة وامراء وزعماء وابطال واغنياء وتذكرنا اسمائهم بماضى البلاد . اما الشعب فهو لا يظهر فى كل ذلك الا من بعيد ، او لا نراه بتاتا ، فهو مقنع ، ملثم ، جامد ، مجهول ، لانهم بشانه اكثر من اهتمامنا بطائفة من النمل ، وهو يتصيب عرقا ، ويكدويعمل لتحقيق قوت هؤلاء الجبايرة وهذه الطبقة الممتازة التى استحوذت على التاريخ كله واحتكرته ، وملأت صفحاته باسماء افرادها . وبجميع جزئيات وکليات حياتها .

اما اعمال الشعب وانتاجات الجمهور فهى غفل ، واصحابها مجهولون لا يؤبه لهم ، ولا يهتم بامرهم ، ولا يلتفت لشانهم . فهم يكسبون ويعملون وينتجون . . . ولكنهم لا يتركون اثرا لاعمالهم ولا ذكرا لنشاطهم ، وهم يمرون مرور الاشباح ، ويزولون زوال النمل والخيال ، ويذهبون فى طي النسيان وزاوية الاهمال كأنهم لم يكدوا ولم يعملوا ، بل كأنهم لم يكونوا ، ولم يوجدوا على هذه الارض بتاتا . ومع ذلك فان الشعب وجد وعاش ، وهو مازال عائشا وموجودا ، وهو قد كد وعمل وانتج ، وما زال يكد ويعمل وينتج . . . للجميع ، ولفائدة الجميع ، وهو الحافظ للحضارة والمؤمن عليها من اول الدنيا ، بل هو الذى نمى الحضارة وقواها وشيدها شيئا فشيئا الى ان صارت مثلما نشاهده اليوم . فالشعب هو الذى يسيطر على العالم بعظمته وبدوامه واستمراره وبقائه اذ الفرد يزول ، والشعب يبقى .

ولذا ينبغي ان يكون مكانه فى التاريخ هو المكان الاول، ومركزه هو المركز الاسمى . وان العصر الذى كان التاريخ فيه عبارة عن سرد اسماء الملوك والامراء والزعماء والحروب والوقائع والاشراف والعظماء واصحاب الاموال ورجال الثراء ، ان ذلك العصر قد انقضى وزال . ونحن نقول الآن ان ذلك لم يكن بالتاريخ الحقيقى الكامل ، ولم يكن كل التاريخ ، اذ اننا قد اهتممنا بالحقير الذى بهرنا عظمتة الوهمية، واغفلنا الشعب واحتقرناه واهملنا شأنه ، مع انه فى الواقع هو كل شئ ، وهو مادة التاريخ الحقيقى ، واهم عنصر من عناصره . فكيف نرضى بتاريخ لا مادة فيه ولا روح ولا حياة ؟

وزيادة على ذلك فان واجبنا ، بصفتنا مكلفين بتربية الشعب ، يدعونا الى فهم التاريخ فهما جديدا ، والى جعل غايته رامية الى معرفة تطور الحضارة المقامة على اكتاف الشعب ، والتحصيل على الحريات بفضل كد الشعب ، وبفضل مجهوداته ، خصوصا وان قاعات التعليم ملثانة بانباء العمال الذين سيصبحون بدورهم عمال المستقبل .

نحن نعتقد جميعا ان الكفاح الوطنى البشرى لتحقيق مستقبل سعيد هو كفاح العمال ، وان القوة فى سواعدهم ، وفى عزيمتهم ، وفى ارادتهم التى تدفعهم الى الكد لفائدة الجميع ، واننى تسييرهم جميعا كرجل واحد نحو التقدم والحضارة .

وان التاريخ الحى الذى يحكى لنا مراحل ذلك التمدن ، ومراحل تلك الحضارة السائرة دائما الى الامام ، فى تقدم مستمر، وفى تجديد مستمر ، رغما عما يعترضها احيانا من العراقيل ، وعما يصادفها من الموانع ، وما يتسلط عليها من الصدمات ، وما يعترئها من الانهزامات . . . ان هذا التاريخ الحى هو الذى يملأ عامل الغد ثقة وحزم ويدفعه الى مواصلة السير فى صعود مستمر لا ينتهى الا بانتهاء الحياة .

فمن الضرورى حينئذ تغيير نظريتنا تماما فى الهدف الذى نقصده من وراء تعليم التاريخ . اذ ليس هذا الهدف رياضية فكرية غايتها حشو ادمغة الاطفال بالتواريخ الجافة والحوادث والوقائع حتى ولو كان ذلك لازما بالنسبة لامتحانات غير معقولة . اننا نسمى بهذا التعليم اكساب ابنائنا ثقة فى مثال الانسان . فالتاريخ يثبت التقدم والرقى بالادلة والمؤيدات ، لا ذلك الرقى السهل المنال ، القريب ، المأخذ ، ولكن الرقى الذى هو عبارة عن كفاح عنيف ، وجهاد مستمر ، كفاح وجهاد نرى فيهما قوة الانسان ، وعزيمة الانسان ، تكون

ونزيل ، وتبنى وتهدم فى وقت واحد ، نرى فيهما القدرة الغريزية المزروعة فى البشر تعمل وتكافح للتخلص من القيود وللاندفاع بكل قوة نحو الحرية ونحو الامن والطمأنينة ، ونحو التقدم والازدهار... وكما ان التاريخ ينبت لنا ذلك ويؤيده ، فهو فى الوقت نفسه ينفى وينبذ وينكر كل استسلام مهلك ، وكل خضوع قاتل . وان العمل وان الكد ليتطلبان ارادة قوية فولاذية . فلا ينبغي ان يطاوى الظلم والطغيان رؤوسنا او يقوس الجبروت ظهورنا ، بل ينبغي بالعكس ان ينسج اعصابنا ويوتر ارادتنا للمقاومة حتى الانتصار النهائي . ومن هنا نفهم وجوب استعمال طريقة جديدة لتعليم التاريخ، ولا بد من بذل الجهودات للخروج من هذا الضلال المبين . ولكن لا فائدة فى ايجاد حلول نظرية فوق الورق ، بل ينبغي ان نجد حلولاً عملية تناسب الوضعية الراهنة ، وان نجعل الغاية من تعليم التاريخ معرفة حياة الشعوب ووسائل عيشهم ، وان نجعل الطريقة التعليمية مرتكزة على الوثائق والاثار والرسوم والمعالم والاشياء المحسوسة .

وان هذه الوثائق وهذه الاثار موجودة بكثرة فى كل مكان، ويمكن التحصيل عليها وجمعها شيئاً فشيئاً بالبحث والتنقيب والمراسلة والمبادلة :

— ادوات وآلات كانت مستعملة فى الماضى (حتى قبل بدء التاريخ)
— اشياء من الفخار والطين قبل بدء التاريخ ، او من الدور
القرطاجنى ، او الرومانى ، او العربى : مصابيح ، قناديل ، صحاف ،
مواعين للاكل والطبخ ...

— نقود ومسكوكات قديمة ...

— قطع من الفسيفساء — رؤوس اعمدة رومانية او عربية، الخ...
فيمكن حينئذ تكسيون (متحف تاريخى) بالمدرسة ، متحف متواضع ولكن مفيد ... وهذا لا يتم الا اذا كان المعلم مهتماً بالامر كل الاهتمام واذا كان فكره متجهاً نحو تحقيق هذا المتحف، ومشغولاً ومشغولاً بذلك .

كما تفيد ايضا الزيارات لغاية تاريخية ، زيارة الاثار والمعالم القديمة (قرطاج — طينة — قصر الجم ... الخ) وحتى البناءات القديمة الموجودة بالبلدة التى يعيش فيها التلاميذ (جامع — ضريح) — بالجملة فانه ينبغي فحص كل الجهات التى ترك فيها التاريخ آثاره ، وينبغي استجواب الاطال ومناداة الانقاص ، والاتصال بحفظة ديار التحف والاثار ، وانتهاز حسن استعدادهم للتحصيل

على فوائد تاريخية جمه ، وعلى وثائق ومستندات ذات قيمة تاريخية
 ٠٠٠ ويجعل المعلم كل ذلك مطابقا وملائما وموافقا لحاجيات تعليمنا .
 وعند ذلك فقط نبعد عن (الثثرة التاريخية) ، وعن الكلام
 الفارغ ، ونصير مع تلاميذنا مؤرخين باتم معنى الكلمة . وهذا يدل
 دلالة واضحة على ان تعليم التاريخ كما ينبغي فهمه - لا كما نسير
 به عادة - هو امر شاق وشاق جدا ، وهو يستدعى بذل مجهودات
 عظيمة ، ويتطلب نشاطا كبيرا وطويلا ٠٠٠ وليس هذا من شأنه ان
 يفت في ساعدنا ، او يضعف في عزائمنا ، فنحن خلقنا للعمل والنشاط
 لنا ، ونحن له ولا نريد عنه بديلا ٠٠٠

ولكن هذه الوثائق وهذه الانار ليست كل شيء في دروس التاريخ
 بل الهم من ذلك هو الفكر والدماع المكلف بايجاد تلك الوثائق
 وتلك الاتار والمكلف بتاويلها وشرحها والاستفادة منها . فالبحث
 عن الوثائق ينبغي ان يكون مبنيا على التفكير . فنحن نرجع دائما
 في النهاية الى المعلم . فهو الاول والاخر وهو كل شيء فلا تصالح
 الوثائق ولا تفيد ، ولا توجد علينا بمارها الا به . وماذا عسى ان
 تفيد الوثائق الميته المتراكمة بمتحف المدرسة او بقاعة التعليم بدون
 مقدرة المعلم وخبرته وذكائه ومهارته وتحمسه لتدريسه . فان تراكم
 هذه الوثائق المبعثرة ربما يكون ضرره اكثر من نفعه ، وربما اعان
 على ادخال الهوش والاضطراب والتشويش في اذهان التلاميذ .
 فقسط المعلم لا يستهان به في هذا الميدان ، فهو الذى يسطر التصميم
 ويقوم بدور الترتيب والتنظيم والارشاد وهو الذى ينفخ الروح في
 تلك الاتار الميته وتلك الاشياء الجامدة ، فتصير ناطقة حية ، تعبر
 عن زمن او عصر له مكانه الخاص بين الازمنة والعصور .

ولا يتأتى له ذلك الا اذا كان متشبعاً بمادة التاريخ وكان يتصور
 التاريخ في مجموعه تصورا جليا واضحا لا غموض فيه اما اذا كان
 لا يعرف الا القدر الضئيل الذى يريد تلقينه التلاميذ فماله الحية
 والخسران ٠٠٠



كيف نعلم التاريخ؟

اعتبارات بيسكولوجية

الطفل وتصور الزمن : ان الزمن بالنسبة للكبير الراشد هو اطار يرتب فيه ما يعرفه مباشرة من حوادث حياته الخاصة والاجتماعية او ما توصل الى معرفته بطريقة غير مباشرة من حوادث بعيدة عنه سواء في الزمان او في المكان .

فبالنسبة لكل حدث قريب او بعيد نجد احداثا سابقة او متقدمة اتت قبله واحداثا اخرى لاحقة تبعته واثت بعده واحداثا وقعت في الوقت نفسه — فهناك حينئذ « قبل » و « بعد » و « في نفس الوقت »

ويمكن للراشد ان يتجوله ويتحرك بفكره في الزمان وان يرتب الحوادث ويؤرخها حسب ازمائها . غير ان معرفة الماضي هكذا ترتبط بمسألة « المنظور التاريخي » *La perspective historique* .

فان بعض العصور تبدو لنا كأنها محشوة وملانة ومنتفخة وكأنها اطول من غيرها وهذا ما يصوره بكيفية بارزة الخط الخلزوني الذي يمثل الزمن والذي نرسم به اهم التواريخ . فالمنظور التاريخي يتعلق بالمحتوى الثقافي والعمراني بالنسبة لعصر من العصور فما علينا الا ان نتصفح كتابا من كتب التاريخ وان نقارن بين عدد الصفحات المخصصة لآلاف من سنوات الحضارة المصرية وعدد الصفحات المخصصة لعصر المأمون الذي لا يتجاوز بعض عشرات من السنين .

وهذا يبين لنا ان المعرفة التاريخية حتى بالنسبة للكبير الراشد لا تخلو من مشاكل وصعوبات .

غير ان هذه المشاكل هي اكثر تعقدا وتشعبا منها بالنسبة للطفل الصغير وذلك لانه لا يتحصل على فكرة الزمن ولا يصير قادرا على تصوره الا تدريجيا وشيئا فشيئا . فهو في البداية لا يعيش الا في

الحاضر وان مرور الزمان الذى هو منغمس فيه ينظم قايلا ويتدرج من الوقت الخاص به الى الوقت الاجتماعى ثم فى النهاية الى الوقت المجرد والاشخصى او الزمن التاريخى .

فاما الوقت الشخصى اى الخاص بالطفل فهو وقت ذاتى ، باطنى، حادث فى النفس تختلف مدته وتتغير وتطول وتقصر حسبما يشعر به الطفل من صجر وملل او فرح وانبساط . فهو يرى مثلا ان بعض الدروس طويلة جدا كانه لا نهاية لها بينما ان الراحة دائما قصيرة تذهب وتمر كلمح البصر . . .

واما الوقت الاجتماعى فهو يدخل شيئا فشيئا فى حياة الطفل ، والمدرسة من العوامل التى تضمن نموه وتحقق اكتماله : فهناك ايام التعليم وهناك يوم الجمعة ويوم الاحد وهناك اوقات الدخول واوقات الخروج بكيفية منتظمة .

وهذا التطور يطابق التطور العام لعقل الطفل ويتماشى معه : فهو عندما يبلغ عمره ثلاث سنين يصير يميز بين الحاضر والماضى والمستقبل القريب بدون ان يتصور المدة الزمنية وطول الوقت وقصره ، وهذا التصور الاخير يحصل شيئا فشيئا بقدر ما يدخل الطفل فى الحياة الاجتماعية ، ويكون هذا التصور مرتبطا بهمم اليومية والرزنامية ، وعلى كلها امور اجتماعية بحتة ، وانماء نروته اللغوية وتزويده بالمفردات الدالة على الوقت والزمن لاسنعمالها بدقة وعن فهم وذلك مثل الالفاظ التالية : الامس - الغد - بعد الغد - البارحة - اليوم - الخ . . . وان الطفل الصغير فى اول الامر لا يتصور مسألة المدة واذكر ان طفلا صغيرا عمره ثلاث سنوات سألنى مرة عن العيد فاجبته بان العيد سيأتى بعد ثلاثة ايام فسكت قليلا ثم قال : كم مرة نذا ننام ثم نستيقظ ؟ فقلت له : ننام ثم نستيقظ . . . وننام ثم نستيقظ . . . وننام ثم نستيقظ ففهم عند ذلك وتصور المدة التى مازالت تفصلنا عن العيد . . .

وعند ما يبلغ الطفل الثامنة من عمره فهو وان نظم وقته الذاتى الممزوج بالوقت الاجتماعى ، نراه ما زال لا يتصور الزمن التاريخى وهذا التصور يتكون فيه شيئا فشيئا ابتداء من ذلك العمر . وعندما يقارب العاشرة فهو يصير قادرا نوعا ما على تخيل الماضى وعلى تمييز الماضى البعيد من الماضى القريب والماضى التاريخى من ماضيه الشخصى .

ومن الامور التي ينبغي الانتباه اليها هو ان هذا التطور المتعلق بتصور الوقت والزمان يتم مع تطور آخر منله يقع في نفس الوقت وبنفس تلك الكيفية فيما يتعلق بتصور الفضاء والمكان . فالطفل ينتقل من الوسط الجغرافي الذي يعيش فيه والذي هو محيط به الى الفضاء الجغرافي المجرد والذي يبنه الخيال مثلما ينتقل من الوقت الذي يعيش فيه الى الزمان البعيد الغابر الذي يتخيله العقل .

ومن جهة اخرى فان هذا التطور يكون مصحوبا بالذهاب تدريجيا من فهم الزمان مقطعا ومقسما ومجزءا الى تصوره متسلسلا ذا حوادث متلاحمة ومتصلة حلقاتها في سلسلة التاريخ وبذلك يمكن للتاريخ المتسلسل والمركّز على الشرح والبحث التاريخي ان يحل شيئا فشيئا محل القصص التاريخية ورواية الحوادث العرضية

الطفل والملكة التاريخية

تكتسب **الملكة التاريخية** (Le sens historique) تدريجيا ، وتكون في الطفل في الوقت الذي ينمو فيه شعوره بمرور الزمن .

والملكة التاريخية تقتضي القيام بعدد من العمليات الذهنية المعقدة:

— **الرجوع الى الوراء في الزمن** باعتبار ذلك الزمن حقيقة موضوعية

يمكن ان يجعل الانسان نفسه خارجا عنها ويشرف عليها من فوق .

— **حصر الحوادث في الزمن** باستعمال نقط هامة في صورة علامات

واشارات معينة فوق السلم التاريخي الذي يقع دائما الرجوع اليه والاعتماد عليه .

— **احياء الماضي** وذلك باستعمال الخيال الذي يلبس الماضي حلته

المزركشة وينفخ فيه روح الحياة .

وزيادة على ذلك فان الملكة التاريخية لها صلة بمعطيات عقلية

وانفعالية من المفيد تدقيقها :

— **فاما من الناحية العقلية** (côté intellectuel) فان الملكة التاريخية

هي الشعور بتطور وبحركة مستمرة في الزمن فهي عكس ما يتصوره

عقل الطفل من سكون واستقرار وثبات . فهسي في شكلها الاول

والبسيط مرتبطة بفكرة انطواء الزمن ومروره، وتغير الاشياء وتحويلها

تم بعد ذلك ، اذا ازداد تركيبها ، تصير مصحوبة بفكرة البحث عن

الاسباب المتنوعة التي انجرت عنها تلك التطورات ، واكتشاف الدور

المشترك الذي تلعبه تلك الاسباب والعوامل : اسباب اقتصادية ،

اسباب سياسية ، اسباب اجتماعية الى غير ذلك .

والمملكة التاريخية هي ايضا نتيجة تفكير وتنظيم وترتيب حول
الحوادث التاريخية ، وهي تستلزم وجود فلسفة تاريخية ، لا تحتاج
وجوبا الى ان توضح فى صورة مذهب او بيان فلسفى ، ولكنها تكون
حاصلة ومتاتية من مجموع آراء ونتائج عامة تتجسم وتبلور تدريجيا
كلما تمارى درس الحوادث التاريخية المتعلقة بالماضى لزيادة تأييدها
وابتاتها .

- من الناحية الانفعالية (côté émotionnel) فان المملكة التاريخية
تتعلق بالكيفية التى يعرف بها الطفل حوادث الماضى وعلى الاخص
الانار التاريخية الصحيحة ، فهى عبارة عن رد فعل شخصى وان شئت
قلت عن « حالة نفسية » تصاحب ذلك التعرف والاطلاع .
فالمملكة التاريخية فى ميدان الانفعالات والتاثرات هى القدرة على
الاهتزاز والتاثر امام شواهد الماضى وامام آثار مجهودات المتقدمين
من اسلافنا خلال القرون الفائتة ، وهى ميل وعطف واكتشاف نوع
من الجوارى القرب الروحى بيننا وبين اشخاص فرق الدهر والموت
بيننا وبينهم الى الابد .

وتكوين المملكة التاريخية فى الطفل تناسب حينئذ درجة شدة
التاثر والانفعال التى يمكن توليدها فى نفسه وذلك بجعله فى هيئة
يتمزج فيها التفهم بالهبة والوقار والخشوع امام ما تشهد به الاطلاع
والاثر مهما كان نوعها ، وبجعله على احياء الماضى وتصوره تصورا
فيه روح وايحاء .

وليأتى تعليم التاريخ بكل مفعوله لا بد من ان نراعى معا تلك
الناحيتين : الناحية العقلية والناحية الانفعالية او التاثيرية ، وذلك
بالوقوف موقف الاعتدال والتوسط بين راي الاجتماعيين الذى يقتصر
على تاريخ الشعوب والحضارات والمدنيات باعتبارها كائنا مستقلة
عن الافراد ومجردة عن الحوادث ، ورأى التقليديين الذى يقتصر على
تاريخ الحروب والوقائع .

اعتبارات بيلاغوجية

- مشاكل ينبغى حلها : بما ان درس التاريخ هو قبل كل شىء
عبارة عن درس ملاحظة ، فالذى يهمننا هو حسن استعمال المراجع
والمصادر المتنوعة التى يمكن ان تكون تحت تصرفنا : آثار محلية
وتأثير تاريخية ، صور ، افلام ، اسطوانات ، الخ ...
وان طريقة استخدام كل نوع منها يختلف حسب الاحوال وينبغى
ان يكون متلائما مع الظروف .

– الوسائل والامكانيات المحلية :

لا يخلو مكان من اطلال وآثار واضرحة وقبور ومعالم ومساكن ومعابد ٠٠٠ كل هذه الحجارة تنطق وتتكلم ، وكل هذه الصخور تحكى لنا حكايتها ٠٠٠ ولكن ينبغي ان نصرف كيف نصغي اليها ونسمع كلامها ونفهم حديثها . وهذه هي اول صعوبة يصادفها المعلم نفسه كلما اراد ان يقدم الى تلاميذه من باديء ذي بدء بناء ايريا لم يقيم بدراسته من قبل اثناء زيارات كثيرة خاصة . وذلك لان الشرط الاساسى للاستفادة من الآثار المذكورة هو ان يبدا المعلم بدراستها بنفسه ، وان يزورها اولا ويعرف كل ما ينبغي معرفته في شأنها حتى لا يشعر بشيء من الحيرة والارتباك او يتورط في صعوبات تداهمه وتباغته اثناء الزيارة الرسمية عندما يكون مصحوبا بتلاميذه ، واذا كانت هذه الزيارات مخيبة للظن في غالب الاوقات بالنسبة للمعلم وبالنسبة للتلاميذ ايضا وخالية من كل فائدة ، فالسبب في ذلك هو عدم اخذ التدابير والاحتياطات اللازمة من قبل ، وعدم اعداد العدة لضمان النجاح .

وكل دراسة من هذا النوع لأثر تاريخي ينبغي ان يجرى على ثلاث مراحل :

– **المرحلة الاولى :** هي مرحلة ملاحظة وتنقيب . فما على المعلم الا ان يترك الاطفال يتاملون مليا حسب رغبتهم ، ويحسن ان تكون هذه الملاحظة موجهة ومسيرة باتباع طائفة من الاسئلة مرتبة ومدبرة من قبل تعين التلاميذ على حصر انتباههم واهتمامهم في نقط معينة ومحدودة .

– **المرحلة الثانية :** هي مرحلة عمل في قاعة التعليم يقع فيها تنظيم الانفعالات التي وقع تسجيلها ، وترتيب الانطباعات التي وقع جمعها والمذكرات التي وقع تدوينها ، والملاحظات التي وقع التقاطها مع تكملة كل ذلك بارشادات المعلم ودرس الرسوم والصور والمخطوطات والنصوص وهذا العمل يعتبر على غاية من الاهمية والفائدة لانه هو الذى يمكن الفرد من التزود بالمعلومات المراد اقتناؤها

– **المرحلة الثالثة :** تم يقع الرجوع مرة اخرى الى الاثر التاريخي لزيارة منظمة وموجهة احسن توجيه فلا يقع التأمل اثناءها الا فيما ينبغي رؤيته ومشاهدته والاهتمام به والذى يمكن من مكافحة المعرفة التاريخية بالحقيقة المحسوسة .

ونفس هذه الطريقة يمكن اتباعها فيما يتعلق بملاحظة ما يمكن جمعه من الوثائق كالتقود والخطوط والأشياء التاريخية والغنية المختلفة ، ففسير دائما حسب هذه المراحل الثلاث وهي :

– البحث والتنقيب والاكتشاف

– التأويل النظري والعلمي

– المعارضة والمقابلة بالحقيقة

الصور والنقوش :

وفد صارت هذه الصور موجودة بكثرة منذ مدة قريبة وذلك بفضل بروز (مصور التاريخ) (١) ومن المتأكد ان يبدأ المعلم قبل كل شيء بترتيب تلك الصور حسب اعدادها الترتيبية ليسهل عليه استعمالها فيما بعد .

ويمكن ان تستعمل الصور لاهد هذين الغرضين :

– يمكن ان تستعمل كنقطة ارتكاز وانطلاق للدرس فيصبح هذا الدرس حصّة ملاحظة باتم معنى الكلمة ، ويحمل المعلم تلاميذه اثناءها على استخلاص جملة من العلامات وطائفة من التسمائل والاصناف وذلك مثل ملاحظة اللباس والادوات القديمة والالات في الازمان الماضية . فالصورة هي الدرس او هي عماد الدرس وعند ذلك ينبغي حصر انباه التلاميذ والاقتصار على عدد قليل جدا من الصور او على صورة واحدة ، او احيانا اثنتين او ثلاث اذا اردنا بذلك المقابلة والمقارنة المفيدة .

– ويمكن ان تستعمل الصور لشرح الدرس وايضاها ، وعند ذلك يعرض المعلم عددا كثيرا منها اثناء الدرس ويشرحها بسرعة للأطفال ويمكنهم من رؤيتها نم بعد انتهاء الدرس يثبتها فوق لوح ماطور فتبقى معروضة على انظار التلاميذ مدة بضعة ايام يمكن لكل واحد اثناءها ان يلاحظ ملاحظة طويلة هادئة ويقرا ما بها من الشروح والتعليق .

النصوص

– يمكن ان يكون النص نقطة انطلاق الدرس فيستترك المعلم وتلاميذه في دراسته لاستخلاص معلومات تاريخية مفيدة تتعلق بالدرس ، وذلك مثل النص المتعلق بالتعريف بالبربر لابن خلدون .

– ويمكن ان يكون النص موضعا للدرس مثلما ذكرناه بالنسبة للصور .

مجموعة من الصور التاريخية تعد ١٧٥ صورة للمؤلف بمشاركة على بوسلامة

والشيء الذى ينبغى الانتباه اليه فى شان النصوص هو وجوب شرح لكثير من المفردات والانفاظ الخاصة بالتاريخ مع بيان ما يوجد بينها احيانا من التشابه او التباين او الفروق الدقيقة فى المعنى كقولنا : الامة والسُعب ، والدولة والحكومة ، والدستور والميثاق ، والاتفاقية والمعاهدة ، والديكتاتورية والديموقراطية . . . الى غير ذلك . . . وهذا عمل مفيد ومنمّر الى اقصى حد ولا يجوز اهماله .

الوسائل السمعية والبصرية

نحن نكتفى هنا بمجرد الاشارة الى هذه الوسائل لانها من سوء الحظ مازالت مفقودة بمدارسنا ومن واجبنا بذل المجهودات الكافية لاجادها وتزويد المعلمين منها لزيادة تسهيل العمل عليهم .
ونذكر من هذه الوسائل السينما والافلام ، وكذلك عرض الصور الثابتة وتمتاز هذه الصور الثابتة على الصور المطبوعة بكونها تمكن جميع تلاميذ الفصل من ملاحظتها بسهولة ، وتحصر انتباه الاطفال فيها وسط ظلام القاعة وتؤثر على خيالهم بما ينبعث منها من نور سحرى جذاب . وبهذه المناسبة ابشر السادة المعلمين باننا بصدد اعداد افلام ثابتة ستكون لهم خير عون يساعدهم على القيام بعملهم على احسن وجه .

وبجانب السينما وآلات العرض الثابتة ظهر اخيرا المخيال (édiascope) وهو آلة تمكن من عرض جميع انواع الصور والوثائق على الحائط او على الشاشة ولا يشترط ان تكون هذه الصور والوثائق فى شكل الاشرطة والافلام كما رايناه فى عرض الصور الثابتة .

وان التسجيل على الشريط المغناطيسى او على الاسطوانة لمسا يجسم للتلاميذ بكيفية محسوسة جانباً من الدرس متعلقا بالاصوات . فعندما نحدث تلاميذنا عن رطانة اللغة الليبية او البربرية فى القديم فانه يبدو من المفيد اسماعهم تسجيلا للشلحة مثلا ليتصوروا تلك اللهجة بكيفية محسوسة ويمكن ان يسجل تشخيص لزحف بنى هلال مثلا او لمعركة جامعة او لخطاب القاه احد الامراء او القواد ، الى غير ذلك . . .

درس التاريخ

اعداده - ان اعداد درس التاريخ ليس هو عبارة عن قراءة ذلك اندرس من كتاب او عدد من الكتب ليحشو المعلم ذهنه بطائفة من

الاحداث والوقائع المختلفة ، يعيدها فيما بعد على مسامع تلاميذه... .

ان هذا الاعداد يشتمل على ناحيتين هامتين :

اولا : ناحية اطلاع ، وتوطيد معلومات ، وجمع وثائق ووسائل
ايضاح مختلفة وانشاء القيام بهذه الاعمال يقرأ المعلم ويطلع
ليدقق معلوماته ويثبتها ، ويجمع الصور والاشياء التاريخية المتنوعة
ويرتبها ، ويزور المعالم والاثار ليدرسها درساً كافياً بنفسه ويرى
كيفية الاستفادة منها .

ثانياً : ناحية غريبة وتصفية وتسهيل ، وذلك باختيار ما هو صالح
ومفيد للدرس ، والاقتصار على الحوادث الهامة التي لا يمكن جهلها... .

فالعامل الاول هو عمل جمع وتكديس ، والعمل الثاني هو عمل
حصر واختيار واقتصار ، وهو ادق واصعب من الاول :

ويسجل المعلم هذا الاعداد كتابةً بمذكرته حسب التصميم التالي
تقريباً :

١ (الوسائل التي يمكن استعمالها

— خرائط جغرافية

بـ مخططات

— صور ورسوم

— نصوص

— زيارات وجولات

٢ (الغاية من الدرس

يبين المعلم باختصار ما ينبغي شرحه او تحفيظه

٣ (خطوات الدرس

يبين المعلم المراحل التي يسير عليها الدرس للوصول الى الغاية
التي رسمها مع ذكر الصور والوثائق التي يريد استخدامها والاستئالة
التي يريد القيامها

٤ (الخلاصة

من المفيد ان تحرر الخلاصة بمشاركة جميع التلاميذ وان تكون
واضحة وقصيرة وسهلة ولا تشتمل الا على مما لا بد من معرفته
وحفظه

٥ (ارتباط ذلك الدرس بدروس اخرى

يبين المعلم التمارين والاعمال التي فكر فيها لزيادة رسوخ الدرس

وليستمر رنينه في اذهان التلاميذ - مثل ذلك : تحفيظ القطعة الشعرية الخالدة للحسن بن رشيق واصفا مصيبة القيروان وذلك بعد درس يتعلق بزحف بنى هلال وفي هذه القصيدة يقول ابن رشيق :

فتفرقوا ايدي سبا وثشتتوا
بعد اجتماعهم على الاوطان

سير الدرس

- يبدأ المعلم بربط الدرس بما تقدم حتى يقع وضع الدرس الجديد في مكانه من الزمن بالنسبة لسير الحوادث المعلومة وتسلسلها . وان استعمل السلم التاريخي او الافريز التاريخي مما يساعد المعلم على ذلك ويزيد المسالة وضوحا بالنسبة للاطفال .

- ويقع استرجاع ما وقع درسه في الحصص الفائتة بواسطة اسئلة شفوية يسيروها المعلم بسرعة ومهارة .

- وينطلق الدرس الجديد من الاشياء المحسوسة التي اعدّها المعلم لتكون مصدرا للملاحظة والتفكير . فيعرض المعلم صورة واحدة ، او صورتين اذا كانت هناك مقارنة ومقابلة او يستعمل صورة بابتة من صور الافلام ، او يستخدم نصا مأخوذا من كتاب

ويقع عرض هذا الشيء في البدايه بدون شرح ، ويطلب المعلم التلاميذ بان يتاملوا فيه وهم صامتون ، وان يسجلوا ما اثار في نفوسهم او ادهشهم او اثار اهتمامهم . . . ثم يطالبهم المعلم بالقاء الاسئلة التي تثيرها في نفوسهم ملاحظة ذلك الشيء . فيجيب المعلم عن تلك الاسئلة موجه انتباه التلاميذ الى الغاية التي رسمها للدرس ، ثم يسال هو بدوره ليضمن تقدم الملاحظات والاكتشافات . وكلما تم الحصول على نقطة هامة قام المعلم بتدقيقها ووضعها في قالبها النهائي بمعونة تلاميذه ووقع التعبير عليها بجملة ترسم بالسهولة . وهكذا يتكون تدريجيا ملخص الدرس ويكون مرتبطا في اذهان التلاميذ بمراحل الدرس نفسه .

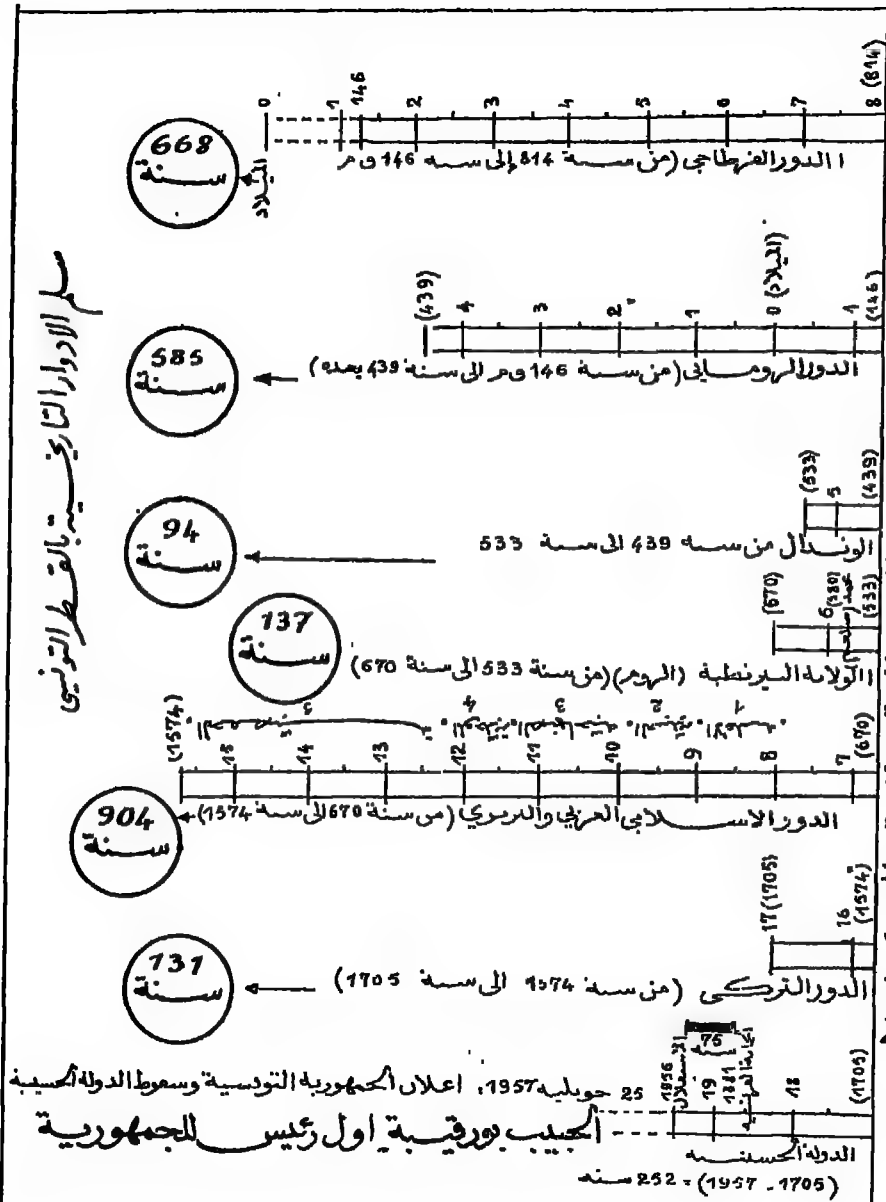
ونرى مما ذكرناه ان دور المعلم في هذا التعليم ليس هو دور اثرثة وكلام طويل والقاء بل هو دور ايجائي يجعل التلاميذ يلاحظون ويكتشفون بانفسهم مع تدخله من حين لآخر كلما كان ذلك مفيدا . هذا وان درس التاريخ هو في الوقت نفسه درس اخلاق وتربية اجتماعية وتربية مدنية قومية . . . لكن مع الاعتدال وبدون مغالاة،

لوحة ١
انظر الصفحة رقم ٦٣ من هذا الكتاب



راس ليبي (اى بربرى)

تمثل الصورة اعلاه راس ليبي منقوشا على الحجر الاسود وقع العنور عليه بهمامات
انطونان بقرطاج ويرتقى عهده الى نصف القرن السانى قبل الميلاد . وهو اجمل صورة
لراس ليبي خلفته لنا العصور القديمة . وهذا الراس مخلوق ومحل بصفيرة مثلما
نشاهد احيانا حتى الان عند بعض البرابرة وتلك - الشوشة - معجولة - للبركة -
- وهى تنتهى هنا بتيمية فى شكل الهلال ، الذى هو شعار الالاهة - تانيت -



اللوحة ٣
انظر الصفحة رقم ٤٥ من هذا الكتاب

لوحة ٤
انظر الصفحة رقم ٦٣ / ٧١ من هذا الكتاب



الليبيون كما رسمهم المصريون

قد صور المصريون جماعة من الليبيين (اللبو او البربر) في القرن الثاني عشر
قبل الميلاد كما نراه على هذه القراميد الموجودة بمسحف القاهرة (انظروا شكل اللحية
اللسنة .)

ومع جعل التلاميذ يدركون فائدة التعاون بين الامم ، وضرورة هذا التنازر والتعاقد الدولى لسعادة البشر ، فكما ان الانانية ممقوتة بالنسبة للفرد الذى ينبغى ان يشترك مع غيره ، فكذلك العنصرية مبعوضة بالنسبة لكل شعب ٠٠٠ وكما ان التعاون صار ضروريا بين الافراد فكذلك ايضا اصبح التكافل امرا لا بد منه بين الدول وهو من اكبر عوامل السلم ٠

فعلى هذا الشرط يكون درس التاريخ مفيدا اخلاقيا والا يكون ضرره اكثر من نفعه وينطبق عليه ما قاله (فاليرى) : (التاريخ هو اخطر شيء انتجه الفكر البشرى ، فان خصائصه معروفة ، فهو يحمل على الاحلام ، ويسكر الشعوب ، ويولد فيهم ذكريات خاطئة ، ويضخم انعكاساتهم ، ويؤجج احقادهم الكامنة ، ويزعجهم فى راحتهم ، ويقودهم الى جنون العقلة او هذيان الاضطهاد ، ويصير الامم ظالة ، متكبرة ، متجبرة ، متفترسة ، الى درجة لا تطاق ٠٠٠)

ونختتم القول بهذه الحقيقة الهامة وهى ان قيمة الدرس وبصفة عامة قيمة التعليم كله فى قيمة المعلم وفى قدرته ومهارته وخبرته الصناعية وحسن تصرفه وتمكنه من اسرار المهنة ولذلك فان التوجيهات البيداغوجية التى بسطناها لا تكون مفيدة مثمرة الا اذا اجاد المعلم تطبيقها واحسن التصرف فيها ، والله الهادى الى طرق الصواب ٠



بدء التاريخ

اللوبيون او الليبيون (البربر)

التعريف باللوبيين والليبيين (البربر)

كانت بلادنا التونسية تعرف باسم (لوبيا او ليبيا) وكان سكانها يطلق عليهم اسم (اللبو او اللوبيين او الليبيين) حتى ان (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليونانى الكبير الملقب بابى التاريخ او شيخ المؤرخين ، والذى عاش من ٤٨٤ الى ٤٢٥ ق.م. وزار بلادنا فى ذلك العهد البعيد ، كان يسميها (لوبيا) ويسمى سكانها (اللوبيين) .
اما الاشراف والنبلاء من بين الليبيين فقد كانوا يعرفون باسم (الامازيغ) وهم الاحرار من العائلات الارستقراطية .

وقد اطلق الرومان على سكان افريقية فى القديم لقب (بربرى) وكانوا يطلقون هذا اللقب عادة على كل شخص غير مثقف وغير متكلم باللغة اللاتينية وينتمى الى جماعات متاخرة وخارجة عن الدائرة الرومانية كسكان جرمانيا وغاليا فى القديم ، ولم يكن ذلك خاصا باجدادنا وقد ابقى العرب من بعدهم تلك التسمية وصاروا يطلقون على اجدادنا لقب (البربر) ومن جملتهم المؤرخ الكبير ابن خلدون الذى اشتهر بكتابه المعروف :

(كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، فى ايام العرب والعجم والبربر)

وقد قسم ابن خلدون البربر الى ثلاثة اقسام :

١ - البرانس وهم ابنا (برنس بن بر بن مازيغ) وهم قبائل وشعوب جبلية مستقرة اكثرهم بجزبال الاطلس (المغرب) ومنهم مصمودة : وهذه القبيلة تتفرع الى شعوب وبطون كثيرة ، ومن بطونها هرغة فى جبل السوى باقصى بلاد المغرب فيها نشا (محمد بن تومرت)

الملقب بالمهدى ، وهو الذى اسس الدولة الموحدية وانتصر على المرابطين ، وازال دولتهم ، وخلفه بعد موته تلميذه (عبد المؤمن بن علي الكواهي) الذى انقذ بلادنا من استيلاء النرمان ، واطردهم من المهديّة سنة ١١٦٠ او سنة الاخماس الهجرية اى سنة ٥٥٥ هـ .

ونجد البرانس ايضا بجبال الريف ومنهم غمارة ، او بجبال زواوة (شمال الجزائر) ومنهم كتامة وصنهاجة الذين شددوا ازر الدولة العبيدية الفاطمية ثم تكونت منهم الدولة الصنهاجية الزيرية ٠٠٠ او بجبال اوراس (بالجزائر) وذلك المكان هو قلب افريقية الشمالية النابض ومنبع الثورات التحريرية والمقاومات ضد كل اجنبى دخيل منها كان نوعه ، ومنهم قبيلة اوربة التى منها كسيلة ، وقبيلة جراوه ومنها الكاهنة ٠٠٠ وهذه القبائل الموجودة بجبال اوراس التى كانت قاومت الرومان ، وقاومت العرب ، واعانت صاحب الحمار فى ثورته ضد العبيديين ٠٠٠ هى التى نراها اليوم تقاوم الاستعمار الفرنسى بهمة لاتثنى وعزيمة ثابتة لاتلين

٢ - البتر وهم ابناء (مادغيس الابتر بن بر بن مازيخ) وهم قبائل بدوية رحالة وجمالة منهم سكان بلادنا التونسية من نفزاوة ونفوسة وهوارة ولواته ولماية بجربة الخ ٠٠٠

ومن البتر ايضا قبائل زناتة ومكناسة وورفجومة ، وهم بطون وشعوب كثيرة ٠٠٠

٣ - الملمثون وهم قبائل الصحراء بالجنوب يجعلون لثاما ازرق على وجوههم ، ومنهم الطوارق وقبائل لمتة وملتونة والتوات والملمثون من صنهاجة بالصحراء بجنوب المغرب الاقصى ، وهم غير صنهاجة البرانس الموجودين بجبال زواوة مع قبائل كتامة والذين كانوا كما ذكرناه عمالا واعوانا للعبيديين ، بل هؤلاء الملمثون من صنهاجة وملتونة هم الذين كونوا دولة المرابطين التى تحكمت فى المغرب تحت قيادة يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش سنة ١٠٦٣ واستمرت الى ان ازال سلطانها الموحدون كما ذكرناه

ويقول المستشرق الكبير (ويليام مارسى) بان تقسيم البربر الى البرانس والبتر والملمثين يرجع فى الحقيقة لا الى نسبتهم الى جددهم الاول الذى كان اسمه برنسا او مادغيسا الابتر او غير ذلك بل ترجع تسميتهم الى نوع اللباس :

— فالبرانس : كانوا يلبسون البرنس وهم مازالوا كذلك الى يومنا هذا مثلما نراه عند المغاربة بالمغرب الاقصى . وهذا اللباس يشتمل على غطاء للرأس

— والبتس : كانوا يتركون راسهم عاريا ولا يلبسون برنسا مشتملا على غطاء للرأس ولذلك كان لباسهم ابتر

— والمثمون : هم قبائل الصحراء الذين يجعلون لثاماعلى وجوههم فالمسالة هي حينئذ مسالة لباس لامسالة انتساب الى احد الاجداد الاوليسن .

ويقول العلامة ابن خلدون في التعريف بالبربر :

(١) البربر « ١٠٠٠ البربر جيل من الآدميين، سكان المغرب على القدم ملأوا البساط والجبال من تلولة واريافه وضواحيه وامصاره ١٠٠٠ »
* * *

(٢) مساكنهم : « ١٠٠٠ يتخذون البيوت من الحجارة واطين ، ومن الحصا (١) والشجر ، ومن الاشعار والاوزار ١٠٠٠ »
* * *

(٣) معاشهم : « ١٠٠٠ ويضعن اهل العز منهم والغلب لانتجاع (٢) المراعى فيما قرب من الرحلة لايتجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفر الاملس ، ومكاسيهم الشاة والبقر ، والحيل في الغالب للركوب والانتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب اهل النجعة (٢) منهم ، شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم فى الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين من اهل الانتجاع والاطعان (٣) فى نتاج الابل وظلال الرماح . وقطع السابلة ١٠٠٠ »
* * *

(٤) ملابسهم : « ١٠٠٠ واكثر اثاثهم من الصوف ، ويشتملون (٤) بالاكسية الملعمة (٥) ، ويفرغون (٦) عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالخلق ١٠٠٠ »
* * *

(٥) لغتهم : « ١٠٠٠ ولغتهم من الرظانة الاعجمية متميزة بنوعها ،

(١) الخصاى (مفردة الخصى) هو البيت من القصب — (٢) الانتجاع والنجعة : طلب الكلا فى مواضعه (٣) الاطعان : الهوا د وهى دليل على السير والترحال (٤) اشتمل بالثوب : التف به وادواه على جسمه — (٥) الملعمة : الملونة او التى عليها علامة — (٦) الفرغ : عليه انزل عليه

وهى التى اختصوا من اجلها بهذا الاسم ٠٠٠ « (اى اسم البربر)

٦ (قبائلهم : « ٠٠٠ والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة وهى :
هواره ، وزناثة ، وضريسة ، ونفزة ، وكثامة ، ولواتة ، وغمارة ،
ومصمودة ، وصنهاجة ٠٠٠ »

٧ (اخلاقهم : « ٠٠٠ واما تخلق البربر بالفضائل الانسانية ،
وتنافسهم فى الخلال الحميدة ، وبما جبلوا عليه من الخلق الكريم ٠٠٠
من عز الجوار ، وحماية النزيل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على
المكاره ، والثبات فى الشدائد ، ٠٠٠ فلهم فى ذلك آثار ينقلها الخلف
عن السلف ٠٠٠ وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من
شريفها ، ان قادتهم الى مراقى العز ، حتى علت على الايدى ايديهم ٠٠

وما كان للبربر من الانار ما يشهد اخباره كلها بانه جيل عزيز على
الايام ، وانهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد باسهم ، كثير جمعهم ،
مضاهون لامم العالم واجياله من العرب والفرس والروم «
(من تاريخ ابن خلدون)

واللهى يميز الحياة الاولى قبل بدء التاريخ هو :

١ (الرمادات او الرمادات التى يبلغ طولها احيانا ١٥٠ م وعرضها
٥٠ م وارتفاعها ١٢ م والنى يوجد فيها كميات كبيرة من الحزون ،
اذ كان البدائيون من اجدادنا يطبخون الحزون فى قشور بيض النعام
وذلك بعد تسخينها فى الماء بواسطة حجارة حامية

٢ (النقوش والصور على الصخور : وهو ما يسمى عندنا بالحجارة
المكتوبة . وهله النقوش التى حفرها الاقدمون بالات من الصوان
او بفرون الحيوانات وكذلك الصور التى رسموها بالمغرة تمثل غالبا
الحيوانات التى كانت موجودة فى ذلك الوقت (الفيل ، الزرافة ،
النعام ٠٠٠) وعلى الاخص التى كانوا يعبدونها ويقدمونها (مثل
الكبش والثور) خصوصا بجهة الجزائر

٣ (الاسلحة الكثيرة من الحجارة او من الصوان . ويسمى السلاح
من الحجارة او الصوان بالنظر جمع طران ولذلك يطلق على تلك العصور
التقدمة اسم (العصور النظرية) ، وتنقسم حسب التدرج فى الرقى
والحضارة الى :

- العصر الباليوليتى او عصر الحجر المنحوت
- العصر الميزوليتى او عصر الصوان

– العصر النيوليتى او عصر الحجر المصقول واستعمال الفخار
وانتهى العصر النيوليتى باستقرار الاجناس البشرية منلما نراه
موجودا فى وقتنا الحاضر

وقد اقبل كثير من الباحثين والمؤرخين على التنبش والتفتيش
والتنقيب لمعرفة اطوار هذه العصور الحجرية ومراحل هذه الصناعات
والحضارات البدائية بافريقية الشمالية •

والمناجم الاتربة التى يفحصونها لكشف اسرارها تكون :

– اما سطحية اى على وجه الارض

– او مدفونة اى مطورة تحت الارض

– او منفذه اى ذات طبقات بعضها فوق بعض حسب ترتيب
المدنيات المتتابة والمتعاقبة • وهذا النوع الاخير هو اكثر فائدة من
الناحية التاريخية • فبهضاب المقطع مثلا (وهو منجم انرى بالقرب
من مدينة قفصة) نجد القفصى الاعلى (Gaspien Supérieur) بالطبقة
العليا ثم نجد تحته القفصى المئالى (Gaspien Typique) الذى يمثل
مدنية اقدم وابعد من الاولى •

ونذكر من بين هؤلاء الباحثين :

١- آرمبورغ (Arambourg) الذى اكتشف منجم (عين الحنش)
شرقى ستيف بالجزائر وعثر فيه على الكرويات وهى شبه كرات من
الحجارة ذات وجوه (Sphéroïdes à Facettes) وهى الوجوه التى
فيها شىء من التجويف تدل على انه وقع تحت هذه الاحجار حتى انه
يظهر على جوانبها احيانا آثار خدوش نشأت عن الطرق والقرع، وقد
بقيت زواياها فى الغالب ناثئة وحدودها بارزة غير كلية ، ويبلغ
حجم كل واحدة منها حجم الرمانه او البرتقالة اى ما يملا يد الانسان
مما يدل على كونها كانت تستعمل للرمى او للدق والتكسير •

وهذه الاحجار ، رغما عن خشونتها ، فهى تدل على وجود آثار
صناعية اولية جدا بدات فى الحقبة الرباعية التى ظهر فيها الانسان
على وجه البسيطة ، ولذلك يمكن اعتبارها من الانار الاولى الدالة على
ظهور البسرية ، واعطاؤها رتبة اول انتاج بشرى وقع فى اقصى
بداية العصر الباليوليتى •

نم انه وقع العثور فى نفس ذلك المكان اى بعين الحنشى على احجار ذات وجهين (Bifaces) وهى من مميزات العصر الباليوليتى الاسفل اى بداية ذلك العصر ايضا ويمكن اعتبارها كدرجة ارقى من الكرويات المتقدمة .

وبما انه وقع اكتشاف هذه الصناعة الاولى بالمكان المعروف بعين الحنشى فانه يمكن تسمية ذلك الطور (بالطور الحنشى) وهو يقابل كما بيناه بداية العصر الباليوليتى .

ونحن نجد بالفطر التونسى اسلحة وادوات حجرية ترجع الى الطور الحنشى وذلك بمنجم سيدى الزين . وهل عرفت اين هو هذا المنجم ؟ انك اذا خرجت من مدينة الكاف واخذت طريق الجزائر متجها نحو ساقية سيدى يوسف الشهيدة وسوق اهراس ، فانك تجد بالكيلومتر العاشر تقريبا هذا المنجم الاثرى بسيدى الزين وهو يتشتمل على ثلاث طبقات متراصفة تحتوى على الاحجار الكروية الشكل وعلى الاحجار ذات الوجهين التى تتعلق كلها ببداية العصر الباليوليتى وتعتبر من الطور الحنشى اى من نوع ما وقع العثور عليه بعين الحنشى بالجزائر . ويرجع الفضل لهذه الاكتشافات الانثوية النفيسة بالفطر التونسى الى الابحاث والتفتيشات المدققة التى قام بها الدكتور

غوبير (Dr Gobbet) . وهو الذى اكتشف ايضا المناجم الانثوية الموجودة (برقوبة الحلو) و (رقوبة عين السلطان) قرب مدينة قفصة التى تحتوى كلها على صناعة حجرية اولية من الطور الحنشى ايضا وهو الطور الذى يطابق الطور النسل (Chellieu) ثم الامشولى (Acheulieu) بفرنسا نسبة الى مدينة (شله) بمقاطعة (السين والمارن) والى مدينة (سان اشول) بمقاطعة (الصيوم) بفرنسا .

٢٠ - ريفاس (Reygasse) الموظف الادارى بمدينة تبسة وهو الذى عثر على المنجم الاثرى المدفون بسباسب الحلفاء قرب مجرى وادى الجبابة وقرب جبل العنق وبئر العتير على بعد ٨٤ كم تقريبا جنوب تبسة ، وهو الذى اكتشف بذلك المنجم الطور الذى سماه بالطور العتيرى (L'Atérier) نسبة الى بئر العتير . ويمتاز هذا الطور بادواته التى هى ذات ساق تدخل فى مقبض (Outillage Pédunculé) ويقابل هذا الطور وسط العصر الباليوليتى تقريبا (الباليوليتى المتوسط) .

ونجد بالقطر التونسي مناجم اثرية لها علاقة بهذا الطور قرب
عيون قديمة ، وذلك بوادى العكاريت مثلا (جهة قابس) ، وبالقطار
(قرب قفصة) ، وعين المترجم (قرب جبل الشعنبي والحدود
الجزائرية ، شمال بوشبكة) وسيدى الزين (يبعد ١٠ كم غربى
مدينة الكاف) . ونحن نجد فى منجم عين المترجم طبقتين : الطبقة
السفلى وهى المدفونة تتعلق بالطور العتيرى والطبقة العليا التى
على سطح الارض ترجع الى الطور القابسى المثالى .

٣ - بالارى (Pallary) وهو معلم بمكتب ابتدائى بسيط
بمدينة وهران ، وهو الذى اكتشف الطور الذى اطلق عليه اسم
(ايبيريو - موريسان (Ibéromaurisien)) ، ومن الاحسن تسميته
(بالطور الوهرانى) مثلما اقترحه الاب برائى (l'Abbé Breuil)

ويمتاز هذا الطور بكثرة الصفائح والصفائح والشفرات ذات حد
وكل ، اى فيها قفا وقع اسقاط حده ، وتكون احيانا فى شكل هلال
مستطيل . وبالجمله فان هذا الطور هو عبارة عن مجموعة صفائح
متشابهة ، حفيرة ، خشنة ، بعيدة كل البعد عن جمال «المجوهرات»
والتحف التى نجدها فى الصناعة القفصية ، وهى ايضا خالية من
الادوات ذات الاشكال الهندسية من شبه منحرفة ومثلثة ومستطيلة
والتي هى من مميزات الطور القفصى . وان الطور الوهرانى يأتى
بعد الطور العتيرى المتقدم ، ويسبق العصر النيوليتى ، اى يمكن
جعله فى آخر العصر الباليوليتى (الباليوليتى الاعلى) .

ونجد بالقطر التونسي مناجم اثرية تتعلق بالطور الوهرانى او
الايبيريو - موريسان بالتلول الرملية بوشتاتة على السواحل
الشمالية ، وكذلك بالطبقة السطحية بوادى العكاريت قرب قابس
وبسيدى منصور ولالة قرب قفصة .

* * *

ورغبة فى ايقاظ همم ابنائنا المعلمين بالجمهورية التونسية الفتية،
وفى حمز نشاطهم وحثهم على العمل نقول لهم ان زميلهم (بالارى)
قد نال شهرة كبيرة بابحاثه العلمية واكتشافاته التاريخية . فكثر
عدد المعجبين به خصوصا من افراد اسرة التعليم واقاموا على شرفه
الاحتفالات وشربوا على نخبه فى الاجتماعات ، ولما احرز على جائزة

المجمع العلمي اقوا الخطب المسهبة والقصائد الرنانة لنمجيده ، نذكر
من ذلك هذه الابيات باللغة الفرنسية طبعاً :

« ...Quand tous y prétendaient, un seul a réussi,
Continuant l'effort, à parfaire la tâche :
Paul Pallary, sois fier ! Du lien qui nous attache
À toi, noble chercheur, nous sommes fiers aussi !
Les triomphes des fils sont doux au cœur des mères,
Et l'Ecole du peuple est en fête aujourd'hui :
Le rayon glorieux qui sur ton front a lui,
Vaut un frisson d'orgueil à nous tous, les PRIMAIRES ! »

٤ - الدكتور غوبير (Dr Gobert) الطبيب والمؤرخ الشهير والبحاث
بنونس ، قام بتفتيشات على غاية من الاهمية بجهة قفصة بالجندوب
التونسي وهو الذي اكتشف الطور القفصي بمرحلتيه :

- مرحلة القفصي المثالي (Tyrique) او القديم (Ancien) ويمتاز
على الاخص بوجود المنقش الزاوي الراس le burin وهو منقش
برد راسه في شكل زاوية زوجية ، وكذلك بوجود الادوات ذات
الاشكال الهندسية (شبه المنحرف) وتقابل هذه المرحلة العصر
الميزوليتي قريبا

- مرحلة القفصي الاتلي (Supérieur) ويمتاز بوجود مناقش
صغيرة جدا (Microburiens) وادوات دقيقة ذات اشكال هندسية
(شبه المنحرف اولاً ، ثم المثلث المختلف الاضلاع ، ثم المستطيل)
وهو ما يدل على تقدم كبير في الصناعة . وتقابل هذه المرحلة آخر
العصر الميزوليتي واولل العصر النيوليتي .

وقد انحصرت المناجم التابعة للطور القفصي بالقطر التونسي
جنوب الظهرية بدون ان تبعد اكثر من ١٥٠ كم . عن قفصة من
الجهتين الشمالية والشرقية

* * *

وان المراكز والمناجم التي وقع نبشها وفحصها حتى كشفت لبنا
القناع عن المدنية القفصية تسمى بالرماديات او (الحلزونيات
(Escargotières) والسبب في هذه التسمية هو كثرة اصداف الحلزون
ووفرة الرماد المتراكم بتلك المناجم المنتشرة ما بين تبسة وقفصة ،

ومنها اخذنا اسماء بعض هذه الاماكن مثل (عين ببوش) قرب عين الدراهم و (رمادة) بالجنوب التونسي ويرى بعض المؤرخين والباحثين مثل (ريفاس) ان اصل مدينة فرنسا بل اوروبة باسرها في طور من اطوار العصر النيباليوتي هناك وهو (الطور الاورينيكي) . . . يقول ان اصل هذه المدينة نشأ عن قوم هوجات من رجال المدينة القفصية الى اوروبة ، وذلك لان آثار هذه المدينة الموجودة بالمناجم بالمراكز القفصية سبقت في التاريخ نفس تلك الآثار الموجودة باوروبة والتي هي من نوع ما وقع العنور عليه بمدينة (اورينيكا) بفرنسا ولذلك لقبوا ذلك الطور (بالطور الاورينيكي) عندهم وهو يقابل (الطور القفصي) عندنا . ومن هذا نفهم ان (الطور القفصي) بافريقية هو من نوع (الطور الاورينيكي) باوروبة . وبما ان المدينة القفصية متقدمة وسابقة بالنسبة للمدينة الاوربية فيما يتعلق بذلك الطور ، فان هذا يقيم الدليل على ان هذه المدينة القفصية انتقلت الى اوروبة مع من نزح اليها من بلادنا .

ويؤيد الاب براى (L'Abbé Breuil) نظرية ريفاس ويقول : « من المحتمل جدا ان هذا التأثير الافريقي وصل الينا بقلوم الافريقيين عن طريق اسبانيا وان وجود شبه في الخصائص البشرية لما يلعب النظرية القائلة بوجود هذه التقدمة الافريقية »

ونقرا ما يلي في الجزء الاول من (المختصر الكبير) لاروس ص (١٥٩)

« Quel qu'ait été le développement de son intelligence, l'homme de Néanderthal n'apparaît plus à la fin du moustérien que comme une forme attardée de l'humanité ; une invasion d'hommes nouveaux venant d'Afrique, par l'Italie et par l'Espagne, répandra une mentalité différente, provoquant la naissance de l'art.

On peut se demander quel attrait pouvait bien attirer les tribus, qui abandonnaient les contrées à climat tempéré de l'Afrique pour chercher aventure en des régions transformées en steppes par le glaciaire.

C'est le mystérieux inconnu des migrations des peuples ».

(Grand Mémento Larousse - Tome I - p. 159)

« وهذا ترجمة النص : مهما بلغ نمو الرجل النيندرتالي (اي الاوروبي) فهو لم يعد يظهر في آخر الطور المoustérien الا في شكل انسان متاخر، وان هجوم رجال جدد، قادمين من افريقية، عن طريق ايطاليا

واسبانيا ، هو الذى سيثبت عقلية مغايرة ، تنبنى عليها وتنجبر عنها نشأة الفن .

ويمكن ان نتساءل ما هى الامور الجذابة التى اغرت هؤلاء القبائل وجعلتهم يهجرون اقطارا ذات طقس معتدل بافريقية ، لاقتحام مغامرات وسط جهات صيرها زمن الجليد بورا ...

ذلك هو لعمري السر الخفى حول هجرات التسعوب ، فان جميع هؤلاء المفكرين قد انبتوا بالادلة القطعية والابحاث العلمية المدققة ان تيار الحضارة والفن كان منبعثا من افريقية التسمالية ومتجها نحو اوروبة ، وان نزوح الافريقيين وهجرتهم الى الاقطار الاوروبية هو الذى نشأ عنه مولد الفن .

وان الادلة التى استند عليها المؤرخون لتدعيم نظريتهم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال مسألة دفن الموتى ، فانه ابتداء من الطور (الاورينيكاى) تغيرت عادة المتعلقة بدفن الموتى عند بعض الاوروبيين ، وذلك باقتباس عادة قدماء الليبيين المعروفة عند سكان شمال افريقية ، فهم كانوا ، عندما يدفنون موتاهم ، يتنون اعضاءهم لتكون لهم هيئة مقرفصة محنية ، ويصبغون جثثهم باللون الاحمر ، فتبقى عظامهم بعد ذلك مصبوغة بذلك اللون . وقد وقع العثور على مثل هذه الهياكل العظيمة ، فى تلك الهيئة وبذلك اللون فى قبور كثيرة بفرنسا ، ولم تكن تلك العادة معروفة عندهم بتاتا قبل قدوم الافريقيين ... او ربما كانت تلك الهياكل العظيمة لموتى افريقيين وقع دفنهم باوروبة حسب عادتهم المألوفة لديهم ...

وكان الليبيون او البربر اجناسا من البشر كثيرة واحيانا غير متسابة . فهناك فرق مثلا بين (القبائلى) الذى هو مصفح او مستطيل الراس ، كبير القامة اشقر الشعر ، وبين (الميزابى) الذى هو اصعل او مفلطح الراس ، صغير القامة ، اسود العينين والشعر ، وبين (الطارقى) من ملهى الحجار الذى هو طويل القامة طويل الذراعين ، ضيق القفص الصدرى .

وهذه الفروق فى الخصائص البشرية ، وهذا الاختلاف فى السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات احيانا كما سنبينه فيما بعد يرجع بدون شك الى اختلاف فى اصل البربر . فقد ذهب معظم الباحثين الى ان البربر ينتسبون الى سلالتين : الاولى هى سلالة هندية اوروبية يافثية (منسوبة الى يافث بن نوح عليه السلام)

نزحت الى افريقيا من الهند وآسيا واوروبة عن طريق اسبانيا او ربما كانت تابعة لزحف (شعوب البحر) انهدية الاوروبية انتى اشارت اليها اوثائق المصرية القديمة من عهد الفراعنة الرمسيين ، اما السلالة الثانية فهي سلالة عربية سامية (منسوبة الى سام بن نوح) واللفة الليبية او البربرية (الشلحة والقبائلية والشاوية) لم يزل يتكلم بها جانب كبير من البربر لا سيما فى المغرب الاقصى (فى بلاد السوس الصحراء وفى الريف) وكذلك فى جبال زواوة وعند القبائل بالجزائر . اما فى القطر التونسى فلم يبق لها اثر الا فى جزيرة حربة او بعض جهات مطماطة .

وقد ذكر لنا (ابن خلدون) ان اللفة البربرية فيها رطانة وعجمة وشيء من الصعوبة والتعقد ، وقد كان الرومان ينفرون من تعلمها لما كانوا يجدون فيها من خشونة مستهجنة وذلك مما دعاهم الى تسمية اصحابها (بالبربر) . وكانوا يقولون انه « يتعذر على غير حناجر البربر ان تستطيع النطق باسماء قبائلهم ومدنهم » .

وقد كان اللوبيون يستعملون للكتابة حروفا تعرف بالخط اللوبى مثلما وجد منقوشا على الصخور ببعض جهات الصحراء ، ومثلما وجد منقوشا على احدى الحجرتين اللتين كانتا بضريح ماسينيسا بدقة واخذهما قنصل انكلترا سنة ١٨٤٢ ونقلهما الى متحف لندن British Museum وهما موجودتان فيه الى الان تحت العددين ٤٩٤ (الخط اللوبى) و ٤٩٥ (الخط البونيقي)

وهذا الخط مستعمل عند الطوارق المنمين ويسمى عندهم (تافيناغ) وجملة من يتكلمون الان باللغة البربرية يبلغ عددهم ستة او سبعة ملايين او يزيدون مبعثرين وموزعين فى جماعات مختلفة تتفاوت اهمية وكثرة .

فاما بالمملكة الليبية فنسبة المتكلمين باللغة البربرية تبلغ ٢٧ فى المائة من مجموع سكان تلك المملكة ،

واما بالجمهورية التونسية فنسبتهم اقل من ٢ فى المائة من مجموع السكان ، ونجدهم كما ذكرناه بجزيرة حربة وبعض قرى واماكن بالجنوب التونسى ،

— واما بالجزائر فنسبتهم تبلغ ٣٠ فى المائة من مجموع السكان . ومنهم (القبائل) وقد تاتروا كثيرا باللغة العربية فدخل جانب كبير من الفاظها فى لهجتهم . وكذلك سكان جبال اوراس ٠٠٠ وفى اماكن اخرى مبعثرة كجنوب تلمسان

— واما بالمغرب الاقصى فاللغة البربرية حافظت على كيانها ولهجاتها الاصلية وتبلغ نسبة المتكلمين بها خمسة واربعين في المائة (٤٥ ٪) من جملة السكان وتجدهم على الاخص في الريف وجبال الاطلس والسوس وفي الصحراء بصفة عامة .

ويمكن تقسيم اللهجات البربرية الى ثلاثة اقسام اصلية واساسية:

— **اللهجة الترناتية** (ليبيا — تونس — الجزائر ما عدى لغة القبائل)
— **اللهجة المصمودية** (شلق المغرب بجبال الاطلس — وبلاد السوس)
— **اللهجة الصنهاجية** (القبائل بالجزائر — الطوارق بالصحراء)

غير انه لا يجوز ان نفهم مما ذكرناه الا شيئا واحدا ، وهو وجود فرق في اللهجات يتعلق باللغة لا اكثر ولا اقل ٠٠٠ ومن الغلط الكبير ان يتبادر الى الذهن ، او ان نتوهم ولو لحظة واحدة ، كما يقع ذلك غالبا ، ان الانقسام الى متكلمين بالعربية ومتكلمين بالبربرية ، قد نشأ عن انقسام عنصري الى عرب من جهة ، وبربر من جهة اخرى . فهذا الظن خطأ محض ولا يتفق مع الحقيقة والواقع اذ ان المسألة في الحقيقة ليست سوى استمرار اللهجات البربرية في الجهات الجبلية لمناعتها وصعوبة الوصول اليها من طرف الفاتحين ، واضمحلال هذه اللهجات البربرية في الجهات الاخرى لتحل محلها لغة جديدة اكثر مطابقة وملاءمة للحاجيات الاجتماعية .

اما العنصر فقد بقي واستمر عنصرا واحدا في طبائعه وخصائصه ومميزاته وخصائه وعاداته ، وهذا من شأنه ان يسهل الوحدة السياسية والتكتل والاندماج لتكوين شعب واحد ، لولا الافراط في حب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية ، وهذا داخل ضمن وحدة الطبائع والمميزات .

واننا اذا استثنينا بعض الامراء مثل ماسنيسا ويوغرطة (قبل الميلاد) وبلكين بن زيري الصنهاجي وعبد المؤمن بن علي الكومي الموحدى وغيرهم ممن بذلوا مجهودات كبيرة ونشاطا عظيما لتكوين شعب موحد ٠٠٠ راينا ان الذى يميز القبائل البربرية من العهد القديم هو الافراط في حب الاستقلال الشخصي والحرية الفردية ، الشيء الذى يؤدى الى الانانية والانقسام والتشتت والفوضى ، وعدم وجود فكرة الانضمام والوحدة والتكتل ، وكان ذلك من اهم الاسباب فى ضعفهم وفى استيلاء الاجانب عليهم بكيفية مستمرة ومتتالية . وقد بدات تظهر للوجود فكرة الوحدة وتكوين كتلة مغربية .

او فيديرالية تعرف باسم المغرب العربي الكبير ، وذلك اخيرا بعد استقلال تونس والمغرب وفي انتظار استقلال شقيقتنا الجزائر ، وبهذا التكتل يمكن ان نحقق للمغرب العربي الكبير مستقبلا زاهرا من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية اذ بذلك فقط يمكن لنا ان نكون من الضعف قوة .

ولا يتم هذا الا اذا قاومنا جميعا ذلك الطبع المتغلغل فينا منذ اقدم الازمان وتلك النزعة المسؤومة التي تدفعنا بدون ان نشعر الى الانقسام وعدم التكتل

يقول الاستاذ عثمان الكعاك في ذلك : « ٠٠٠ خطوة الوحدة المغربية لا بد منها لانها هي الظاهرة السياسية المغربية طال الزمان ام قصر واجب من احب وكره من كره »

خلاصة ما تقدم

كانت بلادنا التونسية تعرف باسم ليبيا (وكانت غير منفصلة عن ليبيا الموجودة الان بل كانتا بلادا واحدة) وكان اجدادنا يطلق عليهم اسم الليبيين . وكانوا يتكلمون اللغة الليبية وهي تشبه لهجة القبائل بالجزائر وهي اللهجة التي سمعها في الاذاعة باللغة القبائلية من باريس

- دخول اللوبيين التراب المصري (القرن ١٣ ق م)

من العصر النيوليتي الى عصر الحجر المصقول ، الذي انتهى باستقرار الاصناف والاجناس البشرية الموجودة الان الى دخول الرومان واستيلائهم على بلادنا نرى ان التاريخ لم يتحدث عن اجدادنا اللوبيين الا عرضا كلما اتصلوا بشعوب اخرى وقد انبت لنا التاريخ ان اللوبيين قد حاولوا مرات عديدة الاستيلاء على مصر وقاموا بهجمات متكررة

- وهكذا نرى ان (رمسيس الثاني : من ١٢٩٨ الى ١٢٣٢ ق م بعد ما رد احدى غزواتهم ، ادخلهم في جنده وحشدهم في جيشه تحت قيادة الضباط المصريين وحارب بهم الهاتوسيين من سكان آسيا الصغرى الذين ارادوا التوسع بالاستيلاء على المملكة الفينيقية التي كانت تحت نفوذ مصر . فالتقى بجيشهم الذي كان يقوده ملكهم

(موائل) وذلك قرب مدينة (حلب) وانتصر عليهم وهلك عدد كثير من الهاتوسيين فى مياه نهر العاصى

— ثم بعد موت (رمسيس الثانى) خلفه ابنه (منوفتاح) (من ١٢٣٢ الى ١٢٢٤) وفى ايامه اعاد اللوبيون الكرة وهجموا على (الدلتا) سنة ١٢٢٠ ق.م. وعلى راسهم ملكهم (موراىو) ومعه جيوش جرارة من اللوبيين والمشائسة الذين كانوا قاطنين جنوب شط الجريد . والتقى الفريقان ودارت رحى الحرب مدة ستة ايام فكانت مجزرة شنيعة هلك فيها ما يزيد على ٢٣٠٠ ليبيا واسر ما يقرب من عشرة آلاف ضمهم الفرعون المصرى الى جيوشه . وهكذا ابتعد الخطر مؤقتا ، غير انه سيعود مرة اخرى فيما بعد .

— ثم تولى (رمسيس الثالث : ١٢٠٠ - ١١٦٨ ق.م) وتوالى هجومات اللوبيين فى عهده على (الدلتا) وكان رمسيس الثالث ينتصر عليهم فى كل مرة ويأسر منهم خلقا كثيرا يضمهم ايضا الى جيوشه تحت قيادة الضباط المصريين . ومن كان يظن او يتوقع ان من بين هؤلاء الاسرى سيظهر امراء من مدينتى (بوسطيس) و (سايس) ويتقلدون الملك ويحكمون البلاد المصرية بكل عز وفخر ؟

وكان هناك خطر آخر يدهم البلاد المصرية من الشمال وهذا الخطر الرهيب لا يتمثل فى هجوم شعب بانفراده ولكن فى زحف مهول قادم من اوروبة ومصطدم بالعالم الشرقى .

. وهذه الجموع والشعوب الكثيرة الاوروبية الهندية كانت تحالفت بقصد الغزو والتوسع والانتشار ، وانضم اليهم جم غفير من نصوص البحر والقراصنة ، وعدد كبير من اللوبيين ايضا وهذه الشعوب الزاحفة هى التى سماها المصريون (بشعوب البحر) . فهجموا على الهاتوسيين وعلى بقية اراضى آسيا الصغرى ثم على جزيرة قبرص ثم على المملكة الفينيقية وكانوا يتلفون ويخربون كل شئ فى طريقهم الى ان اصطدموا اخيرا بالقوات المصرية وعلى راسها رمسيس الثالث فدمرهم تدميرا وكان من بين هؤلاء المهاجمين اقوام (الزكاريين) (الفلسطينيين) فاستقروا بسواحل (فلسطين) واستوطنوا تلك الجهة فصارت تعرف باسم (فلسطين) .

ونال رمسيس الثالث بهذا الانتصار فخرا عظيما . وصارت مصر

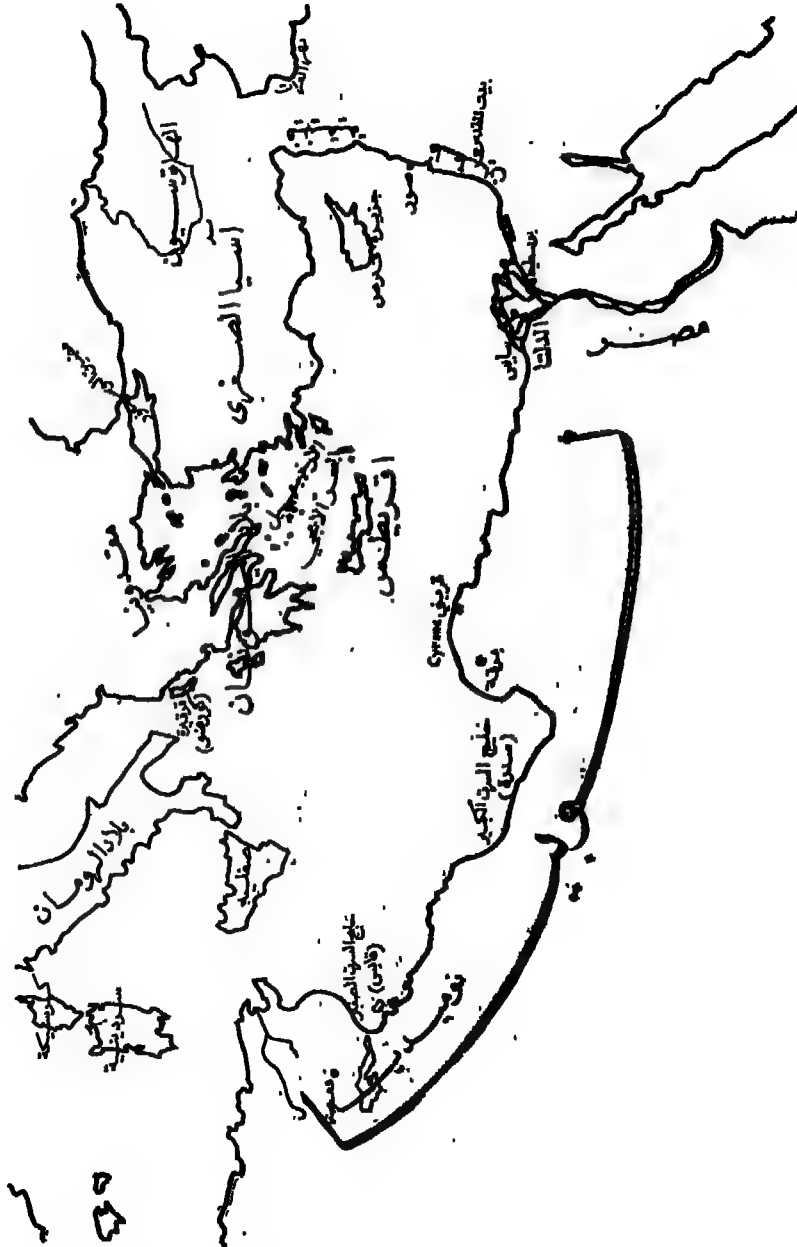
ارض سلم وراحة وهدوء . واجتنبنا لغارات اللوبيين المتكررة وسعيا وراء مصالحهم نهائيا اقامهم بالدلتا وهى اكثر الجهات المصرية خصبا وغنى ، فاستوطنوها وصاروا يسخرون من مراقبة اعوان الحكومة الفرعونية ولا يقيمون لها وزنا .

- وبعد ذلك وقع انتهاز فرصة وجود الفوضى التى اعقبت اضمحلال الفرعنة الرمسييين فبسط احد القواد اللوبيين الماجورين نفوذه على جهة (هيرقلو بوليس) بمصر الوسطى وفرض سلطته على المصريين ، وكان هذا القائد مقيما بمدينة (بوسطيس) بالدلتا (وهى مدينة الزقازيق الان) ، ونشأت هكذا عائلة مالكة توصلت شيئا فشيئا الى اخضاع كامل التراب المصرى ، ثم ان السابغ من ذرية هذا القائد وهو الامير (شيشوق الاول) زاد واستولى على (الدلتا) ووزع الاراضى على اللوبيين واسس العائلة المالكة الثانية والعشرين فكانت عاصمة ملكه ومقر حكومته (بوسطيس) التى تقدم ذكرها . ثم انه اعاد لغائلته الوحدة المصرية ، وزيادة على ذلك فقد ضمن لنفسه طاعة سكان (برة الاسقيط) التى تعرف الان (بصعيد مصر) وكانت قاعدتها (ثيبة) وتعرف اليوم بمدينة (الاقصر) بل كانت هذه المدينة عاصمة الملك فى الماضى ومدينة الاله الكبير (امون) وكان بها معبد ذلك الاله ٠٠٠ قلنا ضمن شيشوق لنفسه طاعة تلك الجهة كلها وذلك باسناد خطة الكاهن الاعظم بمعبد الاله امون الى ابنه وبالاقتصران بالعابدة اللاهوتية (كارومانة) وهى عابدة امون وحافطة تقاليد وحقوق الخلافة الملكية . واستمر شيشوق فى الملك قويا مظفرا منصورا من سنة ٩٤٥ الى سنة ٩٤٢ ق.م .

ولم يكتف شيشوق بانتصاراته فى مصر بل اعلن الحرب على (ربهام ابن سيدنا سليمان) لانتهاك حقوقه على فلسطين وانتصر عليه واستولى على بيت المقدس (سنة ٩٢٧ ق.م .) ولم ينصرف الا بعدما استحوذ على كنوز المسجد واموال الملك وخزينة الدولة واخذ كل تلك الثروة الطائلة معه ٠٠٠

ثم ان (شيشوق الاول) حاول الهجوم على الفتيقيين غير انه لم يكن موفقا ورجع خائبا .

لوحة ٥
انظر الصفحة رقم ٥٠ من هذا الكتاب



خريطة جزيرة افريطس والبحر الابيض والشعوب القديمة

لوحة ٦
انظر الصفحة رقم ٤٧ و ٧٩ من هذا الكتاب



Fig. 1. — Bataille de Ramsès III contre les peuples de la mer.

معاركة رمسيس الثالث لشعوب البحر (الاحقيين)

(d'après J. Rosellini, Monumenti Storici, 134)

لوحة ٧
انظر الصفحة رقم ٤٨ من هذا الكتاب



العابدة اللاهوتية (كارومانة)

انظر الصفحة رقم ٤٨/٤٩ من هذا الكتاب



وكذلك (المملكة النبطية) التي كانت تمتد في آخر القرن الثامن (١) من اول شلالات النيل الستة ، اى من (اسوان) الى بلاد الحبشة فانه لم يؤسسها الا اللوبيون ، وهم ملوك مدينة (سايس) بالدلتا ، فرضوا سلطانهم بارص (كوش) او ارض الحبشة بالجهة الجنوبية كما فرضها اخوانهم اللوبيون الشماليون باراضى الدلتا او مصر السفلى . وهكذا اسس ملوك مدينة (سايس) اللوبيون العائلة المالكة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين والثامنة والعشرين والتالين وصارت مدينة (سايس) فى مدة هؤلاء الملوك اللوبيين منبع حضارة لامعة ومدنية زاهرة وبهذه فى الفنون المصرية صارت نعرف الى يومنا هذا (بالنهضة السائسية) (Renaissance Saïssienne)

فانظر كيف ان اجدادنا اللوبيين فى عهد الفراعنه سبقوا ملوك المهديّة الفاطميين فى بسط نفوذهم على مصر وفى تخليد ذكرهم فى التاريخ بالمحامد والمفاخر !

خلاصة ما تقدم

فى عهد الفراعنه الرمسيين (رمسيس الثانى ورمسيس الثالث) هاجم اللوبيون الاراضى المصرية مرات كثيرة . ثم اسولوا على الدلتا واسسوا الدولة المالكة الثانية والعشرين واشهر ملوكها (شيشوق الاول) - كما اسس اللوبيون ايضا (المملكة النبطية) التي كانت تمتد بجنوب مصر من (اسوان) الى اراضى الحبشة .

احتكاكهم بالمدنية المصرية

وكان هؤلاء اللوبيون منقادين كل الانقياد لتوجيهات الاله المصرى (امون) وتعليمات كهنته ولم تسجل الاخبار مثل طاعة هؤلاء الاجانب المقيمين بالتراب المصرى لاله مصر . وان الاشعاع المنبعث من هذه العائلة المالكة والذي كان الليبيون الغربيون همزة وصل لا يصاله الى بلاد البربر هو الذى يفسر لنا انتشار عبادة الاله (امون) بالمغرب وحلوله محل الاكباش التي كانت مقدسة بافريقية وبمصر ايضا .

(١) فى سنة ٧٣٧ ق م . (اخر القرن الثامن) اسس الملك الليبى شاباقو العائلة المالكة الخامسة والعشرين .

ولم يتانروا بالجانب الدينى فقط بل تاتروا بكل المدينة المصرية
وعلى الاخص بالفلاحة والصناعة المصرية ، واستفادت بلادنا المغربية
من كل ذلك ايما استفادة .

وكان هذا التأثير مشتركاً ومتبادلاً بمعنى اننا اخذنا واعطينا .
ونفهم ذلك مما اثبتته شيخ المؤرخين (هيرودوتس) مثلاً من كون
الالهة (نايث) وهى الالهة النسج عند المصريين وكذلك الالهة
(اتينه) وهى الالهة الحرب التى تقابلها (مينرفا) عند اليونانيين .
يقول (هيرودوتس) انهما كانتا من اصل ليبيى . . . ويقول (روني
باسى René Basset) فى كتابه (النحو القبائلى) بان الكلمة
اللوبية (نيل) تدل على النهر او مجرى الماء ، وهو الاسم الذى وقع
إطلاقه على النهر المشهور بالبلاد المصرية . . .

الاتصالات بالاقريطين والفنيقيين واليونانيين - آثار ذلك الاتصال

من الامور الثابتة ايضا فى التاريخ اتصال الليبيين بعالم الحوض
الايجى وهو عبارة عن جزر كثيرة يتكون منها الارخبيل بالبحر
الابيض او البحر الايجى واهم هذه الجزر جزيرة اقريطس (او جزيرة
الكريت) التى كانت بها فيما قبل العصور التاريخية مدينة زاهرة
وحضارة فاخرة . ومن الاخبار المتناقلة ان كورويوس الاقريطى
كانت دفعته الزوابع مرة على السواحل الليبية ، فرجع اليها بعد ذلك من
تلقاء نفسه وباختياره بصفة ربان سفينة وتكونت بواسطته صلة
بين الليبيين والاقريطين . . .

ومن جهة اخرى فان اساطيل الملوك المينوسيين ، اى ملوك جزيرة
اقريطس ، وسفنهم كانت تاتى بلادنا الليبية لتزود من نبات السلفيون
او نبات كف العروس وكانوا يزرعونه ويهتمون بشأنه لخصائصه
الطبية . فهذا النبات الذى هو من نوع النباتات الحيمية يخرج مادة
صمغية قوية الرائحة تسمى (الحلتيت) ، كانت تستعمل فى القديم
للتداوى ، وهى ماازلت مستعملة عندنا الى الان لطرد الريح عند
الصغار ونسميها (الحنتيت) . وان جزيرة (كورفو) Corfu
اليونانية (انظروا الخريطة) كانت تسمى فى القديم جزيرة (قرقريرة)
Corcyre Kerkyra وهى جزيرة (الصقيرة) وطن الفياسيين
Phéaciens كما اورده هو ميروس فى ملحمة الاوديسيا المشهورة
ولا يبعد ان يكون هؤلاء الفياسيون هم الذين اسسوا مدينة الصخيرة
قرب مدينة قابس (لاحظوا الشبه الموجد بين الاسمين : الصقيرة

والصخرة) وان سكان الصخرة كانوا يعرفون في القديم باسم قبائل (زواقة) مثلما ذكره المؤرخ الكبير هيرودتس (٥٠٠ سنة : م) ويقول ايضا المؤرخ (ستيفان قسال) ان قبائل زواقة Zanèkes كانت تحتل جانبا من الساحل الشرقى بانقطر التونسي . وهنا نلاحظ ايضا الشبه الموجود بين (الفياسيين او الفواقيين على اختلاف النطق) من جهة (والزواقين او قبائل زواقة) من جهة اخرى ، خصوصا اذا عرفنا ان كثيرا ما يقع ابدال الفاء زايًا ٠٠٠ وسيحدثنا (البكرى) فيما بعد سنة ١٠٦٠ عن وجود قبائل (زواغة) البربرية ويقول انها كانت مقيمة بين خليج قابس وبلاد الجرايد ، وقد اشار المؤرخ (ابن خلدون) الى ذلك ايضا . ٠٠٠

ومن هذا يمكن لنا ان نقول بان قبائل زواقة التي اشار اليها هيرودتس هم الفياسيون الذين اتى ذكرهم في الاوديسيا قدموا لنا من جزيرتهم (الصقيرة) واسسوا (الصخرة) ، وصار يطلق عليهم اسم قبائل زواغة ٠٠٠

ومما لاشك فيه ان مدينة جزيرة (قرقيرة) اى مدينة الفياسيين من اصل اقريطى وذلك للصلة المتينة التي كانت موجودة بين الجزيرتين ٠٠٠ حتى ان جماعة من سكان جزيرة قرقيرة تعرفوا باخى (مينوس) ملك جزيرة اقريطس وهو الامير (رادا منطيس) فاستصحبوه معهم الى جزيرة البقر على السواحل افريقية الشمالية . وقد اورد هذا الحديث المؤرخ الالماني (برشار) Borchardt معلقا بان هذه الجزيرة، التي ورد ذكرها في الاوديسيا ايضا ، لا يبعد ان تكون جزيرة (طبرقة) الوفرة وجود الجواميس الوحشية فى السبخ والغياض بمصب الوادى الكبير المتألف من وادى سالم ووادى المحطب والذي ينصب فى خليج طبرقة ، ومن جهة اخرى فان تلك الناحية التونسية الشمالية كانت آهلة بالاقريطيين واليونانيين

ومما يؤيد نظرية المؤرخ الالماني المذكور فى تعمير البلاد التونسية بالاقريطيين واليونانيين اكتشاف صورة يونانية مرسومة فى احدى القبور المحفورة فى الصخور بغابة مقنة شرقى طبرقة وهذه القبور التى هى فى شكل كهوف تعرف عند سكان تلك الجهة باسم الحوانيجت ومفردها حانوت ، والصورة التى وقب العثور عليها تمثل سفينة حربية لها صار فى الوسط وشراع بشكل شبه

المنحرف ، ويظهر من مرآى تلك السفينة ومن هيئة ركابها ومن العدد والاسلحة ، وعلى الاخص من الفاس ذى الحدين او السنة (bipenne Crétoise) . . . يظهر جليا من كل ذلك وجود اتصالات ومعاملات بين التونسيين والاقريطين ، وبصفة عامة سكان الحوض الايجي قبل مجيء الفنيقيين .

ومن المحقق ايضا ان توسع الامبراطورية البحرية الاقريطية انجر عنه تأسيس مراكز تجارية على السواحل الاقريقية ، فانبعثت منها المدنية المينوسية . . .

اما تأثير الفنيقيين فقد اخذ يظهر ابتداء من القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وبلغ اهمية عظيمة بتأسيس قوطاج فيما بعد ، تلك العاصمة البونيقية التى هيمنت على تاريخ المغرب مدة ما يقرب من ألف سنة كما سنراه فى مكانه .

واما فيما يتعلق باليونانيين (الاغريق) فقد وقعت ايضا اتصالات كثيرة بينهم وبين الليبيين ، فهم الذين اسسوا مدينة (برقة) ومدينة (قرينى) بليبيا فى آخر القرن السادس عشر واخذوا عن الليبيين عوائلهم فى الدفن والماتم ، واقتبسوا منهم شعائرهم واديانهم ، وتزوجوا بنسائهم . . . ولكنهم اصطدموا بقرطاج ، فصدتهم عن محاولتهم فى الامتداد والتوسع ومنعتهم (مثلما منعت رومة ايضا) من كل اتجار مباشر مع الاهالى ، ولذلك فان الليبيين لم يتوصلوا الى معرفة الهندسة والصناعة والشعائر اليونانية الا بواسطة الفنيقيين ولم يتمكنوا من الاتجار الحر المباشر مع اليونان الا بعد سقوط قرطاج وان التاريخ يعيد نفسه ، وذلك لاننا فى وقتنا الحاضر ايضا لم نتجكن من ربط العلاقات التجارية مباشرة مع الدول الاجنبية الا بعد تحررنا من الاستعمار الفرنسى وحصولنا على الاستقلال .

غير ان اتصال بلادنا التونسية مباشرة باليونانيين والاقريطين كان موجودا حتى قبل الاستيلاء الفنيقى ، ويؤيد ذلك وجود الآثار والصور التى ذكرناها والتى تفيد وجود الاقريطين واليونانيين بجهات طبرقة . . . وزيادة على ذلك فان الاخبار التى اوردها قداماء المؤرخين الاغريقيين مثل هيرودوتس وغيره تشير الى مثل هذه الاتصالات المتوالية

ومن المفيد انتهاز هذه المناسبة للتحدث عن جزيرة عجيبة دخلت في صف الجرافات والاساطير وهذه الجزيرة هي (الاطلنطس) l'Atlantide التي ورد ذكرها في كتاب (قريطياس) لافلاطون الحكيم (من ٤٢٨ الى ٣٤٧ ق م) ونحن نشكر كل الشكر البحانة (صولينياك) M. Solignac الذي نشر دراسة قيمة حول هذا الموضوع بالمجلة التونسية سنة ١٩٣١ وعنوانها (الاطلنطس والجنوب التونسي) فكانت هذه الدراسة المفيدة منهلا صافيا عذبا سمحنا لانفسنا بالاغتراف منه ، فمن ذلك المنهل استقيننا وروينا ، وعن ذلك المصدر نقلنا وروينا .

يقول افلاطون ، نقلا عن استاذ سقراط ، نقلا عن تلميذه قريطياس ، عن جده ، عن صولون ، كاهن مدينة سايس بالبلاد المصرية انه كانت توجد جزيرة تدعى (الاطلنطس) كائنة وراء اعمدة هيرقليس ، وكان فيها معبد للالهة اثينة تريتونيس ، وان هذه الجزيرة قد انهارت وساخت بها الارض اثر انقلاب عظيم (زلزال او فياضانات او طوفان) ، فاضمحلت بين عشية وضحاها (وذلك ٩٠٠٠ سنة ق م تقريبا)

هذا هو ما ذكره افلاطون . وينهب البعض من العلماء الى ان هذه الجزيرة خيالية ، وهي مجرد صورة رمزية ، واسطورة من اساطير الاولين ، ويقول آخرون انها اسطورة لا محالة ولكن لها بدون شك نقطة انطلاق مركزة على حادث صحيح مطابق للحقيقة والواقع وليست مبنية على الفراغ خصوصا وان الادلة التي تثبت وجود هذه الجزيرة ، وتؤيد شهرتها في العالم القديم موجودة بكثرة في الاوديسيا وفي تاريخ هيرودوتس ، وفي رحلة سيلاكس ، وفي مؤلفات ديودورس الصقلي ، وغيرهم ، زيادة عما ذكره افلاطون في كتاب قريطياس . . . وهذه الجزيرة هي التي كان يسميها العرب (مدينة النحاس) وهذا التواتر بل هذا الاجماع يفيد الثبوت والصحة . . . ولكن اين كانت هذه الجزيرة ؟

لقد قام الاستاذ (بورشارد) الالماني من مدينة مونيخ M. Paul Borchardt بدراسة مدققة للموضوع ، وتعمق في البحث والاستقصاء ، واقامة الحجج والادلة مع كامل التحريات والتدقيقات ، وانتهى في آخر الامر الى النتيجة التالية ، وهي ان البلاد التونسية كانت عامرة وآهلة بالاقريطيين واليونانيين

وان جزيرة الاطلنطس كانت موجودة قرب وذرف بجهة مدينة قابس وهي كانت معروفة لدى علماء الجغرافية فى القديم ، وكان بها معبد اثينة تريتونيس ، وكان موقعها بمصب نهر تريتونيس ، اى بشط الجريد الان عندما كان متصلا بالبحر ، وان اعمدة هيرقليس التى اشار اليها افلاطون لا تدل على مضيق جبل طارق كما هو معروف ومشهور ، ولكن تدل بصفة عامة على كل مكان تلقى فيه عصا التسيار ، وينتهى فيه المطاف ، وهذا ينطبق على خليج السرت الصغير اى خليج قابس .

ولم يكتف (بورشارد) بالدراسة النظرية المرتكزة على المطالعة والمقارنة والبحث النظرى وهو فى مكتبه ، بل قدم الى القطر التونسى وتوجه الى عين المكان فى شهر فيفري ١٩٢٨ ، فازداد يقينا على يقين ، وسطر خريطة تبين بالتدقيق موقع هذه الجزيرة العجيبة الكائنة حسب قوله على الوادى المالح الذى ينصب فى خليج السرت الصغير اى خليج قابس بعدما يجتاز سبخة الهامة ويدور حول واحة وذرف (انظروا الخريطة)

وليست النظرية التى ذهب اليها هذا العالم الالماني بمستعبدة ، اذ فيما يتعلق بالمطابقة بين نهر تريتونيس وشط الجريد فهو محل اتفاق بين العلماء والمؤرخين ، ذكره هيروdotus فى تاريخه ، وسيلاكس فى رحلته ، وبطليموس ، واخذ عنهم ستيفان قسال وغيره وكلهم يشيرون الى وجود الاطلنطس بتلك الجهة ، فيقول هيروdotus (تلك الجهة يسكنها الاطلنط) ، ويقول بطليموس (يسكنها الطالى) كما نجد ايضا اشارة الى ذلك فى كتاب بوبيل لليهود ، فهو يسمى نهر تريتونيس (بحر اطالة) ، وهذه كلها الفاظ متشابهة تفيد شيئا واحدا ، وتدل على شيء واحد ، الا وهو (جزيرة الاطلنطس) التى وصفها افلاطون .

ومن جهة اخرى فقد قام ايضا الدكتور هرمان Dr. Albert Herrman الاستاذ فى كلية برلين بابحاث طويلة ، ودرس ، وقارن ، واستقصى بدوره ، ثم قدم وحقق على عين المكان ايضا سنة ١٩٣٠ ، وانتهى الى النتيجة التالية ، وهى ان البلاد التونسية كانت عامرة بالاقريطيين واليونانيين (وهو نفس ما وصل اليه الاستاذ بورشارد) وان جزيرة الاطلنطس او مدينة النحاس كانت موجودة على ضفاف شط الجريد - هذا وان دراسة هرمان كانت ادق واعمق وامتن من دراسة

زميله لانه ارتكز فيها اكثر منه على الادلة المستمدة من الواقع الجغرافى والجيولوجى .

ورسم لنا هرمان خرائط كثيرة تغنى عن كثرة الشروح والتعاليق وتبين بوضوح تطور الجغرافية التاريخية بالنسبة للجنوب التونسى وذلك ما بين القرن الثالث عشر قبل المسيح والقرن الثانى عشر بعده ١ - بين القرن الثالث عشر والثانى عشر ق م . (انظروا الخريطة) .

كان شط الجريد متصلا بالبحر وكانت له جميع خصائص الخليج البحرى . وكانت تلك المدة عصر الازدهار والحيرات والاسعار فى البحر والاستثمار الفلاحى ، اذ كانت تلك الجهة مشهورة بنصب تربتها ، وكثرة واحاتها ، وتدفق مياهها الغزيرة ، فكانت جنة على وجه الارض ، وكان سكان تلك الجهة يتمتعون بسمعة طيبة وحظوة كبيرة فى الخارج ، وكانوا يوحون بعظمتهم الى خيال الشعراء ومؤلفى القصص كثيرا من الموضوعات الغريبة من نوع الاساطير . . . وكانوا اهل حرب وشوكة يخشى جانبهم ومن قبائلهم المشاوش او المشاوشة بجنوب شط الجريد ، وهم الذين هجموا على الدلتا بالتراب المصرى كما ذكرناه فى مكانه .

اما فيما يتعلق -باعدة هيرقليس فان الاستاذ هرمان يرى منبل زميله بورشارد انها كانت بمنفذ البحر الاطلنطيقى الى بجهة الواحة الموجودة الان بالوادى المالح قرب وذرف ، فهو يجعلها حينئذ بتخليج السرت الصغير او خليج قابس .

٢ - بين القرن السادس والرابع ق م . (انظروا الخريطة) . ترك لنا المؤرخ الكبير هيرودوتس وصفا واضحا يتعلق بتوزيع القبائل وبيان اماكنها فى ذلك الوقت ، ولكنها قبائل اضمحلت الان او تغيرت اسمائها . . . فيذكر هيرودوتس مثلا قبائل المكسوس بجهة توزر ونفطة ، والمشاوش والاوزوس بالشرق وبالجنوب الشرقى من شط الجريد .

والى ذلك العهد يرجع اضمحلال مدينة (ترشيش) الشهيرة بمدنيتهما وعظمتها ، والتي كانت موجودة على ضفاف (البحر الاطلنطيقى) Atlanticum Mare ، وهو الاسم الذى كان يطلق ايضا فى ذلك الوقت على شط الجريد . وهذه المدينة كانت زاخرة بخيراتها ، وكان يؤمها عدد كبير من البحارة والتجار ، ويقصدها

المسافرون من اليونانيين والفنيين واليهود ، وكانت تصنع وتصدر معدنا شبيها بالنحاس الاصفر ، ومن هناك نشأت تسمية هذه المدينة العجيبة (بمدينة النحاس) من طرف علماء الجغرافية العرب .
ومن سنة ٥٥٠٠ ق.م. بدأ مرسى ترشيش يزدهر بالطين والوحل ، واخذ نجمها في الافول ، وشهرتها التجارية في السقوط لفائدة قرطاج .

٣ - بين القرن الاول والثالث بعد المسيح (انظروا الخريطة)
كان الرومان في عصر توسعهم الاستعماري يسمون شط الجريد منقح تريتونيس Tritonis Palus وكان المرور منه غير ممكن بين الجريد ونفزاوة ، فكان الطريق الذي يسلك للذهاب من قابس Tacape الى نفطة Nepte وتوزر Thusuros يدور بشط الجريد من الجنوب والغرب .

٤ - بين القرن الثامن والثاني عشر بعد المسيح (انظروا الخريطة)
كان العرب يسمون الجريد (بلاد قسطنطينية) ومدها المشهورة توزر ونفطة والحامة الخ ٠٠٠ كما هو موجود الان . ومنذ ذلك الحين كان الطريق بين الجريد ونفزاوة ثم قابس طريقا سهيلا ومعينا بالانصاب والعلامات . وكان العرب يذكرون وجود صحراء او بادية مدينة النحاس في رمال « العرق » جنوب السبخة (اى شاطئ الجريد) .

تلك كلها نظريات وافتراضات لها قيمتها العلمية بسدون شك ولها فائدتها العظيمة لانها تفتح امامنا آفاقا جديدة ، غير انه من اللازم تدعيمها بمحاولة اكتشاف بعض الاثار والبقايا والرسوم ، لتصير من الحقائق التاريخية الثابتة ، فنخرجها من دائرة الاسطورة ندخلها في دائرة التاريخ .

وكيف لا يتكون في نفوسنا الحماس والاندفاع للبحث والتنقيب بكد وعزيمة ، عندما نرى الاجانب يكدون ويعملون اكثر مما نكد ونعمل ، ويقدمون الى بلادنا من اقصى الجهات للبحث عن تاريخنا ، ولاحياء ماضيها ، ولاظهار مجدنا ٠٠٠ ونحن عن كل ذلك غافلون !

خلاصة ما تقدم

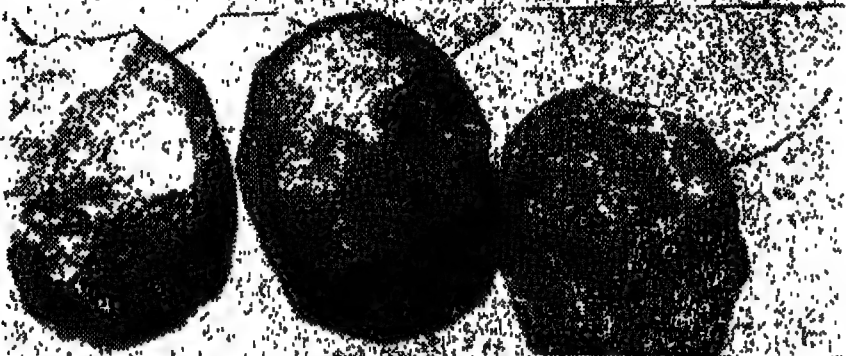
احتكاك الليبيين بالمدينة والحضارة المصرية القديمة واتصالهم بالاقريطين والفنيين واليونانيين وهم ايضا اصحاب حضارة لامعة ، كل ذلك كان له احسن الاثر في تكوين المدينة الليبية

لوحة ٩
انظر الصفحة برقم ٣٤٠ من هذا الكتاب

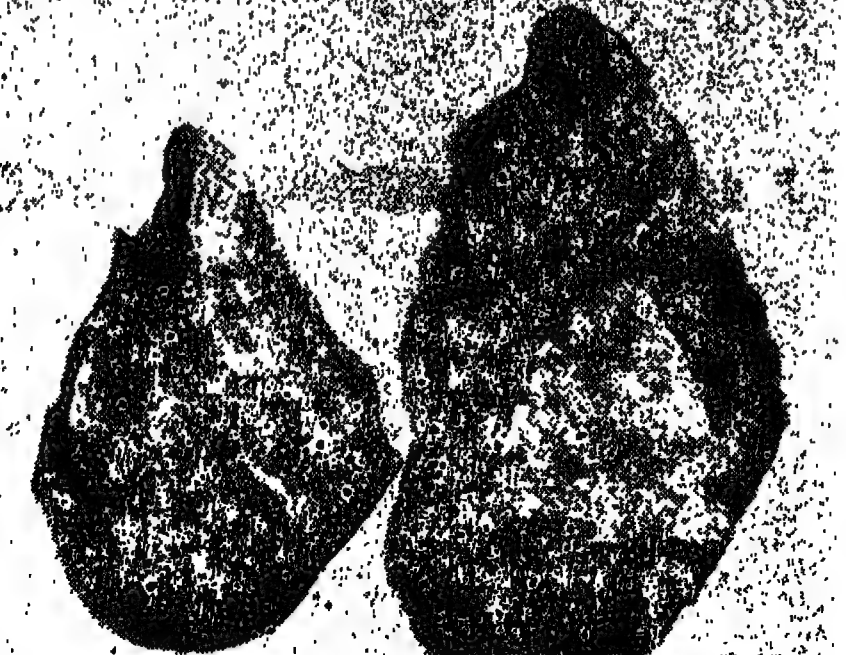


لوحة ١٠
انظر الصفحة رقم ٣٩ من هذا الكتاب

١- الطيور الحبشية (الشبه كرات ذات وجمرة)



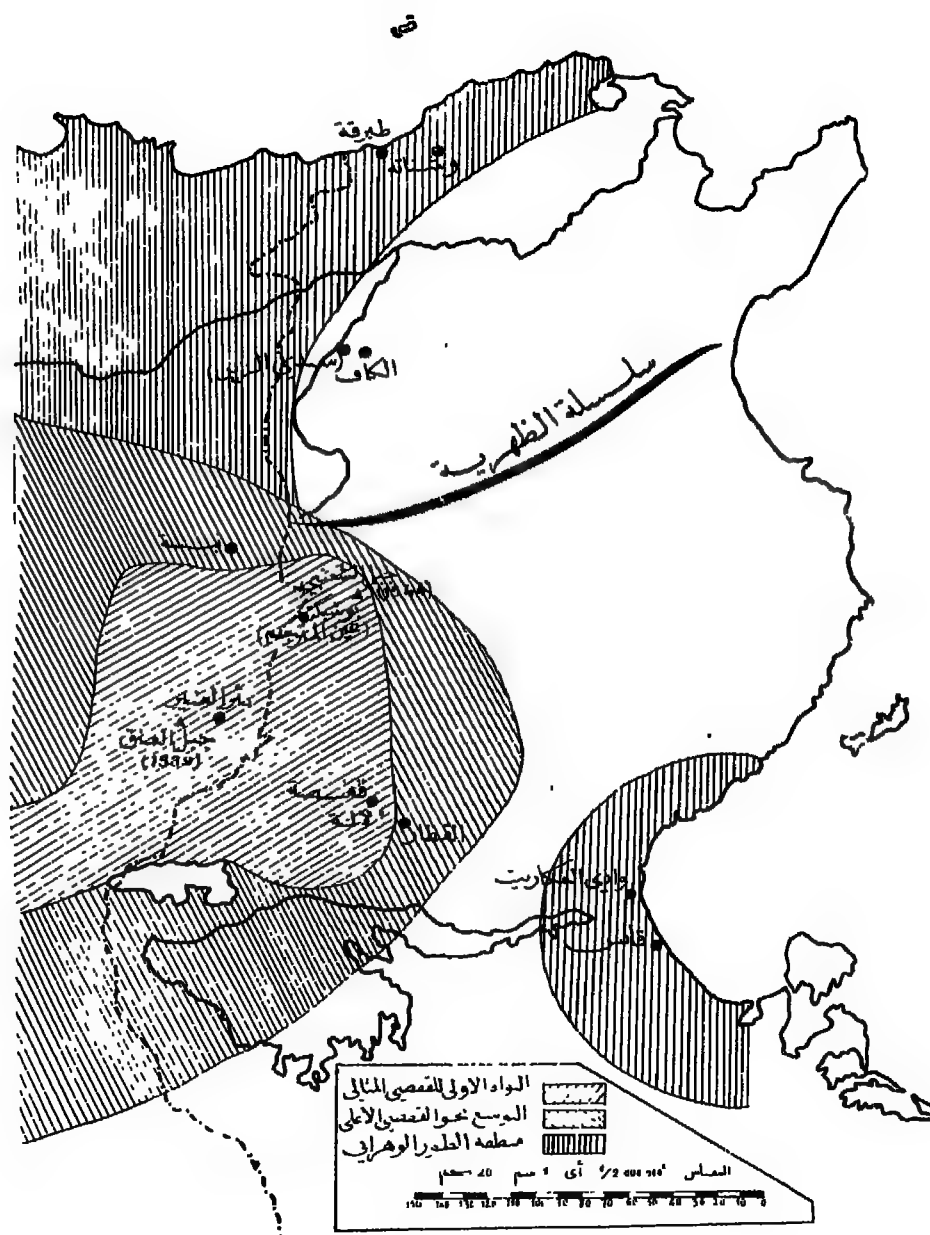
الطيور الحبشية (أحاديث وجهين)



٢- منجم عين الحبشي (الطيور الحبشية)

توحة ١١
البر الصفحة رقم ٣٩ من هذا الكتاب





خريطة الطور القلبي والطور الوهراني

المدنية الليبية

المقصود من (المدنية الليبية) هو ، قبل كل شيء ، جحلة من الاعاليد ، والعادات ، والطبائع ، والنظم ، بحدھا نابھ فى جميع اوقاب التاريخ ، سواء صافته نقبه خالصة ، او مزيفه ومسوھه ، وذلك بقطع النظر عن صروف الدهر وتغلبات الاحوال . وهى المظاهر المستمرة لعقلية نابته تجاه المشاكل الدنيه او السياسية .

وهذا الدوام والاستمرار هو الذى جعل المدنيات المتتابعة الانية من الخارج ، بالنسبة للبربر ، شبه الاتواب والاكسية المختلفة التى يلبسوها مع بقاء احسامهم ونفوسهم وارواحهم تحتها هى بعينها .

وفى ذلك يقول المؤرخ القدير الاستاذ عثمان الكعاك : « لهذا الشعب البربرى خصائصه الجنسية . . . كما له عادات خاصة به عائلية وقروية وموسمية ودينية ، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها المعروفة من قديم . . . وله عقائده القديمة الوثنية ، وقد تتبع اديان الشعوب التى غزت بلاده ، لكنه استبقى فى العقائد الجديدة كثيرا من عقائده واوهامه القومية القديمة ، ولم يقنع بذلك حتى ميز نفسه بمذهب جديد اعتنقه ليكون متميزا عن الشعب الفاتح المكتسح ومختلفا على خصائص قوميته باى شكل من الاشكال » .

فلما اجمع المؤرخون على ان عادات اللوبيين (اى البربر) لم تتغير كنرا طيلة العرون الماضية ، وهذا يمكننا من مقارنات كبيرة وعظيمة العائدة بين الحاضر والماضى مع مراعاة ما تتطلبه تلك المقارنات من حذر ووطنه .

ومن امثلة هذه المقارنات ما اكتشفه المؤرخ (عوتيا) من الشبه الغريب بين موقف الكاهنة فى الماصى وموقف احد القواد من بنى زيان بالمغرب مند عهد قريب اناء الاسنعمار الفرنسى للبلاد المغربية فان كلاهما امر اولاده بالانضمام الى العدو ، الى العرب بالنسبة لكاهمه ، والى الفرنسبين بالنسبة للقائد الزيانى ، وربما يضىء لنا هذا التشابه ناحبه من العقلية القبلية . وقد انبع العلامة الشهير (سفان فسال) نفس هذه الطريقة واستخدم المقارنات فنوصل بذلك الى اكتشافات كبيرة وعلى غابة من الاهمية .

فكتبرا من عادات البربر فى الاكل والشرب واللباس والمواسم مازالت موجودة عند بعض سكان الجمهورية التونسية الى الان . فان

النسوة البربريات كن يزغردن ويولولن ، وكن يوسمن ويتخضبن ، وقد ذكر ذلك هيرودوتس ، وقد كان زار بلادنا ودرس عادات البربر في ذلك الوقت اى فى سنة ٤٥٥ ق.م ٠٠٠ ونحن ما زلنا نرى اليوم مثل تلك العادات البربرية القديعة على الاخص عند البدويات

الصيد وتربية المواشى

قلنا ان عادات البربر لم تتغير الا قليلا مدة القرون الغائثة . فانهم كانوا يشتغلون بصيد الحيوانات الضارية ، للدفاع عن انفسهم وعن حياتهم فى البداية ، ثم اقتناصها حية لبيعها والاكتساب منها عندما صارت تستعمل فى المسارح .

وحتى بعدما عرفوا الفلاحة والزراعة فانهم بقوا مهتمين قبل كل شىء بتربية الحيوانات من بقر وخيل وغنم ومعين اى بتربية المواشى ، فمنهم من يقيم ويستقر فى مساكن ثابتة وسط اماكن مأمونة ، ومنهم من يرتاد الكلا وينتقل من المراعى الشتائية بالسهول الى المراعى الصيفية بالجبال ، ومنهم القبائل الرحل الذين يعيشون عيشة البداوة وسط السباسب الى ان يضطروهم الحفاف الى الذهاب الى المراعى الجبلية التالية . اما الفلاحة فهى ، كما سنراه فى مكانه ، لم تتقدم تقديما محسوسا الا فى القرن الثانى قبل المسيح بفضل المجهودات التى بذلها الملك الكبير (ماسنيسا) . وان قلة اهتمام الليبيين بالفلاحة فى ذلك العهد البعيد يرجع الى سببين :

اولا : تربية المواشى وتسريح الحيوانات فى المراعى كان فيه اقل كلفة ومشقة وعناء ومجهودات من خدمة الارض وتعاطى الفلاحة

ثانيا : لكن المسألة لم تكن فقط مسألة كسل وميل الى الراحة النسبية ، بل السبب الاصلى فى ذلك هو صعوبة جعل الصابة فى مأمن من السرقات ومن الغارات والنهب . فالحوف من اللصوص ومن ضياع ثمرة مجهودات طويلة فى اقل من لمح البصر لمجرد غارة فجائية . . . ذلك الحوف وعدم الاطمئنان هو الذى جعل الليبيين - ما عدى المستقرين منهم - لا يميلون كثيرا الى خدمة الارض ، ولا يقبلون على الفلاحة .

وان هذه القبائل من الرعاة كانت محافظة على الملكية المشتركة للاراضى او (الراضى العروش) ، ومن غير شك كان النظام الزراعى نظاما اشتراكيا يمكن اعتباره من نوع الشيوعية الزراعية ، وهو اما عبارة عن قسمة منتوجات العمل المشترك على الجماعة او قسمة الارض

على العائلات ، ولا نعلم ما هي الظروف التي تكونت فيها الملكية الخاصة التي عاينا وجودها في عهد الملوك الليبيين .

خلاصة ما تقدم

— كان اجدادنا اللوبيون يشتغلون بصيد الحيوانات الضارية،
للدفاع عن انفسهم في بداية الامر ، ثم لبيعها عندما صارت
تستعمل في المسارح
— ثم بعد ذلك اخذوا يشتغلون بتربية المواشى .
— اما اهتمامهم بالفلاحة فكان ضعيفا ، ماعدى عند المستقرين
من سكان المدن والقرى

الرحل والمستقرون — المسكن

ان حياة السكنى في الكهوف لم تضحل بانتهاء عصور ما قبل التاريخ بل بقيت في بعض الجهات الى يومنا هذا (جهة مطماطة مثلا) غير ان المغاور والكهوف الثابتة والمستقرة لا تناسب الرعاة واصحاب المواشى الذين هم دائما في حاجة الى التنقل بقطعانهم سعيا وراء الكلا والمرعى ولذلك كان هؤلاء الرعاة يسكنون اكواخا متنقلة (الماقلية) وهي عبارة عن بيوت خفيفة من الاحصرة او الحصاص والشجر تحمل على عجلات او تفك وتطوى وتحمل على الدواب ، ولم يقع تعويض ذلك بالحيام (بيوت الشعر) الا بعد انفتح الاسلامى العربى ، ولم تكن الحيام معروفة ببلادنا قبل ذلك انتاريخ

ومن بقايا (الماقلية) ذلك النوع من الاكواخ الموجود بالجنوب التونسي والمعروف عندنا باسم (الكيب) او (الحص) .
ومن جهة اخرى فاننا مازلنا نستعمل ببعض جهات الساحل (بالمهدية مثلا) كلمة (نواله) للدلالة على كوخ مبنى بالحجارة وسقفه من الغصان الاشجار والنقش ويخصص في الغالب للطبخ حسب الاساليب العتيقة ، وهذه الكلمة كانت تدل في القديم على الحص او الكوخ الصغير . ونذكر ايضا انه يوجد مكان يعرف بدار بونواله يبعد ١٢ كم . عن عين الدراهم .

وهذه الكلمة (نواله) بربرية الاصل وكذلك (ماقاليا) .
فهل هما من اصل واحد ؟ ام هل تطورت الكلمة (ماقاليا) الى (ماواليا) ثم (ناواليا) الى ان صارت (نواله) وهي المستعملة الى الان بالمهدية ؟ ليس هذا بمستبعد .

وهذه الكلمة (نواة) متداولة وكثيرة الاستعمال فى اللغة المغربية والاسبانية القديمة مما يدل على وجود هذا النوع من البيوت بالمغرب ايضا وهى فى الغالب اكواخ مستديرة لها سقف مخروط الشكل .

ويقول المؤرخ الرومانى سالسطيوس (١) مبينا منشأ النوميديين ومنشأ هذه الاكواخ الموجودة بافريقية الشمالية والمعروفة باسم (ماقاليا) .

« بعد موت البطل اليونانى هيرقليس باسبانية انتشرت فلول جيشه بافريقية ، وهو جيش يتركب من الماديين (Médés) والارمن (Arméniens) من جهة ، ومن الفرس (Perses) من جهة اخرى . فاما الماديون والارمن فقد اختلطوا باللوبيين على ضفاف البحر المتوسط ، ثم حرقوا شيئا فشيئا كلمة موديين الى موريين (Maures) واما الفرس فقد زادوا اقترابا من المحيط ، واختلطوا بالجيتوليين (les Gétules) وهم سكان الجنوب ، ولذلك اشار المؤرخون الى وجود قبائل فى تلك الجهة يعرفون بالفاروزيين (Pharusii) و«فرسيين» (Perorsi) » . وبما ان تلك الجهات كانت خالية من مواد الحطب ، فان هؤلاء الفرس اتخذوا الاكواخ من سفنهم التى قلبوها على الارض (٢) وحافظوا على ذلك الشكل من البيوت حتى فيما بعد ، لما لقبوا بالنوميديين (Numides) اى المترحلين ، لما كانوا عليه من كثرة التنقل والترحال

ويحدثنا بومبونىوس ميلاد (٣) على الساحل القرينى بليبيا (Côte de Cyrénaïque) وعن سكانه ٠٠٠ ثم يقول :

(١) سالسطيوس Salluste : Caius Sallustius

مؤرخ لاطينى ولد سنة ٨٧ ومات سنة ٣٥ ق . م . وكان على داس ولاية افريقية الرومانية من سنة ٤٧ الى سنة ٥٤ وجمع ثروة طائلة مكنته من العيش برومة عيشة فاخرة ومن تتاليه الشهورة : حرب يوغرطة، وكتاب التاريخ فى خمسة اجزاء .

(٢) Alveos navium invorsos protuguriis habuere

(٣) بومبونىوس Pomponius Mela واحد الجغرافيين اللاتينيين من اسرة الفيلسوف سينيكا (Seneca) ونشأ مثله باسبانية فى القرن الاول للميلاد ولف كتابه

(التوروغرافيا Chorographia) وهو اقدم تصنيف جغرافى .

« وعند الشعوب المجاورة لا توجد في الحقيقة أية مدنية غير انهم يعيشون في اكواخ تسمى (ما قاليا) وحياتهم خشنة وخالية من كل رقة ، ويلبس كبار القوم اتواباً صفيقة (اى كنيف نسجها) ، ويلبس لفيغ الناس جلود الحيوانات الوحشية والاهلية ، وهم ينامون ويأكلون على الارض مباشرة وشربهم اللبن وعصير الثمار ، واكلهم اللحم وعلى الاخص لحم الصيد لتوفير مواشيهم، وآنيتهم من الحطب او من القشر . » (قشر الدباء مثلاً اى القرع ، او قشر بيض النعام اى قشر التوم)

هذا فيما يتعلق بسكنى القبائل الرحالة والمتنقلة من اهل البدو ، واما المستقرون او اهل القرار فانهم كانوا يسكنون اكواخاً مبنية بالحجارة والطين واغصان الاشجار وكانوا يحفظون اموالهم وذخريهم من السلب والنهب بوضعها في (قصور) او (قلاع) او ابراج محصنة ومشيدة فوق مرتفع من الارض وموضوعة تحت رعاية حراس مسلحين تم يجعلون بيوتهم ومساكنهم وغرفهم مكدسة من حولها في شكل قرية .

وهذه الانايبير او المطامير المحصنة تسمى باقطار شمال افريقية كما ياتى :

١ - القلعة بالقطر الجزائرى مثل قلاع جبال اوراس (باللهجة الشاوية : عكليهت)

٢ - القصر بالجمهورية التونسية مثل قصور مدنين (باللهجة البربرية تيمدلت)

٣ - اغادير بالقطر المغربى مثل قلاع جبال الاطلس وهى كلمة بربرية (

وكانوا يذخرون ويخزنون فيها اشياء مختلفة كالقمح والنعيم والتمر والتين والزيت والسمن والصوف والنياب والحلى وغير ذلك فالقصر يعتبر بناية عمومية ، وهو ملك للجماعة ولكنه يتألف من غرف كثيرة ، وكل غرفة لها صاحبها يهتم بشانها ويتعهد بها بالاصلاح كلما لزم ذلك حتى لا يتسبب بتهاونه فى الحاق الضرر ببقية البيوت

واذا تضرر او تهدم جانب من البناية من جراء حرب او امطار او حوادث جوية فان كل فرد مطالب بالمشاركة في ترميمه . وان مجلس الجماعة هو الذى يبين الحقوق والواجبات والمسؤوليات بالنسبة للمكلف بالحراسة وبالنسبة للمستفيدين، وهو الذى يضبط العقوبات والغرامات ضد من يرتكب مخالفة ، ويقرر عقوبات شديدة صارمة ضد من يصدر عنه تهاون خطير او يتعمد جناية السرقة وهذا يقيم الدليل على ان (القصر) ليس بمجرد بناء بل هو مؤسسة اجتماعية لها نظام وقانون ، وهو زيادة على ذلك حصن متواضع يقع الالتجاء اليه فى صورة هجوم او خطر . .

ويمكن مقارنة القرى المرتفعة بالاكربول Acropole عند الاغريقين او بقلعة بيرصه او بورصة Byrsa عند القرطاجنيين

خلاصة ما تقدم

كان اللوبيون يسكنون الكهوف (كما هى موجودة اليوم بمطماطة) او الغرف والقصور (كما هى موجودة بمدنين) وكان المستقرون يبنون مساكنهم بالحجارة والطين حول (قلعة) او (قصر) يجعلون فيه متاعهم ويخزنون فيه ذخريهم . اما المتنقلون بانعامهم والقبائل الرحالة فانهم كانوا يسكنون الاكواخ التى يمكن جرها او فكها ونصبها فى مكان آخر بكل سهولة .

الماكل والملبس والاسلحة

— ان البربر كانوا مشهورين من قديم الزمان بقوة ابدانهم وطول اعمارهم . فقد كانوا متخوشين فى معيشتهم ، غير متكلفين فى غذائهم ، متبعين فى اكلهم نظاما اكثره نباتيا . وكان الفلاحون ياكلون الكسكس (١) من ذلك العهد ، والمستغلون بتربية المواشى كانوا لا يذبحون انعامهم بل كانوا يكتفون بالبانها ، وكانوا يحبون اكل الصيد والحلزون والعسل ، ولا يشربون الا الماء الصافى .

(١) يسمى (الكسكس) باللهجة البربرية الشلحة (سكسو) وهى اصل

كلمة الكسكس

– وكانوا يسيرون مكشوفى الرؤوس ، ويحلقون رؤوسهم تاركين
ضفيرة (شوشة) (١) فى اعلاها ، ويحملون فى الغالب حية ملسنة
(اى طرفها دقيق كطرف اللسان)

وبعدما حملوا مجرد خرقة لستر العورة او اتزروا بالوزرة او
الفوطة اتخذوا جلود الحيوانات للوقاية من البرد ، ثم قميصا من
الصوف يشبه (الكدرون) الموجود بالساحل يجعلون فوقه عباءة
سوداء تشبه (البرنس)

– وكانوا يحبون كثيرا التزين بالحلى نساء ورجالا . فالرجال
كانوا يحملون الاقراط باذانهم ، والنساء يضعن الخلاخل فى
ارجلهن ، ويشتركون الرجال والنساء فى تحلية اليدين بالدماليج
والاساور وتجميل العنق بالاطواق والقلائد .

– وكانوا لا يعرفون راحة المسكن ورفاهية الحياة المنزلية بل
كانوا يرقدون على الارض او على مسطبة مبنية تسمى (الدكانة) .
وليس لهم من الامتعة سوى آنية من الفخار والحزف زينتها الهندسية
من اصل ايجى (يونانى اقريطى)

ساما اسلحتهم فكانت، فى بداية الامر ولمدة طويلة، الحجارة والنظران
وذلك فى عصور ما قبل التاريخ ، ثم صار الدبوس سلاحهم المفضل
ثم بعدما استعملوا السيف تركوه واقبلوا على استعمال آلات
الرماية كالقسي والحراب والمزاريق ، يهجمون بها على العدو ثم
يذبونه بسكين عريضة ، وكانوا يستعملون للوقاية من سلاح
العدو درقة من جلد الفيل، لكنها تصير غير صالحة كلما ابتلت بماء
الامطار .

وفيما سجله قدماء المصريين من اخبار غارات اللوبيين المتكررة
وصفهم لاسلحة هؤلاء الهاجمين وما يخلدونه منهم من الاسلاب والغنائم

(١) الشوشة : يظهر ان هذه الكلمة هي مجرد تحريف للفظة عربية وهى (الكشة)
اى الناصية او الحصلة من الشعر فى مقدم الراس . وهذه (الشوشة) كانت موجودة
ايضا عند قدماء المصريين فكان الامراء من اسرة الفرعنة يحلقون رؤوسهم وهم غلمان
ولا يتركون الا تلك الضفيرة ، ومازال الى الان صغار الفلاحين بمصر يحملون
(الشوشة) ويسمونها بنفس ذلك الاسم

بعد انتهاء المعركة كالتسكاكين العريضة من البرنز، والنقود، والنذهب والفضة، والقسي، والحرايب، والمزاريق . ومن هذا نفهم ان اللوبيين كانوا منذ القرن الرابع عشر قبل المسيح اصحاب حضارة وارباب صناعة

خلاصة ما تقدم

اكلهم : كانوا ياكلون الحلزون ويسمى بالغة البربرية (الببوش) . ولكن اهم طعامهم الكسكس ، ولبن الشعاع ، ولحم النصيد ، والعسل ، وكانوا لا يريدون ذبح حيواناتهم
لباسهم : كانوا يلبسون ثوبا يشبه (الكدرن) الموجود بالساحل ويجعلون فوقه عباءة سوداء تشبه (البرنس) وكانوا يحبون كثيرا التزين بالخلي نساء ورجالا
سلاحهم : كانوا يستعملون على الاخص آلات الرماية كالقسي والحرايب والمزاريق ، كما يستعملون درقة من جلد الفيل للوقاية من سلاح العدو .

العائلة الليبية

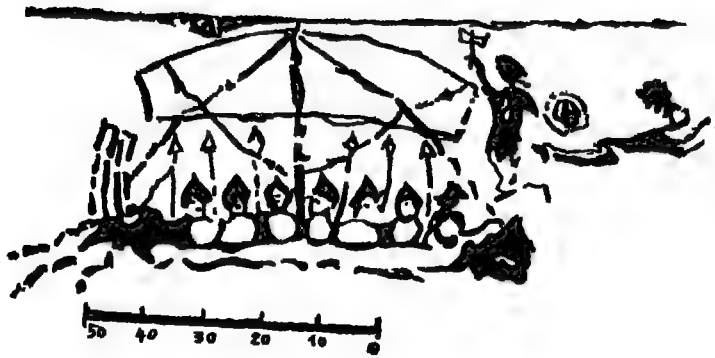
ان كثرة الادوات والاسلحة والعظام واصداف الحلزون المتراكمة فى اماكن مختلفة تدل دلالة واضحة على ان الليبيين كانت لهم حياة اجتماعية منذ اقدم العصور ، وان نواة المجتمع الليبى هى العائلة الملتفة حول الرئيس وهو الاب ذو السلطة المطلقة والنفوذ الواسع .
فالعائلة الليبية كانت فى التقديم شبيهة بالعائلة الرومانية ذات نظام يعرف (بالنظام الاغناقى) او (النظام البطركى) اى نظام الابوة المرتكز على سلطة الاب الذى هو رب العائلة
فكلمة العائلة لم تكن تدل على الاسرة مثلما نفهمه ونصوره اليوم اى جملة الاقارب التى تربطهم وتجمعهم صلة الرحم وروابط الدم ، بل كانت العائلة الليبية تدل على العرش والال والعشيرة ، اى جملة الاشخاص الذين هم من نسل جد واحد ومن سلالة اصل واحد ، والذين هم خاضعون كلهم لسلطة رئيس واحد . وكل من ينضم الى العائلة سواء بالزواج والاقتران والمصاهرة او بالتبني يصير خاضعا لتلك السلطة .

فرب العائلة كان له النفوذ المطلق على جميع افراد العائلة على زوجاته مثلا فكان يامرهن بالقيام بلحظ الاعمال واحقر الاشغال ، وعلى بناته فكان يشهرهن للبيع العلنى بالمزايدة ، وعلى ابناته فكان

اللوحة ١٣
انظر الصفحة رقم ١٥ من هذا الكتاب



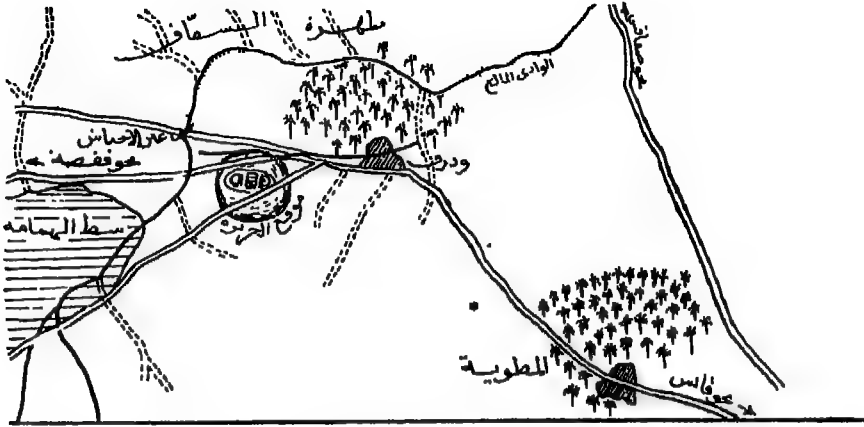
هذه الصورة تمثل (الحوانيت) او اللحود المخفوة في الصخور
وفي احدها وجد الرسم اسفله الذي يمثل واقعه بحرية



رسم موحود (بحانوت) أي بلحد محفور في الصخور بغابة مقنة Malana
شرقي مدينة طبرقة وهذا الرسم يمثل واقعة حربية بحرية ، ونظهر
فيه سبعة شراعية يركبها غزاة افريقيون يقودهم اله بهز في يده اليمنى
يسرة أي فأسا حربية ذات حدين ، ويسك بيده الاخرى ثريسا .

لوحة ١٤

انظر الصفحة رقم ٥٤ / ٥٥ / ٨٢ من هذا الكتاب



خريطة برشارد : موقع جزيرة الاطلنطس ومعبداثينة (قرب وذرف)



(موقع جزيرة الاطلنطس بمصر ترينونس)

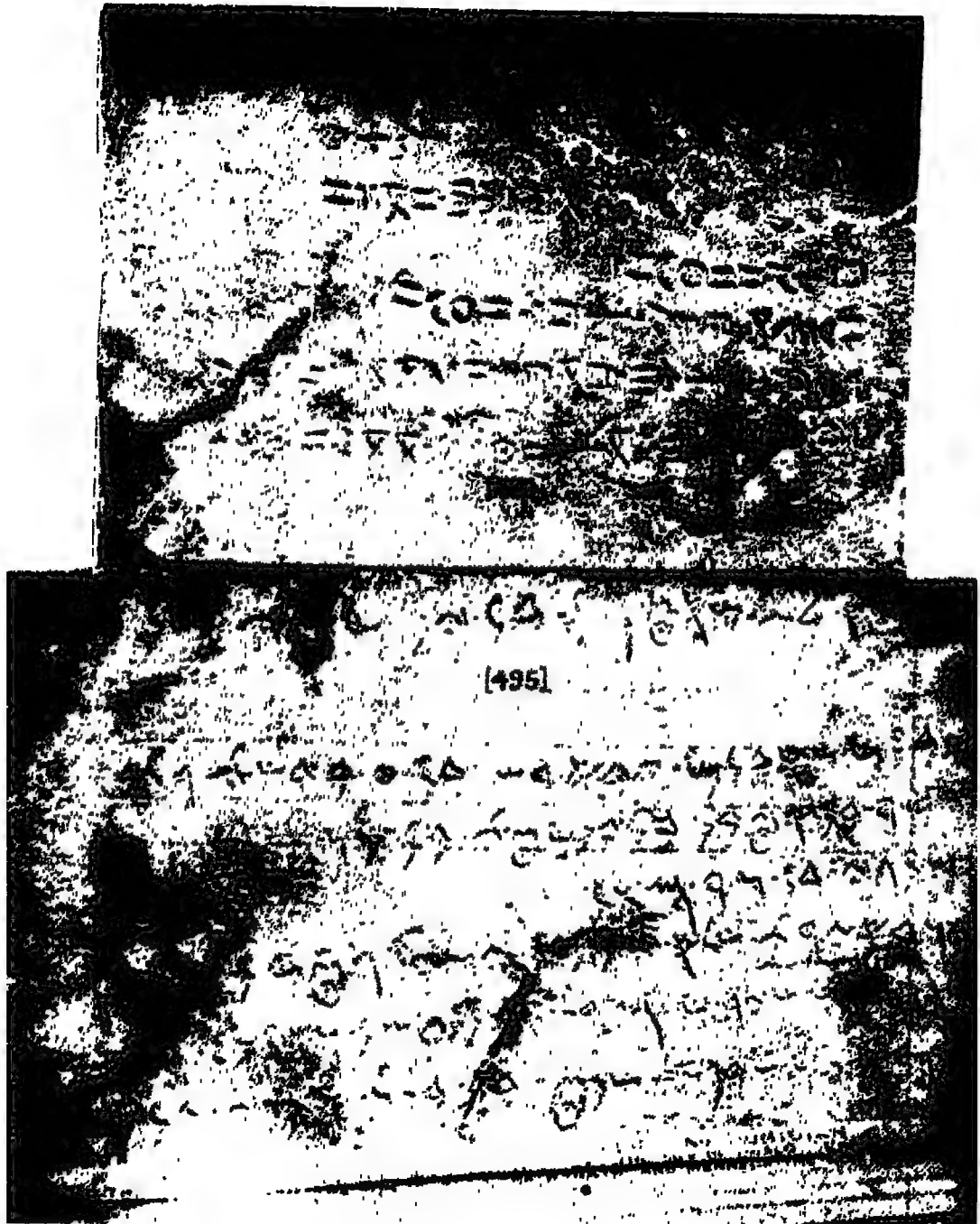
خريطة هيرمان رقم 1 : الجنوب التونسي (بين القرن 13 والقرن 12 ق.م)



(موقع جزيرة الاطلنطس بدلتا نهر ترينونس)

خريطة هيرمان رقم 2 : الجنوب التونسي (بين القرن 6 والقرن 4 ق.م)

اللوحة ١٦
انظر الصفحة ٤٤ و ١٥٧ من هذا الكتاب



الحجرتان المنقوشتان بالخط الليبي والبونيقي

الحجرتان اللتان اخلدهما فنصل اقليرا Read وحملهما الى لندن سنة ١٨٤٢

يزوجهم بمن يشاء ويشتهم ويبقيهم تحت سلطته ورهن اشارته •
وعند وفاة رب العائلة فان السلطة لا تنتقل الى اكبر ابنائه بل الى
الكبير فى العائلة من الذكور • وهذا النظام هو الذى نراه موجودا
عند الوندال وعند البايات من العائلة الحسينية بتونس
ونلاحظ ان تعدد الزوجات فى ذلك العهد قد اعان وساعد على
كثرة الاولاد بكيفية فاقت كل حصر •

ونلاحظ ايضا بين قوسين ان نظام العائلة الذى كان موجودا عند
انطوارق الملمنين ليس هو نظام الابوة مثلما كان ومازال موجودا
عندنا بل هو نظام الامومة، فالام عندهم هى التى تعطى اسمها
لاولادها وهى التى تعود اليها سلطة المنزل ولا يرث الاولاد من ابهم
بل يرثون من خالهم ، ولذلك تقول الاغنية المتعلقة بالطوارق :
(انا الطارقى وابن الطارقية) ولم تقل (وابن الطارقى)

خلاصة ما تقدم

كانت العائلة عند الليبيين خاضعة خضوعا مطلقا لسلطة
الاب وكانت تلك العائلة نواة للنظام الاجتماعى وهو نظام القبائل

٢ - القبيلة والقرية

ان مقتضيات وضروريات الحياة البدوية والفلاحية والشعور
بالحاجة الى السلامة والامن والطمانينة هو الذى دعا الى تكوين
كنل بنسرية اكبر واوسع واقوى من العائلة لتكون هذه
الجماعات فى مامن من كل شر ومن كل عدوان، وهذه الكتل البشيرية
هى القبائل ، والخلايا التى تتكون منها القبيلة هى العائلات •

فالرعاة ينضمون الى بعضهم للاشتراك فى استعمال اراضى الكلا
والمرعى ، والمستقرون من الفلاحين يشيدون القرى والقلاع والابراج
لحفظ اموالهم المشتركة ولقاومة هجومات اعدائهم الالاء وهم الرحل
من اهل البادية ، ولصد غاراتهم ودفع ضررهم • وسكان هذه القرى
يكونون شبه جمهوريات صغيرة خاضعة الى حكم (الجماعة) وعلى راسها
الكبراء والمسنائح بما وفر فى نفوس الكافة لهم من الوقار والتجربة
وهم يسبرون الاعمال ويعاقبون العصاة والمتمردين حسب الفوانين
العرفية

والشئ الذى ينبغى الانتباه اليه هو ان قوة القبيلة تركز على
العصبية الناشئة عن لحم الانساب ، يقول ابن خلدون فى مقدمته :

» ... ان ثمره الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنصرة والتناصر
فحيث تكون العصبية مرهوبة ، والمنبت فيها زكيا ، تكون فائدة
النسب اوضح ونمرتها اقوى ...

» ... ولا يصدق دفاع حامية لحي ولا يفيد زيادهم الا اذا كانوا
عصبية واهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى
جانبهم اذ نعمة كل احد على نسبه وعصبته اهم ، وما جعل الله في
قلوب عباده من الشفقة والنصرة على ذوى ارحامهم وقرباهم موجودة
في الطبائع البشرية ، وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة
العدو لهم ...

» ... وكل حي او بطن من القبائل ، وان كانوا عصابة واحدة
لنسبهم العام ، ففيهم ايضا عصبية اخرى لانساب خاصة هي اشد
التحاما من النسب العام لهم ، مثل عشير واحد او اهل بيت واحد
او اخوة بنى اب واحد ، لا مثل بنى العم الاقربين او الابعدين ،
فهؤلاء اقعد بنسبهم المخصوص ، ويشاركون من سواهم في المصائب
في النسب العام ، الا انها في النسب الخاص اشد تقرب للحمية .

» ... وتكون الرئاسة فيهم في نصاب واحد منهم ولا تكون في
الكل . ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب ، وجب ان تكون عصبية
ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها ...

» ... فالرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون
بالعصبية . فلا بد في الرئاسة على القوم ان تكون من عصبية غالبية
لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية
الرئيس لهم اقرروا بالاذعان والاتباع ... »

ونفهم مما بينه العلامة ابن خلدون اهمية العصبية في تدعيم اركان
القبيلة وفي شد ازر الرئيس وتوطيد نفوذه . ومن تلك العصبية تتألف
(الجماعة) او (الصف) كما يتألف البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .
وانى ما زالت اذكر الاغنية التي كنا ننشدها ونحن صبيان صغار ،
وهي تبين بكيفية واضحة قيمة الصف والجماعة والعصبية ، وخسران
الذى تحدثه نفسه بالخروج عن راي الجماعة ، كنا عند ذلك نصفق ونغنى :

(الجماعة صف صف : والكليب وحلو)

وتحتاج القبيلة الى قائد قوى ورئيس مقدم خصوصا في حالة حرب
اما هجومية او دفاعية واذا كان النصر حليفه فهو يسعى في زيادة
التمركز وضمان الحكم له ولعقبه من بعده . وهكذا نرى القبائل تنهار

وتسقط وتضمحل او تنتصر وتقوى وتمتد حسبما تكنه الاقدار فى الحروب والمغامرات .

ولكن نرى فى الغالب هذه القبائل المختلفة او البطون الموجودة فى قبيلة واحدة تتقاتل وتتناحر واحيانا تنظم بعض بطونها وصفوفها الى صفوف قبائل اخرى اجنبية للتغلب على الاولى . وهذا يبين لنا عدم استقرار هذه القبائل ، فهى جماعات فى تغير وتقلب وتحول مستمر .

خلاصة ما تقدم

من العائلات تتكون القبائل التى هى منال الحياة الاجتماعية فى الماضى ، وشوكة القبيلة وقوتها فى متانة العصبية الناشئة عن لمة الانساب .
وسكان القرية الواحدة يكونون شبه جمهورية صغيرة خاضعة الى حكم (الجماعة) وعلى راسها الكبراء والمشائخ .

٣ - فيديريالية القبائل او الشعب

نرى احيانا احد القواد والرؤساء بما له من الخطوة والجاه او بما له من القوة والبطش ، نراه يجمع تحت سلطته ونفوذه قبائل كثيرة ، فتلتحم قبيلته بتلك القبائل ، وتزداد قوة فى التغلب الى قوتها ، ويصير هذا القائد اغليدا اى ملكا على راس الجميع . ومن الراجح والمحتمل ان كثيرا من الممالك البربرية قد نشأت هكذا من قديم الزمان قبل ظهور الدول التى سنجد هاداخلة ومشتبكة مع تاريخ القرطاجيين والرومان كدولة سيفاكس وما سينييسا وغيرهما .

وهذه الجماعات او الفيديراليات القبائلية لهى اقل استقرار واضعف نباتا ودواما من القبائل نفسها ، فهى اما تتحالف فيما بينها وتتحدهم لهجوم او دفاع ومقاومة ، واما تدخل فى نار الفتنة وفى التناحر والحصام الى ان تغلب احدهما على البقية او يقع الكل فى الهاوية . ومن جهة اخرى فان الملك او الاغليد يمكن له فى الغالب ان يفرض نفوذه على المستقرين من سكان المدن والقرى والمقيمين بالسهول فيمتد نفوذه او ينحصر وينكمش حسب درجة قوته وشوخته، اما القاطنون فى الجبال وكذلك المتنقلون والرحل من اهل البادية فانهم يميلون طبعيا الى الانفلات، والتخلص من ذلك النفوذ . وزيادة على ذلك فكثيرا

ما تخرج بعض القبائل عن الطاعة ، وحتى القبيلة الاصلية او النواة الاولى التى كانت ضمت اليها بقية القبائل الاخرى وكونت منها مجموعة قوية فهى لا تلبث ان ينهكها توالى الحروب فيدركها الضعف والوهن ، او يذهب بها النعيم وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة الى الدعة والراحة فتزول خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويكون ذلك من اسباب الفناء والانقراض .

وللملك من النفوذ والسلطة ما يناسب عظمته وحظوته ، وهو فى الغالب لا يتخذ موظفين لمساعدته بل يستعين باقاربه واعوانه وخلانه ويستشير رؤساء القبائل ، فاراؤهم يكون لها وزنها بقدر ما يكثُر عدد الرعايا التابعين لهم والمؤتمرين بامرهم

واذا ما كانت هذه القبائل ساخطة وغير راضية على سلوك الملك وعلى سياسته فهى تقوم فى وجهه وتحطمه تحطيمها ، ولذالك نراه دائما يبذل مجهوده ويستخدم حذقه ودهاءه الدبلوماسى فى تقسيم المعارضين عملا بالقاعدة المشهورة فرق تسد

وهناك ايضا المشكل المالى وهو عويص جدا ويصعب حله اكثر من المشاكل الاخرى . فمن غير شك تتكلف السلطان المحلية بجمع الضرائب وجبى الحراج اما عينا على الريع والمواشى وذلك فى البوادي والقرى او نقدا وذلك فى المدن ، غير ان الملك يكون فى الغالب مضطرا الى الاقتناع بما تجود به القبائل القوية من العطايا الاختيارية ولم تكن هناك اى مساواة فى توزيع الاعباء الجبائية . هذا ويعتبر فى ذلك الوقت البعيد الذهاب من العائلة الى الحى او الفخذ ، ثم من الفخذ الى البطن ، ثم من البطن الى القبيلة ، ثم من القبيلة الى الشعب وهو التفاف عدد من القبائل حول ملك او اغليد . ان ذلك يعتبر تطورا وتقدما

غير ان حياة القبائل التى كانت موجودة فى الماضى والتى هى مازالت الى الان موجودة فى بعض الجهات الجنوبية المتاخرة من الجمهورية التونسية صارت الآن لا تتناسب ولا تتماشى مع حياتنا العصرية ولذلك زائنا رئيس الجمهورية فى رحلته الى الجنوب بحث على نبذ العصبية القبائلية لما ينجر عنها من انقسام وانعزال وخروج عن المجتمع التونسى الذى صار اليوم يشمل كامل القطر ، فلا بد حينئذ من تبديل اتجاه تلك العصبية وحصرها كلها فى رئيس الدولة والحكومة ، بل نحن الآن قد تعدينا ذلك الى ما هو ابعد واوسع واعم فكما ان القبائل كانت فى الماضى تتحد لتكوين فيديرالية قبائلية وكذلك سعيا وراء الامن والعطمانية والازدهار فكذلك الان صارت الشغوب

تتحد وتتقارب لتكوين فيديرياليات اممية سعيا ايضا وراء نفس ذلك
الامن وتلك الطمأنينة وذلك الازدهار ، وهذا هو السبب في انشاء
المقرب الكبير الذى يجمع بين اقطار شمال افريقيا ، وهذا التكتل
من شأنه ان يزيد هذه الاقطار قوة وامنا وتقدما ١٠

خلاصة ما تقدم

من العائلات تكونت القبائل ثم التفت عدد من القبائل حول
سلطة قائد عظيم او امير قوى ، وهكذا نشأت الشعوب التى
هى اكبر شانا من القبائل

دفن الموتى

(٢) بافريقية

(١) بفرنسا



تمثل الصورة كيفية دفن الموتى مثل ما وقعت الإشارة اليه
صفحة ٤٣

الدرس الاول

تلاميذ السنة الخامسة

موضوع الدرس : التعريف باللوبيين
الهدف : بيان اتصالات اللوبيين بالشعوب المتعددة (وذلك تمهيدا للدرس المقبل حول المدنية اللوبية)
وسائل الايضاح : - صورة تمثل راس لوبى (مصور التاريخ)
 المجموعة الاولى - عدد ٣)
 صورة تمثل اللوبيين كما رسمهم المصريون (مصور التاريخ -
 المجموعة الاولى - عدد ٤)
 صورة تمثل السفينة الحربية المنقوشة بقبور (مقنة) مابين باجة وطبرقة
 - خريطة تمثل مصر (الدلتا) والعالم الايجى (قريطس) وبلاد
 اليونان والمملكة الفينيقية ٠٠٠ وموقع تونس من هذه البلدان
١ - اسئلة للمراجعة والاختبار والربط

يوجه المعلم اسئلة حول السير المعاكس لمجرى التاريخ اى من
 الحاضر القريب الى الماضى البعيد مع استعمال السلم التاريخى ٠٠٠ الى
 ان يصل بالتلاميذ الى ما قبل تاسيس قرطاج اى الى اللوبيين وسمم
 اجدادنا الاولون

٢ - التعريف باللوبيين

- عرض الصورة التى تمثل راس وجل لوبى - حمل التلاميذ على
 ملاحظتها بدقة وعلى تدوين ما جذب انتباههم واثر فى نفوسهم :
 راس مخلوق - محلى بظفيرة (شوشة) تنتهى بتميمة فى شكل هلال
 - هذا هو راس رجل لوبى (او بربرى) - كان اجدادنا منهذ
 ما يزيد على ٣٠٠٠ سنة يسمون باللوبيين - مقارنة بين لوبيين او
 ليبيا فى القديم وبين ليبيا الموجودة الآن بين الجمهورية التونسية
 والجمهورية المصرية - كانت بلادنا المتصلة بالمملكة الليبية وكنا جميعا
 من اصل واحد

- اللغة -

- نعم نحن الآن نتكلم باللغة العربية ولكن هذه اللغة لم تكن موجودة عندنا فى القديم قبل دخول الفاتحين العرب ٠٠٠ بل كنا نتكلم اللغة اللوبية او البربرية (السلحة) وهى تشبه لهجة القبائل بالجزائر، تلك اللهجة التى نسمعها فى اذاعة باريس باللغة اقبائلية . . وهذه اللغة البربرية ما زالت موجودة عندنا الى الآن بالبلاد التونسية بجزيرة جربة وبجهاط مطاطه

٣ - دخول اللوبيين التراب المصرى

- عرض الصورة التى تمثل اللوبيين كما رسمهم المصريون حمل التلاميذ على ملاحظة تلك الصورة بامعان : رجل على اليمين ورجل على اليسار وامراة فى الوسط - لحية ملسنة اى مثلثة الشكل وذات طرف دقيق - راس الرجل مكشوف ورأس المرأة منطى شعر الراس كثيف وطويل وهو مخالف لراس المحلوف الذى شاهدناه سابقا - حلى يتزين بها الرجل والمرأة على حد السواء (القرط فى الاذنين - العقد - السوار) - نياپ فاخرة جميلة
هذه لصورة تمثل لوبيين رسمهم المصريون على القراميد ٠٠٠ وهذا يدل على ان اللوبيين اختلطوا فى قديم الزمان بالمصريين وتانسروا بحضارتهم ، وارسلوا شعورهم وتانسقوا فى لباسهم ، وحملوا هذه الحضارة المصرية الى بلادنا الليبيه *

- عرض الخريطة تمثل مصر والدلتا (مصب نهر النيل) :

يشرح المعلم ان اللوبيين فى عهد الفراعنة الرمسيسيين اى فى عهد رمسيس الثانى ورمسيس الثالث ، هاجموا الاراضى المصرية مرات عديدة ، ثم استولوا على الدلتا ، وبعد زوال ملك الرمسيسيين اسسوا دولة مالكة عظيمة حكمت البلاد المصرية مدة طويلة ، واشهر ملوكها (تيشوق الاول) *

وهذا الاتصال بالمدينة المصرية والحضارة المصرية القديمة افاد بلادنا كثيرا لانه جلب اليها تلك الحضارة المشرقة

٤ - الاتصال بالاقريطين والفيقيين واليونان

- عرض الصورة التى تمثل السفينة الحربية المنقوشة بقبور(مقنة) : حمل التلاميذ على التامل فيها مليا: لها حار فى الوسط، وشراع شبيه بالمنحرف ، الركاب هم غزاة مسلحون يقودهم اله الحرب وهو يهز

فى يده اليمنى فاسا حربية ذات حدين(السنة)ويمسك بيده الاخرى
نرسا مستدير الشكل ٠٠٠

٠٠٠ يبين المعلم بان حياة الركاب وشكل السفينة والاسلحة ٠٠ ان
كل ذلك يبين انهم اقريطيون

٠٠٠ يعرض المعلم عند ذلك الخريطة التى تمثل جزيرة اقريطس

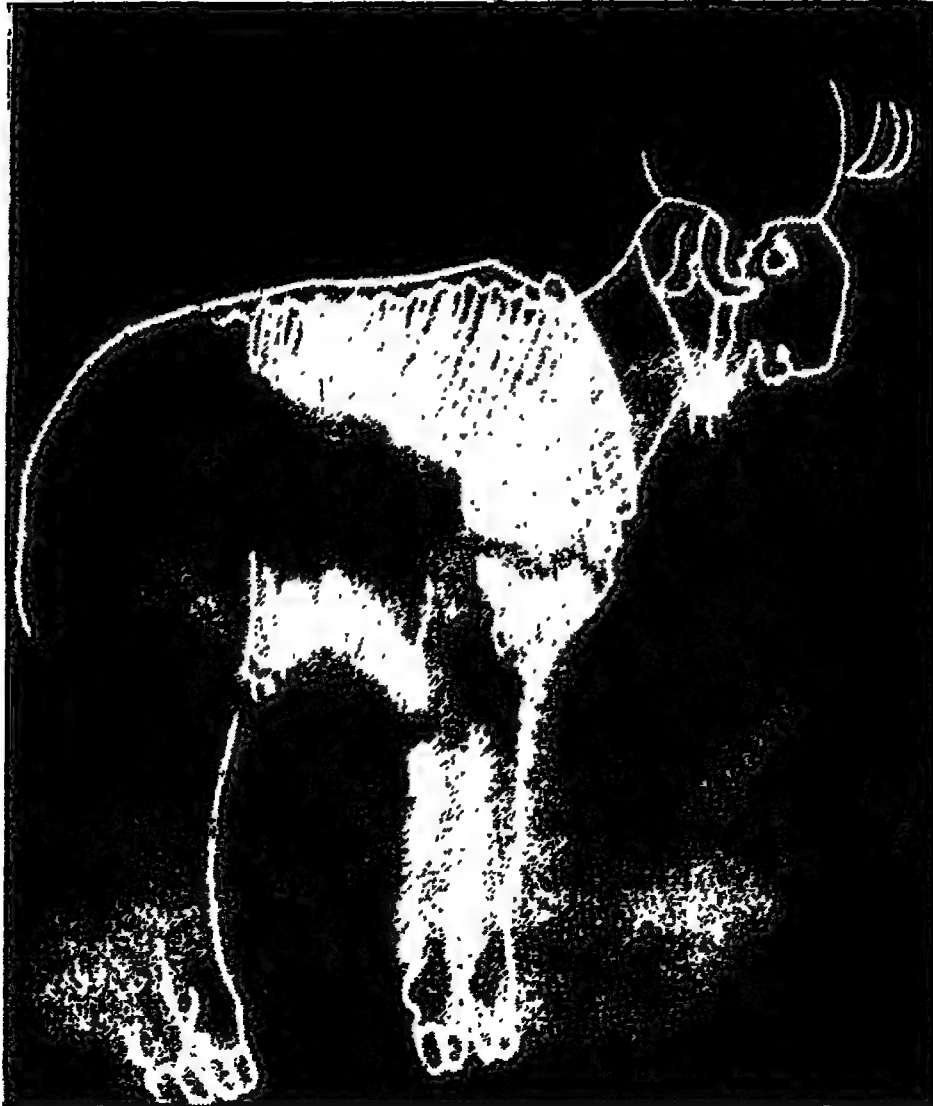
والعالم الايجى وكذلك بلاد الفنيقيين وبلاد اليونان ، كما تبين
موقع تونس بالنسبة الى هذه البلدان ٠

٠٠٠ يبين المعلم بان هذه البلدان كانت كلها فى ذلك الوقت البعيد
والبعيد جدا ، على غاية من التقدم والمدنية والحضارة ، وان اتصالات
اللوبيين بها جميعا تجعلها تستفيد فائدة كبيرة من كل تلك الحضارات
٠٠٠ نعم من ذلك ان الشعب لا يعيش منفردا ومنعزلا فى العالم
ولا يكون نفسه بنفسه فقط بل يتصل بغيره من الشعوب وعلى الاخص
التي هي اكثر منه تقدما وحضارة ومدنية فيجنى من ذلك الاتصال
فوائد كثيرة

٠٠٠ وهذا الاتصال يكون اما بكيفية سلمية (اسفار - تجارة -
رحلات) او بكيفية حربية (هجومات - غزوات) - ويمكن تشبيهه
الشعوب المختلفة بالاعوية المتصلة ٠٠٠ والحروب رغما عما فيها من
ممازى وسفك دماء فهي مكنت المدن والحضارات من الانتشار والتغلغل
وافادت كثيرا من الشعوب المتأخرة ، وهذا التحاكن ، سواء كان
سلميا لطيفا او حربيا عنيفا ، هو الذى يكون لقاحا تثمر به الحضارات
ومن ذلك ينشا التطور والتقدم والرقى ٠٠٠



اللوحة ١٧
انظر الصفحة رقم ٣٧ من هذا الكتاب



الكبش المقدس (امون)

لوحة ١٨
انظر الصفحة رقم ٥٩ من هذا الكتاب



مساكن الرحالة المتنقلين (ص ٥٩)



مساكن المستقرين

لوحة ١٩
انظر الصفحة رقم ٥٩ من هذا الكتاب



(النواة) بالمغرب الأقصى (ص ٦٠)



الكهف بمطاطة (ص ٥٩)

لوحة ١٠
(انظر ص



البلدان المتحضرة التي اتصلوا بسكانها ؟ ما هي نتيجة هذا الاتصال ؟
ما هي الجهة التي هاجموا بالبلاد المصرية ؟ متى كان ذلك ؟ (بينوا
البلدان على الخريطة)

من هو أشهر الملوك اللوبيين الذي تحكم في مصر ؟ (الجواب على
الالواح حسب أسلوب لامارتينياد)

٢ - الصيد وتربية المواشى

- يعرض المعلم الصورة التي تمثل معركة بين الفيل والفهد
(المجموعة اولى عدد ٧) ويطلب التلاميذ بالتأمل فيها : تمثل حيوانات
مفترسة - كانت بلادنا ملانة بالحيوانات الوحشية الضارية (الاسد
النمر - الفيل - الفهد - الخ ٠٠) فكان الانسان البدائي من سكان
بلادنا في حاجة لصيدهما دفاعا عن نفسه حتى لا تفترسه ، او
لصيدهما وصيد حيوانات اخرى غير مفترسة لاكل لحومها والانتفاع
بجلودها ٠٠ تم صاروا يقتنصون الحيوانات المفترسة حية لبيعها عندما
صارت تستعمل في المسارح
ومن هذا نفهم ان الصيد كان يلعب دورا هاما في حياة السكان
الاولين بهذه البلاد .

- يعرض المعلم الصورة التي تمثل الكباش (المجموعة الاولى عدد ٨)
هذه الصورة تمثل كبشا كانت تقدسه بعض الطوائف والقبائل من
اللوبيين خصوصا بالجزائر ٠ والذي نفهمه من ذلك ان اللوبيين كانوا
يهتمون كثيرا بتربية الاغنام وكذلك البقر والمعيز ٠
فهم كانوا حينئذ رجال صيد ورجال مرعى ، يشتغلون بصيد الحيوانات
وبتربية المواشى (يمكن ان يستعمل المعلم ايضا الصورة رقم ٦ من
المجموعة الثانية ، فهي ايضا تمثل اللوبيين صلبة اغنامهم ، فهم قوم
رعاة)

٣ - الرحل والمستقرون

- عرض الصورة التي تمثل كوخا (كيبا) : المجموعة الاولى عدد
١٥ : تمثل هذه الصورة بيتا من الحصير والقصب والشجر ٠ وهذا
النوع من الاكواخ مازلنا نراه احيانا عند البدو ٠ لماذا يختارون هذا
الشكل من البيوت عوض ان يسكنوا بيوتا مبنية بالحجارة والطين ؟
السبب في ذلك هو انهم قوم متنقلون لا يستقرون في مكان واحد ،

عندى عشه ومميزات وين يطيح الليل نبات
هؤلاء البدو المتنقلون هم الرعاة الذين ينتقلون بحيواناتهم من مكان
الى آخر طلبا للكلأ والمرعى

– عرض الصور التي تمثل مساكن المستقرين (عدد ١٤) والكهوف
بمطاطه (عدد ١٨) والغرف بمدنين (عدد ١٧) نتامل معا فى كل هذه
الصور – انها تمثل ايضا بيوتا للسكنى – هل يمكن قلعها ونقلها من
مكان لآخر؟ انه لا يمكن ذلك ، بل هى ثابتة . فهى حينئذ لاتصلح الا
لسكان مستقرين يكتثون دائما فى مكان واحد ويكُونون (قرية)
يعيشون فيها مجتمعين . فالصورة الاولى تمثل (قصرا) او (قلعة)
مبنية فوق مرتفع من الارض . فهم يجعلون هناك اموالهم وذخريهم ،
ويبنون بيوتهم حولها . وهذه الصورة تمثل مغاور وكهوف للسكنى
كما نراه الى يومنا هذا بجهة مطاطه والصورة الاخرى تمثل بيوتا
او غرفا منضدة فوق بعضها كببوت النحل وذلك ما نراه الى الان
بجهة مدنين (يشير المعلم) الى هذه الاماكن باستعمال الخريطة)

٤ – العائلة والقبيلة والشعب

نقارن بين حياة المنقلين وحياة المستقرين نرى ان اسلوب حياة
المستقرين العائشين فى قرية واحدة والمتساكنين بكيفية مستمرة . . .
ان هذا الاسلوب يحتاج الى (نظام) والى (قوانين عرفية) اكثر من
القبائل المتنقلة فيكونون (شبه جمهورية صغيرة خاضعة الى حكم
الجماعة)

فالانسان لا يمكن له ان يعيش وحده منفردا ، – بل نراه فى
البداية يكون (عائلة)

– ثم تجتمع العائلات لتكون (قبيلة)

– ثم تجتمع عدة قبائل لتكون (شعبا) على راسه اغليد ، غير ان
هذه القبائل والشعوب المختلفة كانت فى بعض الاوقات تتحد وتحالف
للهجوم على الغير او لرد هجوم الغير وكانت احيانا تتخاصم
وتتقاتل وتتناحر والقوى يمحى الضعيف .

ولذلك كانت حياة القبائل على غاية من عدم الاستقرار
(نقارن بين حياة الاستقرار والاطمئنان التى نعيشها الان تحت
ظل الحكومة وبين حياة الفوضى وعدم الاستقرار التى كانت موجودة
فى الماضى وهى حياة القبائل)

٥ - الماكمل والملبس والاسلحة

- عرض صورة تتمثل اكل الكسكس (مصور التاريخ المجموعة الاولى)
(عدد ١١) : هذه الصورة تمثل امرأة تعد الكسكس فى جفنة (قصعة)
ورجلا جالسا القرفصاء وهو يتناول الكسكس بيدهما كانوا يستعملون
القصاع من الطين او من الخشب - وياكلون الكسكس ، والجلزون
(الببوش) ، واللبن ، والعسل ، ولا يشربون الا الماء الناصف

- عرض صورة تتمثل الحلى : كانوا يستعملون الحلى من الحديد او
من النحاس او القلز واحيانا من الفضة او الذهب بالنسبة للاغنياء
، ويشترك الرجال والنساء فى التزين بالحلى ، فكان الرجال يثقبون
آذانهم مثل النساء لتعليق الاقراط .

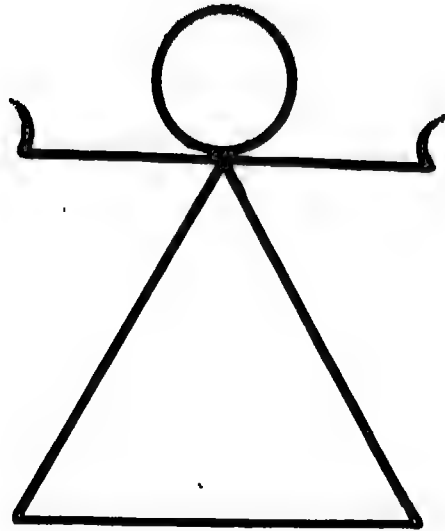
- عرض تمثال صغير من خشب او شمع يمثل لبيبا لابسا ثيابا
عتيقة (الكدرن - البرنس)

- عرض الصورة التى تمثل لباس اللوبيين (مصور التاريخ المجموعة
الاولى - عدد ٢٢) : وهى تصور تمثالا بقرطاج يعطينا صورة واضحة
لبساسة ثياب اللوبيين فى الماضى ويمكن مقارنة ذلك بما هو مازال
موجودا عندنا الى الان (مجرد جبة فضفاضة او كدرن)

- عرض الصورة التى تمثل الاسلحة ن الحجارة والصوان (عدد ٦)
(من المفيد ايضا اعداد قطع من الصوان يجعلها المعلم بمتحف القسم)
يبين المعلم ان المعادن (الحديد والقلز والفولاذ) كانت مجهولة
عند ابدايين وبهذا كانت الاسلحة فى اول الامر من الحجارة ثم من
الصوان (اوالظران) ثم صاروا يستعملون الهراوة والدبوس والمقعة
والمقلاع (يقذفون به الحجارة)

ثم اقبلوا على استعمال آلات الرماية كالقسي والحراب والمزاريق
وكانوا يخبرونها على السيف للهجوم ، ويستترون وراء درق من جلد
الفيل .

المدنية الليبية البرنيّة بالمغرب العربي في عهد الفينيقيين



التعريف بفنيقية والفنيقيين

لا يمكن ان نفهم فهما جيدا ما يتعلق بقرطاج والقرطاجيين الا من خلال الفنيقيين ومن خلال نشاطهم بحوض البحر المتوسط فينبغي ان نبدأ بهم قبل كل شيء .

— موقع فنيقية الجغرافي —

كان الفنيقيون يعيشون بالمملكة الفنيقية وهي السواحل اللبنانية الآن ما بين جبال لبنان والبحر الابيض المتوسط . فهم كانوا محصورين في ارض ضيقة تمتد بين الجبال الشاهقة من الجهة الشرقية والبحر من الجهة الغربية ، وكانت هذه الجبال الممتدة بجانب الساحل لا تبعد عن البحر اكثر من ٥٠ كم . وتقترب منه احيانا نحو ١٢ او ١٥ كم . فقط . وزيادة على ذلك فان هذا المعبر الضيق نراه ايضا بدوره مقسما الى عدة قطع منعزلة وذلك بامتداد الجبال نحو البحر مما يكون حواجز طبيعية حقيقية تنتهي في الغالب زواياها النائية عموديا في البحر . وهذا زيادة عن الانهر والسيول المتدفقة وانزاحة بمياهها في فصل الشتاء ، ولذلك فان المواصلات من مدينة الى اخرى كانت ايسر واسهل عن طريق البحر وهذا من العوامل التي جعلت من الفنيقيين بحارة ماهرين اشتهروا بالملاحة وركوب البحر وعلى الاخص « المساحلة » اي الابحار بالقرب من السواحل .

— هجوم الهكسوس —

— ومنذ ما يقرب من الف سنة ق . م . ، اي منذ بدء ظهور المملكة الفنيقية لأول مرة في التاريخ ، وقع زحف مهول اندفع كالتسيل الجراف من آسيا الصغرى واكثره من الهاتوسيين ، وهذا الزحف نشأ بدوره عن نزوح جماعات غفيرة وخلائق لا تحصى عن اوروبا ، فاكتمستحت هذه الجيوش الكثيفة اراضى كنعان اي فنيقية وفلسطين، وانضم اليها عدد كبير من الكنعانيين والاراميين وغيرهم ، وهجموا كلهم على مصر (١٨٥٠ ق . م .) وانتصبوا بالدلتا وهي اخصب

جهة واكثرها ثروة بالديار المصرية ، واستقروا هناك ما يزيد عن القرنين ، وهو ما يعرف عند المصريين (بالاستيلاء الهكسوسى) .

— استيلاء مصر على فنيقية —

نم فى سنة ١٦٠٠ ق م . م . تقريبا اطرد (احمس الاول) الهكسوس نهائيا واجلاهم عن بلاده ، غير انه لم يكتف باخراج الهكسوس بل جد فى انهم حتى انه ، انشاء مطارذته اياهم ، استحوذ فى طريقه على فنيقية ، ومن ذلك الوقت صارت ارض الفينيقيين خاضعة لمصر ، واستمرت تابعة لها وفى منطقة نفوذها الى ان حلت الكارثة العظمى ، الا وهى زحف (شعوب البحر) على آسيا وفنيقية (سنة ١٢٠٠ ق م . م) واستمر هذا الزحف الى ان اندك على حدود التراب المصرى بصمود ومسيب الثالث (١٢٠٠ — ١١٦٨) . وهذا الزحف كان له اسوا الابرار واوخم العواقب على الفينيقيين اذ ان غالب مدنهم قد اكتسحها العدو اكتساحا ، واحرقها ودمرها وتركها اترار بعد عين ، ومن جملتها صيدا وصور . . .

— تخلص فنيقية من الاستعمار المصرى —

لكن بعد مرور هذه العاصفة الشديدة ضمد الفينيقيون جراحهم واعادوا بناء مدنهم من جديد . غير ان علاقتهم مع مصر اعتراها الفتنور . . . ثم تخلصت فنيقية نهائيا من الاستعمار الفرعونى سنة ١٠٠٠ ق م . م . تقريبا الى فى آخر دولة الفراعنة الريمسيين ، وبدا بذلك عصر استقلال فنيقية وعصر ازدهارها وحياتها السامية الخاصة التى عرفها ووصفها هوميروس فى اشعاره .

— ازدهار مدينة صور —

وازدهرت على الاخص مدينة (صور) ودام هذا الازدهار الكبير مدة خمسمائة سنة تقريبا ، الى من سنة ١٠٠٠ ق م . م الى سنة ٥٠٠ ق م . م . وفى تلك المدة اشتهرت صور بالتجارة والاسفار والتوسع وذلك بانشاء المراكز التجارية (comptoirs) والمستعمرات الفنيقية (colonies)

الفينيقيون بافريقية الشمالية : المراكز التجارية

يمكن ان نقول بان الاستعمار الفينيقى يعتبر بالنسبة لافريقية

الشمالية كبداية العصور التاريخية .

وقد بدا هذا الاستعمار بتأسيس مراكز ومحطات (stations) ثم مصارف ووكالات تجارية (comptoirs) ثم باقامة مستعمرات استقرت بها جاليات فنيقية

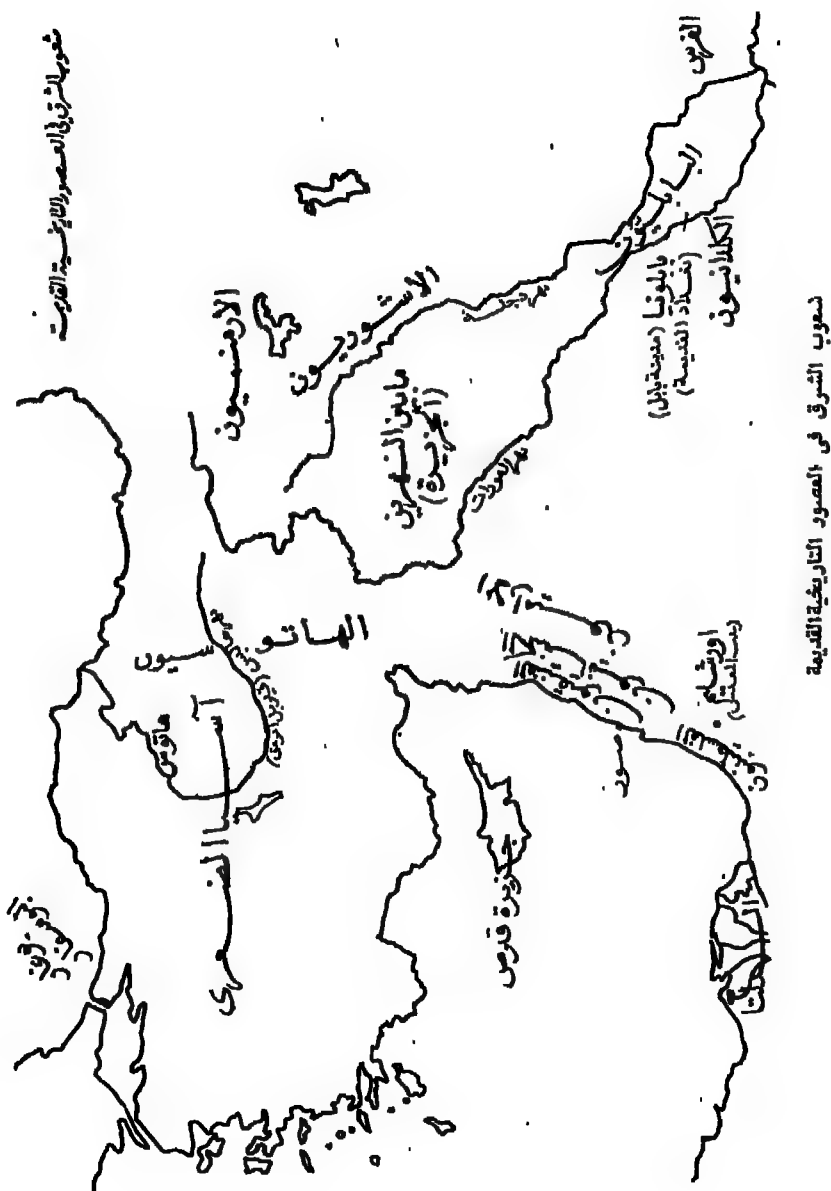
وقد تجاوز الفنيقيون من اهل صور اعمدة هيرقليس (اى مضيق جبل طارق) فاسسوا بالجنوب الغربى من ايبيريا (اسبانيا) مدينة قادس وذلك سنة ١١١٠ ق م . لاقتناء معادن الفضة ، وكذلك معادن القصدير (étain) التى كانت تجلب الى مستودعاتهم هناك من جزر القصدير (Iles Cassitérides) وهى كائنة جنوب بريطانيا العظمى وتعرف اليوم بجزر سيلى (Scilly) او جزر السرلنغ (Sorlingues) وكلمة (قصدير) مأخوذة من اسم الجزر المذكورة (قصدير يد) .

كما انشأوا ايضا مراكز ومحطات كثيرة فى طريقهم من صور الى قادس، واقدمها اوتيكة سنة ١١٠١ ق م . ولبتيس الكبرى او لبة بلييا (Leptis Magna) ولبتيس الصغرى او لمطة قرب سوسة (Léptis Minor) وحدرموت اى سوسة (Hadrumète) ، وهيبوزياريت اى بنزرت (Hippo Diarrhytus ou Ziarite) وهيبورجيس او بونة عناية بالجزائر (Hippo Régius) . . .

وهذه المراكز كانت فى الحقيقة كثيرة جدا ، وكان غالبها عبارة عن مجرد اساكل بسيطة (١) ، وهذه المحطات او الاساكل المتواضعة نجدها فى كل ثلاثين كيلو مترا تقريبا . وذلك لان الفنيقيين كانوا لا يتعدون عن السواحل ، وهو ما يسمى بالمساحلة (Cabotage) وكانوا فى حاجة الى الارساء من حين لآخر فى هذه المرافىء يلجؤون اليها كالحاج البحر وعصفت الرياح والزوابع، وفيها ايضا يستريحون من اتعاب السفر ، ويتزودون بالماء والطعام ، ويصلحون سفنهم ، ويدبرون شؤونهم . .

اما اقامة المستعمرات اى المدن التى استوطنتها الجاليات الفينيقية المهاجرة فلم تكن كثيرة العدد ، وقد ذكرنا اهمها مثل اوتيكة ، وبنزرت ، وسوسة ، ولمطة ، ولبة . . . وكذلك ونوسة (Oinoussa)

(١) بالعربية اسكلة ج اساكل ، وبالفرنسية Echelle او Escale وبالطليانية (Scala) ومنها انت الكلمة العامية (صقالة)





١ - موقع فنيقية وتونس.

لوحة ٢٤
انظر الصفحة رقم ٨٨ من هذا الكتاب



اسطورة جلدة الثور (تيرصة باللة اليونانية

او بورصة (Byrsa) او قمبية (Kambé) باعتبار اختلاف المؤرخين وهو المكان الذى ستؤسس به فيما بعد المدينة الكبرى والعاصمة العظيمة (قرطاج) .

ويرى بعض المؤرخين بان الاسباب الداعية لاقامة هذه المستعمرات ترجع الى تكانر عدد السكان فى ام الوطن خصوصا اذا اعتبرنا ما كانت عليه من الضيق بين البحر من جهة والجبال من جهة اخرى . . . او احتيانا خلاقات مدنية وخصومات داخلية بين بعض الكبراء وارباب السلط . . .

وربما كان ذلك صحيحا ، ولكن يظهر ان انشاء هذه المراكز الجديدة وتعميرها بالفنيقيين كان، فيما يتعلق بالكثير منها على الاقل، سائرا حسب برنامج مسطر وخطة معينة وبناء على اوامر وتعاييم رسمية صادرة من حكومة (صور) التى كانت تقوم بنفسها بالمصاريف اللازمة لذلك . . .

وكان الغرض من تلك الانجازات فى البداية السياحة والارتداد والاستطلاع ، وهو نشاط تولدت عنه التجارة وما يتبعها من فوائد وارباح طائلة ، الشيء الذى ادى الى اقامة المستعمرات وانشاء المراكز الثابتة والمستمرة ، وتعميرها بالجاليات الفينيقية . ولذلك يمكن ان نميز بين طور اول وهو طور مجرد التعرف والاستكشاف ، وطور ثان وهو طور التوسع والاستغلال والاستعمار والتجارة .

فكانوا ياتون بالبضائع المصنوعة كالمنسوجات ، واوانى الفخار، والحرز من الزجاج ، وصبغة الارجوان . . . وياخذون فى مقابل ذلك القوت والمؤونة ، واشياء مختلفة للبيع او للصناعة كجلود الحيوانات، وريش النعام ، والعاج (انياب الفيل) والصمغ ، وغير ذلك . . .

وان اهل (صور) بفضل بعثاتهم البحرية كونوا اتصالات مستمرة بين شعوب الشرق الادنى والشعوب الغربية وساعدوا بذلك على انتشار المدنية فى كامل حوض البحر المتوسط .

وكان الفنيقيون فى حاجة الى ربط علائق ودية طيبة مع الاهالى ، لان هؤلاء الاهالى هم الذين كانوا يمونون تجارتهم ، ويمدوهم بيد عملة حازمة ، قوية ، ناشطة وباجور غير مرتفعة . ويظهر انهم كانوا يتزوجون ببنااتهم ، ويزورونهم فى بيوتهم ومجلااتهم ، ولا يخافون من التوغل داخل الاراضى الافريقية ، لكن المدن والمراكز

التي انشاؤها كانت كلها مقامة على الشواطىء والسواحل ، وذلك لان الفينيقي كان لا يلتفت الى الارض اليابسة ولا يهجه شأن البحر وامتلاك الاراضى ، بل كان يميل بكليته الى البحر ويرى نفسه سعيدا وفى محيطه الطبيعى كلما كان يسبح بسفينته على ظهر الماء .

وهكذا امكن للفنيقيين ان يصلوا الى المحيط الاطلسى ، سعيا وراء ذهب السودان ، وفضة اسبانيا ، وقصدير انكلترا
وكذلك نحاس ترشيش

ونحن كلنا نعرف جيدا بلاد السودان ، وبلاد اسبانيا ، وجزر القصدير جنوب انكلترا ولكن اين كان يا ترى موقع ترشيش (Taris Tartessos)

ان كثيرا من المؤرخين يجعلون (ترشيش) قرب مدينة قادس التي انشاها الفينيقيون باسبانيا بجانب مصب نهر الوادى الكبير ، او يطلقون اسم ترشيش على كامل تلك الجهة .

وذهب غيرهم اخيرا وعلى الاخص بعض العلماء الالمانيين الى جعل موقعها على ضفاف شط الجريد بالجنوب التونسى ، وكان العرب يسمونها (مدينة النحاس) لانها كانت تصنع وتصدر معدنا يشبه النحاس الاصفر (Le laton) ويقولون بان هذه المدينة كانت وجهة التجار اليونانيين والاقريطيين والفنيقيين واليهود ، وكانت من اكبر الموانى لاتصال شط الجريد بالبحر فى ذلك الوقت ، ويستدلون ايضا على ذلك بكثرة عدد المراكز التجارية بكامل تلك الجهة، ما بين السرت الكبير والسرت الصغير ، اى ما بين برقة وقابس ، اذ كان يفوق عددها العشرين ، حتى انهم كانوا يسمون تلك الجهة فى القديم (جهة المراكز التجارية) (Région des Emporia) وكانوا يشترطون على الرومانيين بمعاهدات رسمية وممضاة من الطرفين عدم الوصول الى تلك الجهة خشية من ان يطلعوا على اهمية نشاطها التجارى ومما كثرة هذه المراكز والاسواق الا نتيجة اهمية تلك الجهة من الناحية التجارية ، وهو دليل على وجود مدينة تجارية عظيمة فى ذلك المكان

وليسست هذه النظرية بمستبعدة خصوصا اذا علمنا بان جنوب شط الجريد يسمى بصحراء مدينة النحاس وان الموقع الذى يقال انه كانت فيه مدينة ترشيش او مدينة النحاس كان يسمى بعد الفتح الاسلامى العربى الى ما بعد القرن الثانى عشر للمسيح او الخامس للهجرة ، كان يسمى (طرة او تورة) وباللاتينية (Turris) وهذا الاسم يذكرنا بحروفه وبرنته فى السمع بترشيش (قارنوا

بين ترشيش Tarsis وتوريس او تورة او طرة (Turtis)
لكن هذه كلها مجرد احتمالات ينبغي ان تؤيد وان تدعم بانار او
بنصوص قديمة لا تترك مجالا للشك .

وكانت جميع هذه المراكز التجارية وهذه المستعمرات تابعة لمملكة
صور الفينيقية وهى ام الوطن ومركز الدولة بالنسبة اليها .

مملكة صور بفنيقية

ومن اشهر ملوك صور فى تلك المدة (ايببيل) تم ابنه (اهيرام)
(من سنة ٩٨٠ الى سنة ٩٣٦ ق م .) وهو المشهور بعلاقته
المتينة مع سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وهو الذى وسع
فى مدينة صور بردم البحر وضم الجزيرة الصغرى الى الجزيرة الكبرى
وهو الذى جدد بناء المعابد القديمة وانشأ معابد اخرى جديدة ونظم
الموانىء للسفن ، وهو الذى استعان به سيدنا سليمان فى بناء معبد
اورشليم (بيت المقدس) فمد به المواد البنائية اللازمة وعلى الاخص
خشب الارز المشهور بلبنان ، كما مده بالمهندسين الفنيقيين وبالفنيين
وبجميع ما يحتاج اليه . وكذلك اعانه على انشاء اسطول بحرى ،
مع اهتمامه فى الوقت نفسه بانماء التجارة الفينيقية مع قبرص
واسبانيا وغير ذلك من الاقطار . . . ونتج عن هذا التعاون وعن هذه
الصداقة المتينة ازدهار كبير وخير عميم للطرفين ، وهذا يقيم
الدليل على فائدة التآزر والتكافل بين الامم مكان التناحر والتطاحن،
وهذا هو سبب سمعة هذين الصديقين وهما اهيرام وسليمان
واشتهارهما بالحكمة والفطنة وسداد الراى وبعد النظر . . .

ثم انه فى سنة ٩٢٦ ق م . رد الفنيقيون هجوم ملك مصر
شيشوق الاول وهو كما ذكرناه من اصل لوبى .

ومن ذلك التاريخ بدأت القلاقل بفنيقية لاسباب داخلية (اغتيال
عاشر باص زوج عليسة) واسباب خارجية (خطر هجوم الاسوريين)

- الاسباب الداخلية : اغتيال الكاهن عاشر باص زوج عليسة -

ان كمية كبيرة من الارشادات التى وصلت الينا حول هذه القلاقل
الداخلية لها علاقة بتأسيس قرطاج ، غير انها تعتبر خرافية ومن نوع
الاساطير . . . ومن ذلك ان الملك (مطان) حفيد الملك (ايتبيل)
نخلف ابنا وهو (بغماليون) وابنة وهى (عليسة) او (ديدن) .
فعمد الملك بغماليون اباه بعد موته سنة ٨٣٠ ق م . تقريبا .

وحكم في اول الامر تحت اشراف ووصاية اخته عليسة التى تزوجت
بخالها (عاشر باص) كبير كهنة الاله (ملقرط) او هيرقليس كما
كان يسميه اليونانيون .

وتقول الاسطورة بان الملك بغماليون اغتال خاله عاشر باص
للاستيلاء على ثروته الطائلة ، او ان الحزب الديمقراطي نار فى وجهه
وقتله . فمنعت عليسة اخاها من الاستحواذ على الكنوز التى كان
اخفاها زوجها بالمعبد وغيبها فى جوف الارض حتى لا تمتد اليها
يد ابنة . واحتالت عليسة ، لما غفلت عين اخيها عن مراقبتها ،
فشحنت سفينة بتلك الذخائر والاموال ، وابتحرت الى قبرص
مصطحبة فى ركبها نلة من وجوه القوم سرها امرهم واعجبها
سلوكهم ، ثم شدت رحاها من تلك الجزيرة حاملة معها فئة من حسان
العذارى ، وفصدت افريقية ، وارسى بالمكان الذى اختارته لتأسيس
مدينة قرطاج . (٨١٤ ق م)

— الاسباب الخارجية : هجومات الاشوريين

ان مملكة اشور لا يمكن لها ان تنمو وتزدهر ويكون لها شان الا
اذا كانت لها منافذ على البحر تمكنها من انشاء الاسواق وترويج
البضائع . ولذلك كانت انظارها منجهة دائما نحو فنيقيا وكانت
تترصد الفرص للاستيلاء عليها .

فكان ملكهم (سلمان اشار الثالث) Salmanasar III (من
٨٦٠ الى ٨٢٥ ق م) يفرض عليها دفع الاموال الطائلة ويتصل
مرات عديدة بفراغات تدفعها صور وصيداء والجبليل . ثم نراه
يستولى على مدينة (ارواد) ويهاجم المدن الساحلية الاخرى قصد
امتلاكها والاستحواذ على خيراتها ثم يحتل مدينة صيداء . . .
وقد وجدت الكتابة التالية محفوظة فى اخبار الاشوريين وهى
تتعلق باستيلائهم على مدينة صيداء :

انا ملك اشور استوليت على صيداء الكائنة على شاطئ
البحر ، وهدمت بناءاتها ، واستحوذت على خيراتها المدهشة ،
وعلى الغنائم الغزيرة من ذهب وفضة ، وجواهر وحجارة كريمة ،
وادباش ، وعبيد ، وانعام . . .
اما عبد ملقرط ملك المدينة الذى فر هاربا وسط البحر مثل
السمة ، فقد اصطدته من وسط اليم وقطعت راسه . . .

وبعد محاولات كثيرة تمكن الاشوريون من الاستيلاء على جميع المدن الساحلية ما عدا مدينة (صور) فهي قد صمدت في وجه العدو وردت جميع غاراته . حتى ان الاشوريين جمعوا في احدى المرات ستين سفينة حربية من صيداء والجبيل وارواد ، وحاولوا النزول بجزيرة (صور) غير ان حماة الجزيرة اظهروا بسالة نادرة فاهلكوا اسطول الاعداء باننتى عشرة سفينة فقط واخذوا ما يزيد على خمسمائة اسيرا من الاشوريين وكان النصر حليفهم . . .

وتكررت وتواصلت هجومات الاشوريين ضد مدينة (صور) ، وتوالى نصب الحصار عليها مرات كثيرة ، لكن بدون جدوى وبدون ان يتمكن العدو من احتلال تلك المدينة الباسلة ، نظرا لمناعتها اذ كانت في ذلك الوقت جزيرة حصينة غير متصلة بالبر . وفي تلك المدة ، اثناء تلك الهجومات المتتابة والفاشلة ، قدم جماعة من (صبور) ، وعلى راسهم الاميرة (عليسة) واسسوا مدينة قرطاج .

ويرى كثير من المؤرخين ان خوف الصوريين من استيلاء اعدائهم الاشوريين على تروثهم الطائلة وعلى ذخائرهم ، منلما وقع لبقية المدن الفينيقية الاخرى . . . ان هذا الخوف ، مع توقع السقوط في قبضة الاعداء من يوم لآخر ، هو الذى حملهم على تهريب تلك الثروة مع الاميرة عليسة واصحابها ، فكان الخروج خفية من صور الى جزيرة قبرص اولا ، ثم من قبرص الى سواحل افريقية ، وكان تاسيس قرطاج (٨١٤ ق م) كان كل ذلك حسب خطة مدبرة ، وتنفيذا لمامورية رسمية باتفاق مع حكومة صور ، بل بامر منها وحسب تعليماتها ، لا رغم ارادتها كما يظن بعضهم .

واكبر دليل على ذلك هو ان العلاقة بين صور وقرطاج كانت من البداية الى النهاية مبنية على التعاون والتآزر ، فكانت قرطاج تبعث بالمال سنويا الى ام الوطن وتعتبر نفسها مرتبطة بها ، وكانت تبادر لنبذة مستعمراتها كلما استنجدت بها ضد هجوم الاعداء ، فكانت تقوم بذلك الواجب عن طيب خاطر نيابة عن صور لانها كانت اقرب منها مسافة ، واسرع لمديد المساعدة ، وكذلك لما صارت صور تحت سيطرة الفرس ، فان الصوريين ساهموا وشاركوا في جميع غزوات (قمبروز) ملك فارس ، لكنهم امتنعوا من الزحف ضد قرطاج لما اراد هذا الملك الاستيلاء عليها فكان مضطرا الى العدول عن عزمه والنزول

عند رغبتهم فى عدم التعرض اليها بسوء ، وتكرر منهم مثل ذلك الموقف مرة اخرى لما اراد اسكندر الاكبر المقدونى القيام بمثل ذلك العمل فامتنعوا امتناعا كليا وصدوه عن عزمه فى المسير للاستيلاء على مدينة قرطاج .

خلاصة ما تقدم

— كان الفينيقيون يسكنون مملكة فينيقيا وهى جمهورية لبنان اليوم . وكانوا اهل تجارة وصناعة ، وكانوا على الاخص بحارة اصحاب سفن ومراكب .
— اسسوا مراكز تجارية ومستعمرات على طول السواحل الافريقية مثل قابس وسوسة واوتيكة وبزرت . . . وقادس باسبانيا .
— وقد كونوا ، بفضل تنقلاتهم البحرية ، اتصالات مستمرة بين شعوب الشرق الادنى والشعوب الغربية وساعدوا بذلك على نشر المدنية فى كامل حوض البحر المتوسط .
— وفى سنة ٨١٤ ق م . قدمت عليسة ملكة صور مع جماعة من الطبقة الارسطقراطية وارسى قرب تونس ، بالمكان الذى اختارته لتأسيس مدينة قرطاج .

تأسيس قرطاج

— رواية جوستينيوس : قد روى المؤرخ الرومانى جوستينيوس فى الجزء الثامن عشر من تاريخه قصة تأسيس قرطاج مع بيان كل الظروف والتفاصيل المتعلقة بذلك التأسيس وفى مقدمتها اسطورة هروب عليسة بذخائر زوجها المقتول . واليك هذه الرواية نقلها اليكم لاهميتها (١) :

« عين مطو ملك صور خلفا له وهو ابنه بيغاليون ، وهو مازال فتى يافعا ، وابنته عليسة وكانت على غاية من الحسن والجمال ، بنى بها خالها عاشر باص وهو كاهن هيرقليس (Hercule) وكان مهيب الجانب موقور الحظ ، لا يعلوه بين الشعب الا الملك وحده ، وكان الى هذا ثريا عريض الثراء ، تملكه الجزع على امواله الطائلة ،

(١) نقلا عن الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح) بشرى من التصرف .

فغيبها فى احشاء الارض بعيدا عن مسكنه ، خوفا من طمع بيغماليون
ومن جشعه ...

« وطار نبا الكنز المغيّب فى جوف الارض حتى اتصل، بسمع الملك
بيغماليون فحرك رغبته لامتلاكه ، ولو اداه ذلك الى دوس ما اتفق
عليه الناس من مثل حسنى ومبادئ عليا ، فقتل ذلك الذى كان فى
الوقت نفسه خاله وصهره ، توطئة لانسباغ نهمته وارضاء شهوته ...
« واستشاطت زوجة القتل غضبا على اخيها الذى اقدم على ارتكاب
مثل هذه الخطيئة الشنعاء ، وعافت مرآه ، غير انها كتبت عواطفها ،
واصطنعت البشر ، واقبلت على اخيها توهمه بانها تريد ان تفارق
مسكنها مبعث القلق ومثار الذكريات الاليمة ، لتعيش معه وفى كنفه
وكانت تقول له ذلك وهى تبتسم فى وجهه ، وفى جوفها بركان من
الحقد والاليم يضطرم ويحرق احشاءها »

« فقبل اخوها ذلك بكل السرور والابتهاج لانه كان يظن ان كنوز
عاشر باص ستدخل بيته مع اخته عليسة ، وارسل خدمه معها
ليمدوها بالعون فى نقل متاعها ...

« ولما اتى المساء توغلت عليسة فى عرض البحر وامرت الخدم بان
يلقوا فى اليم اكياسا ، كانت اعدتها من قبل ، وملأتها حجارة ورملا،
وربطتها باعتناء ، ليتوهموا انها تحتوى على الاموال التى ينتظرها
سيدهم . وبينما كانوا ينفذون اوامرها ويقذفون بالاكياس فى قعر
البحر كانت عليسة تبكى وتنادى زوجها عاشر باص بصوت ملؤه
الحزن والاسى متوسلة اليه ان يتقبل منها ، كهديّة الميوثى ، تلك
الاموال التى كانت سببا فى قتله »

« ثم التفتت بعد ذلك الى الخدم وقالت لهم بان العذاب الاكبر سيسلط
عليهم من سيدهم لانهم فرطوا فى الاموال التى كان ينتظرها ذلك
الطاغية بلهفة شديدة . فارتعدت فرائصهم من الخوف لما سمعوا
كلامها وطلبوا منها ان تتركهم يرافقونها فى هجرتها فابفتهم معها .
ثم التحق بها جماعة الاعيان الذين كانوا على اهبة استعداد للسفر
بصحبتها تلك الليلة »

« فرسوا اولا بجزيرة قبرص وتلقاهم كاهن تلك الجزيرة بكل حفاوة
وسلمت اليه عليسة جانبا من اموالها . وكانت العادة بقبرص ان
يرسلوا بناتهم ، فى اوقات معينة ، الى الشاطئ ليضحين ببتولتهن

للإلهة فانوس ويقوم ذلك عندهن مقام المهر ، وهذه العادة تعرف
بالبغاء المقدس . فاختت عليسة منهن ثمانين بنتا مازلن
عذارى طاهرات ، وضمنت بذلك قرينات للسنبان الذين كانوا معها
واعقابا وانجالا للمدينة المقبلة . . .

« اما الملك بيغماليون فانه لما بلغه فرارها ، احتاج غضبا ، واعتزم
ان يطاردها انى حلت حتى يظفر بها ويطعنها الطعنة التى تلحقها
بزوجها . وتوسلت اليه امه ان يعدل عن قتلها ، فاستجاب لها
مخافة ان تلحقه لعنة الآلهة ويدركه انتقامها ، خصوصا وقد انبأه
العرفون نبا المدينة التى ستنشئها اخته بعد حين ، وحذروه من
مقاومتها ، ومن تعطيل تأسيس هذه المدينة التى سيقدر لها ان تكون
اعظم مدن الارض حظا ، واوفرها فى القوة نصيبا .

« ثم تقدمت عليسة (او ديدو كما كانوا يسمونها احيانا) الى
افريقية ، ووجدت بها ناسا يميلون الى الغرباء ويحنون الى لقياهم ،
ويقبلون على التجارة معهم بالمعاوضة والمقايضة . فابتاعت قطعة
ارض لا تتجاوز مساحتها ما يشمله جلد ثور . وبعد حصول الاتفاق
على البيع مع اللوبيين على ان يدفع لهم الثمن اقساطا سنوية ، امرت
عليسة اتباعها بقد ذلك الجلد قدا رقيقا فى صورة سير طويل احاط
بقطعة اكبر من التى كانت تظهر الاقتناع بها . ولذلك اطلقوا على
ذلك المكان اسم بيرصة . » (ومعناه جلد ثور باللغة اليونانية) .

ومما لا شك فيه ان القصة المتعلقة بجلد الثور والتى شاركت فى
نقلها اجيال كثيرة قد نشأت اما فى وسط يونانى ، فهى حينئذ من
مصدر يونانى ، او فى وسط قرطاجى متهلن (اى متأثر باليونانية)
وذلك لان هذه القصة لا يمكن تفسيرها الا بالالتباس الناشئ عن
الشبه الموجود فى النطق بين كلمة (بيرصة) ومعناها باليونانية
جلد ثور ، وبين كلمة (بورصة) ومعناها بالفنيقية الفلعة والحصن
المنيع ، وهو المعنى المقصود هنا . . .

وقد نوافدت على ذلك المكان جموع من البقاع المجاورة يجلبهم
الامل فى الربح ، وعرضوا بضائعهم الكثيرة التى اتوا بها معهم ، ثم
استقروا بانفسهم فى ذلك المكان ، وامت وفود الوتيكة بالهدايا لمن
كانوا يعتبرونهم كاخوة ومواطنين لهم . . . وهكذا تأسست (قرط
حدثت) اى المدينة الحديثة التى سماها اليونانيون (قرخيدون)

والرومانيون (قرطاغو) ، والعرب (قرطاجنة) ونسميها اليوم
(قرطاج) وكثرة الاسماء تدل على قيمة المسمى . . .

- انتحار عليسة (١) -

« وكان الناس يتسابقون في الحديث عن (عليسة) ملكة قرطاج،
ويتبارون في الكلام عن فتنة جمالها ، وعدوبة صوتها ، ورشاقة قدها،
وظرف حدينها . . .

« وبلغت احاديثهم سمع (يوباس) ملك الليبيين، فارسل في طلب
الذين يتزعمون المدينة الجديدة ، واسعرهم بأنه يريد ازواج بملكته
وان رفضها ينجر عنه حرب ضروس تنتهي بمدينتها الفاشئة الى
الحراب العاجل والفناء المحقق .

« ولما عاد الرسل احتالوا في عرض هذا المطلب على مسميح الملكة
وقالوا لها ان الملك يبحث عن شخص يقدر على تهذيبه وتهذيب شعبه
وبث آداب المتدنيين في رجاله . . . نم اردفوا كلامهم بقولهم : «ولكن
من الذى يرضى ان يهجر وطنه واهله الى شعب يشبه ابناؤه الوحوش
خشونة وجفافا ، ليهذب مشاعرهم ، ويرقق طباعهم ، ويحمل نفسه
كل هذه المشاق والاعاب ؟

« فلامتهم على تقاعسهم ، واخذت تشرح لهم بان احتمال الحياة
العسيرة والثقيلة ليهون في سبيل الوطن ، وان ما يعود على الهمم
المجاورة من خير على يد الفاتحين مرده لهم ومرجع فضله اليهم .

« فشدوها بقولها، واطلعوها على رسالة الملك، وبسطوا لها حقيقة
الامر ، وطلبوا منها ان تبدأ بنفسها باتباع ما اشارت به . فاحست
بان كلامها لوقعها في الشرك ، لانها كانت تكبر عهدا ، وتحترم
وعدها ، وتعتبر نفسها متلا اعلى للشعب به يقتدى وعلى ضوئه
يسير . . .

« ولكنها من جهة اخرى لا تستطيع الاجابة لهذا الاثم ، فهي لم
تجنس مشاق السفر ، ولم تتحمل اخطار الهجرة وعذاب الاغتراب
الا مرضاة زوجها في قبره .

« والتزمت الصمت قليلا ، ومر بخاطرها طيف زوجها الذى فجعها
فيه جشم اخيها ، فحركتها الذكرى الى الحنين اليه ، فانفجرت باكية
ترتى زوجها ، وتندب مصيرها . ثم طلبت اليهم ان يملوها ثلاثة

(١) عن الدكتور توفيق الطويل بتصرف .

اشهر ، وقالت انها سوف تذهب اين يناديها حظها وحظ المدينة :
 « وقبل انتهاء ذلك الاجل امرت باقامة كومة من الحطب بطرف
 المدينة ، واشعلت النار فيها ، وقدمت لها القرايين من شياه وثيران
 ثم ارتقت بنفسها تلك الكومة والسيف بيدها ، والتفتت الى شعبها
 وهى تقول : « انكم تريدون منى ان اذهب الى زوجى . . . ها انذا
 ذاهبة » ثم استلت سيفها من غمده وغيبته فى صدرها والقت
 بنفسها فى النيران . وهكذا انتهت عليسة وهكذا صارت تقبّس
 بقرطاج مثلما تقبّس الآلهة ! »

• ماذا نستنتج من هذه القصة ؟ وكيف نفسر انتحار الملكة ؟

• ان كثيرا من الاقوام البدائية كانوا يعتقدون ان سعادة القبيلة
 وازدهارها ، وعمران الطبيعة نفسها ، كل ذلك مرتبط ومتصل بوجود
 قوة مندسة ، او طاقة كامنة ومتجسمة فى شخص رئيس القبيلة .
 وهذه الطاقة تتضاءل وتتناقص مع الايام والسنين ، وبطول المدة ،
 ولا يمكن تجديد او ارجاع تلك القوة المقدسة الا بوسيلة واحدة
 وهى التضحية بالملك الذى ينبغى ان يجرّد نفسه وان يتقدم قربانا
 للآلهة ، ثم بعد موته تقام له الشعائر الدينية .

ويقع تقديم هذا القربان البشرى فى الخالب اثمر زواج دينى
 يقترن فيه العاهل بالآلهة تمثل الارض التى هى بمثابة امنا ومفعول
 هذا الاقتران المقدس ، وهذه التضحية الكبرى ، نوع من الالتحاق
 يعم كل شيء ، وينجر عنه اخصاب التربة ، واكثار النسل والاولاد ،
 وكل الحيرات .

وان اسطورة موت عليسة تتفق تمام الاتفاق مع هذه العادة المتبعة
 فى الطقوس الدينية عند الاقدمين . فان الملك اليبى الذى ارادوا ان
 يزوجوا به عليسة يمثل القوة والطاقة المسيطرة بالارض الافريقية
 والتى ينبغى استمالتها واستعطافها لفائدة القادمين الجدد حتى يتم
 التوفيق بينها وبينهم . وان انتحار عليسة واحتراقها وسط النيران
 يمثل التضحية ويعتبر قربانا تكون عاقبته خيرا ونتيجته ازدهار
 المدينة الجديدة ونجاح اعمالها ورضاء الآلهة عليها . . .

• ونحن نعرف من جهة اخرى ان الفنيقيين كانوا يتعاطون التضحية

الملوكية وهى عادة تركت اثارها بمصر واقريطس . وإن القرطاجيين الذين اشتهروا بمحافظتهم على تقاليد آبائهم وبشدة اعتقادهم فى الاوهام والحرافات، قد بقوا متمسكين ومتشبثين بتلك العادة الوحشية مدة طويلة . ففى سنة ٤٨٠ ق م . نرى الملك عملقار (وهو غير عملقار برقة ابى حنبعل) يلقى بنفسه فى النيران مثلما فعلت بنفسها عليسة ، وذلك اثر انهزامه امام اليونانيين بمدينة هيمير بصقلية . ومثلها ايضا القت زوجة صدر بعل بنفسها فى الحريق مع ولديها سنة ١٤٦ ق م . اى اثر انتصار الرومانيين فى الحرب البونيقية الثالثة .

ولكنهم كانوا احيانا يعوضون الملك بضحية اخرى اقل قيمة منه، غير انها تقاربه نوعا ما ، حتى لا تتالم الآلهة من ذلك التعويض ، فكانوا يختارون فى الغالب واحدا من اولاد الملك او احد ابناء الاشراف والعائلات الاستقرابية كما سنرى ذلك فى مكانه .

- موقع قرطاج -

اختارت عليسة لتأسيس قرطاج شبه جزيرة خارجة فى البحر لها شبه كبير بالموقع الجغرافى الذى تأسست فيه مدينة صور ، خصوصا اذا اعتبرنا ان سبخة اريانة كانت متقدمة وداخلة فى البر اكثر مما نشاهده اليوم ، وكانت عبارة عن خليج كبير يسمى خليج اوتيكا ، وان مصب وادى مجردة كان لا يبعد عن مدينة قرطاج باكثر من عشرة كيلومترات فقط . فالردم الذى احده وادى مجردة . بنقل التراب والغرين كان عظيما جدا ، ونشأ عن رسوب مجردة سهل السكرة الذى زاد فى عرض البرزخ او العنق الفاصل بين خليج اوتيكا من جهة والبحيرة من جهة اخرى ، وزاد كذلك ابتعاد مصب مجردة عن مدينة قرطاج نحو غار الملح حتى ان اوتيكا التى كانت فى ذلك العهد مرسى على شاطئ البحر اصبحت الآن تبعد عشرة كم . ومن جهة اخرى فان الوادى المليان الذى ينصب فى خليج تونس قد جرف هو الاخر غرينا ورسوبا وكون بذلك برزخ «تينيا» جنوب حلق الوادى .

اما البحيرة فلم يكن فيها كثير من الوحل الراسب فى قعرها

منلما هى عليه الان ، بل كانت مرسى فسيحاً صالحاً لارساء المراكب
حتى عند اشتداد الزوايح والعواصف .

وبالجملة فان عليسة كانت موفقة كل التوفيق فى اختيارها ذلك
الموقع الممتاز الذى سيجعل من قرطاج اجمل ثغر على شاطئ افريقية
الشمالية يهيمن على اتصال الشرق بالغرب ، فيبسط للشرق
يمناه ، وللغرب يسراه ، شان عاصمة جمهوريتنا الفتية فى الوقت
الحاضر .

- عظمة قرطاج -

وقد عاشت قرطاج فى بدايتها عيشة متواضعة ، خالية من كل
ابهة وعظمة ، تكاد تكون مجهولة . ثم اخذ شانها يعظم شيئا
فشيئا ، بقدر ما كان يتضاءل شان صور بفنيقيا ، الى ان بلغت فى
اواسط القرن السادس ق . م . اقصى درجة فى العمران والغنى،
واعلى مكانة فى القوة والسيادة ، فكانت حينئذ جديرة بان تخلف
صور التى وقعت تحت سيطرة بختنصر (Nabuchodonosor) ملك
البابليونيين (٥٧٤ ق . م .) ، ثم تحت نفوذ الفرس (٥٣٩
ق . م .) ثم فى نهاية الامر فى قبضة اسكندر الاكبر المقدونى الذى
دخلها عنوة بعد حصار طويل دام سبعة اشهر وبعد ما اضطر الى
ردم البحر الفاصل بين الساحل الفينيقى والجزيرة (٣٣٢ ق . م .)
ومن ذلك الوقت صارت تلك الجزيرة متصلة بالبر (انظروا الرسم)

وقد هدم اسكندر مدينة صور تهديما ، وفر غالب اهلها الى
قرطاج ، اى المدينة التى كانت انشائها وحياتها حكومة صور الى مثل
هذه الظروف ومثل هذه الايام العصيبة . ويمكن ان نقول بان عظمة
صور لم تنته بانتهاء صور بل انتقلت من فنيقيا الى قرطاج طبق
الخطبة السياسية التى كانت دبرتها ورسمتها حكومة صور عند ما
فكرت فى انشاء مدينة قرطاج حتى تخلفها وتلجأ اليها اذا جار عليها
الدهر ودارت عليها الدوائر . فكان الامر مثلما كانت توقعته
تماما .

- قرطاج خليفة صور -

خلفت قرطاج امها صور لما فقدت هذه الاخيرة استقلالها تم حياتها
فكانت خير خلف لخير سلف ، وبدأت قبل كل شىء بجعل جميع

مستعمراتها ومراكزها التجارية تحت نفوذها ، وكذلك خلفتها في هيمنتها البحرية وفي نشاطها التجارى ، وخلفتها ايضا في سياساتها الاستعمارية ، فاخذت تزداد تدريجيا في التوسع وفي مد سيطرتها وسلطانها على البلدان والجهات المجاورة ، فحل القرطاجيون بالجزيرة اليابسة (١) Iviça سنة ٦٥٠ ق م ، واحتلوا سواحل منورقة ، واستولوا على مراكز استراتيجية بصقلية .

وفي سنة ٥٣٥ ق م طرد القرطاجيون اعداءهم ومزاحمهم اليونانيين من جزيرة كرسىكة واقاموا فيها مكانهم حلفاءهم الاترويين Etrusques بعد ما ابرموا معهم معاهدة صداقة وجوار ومجاملة . . . وكذلك انتصب القرطاجيون بسردينية واسبانيا . . .

وفي سنة ٥٠٠ ق م ابرمت قرطاج اول معاهدة صداقة وتحالف مع رومة .

وهذا كله يقيم الدليل على قوة قرطاج وشدته صولتها وشوكتها في ذلك التاريخ .

وكانت قرطاج تحرص كل الحرص وتغير على امتيازها في البحر واحتكارها للتجارة ، فكانت نامر باغراق كل الاجانب والدخلاء الذين يحاولون الاتجار مع سردينية ، او يتعمدون الاتجاه نحو اعمدة هيرقليس (اى جبل طارق) او نحو السرت الصغير (اى خليج قابس) .

وكانت كلما ابرمت معاهدة صداقة وتحالف مع دولة اخرى لا تنفل عن ادخال شرط في تحجير المعاملات التجارية بين تلك الدولة والممتلكات البونيقية .

مثال ذلك : المعاهدة المبرمة بين قرطاج ورومة والتي كنا اسرنا انيها وهذا نصها :

(١) اليابسة: هي احدى الجزر الشرفية او جزائر الباليار ، وهي ثلاث : منورقة ومبورقة ويابسة (قرب اسبانيا)

« بين الرومانيين وحلفائهم من جهة، والقرطاجيين وحلفائهم من جهة أخرى ، وقع التحالف على الشروط التالية :

لا يمكن للرومانيين ولا لحلفائهم ان يتجاوزوا فى ابصارهم الراس الجميل Beau promontoire (١) اللهم الا اذا كان ذلك لاسباب قاهرة كالزواجر او مطاردة الاعداء ، فعند ذلك يكونون مدفوعين غصبا عنهم ورغم انوفهم ، ولا يرخس لهم اشتراء او اقتناء اى شىء الا ما كان ضروريا لترميم سفنهم وجلفطتها (٢) او لاقامة شعائهم الدينية ... ويجب عليهم ان يرتحلوا بعد خمسة ايام ... »

وهذه المعاهدة يرجع عهدها الى مدة القنصلين يونيوس بروتوس وماركوس هوراتيوس ، وكانا من ابطال رجال الثورة والمقاومة لازالة الملكية واقامة الجمهورية برومة (سنة ٥٠٩ ق م ٠)

ونفهم من ذلك ان القرطاجيين كانوا لا يسمحون للرومانيين بتجاوز الحدود المذكورة والابتعاد عن راس سيدى على المكى نحو الجنوب خشية من ان يكتشفوا الحقول الخصبة الكائنة بنواحي مزاق Byzacène والنشاط التجارى بالسرت الصغير (جهة قابس) وهو ما يسمى عندهم بجهة الاسواق التجارية و بزيادة قوتها وعظمتها ، زادت المدينة اتساعا وكبرت وامتدت وانشى فيها مرسى كان من اهم مظاهر فخرها وعزتها .

- مرسى قرطاج -

بحث م. بيلي M. Beulé سنة ١٨٥٩ عن موقع هذا المرسى، فوجد آثاره شمال جون الكرم ، بين صالمبو ودرمش ، حيث نشاهد اليوم بحيرتين يلعب ماؤهما تحت اشعة الشمس ، احدهما منسببة ومستطيلة وهى القريبة من جون الكرم ، والاخرى مستديرة وهى الان فى شكل هلال (انظروا الصورة ...) وقد حفر م. بيلي فى

(١) الراس الجميل الذى ذكره بوليس هتا كان يسميه بعضهم ايضا راس ابولون Promontoire Apollon وقد اطلق عليه العرب بعد ذلك اسم راس سيدى على الكر وبه بلدة ورفراف وبلدة غار الملح Porto-Farina
(٢) جلفط السفينة او قلف السفينة بتشديد اللام (ونقول باللفة الدارجة قلفط) ادخل بين مسامير الالواح وحزوها خرقا وليفا ومشاقة الكتان ومسحها بالزفت والقاز.

ذلك المكان وبحث وفتش ونقب وتوصل الى نتائج على غاية من الاهمية والفائدة رغم الصعوبات التي اعترضته .

فان هذا المرسى قد ردمت الرمال اكبر جانب منه الى درجة جعلت المقيمين هناك من العرب يزرعون الكروم من شجر العنب والتين ، فى ذلك المكان الذى اطلق عليه اسم (الكرم) والذى كان فى الماضى البعيد تجتمع فيه سفن مختلف انحاء العالم ، وكانت تميد وتمايل وتهتز هناك وهى مربوطة بقلوسها .

وزيادة على ذلك فان الوزير الاكبر مصطفى خزنه دار شيد هناك محلا للتنزه اى فى نفس موقع مرسى قرطاج الذى صار قطعة ارض من املاكه على شاطئ البحر ، وكذلك الجنرال خير الدين وزير البحرية فهو بدوره بنى لنفسه محلا آخر يبعد عن الاول بمائتي ميتر .

ورغما عن هذه الصعوبات والعراقيل فان م . بيلي تحصل من الوزيرين على الترخيص فى حفر وتخريب ملكيهما على شرط ان يعيد كل شئ على ماكان عليه من قبل . وهكذا شرع م . بيلي فى اعماله ووجد ان مرسى قرطاج كان مزدوجا ، اى مؤلفا من قسمين (انظروا المثال ٠٠٠) :

- المرسى التجارى -

كان خاصا بالمراكب التجارية ، وكان مستطيل الشكل ، طوله ٤٥٦ م . وعرضه ٣٢٥ م . يحيط به رصيف يكتفه جداران سمك الاول ١٠،٢١ م . وسمك الثانى ٠،٨٢ م . والبعد الفاصل بينهما ٢،٥٠ م . وهكذا يكون عرض الرصيف ٤،٥٣ م . داخل فيها سمك الجدران . وبذلك المرسى مدخل او حلق Goulet يفتتح على جون الكرم عرضه ٥،٦٥ م . على مسافة طولها ١٢٦ م . يكتفه من جهة الشاطئ جدار سمكة ٢،١٠ م . وطوله ٣٢٢ م . ومن جهة داخل المرسى جدار سمكة ١،٦٠ م . وطوله ١٢٦ م . فكان الملاحون يصعدون على الحائط ويسحبون السفن بالحبال الى ان تجتاز تلك القناة الضيقة ، وقد بنوا سدا Digue لوقايتهم من ضرر الامواج ومن رسوب الرمال وما زالت آثاره موجودة الى الان تحت الماء .

ويرى م . بيلي ان هذا المدخل الضيق لم يكن موجودا فى عهد

القرطاجيين بل هو من انشاء الرومانيين الذين استعملوا نفس ذلك المرسى ولقبه البيزنطيون فيما بعد باسم مندراسيوم *Mandracium* اما المدخل الاصلى فى عهد القرطاجيين فقد اضمحل ويقول بوليبيس *Polybe* وهو من كبار مؤرخى اليونان وكان صديقا لشبيون الايميلى ، ورافق ذلك القائد الرومانى اتناء الحرب البونيقية الثالثة، وحضر بنفسه تهديم قرطاج ، وشاهد المرسى فى ذلك العهد ، يقول بان مدخل المرسى كان عرضه سبعين قدما (اى ما يقرب من ٢٣ م) وكان يغلق بسلسلة • ونقل عن بوليبيس كثير من المؤرخين ، وعلى الاخص المؤرخ اليونانى آبيان *Appien* الذى ولد بالاسكندرية وعاش برومة فى القرن الثانى بعد الميلاد ، والف كتابه الضخم (التاريخ الرومانى) ٢٤ مجلدا ، ووصف المرسى التجارى والمرسى الحربى بقرطاج فى المجلد الثامن ، وقال ايضا بان المدخل كان عرضه سبعين قدما وكان يغلق بسلسلة •

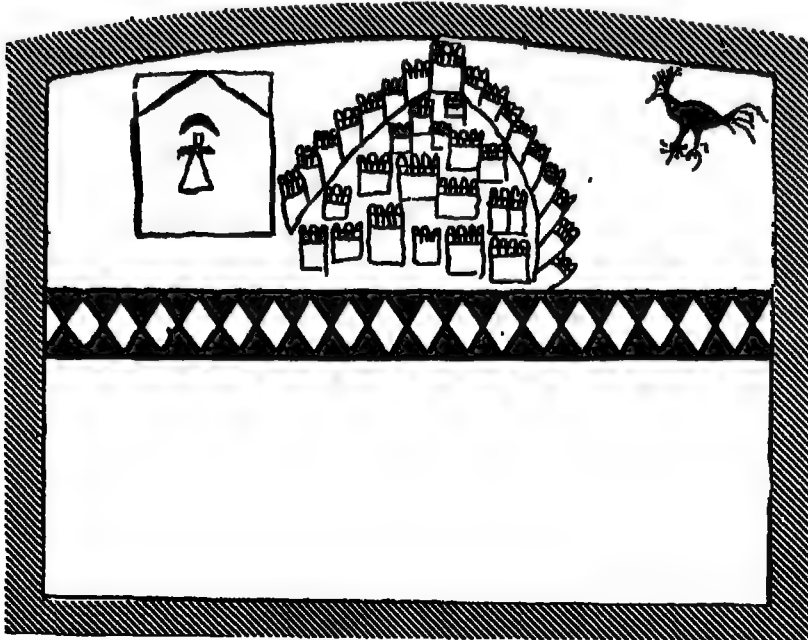
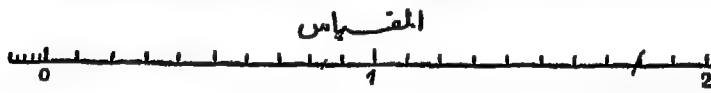
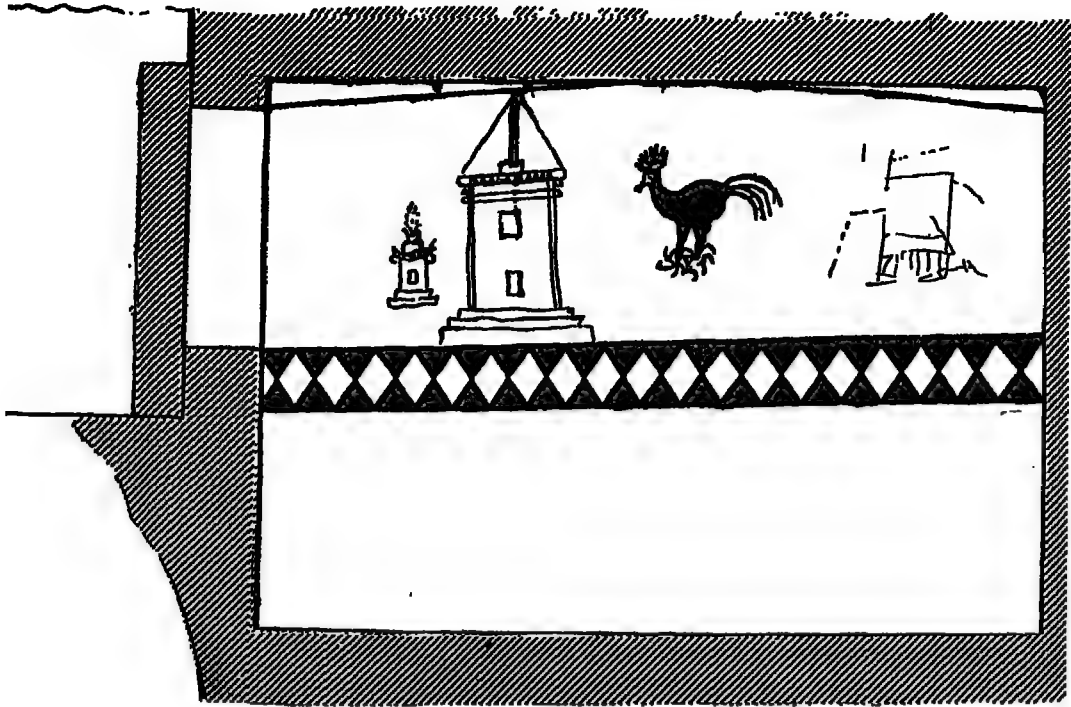
ولذلك يرى م • بيلي ان هذا المدخل الاصلى انطمس بدون شك وسدته الرمال التى كان يجرفها وادى مجردة.والتي كانت تجرها تيارات البحر وامواجه •

- المرسى الحربى -

كان خاصا بالاسطول الحربى ، وكان مستدير الشكل ، يعرف باسم القطون (*Cothon*) وتُعل هذه الكلمة مشتقة من قط بتشديد الطاء وفتحها اوقطط بمعنى خرط ونحت وسوى، وذلك لان هذا المرسى لم يكن طبيعيا بل نحته القرطاجيون وانشؤوه وبنوه بايديهم، فكان منظره يشهد لهم باننبوغ ، ويعبر افصح تعبير عن قوة قرطاج وعظمتها ، اذ ان الجنس البشرى الذى يقدم على الاقامة بجوار ذلك البحر الهائج فوق مثل تلك الصخور القاحلة ، ثم ينحت فى اجوافها واغوارها مثل تلك المرافىء النفسiche ، لجدير بان يهيمن وبان يسود ، لما اظهره من عبقرية وبراعة ، ولما امتاز به من ميل الى المجازفات والمغامرات الجريئة التى تؤدى وحدها الى الرفة والازدهار •

وتصل السفن من المرسى التجارى الى المرسى الحربى باجتياز مدخل موجود بينهما عرضه ٢٣ م او سبعون قدما • وقد اقام القرطاجيون حواز كثيرة متشعبة ومشتبكة لحجب المرسى الحربى عن الانظار • ومن الغريب ان عرض هذا المدخل هو نفس العرض

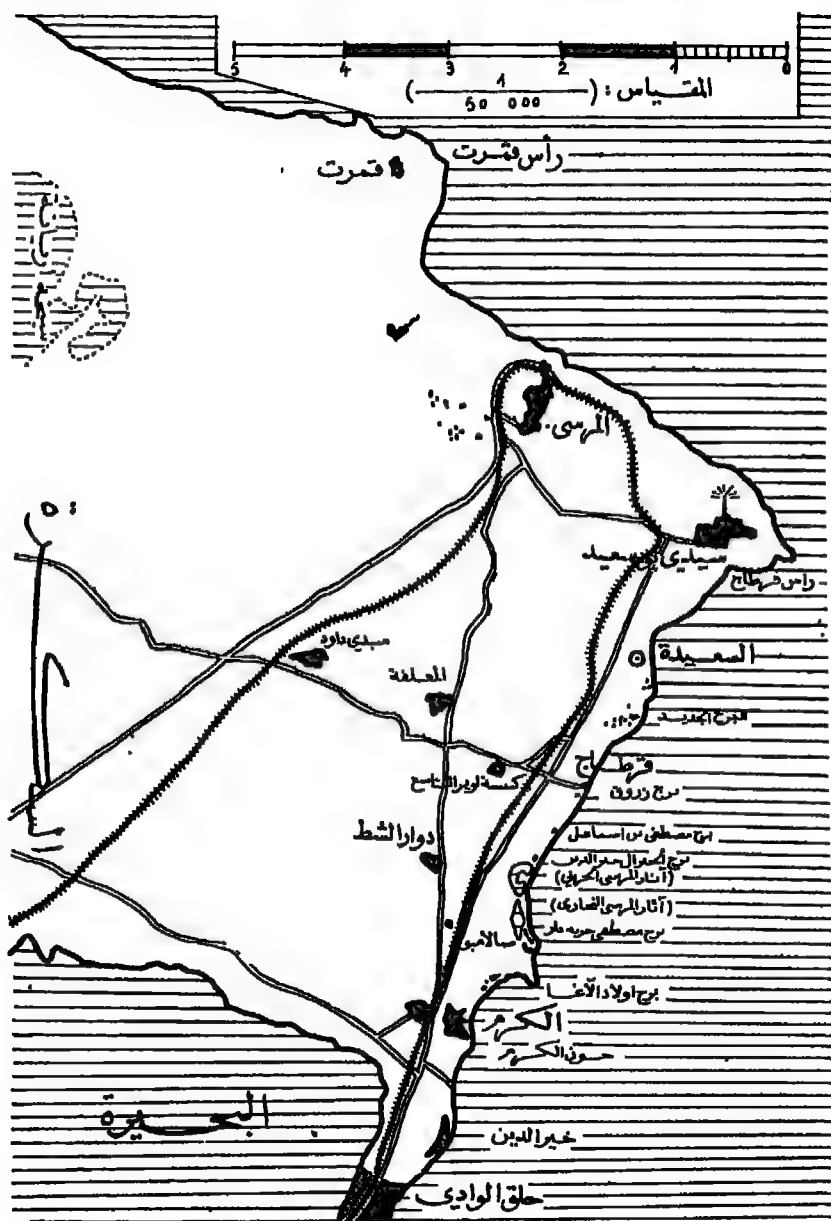
لوحة ٢٥
انظر الصفحة رقم ٩٩ من هذا الكتاب



صور مرسومة بقبور يوناني من قبور جبل أكلوة

لوحة ٢٦
انظر الصفحة رقم ٩١ من هذا الكتاب

لوحة ٢٧
انظر الصفحة رقم ٩١ من هذا الكتاب



قرطاج في الوقت الحاضر

كوحه ٢٨
انظر الصفحة رقم ١٠١ من هذا الكتاب



الآثار التي مازالت ظاهرة من النقطة الدائرية الاولى او السور الاول بقرطاج

الذى ذكره المؤرخ بوليبس للمدخل الحازجى وقد بنى القرطاجيون على دائرة ذلك المرسى رصيفا 'dûai' عرضه ٩,٣٥ م . وطول محيطه ١٠٢١ م . وبه حجرات او والات (cales) 'لايواء' السفن عرض كل حجرة منها ٥,٩٠ م داخل فى ذلك سنمك الحواجز الفاصلة بينها والذى يمكن تقديره بثلاثين سبتمترا لكل حاجز ، فبكون عرض الفضاء الحقيقى حينئذ ٥,٦٠ م . وهو يكفى لدخول السفنه .

ركان مدخل كل حجرة مزدانا بعمودين من المرمر وكانت جملة هذه الاعمدة ٤٤٠ عمودا داخله فى الجدار يكون من مجموعها منظر بدع خلاب بخاله الرائى روافا مستديرا من اجمل اروقة العالم . ولزيادة النعنع فى تعلبد منظر الرواق بكل 'اتقان اقيمت تلك الاعمدة كاملة بنجانها واسكافها واطناها وافاريزها فزادها ذلك رونقا وبهاء (انظروا الصورة ٠٠٠)

وقد بسبت فوق هذه الحجرات مخازن مخصصة لادوات السفن وعنادها .

وفى وسط هذا المرسى الحربى توجد جزيرة مستديرة ايضا قطرها ١٠٦ م . تسمى جزيرة الاميرالية يحيط بها رصيف مماثل تماما للرصيف المقابل بحجراته واعمدته وزينه وخارقه ، طول محيطه ٣٣٣ م . وكانت جملة الحجرات بالرصيفين المتقابلين ٢٢٠ حجرة تكفى لايواء ٢٢٠٠ سفينة خريئة .

وكان هناك ايضا رصيف (jetée) عرضه ٩,٦٠ م . يربط بين الجزيرة والرصيف المقابل ، ثم يودى الى الطريق الموصل الى السوق والساحة العمومية 'Forum' . وهذا الرصيف يقطعه ممر فى وسطه عرضه ٤,٥٥ م . مقام عليه جسر تمر من تحته السفن . وبالجبهه الجنوبيه من الجزيرة نرى مخططا ودراجات معدة للركوب والنزول (embarcadère) وعرضها ٢,٣٠ م .

وبهذه الجزيرة مركز الاميرالية اى مقام الاميرال او القائد الاعلى للاسطول ، ومن هناك يقوم الاميرال بالحراصة والمراقبة ويصدر الاوامر بالنفخ فى الابواق والتذير والتنفير وقت الخطر .

ورغما عن بعض الاغلاط التى وقع فيها م . بيلى 'نتيجة لاندفاعه احيانا وتسرعته فى الحكم كما اشارة الى ذلك سنتيفان قسالى وغيره من

المؤرخين ، فهو على كل حال قد اعتدى الى موقع مرسى قرطاج بالضبط وبين لنا بكيفية مدققة شكل المرسى التجارى والمرسى الحربى ، وافادنا بنتائج ابحاثه التى كانت مطابقة لما رواه قدماء المؤرخين امثال بوليبيس وآبيان واسترابون وديودورس الصقلى .

- الساحة العمومية - البيوت والاسوار

ونجد بالقرب من المرسى الحربى ، سهلا يمتد على مسافة نبلغ سبعمائة ميتر تقريبا حيث كانت توجد الساحة العمومية ، فى منتصف الطريق بين المرسى الحربى وبيرصة او بورصة (Byrsa) والساحة العمومية هى الفوروم Forum عند الرومانيين ، والاغورة Agora عند اليونانيين ، والرجبة او البطحاء عند التونسيين ، وكانت تلعب فى الوقت نفسه دورا تجاريا ، ودورا سباميا ، ودورا دينيا .

فكانت هناك السوق ، وكان هناك مجلس الشيوخ (Sénat) ، وقصر العدالة حيث كان القضاة يفصلون الدعاوى ويصدرون الاحكام وكان هناك معبد ابولون ، وكان هناك المحفل او دار الندوة حيث كان يجتمع الشعب للمناقشة والمذاكرة .

ويمكن ان نسلم بوجود اروقة كانت تحيط بتلك الساحة منلما نشاهده غالبا باسواقنا ، وذلك لان بوليبيس اشار الى ذلك فى تاريخه ، فقال ان حنون الفائد القرطاجى فى منتصف القرن الرابع ق . م . اراد استهواء الشعب واستمالته اليه ، فاقام مادبة فاخرة تحت الاروقة العمومية .

وفد عنر فى السنوات الاخيرة على حى قرطاجى بتمامه وكماله فى حهة دوار الشط اى جنوب بيرصة ، وكشف عن منازل وبيوت كانت مدفونة تحت الارض تعلوها طبقة سميكة من رماد حريق الحرب البونيقية الثالثة ، ووجدت وسط ذلك الرماد نفود واخزاف بونيقية مبعثرة . هنا وهناك . وان هذا الحى اصبح الان ظاهرا بتمامه فى عمق ثلاثة او اربعة امتار ، تحت الطبقة الرومانية ، بشوارعه المستقيمة ، وبواليعه ، ودياره ، وجدرانه التى بغيت قائمة فى ارتفاع ما يغرب من المنر .

ومن الساحة العمومية كانت تصعد ثلاث طرقات الى هضبة بترصة حيث شيد معبد اشمون Eshmoun (او اسكولاب Esculape) حامى

مدينة قرطاج وهو اول معبد وقع بناؤه عند تاسيس المدينة .
وبنيت على جوانب هذه الطرقات ، اى على اليمين وعلى الشمال ،
بيوت ذات ست طبقات او اكثر بسقوف مسطحة ، ونوافذ من خشب
وكانت مزدحمة بالسكان ، تمتلئ الحجرة الواحدة منها باسرة كبيرة
يتكدس افرادها بين جدرانها كما تفعل النمل فى جحورها، يفترشون
ارضها كلما ناموا حتى يحين موعد العمل .

على ان البيوت تتمايز وتختلف فى مستواها باختلاف الاحياء شان
كل المدن فى مختلف العصور ، فانك لست مضيت الى حيث يقيم
الاغنياء فى ضاحية مجارة (Magara) لرايت آيات العز ، ومعالم
الترف ، وروائع الفن ، وآثار الحضارتين المصرية والاغريقية . . .
لكن كيف يمكن ان نتصور هذه البيوت الشبيهة بناطحات السحاب
بالنسبة لذلك الوقت ؟

ان الصور البسيطة الساذجة ، التى زين بها ضريح بونيقي وجد
بالوطن القبلى ، ربما ابقت لنا شبح هذه البيوت وحافظت لنا عن
خيالها ومكنتنا من تصور شكلها . فما شان هذه الصورة وما شان
هذا الضريح ؟

لقد وقع العصور بجبل املزة بالوطن القبلى ، ما بين قليبية
والهوارية ، فى مكان يقال له كركوان ، يبعد نحو ١٢ كم عن قليبية
على قبور فى صورة دياميس منقورة فى الحجر الاسفنجى الهش (tuff)
الموجود بكثرة بالسواحل التونسية ، ومحفورة فى عمق ثلاثة او
اربعة امتار ، يقع النزول اليها بواسطة درج منقورة هى ايضا فى
الصخر . وهذا مما يقيم الدليل على اختيار القرطاجيين لهذا النوع
من الحجر الاسفنجى الموجود بالسواحل الافريقية وميلهم اليه لنفهم
قبورهم التى يسميها سكان البلاد التونسية بالداموس (دياميس)
او الديماس (دياميس) ، وهى موجودة بكثرة كما تدل عليها
اسماؤها مثل غار الداموس بكركوان ايضا قرب جبل املزة ،
والدويمس بقرطاج ، ورأس الديماس قرب المكنين بالساحل ،
والدواميس ، وغير ذلك وهو كثير بهيون والمهدية وسلقطة . . .

وكانت جوانب احد هذه الدياميس الموجودة بجبل املزة مزينة
بصور مرسومة بالمغرة الحمراء (انظروا الرسم ٠٠٠)
فى الجانب الايمن بالنسبة للمدخل رسم المصور فى الوسط
ضريحا كبيرا (mausolee) يرتكز على ثلاث مصاطب يتكون منها

سلم ذو ثلاث طوابع. ويذكرنا ذلك بالضريح البونيقير الموجود بدقة ورسم على الجدران صموداً مذهيباً للقرايين المقدسة (aurel) ، مقام على قاعدة ذات درجتين. ويتصاعد من مئذنته لهيب المذبيحة ودخانها، وعلى يمين الطرايح ديك وجو. الذي سيقدم ضحية وقرباناً للصوتى وفى الجانبة الاليسر ، وهو الذى يهبط إلى أن . رسم المصور اطاراً جعل فيه هلالاً معكوساً تحته رمز تاقيت ، وبجانب ذلك صورة كبيرة تمثل مدينة محصنة يظهر كأنها ممتدة فوق منحدر . فخطط سورها في شكل مقوس ، وهو مؤلف من سبعة عشر برجاً ، ثم رسم داخل السور سبعة عشر بيتاً تبدو من أول وهلة كأنها مماثلة لابرّاج النور ، لكن إذا تأمل فيها الناظر من قريب وأمعن فيها النظر تبين له أنها تتألف من طبقة أرضية غليظة وثقيلة وخالية من النوافذ ، يعلوها رواق معمد ومتوج بسلسلة من الأقواس المحنية والقباب المستديرة .

وثقهم من ذلك أن القرطاجيين كانوا يستعملون الطبقات فى غالب بناءاتهم ويتوسعون ويتمدّدون صعوداً وارتفاعاً . فمن قد رايناها كيف كانوا يبنون فوق حجرات السفن مخازن للتادوات والمعدات البحرية المختلفة ، وسنراهم بعد هذا كيف كانوا يجعلون فى أسوارهم وخصوماتهم سرايب وطبقات. بعضها فوق بعض ، وها نحن نرى أيضاً كيف كانت بيوتهم ومنازلهم مؤلفة من ست طبقات أو أكثر ، كان المتسلخ الحيوى لم يكفهم عرضاً فاخذوا حاجتهم منه ارتفاعاً . ويظهر إن القرطاجيين اقتبسوا شكل منازلهم من النمط اليونانى مثلما أخبروا عن اليونانيين جميع ما يتعلق بوسائل حفظ الصحة ووسائل الوقاية الطبى لم تكن مجهولة عندهم . فقد كانت منازلهم مشتملة على غرف الاستحمام بأحواضها ومقاسمها وبواليعها لخروج المياه الوسيخة إلى غير ذلك . . .

: وبالحيلة فإن قرطاج بديارها البسيطة المنيضة بالكلس وبسطوحها وقبابها ، وبأبنائها الضيقة والمتوتة ، كانت تشبه كل الشبه مدن البلاد التونسية فى الوقت الحاضر .

والآن فلنتقل إلى أسوار قرطاج !

. أن بوليبس الذى حضر بنفسه وشاهد الحرب البونيقية الثالثة بقرطاج ترك لنا وصفاً دقيقاً للأسوار الثلاثة التى كانت تحيط بالمدينة ويقول بأن قرطاج كانت فى حصن حصين تحميها أسوار

ضخمة ومربعة جملة طولها ٣٤ كم . وارتفاعها ١٣ م . وسورها ٩ امتار ، تشتمل على برج دفاعي بعد كل ستين مترا تقريبا ، وكانت هذه الاسوار شاهقة في الفضاء سميكة وعريضة نحتي ان قاعدتها كانت تستعمل كحكمة للجند . فعند الاسطبلات بالطبقة الارضية السفلى كان يكفي لايواء ثلاثمائة فيل مع كل ما يلزمها لمعيشها ، والطبقة الموجودة فوقها كانت تكفي لايواء اربعة آلاف من الخيول مع ما يلزمها من شعير وعلف مدة حصار طويل ، وزيادة على ذلك فان عشرين ألفا من المشاة واربعة آلاف من الفرسان كانوا يقيمون ايضا وسط تلك الاسوار العظيمة التي كانت عبارة عن معسكر باتم معنى الكلمة بسرادييه وطبقاته .

وكان السور الاول الخارجي او الخط الدفاعي الاول عبارة عن حفر كبير او خندق عرضه عشرين مترا وكان مشقوقا بسياج من اوتاد ، وكان السوران العظيمان يرتفعان من وراء ذلك الخط الدفاعي الامامي ، ولذلك نرى بوليبس يشير الى وجود اسوار ثلاثة في الجملة ولم يبق اى اثر لهذين السورين ، وذلك لان الصنخور الكبيرة التي نسفها وهدمها جنود القائد شبيون سنة ١٤٦ ق م ؛ قبله وقع استعمالها كلها فيما بعد واول من استعمالها هم الرومانيون انفسهم لما اعادوا بناء قرطاج .

اما الخندق العريض الذي كان امامهما فهو مازال ظاهرا الى الآن ويمكن رؤيته بسهولة من الطائرة ، وهو يبدو كخط واضح وبارز يمتد ارض السكرة على مسافة تقرب من ثلاثة كيلومترات . وان الجنرال ديفال قد اكتشف هذا الخندق سنة ١٩٤٩ وشرع في حفره ونبشه فوجد حاشية صخرية تمتد بجانبه من الجهة الشرقية فيها حروز وجروح كثيرة ، وحفر مستديرة مرتبة ترتيبا خماسيا (١) ولما زال في البعض منها قعور قوارير القنجاز ، وكانت هذه الحفر معدة بدون شك لركز اوتاد من الخشب ، وهذه الاوتاد كانت تحمل المراصد فوق السد من التراب الذي كان مكسبا من وراء الخندق ليتمكن منه السور الاول . (انظروا الصورة ٠٠٠)

اما بيرصة (Byrsa) او الاكروبول (Acropole) اى القسم الاعلى من المدينة ، وهو اول جزء وقع تاسيسه وتشيعده جند قلوبم الفينيقيين مع علية ، فقد كان اكثر تحصينا من اى مكان آخر

(١) الترتيب الخماسي (quinconce) هو ترتيب الاشياء بحيث يتكون من مجموعها مربعات متساوية ومتلاصقة مع وضع واحد من تلك الاشياء في وسط كل مربع . . . فيمكن مثلا زراعة الاشجار حسب الترتيب الخماسي

بقرطاج ، اذ كان يحيط باعلى الهضبة التى نرى عليها اليوم كنيسة
لويز التاسع فى نفس المكان الذى شيد فيه الفينيقيون معبد اشمون،
كان يحيط باعلى تلك الهضبة سور سمكه ميتر واحد وطوله ١٠٦٠ م:
١٩٠ م على الواجهة الشمالية الغربية والواجهة الجنوبية الشرقية
٣٤٠ م على الواجهة الجنوبية الغربية والواجهة الشمالية الشرقية
الجملة ١٠٦٠ م

وهذا السور هو الذى تتكون منه (قلعة بيرصة) المنيعه وقبد
اكتشف الاب ديلاتر (Père Delattre) والاب لاپير (Père Lapeyre)
آثار هذا السور اثناء الحفر والنش والنتقيب سنة ١٩٣٧
ويحيط باسفل الهضبة سور ثان ذكر المؤرخون ان طوله كان
اكثر من الفى خطوة وهو ما يقرب من ٣٠٠٠ م .
ان ما ذكرناه يعطينا فكرة واضحة فى اهمية اسوار قرطاج التى
جعلت حقيقة هذه المدينة فى حصن حصين وفى مامن من الهجومات،
الى ان حل بها قضاء الله ، ولا راد لقضائه . . .

خلاصة ما تقدم

- كان موقع قرطاج ممتازا فوق شبه جزيرة خارجة وسط
آدار « الهوارية »
- وكان شأن هذه المدينة يعظم شيئا فشيئا الى ان بلغت بعد
ما يقرب من مائتى سنة من تاسيسها اقصى درجة فى القوة
والعظمة .
- كان بها مرسى تجارى مستطيل ، يقع الدخول اليه من
جون الكرم ، ويليه مرسى حربي مستدير ففى وسطه جزيرة
الاميرالية .
- وكانت الساحة العمومية الدائرية بالاروقة قريبة من
المرسى الحربى ، وكان بها السوق ومجلس الشيوخ ، وقصر
العدالة ، وكانت هذه الساحة مكان اجتماع الشعب للمذاكرة
والمناقشة .
- ومن تلك الساحة يقع الصعود الى الهضبة ، التى شيد
فوقها معبد اشمون ، من ثلاثة شوارع بنيت على جانبيها
بيوت ذات ست طبقات او اكثر .
- وكانت تحيط بقرطاج اسوار منيعة بسمكها وارتفاعها لم
يبق منها سوى آثار الخط الدفاعى الامامى ، وبعض آثار من
السور الذى كان يحيط باعلى هضبة بيرصة . . .

النظام السياسى وشكل الحكومة بقرطاج

اولا : من البداية الى نصف القرن السادس

ان النظام السياسى بقرطاج كان بدون شك فى البداية نظاما ملوكيا مثلما كان موجودا بفنيقيا وبمدينة صور تقريبا .

وان اقدم ملك وصلت اليه اخباره هو (عملقار) الذى كان يعيش فى اوائل القرن الخامس و الذى حدثنا عنه هيرودوتس فقال انه تولى الملك على القرطاجيين لاجل قيمته . ونفهم من ذلك ان تعيين الملك لم يكن وراثيا بل كان يقع بالاختيار ، ولو ان قرطاج فى الواقع ، من يوم تاسيسها الى يوم سقوطها واضمحلالها ، كانت تهيمن عليها ارسقراطية تركز فى آن واحد على الثروة والنسب .

وقد اشار يوستينيوس الى وجود مجلس الشيوخ ومجلس الشعب منذ منتصف القرن السادس ، وان يوستينيوس هذا روى لنا ايضا فى حديثه خبر القائد مالى او ملقيس (Malchus) الذى قلب نظام الحكم فى منتصف القرن السادس . ويمكن اعتبار ملقيس من اشهر الرجال الذين كونوا وانشؤوا العظمة البونيقية بانتصاراته مسدة سنوات طويلة بافريقية وصقلية لكن بعد تلك الانتصارات الباهرة قلب له الدهر ظهر المجن فانكسر فى سردينية . فلم تغتفر له قرطاج تلك النزلة ، وعقابا له على تلك الهزيمة حكم عليه الشعب بالنفى والابعاد هو وجيشه الذى تبقى معه ، وبذل ملقيس جميع مجهوداته تارة بالتوسل والتضبرع وتارة بالانذار والتهديد للحصول على العفو فلم يفلح ، واخيرا نزل بافريقية مع جماعة المبعدين من رجاله ، وحاصروا مدينة قرطاج ، وجوعوا اهلها وقطعوا عليهم القوات واثناء ذلك الحصار عاد قردل بن ملقيس من صور ، وكان موفدا لحمل عشر الغنيمة التى جمعت بصقلية ، فتعلل بكونه يريد قبل كل شئ اداء واجباته الدينية المفروضة عليه ولم يقبل ان يتوجه الى ابيه الذى لم يتجاسر على منعه من دخول المدينة . وبعد بضعة ايام حصل قردل من الشعب الترخيص له فى الالتحاق بوالده

لكن هذا الاخير لم ينس عصيانه وزعم انه اهان جماعة المبعدين بسلوكة ولم يكتثر بالمهم . وهكذا امر ملقيس باعدام هذا الابن المسكين وهو مازال مرتديا زيه الكهنوتي الفاخر ، فصلب فوق خشبة عالية نصبوها امام المدينة ، ولربما كان يريد بذلك استمالة الآلهة واستعطافها .

وبعد مدة قليلة استولى ملقيس على قرطاج ، وجمع الشعب وتدمر من العقاب الذى سلط عليه وعلى جماعته ظلما وعدوانا واعلن انه سوف لا ينتقم الا من الذين اشاروا بهذه المظلمة وهو يعفو عن الآخرين . وامر باعدام عشرة من الشيوخ المورطين فى هذه القضية ثم اعاد الحكم الشرعى الى نصابه ، غير انه لم يلبث كثيرا حتى اتهم بنية اغتصاب السلطة والتتوق الى الطغيان وحكم عليه بالقتل فاعدم .

ثانيا - من النصف الثانى للقرن السادس الى نهاية النصف الاول

من القرن الخامس : آل ماقون

فى النصف الثانى من القرن السادس وفى النصف الاول من القرن الخامس كانت السلطة طيلة ثلاثة اجيال منحصرة فى اسرة الماقونيين وهم : ماقون بنفسه فى اول الامر ، ثم ابنه صيدر بعل (مات بصقلية سنة ٤٨٠) وعملقار (تولى بعد اخيه سنة ٤٨٠) وابناء صيدر بعل الثلاثة حنبعل وصيدر بعل وصقوة ، وابناء عملقار الثلاثة خيملكن وحنون وجيرسكن (١) .

وان آل ماقون لعبوا دورا خطيرا فى تاريخ قرطاج وكانوا بعد

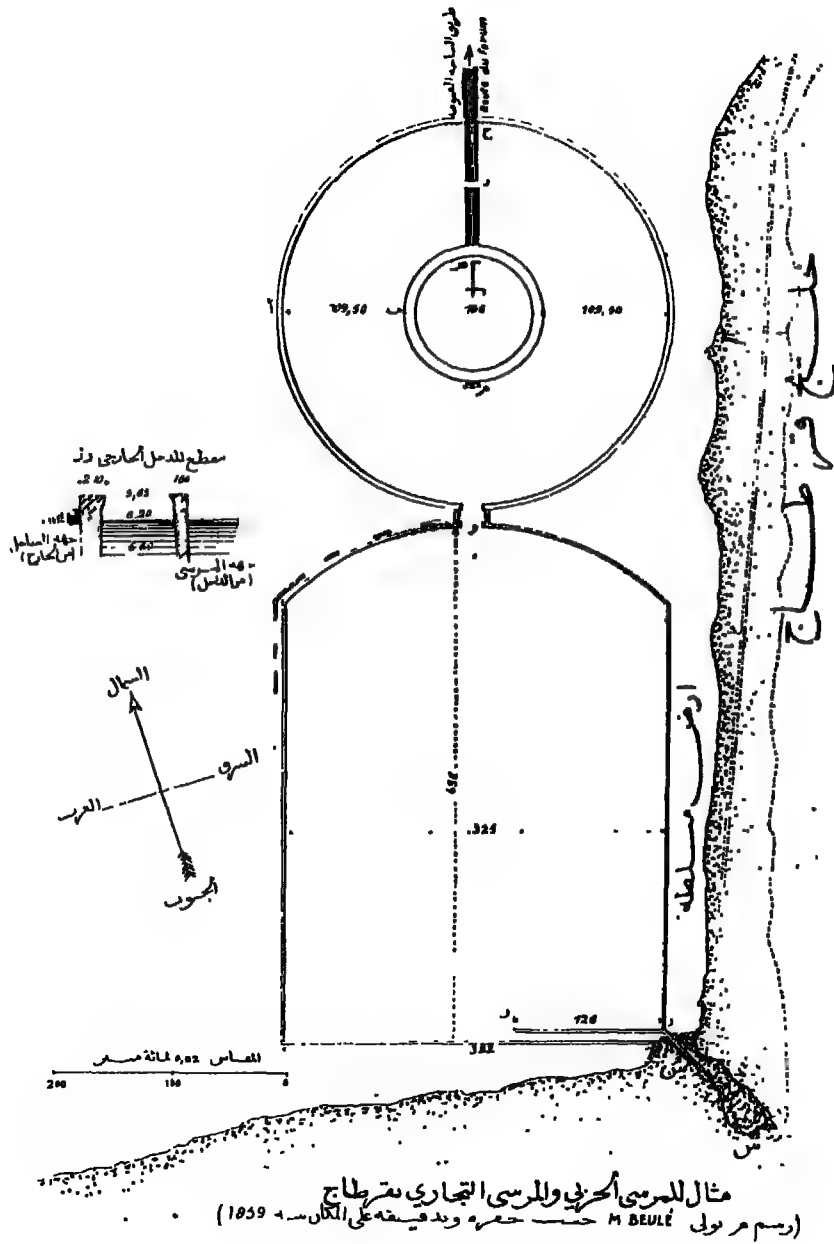
(١) كثيرا ما كان القرطاجيون يختارون الاسماء المشتقة على اسماء آلهتهم مثلما نقول بـنوزنا (عبد الفتاح وعطاء الله الخ ٠٠٠) .
صيدر بعل (Astrubal) واصله ستر بعل ومعناه (سترنى بعل) .
عملقار (Amilcar) واصله (عبد ملقرط) واسم هذا الاله الوجود بمدينة صنور يتركب بدوره من كلمتين (ملك) (قرط) اي ملك القرية اي ملك المدينة او المدينة حنبعل (Annibal) واصله حن بعل ومعناه ظاهر (حن وعطف على بعل) .
خيملكن (Himilcon) واصله اخو او (اخى) (ملك) ومعناه اخو الملك اي الاله .
جيرسكن (Giscon) واصله (جار) (سكون) اي جار الاله سكون Sakon

لوحة ٤٩
انظر الصفحة رقم ١٢٣ من هذا الكتاب .

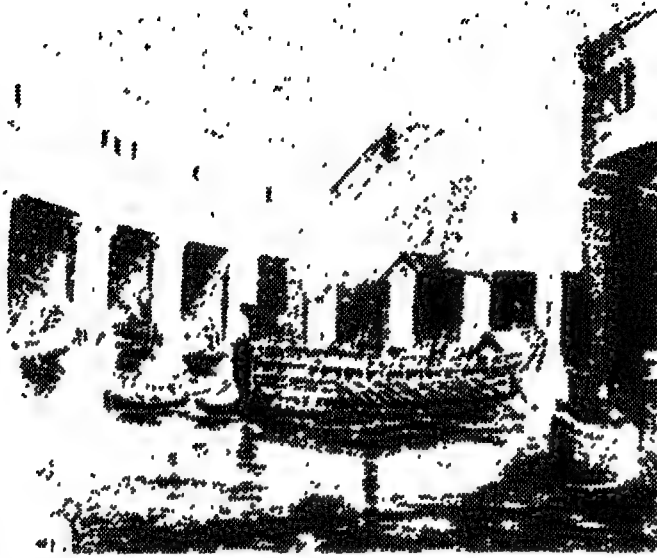


المسوخ أو الوجوه المستعارة - (وفي أعلى الصورة على اليمين : قوالب المسوخ

لوحة ٣٠
انظر الصفحة رقم ٩٤ من هذا الكتاب



لوحة ٣١
انظر الصفحة رقم ٩٤/٩٧ من هذا الكتاب



مرسى قرطاج كما تتصوره من خلال وصف المؤرخين (ص ٩٧)



مانبى الان من المرسى التجارى والمرسى الحربى : البحرتان (ص ٩٤)

شرح اللوحة ٣٠

- ١ - الرصيف (quai) الدائر بالخوض وعرضه ٩٠ م وطول محيطه ١٠٢١ م وبه حجرات او قالات (cales) لايواء السفن ، عرض كل حجرة منها ٥٠ م وعدها ١٦٧ حجرة .
- ب - الرصيف (quai) الدائر بالجزيرة وعرضه ايضا ٩٠ م وطول محيطه ٣٣٣ م وبه حجرات ممانه ومقبلة للاول وعدها ٣٥ حجرة (فتكون جملة الحجرات ٢٢٠)
- ج - وصيف (jetée) عرضه ٩٠ م يؤدى الى الساحة العمومية (Forum)
- د - ممر عليه جسر تمر من تحته السفن
- هـ - الاميرالية ، اى مقام الاميرال او القائد الاعلى للاسطول
- و - المدخل الذى تجتازه السفن للدخول من المرسى التجارى الى المرسى الحربى او العكس ، وعرضه ٢٣ م
- م - محطة بها درج (embarcadère) وهى معدة للركوب والنزول وعرضها ٢٥٣ م
- د/ز - المدخل الخارجى للمرسى التجارى او الخلق وعرضه ٥٦٥ م على مسافة طولها ١٧٦ م
- س / ش - سد لوكاية المدخل من رسوب الرمال ومن ضرر الامواج

شرح اللوحة ٣١

الصورة العليا : المرسى الحربى المستدير مثلما وصله بوليس الذى كان شاهده بنفسه اثناء الحرب البونيقية الثالثة ، وتظهر بوسطه جزيرة الاميرالية ، ونرى فوق السطح رجلا ينفخ فى البوق او فى النفير ، ونرى بهذه الصورة الرصيف ، او الحجرات المعدة لايواء السفن ، والاعمدة التى تجعل المنظر العام شبيها بمنظر الرواق ونرى فوق هذه الحجرات مخازن لادوات السفن وعندها ٥٠٠ كل ذلك مثل ما وصفه لنا فضاء المؤرخين تماما وعلى الاخص بوليس

الصورة السفلى : اثار المرسى التجارى المستطيل والمرسى الحربى المستدير وفى وسط هذا الاخير جزيرة الاميرالية . وهذه الاتار موجودة الى الآن فى شكل بحيرتين يجمع ماؤهما تحت اشعة الشمس ما بين صالبو ودرمش ، ونرى فى آخر تلك الصورة جبل (بوقرنين) وقد شيد على قمته اليمنى معبد (بعل حمون) اله الشمس عند القرطاجيين

ملقيس الذي تقدم ذكره من اكبر المشيدين لمجد فرطاج التي صارت عاصمة امبراطورية عظيمة بفضل السياسة الجريئة التي اتبعها ماقون وابناؤه وحفداؤه من بعده وبفضل عبقريتهم الحربية واستخدامهم لجند ماجور مكنهم من خوض المعارك الطاحنة واقتحام الغزوات والانهمالك في الفتوحات . وهذا الدور الهام هو شبيه بالذي سيلعبه آل برقة فيما بعد ، في القرن الثالث .

وبفضل هذه الانتصارات الباهرة ضمن آل ماقون لانفسهم مجدا وفخرا واعوانا وانصارا ، وفتحوا للصناعة والتجارة اسواقا في الخارج ، واناخوا الطبقة الارستقراطية املاكا خصبة فوق الارض الافريقية . لكنهم استبدوا في نهاية امرهم واستحوذوا على كل السلط .

وفي منتصف القرن الخامس (نحو سنة ٤٥٠) نشبت نورة داخلية بقرطاج انتهت بسقوط آل ماقون وابعاد جبر سكن ونفيه الى صقلية، وبانشاء مجلس يتركب من مائة حاكم او قاض يقع اختيارهم من بين الشيوخ وتسمى هذه المحكمة العليا (ديوان المائة) او (محكمة المائة) . وبعد انتهاء كل حرب كان يقف القواد امام هذه المحكمة لئناقشهم اعمالهم ، وتحاسبهم على تصرفاتهم ، وتطالبهم بعرض جميع التفاصيل المتعلقة بنشاطهم، كل ذلك لحمل هؤلاء القواد على الانقياد والخضوع ولحماية الجمهورية من محاولة قلب نظام الحكم او الاعتداء على سلطة الدولة . . .

وهذه الثورة التي اندلعت في القرن الخامس كانت لها نتائج على غاية من الخطورة والاهمية !

فمن جهة اولى كانت هذه الثورة عبارة عن وقوف طبقة الاعيان والاشراف في وجه الحكم الفردي الذي كان متجسما في آخر ملوك آل ماقون . وان سقطت هذه الاسرة المستبدة وابعادها عن السلطة مكن الثوار من اقامة حكم الاقلية Oligarchie مكان الحكم الفردي (monarchie) فاستمر الامر كذلك الى الحرب البونيقية الاولى (سنة ٢٤٠)

ومن جهة اخرى اذا علمنا ان حضوة الاعيان والاشراف ، وان مكانتهم كانت مقامة على المال والثروة قبل كل شيء ، واذا علمنا ان هذه الثروة كانت تتركز في البداية على البحر والاسفار على متن السفن ، فهنا منشأ قوة آل ماقون ، ومكانتهم ، وسيطرتهم فهم قد كانوا احتكروا لفائدتهم الملاحة والاسفار البعيدة والاتصال بالمغرب ، كما احتكروا لانفسهم ما ينجر عن تلك الاسفار من ازباج طائلة واموال باهضة . ولاغربة اذا راينا بعد ذلك احد افراد وممثلي هذه الاسرة وآخر امير من امرائها وهو حنون الملقب بقطاع البحور ، يباشر بنفسه دور الربان المغامر ومكتشف الشواطئ النائية ولكن ثورة القرن الخامس قد قبلت الوضعية وغيّرت تغيرا عميقا الاسس الاجتماعية والاقتصادية ، التي كانت تتركز عليها الدولة القرطاجية وذلك بظهور نوع جديد من الاشراف والاعيان تركز قوتهم لا على ثروة البحار ولكن على ثروة الفلاحة وامتلاك الاراضي الكثيرة ، ومن ذلك الوقت صارت الاسر الحاكمة والمسيرة للامور تبني قوتها ونفوذها على قاعدتين وهما الملاحة والفلاحة .

واذا علمنا ان الثروة المرتكزة على البحر هي في الغالب عرضة للصدف وتاتي احيانا بمفاجأة مؤلمة ، وهي متغيرة ومضطربة شأن احوال البحر نفسه ، فهنا وتصوّنا ما اكتسبته الدولة البونيقية من ثبات واستقرار لما اقامت قوتها وركزتها لا على تقلبات البحر وحده بل على انتظام واستقرار الانتاج الفلاحي



ثالثا : النصف الثاني من القرن الخامس الى نهاية القرن الرابع (قبل الحروب البونيقية)

ان ارسطاطليس (Aristote) يمدنا ببيانات ضافية وتفصيل مدفقة حول شكل الحكومة والنظام السياسى الذى سنه الدستور البونيقى فى تلك المدة التى بلغت فيها قرطاج اقصى درجة فى العظمة والرقى والازدهار .

١ - الملكان او السبطان (Sufètes)

وقد روى لنا ارسطاطليس وجود من كان يسميهم (بالملوك) على راس الدولة القرطاجية فى ذلك الوقت ، وكان يسميهم غيره من المؤرخين تارة (ملوكا) ايضا ، وتارة (اسباطا) وهى كلمة فنيقية عبرانية الاصل (Sufètes)

وكثيرا ما نجد هذه الكلمة منقوشة فوق الاحجار او الاصلاب النذرية بقرطاج ويظهر ان المعنى المقصود من هذه الكلمة فى غالب الاحوال لا يتعدى ولا يتجاوز مدلولها بالعبرانية وهو معنى الحكام او القضاة .

ولكن اطلق اسم (السبط) ايضا على رئيس الدولة بقرطاج فى ذلك الوقت وكانا اثنين يقع انتخابهما من اسرتين مختلفتين، ويمكن مقارنتهما بالملكين اللذين كانا على راس دولة اسبرطة ، او بالقنصلين الرومانيين اللذين كانا يتقاسمان السلطة العليا مكان الملك وذلك بعد سقوط الملكية برومة

وكان هذان (السبطان) Shofetin يقومان بهام وظائفهما ويؤديان واجبات خدمتهما مدة سنة كاملة تصير تعرف باسميهما وكانا يجمعان كثيرا من الوظائف والسلط الهامة : فكانا يستدعيان ويراسان مجلس الشيوخ ، ويعينان المسائل والقضايا التى يقع النظر فيها انشاء الاجتماعات ، ويقودان جيوش البر والبحر ، وزيادة

على ذلك فقد كانت بعض الامور التابعة للعدلية من خصائصهما ومشمولات انظارهما .

٢ - مجلس الشيوخ (Sénat)

ويساعد (السبعين) مجلس الشيوخ ، كالذى كان موجودا بمدينة صور ، يتركب من ثلاثمائة عضو يقع اختيارهم لمدة الحياة من الطبقة الارستقراطية وقد اسندت الى هذا المجلس الادارة العليا لجميع الشؤون العمومية ، فهو الذى كان يقرر السلم او اشهار الحرب ، وهو الذى كان يولى ويعزل قوادالجيش ، وكان يقعد جلسات سرية عند الاقتضاء ولا يصرح بنتيجة التصويت او يوجل اذاعتها اذا اقتضت مصلحة الدولة ذلك .

وقد اطلق ارسطاطليس على هذا المجلس اسم (جيروسيا) وهى كلمة يونانية مشتقة من (جيرون) اى (شيخ) . وهذا يدل على ان اعضاء هذا المجلس ، ان لم يكونوا طاعنين فى السن باتم معنى الكلمة ، فهم كانوا على الاقل فى سن الكهولة

٣ - محكمة المائة (Tribunal des Cent)

هذه المحكمة العليا تلى مجلس الشيوخ فى الرتبة وتتركب فى الحقيقة من ١٠٠٤ اعضاء يقع انتخابهم حسبما اظهروه من استحقاق واهلية وما امتازوا به من كفاءة ومقدرة . وهم كانوا مكلفين بمراقبة الملوك وقواد الجيوش وجميع الحكام ، وبمحاكمتهم عند الاقتضاء .

ويمكن مقارنة هذه المحكمة العليا بالا يفورة (Ephorat) باسبرطة، فقد اقيمت كل منهما لموازنة سلطة الملك ومجلس الشيوخ ومعادلتها

وكانت تنتخب اعضاءها الهيئات الخماسية التى يسميها ارسطاطليس (Pentarchie) وتتألف من خمسة رؤساء ينتدبون انفسهم بانفسهم من بين الحكام بمجلس الشيوخ ، وهم كانوا اصحاب الامر والنهى وارباب الحل والعقدة ولايتقاضون اجرا على اعمالهم ، ويحافظون على صفتهم كاعضاء بمجلس الشيوخ مع دخولهم فى الهيئات الخماسية . . .

ويمكن اعتبار هذه الهيئات الخماسية التى حدثنا عنها ارسطاطليس كلاجان تتكون فى مجلس الشيوخ وتتفرع عنه للاختصاص ببعض الاصناف من المسائل مثل الامور الخارجية ، والجيش ، والبحرية ،

والمالية ، والامور الدينية الى غير ذلك ٠٠٠ وهى انى كانت تنتخب
ايضا اعضاء محكمة المائة مثلما ذكرناه .

٤ - الشعب (le peuple)

ان الشعب كان منذ القرن السادس يساهم مساهمة فعالة فى
الشؤون العمومية . لكن لا يخول الحضور والمشاركة فى الجلسات
العامة الا لمن توفرت فيه بعض الشروط: كبلوغ سن معينة ، والتمتع
بالحرية وبالجنسية القرطاجية او الفينيقية سواء بالولادة او بالتجنيس
وانبات مقدار ادنى من الموارد والمداخيل ، اذ لا يكفى ان يكون المواطن
حرا بل ينبغى ايضا ان يكون ذامال . ويظهر ان جمهور المواطنين
كان يئلف من الطبقة البورجوازية اى من ذوى اليسار والترف من
اهل المدن ، ككبار التجار ، والصناع ، والموظفين ، واصحاب المهن
الحرة والوكلاء والمستخدمين بالمحلات التجارية الكبرى ٠٠٠

وتعرض وجوبا على الشعب جميع المسائل التى لم يحصل فى
شأنها الاتفاق بين الملكين او السبطين من جهة ومجلس الشيوخ من
جهة اخرى ، ويكون للشعب عند ذلك الكلمة النهائية وانقول الفصل
اما اذا حصل الاتفاق بينهم فانهم يكونون مخيرين بين عرض تلك
المسائل او عدم عرضها على الشعب ، وفى صورة عرضها . فان
تصويت مجلس الشيوخ يعير مجرد رأى له وزنه وقيمته من غير
شك ولكنه لا ينقص من حق الشعب فى البت النهائية بكل حرية

وفى الواقع فان تشريك الشعب فى النظر كان فى تلك المرة التى
حدثنا عنها ارسطاطليس ضئيلا جدا . اذ قلما كانت تعرض عليه
المسائل ولا يقع الاتجاه اليه الا فى صورة خلاف مفضوح بين السبطين
ومجلس الشيوخ ، وهو امر نادر جدا لان السبطين كانا يتحاشيان
بقدر الطاقة الوقوع فى مثل ذلك الخلاف ، ومع ان الدستور اشار الى
انه من الممكن ان تعرض على الشعب حتى المسائل التى وقع فى شأنها
الاتفاق ، فانهم فى الحقيقة كانوا يجنبون ذلك كلما توقعوا من
الشعب رايًا يخالف رايهم .

وبالجملة فان هذه الاجراءات كانت مجرد وسيلة تمكن السلطة
السبطينية من ايهام الشعب بانه يشارك فى الحكم ، وتمكنها ايضا
فى بعض الظروف الخطيرة من تشريك الشعب فى المسؤوليات لياخذ
كل واحد نصيبه منها .

٥ - الجمعيات (Hétairies)

ويشير ارسطاطليس ايضا الى وجود جمعيات سياسية ودينية كان افرادها يتناولون احيانا طعامهم مع بعضهم (Syssities) ويعقدون اجتماعاتهم ليلا للنظر في شؤون الدولة وفي اعمال المجالس الشعبية وهذه الجمعيات كانت لها صبغة الهيئات الرسمية ولا يمكن اعتبارها كجمعيات خاصة او من نوع النوادي (Clubs) او حتى من نوع النقابات المهنية (Corporations) التي ترخص فيها الحكومة، بل كانت من نوع الاخوانيات (Confréries) تكون اقساما وشعبا انتخابية فكان كل واحد ينتخب داخل شعبته وكان رأى الاغلبية يعتبر رأى الشعب كلها ويحسب صوتا واحدا فى الانتخاب العام

رابعاً : القرن الثالث والثانى

(من الحروب البونيقية الى تهديم قرطاج) آل برقة

ان الذى يحدثنا عن الانظمة السياسية فى القرنين الاخرين من حياة قرطاج هو مؤرخ يونانى آخر ، وهو بوليبيس (عاش من ٢٠٠ الى ١٢٢) فقد عاش ارسطاطليس مدة ازدهار قرطاج ، اما بوليبيس فانه عاش فى ايام معنتها وشهد سقوطها وانهارها . وقد جددت احداث هامة من وفاة الاول (سنة ٣٢٢) الى ولادة الثانى (سنة ٢٠٠) ، فقد خسرت قرطاج اثر الحرب البونيقية الاولى والثانية جزيرة صقلية ، ثم كرسكة وسردينته ، ثم اسبانيا . وهذه الاحداث كان لها بدون شك تأثيرها على النظام السياسى . فان بوليبيس لم يتكلم عن الهيئات الحماسية ولا عن محكمة المائة التى كانت تنتخبها تلك الهيئات ، ونراه يذكر ثلاث سلط سياسية واضحة : السلطة العليا ، ومجلس الشيوخ ، والشعب .

١ - السلطة العليا (Pouvoir suprême)

صارت السلطة العليا فى يد آل برقة (عملاق وحنبل وصادر بعل) وارتكز هؤلاء على الشعب فنالوا رتبة الملوك والامراء ، ولو ان

لقب الملك زال تماما ، ولكنه زال لفظا فقط اذ ان سلطة آل برقة كانت سلطة ملوكية .

٢ - مجلس الشيوخ (Syncretos)

استمر مجلس الشيوخ موجودا وهو ما كان يسميه ارسطاطليس (جيروسيا) وسماه بوليبيس (Syncretos) . وقد ضعف نفوذه وتضاءل نسبيا وذلك لان آل برقة كما ذكرناه صاروا يعتمدون على الشعب لا على الطبقة الارستقراطية ، وبو ان هذا المجلس كان كثيرا ما يبت في المسائل الهامة، فهو الذي قرر مثلا اشهار الحرب البونيقية الثالثة والاخيرة .

- مجلس الثلاثين :

كانت مهمة هذه الهيئة الادارية تتعلق بفرض الضرائب ، وعلاوة على الادارة المالية ربما كانت هناك وظائف اخرى من مشحولات انظاره

- مجلس العشرة

وهم عشرة موظفون كانوا يتولون شؤون المعابد والامور الدينية وعلى الاخص اعمال البناءات والتنظيم الداخلى حسبما تتطلبه اقامة الشعائر والطقس الدينية

٣ - الشعب

بخلاف مجلس الشيوخ الذي فقد شيئا من نفوذه نرى الشعب يقوم بدور من اهم الادوار اذ عظم شأنه في تلك المدة وصار كثيرا ما تقم استشارته واخذ رايه وتشريكه في التصويت

- ملاحظات حول النظام السياسي بقرطاج

ان الاقدمين قد مدحوا الدستور القرطاجي وبينوا خصاله ومزاياه وحتى ارسطاطليس الذي انتقده ، فهو قد استحسنته في الوقت نفسه ورآه صالحا . وكذلك بوليبيس فهو قد اعترف بكونه خدام مصالح الدولة الى الحرب البونيقية الثانية

ولا يخفى على احد الشعب الكبير الموجود بين الدساتير السياسية في قرطاج واسبرطة ورومة كما يدل على ذلك الجدول الآتي

السلط الثلاث	دستور قيرطاج	دستور اسبرطه	دستور رومة
١ - السلطة العليا	سبطان (لمدة عام)	ملكان (لمدة الحياة)	قنصلان (لمدة عام)
٢ - السلطة الارستقراطية	مجلس الشيوخ (٣٠٠ عضوا)	مجلس الشيوخ (Gérousia) ٣٠ عضوا	مجلس الشيوخ Sénat ٣٠٠ عضوا
٣ - السلطة الشعبية	مجلس عمام للشعب	مجلس عمام للشعب (Apella)	مجلس عمام للشعب

غير انه يمكن حصر الانتقادات فى النقاط التالية :

١) مراعاة الثروة قبل كل شىء وفوق كل شىء ، واشتراط دفع مبالغ باهضة من المال من الذين يقع انتخابهم ، الشىء الذى انجر عنه البرطلة والارتشاء حتى قال فيهم بوليبيس : « عند القرطاجيين يمكن الوصول الى اعلى مناصب الحكم بواسطة العطاء وبذل المال » فكانت الابواب كلها مفتوحة امام المحظوظين من ذوى اليسار ، وكان هؤلاء لا يتأخرون عن التضحية بالمبالغ الطائلة فى سبيل الوصول الى المناصب لعلمهم انهم سيستخدمون تلك المناصب لا لاسترجاع ما بذلوه من المال فقط بل لزيادة انماء ثروتهم بجميع الوسائل والطرق .

٢) عدم وجود التوازن والتعادل بين هذه العناصر الثلاثة التى رسمناها بالجدول اعلاه ، وذلك لانه رغما عن الحقوق التى يتمتع بها الشعب فان الطبقة الارستقراطية الثرية ، بل عددا قليلا من افرادها هم الذين كانوا ماسكين بزمام الدولة مدة طويلة تمتد من وقت هيمنة آل ماقون الى وقت سلطة آل برقة اى من منتصف القرن الخامس الى ما بعد الحرب البونيقية الاولى ضد الرومانيين (من ٤٥٠ الى ٢٦٠ تقريبا) .

٣) خوف الطبقة المسيرة ، وبالتالى خوف الدولة من الطموح الذاتى المفرط والاطماع الكبيرة التى ربما تؤدى ببعض الاشخاص الاقوياء الى احتكار السلطة اما بالمال او بالقوة او بوسيلة من الوسائل والى الغاء الدستور واقامة الدكتاتورية او الحكم الاستبدادى الفردى وهذا هو السبب فى تخوفات الطبقة الارستقراطية وفى حذرهما المستمر وعدم اطمئنانها ، فكانت تخشى على الاخص. قواد الجيش ،

ومما لا شك فيه ان هؤلاء القواد امثال عملاق برقة وابنه حنبل ،
قد قاموا بدور كبير جدا فى حياة قرطاج .

وعلى كل فان هذه الانظمة السياسية ، بما فيها من محاسن
وعيوب ، فهي ساعدت على السير الى الامام ، واتباع وحدة النظر ،
ومواصلة بذل الجهود ... وهي كلها امور لازمة لا بد منها للحكومة
ليتسنى لها حفظ الامن والنظام ، وتوطيد العدل ، وتحقيق الدفاع
ضد هجومات الاعداء ، وانماء النروة العامة والخاصة .

ومهما يكن من الامر ، فان المجالس الشورية بقرطاج (كمجالس
الشيوخ ، ومجالس المائة ، ومجالس الثلاثين ، وغيرها) وعلى الاخص
السلطة التنفيذية (ملوك او اسباط) قد عرفوا كيف يظلمون
بمسؤولياتهم لضمان حياة المدينة ونموها الطبيعي مما اقام الدليل
على ان الدولة القرطاجية كانت قائمة على اساس متين وعلى دستور
سياسى محكم .

خلاصة ما تقدم

ان النظام السياسى بقرطاج قد تطور وتغير حسب الظروف والاحوال ولكنه
كان يرتكز بصفة عامة على السلط الثلاث التالية :

اولا : السلطة العليا وتمثل فى ملكين او سبطين يقع انتخابهما لمدة عام
تاليا : السلطة الارستقراطية المتجسمة فى مجلس الشيوخ التركيب من نواب
يمثلون الاسر الفنية والاكابر من التجار والاعيان ورجال الحرب .

ثالثا : الشعب ولم يتقو نفوذه حقيقة الا فى ايام آل برقة اى مدى الحروب
البونيقية .

واللاحظ ان المال هو الذى كان يلعب اهم الادوار فى كل ذلك وهو الذى
كان يفتح جميع الابواب امام الاغنياء .

ومن جهة اخرى فانه كثيرا ما كانت تقع خصومات عنيفة فى مجلس الشيوخ
بين حزب التجار الذى كان يرى ان ازدهار البلاد وانماء الثروة العامة يتم
باجتناب الحروب والاهتمام بالتجارة ، وبين حزب الجند الذى يرى قبل كل
شئ توطيد وتوسيع الامبراطورية البونيقية بواسطة الحروب والفتوحات .
ومن اشهر هذه المجادلات تلك التى كانت تقع بين (آل حنون) الذين يريدون
ان تصرف الاموال لتحسين التجارة وادخال الرفاهية ، وبين (آل برقة)
الذين يريدون ان تصرف الاموال فى الغزوات والفتوحات لتقوية شوكة البلاد
ومد نفوذها فى الخارج .

الحياة الدينية

— أهمية الدين عند القرطاجيين —

مما لا شك فيه ان الدين كان يحتل مكانا ممتازا في حياة القرطاجيين العامة والخاصة وكان متمكنا من نفوسهم ، ومتغلغلا في افكارهم ، ومتسلطا على قلوبهم ، ومتحكما في كثير من مظاهر حياتهم ، فهو كان شغلهم الشاغل ، وكل شيء سواه كان يعتبر تافها وثانويا .

واكبر دليل على ذلك صيغة اسماء الاعلام التي كانوا يحملونها والتي كان الكثير منها يدل على شدة ارتباطهم وتعلقهم بالهتهم ويشير الى خضوعهم لها ، ويبين عواطفهم نحوها . مثال ذلك :

— من اسماء الذكور : معطبل (اى عطية بعل) — عبد اشمون — عبد ملقرط او ملقرط — حنبعل (حن عليه بعل) — باركبعل (باركه بعل) الخ . . .

ومن اسماء الاناث : بنتبعل (ابنة بعل) — عريسة بعل (خطيبة بعل) — امة بعل (خديمة بعل) الخ . . .
وان السلط الرسمية وقواد الجيش كانوا في المناسبات الهامة يقدمون القرابين وقيمون لذلك احتفالات رائعة تكتسى جلالا وعظمة . . .

وفي كل عام كانت توفد حكومة قرطاج رسلا يحملون الاموال والهدايا الى مدينة صور ام الوطن ، ويقدمون القرابين الى الاله ملقرط مع مظاهر الطاعة والاحترام .

وكانت المعاهدات تبرم تحت حماية ورعاية الآلهة . فعندما تم ابرام المعاهدة بين حنبعل وفيليب المقدوني سنة ٢١٥ اشهد آلهة

قرطاج ، وآلهة مقدونية ، وآلهة اليونان ، وجميع آلهة الحرب :
 زاس (Zeus) وحيراء (Héra) وابولون (Apollon) وهيراقليس (Héracles)
 وغيرهم كما شهدا الانهار والمياه والبحار... وكان كل ذلك مكتوبا
 ومنصوصا عليه في المعاهدة المشار اليها .

وكان الاموات وكذلك الاحياء يحملون شيئا كثيرا من التماثيل
 وانتعاويد والاحراز تمثل الالهة ، كما كانوا ينقشون صور آلهتهم
 فوق الانصاب والتواويس (١) ويدها اليمنى مرفوعة فسي هيئة
 الصلاة والدعاء

الالهة

ان اكبر الآلهة عند القرطاجيين هما تانيت بينيبعل وبعل حمون
 ويمكن ان نعتبر كلمة (بينيبعل) وكلمة (حمون) كاسماء اماكن
 فان كلمة (بعل) هي اسم اكبر اله عند الفينيقيين وعند القرطاجيين
 ولكنها تدل ايضا على معنى السيد وصاحب الشيء ومالكه ، ولذلك
 كانوا يستعملون ايضا كلمة (ملك) او (رب) بمعنى (بعل) ،
 ومثل ذلك موجود ايضا في اللغة العربية ، فان (الرب) معناه المالك
 والسيد ، وهو ايضا من اسماء الله تعالى ، وكذلك (الملك) فهو
 السيد وصاحب الامور والسلطة ، وهو ايضا الله تعالى . وكلمة
 (بعل) من هذا النوع ، فهي كلها كلمات مترادفة لها مدلول واحد .
 فالذى يقدم القرابين كان يسمى (بعل القرابين) مثلما نقول (رب
 القرابين) او (صاحب القرابين) . وبما ان كل مدينة تقريبا كان
 لها (بعلها) تعبدته وتقديسه فقد صار كل اله منها يعرف باسم المكان
 الذى يعبد فيه ، فيقولون (بعل روس) اى بعل الراس بالمعنى
 الجغرافى و (بعل اسمين) اى بعل السماوات و (بعل لبنون) اى
 بعل لبنان ... وكذلك يقولون (بعل حمون) او (بعل عمون)
 (Baal-Hammon) وربما كان ذلك نسبة الى الاله (امون) Ammon
 الذى كان يعبد فى مصر ثم فى افريقية وكان يشبه فى الغالب
 بكبش اقرون وهو الكبش امون المقدس ... او ربما كان ذلك نسبة
 الى بلدة وواحة امون الموجودة بليبيا والتي كان فيها معبد كبير
 للاله (جيتير امون) وتعرف اليوم باسم سيوة Siwa قرب الحدود

(١) التواويس ج نواويس هو التابوت من حجر

المصرية ومن غير شك ان القرطاجيين وصلوا الى ذلك المكان في اسفارهم التجارية ٠٠٠ ومهما كانت هذه النسبة واسبابها فان (بعل حمون) يدل على (بعل افريقية) . وكذلك بالنسبة لتانيت فهناك (تانيت لبنون) اى تانيت لبنان وهى غير (تانيت بينيبعل) ومعناه (تانيت المواجهة لبعل) وهى تانيت افريقية .

وتعتبر (تانيت بينيبعل) ممانلة لاسطرطه وهى الهة القمر (١) عند الفنيقيين بمدينة صور ، ويسمىها اليهود (اسطرطه) وهى ايضا فى مقام الالهة (جيراء Héra) زوجة الاله زاس عند اليونانيين ، وفى مقام الالهة (يونيوسيلستيس Juno Caelestis) زوجة الاله جبتر عند الرومانيين . وكل واحدة من هذه المعبودات الاربع هى الالهة نجمية ، ويمكن ان نقول حينئذ بان تانيت بينيبعل الافريقية ، واسطرطه الفنيقية ، وحيراء اليونانية ويونيوسيلستيس الرومانية كانت كلها شيئاً واحداً ، وكذلك بعل حمون القرطاجي وبعل الغنفيى وزاس اليوناني وجبتر الروماني هى شىء واحد ايضا كما هو ظاهر فى الجدول اسفله :

قرطاج	فينيقيا	اليونان	الرومان
بعل حمون	بعل	زاس	جبتر
تانيت بينيبعل	اسطرطه	حيراء	يونيوسيلستيس
ملقرط	ملقرط	هيراكليس	هرقل
اشمون	اشمون	شقليبوس	اسقولاى

وان (اسطرطه) الهة صور كان لها معبدها الخاص بقرطاج وكان القرطاجيون يعبدونها ايضا هناك حسب الطقوس القديمة وكذلك الفنيقيون الذين كانوا يقدمون من مدينة صور وقيمون بافريقية . واما (سيلستيس) اى « السماوية » فهى كانت تعبد ايضا بافريقية كالهة التناسل والحصاد . ومن جهة اخرى فان (تانيت بينيبعل) كانت ايضا شيئاً واحداً

(١) اسطرطه (Astarté) مأخوذة من كلمة (اسطر) اى الكوكب (Astre) ومنها اتت كلمة (الاسطرلاب) وهى آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (Astrolabe)

هي ووبسة او (عبسة) اى الارض اليابسة (Ops) وكانت تعبد كالهة البذر والحصاد والتناسل ويستغاث بها عند الولادة ونجد تمثال (تانيت) بمتحف باردو فى صورة امرأة ترضع ابنها متل الالهة (Nutrix) . وكنيرا ما كانت تحمل اسم (ربه) او (ملكة) فوق الانصاب والاحجار النذرية ومن هناك اتى تركيب بعض اسماء الاعلام مثل : عبد ربه - اخيملكة - اختملكة - امة ملكة (بمعنى خديمة ملكة) الخ ٠٠٠٠

اما رمز تانيت اى الصورة التى تمثلها وتشير اليها فوق الاحجار النذرية او الاوانى والفخار والحلى واشرة السفن وغير ذلك ، فهو معروف ويتألف عادة من ثلاثة اجزاء : مثلث يمثل البدن ، وخط افقى ينتهى طرفاه بشكل اليدين ، ودائرة تمثل الرأس .

وان (بعل حمون) يحتل بلا منازع المكان الاول بالبنتييون القرطاجى اى بهيكل الالهة بعد تانيت بينيبعل ، وان اسمه ياتى مباشرة بعد اسمها فوق آلاف الحجرات النذرية التى وجدت بقرطاج فان الكتابات المنقوشة فوقها لها صيغة واحدة تقريبا وهى ترشدنا الى اسماء الاعلام فى ذلك الوقت اكثر من شىء آخر وهذا نموذج من هذه النصوص المنقوشة .

الى ربة تانيت بينيبعل والى الرب بعل حمون ما نذره
حنبعل بن بود اشطورة

الى الالهة تانيت بينيبعل والى الرب بعل حمون هذا ما
نذره عرس بن عبد ملقرط

واحيانا نجد اسم بعل وحده كما هو منقوش على الاحجار الموجودة بحدر موت (سوسة) ودوقة ومكتر وبالجهة الوسطى بصفة عامة وقد وقع ايضا تشبيه بعل حمون بساترنوس (Saturnus) وهو اله الفلاحة عند الرومانيين والمنجل من خصائصه التى يعرف بها او بنظيره عند اليونانيين وهو قرونس Kronos اله الايام والسنين والفصول وتغير الهواء وهو ابو زاس وحيرا .

ولذلك كان القرطاجيون يقدسون ساترنوس وقرونس ويعبدونهما ويخمنونهما ويقدمون لهما الضحايا البشريّة • وإن تمثال فرونس كان من النحاس وكانت يده ممدودتين ومائلتين نحو الارض بحيث ان اطفال الذى يوضع عليهما يتدحرج لا محالة فى هوة النار ، ويرى ستيفن قسالى ان يديه كان يحركهما محرك ، فتتخفضان كلبسا انقلبتهما الضحية تم ترتفعان بعد سقوطها فى النار •

وكان القرطاجيون يمثلون بعل حمون فى شكل اله اقربن اى له قرنان كقرنى الكبش ، وقد عثر على كثير من هذه الاصنام ويوجد نموذج منها بمتحف لافيجرى بقرطاج ، وهذا يذكرنا بالكبش امون المقدس الذى كان يعبد الليبيون من قبل قدوم الفنيقيين ، وهنبا ايضا نرى انشبه الموجود بين اله الافريقيين (امون) واله القرطاجيين (بعل حمون) فكانه وقع دمجهما فى اله واحد •

ومن غير شك ان التمثال الذى عثر عليه بمعبد صياغة (Siagu) قرب بئر بورقبة هو ايضا بعل حمون ، فى شكل اله الحى ، جالس على عرش ، وبجانبه ابو الهول (وهو فى الميثولوجية خلقة لها راس امرأة وجسد اسد وجناحا نسر) وعلى راسه تاج اسطواني ذو تجويفات مسنطيلة ، وهو يرتدى قميصا فضفاضاً مثل الذى يلبسه الفنيقيون ويده اليمنى مبسوطة ومرفوعة فى الهواء • ومن المحتمل ان هذا الصنم كان يمثل اله صياغة لانها وجدت بمعبد ذلك المكان ، واله حدر موت (سوسة) لان هذه المدينة لا تبعد عن صياغة الا قليلا •

وهناك ايضا كثير من الآلهة الاخرى التى لها بعض الشبه ببعل حمون وكانت كلها تعبد وتقدس من طرف القرطاجيين نذكر منها :

— ملقرط : وهو اله صور وقد شبهه اليونانيون من قديم الزمان بهيراقليس ، وكان له معبد بقرطاج ، والاسماء التى كانت تدخل فيها كلمة ملقرط كثيرة جدا مثل عملقار (عبد ملقرط) وبو ملقار الخ • • • واسم هذا الاله يتركب بدوره كما شرحناه فى مكان آخر من (ملك) و (قرط) اى ملك المدينة او رب المدينة ، والمقصود من المدينة هنا هو (صور) • والى هذا الاله بمدينة صور كانت ترسل الهدايا الثمينة والقرايين فى كل عام من قرطاج •

— اشمون : وهو ايضا من كبار الآلهة بقرطاج ، وقد كانوا شيدوا

له معبدا فوق (بيرصة) من ايام تاسيس المدينة فى المكان الذى نرى فيه اليوم كنيسة لوزير التاسع . وهذا الاله كان معبودا ايضا بفنيقيه وعلى الاخص بمدينة صيدا وبيروت وحتى بمدينة صور . وشبهه اليونانيون بالاله شقليبوس (Asclepios) والرومانيون بنظيره عندهم وهو الاله اسقولا ب (Esculape)

— **مولك او ملك (Molock)** : كان فى الاصل اله اليهود العمانيين فكانوا يقدمون له الاطفال قربانا ويحرقونهم بلا رحمة ولا شفقة . وقد عبده كثير من ملوك اليهود، ولم يكتف بعضهم بعبادته وتقديسه وذلك امثال الملك الحادى عشر (آكاز Achaz) والملك الثالث عشر (منصة Manassé) الذى تولى الملك من ٦٩٨ الى ٦٤٤ ق م . بل احرقوا ابناءهم ايضا بكل تسوؤ وفساوة وقدموهم قربانا لمعبودهم الاكبر ، فى مكان كان يعرف فى كتاب التوراة باسم (طفاية Tophet،) بالضاحية الجنوبية من مدينة القدس .

ونظير هذا الاله بقرطاج هو (ميلكن) او (مولك بعل) الذى كانوا يمثلونه فى صورة وتن قبيح الحلقة له راس نور فوق جسم انسان . وكان القرطاجيون يقدمون ايضا لمعبودهم هذا فلذات اكبادهم بدون تردد ولا ابطاء . ونفهم من هذا ان تقديم الاطفال للنار على مذهب الآلهة فى كل عام كان اقوى العادات الدينية السائدة بينهم وكانوا يكفكون دموعهم ، ويهدؤون صياحهم بالقبلات واللمسات اللطيفة والدغدغة حتى لا يقع احراق الضحية وهى تبكى . . .

ونفهم ايضا مما ذكرناه ان احراق الاطفال لم يكن مقصوريا على القرطاجيين وعلى اسلافهم الفنيقيين بل كيان عادة عند جميع الكنعانيين اى اجداد اليهود واجداد الفنيقيين على حد سواء .

ونحن نجد كلمة (مولك او ملك) فى كثير من الكتابات المنقوشة على الاحجار النثرية بقرطاج او بغيرها من المدن الافريقية وكانت تؤول كما ذكرناه وتفسر كاسم الاله الذى لا يسكن غضبه ولا يهدا سخطه الا بتقديم الضحايا البشرية ، اما الآن فقد صرنا نعلم، بفضل ما وصل اليه العالم البحوث الالمانى آسفلد (M. O. Eissfeld) ان تلك الكلمة تدل على القربان اى على الضحية نفسها لاعلى المعبود الذى كان يطلب بها

واخبار هذه الضحايا البشرية وصلت الينا عن طريق نصوص

كثيرة اهمها ما رواه ديودورس الصقلي ، وقد سجل التاريخ كثيرا من هذه المناسى المروعة ، فقد قدم القرطاجيون للنار حين حاصروا امهم قائد الاغريق اغاثوكلاس (Agathocles) مائتى طفل من انبل الاسر، وخف نلائمة رجل الى التطوع يومئذ فرحين لانهم سيكونون قربانا للمعبود الاكبر عساه ان ينقذهم مما هم فيه من ضيق وشدة نم تايدت هذه الروايات باكتشاف وثائق مادية محسوسة ومجسدة على عين المكان

فان الصورة المنحوتة التى يرجع تاريخها الى اواخر القرن الخامس او اوائل القرن الرابع ق. م. لأكبر شاهدودليل على صحة عادة احراق الاطفال . وهذه الصورة تمثل كانها مرتديا لباس المصريين اى جبة شفافة من كتان ، وهو يرفع يده مبتهلا ومتضرعا الى معبوده وبحمل طفلا صغيرا ليقدمه له قربانا (انظر الصورة فى مكانها أ

وفى سنة ١٩٢٠ وقع اكتشاف آثار مادية اخرى بصالمبو وهى آلاف من الاجاجين والاوانى من الفخار وجدت مدفونة فى عمق ما بقرب من عشرة امتار تحت الارض، وهى تحتوى على عظام وعلى رماد الاطفال الرضع الذين وقع احراقهم . وقد اطلق المؤرخون اسم (طفاية Tophet) على ذلك المعبد المحزن ، وهو الاسم الذى كان يطلقه كتاب التوراة على ناحية من واد جينوم جنوب بيت المقدس ، حيث كان الاسرائيليون يحرقون اطفالهم الى ان نهاهم عن هذا العمل الفضيع الملك يوزياس (من سنة ٦٤١ الى ٦١١ ق. م.) ومنعه منعاً باتاً وكسر الاصنام فى بلاد بنى اسرائيل .



هذه هى الآلهة الهامة التى كان لها فى القديم مقام كبير وحضوة عند القرطاجيين نم تاتى بعدها آلهة اخرى كثيرة ثانوية مثل (بعل سمين) اى اله السماوات ، (وبعل ادير) اى القدير ، و (سكون) ومنه اتى الاسم المتداول (جير سكن) Girescon اى (جار الاله سكون) ، و (السيد) ومنه اتى الاسم المعروف (عبد السيد) والاله (صالمبل او شالمبل) اى صورة بعل ، ومنه اتى اسم المكان المعروف بصالمبو قرب قرطاج . ونكتفى بهذا القدر من الامثلة

— القسيسية او الكهنوت —

ان المعابد كان يلحق بها عدد من الكهنة والكاهنات جعلوا كلهم

لوحة ٣٢
انظر الصفحة رقم ١٢١ من هذا الكتاب



عريسة بعل

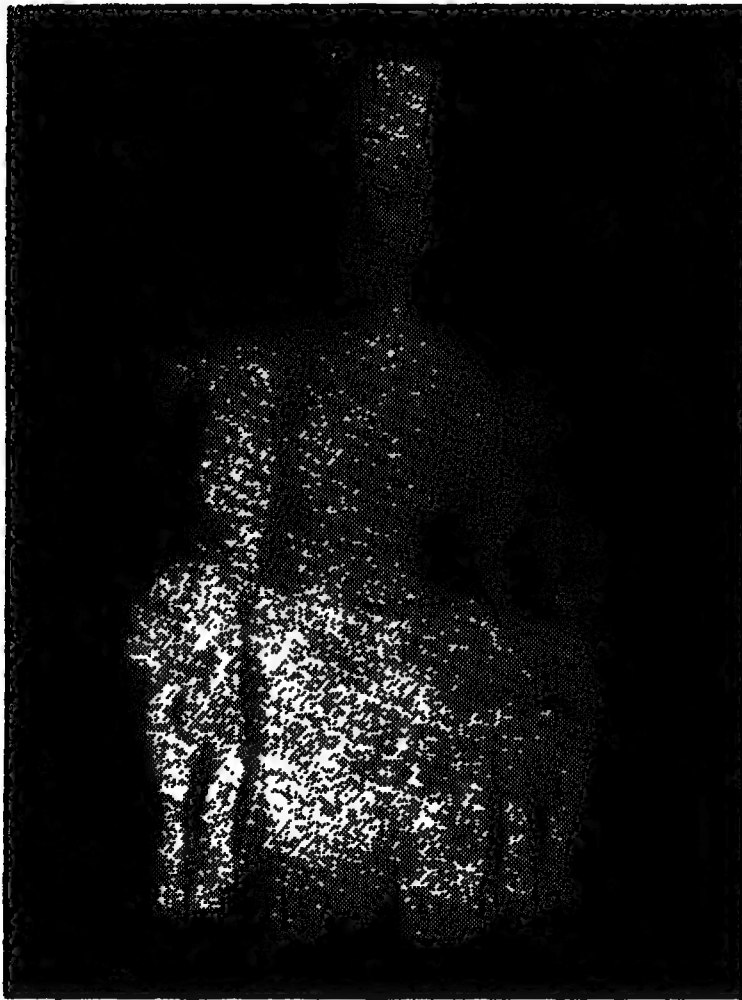
اللوحة ٣٣
ص ١١٦/١٧



ثاني

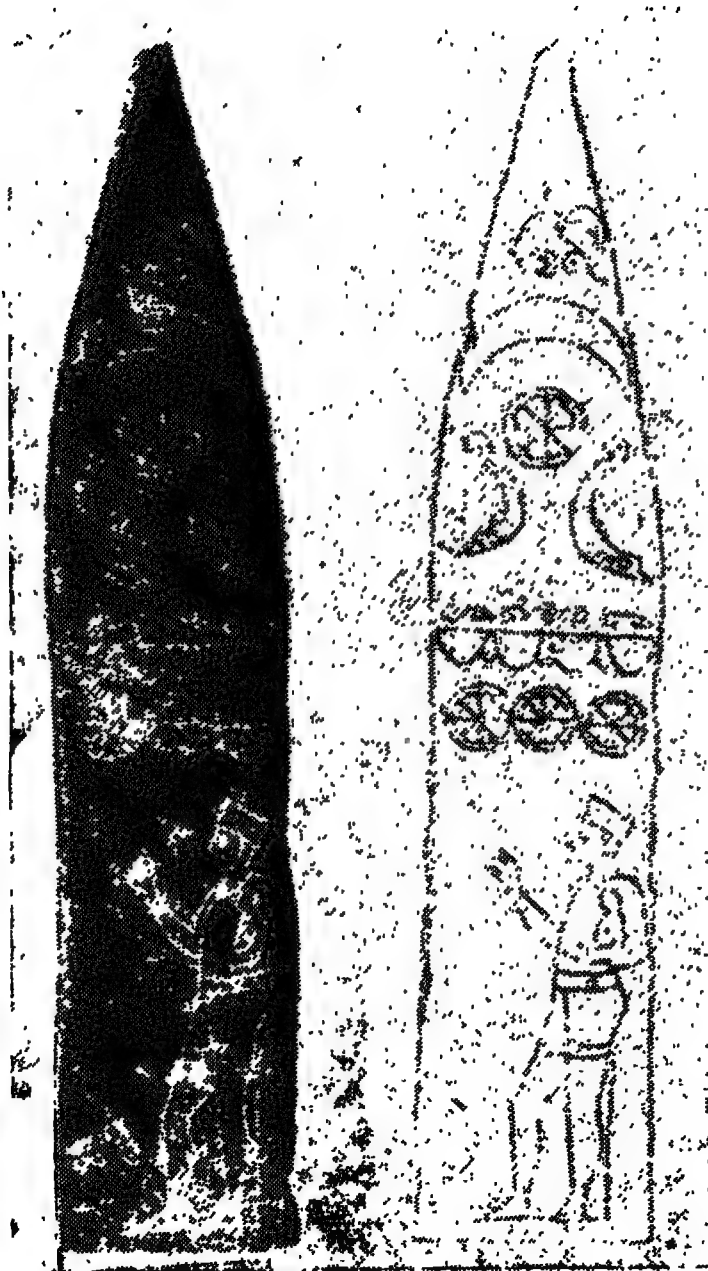
لوحة ٣٤
انظر الصفحة رقم ١١٥ و ١١٨ من هذا الكتاب

بعل



بعل حمون

لوحة ٣٥
انظر الصفحة رقم ١٢٠ / ١٦٤ من هذا الكتاب



نصب ندرى بعل (ملكا) اى طنلا يقدمه الكوهن قربانا للاله بعل

تحت نعوذ وقيادة حبر اعظم بحمل لقب (الرب كوهنيتم) وهذا اللقب كانت حملته ايضا امرأة تدعى (معطا نعل) كانت تجمع تحت نفوذها كامل هيئة الكهنة من رجال ونساء بجميع المعابد او بمعبد واحد منها فقط

وكان الكهنة يسمون في الغالب الى اعلى الطبقات الارستقراطية وكانت العيسيسبة ورائية على الاقل بالنسبة للحبر الاعظم ولم يفرض التبتل على النساء الكاهنات ملما كان ذلك معروضا على الفسائبات برومه (les Vestales) وكذلك لم تعرض العزوبة على الكهنة من الرجال

وبمناسبه اقامة الحفلات والطعوس الدينية كان الكهنة بلبسون ربا خاصا وصعه لنا المؤرخون اللاتينيون كما ياتي : نباب ارجواية، قلانس وجباب من كتان ، اردية طويلة الذيل تزينها في الوسط شفة ارجوايه وعصيبات وان لباس الكاهنة الفرطاحية عريسة بعلى المنقوشة على عطاء الناووس الموجود بمنحف قرطاج كان بدون شك لباس كاهنة عظيمة الشان ، وهو يتشبه لباس الكاهنة المصرية ويعبر احسن تعبير عن الانافة اليونانية

العرفون : وكان الفرطاجيون مولعين بالنطلع الى معرفة المستقبل ويقول المؤرخون ان معبد (سيلستيس) بفرطاج ، التي كانت شيئا واحدا هي وتانيت بينيبعل، كانت به متكهنات يكشفن الغيب ويتنبان بالمستقبل ويهتفن بذلك ٠٠٠ وما زالت مثل هذه المعتقدات موجودة عندنا الى الآن ، وان وجود (البراجين) و (الدقازين) و (الرمالين) وغيرهم من الدراوبش والمسعودين، وانشارهم في كل جهة من بلادنا ، لدليل قاطع على تشبثنا بتلك العادات القديمة .

وكان هؤلاء العرافون يعتبرون عند القرطاجيين من الشخصيات الرسمية ، وكانوا يرافقون فواد الجيوش في حروبهم وعزوانهم، وكان هؤلاء القواد يسنسبرونهم قبل الافدام على امر خطير هام ، وياخذون رايهم ، وينبعونه ، حتى قيل ان عملاق المافوني لم يامر بالهجوم على سرقوسة (سنة ٣٠٩ ق م) الا بعدما اكد له العرافون بان النصر سيكون حليفه ، وقالوا بانهم راوا ذلك مجسما في امعاء القتلى (ا) لكن لم يفده ذلك شيئا لانه انهزم ومات فتिला . وقيل ايضا ان الملك حنون استصحب في رحلته المشهورة جماعة من العرافين ، وانه عملا باشارتهم، ارتحل بمن معه عن احدى الجزر الى كانوا نزلوا بها

اذ راوا في الليل نيرانا تتحرك ، وسمعوا حس الطبول واصوات
المزامير وضجيجا كبيرا وضوضاء ، الشيء الذي من شأنه ان يجعلهم
يتشائمون ويخافون سوء العاقبة ولا يتفألون خيرا ...

المسوخ : وكان القرطاجيون كثيرا ما يستعملون المسوخ او
الوجوه المستعارة ويعتقدون انها تبعد عنهم الجن والشياطين ،
وتقيهم من الآلام والامراض ، وتعيذهم من العين ومن كل هامة ولامة
وكانوا يعتقدون مثل ذلك في اشياء اخرى كثيرة : كقشور بيض
النعام كانوا يجعلونها في شكل المسوخ ايضا ، وكالصنوج والاجراس ،
او العقارب المصنوعة من النحاس او الطين ، او الطلاسم والتعاويد
المخطوطة فوق ورق البردي ، والشفرات والصفائح المعدنية المحفوظة
في انغامد من نحاس او ذهب او فضة عليها تماثيل الآلهة او رمز تانيت
او قرص الشمس او قرص القمر الخ ... وهي اشياء موجودة بكثرة
في متحف الآثار بقرطاج وباردو . وما اشبه ذلك باعتقادنا اليوم
في نعل الفرس ، وذنوب السمكة ، واصابع اليد المبسوطة (الحمسة)
وبخور « الوشق والداد » الذي يعمي عيون الحساد ، وفي تعليق
التمائم للوقاية من العين ، الى غير ذلك من الخرافات والاوهام التي
تدل على شبه كبير بين الوقت الحاضر والزمان الغابر .

وكانت تصنع المسوخ عند القرطاجيين من الطين بواسطة قوالب
وجدت نماذج منها بمعمل الفخار بقرطاج ، وهي في الغالب قبيحة
الشكل والمنظر ، معبسة ومقطبة تمثل وجه الشيطان لطرد العفاريت
وكانت تحمل احيانا اقراطا باذانها وحلقات بانوفها

وفي القرن الرابع ، اخذ القرطاجيون ، تحت تأثير الاغريق ، في
صنع مسوخ صغيرة جدا من الزجاج الملون تستعمل ايضا للوقاية
من الامراض ، تمثل احيانا رؤوس رجال شعورهم ولحاهم مجعدة ومعكفة
وملوثة بالاذرق ، وعيونهم العظيمة براقعة من شدة البياض ... او
رؤوس نساء لون بشرتهن شاحب كامد ، بشعور مجعدة ايضا
وحواجب طويلة

خلاصة ما تقدم

كان القرطاجيون متمسكين كل التمسك بعاداتهم وتقاليدهم وعلى الاخص
بمعتقداتهم الدينية . وقد كانوا يعبدون كثيرا من الاصنام والآلهة (تانيت
بنيبيل) و (بل حمون) وكانوا يقدمون لها الاطفال قربانا كما تدل على
ذلك الاجاجين والقوارير الكبيرة التي وجدت ملانة بعظام اطفال صغار وقع
احراقهم احياء قربانا لآله بل حمون .

الاسفار والرحلات

كانت قرطاج ، طيلة ما يزيد على ستة قرون ، الواسطة الوحيدة تقريبا بين اقطار البحر المتوسط وكامل النصف الغربى من القارة الافريقية ، اى من اقصى السرت الى المحيط الاطلسى المراكشى، ومن البحر المتوسط الى خليج غينية - وان القرطاجيين لم يفكروا من البداية فى التوغل بانفسهم فى هذا العالم المترامى الاطراف ، لكنهم لم يلبثوا ان ادركوا ما تخفيه تلك الصحارى والجهات القاحلة من خبايا وكنوز ثمينة . فلم يفت فى ساعدهم ولم ينن عزيمتهم لا افتحام الاخطار ولا تحمل الاتعاب ، بل استسهلوا كل صعب بارادتهم الفولاذية ، واقتحموا كل الاهوال للوصول الى تلك الكنوز النفيسة من التبر والعاج . وهذا العالم الشاسع يشتمل على الصحراء وعلى بلاد الزنوج .

- الصحراء -

بما ان جفاف الصحراء وقع تدريجيا ، فهى لم تبلىخ فى عهد القرطاجيين درجة القحولة التى وصلت اليها اليوم ، وهى كانت اقل اتساعا لامتداد سطح البحيرات الكبيرة الموجودة بالسودان الشمالى ولذلك كان من الممكن قطع الصحراء بدون صعوبة كبيرة على شرط اجتناب الاعراق والتلال والكثبان الرملية . وان اسهل طريق نسبيا هو الذى كان يمر من معبر واحات فزان ويربط بين البحر المتوسط والسودان وكان من الممكن ايضا السير بجانب سواحل المغرب الاقصى ويقع الوصول هكذا الى الانهر الكبيرة والى الغابات الملتفة والمتلبدة بالمنطقة الحارة .

والمكان الذى يسمى اليوم بفران هو الذى كانت تقيم به قبائل الغرامانت (Garamantes) كما اورد لنا اخبارهم المؤرخون اليونانيون والرومانيون . وان التفتيشات التى قام بها علماء الآثار الايطاليون بغرمة (Garama) عاصمة الغرامانت تدل على ان هؤلاء القبائل لم يكونوا من الزنوج السود بل كان جنسهم قريبا من الطوارق وكانت مدنيّتهم ليبيّة .

وقد روى لنا هيرودوتس اخبار حروبهم المستمرة مع الحبش القاطنين فى الكهوف بجبال التيبستى ، فكانوا يطاردونهم ويجدون فى اثرهم وهم على عربات خفيفة تجرها اربعة من الحيسل . وكانت هذه العربات تمكنهم من اجتياز « الحمائد » الصخرية والمنبسطة التى تناسبها مثل هذه الوسائل التنقلية . وان الوثائق الاثرية الهامة تؤيد هذه الارشادات التى مدنا بها « شيخ المؤرخين » ، وهذه الوثائق هى الصور الصخرية التى وجدت بكثرة بنجد تاسيلي العجير (Tassili des Ajjer) وبنجد الاحجار (Ahaggar) والتى تمثل محاربين من الغرامانت ، مزينين بالريش ، وحاملين الحراب والمزاريق ، وراكبين عربات تجرها ثلاثة او اربعة من الحيل .

وان هذه الصور يرجع عهدها الى ما يزيد عن الف سنة ق . م . اى عند ما ظهر الفرس واستعمل كمر كوب مكان البقر التى كانت تمثل مدنية اسبق كما تدل عليه رسوم صخرية اقدم عهدا من رسوم الحيل تم بعد ذلك تخلى الفرس بدوره عن مكانه لفائدة الجميل سفينة الصحراء بلا منازع ، وذلك ابتداء من القرون الاولى للميلاد .

ويظهر ان استعمال هذه العربات الطائرة دخل فى عادات قبائل الغرامانت منذ ذلك العهد البعيد بواسطة الابجيين الذين كانوا نزلوا بالسواحل القرينية اناء هجوم (شعوب البحر) ، او على الاقل بواسطة اغنيقيين الذين كانوا اخذوا ذلك عن الابجيين والذين كانوا يترددون على السواحل الليبية فى ذلك التاريخ . وعلى كل ، فالشيء الذى يستوقف النظر هو الاتفاق فى الزمن بين قدوم الصوريين الى السواحل التونسية وبين استعمال هذه العربات عند الغرامانت وتكوين الامبراطورية الليبية بالصحراء .

وفيما وراء العرق الكبير الغربى نرى قبائل اخرى ليبيّة وهى قبائل الفاروزيين (Pharusiens) كانت تراقب مسلكا آخر يبدأ من مريطانيا ويصل الى السنغال . وكانت مدنيّتهم شبيهة بمدنية

الغرامانت حتى ان رسوم العربلت على الصخور كانت موجودة كذلك عندهم بكامل جهاتهم .

ويظهر ان التجار القرطاجيين لم يسافروا فى اول الامر بانفسهم الى بلاد السودان لجلب ما فيها من خيرات ، بل قضوا مدة طويلة وهم يستخدمون وسائط من الاهالى . فكانت تاتى القوافل تحت حراسة الغرامانت الى ان تبلغ طرابلس . وكانت قوافل الفاروزيين تصعد من مسلك آخر الى مدينة قرطبة (وهى قسنطينة اليوم بالجزائر) . وهكذا كان التجار القرطاجيون يتزودون بالبضائع الواردة من الاراضى البعيدة الحارة كالعاج والتبر والحيوانات المفترسة التى نفقت سوقها وراجت تجارتها على الاخص عند ما انتشرت عادة استعمالها على المسارح ، فكان الرومانيون يقبلون على اقتناء الاسود، والنعام، والفيلة التى كانوا يطلقون عليها اسم «بقر لوقانيا» (١) والنمور التى كانوا يسمونها « فئران افريقية » .

وكانت سبراطة (Sabratha) من اهم الاسواق التابعة للقوافل

الصحراوية القادمة من السودان . وفى القرن الخامس كان التجار ياتون اليها من قرطاج وينزلون بها فى انتظار قدوم قوافل الصحراء ولكن بعد ذلك عزم القرطاجيون على التوغل بانفسهم فى تلك المسالك الصعبة . ومما لا شك فيه ان بعثاتهم ورحلاتهم الصحراوية الكبرى بدأت تظهر فى القرن الخامس ، اذ فى ذلك التاريخ صار البونيقيون يريدون الاستغناء عن الوسائط والاتحاق مباشرة بمصدر الخيرات التى تركز عليها تجارتهم ، فصارت قوافلهم تخطط الصحراء الكبرى ، وتقصد بلاد السودان لجلب الرقيق والتبر والعاج وغير ذلك من تمين المواد .

ونذكر بين المسالك الهامة التى وصفها لنا هيرودوتس وصفا مدققا الطريق الذاهبة من الشرق الى الغرب والتى تربط بين مصر والسودان ، فتبدا من ثيبة (Thèbes) بمصر وتمر من واحة امون

(١) لوقانيا (Lucanie) : جهة جبلية بجنوب ايطاليا كاتنة بين خليج تارنتة - شرقا واللاير جنوبا والكتيانى والبحر التيرانى غربا . وكانت فى جروب مستمرة مع رومة - وكان الرومانيون يطلقون على فيلة افريقية اسم (بقر لوقانيا) لانهم روا هذه الفيلة لأول مرة بتلك الجهة من ايطاليا فى جيش الملك بيروس لما حاربهم فانهمزوا من اثمهم خووفهم من هذه الحيوانات المزعجة (سنة ٢٧٩ ق م . ٠) .

(وتسمى الان بواحة سيوة) فى مرحلة اولى تدوم عشرة ايام ، ومنها الى واحة (اوجيلة) التى تبعد عن واحة سيوة بثلاثمائة كيلومتر تقريبا وكانت واحة اوجيلة فى العصور القديمة لقبيلة قوية تسمى قبيلة الناسمون ، وتقطع هذه المرحلة الثانية فى عشرة ايام ايضا . ثم تاتى مرحلة ثالثة تقطع كذلك فى عشرة ايام وتنتهى عند قبائل الغرامانت ثم مرحلة رابعة تقطع فى نفس تلك المدة وتنتهى عند العطارانت القاطنين بالفزان او بنجد تاسالى العجير ومن الفزان ، الذى يمكن اعتباره كمفرق الننايا او النقطة الدائرة ، يمكن الاتجاه اما نحو سبراتة بالجهة الشمالية الشرقية بعد المرور من غدامس ولبدة ، او نحو نهر النيجر اى نحو بلاد السودان قرب قاوة وطنبكتو .

وان اهمية هذه التجارة الصحراوية بالنسبة لقرطاج لا يمكن تكرانها . وقد راينا ان منفذها الطبيعى على البحر المتوسط كان بلاد طرابلس او ليبيا باسواقها المشهورة Emporia مثل لبدة وسبراتة ومقارياط Macar-Uiat (وهى اوية Oea) فى عهد الرومانيين ومدينة طرابلس اليوم) ومما يؤيد هذه الاهمية ما كان يجتمع يوميا بلبدة من المكوس والاداءات الكمركية لفائدة خزينة الدولة البونيقية ، فهو كان يبلغ يوميا فى بداية القرن الثانى ق.م . ما قدره خمسة آلاف فرنكا ذهباً (١) ومثل هذا المبلغ لم يكن يتجمع فقط من الضرائب على الانتاج الفلاحى المحلى الذى كان ينحصر فى الزيت والتمر ، بل كان اكثره متكوناً من الاداءات عن البضائع والسلع الثمينة الواردة من السودان مثل التبر والعاج وريش النعام والفراء والجواهر . ولذلك يمكن ان نقول بان الصحراء كانت من اهم اركان ثروة قرطاج خصوصا وان القرطاجيين كانوا لا يجدون امامهم مزاحمين ينازعونهم فى هذا الميدان الذى امتازوا به دون غيرهم حتى لعبت قرطاج بملكة افريقية .

وبما ان القرطاجيين كاجدادهم الفنيقيين كانوا قبل كل شىء امة بحرية ، فانهم اخذوا يفكرون فى طريقة تمكنهم من الوصول الى ذخائر التبر لا عن طريق الصحراء بل عن طريق البحر . فكان ذلك من اهم اسباب رحلة الملك حنون الماقونى .

(١) ما يقرب من مليون دينار من نقود بلادنا فى الوقت الحاضر

رحلة حنون (Péricle de Hannon)

ان هذه الرحلة وقعت فى النصف الثانى من القرن الخامس حوالى سنة ٤٨٠ ق م .

وقد ترك لنا حنون نصا منقوشا على لوحة من النحاس كانت معلقة بمعبد كرونس او بعل حمون ، يروى فيه رحلته بالتفصيل لكن لم يبق من ذلك النص سوى ترجمة الى اليونانية قام بها شيوخ المؤرخين هيرودوتس وهذا تعريبها حرفيا :

- ١ - «قد رأى شعب قرطاج من المستحسن ان يسافر حنون خارج اعمدة هيرقليس (١) ، وان يؤسس مدنا ليبية بونيكية فابحر حينئذ فى ستين مركبا ذات خمسين مجذافا ، واخذ معه جما غفيرا من الرجال والنساء يبلغ عددهم ثلاثين الفا ، مع كل ما يلزم من المؤونة وغير ذلك من الضروريات .
- ٢ - بعد ما اجتزنا اعمدة هيرقليس وسرنا فى البحر مدة بومين انسانا بلدة اولى سميناها تيماتيريون Thymatèrion (1) ، تحتها سهل كبير
- ٣ - ثم اتجهنا نحو الغرب وادركنا مكانا يعرف بـ (صوليس) Cap Soloëis وهو عبارة عن راس فى الاراضى الليبية كله اشجار (٢)
- ٤ - بعد ما اقمنا هناك معبدا للاله (بوصيدون) (٣) سافرنا فى البحر متجهين نحو الغزالة (٤) مدة نصف يوم . فوصلنا الى بحيرة قريبة من البحر يغطيها قصب كثيف ومرتفع ترعى فيه الفيلة وعدد كبير من الحيوانات الاخرى .

- (١) اعمدة هيرقليس (Colonne d'Héracles) : هى مفيق جبل طاق (١) تيماتيريون : هى المهدي الان قرب مدينة الرباط وبمصب نهر سبو او نهر السبع
- (٢) راس صوليس : هو راس القننل Cap Cantin شمال مدينة اسفى Safi ما بين مصب نهر ام الربيع ونهر تنسيفت . وهذه الكلمة (صوليس) فنيقية الاصل ومعناها (الصخرة) . وقد اطلق الرومانيون على هذا الراس اسم Promontorium Soli (٣) بوصيدون (Poseidon) اله البحر والاملاح والزوابع والاعاصير عند الرومانيين بنبتون ، من خاصياته انطافئ الثلاثى الشوكات ، والفرس ، والثور ، والخس (اى الكلفين) ، وقد وجد تشبيهه فيما بعد عند الرومانيين بنبتون اله البحر ايضا
- (٤) الغزالة : هى الشمس عند شروقها وارتفاعها

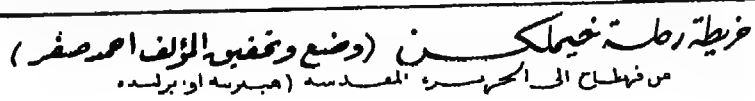
٥ - وبعد ما تجاوزنا تلك البحيرة وسرنا مدة يوم كامل
شيدنا مستعمرات سمينها : الجدار القارى (Mur Carien)
وجيطة (Gytte) وآكره (Acra) ومليتة (Melitta)
وعرمبيس (Arambys) (١)
٦ - بعد ما خرجنا من هناك وصلنا الى نهر لكسوس (١٢)
الاتى من ليبيا وعلى ضفتيه رعاة من البسدويين الليكسيين
يسرحون اغنامهم . فمكثنا مدة من الزمن صحبة هؤلاء الناس
وصرنا من اصدقائهم .

٧ - ويعيش فوقهم اقوام من الحبش لا يكرمون الضيف ،
فى ارض كلها حيوانات ضارية ، تشقها جبال كبيرة قيل انه
يخرج منها نهر لكسوس ، ويقال ان رجالا لهم هيئة غريبة
يدعون (الترغلوديت) يعيشون حول تلك الجبال ويزرعون
الليكسيون انهم اسرع من الحيل فى العدو .

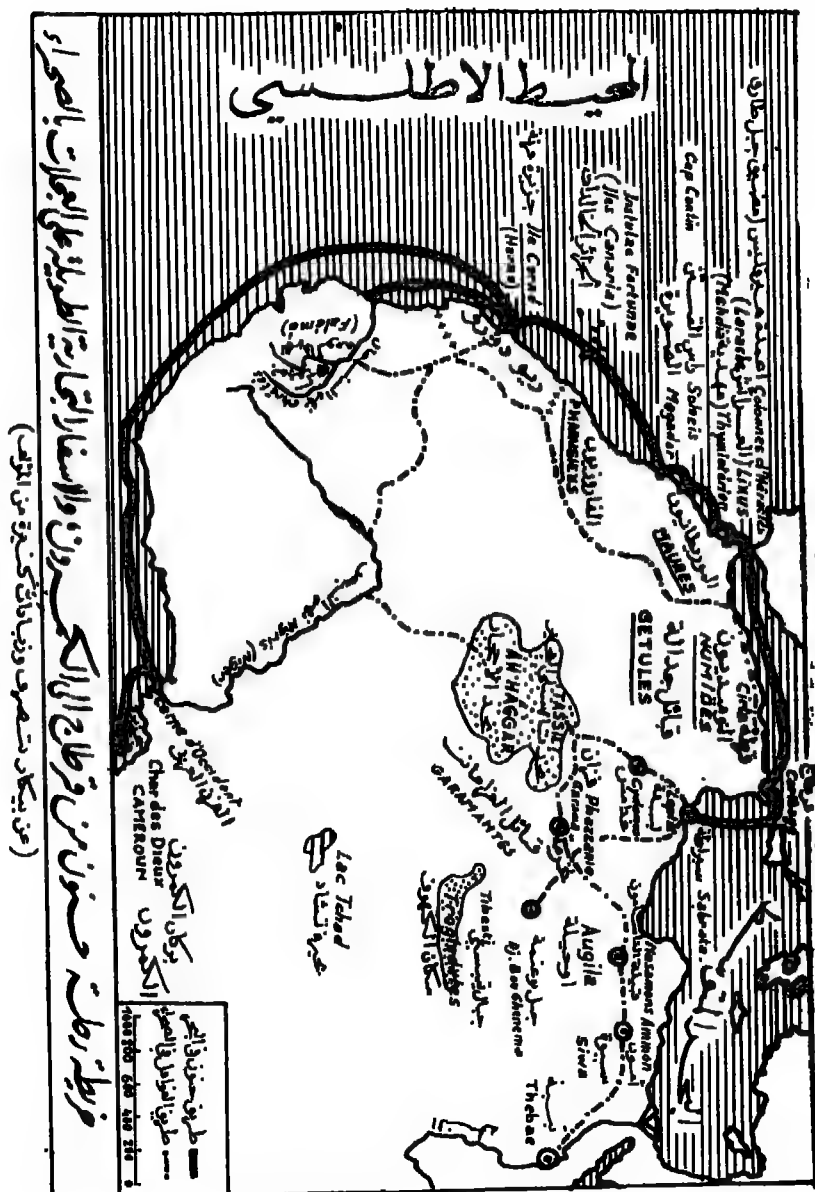
٨ - بعد ما اخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا
بجانب الصحراء متجهين نحو الجنوب مدة يومين ، ثم نحو
الغزالة مدة يوم كامل ، فوصلنا الى خليج وجدنا فى جوفه
جزيرة صغيرة طول محيطها خمس غلوات (٣) فسميناها
قرنة (Ile Cerné) وتركنا فيها جالية من المعمرين . ويظهر
لنا مما قطعناه فى سفرنا ان هذه الجزيرة كائنة تجاه قرطاج
لان السير فى البحر من قرطاج الى اعمدة هيرقليس يعادل
تقريبا السير من تلك الاعمدة الى قرنة .

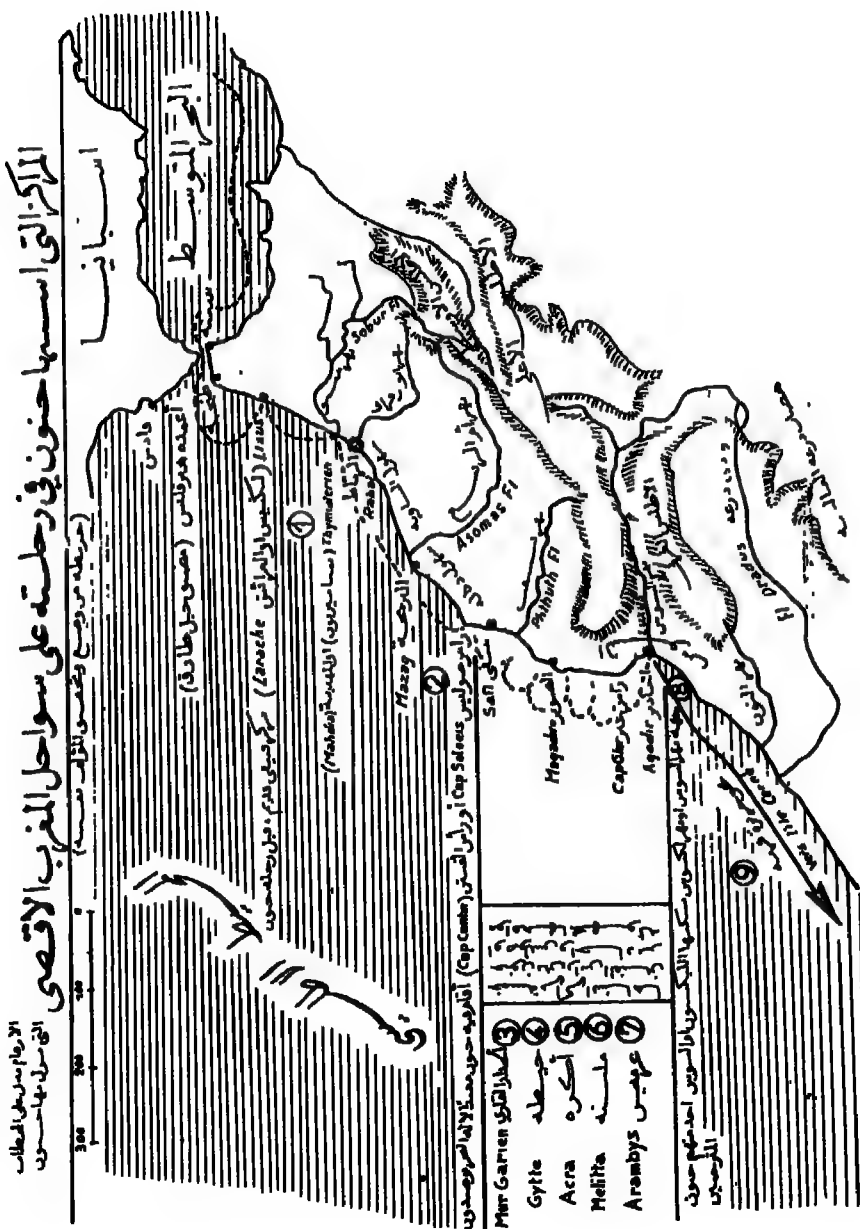
(١) هذه المراكز الخمسة زالت آثارها تماما ولا يمكن معرفة مواقعها بالضبط
لكنها كانت كلها موجودة بين راس القننل ومدينة اجادير بمصب نهر السوس (انظر
الخريطة)

(٢) نهر لكسوس (Lixus) او ليكس (Lix) : هو نهر السوس (Sous)
والليكسيون (Lixites) كانوا سكان تلك الجهة والملاحظ وجود لكسوس (Lixus) اوليكس
بالشمال وهى بلدة العرائش اليوم Larache ثم لكسوس او ليكس (Lix)
بالجنوب وهى وادى سوس اليوم (انظروا الخريطة)
(٣) غلوة (Stade) ج غلوات : كانت من المقاييس القديمة عند اليونانيين
وطول الغلوة ستمائة قدم او ١٩٢،٣٧ من الامتار. تقريبا ومن ذلك التسمية ساحة
الاعاب بالاستاد . وان طول محيط الجزيرة المقدر بخمسة غلوات اى اقل من كيلو متر
واحد امر مستبعد وغير مقبول ، والقالب على الفن انه وقع تحريف فى العدد ولعن
صوابه ١٥ غلوة اى ما يقارب ٣ كم .

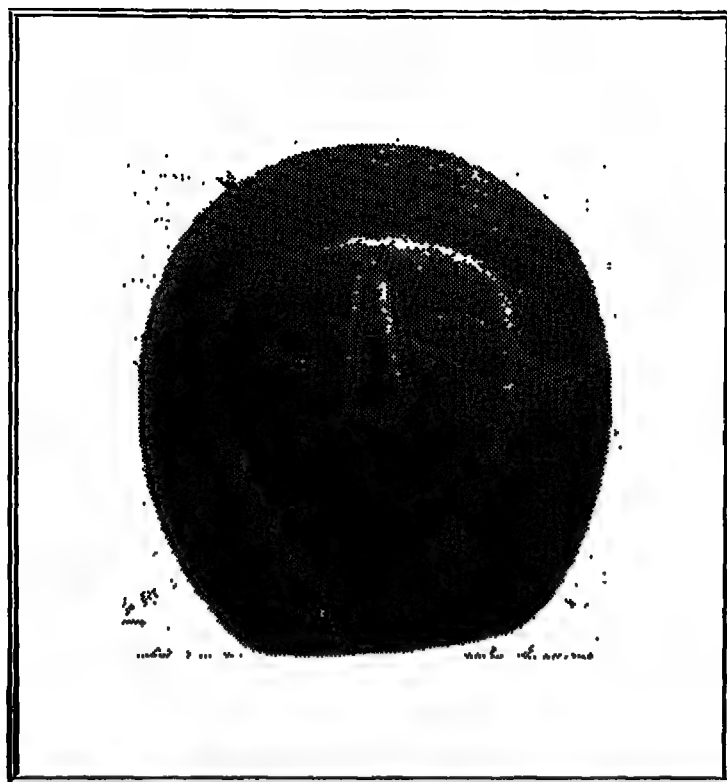


لوحة ٣٧
انظر الصفحة رقم ١٢٤ / ١٢٧ من هذا الكتاب

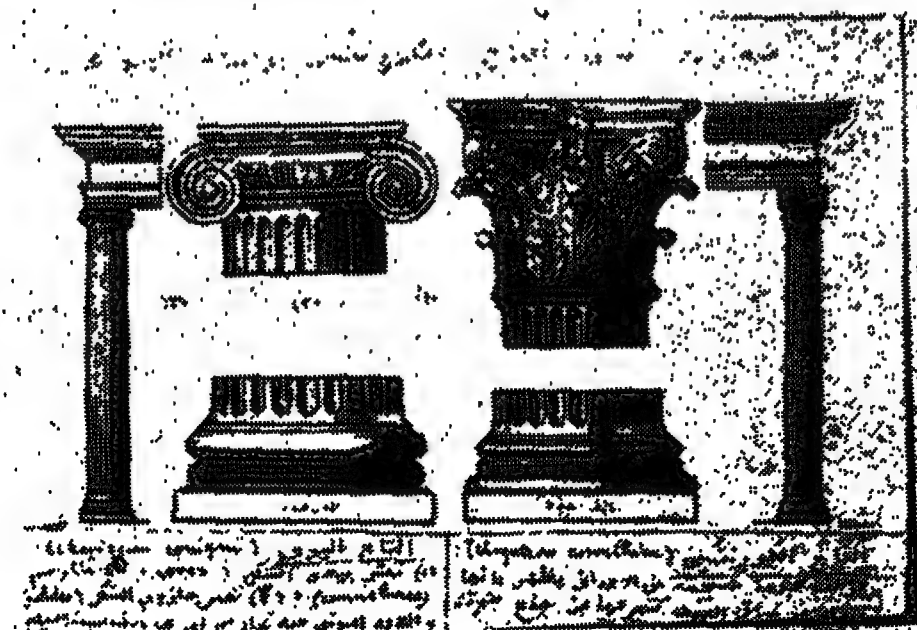




لوحة ٣٩
انظر الصفحة ١٣٧ / ١٥٧ من هذا الكتاب



حجر البيتيل المقدس (ص ١٣٧)



التاج اليولي والتاج الكورنثسي (ص ١٥٧)

- ٩ - ومن هناك دخلنا نهرا كبيرا يسمى وادى قريطيس (Chrètes) (١) فوصلنا الى بحيرة تحتوى على ثلاث جزر اكبر من قرنة . فذهبتنا من تلك الجزر وسرنا مدة يوم وبلغنا آخر البحيرة التى تشرف عليها جبال شاهقة يسكنها رجال متوحشون يلبسون جلود الحيوانات ، اخذوا يقذفوننا بالصخور فمنعونا من النزول .
- ١٠ - ومن هناك دخلنا نهرا آخر (٢) عريضا وملآنا بالتماسيح وبافراس النهر . فرجعنا على اعقابنا وعدنا الى قرنة .
- ١١ - ومن هناك اتجهنا نحو الجنوب مدة اثني عشر يوما وسرنا بجانب السواحل التى كان يقيم بها سكان من الحبشة يفرون كلما دنونا منهم ، ويتكلمون بلغة لم يفهمها حتى الليكسيون الذين كانوا معنا .
- ١٢ - وفى اليوم الاخير اقتربنا من جبال عالية تغطيها اشجار اعوادها طيبة الرائحة ومختلفة الالوان .
- ١٣ - وبعد ما درنا بتلك الجبال مدة يومين وصلنا الى خليج متسع الارعاء يظهر من جهته الاخرى سهل راينا فيه عند ما اتى الليل وجن الظلام ، نيرانا ترتفع من كل جانب بالتواتر وتختلف شدة .
- ١٤ - وبعد ما تزودنا بالماء استأنفنا سيرنا بجانب الشاطئ مدة خمسة ايام ، فوصلنا الى خليج كبير ذكر لنا المترجمون انه يسمى قرن الغرب (Corne de l'Occident) . وتوجد فى ذلك الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة تحيط بجزيرة اخرى . فنزلنا فيها ولم نر بها فى النهار الا غابة . اما فى الليل فقد ظهرت لنا نيران واضواء كثيرة ، وسمعنا اصوات الزمور وقعقة الطبول والصنوج ، وجلبة كبيرة . فتملكنا الخوف ، وامرنا العرافون بمبارحة الجزيرة حالا (٣) .

(١) وادى قريطيس : هو وادى السنغال

(٢) النهر الاخر : هو ساعدة نهر السنغال ويسمى نهر فالومة

ما بين نهر السنغال وساعدة وادى فالومة توجد ارض مثثة الشكل تسمى (بمبوك) هى مكان استخراج الذهب منذ قرون طويلة .

(٣) تفهم من ذلك ان حثون استمعوا العرافين معه ليستشيرهم ويأخذوا منهم فى المعطيات . ومن غير شك ان هذه الاصوات والاصوات كانت ناشئة عن حيلة دينية قامها الزنوج ليلا .

١٥ - فبادرنا بالخروج من ذلك المكان ، وسرنا بجانب بقعة مضطربة ، كلها روائح طيبة ، وراينا اودية من النيران تسيل منها وتنصب في البحر . وكانت تلك الارض لا تطاق ولا يمكن النزول فيها من شدة الحرارة .

١٦ - فسارعنا بالابتعاد عنها لشدة ما نالنا من الخوف وكنا نسير مدة اربعة ايام ونحن نرى الارض في الليل كلها نيرانا، وكنا نرى في وسطها نارا مرتفعة وصاعدة في السماء كأنها تريد ان تدرك الكواكب . ولما طلع النهار تبين لنا انها بركان (Char des Dieux) كبير يسمى «عربة الآلهة (١)

١٧ - ومن هناك قضينا مدة ثلاثة ايام ونحن نسير بجانب النيران الملتهبة حتى انتهينا الى خليج يسمى قرن الجنوب (Corne du Sud)

١٨ - وفي جوف ذلك الخليج توجد جزيرة شبيهة بالتي تقدم ذكرها ، فيها بحيرة في وسطها جزيرة اخرى يسكنها رجال متوحشون ، كانت نساؤهم اكثر عددا من الرجال يغطي جسمهن شعر طويل وقال لنا المترجمون انهن الغورلا (Gorilles) فطاردنا الذكور بدون ان نظفر ولو بواحد لانهم كانوا ماهرين في التسلق وفي الدفاع عن انفسهم ، اما النساء فقد اخذننا منهن ثلاثة ، لكنهن امتنعن من اتباعنا واخذن في عض وتخديش من يريد فودهن . فاضطرونا الى قتلهن وسلخن . وحملنا معنا جلودهن الى قرطاج . اذ اننا لم نزد ولو خطوة اخرى الى الامام لنفاذ ما عندنا من الزاد .

وهنا تنتهى ترجمة النص المتعلق برحلة حنون وهذا النص يعتبر من الوثائق التاريخية الهامة رغما عما فيه احيانا من الغموض او النقص او التحريف ، ورغما عما ورد فيه من اسماء مراكز وجهات لم نتوصل الى حصر مواقعها واثبات اماكنها بالضبط . فهو على كل حال واضح في مجموعه ، يمكن درسه وشرحه وتاويله بدون صعوبة كبيرة ، وهو سهل الفهم وقريب المآخذ اذا اقتصرنا على ما فيه من ارشادات يمكن اثباتها بسهولة وتاويلها تاويلا صحيحا وعدلنا عن محاولة طلب المستحيل للوصول الى اكثر من ذلك .

وان هذا النص كان في الاصل تقريراً حرره (حنون) وعرضه على مجلس الشيوخ . فمن غير شك ان هذا المجلس قبل ان يامر (١) عربة الآلهة : هويز كان الكمرون وسميه سكان تلك الجهة (جبل الشياطين)

بنقشه وتعليقه واذاعته للعموم ، حذف منه جميع الارشادات التي ينبغي ان تبقى مكتومة وان تحتفظ مع جملة اسرار الدولة ، فلا يمكن ان يرشدك النص مثلا الى المكان الذى يستخرج منه التبر او غير ذلك من الخيرات الثمينة التى تريد ان تختص بها قرطاج وان لا يزاحمها فيها مزاحم .

وقد فتح هذا النص مجالا لمجادلات ومناقشات كثيرة وتاويلات مختلفة من طرف النقاد وعلماء التاريخ والاثار . فهم يقولون مثلا : كيف يمكن ان يحمل حنوت ثلاثين الفا من المسافرين فى سبتين مركبا اى ان يجعل فى السفينة الواحدة ما يقرب من خمسمائة شخص ؟ او كيف يتصور ان يكون طول محيط جزيرة قرنة خمس غلوات فقط اى $192,27 \times 5 = 961,35$ م وهو اقل من الكيلومتر ؟ وقد اتفق غالب المؤرخين على جعل المركز الاول الذى وقع انشاؤه اى (تيماتيريون) ببلدة المهديّة الان قرب الرباط، وبجعل (صوليس) براس القننل .

اما المراكز الخمسة الاخرى التى وقع انشاؤها بين صوليس اى راس القننل واجادير اى مصب وادى سوس فقد زالت آثارها وليس من الممكن التوصل الى معرفة مواقعها بالضبط .
واما جزيرة (قرنة) فقد اختلف المؤرخون فى ضبط موقعها . ونحن نكتفى هنا بعرض ثلاث نظريات تبدو وجيهة :

اولا - نظرية ستيفان قسّال (١) : يذهب هذا المؤرخ الى ان مصب وادى لكسيس هو مصب وادى درعة او وادى الذراع (Oued Draa) حيث نزل حنوت واخذ المترجمين، وان قرنة كانت موجودة قرب مصب اودلتا نهر الساقية الحمراء ما بين راس جوبى (Cap Juby) ورأس بوجادور (Cap Bogador) ولكنها اقرب من الراس الاول ، وان نهر اقريطيس هو نهر الساقية الحمراء ، فمن مصب ذلك النهر يمكن العودة بسهولة الى قرنة وبدون اضاءة وقت طويل .

ويعتمد قسّال فى تاويله هذا على عدد ايام السفر الذى ذكره حنوت فى تقريره فهو يقول فى الفقرة الثامنة :

« بعد ما اخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا مدة يومين .. ثم يوم واحد .. فوصلنا الى خليج فيه جزيرة » وحينئذ فان مدة السفر كانت فى الجملة ثلاثة ايام واذا اعتبرنا ان معدل سيرهم كان

(١) ستيفان قسّال (Stephane Gsell) (١٨٦١ - ١٩٣٣) : عالم فرنسي

من علماء الانار والتاريخ الف كتاب (تاريخ افريقية الشمالية القديم) فى ثمانية اجزاء كبيرة .
(Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord)

١٢٥ كم . في اليوم فانه يمكن لهم ان يقطعوا في ثلاثة ايام المسافة الموجودة بين مصب وادي درعة ومصب وادي الساقية الحمراء ولا يمكن لهم ان يقطعوا مسافة اطول من ذلك او الوصول امام خليج ريودورو (Rio de Oro) ثم يختم قسال كلامه بقوله : « لكن من سوء الحظ انه لا توجد اية جزيرة بتلك الناحية ، فلربما انها كانت موجودة في ذلك العهد ، وبما انها لم تكن تبعد اكثر من ١٥٠٠ م . عن الشاطئ فيمكن انها اتصلت وانحطت شيئا فشيئا بالارض اليابسة

ثانيا - نظرية ايميل قوتية (١) : ينسب هذا المؤرخ الى ان نهر قريطيس هو نهر السنغال ويجعل جزيرة قرنة قرب مصب ذلك النهر نفسه في المكان الذي يسمى الان سان لويز (Saint Louis) ويستدل برواية حنون ، اذ هو يقول بانه نزل بجزيرة قرنة وترك فيها جالية من المعمرين ثم دخل نهر قريطيس (ولم يقل بانه سار الى ان وصل الى ذلك النهر) .

وقد اتفق هذا المؤرخ مع ستيفان قسال في جعل هذه الجزيرة قرب مصب نهر قريطيس ، والخلاف بينهما كان منحصر في اثبات شخصية ذلك النهر وتحقيق ذاتيته ، فبينما يقول قسال بانه نهر الساقية الحمراء نرى قوتية يقول بانه نهر السنغال . وهذا الرأي الاخير يبدو كانه اقرب للصواب اذ علمنا ان حنون كان يسعى وراء مناجم التبر وهي كانت موجودة بجهة نهر السنغال لا بجهة نهر الساقية الحمراء

ثالثا - نظرية كاركوبينو (٢) : ان هذا المؤرخ (ككثير من المؤرخين مثل فيفيان مارتان (٣) وغيره) يجعل جزيرة قرنة في جوف ريودورو وهي ما زالت تسمى الى يومنا هذا « جزيرة هرنة »

Herne ويعتبر بان نهر قريطيس هو نهر السنغال فهو يتفق مع قوتية فيما يتعلق بنهر قريطيس واعتباره شتا واحدا هو ونهر السنغال ولكنه يرى ان اعتبار جزيرة قرنة بمصب ذلك النهر غير ممكن لطول المسافة بين ذلك المكان وجهة وادي سوس ، ونحن نجد

(١) Emile Gautier ١٨٦٤ - ١٩٤٠ : مؤرخ فرنسي الف كتاب القرون المظلمة او ماضي افريقية الشمالية .

Les siècles obscurs ou le Passé de l'Afrique du Nord.

(٣) Jérôme Carcopino ولد سنة ١٨٨١ مؤرخ فرنسي اختصناص في

تاريخ الرومانيين الف (بلاد مراكش العتيقة antique Maroc) حيث يتحدث عن جزيرة قرنة (من صفحة ٧٢ الى صفحة ١٦٣)

(٣) Vivien de St Martin : (١٨٠٢ - ١٨٩٧) مؤرخ وجغرافي مشهور الف كتاب كبير القيمة وجيل اللامعة شمال افريقية عند علماء اليونانيين والرومانيين طبع سنة ١٨٦٣

Le Nord de l'Afrique dans l'antiquité grecque et romaine.

فى نص رحلة حنون « انهم ساروا مدة يومين ثم يوم واحد » وهذا لا يكفى للوصول الى نهر السنغال .

فلو اصلحنا ذلك وقلنا بانهم ساروا مدة اثني عشر يوما (١) ثم يوم آخر « تكون مدة السفر ثلاثة عشر يوما ، وهو ما يكفيهم للوصول الى جون ريودورو حيث كانت تلك الجزيرة .

ومن جهة اخرى فان حنون قد وضع لنا ذلك بقوله : « ويظهر لنا مما قطعناه فى سفرنا ان هذه الجزيرة كائنة تجاه قرطاج لان السير فى البحر من قرطاج الى اعمدة هيرقليس يعادل تقريبا السير من تلك الاعمدة الى قرنة » . وهذا يكون صحيحا اذا جعلنا جزيرة قرنة فى جون ريودورو .

وهذه النظرية الثالثة هى التى نراها اقرب الى الحقيقة والصواب من جميع النواحي ولذا اعتمدناها فى تسطير الخريطة .

فيمكن ان نقول حينئذ بان نهر قريطيس هو نهر السنغال وبان جزيرة قرنة هى التى تسمى الان جزيرة هرنه فى جون ريودورو وهى بالنسبة للقرطاجيين الذين كانوا ماهرين فى ركوب البحر لا تعتبر بعيدة عن نهر السنغال اى طريق مناجم الذهب . وكانت هذه المناجم موجودة بين نهر السنغال وساعدته نهر فالومة Falémé فى ارض متسعة ومثلثة الشكل تسمى بمبوك (Bambouk) وان علماء التاريخ والجغرافيا من العرب قد نوهوا كلهم بشأن التبر الموجود فى بمبوك . حتى ان احدهم وهو (يا قوت) وصف لنا الكيفية التى كان يقع بها تبادل البضائع بالتبر فقال :

ان التجار المغاربة كانوا ياتون قرب بلاد الزنوج ، فيشعرون السكان بقدمهم وذلك بدق الطبول . وعندما يسمع الزنوج حس الطبول يخرجون من مخابئهم وينتظرون عن بعد . وعند ذلك يفتح التجار «كياسهم ويصفقون بضائعهم ثم يتعبدون فيقترب الزنوج ويضعون كمية من التبر بجانب السلح ثم يتعبدون بدورهم» . فيرجع التجار ، يأخذون التبر ثم ينصرفون تاركين البضائع للزنوج ، ويشغرونهم بانصرافهم بدق الطبول مرة ثانية . ولا يتعدى ابدا احدهم عن الآخر .

(١) بالحروف douze عوض deux او بالارقام ١٢ عوض ٢ فان اللفظ ممكن للتشابه فى شكل الكتابة سواء بالحروف او بالارقام لا اللاتينية فقط بل حتى بالحروف والارقام اليونانية .

يمكن ان نقارن هذا الوصف بالنص الذى تركه لنا شينخ المؤرخين
هيرودوتس وذكر فيه كيف كان القرطاجيون يعرضون بضائعهم
ويعوضونها بالذهب فى بلاد كائنة خارج اعمدة هيرقليس (فهو من
غير شك يشير الى بلاد السنغال) .

قال : كانوا ينزلون بضائعهم ويرتبونها على الشاطئ ثم يعودون
الى سفنهم ، ويستعملون الدخان لاشعار الاهالى بقدومهم . . . الخ
(وبقيّة الحديث كان كما اورده ياقوت) فالفرق بين الروايتين ينحصر
فى استعمال الدخان عوض دق الطبول . وقد كان هيرودوتس يصف
لنا ذلك فى القرن الخامس قبل المسيح . وياقوت بين ١١٧٨ و ١٢٢٩
ولا يمكن ان نتهمه بالاخذ عن هيرودوتس لانه لم يكن يعرفه ولا
يعرف تاليقه . فلم يبق الا التسليم بانهما وصفا شيئا واحدا كان
يقع فى نقطة واحدة الا وهو هذا التعامل الصامت الذى كان بدون
شك ناشئا عن حذر الزنوج وعدم ثقتهم بالتجار لانهم كانوا ياخذونهم
ويبيعونهم فى سوق الرقيق باغلى الاثمان . غير ان (ياقوت) كان
اكثر دقة من (هيرودوتس) لانه سمى لنا المكان وقال بان هذا النوع
من التعامل الصامت كان يقع بالسنغال او بلاد الزنوج ، اما هيرودوتس
فقد اقتصر على القول بانه كان يقع خارج اعمدة هيرقليس ، وبما انه
كان نقل ذلك عن القرطاجيين انفسهم فلعل تكتم هؤلاء التجار هو
الذى كان واقعه فى هذا الغموض والابهام .
ونستنتج من ذلك كله ان السفن القرطاجية كانت تصعد نهر
السنغال الى الببوك حيث كانت توجد مناجم التبر المشهورة .

— رحلة خيملكن

بينما كان الملك القرطاجى حنون يتعرف بالسواحل الافريقية الى
الكمرون سعيا وراء معادن الذهب ، كان القائد البونيقي خيملكن
يتعرف بالسواحل الاوروبية الى ايرلندة سعياً وراء القصدير او
الرصاص الابيض كما كان يسميه ديودورس واسترابن : فان هذه
الرحلات كانت كلها لفائدة التجارة والصناعة ولغايات اقتصادية
قبل كل شئ .

وليس لدينا من الوثائق حول رحلة خيملكن سوى نبذ من قصيدة
فى الجغرافية الفها الشاعر الرومانى روفوس فستبوس افيانوس
Rufus Festus Avienus فى بداية القرن الرابع (حوالى سنة ٤٠٠ ق.م

لتعليم احد اقاربه ، وعنوان هذه القصيدة (Ora Maritima) اى (حول البحر) يصف فيها الشاعر سواحل البحر الابيض المتوسط حسبما وجده فى الرحلة التى قام بها خيملكن من اسبانية الى بلاد القصدير ويقول افيانوس فى ابياته بان خيملكن سافر فى البحر المحيط ووصل بعناء كبير وبعد اربعة اشهر الى نواحي جزر الاسترمنيد (Estrymnides) ، ويحدثنا عن سكون البحر الذى يوقف السفن ، وعن مسافات عريضة مسدودة بضريع ملتف يعوق المراكب عن السير او كانت قاعها رمالا تكاد لا تغطيها المياه ، وعن ضباب كثيف يحجب الماء والسماء ، وعن حيوانات هائلة تدور هنا وهناك وتلقى الهرعب فى النفوس ...

« ان القرطاجى خيملكن ، الذى يحكى بانه جرب بنفسه هذا السفر ، يؤكد بانه لا يمكن الا بجهد جهيند قطع تلك المسافة فى اربعة اشهر (١) ، وذلك لعدم وجود اى نسيم يدفع السفينة الى الامام ، فان ماء هذا البحر الميت يبدو ساكنا جامدا ، وزيادة على ذلك فان كمية كبيرة من الضريع تصعد من قعر البحر وتصبح شبه سياج يحبس السفينة ، ومع ذلك فان البحر خال من العمق لا تغطى قعره سوى طبقة دقيقة من الماء ، وفى كل وقت ترى حيوانات بحرية تجول هنا وهناك وحيثنا مخيفة تمر بين السفن التى تزحف ببطء وبتعب شديد . »

ونفهم من كلام افيانوس ان القائد البونيقي وصبل الى جزر (استرمنيد) قرب (راس استرمنيس) . ومن المحتمل ان يكون هذا الراس هو الطرف الغربى من الاموريك او بريطانية الفرنسية وان تكون تلك الجزر هي (اوشانت) والجزر المجاورة لها . ويقول النص بان خيملكن قضى اربعة اشهر للوصول الى جزر استرمنيد . فان كان ذلك صحيحا فهو قد تعطل كثيرا فى سيره ، اما لوقوفه فى اماكن ساحلية كثيرة وفى نقاط مختلفة ، او بسبب العقبات والعوائق التى اعترضته فى طريقه ، او لانه ربما تاه فى البحر . وضل عن الطريق ، وربما وصل الى بحر السرجس (Mer des Sargasses)

(١) نص ابيات الشاعر افيانوس

Quæ Himilco Pœnus mensibus vix quattuor,
Ut ipse semet rem probasse retulit
Enavigantem, posse tramitti adserit -

قرب جزائر البورى (Les Açores) التى تبعد ١٣٠٠ كم . تقريبا عن البرتغال ، فان ذلك البحر هو عبارة عن مروج عائمة واكداس مكسدة من الضريع الذى ينتمى الى نوع (السرجس) الشئ الذى ادهش خريستوف كولونب وابتهته حقيقة ، وماسمى ذلك المكان ببحر السرجس الا لكثرة ما فيه من هذا النوع من الضريع .
اما تلك المسافة بين فاؤس وطرف بريطانية الفرنسية فهى تقطع عادة فى مدة لا تتجاوز اسبوعين .

وان افيانوس ، نقلا عن خيملكن بدون شك ، يجعل فى حسابه خمسة ايام للذهاب من اعمدة هيرقليس (مضيق جبل طارق) الى راس ارىوم او راس ارتيغل (Cap Ortégal) ويومين للذهاب الى راس الكرمة (Cap du Figuier) الموجود قرب مصب نهر بيداصوة (Bidassoa) وعلى كل فان الشئ المحقق هو ان خيملكن وصل الى بريطانية الفرنسية ونزل بها .

وان القصدير الذى تحدث عنه افيانوس كان يصدر منذ مدة بعيدة جدا ، من طرف الكورنوال (Cornouaille) والموربيهان (Morbihan) ببريطانية الفرنسية . فكان الاهالى بتلك الجهة يصبونه فى شكل سبائك يحملونها فى قوارب خفيفة مصنوعة من جلود يخطونها حول هيكل من قضبان الخيزران ، وكان التجار الاجانب ياتون من بعيد الى تلك الجزر لاقتناء القصدير ويظهر ان استغلال هذه المناجم اخذ ينقص ويتضاءل ابتداء من سنة ٥٠٠ ق.م . بينما كانت عكس ذلك مناجم الكورنوال بالانكلترا تنمو وتزدهر . وهذا الانتقال فيما يتعلق بمراكز انتاج القصدير هو الذى كان من اهم اسباب رحلة هيرذا القائد البونيقى ليطلع بنفسه عن مشاكل التمويل . ولذلك نراه لم يمكث طويلا بالارموريكة الفرنسية بل قصد انكلترا وايرلندة او الجزيرة المقدسة كما كانوا يسمونها فى الماضى ووصل الى جزائر القصدير (Iles des Cassitérides) او جزائر الصورلنغ او سيلي (Iles des Sorlingues ou Scilly)

هذا وان الاب دافياس (O. Davies) قد اذاع اخيرا اثرا عجيبا يوجد الان بسان جهنستون (St Johnstown) على مصب نهر الفويل (١) وهو حجر بيضوى الشكل عليه خطوط منقوشة

(١) الفويل (Foyle) نهر يوجد بشمال ايرلندة ينتهى بمصب واسع يسمى لوف فويل Lough Foyle

فى شكل راس انسان تجعل هذا الحجر شبيها كل الشبه «بالبيتيل» (bétyle) (١) القرطاجى المعروف والموجود بالمتحف العلوى بباردو ، وهو بدون شك حجر. نذرى حبسه خيملكن او واحد ممن اتوا بعده الى ذلك المكان ، ولا يمكن ان يرجع عهده الى ما قبل القرن الخامس ق م .

وقد كنا ذكرنا ان رحلة خيملكن ، مثل رحلة حنون ، كانت لها قبل كل شىء غايات اقتصادية ، وان نتائجها كانت لا يستهان بها ، اذ فى آخر القرن الخامس ازدهرت بقرطاج صناعة البرنز (او القلز) وذلك باستخدام القصدير « الاسترمنيدي » او « الصرلنقى » وهذا يصور لنا تصويرا واضحا درجة نشاط القرطاجيين فى الميدان الاقتصادى .

== خلاصة ما تقدم ==

كانت رحلة حنون من قرطاج الى قرب بلاد الكمرون اى قرب خط الاستواء ترمى الى انشاء مستعمرات ومراكز تجارية على سواحل المغرب الاقصى بجهة المحيط الاطلسى لجلب التبر من السنغال عن طريق البحر . فقام حنون بهذه المامورية احسن قيام وانشاء ستة مراكز على سواحل مريطانية وقاعدة تجارية هامة . وهى جزيرة قرنة لا تبعد كثيرا عن معادن التبر ببلاد النروج .

اما رحلة خيملكن فكان الغرض منها التعرف بطريق معدن القصدير من مدينة قادس باسبانيا الى بريطانيا . الفرنسية ثم الى الكورنوال وجزر القصدير وسواحل انكلترا وايرلندة . وهو بدوره قد قام بهذه المامورية على الوجه المطلوب .

(١) البيتيل : (بيت آل) ، ومعنى (آل) بالفينيقية هو الاله وحيثئذ يكون معنى (بيتيل) هو (بيت الله) . وهذا البيتيل هو فى الغالب حصة سوداء من الصخور البركانية راوا فيها فى القديم منبع قوة فوق الطبيعية بسبب صلابتها وثقلها المنتظم . ولذلك كانوا يقدسون ذلك « الحجر الاسود » وينقشون فوقه وجها ذا ملامح بهيمية ، كتابة عن قوة بعل وشدة بطشه .

الحياة الاقتصادية

- التجارة -

قد اجمع اليهود واليونان والرومان على الاعتراف والتنبؤ بحذق الفنيقيين وبدهائهم ونشاطهم المتناهي الذي لا يعرف الكلل ، حتى انهم كانوا يفرضون انفسهم على كل الشعوب ، وكانت هذه الشعوب تلعن مكرهم وغشهم وخداعهم وكثرة طمعهم ونسدة جبههم للمال ، ولكن مع ذلك تجد نفسها فى حاجة الى خدماتهم ومضطرة الى التعامل معهم .

وان التجارة لعبت اهم دور فى حياة قرطاج الاقتصادية . وكانت سياستها التجارية تتلخص فى فتح الاسواق سواء بالقوة او بالمعاهدات او بانشاء المستعمرات ، وفى ابعاد المزاحمين عن طريقها بجميع الوسائل .

وهذه السياسة هى التى اتبعتها قرطاج ولم تحد عنها فى جميع اطوار حياتها . فمن البداية كانت غايتها ضمان امتيازها واحتكارها التجارى بالبحر المتوسط . وقد نجحت فى ذلك نجاحا تاما خصوصا فى القرن الخامس والقرن الرابع ق . م . حتى انها كانت فرضت ارادتها على رومة بمعاهدة اولى (سنة ٥٠٩) وبمعاهدة ثانية (سنة ٣٤٨) نصت فيهما تحجير تعاطى التجارة على الرومانيين وعلى حلفائهم بسواحل افريقية وسردينية وليبيا . واشترطت مثل ذلك ايضا على اليونانيين ولم تكن معهم اقل شدة او قسوة ، وكانت هذه السواحل تحرسها ابراج ومراقب كثيرة تعرف غالبا باسم « ابراج حنبعل » اشار قدماء المؤرخين الى وجودها باسبانية وافريقية . وهذا كله يدل على ان قرطاج كانت وحدها صاحبة الهيمنة والسيادة على كامل الجانب الغربى من البحر المتوسط من القرن الخامس الى ان خسرت سردينية (سنة ٢٣٧) ثم اسبانية (سنة ٢٠٦) ، حتى ان الرومانيين كانوا يطلقون على تلك البحور اسم « البحور التيررية » (mers Tyriennes) او بحور الصوريين .

ودامت تجارة القرطاجيين مدة طويلة بالمقايضة اى بالمعاوضة والمبادلة . ثم اتخذوا شيئا فشيئا فى دفعاتهم الوسائل المستعملة بالبلدان المتمدنة : مثل السبائك او النسائك المستطيلة والنقود الاجنبية . ولم يضربوا السكة بانفسهم الا فى آخر القرن الخامس بصقلية حسب العيار الاينى الموجود بالجزيرة ، وفى القرن الرابع بدار المسكوكات بقرطاج حسب العيار الفنيقى .

ظهرت عند ذلك القطع الجميلة ، المنقوش عليها راس ديميتير (١)
متوج بالسنبال ، وفرس مجنح ، كناية عن الازدهار والقوة
الحربية ، والمكتوب عليها اسم بيرصة بالحروف اليونانية .



وكانت قرطاج تستورد من املاكها ومن الجهات المجاورة ومن
مستعمراتها جميع ما تحتاج اليه وعلى الاخص المواد الاولية ، فتأتي
بالخلفاء من اسبانيا لصنع الحبال وتأتي بالمعادن المختلفة كالذهب
والفضة من افريقية الغربية ، والقصدير من اسبانية ايضا ومن غالبية
(فرنسا في القديم) والكرنوال ، وكانت جزيرة يابسة تقدم لها
الاصواف والجلود المعتبرة ، وتزودها غابات شمال افريقية بالعاج
اي بانياي الفيل وبالاخشاب لصنع سفنها ، وتمونها قبائل الغرامانت
واناسمون من الجنوب بالاحجار الكريمة وبيض وريش النعام ،
وتمونها سردينية بالحبوب المختلفة ، والصحراء بالتمور ، ويرد اليها
الرقيق من جميع الانحاء .

وكانت الاسماك المصبرة اي المملحة تعتبر اهم شيء في غذائهم
فكانوا يصطادونها كما نصطادها اليوم على سواحل ليبيا الشرقية
والسرت ، ولكنهم كانوا ايضا يجلبون كميات كبيرة من تلك
الاسماك ، وعلى الاخص الثن ، من سواحل اسبانية الجنوبية ومن
المحيط الاطلسي .

ولتجهيز موتاهم وتاثيث قبورهم كان القرطاجيون يتمنون من
كل مكان . ففي البداية كان تجار مدينة صور يزودونهم بجانب كبير
من مصنوعات البرنز والطين النضيج الخارجة من جزيرة قبرص ،
والاصداق من البحر الاحمر والمحيط الهندي ، والبخور واللبان
والصبور والمر المكاوي من بلاد العرب ، والجعلان وقناني العطور
والمسوخ والدمى من مصر .

١) ديميتير Démèter الالهة يونانية تمثل خصب الارض ، وتحمي الزواج الذي
هو نوع آخر من القوى الخالقة والمكونة . ومن خصائصها : الشغل والكثرة اي القبضة
من الزرع والثعبان

وفي القرن السادس والسابع ق م • اخذ القرطاجيون يشترون من سرفوسة البواقيل (١) ذات اللمعان المعدني المصنوعة باثروورية او بلاد اليونان • والاونى الكورنتسية والمصاييح ذات الدهان الاسود • ومن القرن الخامس الى القرن الثاني صاروا يشترون مباشرة هذه المصنوعات من بلاد اليونان او بلاد الزوم : اباريق من البرنز، اشياء من عاج او من عظام عليها زينة دقيقة او نفوش رقيقة ، وكذلك اوانى انينية عليها صور سوداء او رسوم حمراء ، ومصنوعات مختلفة من الانتاج المصرى •

هذا فيما يتعلق بالواردات ، اما فيما يتعلق بالصادرات فقد كانت هى ايضا كثيرة ومنوعة •

فمنذ القرن السادس ق م • كان الشعاع الاثينى (حرميب) ينوء فى قصائده بشأن الزرابى والطنافس والوسائد المطرزة التى كانت تأتيتهم من قرطاج • ومن جهة اخرى فان رومة كانت تعجب كل الاعجاب بشمع قرطاج وعسلها وتينها ورمائها الذى كانوا يطلقون عليه اسم « التفاح البونيقى » • وكانت قرطاج تصدر ايضا الى رومة العاج ، ومومر شمتو (٢) المشهور ، والاقشيشة الارجوانية ، والملايس ، والنحاس المصنوع ، والحوانات الوحشية للملاعب ، وغير ذلك • وان الملح كان ايضا من المواد التجارية الهامة التى كانت تصدرها قرطاج وقد استمر الامر كذلك الى يومنا هذا (ملاحظة حلق الوادى ومقرين الخ •••)

وبالجملة فان تجارة قرطاج كانت مشهورة بنشاطها وحيويتها ، وكانت من اهم اسباب ثروتها الطائلة التى كان يضرب بها المثل ، اذ كانت تعتبر قرطاج كاغنى مدينة فى العالم بما تجمع فيها من ذهب وفضة وخيرات شتى •

لكن من الغلط الكبير الاعتقاد بان تجارة قرطاج كانت دائما كما وصفناه • ولم تتغير حسب الاحوال والظروف • فان السياسة الاقتصادية كانت تتغير حسب تقلبات الامور وحسب صروف الدهر وهذا ما سنحاول بيانه بايجاز •

١ (كلمة (بوقال) اصلها (بوكار) *Bucchero* وتنطق *Bouk-ké-ro* وهذا الاسم يطلق على نوع من صناعة الخزف عند الاثوريين *Etrusques* من القرن السابع الى القرن الرابع ق م • يمتاز بلونه الخاص الذى هو اشهب رمادى يعلوه لون اسود خالص ذو لمعان معدنى يقع الحصول عليه بواسطة التبخير • بلاد الخان (٢) شمتو (وهى ما يسميه الرمان *Simittu*) مكان قرب وادى مجردة مشهور من قديم الزمان بعسن مرمره الوردى والاصفر

١ - من سنة ٨١٤ الى سنة ٥٧٤

٨١٤ : تاريخ تأسيس قرطاج

٥٧٤ : تاريخ وقوع صور تحت سيطرة بختنصر ملك البابليين

كانت قرطاج مدة قرنين ونصف تقريبا تابعة لام السوطن ، اى لملكة صور ، وكانت سياسة قرطاج الاقتصادية هى التى سطرته صور واسست من اجلها هذه المدينة، اى المحافظة على سيادة الفينيقيين بالبحار الغربية . وفى تلك المدة لا يمكن ان نتكلم فى الحقيقة على سياسة اقتصادية قرطاجية ، لان حكومة صور هى التى كانت تسيير وتوجه نشاط الاساطيل البحرية وكذلك نشاط جميع المراكز التجارية الغربية التى لم تؤسس الا لتكون قواعد ثابتة لهذه الاساطيل والسفن تستعملها للتموين والاستراحة .

وكان الغرض من هذا النظام تزويد الشرق بالمعادن التى تنقصه فكان ديدودرس الصقل يقول بان الفينيقيين قد اكتشفوا مناجم الفضة باسبانية ، وهى مناجم كانت تستغلها الاهالى ولكنهم كانوا لا يعرفون قيمتها الحقيقية، ولذلك استثمر الصوريون جهمهم وغباهم وحصلوا على كميات باهضة من الفضة مقابل شئ قليل وتافه من البضائع . فغمروا اسواق الشرق بهذا المعدن النفيس الذى امتازوا وانفردوا به دون غيرهم فنالوا ثروة طائلة .

ونفهم من ذلك ان هذه الثروة العظيمة قد تكونت من البون الكبير الذى كان موجودا بين سعر الفضة البخس باسبانيا والمرتفع جدا فى الاسواق الشرقية ، فتكونت الارباح الجسيمة من ذلك الفرق الكبير بين السعرين .

وزيادة على ذلك فقد اكتشف الصوريون ايضا معدنا آخر كان ضروريا. للانتاج الصناعى وقليل جدا بالشرق ، وهو معدن القصدير ولم يكن يستخرج فى ذلك العهد من جبال (سيرامورينة) باسبانيا (بين الوادى الكبير ووادى يانع) بل كان يجلب من مناجم بعيدة ، منها ما كان موقعه بالشمال الغربى من ايبيرية (اى اسبانيا) ومنها ما كان موجودا ببريطانية الفرنسية او الكورنويل الانكليزى .

لكن عوض ان يستعمل الصوريون والقرطاجيون هذه المواد الاولية لانماء وتحسين صناعتهم القومية، اقتصروا على توزيعها فى الاسواق الاجنبية طمعا فى الارباح العاجلة التى اعتمدت عن نتائج هذا الصنيع اذ انهم فى الحقيقة كانوا يحفرون على حفتهم بظلفهم وذلك لانهم كانوا يساعدون الصناعة الاجنبية على النمو والازدهار ، فكان لهذا الضلال المبين اوخم العواقب بالنسبة لمستقبل صور وقرطاج .

من سنة ٥٧٤ الى سنة ٤٨٠ :

الصراع بين قرطاج والاغريق

سنة ٥٧٤ . وقوع صور تحت سلطة البابلونيين ثم الفرس وفقدان استقلالها .

سنة ٤٨٠ : تاريخ انكسار جيش القرطاجس امام مدينة هيمار بصملة .

بعد سقوط مملكة صور ووقوعها تحت نفوذ بختنصر ، انتقلت الهيمنة على جميع المراكز والمستعمرات النجارية الغربية من فنيقية الى افريقية . فصارت قرطاج فى ذلك التاريخ اكبر قوة بحرية وتجارية بالجهة الغربية من البحر المتوسط ، وهى قوة ورتها من ام الوطن وزادت فى انماها بوسائلها الخاصة فى عهد الملك ملقيس والماقونيين من بعده .

وكان اليونانيون يهيمنون فى ذلك الوقت على الجهة القرينية بليبيا (Cyrénaïque) وبلاد غالية (فرنسا او افرنجة القديمة) وكروسيكة وايطاليا الجنوبية .

وبينما كان القرطاجيون يهيمنون على السواحل الافريقية من السرت الى مضيق جبل طارق ، وكانوا يملكون الجهة الغربية من جزيرة صقلية كانت الجهة الشرقية منها خاضعة لسلطة الاغريق فمن هذه الوضعية نفهم كيف ان القوة اليونانية كانت تسعى فى التوسع والامتداد على حساب القرطاجيين ، غير ان القوة البونيقية كانت تقف فى طريقها لتحول بينها وبين ذلك . فلما حاول الاغريق الاستيلاء على سردينية تحالف القرطاجيون مع الاتروريين واطردوهم من الجزيرة ، ولما حاول (داريوس) ابن ملك اسبرطة الامتداد على سواحل ليبيا وانشاء مراكز تجارية بها تدخلت قرطاج فى الحين واجبرته على الوقوف امام خليج السرت الكبير وعدم تجاوز ذلك الحد (سنة ٥١٠ تقريبا) . كل هذا يبين بكيفية واضحة ان التصادم بين القوتين الاغريقية والقرطاجية كان امرا حتميا لا مفر منه .

وفى ذلك الوقت كان ملك صيداء بفنيقيا قائدا اعلى لكامل اسطول الامبراطورية الفارسية ، وكانت له مكانة وحضوة وكلمة مسموعة فى المجالس الرسمية التى كانت تحدد سياسة ملك الفرس (اكستريس) فوجه السياسة الخارجية بتأثيره ودهائه نحو العزم على مهاجمة الاغريق فى بلادهم . وهكذا اصبحت الشعوب اليونانية فى عزلة سياسية وحربية يطوقها تحالف دول متسع يشمل الاتروريين بايطاليا والبونيقيين والفرس ، واصبحت قرطاج سيدة البحار تجول كما تشاء بالجهة الغربية من البحر المتوسط ،

واستمرت تنقل المواد الاولى من اقصى الغرب الى آسيا وتبيعها بانمان باهضة .

لكن فى ذلك الوقت لم يبق الشعب اليونانى مكتوف الايدى ، بل كان يتقوى ويتحسن اقتصاديا بفضل ذكائه المبدع وبفضل ما تجمع لديه من مواد اولية ومن ذهب وفضة بواسطة اعدائه الفنيقيين والقرطاجيين انفسهم ، واشتهرت على الاخص مدينة كورنثس Corinthes بجودة البضائع الخارجة من معاملها والتي كانت تروجها وتبيعها فى كامل حوض البحر المتوسط وحتى فى المدن الفنية والافريقية البونيقية نفسها ، بينما كان النشاط الاقتصادى بقرطاج يضعف ويتضاءل وينقص شيئا فشيئا ويتراجع الى الوراء . وزيادة على ذلك فان الحكومة الاغريقية انشأت سكة ونقودا قومية او عملة ساعدتها كثيرا على نمو وازدهار اقتصادها بظهور البنوك فى ذلك العهد وما يتبعها من قروض واعتمادات وتسهيلات ، بينما برهن القرطاجيون على عجز كبير فى استعمال او فهم هذا الاكتشاف والابتكار الخطير المتعلق بالميدان النقدى ، وهو ميدان جديد تفوق فيه اليونانيون تفوقا محسوسا على خصوصهم البونيقيين والأتوريين والفرس . وهذا التفوق بلغ درجة كبيرة ووصل الى حد جعل الهم المتوحشة من الغربيين يسعون بجميع مجهوداتهم فى تكوين اتصالات مباشرة مع الاغريق ، وخرق الحصار المضيق الذى ضربه اسطول قرطاج ، واقتناء البضائع راسا من اليونانيين بدون وساطة البونيفيين .

وهكذا يبدو ان ازدهار قرطاج كان هزىلا ضعيفا اوهى من العنكبوت رغما عن قوة مكائنها السياسية .

وان انهيار الحلف الكبير الثلاثى هو الذى كشف للعيان هذا الضعف بكيفية محسوسة تلمس باليد ، وجعل مدينة عيلسة على قاب قوسين او ادنى من الافلاس .

وهذا الانهيار السريع قد اصاب وشمل فى وقت واحد الدول الثلاثة المتحالفة :

(١) كارثة القرطاجيين فى واقعة هيمار (١) سنة ٤٨٠

(١) هيمار Himère باللاتينية Himera مدينة بجزيرة صقلية على بحر تيرانين وبمصب نهر هيمرة ، انشأها المستعمرون الاغريق سنة ٦٤٨ وكانت مسرحا لانكسار عملاق بن مافون قائد جيوش قرطاج امام عنوة الطاغية جيلون الاغريقى (سنة ٤٨٠) فاما القائد قد انتحر واما الجند فقد اسر واما الاسطول فقد تدمر .

- (٢) كارثة الفرس في واقعة سلامين (١) (في نفس ذلك اليوم سنة ٤٨٠) .
(٣) كارثة الاتروديين بمدينة كومة (٢) جنوب ايطاليا (سنة ٤٧٤)

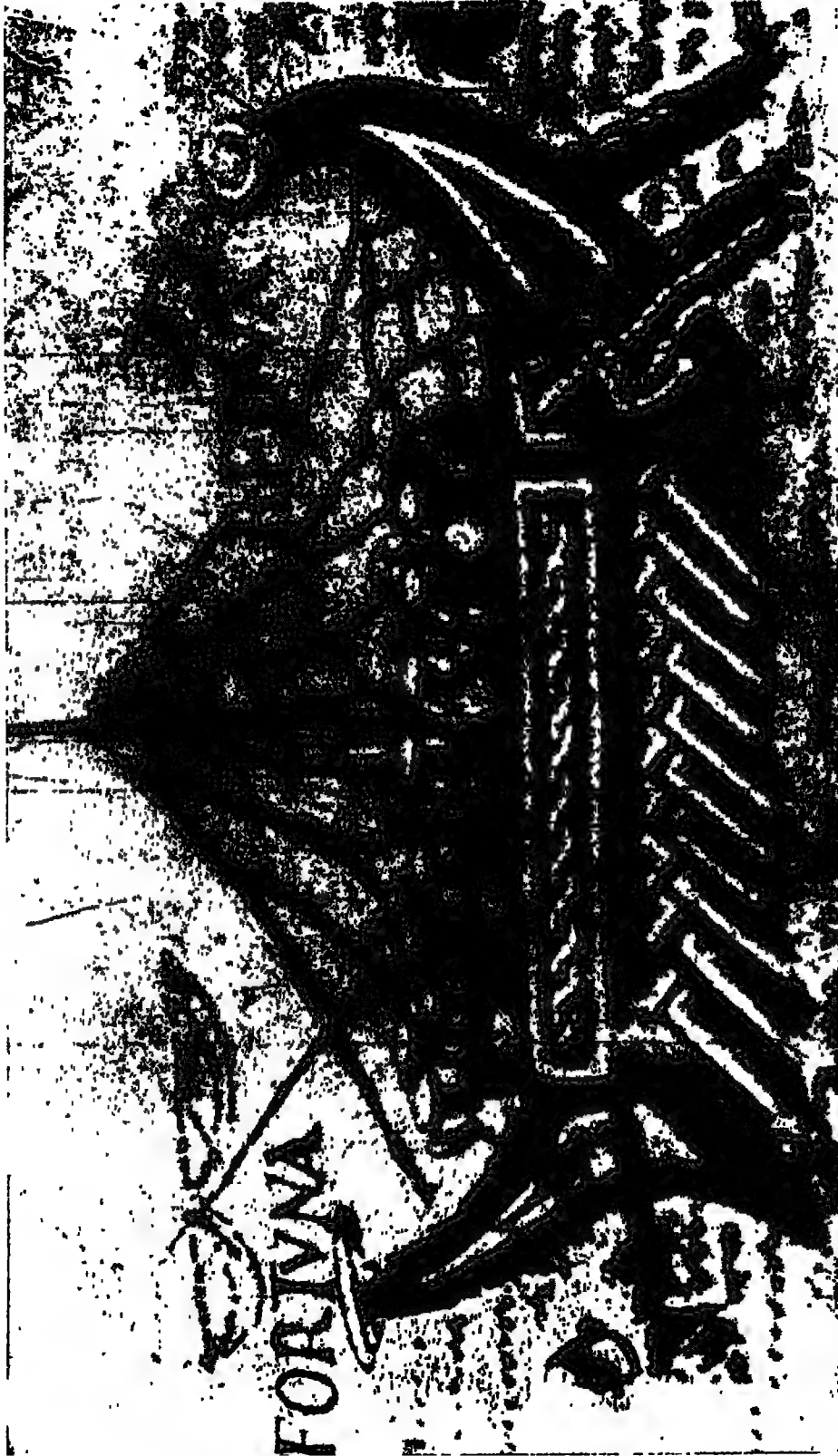
من ٤٨٠ الى ٤٠٩

سياسة التقشف

٤٨٠ : تاريخ انهيار الحلف الثلاثي و كارثة هيمار بالنسبة لقرطاج .
٤٠٩ : تاريخ انتقام قرطاج من الاغريق واسترجاع مركزها الاقتصادي
طلبت قرطاج الضلع بعد انكسار جيتوشها بهيمار فبالته بعد لاي
من الملك جيلون الاغريقي الصقلي ، وكان من جملة شروط الغالب على
المغلوب ان التزمت قرطاج بالعدول عن احراق الصبيان بين يدي
صنمهم الاكبر .
لكن هيمنة الاغريق على البحر المتوسط من المضيقين (اى مضيق
صقلية ومضيق مسينة) الى بلاد مصر حرمت قرطاج من طريق
العالم الشرقي واغلقت في وجهها اهم الاسواق واكثرها فائدة
لتجارتها .
فانكمشت قرطاج على نفسها واخذت في تنظيم وتدبير اقتصادها
المسيير ، وانقطعت دفعة واحدة عن اشتراء اى مصنوع سواء كان
ذلك من حلفائها او من اعدائها .
وقد بينا في مكان آخر من هذا الكتاب ان سياسة التقشف هذه
كانت نتيجة انقلاب سياسي وديني جعل النظام الارستقراطي او
نظام حكم الاقلية يحل محل الحكم الفردي الديكتاتوري (آل هاقون)
وجعل لتانيت التفوق في الدرجة والمرتبة على بقية الآلهة .
وهذا النظام الدستوري الجديد قد اهتم كل الاهتمام بالناحية
الاقتصادية وبالبحت عن موارد جديدة تمكن قرطاج من العيش
بوسائلها الخاصة والاكتفاء بما كان موجودا لديها . فبعدما كانت
لا تفكر الا في البحر وفي الامور البحرية كانها لا تعيش بافريقية
بل بجانبها وبالقرب منها فقط ، نراها الآن تلتفت الى البر ، وتكون

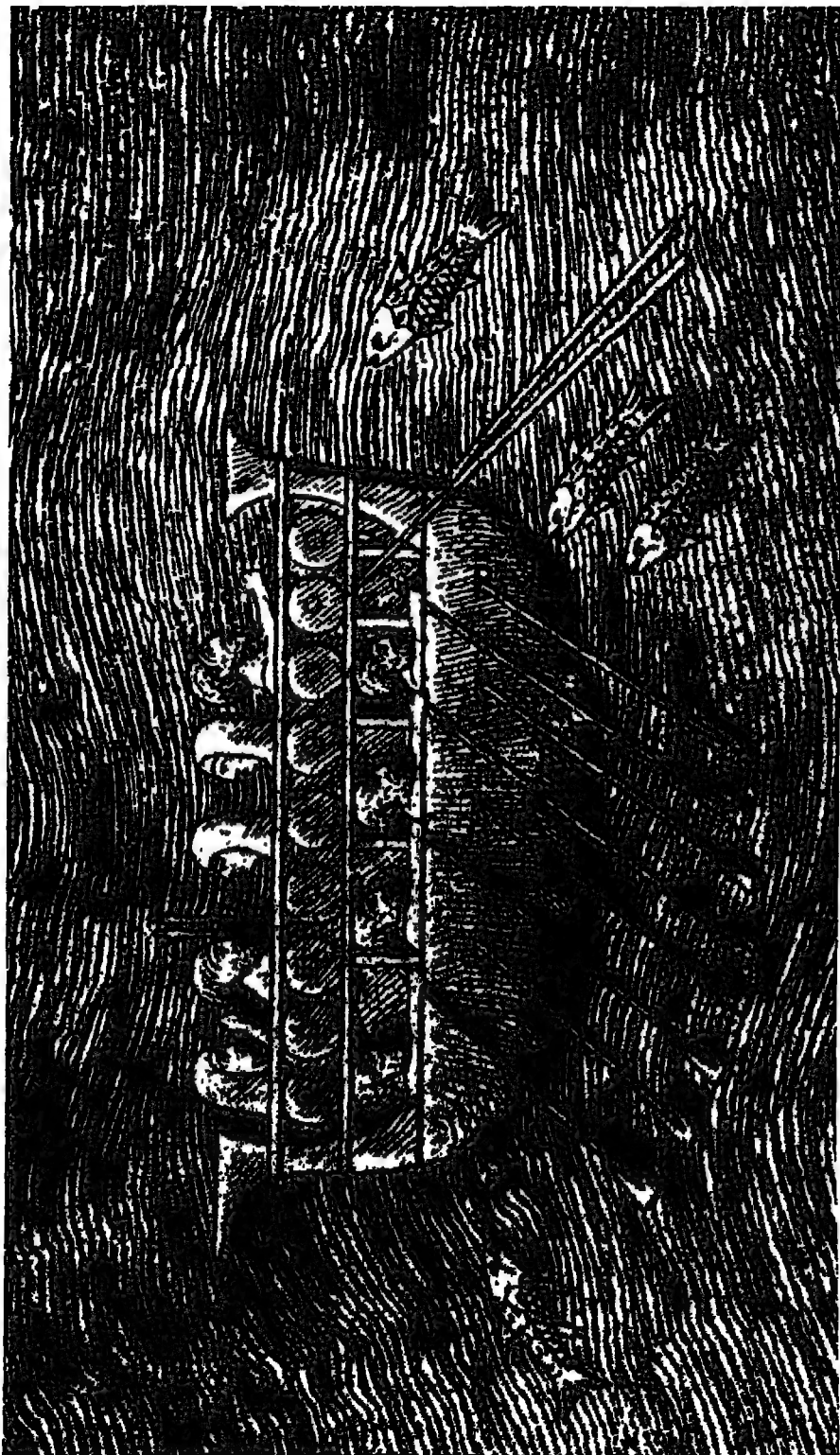
- (١) سلامين (Salamine) جزيرة اغريقية بغليج ايجين وفي بحر الادخيل ، شهدت
قرب سواحلها المعركة البحرية التي انهزم فيها الفرس امام اسطول الاغريق (سنة ٤٨٠)
(٢) كومة Cumes وباللاطينية Cumae مدينة بجنوب ايطاليا على خليج كومة كانت
تحت نفوذ الاغريق ، وانكسر امامها الهاجنون الاتروديون ، وقد زالت هذه
المدينة اذ دمرها النابوليون سنة ١٢٠٣ وتركوها ابرا بعد عين .

لوحة ٤٠
انظر الصفحة رقم ١٤٩ من هذا الكتاب



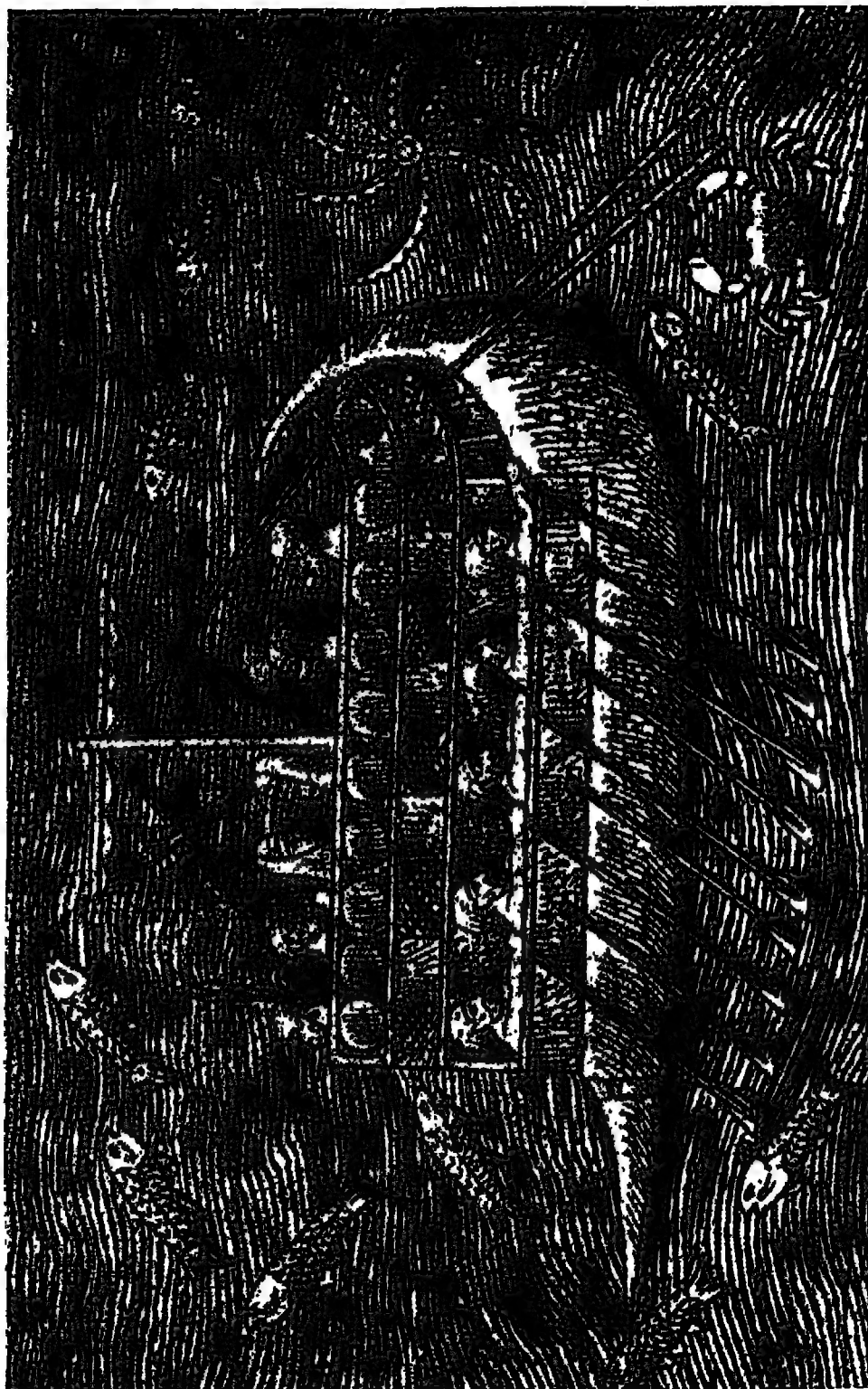
سفينة تجارية قرطاجية مشحونة كالا

لوحة ٤١
انظر الصفحة رقم ١٤٩ / ١٧٠ من هذا الكتاب



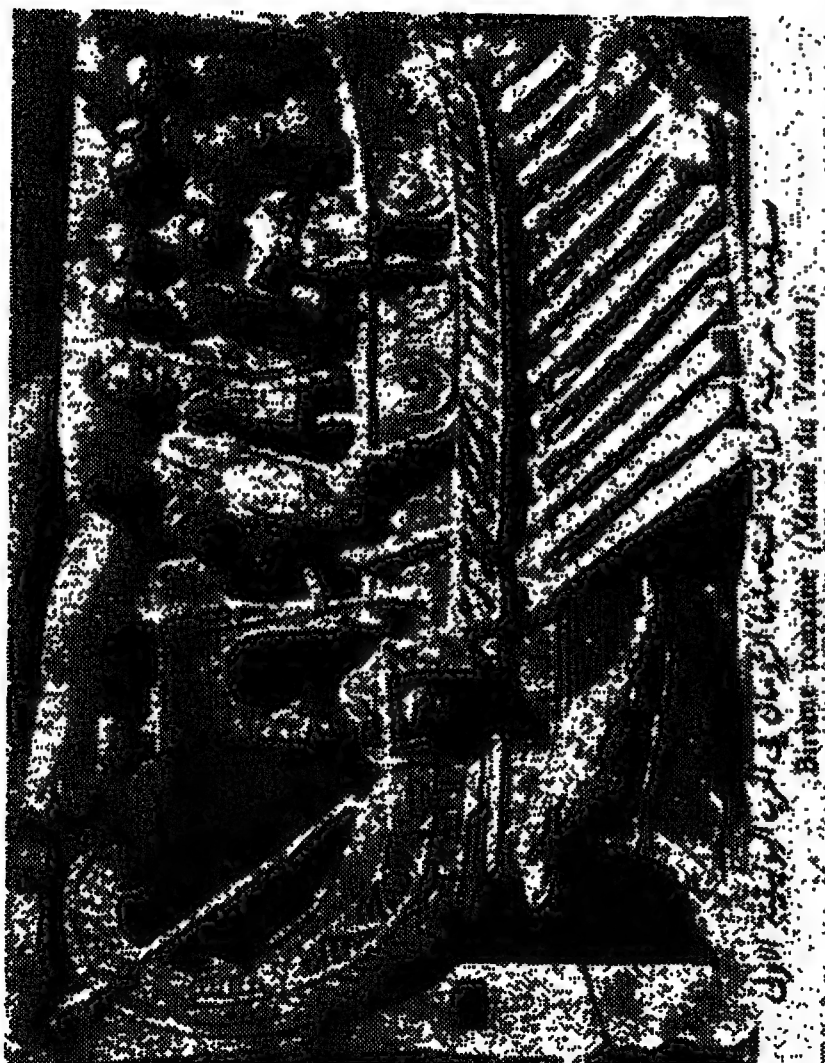
سليمة تقي

لوحة ٤٢
انظر الصفحة رقم ١٤٩ / ١٧٠ من هذا الكتاب



سليمة حورية

لوحة ٤٣
انظر الصفحة رقم ١٧١ / ١٩٧ من هذا الكتاب



مركز تاني للرومان

مملكة داخل الاراضى الافريقية ، وتقبل على الزراعة والفلاحة ،
الشيء الذى خلصها من شبح المجاعة والفقر . ومن جهة اخرى فان
الرحلات التى قام بها حنون وخيملكن مكنتها من ارجاع ذخائرها
المعدنية التى الحقت بها كارثة صقلية اضرارا فادحة . فكانت قرطاج
تستمر فى سياسة التقشف وتستخدم ذهب السنغال وفضة اسبانيا
فى حشد الجنود الماجورة ، وصنع السفن الحربية ، واعداد العدة
للائتقام واخذ النار .

واتى ذلك اليوم الاكبر سنة ٤٠٩

من ٤٠٩ الى ٢٦٣ :

نهضة قرطاج

٤٠٩ : تاريخ الانتقام قرطاج من الاغريق واسترجاع سيادتها .

٢٦٣ : ابتداء الحروب البونيقية والصراع بين قرطاج ورومة

ان كانت الحبيبة اليمة خالارادة قوية والعزيمة ثابتة . وما عثم
القرطاجيون ان جهزوا حملة اخرى تحت امرة حنبعل بن عميلقار
(وهما غير حنبعل وعميلقار الشهيرين بطلى الحروب البونيقية)
فساروا الى صقلية بقوة وعزم ، تدفع بهم نحو الامام . عاطفة الانتقام
والاخذ بالنار . واسترجع حنبعل مدينة هيمار ، وتكل بالاغريقى
تنكيلا ذريعا ، وهدم المدينة وتركها اثرا بعد عين ، وذبح فى المكان
الذى مات فيه ابوه ثلاثة آلاف من مقاتليهم الماسوريين .
واصبحت الحرب فى ذلك التاريخ وسيلة من وسائل الكسب
وتجارة على غاية من الازدهار ، وذلك لان قيمة الغنائم والاسلاب
كانت تفوق بكنير مصاريف العمليات الحربية وكذلك استيخدام
الاسنراء كعبيد كان ياتى بيد عاملة لها اهلية وخبرة وكفاءة ترجع
بالقائدة على الصناعة .

وبعد ما وطدت حكومة قرطاج مركزها الاقتصادى شجرت فى
تمتين علاقاتها مع الدول الاخرى بابرام المعاهدات وبالعمل
الديبلوماسى ، فتم ابرام المعاهدة الثانية مع رومة (سنة ٣٤٨)
التزمت فيها هاته الاخيرة بعدم الاتجار او القرصنة او انشاء المدن :
(١) على كامل الساحل الافريقى غربى الراس الجميل (اى راس
سيدى على الملكى) الذى ينفلق به شمالا خليج قرطاج .
(٢) على ساحل اسبانيا ، غربى ما سيطرة (التى ستصير قرطاجنة
فيما بعد) .

٣) بسردينية ، وعلى سواحل مزاق (اى جهة الساحل الآن بالقطر التونسي) وسواحل ليبيا .

ورخص لهم فقط فى الإقامة ، عند الضرورة ، مدة لا تتجاوز خمسة ايام وفى اقتناء قوتهم وما يلزم اصلاح سفنهم .

ومن جهة اخرى فان الطرق الموصلة الى الشرق اصبحت مفتوحة من جديد امام البونيقين ، فاخذوا يسلكونها ذهابا وايابا ، وعادوا كذلك شيئا فشيئا الى مراكزهم التجارية ببلاد الاغريق التى اصبحت بدورها تتخبط فى ازمة اقتصادية ، وصارت فى حاجة الى موارد الامبراطورية البونيقية ، صناعية كانت (وعلى الاخص القمح والحبوب) . وهكذا نرى الدمر دولا ، لا ثبات فيه ولا قرار ، فهو يوم لك ويوم عليك .

وهكذا نرى التاجر الفنيقي او القرطاجي كان :
- من البداية الى القرن السادس : مالوفا ومقربا لدى الاغريق فى بلادهم .

- من القرن السادس الى القرن الرابع : منبوذا عندهم ومعتبرا كائعدو الالد .

- بعد القرن الرابع : مالوفا ومقربا من جديد .
ومن جهة اخرى فان حكومة قرطاج نراها تصدر سكتها الخاصة بها كما ذكرناه سابقا ، وتغمر اسواق البحر المتوسط بالانتاج الفلاحي الافريقي الذى سيلعب دورا هاما فى اقتصاد الامبراطورية الرومانية ، ونرى التجار القرطاجيين يعرضون فى كل مكان بضاعتهم الرخيصة من ملاحق للأكل وامشاط وخرز من زجاج ومسوخ صغيرة من الزجاج الملون ، وقد وجد منها حتى فى سويسرة ، كما يبيعون نمود والحيوانات الوحشية للملاعب الرومان .
وهذا الازدهار بلغ اقصى درجاته فى الربع الاول من القرن الثالث

من ٢٦٣ الى ١٤٦

الصراع بين قرطاج ورومة

٢٦٣ : الحرب البونيقية الاولى .

١٤٦ : تخريب قرطاج ووزوال الدولة القرطاجية .

كادت قرطاج تحتل جميع جزيرة صقلية ، وتحقق احلامها، وتطرد اليونانيين بعد صراع عنيف وكفاح مرير دام ما يزيد عن قرنين ، وتصبر بذلك خطرا يهدد رومة التي استولت على كامل جهات ايطاليا وحقت وحدتها وشرعت فى تكوين امبراطوريتها الجديدة . فتصادمت قرطاج برومة ، مثلما كانت تصادمت قبل ذلك بالاغريق ، ولم تكد تنتهى من عدو الا لتواجه عدوا آخر ادهى وامر ٠٠٠ ومن ذلك نشات الحروب البونيقية .

وكانت هذه الحروب عبارة عن كارثة عظمى وانهيى سريع داهم قرطاج : فهي قد غلبت فى البحر ، وهزمت فى البر ، واطردت من صقلية ، واكتسحت اراضيها من طرف ريغولوس ، ونهبت موانئها من طرف القرصنة ، فاشرفت على الهلاك واصبحت على قاب قوسين او ادنى من الافلاس .

تكن قيض الله لها من خلصها وهم آل برقة عملاق وصدر بعزل وجنبعل ، فهم انقذوا الاقتصاد البونيقى من الخطر اذ كانت خططهم الاستراتيجية تتناول فى وقت واحد الناحيتين الاقتصادية والعسكرية

فبدا عملاق بتاليف جيوش خفيفة تتركب من جنود قليلة لا تتطلب مصاريف كبيرة ، يمكن التنقل بها بسرعة البرق على مسافات مترامية الاطراف لمباغثة العدو فى نقط حيوية هامة والاستيلاء على امواله وذاخرته واول هدف عينه لنفسه وحققه فى اقل من عشر سنوات (من ٢٣٧ الى ٢٢٨) كان الاستيلاء على جهة البيطيق (١) باسبانيا . وهكذا اصبحت قرطاج تراقب مناجم الفضة المشهورة الكائنة بسرامورينة حتى ان بوليبيس كان اثار الى ما تنتجه المناجم المجاورة لقرطاجنة وذكر ان ذلك يبلغ ٢٣٠٠ درهما (اى اكثر من ١٠٠ كيلو غرام) يوميا وهناك منجم يعرف باسم (بايبلو) يعطى ٣٦ طنا فى السنة . وبهذا امكن لقرطاج ان تدفع الغرامة الحربية لرومة قبل حلول الاجل المعين

(١) البيطيق (Bétique) جهة بايبيرية الجنوبية يمر منها وادى البيطيس (وهو وادى الكبير) ويحدها غربا نهر آناس (وهو غوايالة او وادى يانغ) وجنوبا وشرقا البحر المتوسط . وتوجد فى هذه الجهة جبال (سرامورينة) المشهورة بمناجم الفضة - وهذه الجهة هي التي استولى عليها الوندال فيما بعد وصارت تسمى باسمهم (نندالوسية او الاندلس) - ومن مدنها المشهورة كوردوبة (قرطبة) وهيسبالييس (اشبيلية) وقادس - ومالقة ٠٠٠

وقد اكتشفت مناجم أخرى أيضا شمال إسبانيا وهي كائنة بجبال الكتناير ولا يمكن استغلالها والاستفادة منها إلا بعد توطيد الأمن بتلك الربوع ، وذلك باخضاع قبائل قشتالة • فأنيطت هذه المهمة بعهد صدر بعل ، وقيام بها احسن قيام ، فكون هناك امبراطورية جديدة تحتدالى نهر ايبرو ، وسمى عاصمتها (قرطاجنة) وكان من الممكن لصدر بعل ان يتمادى فى تقدمه لزيادة النوسع ولفتح اسواق جديدة من الجهة الغربية لولا مبادرة رومة بالتدخل حالا لايقافه عند نهر ايبرو واعتبار ذلك التهر حدا للامبراطورية البونيقية فى اتفاقية رسمية وقع عليها الامضاء من الطرفين • (سنة ٢٢٦)

ثم اتى حنبعل فسخر من رومة ومن تلك الاتفاقية ، وتجاوز ذلك الحد ، وسار الى ايطاليا فى جيش جرار عن طريق البر ، واقتحم لذلك اصعب المسالك واوعر السبل • وكان بدون شك يقصد من وراء ذلك فتح آفاق جديدة لتجارة بلاده ، وعلى الاخص جلب معدن القصدير راسا الى البحر المتوسط بواسطة انهر فرنسا بدون حاجة الى ركوب الاخطار واقتحام الاهوال بالسفر عبر المحيط الاطلسى • وكان حنبعل يفكر فى طريقة تضمن لوطنه المراقبة المطلقة للموارد الغربية فتتم له بذلك الهيمنة على عالم البحر المتوسط بتمامه وكما له •

ولكن هذه الآمال لم تتحقق بل ذهبت ادراج الرياح ، وذلك لان رومة كانت بالمرصاد ، فارسلت شبيونها الاكبر الى افريقية وكانت كارثة بجامة المشهورة التى انهزم فيها حنبعل (سنة ٢٠٢) ومن ذلك التاريخ صار اقتصاد الدولة البونيقية مقتصر على المداخل والمنوجات المحلية وهو شىء تافه لا شان له يذكر بالنسبة الى ما كان عليه ذلك الاقتصاد فى الماضى •

ولكن حنبعل ، فى المدة الوجيزة التى قضاه فى الحكم ، كان اهتم بالفلاحة اهتماما خاصا ، وجعل الناس يقبلون على احياء الاراضى والزراعة والغراسة ، فتحسنت بذلك ميزانية الدولة ، وامتلات خزائنها حتى انها عرضت على رومة ان تدفع لها مرة واحدة بقية اقساط الغرامة الحرية عوض ان تدفعها فى اربعين عاما •

اما الناس فانهم عاشوا نى التقشف والفقر والفاقة وانحطاط المستوى الحيوى الى ان كانت الظربة القاضية وذلك بتدمير قرطاج اثر الحرب البونيقية الثالثة والاخيرة (سنة ١٤٦) والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين •

- الصناعة -

كان النشاط الصناعي بقرطاج يشمل ميادين مختلفة، ولكنه لا يبدل على مهارة فنية فائقة او على قوة ابتكارية تذكر .

وكان العمال واصحاب الحرف والصنائع يعتبرون من المواطنين الاحرار ولكنهم لا يدخلون في طبقة الاشراف ويقول ستيغان قسال : يمكن ان نتصور ان الرجال الذين كانوا يسكنون بزمام الدولة وكانوا ارباب الحل والعقد وكانت بايديهم شؤون التجارة البحرية الكبرى ، كانوا في الوقت نفسه يملكون المصانع التي تعمل فيها جماعة من العبيد ، ويستخدمون صنعا من العتقاء او من الاحرار كشركاء في شركة توصية ويقتسمون معهم الارباح . فلنستعرض الآن ميادين هذا النشاط الصناعي .

صناعة المعادن

ان اهم المترسختات والمصانع البحرية التي كانت تحت مراقبة الدولة كانت تعون الاسطول والجيش

ويمكن ان نتصور درجة انتاج قرطاج في هذا الميدان بما كانت تصنعه اثناء الحرب البونيقية الثالثة . فهي اخرجت في شهر واحد :

٣٠٠٠ ترس و ٩٠٠٠ سيف و ١٥٠٠٠ رمح و ٣٠،٠٠٠ سهم وهو يناسب نشاط ما يقرب من اربعمائة مصهر (اى معمل للحديد) وإذا فرضنا ان كل مصهر كان يشتغل فيه خمسة من العمال، فان جملة عددهم يكون الفين

وان صنع السفن كان امرا مسترسلا ومتواصلا سواء للحرب او للتجارة . ونحن نعرف مثلا ان حكومة قرطاج كانت سنة ٤٨٠ في حاجة الى ٣٠٠٠ سفينة تجارية لنقل الجنود وما يتبعهم من مؤونة وعتاد حربي .

ونذكر بهذه المناسبة ان المراكب التجارية كانت مستديرة الشكل اما السفن الحربية التي كانوا يلقبونها (بسفن ترشيش) فهي كانت فخمة

وكبيرة الحجم تستطيع ان تقطع مسافات شاسعة وهي محملة شحنا ثقيلة

هذا فى حالة الحرب ، اما فى حالة السلم فان صنّاع الحديد كانوا يشتغلون لفائدتهم الخاصة او لفائدة اعرافهم ، ويصنعون الفؤوس والمطارق والسكاكين والمقصات وغير ذلك من الادوات ، وكانوا يصنعون ايضا اوانى القلنز (او البرنز) ولكنهم لم ياتوا بشىء جديد مبتكر بل كانوا يقتصرون على تقليد المصنوعات اليونانية القديمة وصناعة المعادن هاته كانت تغذيها التجارة البحرية وعلى الاخص جلب الفضة والنحاس من اسبانية ، وجلب القصدير من اسبانية ايضا ومن جزائر القصدير ، والحديد من جزيرة آلبه (Ile d'Elbe)

غير ان هذا النشاط الصناعى كان يكفى لتسديد حاجيات البلاد وتموين السوق الداخلية فقط . ومن الغريب المدهش حقيقة ان نرى القرطاجيين لا يحاولون بيع مصنوعات تامة ومتمنة توفر مداخلهم وتزيد فى ارباحهم مع انهم كانوا يتصرفون فى شىء كثير من المواد الاولى . فكانوا يكتفون ببيعها فى الخارج على حالتها بدون سعى فى تحويلها ، ويقتنعون بما يكتسبونه من ربح عاجل ، وفاتهم انهم كانوا يخدمون صناعة غيرهم واقتصاد مزاحمتهم على حساب صناعة بلادهم واقتصاد وطنهم . وربما كان هذا الفتور وعدم الاهتمام ناشئا عن قصور اليد العاملة القرطاجية وقلة كفاءتها بالنسبة لليد العاملة اليونانية

ويمكن ان نقول بان قرطاج كانت الى القرن الخامس عبارة عن محطة تقف فيها السفن الشرقية المتوجهة نحو الغرب ، وعن مستودع تتجمع فيه البضائع من كل مكان ، فتجهز فى المراكب وتصدر الى مختلف الاقطار والامصار . ولم ير القرطاجيون انفسهم مضطرين الى صنع حتى الاشياء الضرورية على الاقل الا عند فرض نظام الاستقلال الاقتصادي اثر كارثة هيمار سنة ٤٨٠ ويحكن انها استسلمت فى ذلك الوقت من فنيقية جماعة من الصناع ولكن يظهر ان غالب المصانع وقع تنظيمها مدة الحملة الكبرى على صقلية (من ٤٠٩ الى ٣٣٨) باستخدام الاسراء الذين كانوا يقعون فى قبضتهم .

صناعة الخشب (التجارة)

مما لا شك فيه ان القرطاجيين كانوا نجارين بارعين وسفانيين على غاية من المهارة . وكانوا يستعملون خشب الارز الذى اشتهرت به لبنان (انظروا الصورة) والذى كان موجودا بكثرة على الجبال ببلادنا

التونسية وهو ما زال موجودا الى الآن بالمغرب الأقصى ، وكذلك كانوا يستعملون خشب السرو ، وكانوا يصنعون السفن ويجلبون المواد الاولى من اسبانية لصنع الاشرعة والخيال ، حتى ان الرومانيين كانوا استولوا سنة ٢٠٩ على ٦٣ سفينة تحمل الى قرطاج كميات كبيرة من الحلفاء والانسجة الشراعية وغير ذلك من المواد وكان الرومانيون يعجبون بالابواب والاسرة البونيقية، ويقدرّون طريقة القرطاجيين في « تخنيث » الألواح (اى فى جمعها وتركيبها) وذلك باستعمال « السبيل » اى المسمار الخشبي عوض مسامير الحديد ، او بتدوير الريصاص وصبه فى الثقوب . وان التابوت من خشب السرو الذى وجد بقصور الساف يقيم الدليل على ما وصل اليه البونيقيون من المهارة والاتقان (انظروا الصورة)

صناعة الحياكة والنسيج

وكذلك صناعة النسيج ، فهى ايضا كانت مزدهرة . وقد كنا ذكرنا ان الشاعر الاثينى (حرميب) من شعراء القرن الخامس كان ينوه فى أشعاره بمحاسن زرايى قرطاج ووسائلها المطروزة . وقد اخذ الاهالى عن الفنيقيين صناعة الزربية وتعلموا منهم الزينة فى ابسطل اشكالها الموجودة الى اليوم مثل المربعات القائمة على رؤوسها او المعينات (ونسميها اليوم بالمقروض) ، والخطوط فى شكل اسنان المنشار (ونسميها بالعروج) ومثل الخطوط المتقاطعة (ونسميها بالقاطع والمقطوع) ، ومثل الرقعة (او بيوت الدامة) الخ
وقد وجد فى كثير من القبور ادوات النسيج والغزل مثل المكوك والمغزل . ومن غير شك ان النساء كن يغزلن وينسجن ويصنعن الملابس العادية . ولكن الى جانب ذلك كان هناك حاكّة او نساجون يحترفون مهنة الحياكة ، وكانت هناك انوال ومعامل كبيرة للنسيج ، وكان البعض منها يقام بخدر الجوار بديار الاغنياء والاكابر

- الصباغة -

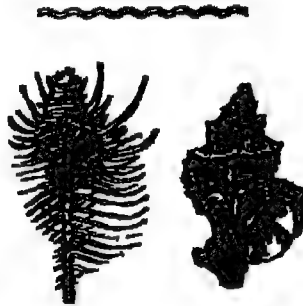
كانت الصباغة بقرطاج من الصناعات المهمة يعيش منها عدد كبير من العائلات . ونحن نعرف ان الصوريين هم انذين كانوا اكتشفوا صبغة الارجوان ولهى مادة خضراء كانوا يستخرجونها من اضفاف خاصة او نوع من الودع (Murex) (١) فكانوا يخرجون ما فيها من دويبات رخوة ويتركونها تنتن وتتعفن . وهذا النوع من الودع موجود بكثرة على الشطوط الافريقية

وفى كثير من الاماكن الساحلية القديمة من جزيرة جربة الى المغرب الاقصى نجد اكداسا من هذه الاصداق المهشمة على الشواطىء مع الشقف والحجارة . وبعض هذه الاماكن لم يسكنها احد من يوم سقوط قرطاج ، وذلك مثل حار السافى قرب كركوان بالوطن القبلى وهو مرسى نقرت فى صخوره حفائر واحواض كانت توضع فيها الدوبيات المستخرجة من هذا الودع لتتغفن . وكانوا يجعلون هذه الاحواض فى مهب الريح لاجتناب روائحها الكريهة بقدر الامكان وكانوا يلقون الاصداق بجانبها وهى فى الغالب ما زالت موجودة هناك الى الان . وكذلك ارجوان جربة (Meninx = Djerba) فقد كان يضاى ان لم نقل يفوق ارجوان صتور

وهذا الارجوان كان يباع باغلى الاتحان ، وكانوا ياتون به الى قرطاج ليقع استعماله فى المصانع (١)

صناعة الاديم او الجلد المديوغ

ان الليبيين كانوا يتعاطون خدمة الجلد منذ العصر النيوليتى ومن غير شك ان اليونانيين اخذوا عنهم ذلك لما اتصلوا بهم وصاروا يصنعون



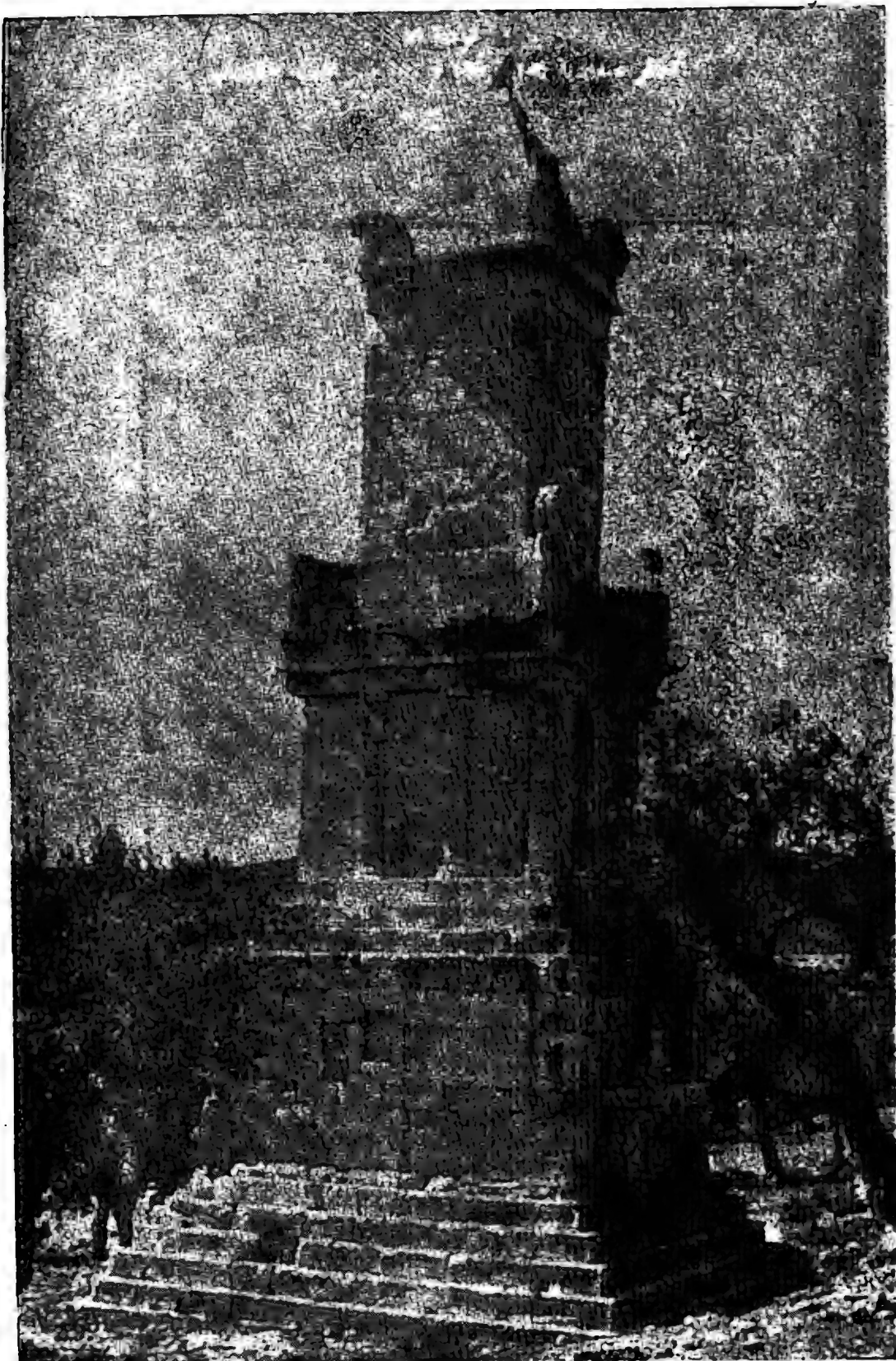
(١) صنف الارجوان او ودع الارجوان: (Murex) : نوع من الدوبيات الرخوة او الرخويات كوات الارجل البطنية (Mollusques Gastéropodes) معروفة بمدهتها ذات فم واسع يتعاضد فى صورة فناء ضيقة وباشواكها الدقيقة والمتوتية التى تنبت فيها من كل جانب وكان الاقدمون يستخرجون من هذه الدوبيات صبغة الارجوان (la pourpre) وتسمى اصداق صور murex trunculus واصداق بلاد الاغريق murex brandaris وهى كلها انواع موجودة بكثرة بالبحر المتوسط وكان الارجوان يباع « بفيزان الذهب » كما يقال . فكان العبرانيون يستعملون الانسجة الارجوانية لكتنتهم ولبسط وطنافس بيت المقدس ويعتبر الارجوان برومة كسيمة يختص ويتميز بها الحكام ثم الامبراطور نفسه .

لوحة 44 انظر صفحة 150 من هذا الكتاب



تابوت يوناني من خشب السرو وجد بقصور الساف (ص 151)

لوحة 47 انظر صفحة 156 من هذا الكتاب



نوعاً من السختيان (١) الحور (٢) كان مشهوراً ومرغوباً فيه لمزجه وجودته

صناعة الخزف

اما الصناعة التي كانت كثيرة الانتشار وكانت لها اسواق نافذة والتي توصلنا الى معرفتها معرفة جيدة بفضل الآثار التي تركتها والتي كادت ان تكون حية تنطق وتحرك ، فهي بحق صناعة الخزف والفخار فالقرطاجيون كانوا في حاجة الى شيء كثير من اوانى الخزف لتأثيث قبورهم زيادة عما كانوا يستعملونه في منازلهم او يصنعونه الى الخارج .

وقد اكتشف غوكليز P. Gauckler بدمش سنة ١٩٠١ بعض مغاميل بونيقية لصنع الفخار قرب كنيسة الدوميس المشيدة فوق مقبرة بونيقية يرجع عهدها الى القرن السابع والسادس ق م . وهذه المغاميل بقيت سالمة على حالتها التي كانت عليها عند تهديم قرطاج في ربيع سنة ١٤٦ حتى ان الخزافين كانوا في انتظار اهالي الموثنى لينبعوهم بما يحتاجون اليه لتأثيث قبور موتاهم كالجزار والقوارير للزيت والخمر واللبن ، وكالمصنّيع والتعائيل الصغيرة والسيو او الزوجه المستعارة والقناني لوضع العطور وغير ذلك من الاشياء

ويقول غوكليز بان هؤلاء الخزافين مستقرين بمعاملهم على حاشية المقبرة ، فكانوا هناك حيا خاصا بهم وهو « حى الخزافين » . ثم اخذ يصف لنا التنور (اى الكوشة) ويقول بانه كان يتألف من جوف اهليلجى الشكل وفرن كبير اسطوانى يشتمل على قضائين الاول مركزى في الوسط ترتب فيه الاواني المعدة للصهر ، فتوضع في الطبقة السفلى او في الطبقة العليا حسب درجة الحرارة التي تتطلبها تلك الاواني ، أما الفضاء الثاني فهو يدور حول الاول ويحيط به احاطة السواز بالمعصم وهو معد لانجذاب الهواء ، ويكلس فيه الفخار المحسن

وهذه الافران البونيقية مماثلة تماما لما هو موجود الى الآن بنابل او بجربة . اذ ما زال يجرى صهر الاواني في افران غنيقة الجبلى ، اسطوانية الشكل ، ضخمة الهيكل ، مغطاة بغطاء اشبه بشيء

(١) السختيان : هو جلد الماعز اذا دبغ (marôqtum)

(٢) الحور : هو الاديم المصنوع بقمرة

بالشباشية . ووقع الاصطلاح منذ القدم على تسمية إيقاد النار بالفرن بقولهم **تغفير الكوشة** وتستدعى هذه العملية مهارة خاصة حيث ان اسراج الفرن يقع بالخطب ، والالسنه النارية من الخطب تلفح المصنوعات مباشرة ، والصانع المشرف على تسيير النيران فى الفرن يجب عليه اولا وبالدات ان يوازى ويعادل انبعاث الحرارة الى المصنوعات الموجودة فى الفرن حسب الحاجة وحسب قواعد الصناعة .

الخزاف اليوناني كان يستعمل دولايا من الحجر يتركب من كتلتين : كتلة سفلى هى القاعدة ، فى وسطها حفرة منقورة ، وكتلة علوية هى الرأس لها ساق فى اسفلها تدور فى حفرة القاعدة . فيشرح عامل يجلس القرفصاء فى تدوير الدولايا بيديه بسرعة عجيبة بينما يكيف الخزاف قطعة الطين وهو واقف ، ويعطيها الشكل الذى يريده .
 اما اليوم فان الخزاف يسمى الدولايا بـ (الماعون) ويحركه بـرجله ويقطع من الطين ما يسمى بـ (الطية) وهى قطعة اسطوانية الشكل يضعها فى (رأس الماعون) ويعطيها الشكل بيديه .

ومازك يقع رفس المادة الطفلية بالاقدام حسب الطريقة التقليدية التى كانت مستعملة فى عهد اليونانيين . وذلك لتصييرها مرنة ومطوالة الى اقصى حد .

اما فى الحقول فما زالت المزاة اللبينية فى عهد القرطاجيين (تملس) الطفل بيديها وبدون استعمال أى آلة ، وتصنع الاواني الخشنة اللازمة للمنزل . كما كانت تصنع جدتها فى العصر النيوليتى وكما تفعل اليوم بناتها البدويات بقرية رجنش او بغيرها من القرى .
 فبعد وجدنى كثير من قبور الوطن القبلى والساحل ، صحاف وقدر او برم . مما يدل على وجوه علاقة متينة بين القديم والجديد وكانت النسوة شى الماضى يحمين الطابونة لانضاج الخبز او الكسرة منلما نراه الان بالمداشر بالقرى . وكثيرا ما يجد علماء الاثار شقف طابونة بالظبة البونيقية بقرطاج . وقد عثر صوماني Charles Saumagne على شقف طابونة بونيقية تمكن من ضمها لبعضها واعادة الطابونة كما كانت وهى الموجودة اليوم بمتحف باردو

وان دوام هذه الاساليب وبقائها ثابتة طيلة قرون واجيال لا يدل على جودتها . فان الخزاف اليوناني لم يكن قط فاننا مثل زميله الخزاف اليونانى . وان الاشكال التى اخرجتها يداها كانت ثقيلة وخالية من

كل رساق واناقة واتقان • فالذي كان يهيمه قبل كل شيء هو كثرة الانتاج وبيع كميات كبيرة بأبخس الأثمان بدون اضاعة الوقت في البرقشة والزخرفة وجودة الصنع • اما الاواني الرفيعة فكانت تجلب من بلاد الاغريق ، وكانت تشحن وتملا بها سفن كاملنة الى القرن الخامس عشر اى الى ان فرضت حكومة قرطاج سياسة التقشف ووضعت حدا الى هذا الاستيراد من الخارج والسيلان المتدفق ، لكن بدون ان يقع تعويض ذلك بصناعة محلية تقوم مقامها وتضمن نهائيا الاستقلال الاقتصادى •

صناعة الزجاج

من الاخبار الشائعة ان الفنيقيين هم الذين كانوا اخترعوا الزجاج وسواء كان ذلك صحيحا ام كانوا اخذوا تلك الصناعة عن المصريين ، فمما لا شك فيه انهم كانوا على غاية من المهارة فى ذلك الميدان • وكثيرا ما نجد بقرطاج قناتى صغيرة من الزجاج المعتم (اى غير شفاف) لونها ازرق قاتم تعلوه خطوط وزخارف هندسية صفراء لامعة •

وقد بين لنا غوكليز فى كتابه (المتأخر البونيقية بقرطاج) صفحتي ٣٠٨ - ٣٠٩) الاساليب المستعملة لصنع هذه القناتى الملونة ، فقال بان هذه الزينة تحصل بالوان تكون داخل عجين الزجاج • فيبدأ الصانع بعمل اولى يعطى وعاء الطيب شكله المعروف ، وقد مزج واشبع باللون الذى يعرف فى فن التصوير بالخلفية (le fond) ويكون هذا اللون فى الغالب قاتما (ازرق داكن ، قريب للسبوات ، ازرق نيلة ٠٠٠) وشذ اللون الزاهر (ابيض فضى) ، ثم يحز حزوا خفيفة فوق جانبه وهو ما زال خائما ولزجا ، ويدخل فى تلك الحزوز خيوطا زاهرة اللون (احمر مغرة ، او اصفر ، او ليمونى ، او ابيض ، او ازرق فيروزى) ثم تصعد الآنية من جديد ويسوى سطحها ويصقل فتصير كتلة واحدة •

ومن عجين الزجاج كانوا يصنعون ايضا الحرز من نوع العقيق اليماني تنظم مع التماثم فى شكل القلائد ، ويصنعون ايضا المسوخ من الزجاج الملون وقد مر ذكرها ووصفها والجعلان من العقيق الاحمر او اليشب الاخضر (١)

(١) اليشب او اليصب (Jaspe) هو حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصلى منه

وأشياء أخرى كثيرة من العاج أو العظام كالصناديق الصغيرة المزينة والمرصعة بالعاج، والحقق والأمشاط والجرايا والمراوح وكلها من العاج أيضا وغير ذلك من الأشياء الصغيرة التي نجدها غالبا في القبور .

الصياغة

وكذلك ظهرت براعة القرطاجيين حقيقة في صنع المصوغات الجميلة من الذهب والفضة ، والجفر على الحجارة الكريمة . ونذكر مما وجد في القبور : القناني والحقق من الفضة والجريسات (إى الاجراس الصغيرة) من الذهب ، والحواتم والفتحات ، وحلقات الانف والاساور والفلاذ والعقود ، والاقراط والاخراس ، والاغمام من الذهب أو الفضية يزينها راس حيوان يمثل إله المصريين (راس تيس أو كبش أو قطة أو صقر) -

وأما فيما يتعلق بفن الجفر على الحجارة الكريمة فقد عثر الإب ديلاتر بمقبرة الأرباب بالسعيدة (Sainte Monique) على عقيقة جمراء إهليلجية الشكل منقوش عليها حيوان ذو عنق طويل ، ورأس اسد ، فمه مفتوح ولسانه ممدود ، وذيله مرتفع ومقوس كعنق التمس (١) بـ كما عثر على يشية صفراء لها شكل الحجرة الأولى ونقش عليها فرس واقف على ثلاث قوائم وهو يحك رأسه بفأقمته الرابعة ، وهي موجودة بمتحف قرطاج. وتثير حقيقة إعجاب المتفرجين .

الهندسة المعمارية والبناء

كان القرطاجيون بنائين ماهرين مثل أسلافهم وأجدادهم الصوريين ولذلك نراهم شيدوا ديارا ذات ست طبقات تعلوها سطوح ، ونفهم وجود هذه السطوح المنبسطة من الروايات التي تشير إلى المعارك التي دارت فوق المنازل في الأيام الأخيرة من الحرب البونيقية الثالثة . وكذلك نراهم شيدوا المعابد والاسوار العظيمة مستعملين لذلك صخورا ضخمة مربعة الزوايا

وإن الأثر الوحيد الذي ما يزال قائما إلى اليوم يشهد بتقديم البونيقيين في الفن المعماري هو ضريح دوقية المشهور الذي يرجع عهده إلى القرن الثاني قبل المسيح . وهو يتركب من قاعدة ذات ست

(١). التمس : طائر مائي شبيه بالاوز لكن أطول منه عنقا (le Cygne)

درجات او مصاطب تحمل طبقة اولى بزواياها تيجان اعمدة ونقش حلزوني الشكل . ثم نشاهد ثلاث درجات او مصاطب فاصلة بين الطبقة الاولى والطبقة الثانية المحلاة باعمدة يونية مجوفة (١) . ثم نرى افريزا تعلوه ثلاث درجات موصلة الى الطبقة الثالثة المحلاة بصور فرسان على قواعد ، وبنقوش تمثل عجلة تجرها اربعة رؤوس من الخيل ، وفي قممتها اهرام به نقوش في جوانبه وفي اطرافه . وارتفاع هذا الضريح ٢١ م

وقد كان هدمه قنصل انكلترا واخذ منه حجرتين منقوشتين نقلهما الى متحف لندن (British Museum) سنة ١٨٤٢ ، ونجن في غفلة لا نرى ولا نسمع (١) ثم اهتمت به مصلحة الآثار ورممته وارجمته الى حاله الاولى سنة ١٩١٠ . ولا ينقصه الآن الا الرخامتان . واليكم ترجمة ما هو منقوش على الحجرتين باللغة البونيقية واللغة الليبية :

شيد عايطيان بن ابي ماث بن بالو بناء الاحجار ، وابا ريوج بن عبد اشطار ، وزمر بن عايطيان بن عقب ماطال بن بالو ومانجي بن ورسكان مع معاونيهم زيزاي وتمام وورسكان والصناع في الحشب : مصدال بن تنفسان ، وعنكان بن عتاي
والصناع في سبك الحديد : شافوت بن بيليت ، وبافاي بن باباي

وقد تبين ان (ابا ريوج بن عبد اشطار) الوارد اسمه في هذا النص كان مهندساً بونيقياً وان الاثنين اللذين كانا يساعداه (زمر ومانجي) كانا من النوميديين

(١) اعمدة يونية (colonnes ioniques) نسبة الى يونية القديمة (Ionie) وهي الجزر والجهة الساحلية من آسيا الصغرى على بحر الايجيل والتي تمتد من خليج الزعير الى خليج مندوة جنوب نهر بيوك مندريس . وكان قد عمرها اليونانيون Ioniens المهاجرون من بلادهم والبيسيريون تلك الاراضي الساحلية المواجهة لوطنتهم . وتمتاز الاعمدة اليونية بانقتها ورشاتها ويبلغ ارتفاعها عادة طول قطر دائرتها في ثمانى مرات ونصف . وساق العمود يتحل بارب وعشرين تجويلة على طوله . ويمتاز داس العمود اليونى بنقوشه الحلزونية التي تمثل شقة ملفوفة من طرفها في شكل لولبي .

الفلاحة

ان قرطاج كانت منعمكة فى التجارة وغير مهتمة بالفلاحة واستمرت كذلك الى منتصف القرن الخامس ، ومن ذلك التاريخ شرعت فى امتلاك الاراضى الواسعة والخصبة ونجحت كل النجاح فى استغلالها حتى ان ديودورس الصقلى يحكى لنا بان اغاثوقليس (Agathocle) لما نزل بالوطن القبلى سنة ٣١٠ متجهبا نحو

قرطاج وقف مدهوشا هو وجيشه امام ما شاهدوه فى طريقهم من كروم وزياتين وحدائق وبساتين كانت كلها فى ازدهار كبير ، وما راوه من مروج فسيحة ترعى فيها قطعان من الغنم والبقر والحيل وكان فارون Varron وقوليمال Columelle يعظمان ما قون القرطاجى « ابا الفلاحة » ويمجدان سعة علمه بالفن الزراعى ،



ويجعلان موسوعته فى الفلاحة فوق كل ما وقع تأليفه وتصنيفه فى الموضوع ببلاد اليونان . وكذلك حكومة رومة فى امرت بترجمة هذا التأليف الى اللغة اللاطينية .

وان الطبقة الارسنقراطية القرطاجية كانت تملك اراضى زراعية قرطاج وقف مدهوشا هو وجيشه امام ما شاهدوه فى طريقهم من كروم وزياتين وحدائق وبساتين كانت كلها فى ازدهار كبير ، وما تقيم بها من حين لآخر ، فكان حنبعل مثلا يملك ارضا قرب المهدية وكان هناك ايضا الملاكه والفلاحة الصغار الذين كانوا يخدمون اراضيهم بانفسهم .

وان النصف القليلة التى وصلت الينا من تأليف ماقون ، فى صورة استشهادات ، تدل على ان القرطاجيين كانوا يزرعون الحبوب والخضر والزياتين والكروم والاشجار المثمرة وكانوا يربون البقر والحيل والبغال والدواجن والنحل ، وكانوا يدخرون الشعير والقمح .

وكذلك نعرف ان القرطاجيين كانت عندهم مخازن للشعير فى اسوار قرطاج . هذا وان الاب ديلابر قد وجد الشعير المحمص (اى المقل) فى قبر بونيقى ، ونرى احيانا صورة سنبله القمح منقوشة على النقود القرطاجية ، وقد روى لنا المؤرخون ان القمح بمزاق (Byzacène) كان ينتج فى نسبة مائة او مائة وخمسين

للواحد ، ويقول هيرودوتس ايضا بان القمح ببلدة (طرابلس) يعطى الواحد ثلاثمائة .

ومن غير شك ان القرطاجيين هم الذين كانوا ادخلوا فى البلاد زراعة الكروم والزيتين وصناعة الحمر والزيت . وان كثيرا من نصائح ماقون فيما يتعلق بزراعة الكروم تدل على خبرة فنية وتجربة فهو يشير مثلا بتوجيهها نحو الشمال وذلك لوقايتها من حرارة الشمس ومن اضرار السموم ، ويشير باستعمال الاسمدة كثجير العنب (١) . المخلوط بالسرقين (٢) وبشذبها فى الربيع ، وبازالة التربة بمن اسفلها فى الشتاء ويجعل اجفانها (٣) قائمة عموديا فوق الارض . ونعرف انهم كانوا يخففون حموضة الحمر باستعمال الجبس او الكلس ويقول افلاطون فى قوانينه بان القرطاجيين كانوا من الممنعين اى من المداومين على شرب الحمر حتى ان الحكومة اضطرت الى اصدار قانون فى تحجيره على الجنود والرقيق ذكورا واناثا والربانة والحكام فى سنة ولايتهم والقضاة اثناء قيامهم بوظائفهم .

اما انزياتين فقد بدأت غراستها من القرن الخامس بجزائر قرقة وفى نهاية القرن الرابع بالوطن القبلى . ويقول المؤرخون بان حنبعل قد بث غراسة انزياتون فى كافة انحاء القطر واستخدم فى ذلك جنوده اذ رأى فى بطالتهم خطرا يهدد الجمهورية ويهدد رؤسائهم .

ويشير ماقون بغرس انزياتين فوق التلال بالاراضى الجافة والطفلية بين الاعتدال الحريقى والميل الشستوى (٤) وبالاراضى الرطبة والمنخبة من الحصاد الى زمن الانقلاب ، ويشير ايضا بجعل مسافة طولها ٣٠، ٢٢ م تفصلها عن بعضها من جميع الجهات او على الاقل ٣٢ ، ١٣ م . اذا كانت الارض جذبة ووعرة وعرضة للرياح

ويقول ماقون فيما يتعلق بتنقييل الاشجار بانه ينبغي حفر الايباش (٥) قبل الغراسة بسنة كاملة لتمتص الشمس والامطار ، ويكون عمقها ذراعين من جميع الجهات فى الاراضى الطفلية الوعرة ويضاف شبر بالنسبة للاراضى المنحدرة . ويكون دائعا فم الحفرة اضيـق

(١) ثجير العنب : هو ثفل العنب اى ما يتبقى بعد عصره

(٢) السرقين : هو التريل او ما نسميه باللفة العامية « انقيار »

(٣) الجفن : اصل الكرم او قضاها ، والواحدة جفنة ج - اظان وجلون - ا

(٤) الاعتدال الحريقى : هو مدة سادسة الليل والنهار فى فصل الحريق (وهناك ايضا الاعتدال الربيعى) اما الميل الحريقى فهو مدة انقلاب الشمس وميلها الاعظم (وهناك ايضا الميل الصيفى) .

(٥) البيش 'ج ايباش : الحفرة يوضع فيها الفرس . ويقال (ايباش الشجرة اى جعلها تثبت وتتأصل

من القصر • وإذا كانت التربة دهقاء فإن الحفرة تكون مربعة الشكل ويكون عمقها ذراعين وشبرا •

ومن بين الاشجار المثمرة التي اعتنى القرطاجيون بزراعتها نجد في المرتبة الاولى اشجار التين والرمان • ويقول ماقون فيما يتعلق بانوخار الرمان بانه ينبغي ان تاخذ جرة او خابية جديدة من الفخاروان تصب في قعرها نشارة خشب الحور او السنديان او العفص ثم ترتب فوقها الرمان بكيفية تحنك من دك النشارة في الفروج الموجودة بينها ، ثم تيسط فرشاة اخرى من النشارة فوق الرمان ، وتستمر هكذا الى ان تحتل الجرة وعند ذلك تجعل عليها غطاء وتطليه بحللول كلس خاثر

وكذلك يشرح ماقون الاساليب اللازمة لزراع اللوز والجوز وحتى القسطل وبين كيفية تنقيتها والعناية بها لتكون ثمارها فاخرة •

وكان ماقون يحرض الفلاح على الاقامة فوق ارضه وسط اشجاره فيقول : « كل من اقتنى ارضا يجب عليه ان يبيع مسكنه حتى لاخير السكنى بالمدينة على السكنى في الحقل • واذا اختار احد الاقامة بالمدينة فليس هو في حاجة الى اقتناء ارض ريفية • »
وان زراعة البقول كانت هي ايضا من الامور الهامة • فبساتين الحضر كانت مشهورة بحى مجارة (ضاحية قرطاج) حتى ان ذكرها ورد عند بعض المؤرخين وكذلك نوه كثير من المؤلفين بشان «قناريه» قرطاج وخرشفها وملفوفها (وهو الكرنب) وبشان الثوم البونيقي والجنبان البونيقي والعدس البونيقي

وقد كنا ذكرنا ان اغاثوقليس لما نزل بالوطن القبلي ليزحف على قرطاج مر بجروج ترعى فيها قطعان كثيرة من الحیول والابقار والاغنام والمعيز • ويدل ذلك على ان تربية المواشى كانت لها حظوة كبيرة عند القرطاجين • فهم كانوا قبل كل شئ في حاجة الى الحیول لجيوشهم وقد اتخذوا بدون شك الحیول المغربية الموجودة في البلاد كما نراها مرسومة احيانا فوق النقود البونيقية • وتمتاز بكشحيين عريضين ، وعنق قصير ، وغرف طويل وجبين مخدب

اما الانعام فقد كانت كثيرة لشدة حاجة العاطنة الى لحومها والبانها وكان القرطاجيون يربون الدواجن ايضا من دجاج وحمائم وغير ذلك مما يربى في فناء الطيور

وقد تكلم ما قون ايضا على تربية النحل ووجدت صور الخلايامرسومة
على الانصاب النذرية . وقد كان العسل والشمع البونيقي من البضائع
المشهورة والمطلوبة

خلاصة ما تقدم

١ - الصناعة والتجارة : كانت مدينة قرطاج شبه مستودع
للبضائع ، وكان التجار يستوردون ويصدرون السلع بجميع
انواعها ، وكذلك المواد الاولية خصوصا الذهب والفضة
والقصدير .

وكانت غالب مصنوعاتهم للاستهلاك المحلي ولا تدل على
مهارة صناعية وفنية كبيرة خصوصا اذا قارناها بمصنوعات
الاغريقين المشهورة بجودتها ورقتها .

٢ - الفلاحة : كان القرطاجيون يعتنون كذلك بالفلاحة ،
فكانوا يستغلون اراضيهم على احسن وجه ويجنون منها ربحا
كبيرا . فقد زرعوا جهات الوطن القبلي ومجردة والساحل
وبذروا الحبوب ، وغرسوا الاشجار من تين وزيتون ورمار
وكروم .

وكانوا يتعاطون ايضا تربية المواشى
وكانت جميع المنتوجات توسق الى قرطاج بكل سهولة
بفضل وجود شبكة من الطرقات تتجه كلها نحو تلك العاصمة
٣ - الهندسة المعمارية : كان القرطاجيون كثيرى الولى
بالبناء ، فقد شيدوا معابد وابنية عظيمة وزينوها وزخرفوها
بالتماثيل (مثل ضريح دوقه) .

وان آثار هذه الابنية الضخمة والحجارات النذرية واواني
الخزف تسمح بالاعتقاد بان القرطاجيين قد تاثروا كثيرا بالفن
الاغريقى وبالفن المصرى واقتبسوا منهما ولو انهم لم يبلغوا
درجة من الجودة تذكر .

العادات او الحياة اليومية

النظافة : قد تعلم الفنيقيون عن القبرصيين بناء الحمامات وتجهيزها تجهزا متقنا على الاخص فيما يتعلق بالتسخين وجريان الماء وقد كانت محلات الاغنياء بقرطاج مجهزة بقاعات الاستحمام واحيانا باحواض خاصة للسباحة .

وكانت هناك ايضا حمامات عمومية منها ما كان مخصصا للطبقة الارستقراطية ومنها ما كان مفتوحا لعامة الناس .

وكانوا رجالا ونساء يتطيّبون و يكترون من استعمال العطور وقد وجدت بجميع القبور اوعية صغيرة وقناني معدة للطيب .

واذا استثنينا الكهنة الذين كانوا كلهم مردا حسب العادة المصرية فان غالب الرجال كانوا يعفون اللحى اى يتركونها تطول . وان المسوخ الزاجية كانت مزدانة بلحى جميلة زرقاء ومبرومة فى شكل لولبى . ومع ذلك فان القرطاجيين كانوا لا يجهلون الموسيقى بل كانوا يعتبرونه شيئا مقدسا . وقد وجدت بالقبور صفائح من نحاس مستطيلة تنتهى بساق كعنق التم وهذه الصفائح تشبه المواسى المستعملة بمصر القديمة وتظهر عليها نقوش تدل على براعة فنية نادرة وكان القرطاجيون رجالا ونساء يعتننون كثيرا بشعورهم ويستعملون امشاطا من العاج وجد كثير منها فى القبور القديمة وتظهر عليها فى الغالب نقوش جميلة .

وان الاعتقاد فى وجود قوة خاصة مركزها شعر الراس كما تؤيد ذلك اسطورة شمشون ، ان هذا الاعتقاد كان موجودا ايضا عند القرطاجيين ، وقد كانوا يرون ان هذه القوة العجيبة تقيم بصفة خاصة فى خصله يحافظون عليها باعتناء كبير ، كما كان اللوبييون يحافظون على ضفيرة او شوشة باعلى رؤوسهم مما يدل على ان القرطاجيين اخذوا عنهم هذه العادة وهذا الاعتقاد

اما النساء البونىقيات فكن يتباهين ويفخرن بطول شعورهن التى ضحين بهافى حصار سنة ١٤٩ لصنع الحبال اللازمة للحرب وكن يستعملن قرامل من عاج او عظم لشد شعورهن

والمرأة البونىقية كانت كثيرة الاستعمال وقد وجد منها ايضا بجميع القبور وهى فى شكل قرص مستدير ركب فى مقبض وطلبت احدى جهتيه بطبقة فضية تنعكس عليها الاشعة .

وكذلك كانت النساء يتزين ويتجملن ويتخضبن فيوردن خدودهن

ويحمرن شفاههن ويكحلن عيونهن بالكحل وقد وجدت حلق الحمرة
والخضاب من عاج او من رصاص فى كثير من القبور

اللباس

كان الصوريون يلبسون جبابا طويلة من الصوف ذات اكمام .
وتظهر لنا الجبة فى ابسط اشكالها على تمثال صغير يمثل رجلا
مععبدا وقع العثور عليه اخيرا بقرطاج (جبة فضفاضة كما هو
موجود عندنا الى الآن) وهذا التمثال يعد من احسن ما انتجه
الفن البونيقي وذلك لبساطة خطوطه التى اكسبته متانة وقوة .
(انظروا الصورة)

ونرى من تلك الصورة انهم كانوا لا يتمنطقون اى لا يشدون وسطهم
بنطاق ، ولا يتردون اى لا يلبسون رداء فوق الجبة .

وكان ذلك يبدو غريبا عند اليونانيين حتى ان احدهم كتب رواية
فجعل اليونانى ينادى البونيقي هكذا : « يا انت الذى ليس عندك
نطاق ! » او يستهزئ عليه بقوله : « من هذا الذى قدم الينا فى
قميص ؟ هل سرقوا له رداه فى الحمام ! »

وقد وقع مثل ذلك فعلا لاحد التونسيين كان يتجول فى شوارع
باريس وهو لابس جبة . فرآه ولد صغير فقال لاه : « انظرى يا
اماه الى هذا السيد وهو يتنزه فى قميص النوم ! »
(Vous, maman, ce monsieur qui se promène en chemise de nuit !)

وقد ترك لنا تروترليانوس ، الذى كتب بقرطاج فى آخر القرن
الثانى بعد المسيح ، وصفا مدققا للباس البونيقي الذى ما زال يلبسه
بعض المتأخرين منهم فذكر رداء يدور حول الرقبة ويشد على الكتفين
بابازيم ويتدلى من الجانبين ، غير ان هذا الزى الصالح للوقاية من
البرد والمطر لم يظهر بدون شك الا منذ عهد قريب وذلك لان هذه
الابازيم كانت قليلة جدا فى القبور القرطاجية . ويظهر انها كانت لا
تستعمل الا عند النساء بصفة خاصة .

وكان العنقيون لا يخرجون مكسوفى الراس كما كان يفعل المصريون
والليبيون ، بل كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوة طويلة ودقيقة
ومستديرة وبدون حافة ناتئة تسمى الطرطور ، ويسمى اليونانيون
والرومانيون (طيارا) - وتكون هذه القلنسوة احيانا اسطوانية

وقصيرة مثلما نراه في الصورة التي تمثل كوهنا يحبس طفلا
ليقدمه قربانا (انظروا الصورة) غير ان البونيقيين كانوا يفضلون
الطرطور المخروطي الشكل الذي كان يصنع من اللبد ويأتيهم من
قبرص . وكانوا ايضا يشدون على راسهم صمادة يربطونها احيانا فوق
جبينهم ويرخونها على اكتافهم مثلما نراه عند المصريين او يلفونها في
شكل العمامة وكانوا يلبسون في ارجلهم نعالا او صندلة ، وحيانا
احذية عالية .

اما النساء البونيقيات فقد اخترن لهن ازياء اليونانيات ، فكن
يلبسن الفستان ويشددنه في خصرهن بزئار .

وكثيرا ما لاحظ المؤرخون الشبه الموجود بين اللباس البونيقى
ولباس مسلمى افريقية الشمالية في الوقت الحاضر، ولو ان جبة الصوريين
اشبه بـ (القلابية) المصرية منها بـ (الجلابية) المغربية ، وكذلك المعاطف
ذات الاغطية للرأس فهي ربما كانت لها صلة وقرابة (بالكيكل)
الروماني (١) بينما لا نجد لها شبيها عند البونيقيين من سكان قرطاج
وعلى كل فان اللباس الشرقي قد حافظ ، طيلة القرون والاجيال
على استقرار عجيب وثبات ودوام على نقيض الازياء الاوروبية التي
تتغير باستمرار بتغير (الموضة)



البرنس

الكيكل

(١) الكيكل : Cuculle مأخوذة من اللاتينية Cucullus : رداء يشتغل
على غطاء للرأس Capuchon مثل البرنس كان يلبس في القديم عند الرومانيين
وعلى الأخص من كانوا يعملون في الهواء الطلق .

الطعام

كان البونيقيون يستعملون قبل كل شيء فى غذائهم الحبوب وزيت الزيتون . وكانوا يطبخون الحساء البونيقي الذى كان يقوم عندهم مقام الكسكس عندنا ، واليكم طريقة اعداده كما ذكره بعض المؤرخين

خذ رطلا من البرغل ، واتركه يتنقع فى الماء ، ثم صبه فى جفنة نظيفة ، وزد عليه ثلاثة ارطال من الجبن الطرى ، ونصف رطل من العسل ، وبيضد واخلط الجميع ثم اطبخه فى قدر جديد وبعد ذلك كل بالشفاء .

وكان الحلوانيون بقرطاج يتمتعون بشهرة طيبة فكانوا يزينون الحلوى بواسطة قوالب من طين لها اشكال مختلفة كالاسماك وانواع الحيوانات او حتى من البشر

وكانوا يكثر من اكل الثوم ، ويحبون من البقول الملفوف والخرشوف والحمص ويدمنون شرب الخمر وكانوا كغالب الاجناس السامية لا ياكلون لحم الخنزير ولكنهم كانوا ياكلون لحم الكلاب وهى عادة استنكرتها عليهم الشعوب الاخرى مثلما كانوا يستنكرون احراق الاطفال .

وكانت الاسماك من المواد الغذائية الهامة خصوصا بالنسبة للفقراء وذلك لكثرتها بالسواحل التونسية من بوى ، وعجل البحر (قاروص) ، ومنائى ، وسمك موسى (مداس) ، وورطة ، ودنديق وجراف ، واسقمى . . . وعلى الاخص التين الذى اشتهرت به من ذلك التاريخ بلدة مسيوة (Missua) وهى سيدى داود الآن . وكانت توجد مخازن لتعليق السمك باليبان فى الجنوب ، وعلى طول شواطئ الساحل او مزاق (Byzacène)



الجيش والاسطول

ـ الجيش

كانت قرطاج تتعهد في اوقات السلم فرقا قليلة توزعها على ممتلكاتها بافريقية او بعا وراء البحار لحفظ الامن او لدفع هجومات فجائية . وكانت لا تجند الجنود ولا تؤلف الجيوش باتم معنى الكلمة الا لمجابهة القتال وخوض المعارك ثم تسرح العساكر وتطلق سبيلهم به جرد ما تضع الحرب اوزارها ، ولذلك كانت حكومة قرطاج تود دائما ان لا تطول هذه الحروب لما تتكبده في سبيلها من خسائر ونفقات باهضة ، اذ ان قرطاج كانت تعتبر الحرب كعملية تجارية لا اكثر ولا اقل ، فيها مصاريف ونفقات وتنتهي تارة بارباح وتارة بخسائر ككل العمليات التجارية . وقد كانت مضطرة مدة ستة وثلاثين سنة (من ٢٣٧ - ٢٠٢) الى ابقاء جيوش مستمرة، وذلك لمجابهة الحروب التي قام بها آل برقة باسبانية والتي دامت ما يقرب من عشرين سنة ، ثم بعد ذلك اندلعت الحرب البونيقية الثانية ضد رومة ولم تنه الا بعد سبعة عشر عاما بكارثة جامة (سنة ٢٠٢) .

وكانت معظم جيوش قرطاج في البداية اى لما قامت بالمعارك والحروب الاولى ، تتألف من المواطنين ، ودامت الحال كذلك الى منتصف القرن السادس . فان جنود ملقيس التي رجع بها خائبا من سردينية والتي استخدمها في قلب نظام الحكم كانت بدون شك تضم في صفوفها جنودا من القرطاجيين ، وبعد قتل ملقيس بدات سلسلة الوقائع التي تسبب فيها ودبرها وقادها ما قون تم ابناءؤه وحفداؤه من بعده . ولا يمكن لمدينة واحدة كمدنية قرطاج، مهما بلغ عدد سكانها، ان تكفى لتكوين ما تتطلبه هذه السياسة الاستعمارية من جيوش كبيرة ، ولا يعقل ان تعتمد الحكومة الى انتزاع المواطنين من وسط عائلاتهم ، الى ابعادهم عن مصالحهم ومهنهم واعمالهم للتضحية او حتى للمخاطرة بحياتهم في بعثات عسكرية بعيدة ومتواترة . فان مثل هذا الصنيع من شأنه ان يقضى على التجارة والصناعة والاقتصاد بينما كان

العمل موجها لنموها وازدهارها بفتح اسواق جديدة .
 وكذلك التجات حكومة قرطاج الى الجنود المستاجرة وقد ورد ذكرها
 لأول مرة سنة ٤٨٠ عندما نظم علقار حملة صقلية الكبرى التى
 انتهت بكارثة هيمار . ومن المحتمل ان يكون ابوه ماقون هو الذى
 بدا بهذا النوع من التجنيد لانه هو الذى « اوجد النظام العسكرى »
 كما قاله يوستينيوس . هذا وان ضم الاراضى الليبية الجديدة
 والاسنيلاء عليها فى القرن الخامس مكن جمهورية قرطاج من تجنيد
 عساكر كثيرة من بين الاهالى ، وكذلك حلفاؤها ايضا فانهم كانوا
 يمدونها بالانصار والمساعدين .

غير ان المواطنين لم يضحوا بتاتا من الجيوش حتى بالنسبة
 للحروب التى دارت رحاها فيما وراء البحار . وبقطع النظر عن القواد
 والضباط فاننا نجد القرطاجيين يشاركون فى كثير من المعارك بصقلية ،
 وانهم كانوا يحملون الخوالات على عدد الوقائع التى خاضوا غمارها
 وهذا يدل على انهم كانوا يتباهون ويفتخرون بمآثرهم الحربية .

ومما لاشك فيه ان كثيرا منهم كانوا من العائلات الارستقراطية
 الشريفة . فكانت لهم اسلحة يملكونها مصنوعة بكيفية فنية متقنة :
 مثل خوذ من برنز ، ودروع من فولاذ ، وتروس مستديرة ، وسيوف
 بواتر ، ورمح سمهرية . . . وكانت لهم اشياء ثينة تدل على العز
 والترف كاكواب من فضة ومن ذهب . وفى سنة ٣٣٩ كون جماعة
 من السبان يبلغ عددهم ٢٥٠٠ ، كلهم من الاغنياء والاشراف ، فرقة
 عسكرية ممتازة لقبوها باسم (الفوج المقدس Bataillon Sacré) واطهروا
 بسالة نادرة فى معركة وادى القريمة (Crimisa) فقاوموا مقاومة
 الابطال الى ان سقطوا عن آخرهم فى ميدان الشرف . فحدث خبر
 موتهم رجة عنيفة وتائبرا عميقا فى قرطاج ، وقرروا العزم على الاكتفاء
 فى المستقبل بالجند المأجور ، وعلى المحافظة على حياة ابنائهم . وكان
 الامر كذلك .

لكن بعد مرور ثمانية وعشرين سنة على تلك الكارثة اى فى سنة
 ٣١١ وقع تجنيد الفين من المواطنين الاشراف فى بعثة عسكرية اخرى
 ضد الاغريق بصقلية لكن اغرقتها الزوابع والامواج قبل وصولها
 الى الجزيرة . فاقاموا بقرطاج حدادا شعبيا . وكانت هذه المصيبة
 الجديدة سببا فى اقضاء المواطنين نهائيا عن المشاركة فى حروب
 ما وراء البحار .

لكن استعز تجنيدهم فى الجيش الوطنى • وكلنا نعرف ما اظهره
القرطاجيون من شجاعة وبسالة وتضحية للدفاع مدة ثلاث سنوات
كاملة (اى من ١٤٩ الى ١٤٦) عن مدينتهم التى اراد الرومانيون
ارغامهم على مبارحتها قهرا

واننا اذا استثنينا المواطنين وجعلناهم على حدة ، نجد ان الجيوش
البونيقية تشتمل على العناصر التالية :

(١) - رعايا من الاهالى مولودين بالاراضى التابعة لقرطاج سواء
بافريقية او باسبانية او حتى بسردنية وذلك لان الخدمة العسكرية
كانت واجبة ومفروضة عليهم مثلما فرض عليهم دفع الضرائب

(٢) - معاونين او مساعدين ترسلهم الحكومات الخليفة او الامراء
الخاضعين لقرطاج • فالبعض من هؤلاء المعاونين تدمجهم قرطاج فبى
جيوشها، والبعض الآخر يحاربون بجانبهم مع المحافظة على شخصيتهم
واستقلالهم وذلك مثل سيفاكس ملك النوميديين فى آخر القرن
الثالث اى فى الحرب البونيقية الثانية

(٣) - ماجورين تربطهم عقدة كراء تنتهى بانتهاء الحرب التى
استؤجروا من اجلها • وكانت حكومة قرطاج تاتى بهم وتجلبهم من
جميع اقطار الجهة الغربية من البحر المتوسط ومن بلاد اليونان ايضا
فنجد الجيش يتألف من الليغوريين (١) (Ligures) ومن السلتيين
(les Celtes) (٢) ، ومن الاغريق (Grecs) والغالين (les Gaulois)
وهؤلاء كانوا لا يفهمون فن المناوشات وخداع الحرب مثلما يفهمه
المغاربة ، بل كانوا لا يعرفون الا الهجوم العنيف فى صفوف مترابطة،
ومن البلجاريين (les Baléares) وكان سلاحهم المقلع لقذف الاحجار،
وكانوا ينفقون كامل اجرتهم فى الخمر والنساء لان دخول الذهب
والفضة كان من الامور المحجرة فى بلادهم (رواه ثيماوس الصقلي)

(١) الليغوريون Ligures احد الشعوب الذين كانوا يسكنون غاليتا او فرنسا
القديمة وكانوا يقيمون بين نهر اللير (Liger) او اللوار (Loire) وخليج جنوة
(Golfe de Gènes) وكانت تسمى تلك الجهة ليغورية (Ligurie)

(٢) السلتيون (les Celtes) : هم شعوب كانت تقيم فى بداية القرن الثالث على
البحر المتوسط بين جبال السيقين والبيرانس ونهر الرون بفرنسا القديمة • وما
استولى القرطاجيون على اسبانية او ايبيرية (٢٣٧ - ٢١٨) اندمج السلتيون فى
الايبيريين وما زالت جهة (غاليسية) بشمال اسبانية تذكرنا بمرورهم هناك

وكان هؤلاء الجنود من الرعايا او من الحلفاء او من المأجورين يتقاضون فرضا (١) يختلف حسب قيمة الاشخاص .

وقد شارك الليبيون بصفتهم رعايا في جميع حروب صقلية من آخر القرن الخامس الى منتصف القرن الثالث كما ساهموا بقسط كبير في غزوات آل برقة باسبانية ابتداء من سنة ٢٣٧، وفي المعارك التي دارت بايطالية تحت قيادة حنبعل . وقد ذكر لنا المؤرخون ان هذا القائد اخذ معه ١٢٠٠٠ ليبيا في فرقة المشاة وترك لآخيه صدر بعل ١١٨٥٠ جنديا كلهم من الليبيين

وكان الليبيون في كل الاوقات من ابرع المحاربين ، يعرفون بدقة اجسامهم ، وشدة اطنابهم ، وقوة اعصابهم ، وخفة حركاتهم ، وكثرة قناعتهم وصبرهم على الاتعاب والحرمان وشظف العيش . وكانت لهم مقدرة فائقة على الاستفادة من احوال الارض والموقع لاعداد هجوماتهم اما في صورة حملة مكشوفة بدون وقاية ام في شكل كمين منصوب . وكانوا يرمون في المعركة بانديفاج يشبه الجنون .

اما سلاحهم فكان على غاية من البساطة والاختصار ، وينحصر في حراب قصيرة وخنجر ودرفة مستديرة من الجلد تدفع عنهم النبال والاحجار ، وكانوا لا يستعملون لا سيفاً ولا درعاً ولا خوذة .

وفرسانهم كانوا يعرفون (٢) خيولا ضامرة ، مخبرها خبير من منظرها ، لانك تحتقرها اذا رايتها ، لكنها على غاية من الخفة والنشاط والسرعة مع ثبات القدم وسهولة الانقياد الى درجة انهم كانوا يسيرونها بمجرد عصية ولا يستعملون لذلك لا لجاما ولا خطاما ولا زماما . وكان الفارس ياخذ معه احيانا فرسين معا . فاذا تعب وكل احدهما قفز على الآخر ولو في شدة وطيس المعركة .

وكانت حركاتهم ومناوراتهم الحربية معروفة لم تتبدل الى يومنا هذا . فانهم كانوا يهجمون على الاعداء من كل جانب وهم يصيحون صيحات مزعجة ، ويقذفون وابلا من الحراب ، ويستمررون في مناوشتهم المرة تلو الاخرى مجتنبين التصادم فتخالهم دهورا من الزنابير تلسع ثم تبتعد ثم تعود وتلسع ثانية . . . هكذا كان يفعل

(١) الفرض (Solde) : هو ما يعطى للجندي

(٢) اعروى اللرس : ركب عريا اي بدون سرج (ولا يستعمل هذا الفصل الا على وزن الفاعل)

الليبيون ايضا ، فاذا فرغت كنائتهم من الحراب انسحبوا بسلام ، واختفوا دفعة واحدة كأنهم عفاريت الجن ، بدون ان يفهم الاعداء كيف اتوا ، وكيف ذهبوا ، وكيف انفلتوا من بين ايديهم كما ينفلت الزئبق .

وطريقة الكر والفر كانت من الاسس الهامة التي يركز عليها فن الحرب وتكتيك المعارك عندهم وكانوا يستعملونها غالبا كخدعة لايقاع العدو في كمين .

- الاسطول البحرى

كان اسطول قرطاج يتمتع بسمعة طيبة ويضرب به المثل حتى عند الحصوص والاعداء . وكان لا يختلف كثيرا عن اسطول اليونانيين وكانوا يستعملون منذ مدة طويلة نوعين من السفن :

- السفينة الطويلة المعدة للحرب وتحركها غالبا المجاذيف .
- والسفينة المدورة تسير بالشراع وتحمل شحنات كبيرة .

وشراع القرطاجيين مستطيل الشكل يمدونه على دوقل اى على عارضة طويلة تركب عموديا على الصارى .

وان مسألة الدفة او سكان السفينة تحتاج الى شىء من الشرح والانتباه ، وذلك لان القرطاجيين كغيرهم من الاقدمين كانوا يجهلون دفة الكوئل (١) كخشبة عريضة تجعل فى مؤخر السفينة والتي لم يقع اكتشافها الا فى القرن الرابع عشر ، فكانوا يستعملون دفة المجذاف (٢) يثبتونها بقلسين (٣) على جانب السفينة ، ويفرسون قضيبا من الخشب عموديا (٤) فى راس المجذاف ليتمكن ماسك الدفة من تحريكها بسهولة . وان النقوش الموجودة على النصب الحجرية تظهر بكيفية واضحة اجزاء الدفة الثلاثة وهى :

(١) : القضييب

(٢) : المقبض والعصا

(١) الكوئل (poupe) هو مؤخر السفينة كما ان المؤجؤ (proue) هو مقدم السفينة ومصدرها وتسميه باللغة العامية (البروة) وهى كلمة مأخوذة من الطليانية (prua) والمخزوم (quille) هو وسط صدر السفينة يشق عباب الماء ويمتد مثل العمود اللقوى على طول قعرها وعليه يركز كامل هيكل السفينة ودفة الكوئل : هى السكان المعروف عندنا ويكون فى مؤخر السفينة (٢) دفة المجذاف : هى شبه المجذاف كانت تقوم مقام السكان عند الاقدمين وتشد على جانب السفينة

(٣) القليس (amarre) ج قلوس واقلاس : حبل ضخم للسفينة

(٤) عموديا : اى يكون مع المجذاف زوايا قائمة

(٣) : الصفح اى الطرف العريض من المقذاف

وكانت السفن مجهزة فى الغالب بدفتين مجذافيتين ، دفة فى الميمنة ودفة فى الميسرة . ولكن تستعمل عادة دفة واحدة منهما وتبقى الاخرى للاحتياط . ولو ان بعض المؤرخين يقولون بان القرطاجيين كانوا يشغلون نوتيين على سفينة واحدة ، فيمسك كل واحد منهما بدفة . وهذا ممكن بالنسبة اليهم وذلك لمهارة جذافيتهم ولحفة مراكبهم التى صنعت بكيفية تجعلها تتحرك بكل سهولة، وتلدور بسرعة عجيبة الى اية جهة تشاء ، حتى انه كلما طاردهم عدو تراههم يدورون ويحومون حوله ، ويقعون بفتة على جوانبه ، ويصدموه بلا فتور ولا انقطاع ، بينما ترى السفينة الرومانية لا تغير وجهتها الا ببطء وعناء نظرا لثقلها ولقلة خبرة جذافيتها .

وامام هذه المقدرة الفائقة عند البونيقيين اضطر القنصل الرومانى دوليوس ، فى الحرب البونيقية الاولى ، الى استعمال طريقة لا تليق ببحرى صميم ولكنها على كل حال ائت بالفائدة ، اذ انها جعلت النصر من جانبه ، والنتيجة تبرر الوسائل كما يقولون !

فان هذا القنصل كان يعلم علم اليقين براعة القرطاجيين ولا يجهل مهارتهم فى البحر وتفوقهم عليه تفوقا كبيرا فى المعارك البحرية ، وكان يعتقد انه يتغلب عليهم ويقهرهم لا محالة لو حاربهم على الارض اليابسة . ففكر فى طريقة تجعل جنوده يحاربون القرطاجيين كما لو كانوا على وجه الارض . فابتكر «غربانه» المشهورة وهى جسور ذات كلاليب جهز بها سفن الرومانيين ، فكانوا يلقونها ويقلبونها على سفن اعدائهم ، فتمنعها عن الحركة ، وتجعل الحرب البحرية تنقلب الى حرب المشاة وهى التى كانوا يتفوقون فيها على القرطاجيين . وهكذا امكن لهم بهذه الحيلة ان ينتصروا عليهم انتصارا باهرا لم يسبق له مثيل وذلك فى معركة مليس المشهورة سنة ٢٦٠

خلاصة ما تقدم

الجيش : لم يكن لحكومة قرطاج جيش قومى ، بل كانت تستأجر جنودها من مختلف الجهات (من ليبيين وسليبيين وغاليين واغريقيين ٠٠٠) لكن من حسن الحظ كانت هذه الجنود تسير تحت قيادة ابطال مشهورين مثل عملاقا وحنبل وصدر بل .

الممالك الليبية والنوميديّة في عهد البونيقيين

قد جرت عادة المؤرخين بالتوسع والافساح في شرح تاريخ الاستعمار الفنيقي او الروماني ، وهو امر يبرره ما كان لهذا الاستعمار من اهمية ومن اثر عميق في شمال افريقية ، غير اننا نراهم في الوقت نفسه لا يعيرون التفاتة الى ابناء البلاد بل ينسونهم في غالب الاحيان ويتركونهم في طي الحفاء وزلوية الاهمال كأنهم لم يكونوا موجودين في هذه الدنيا ، مع ان دورهم في التاريخ اى في الحياة الماضية لم يكن سميثا يستهان به ، ويكفى ان نعلم انهم كانوا في الحقيقة كنه الجنس الذي نصادفه اليوم بافريقية الشمالية وقراراته الثابتة

فليس من المعقول بحال من الاحوال ان نوجه انظارنا نحو قرطاج البونيقية وحدها ، اذ نكون بذلك قد تعمدنا جهل حياة شعب باسره وهو الشعب الاصل بالقطر الافريقي . فالفنيقيون والقرطاجيون والرومانيون وغيرهم من المستعمرين ياتون ثم يذهبون ، اما الليبيون والنوميديون والافريقيون بصفة عامة فهم دائمون في مكانهم وفوق ارضهم ، يزدادون كل يوم مكانة ورفعة ، ويحتلون في التاريخ بفضل ابطالهم وزعمائهم مركزا مرموقا نراه يتدرج في السمو ويتلانا نورا في الفضاء .

معنى ليبيا في القديم : وحدة شمال افريقية

يقول هيرودوتس :

تمتد ليبيا من حدود مصر شرقا الى راس صوليس (Promontoire de Soloeis) على المحيط الاطلسي حيث تنتهي غربا ويسكنها (الليبيون) وكثير من الشعوب الليبية بقطع النظر عما يملكه الاغريقيون والفنيقيون هناك .
وبعد تلك المنطقة الساحلية ومن بها من شعوب تاتي منطقة اخرى ملائة بالوحوش والحيوانات المفترسة وتاتي بعدها منطقة رمال الصحراء . . .

ولا يمكن لوصف ان يبين بكيفية ادق واوضح تلك المناطق المتتابة والذاهبة من الساحل اى من البحر الابيض المتوسط شمالا الى تخوم الصحراء جنوبا

ونفهم من هذا الوصف ان كلمة (ليبيا) كانت تطلق على كامل الرقعة من الارض الواقعة بين البلاد المصرية والبحر الغربى او المحيط الاطلسى ، وان كلمة (الليبيين) كانت تطلق بصفة عامة على جميع سكان تلك الرقعة من الارض ، مما يدل دلالة قطعية على وحدة شمال افريقية فى القديم ارضا وبسرا

ثم ان كلمة (الليبيين) اخذت معنى اضيق واصبحت تطلق على رعايا قرطاج المقيمين بالجهات التى استولت عليها وضممتها رسميا اليها وقد فرضت عليهم الخدمة العسكرية ودفع الضرائب . وكان المؤرخون الرومانيون مثل طيطش ليوش (١) يطلقون على هؤلاء الرعايا الليبيين اسم (افري) وهو من نوع الترخيم لكلمة (افريقى) بحذف الصوت الاخير منها

النوميديون والمريطانيون والجيتوليون

وصارت كلمة النوميديين (Numides) تطلق فى اول الامر على جميع الليبيين المستقلين (اى غير الرعايا) من حدود الجمهورية البونيقية الى المحيط الاطلسى غربا وإلى الصحراء جنوبا ، كما اثبت ذلك ديودورس وبوليبيس . ثم بعد ذلك صارت تلك التسمية لا تنطبق لا على سكان المغرب الذين اطلق عليهم اسم المريطانيين (Maures) ولا على القبائل الرحالة المقيمين بالسباسب الجنوبية والذين اطلق عليهم اسم الجيتوليين او جدالة (Gétules) واصبحت كلمة نوميديا (Numidie) تنطبق فقط على الجهة المتبعدة من حدود الامبراطورية البونيقية شرقا ، الى حدود مريطانية غربا ، وحدود جدالة جنوبا

(١) طيطش ليوش (Titus Liviusou Tite-Live): مؤرخ لاطينى شهير ولد بمدينة بادوة بايطالية سنة ٥٩ ق م ومات سنة ١٧ بعد الميلاد الف كتاب (العشرييات) فى تاريخ الرومانيين ، واظن كل الاطباء فى تمجيد رومة واشاد بعظمتها وبسالتها ونوه بعزلها ، كما اظن فى تشويه البونيقيين متحدثا عن مكرم وعدم وفائهم بالمعهد حتى صار يضرب بهم المثل فيقولون كوعد البونيقى Fui de punique وكان طيطش ليوش مبالغا فى تشويهه وفى تشويهه

ويمكن ان نوضح هذه الاقسام كما ياتى :

اولا - ارض الجمهورية البونيقية (Les territoires puniques)

ثانيا - نوميدية (Numidie)

وهى تمتد من حدود الجمهورية البونيقية شرقا الى وداى شلف او حدود مريطانية غربا . وتنقسم الى قسمين :

أ - نوميدية الشرقية او ماسولة (Massylie)

ب - نوميدية الغربية او مازيسولة (Massésylie)

ثالثا - مريطانية (Maurétanie)

وتمتد من وادى ملوية الى المحيط الاطلسى

رابعا - جدالة او جيتولية (Gétules)

وتمتد من حدود ارض الجمهورية البونيقية ونوميدية ومريطانية شمالا الى تخوم الصحراء جنوبا (انظروا الخريطة)

الجمهورية البونيقية : وعاصمتها قرطاج ، وسكانها :

أ - البونوقيون او القرطاجيون : وهم الفنيقيون « المتتونسون » الذين اختلطوا بالليبيين وامتزجوا بهم فاصبحت لهم خصائص تختلف بعض الاختلاف عن خصائص اجدادهم اهل صور وصيداء فيما يتعلق باللغة والكتابة والديانة والعادات وغير ذلك . وصار كل ذلك بونيقيا او قرطاجيا بعد ما كان فنيقيا

ب - الليبيون او الليبيفنيقيون وهم رعايا الجمهورية البونيقية من الافريقيين الاصليين

وكانت هذه الارض تنحصر فى البداية فى مدينة قرطاج وفى بعض المدن البونيقية الموجودة على السواحل ، ثم بدات تظهر سياسة التوسع والامتداد الاستعماري بعد كارثة هيمار بصقلية سنة ٤٨٠ التى وضعت حدا لسياسة التوسع البحرى ، وفتحت آفاقا جديدة لسياسة التوسع البرى او الاقلىعى .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس استولت قرطاج بقوة السلاح على الاراضى الفلاحية الخصبة بالوطن القبلى ، ووزعتها على الطبقة الاستقرائية من ابنائها بعدما اخرجت الليبيين منها
ثم تمادت حكومة قرطاج فى التوسع ، وفى اخضاع الليبيين

وتكوين امبراطورية بونيقية بالبلاد التونسية تمتد حدودها بصفة تقريبية من عنابة الى جنوب قابس وتستمر على طول السواحل الاقريقية من المحيط الاطلسي الى نهاية السرت الكبير بطرابلس حيث كان يبدأ نفوذ اليونانيين .

وان هذه الحدود لم تكن قاهرة وثابتة بل كثيرا ما تغيرت وعلى الاخص بعد الحرب البونيقية الثانية اى فى النصف الاول من القرن الثانى لما اخذ ماسينيسا يتطاول على البونيقين ويسترجع الاملاك التى انتزعوها ، ويفتك الاراضى المحصنة ارضا ارضا ، حتى انه لم يتروك فى النهاية لجمهورية قرطاج ، لما اندلعت الحرب البونيقية الثالثة (١٤٦/٢٠١) سوى القطعة التى انتقلت بعد ذلك الى نفوذ وحكم الرومانيين تحت اسم (افريكا) وكانت حدودها تمتد من طبرقة الى جنوب طينة (Thaena) (بين صفاقس والمحرس)

— نوميديا الغربية او مازيسولة : الاقليد (١) سيفاكس

كانت مملكة مازيسولة يحدها شرقا راس بوقرعون بشمال قرطبة (قسنطينية) وهو الحد بين ماسولة ومازيسولة ويحدها غربا وادى ملوية اى حدود مريطانية . وكانت لها عاصمتان وهما صباغة (Siga) على ٩٠ كم شرقي وادى ملوية وقرطبة وهى مدينة قسنطينة اليوم . فكان الملك سيفاكس ينتقل من الواحدة الى الاخرى . وكانت قرطبة تمتاز بموقعها الاستراتيجى الذى لم يكن له مثيل لوجودها فوق صرد (٢) تحيط به منحدرات وعرة وهادئة يفوق ارتفاعها مائة متر ويسيل فى سفحها وشعابها وادى الرمل ، ولا يمكن الوصول اليها الا من ممر ضيق من الجهة الجنوبية الغربية الشىء الذى يجعلها حقيقة فى حصن متيع من كل الغارات والهجمات ولا مطمع فيها لطامع . وكانت تلك الربوع فى جهتها المجاورة لمريطانية ، على غاية من الحصب وصالحة لزراعة الحبوب اكثر من نوميديا الشرقية ، حتى ان استرابون (Strabon) الجغرافى اليونانى الكبير كان يجزم بان سوق قسنطينة كانت تلبغ حجم الاصبع الصغير وتفوق ميتين ارتفاعا وكان من الممكن بسهولة

(١) الاقليد (Aguellid) : كلمة ليبية معناها الملك او رئيس فيداريلية قبائل، اذ كانت الممالك تتكون من كتل عدد من القبائل والتفانها تحت سلطة قائد واحد وهو الاقليد

(٢) الصرد او سطح الجبل : المكان المرتفع فى الجبال

الحصول على صابيتين في العام الواحد على ايراد نسبته ٢٤٠ للواحد .
واكبر اقليد عرفه التاريخ بنوميديّة الغريبة وكانت له شخصية
لامعة هو سيفاكس (١)

ويروى لنا طيطش ليوش انه في سنة ٢١٣ ق.م. بينما كان
صدر بعل في حرب عوان باسبانية مع الشبيونين (٢) الرومانيين
نشبت عدوة بين سيفاكس هذا وقرطاج . فاستبشر الشبيونان
لما بلغهما ذلك الخبر ، واوفدا في الحين لسيفاكس ثلاثة من القواد
ليعرضوا عليه اقتراحا في التحالف ، وليعدوه بال مكافاة الحسنة من
حكومة رومة اذا استمر في اعماله العدائية بحزم ونشاط ضد
القرطاجيين . ففرح سيفاكس بهذه المحاولات واعتبرها نجاحا
ديبلوماسيا عظيما . فاستبقى معه احد القواد وهو (اسطاطوريوس)
ليمرن جيوشه النوميديّة على امور القتال واسرار الحرب حسب
القواعد الفنية عند الرومانيين . وذلك لان النوميديين كانوا ماهرين
في النزال فوق الحيل ولكنهم كانوا يجهلون حرب المشاة التي كان
للرومانيين فيها باع طويل وشهرة عالمية . ورجع القائدان الاخران
الى اسبانية يحملان معها جواب سيفاكس بالرضى والقبول .

وبعد ما تمرنت مشاقه على اسرار الحرب حسب القواعد والتكتيك
الرومانية ، اشهر سيفاكس الحرب على القرطاجيين وانتصر عليهم .

اما القرطاجيون فانه لما بلغهم خبر هذا التحالف مع الرومانيين
اوفدوا رسلا الى (غايا) ملك ماسولة اذ ذاك ليحذروه من سيفاكس
الذي اصبح بتحالفه مع رومة خطرا يهددهم جميعا ، ولذلك صار من
مصلحتهم تكوين جبهة في اقرب وقت لاستحقه ومحقه قبل ان يحاربهم
ويفوز عليهم . فاقتنع غايا بهذا الكلام خصوصا امام الحاج ابنه
ماسينيسا الذي كان اذ ذاك شابا صغيرا يتقد حزما وطموحا (٣)

وفعلا انهزم اسيفاكس امام قوات ماسينيسا وقوات الفنيقيين
التي هاجمته في وقت واحد .

(١) سيفاكس : كلمة كيبية معناها المحروس والحصى والمجج بالسلاح . ويمكن
ان تقارن بين اسم هذا الملك واسم مدينة صفاقس الذي يفيد بدون شك نفس ذلك
المعنى في اللغة اللبية اي المدينة المنبئة والحصنة

(٢) الشبيونان (Les deux Scipions) : هما بوطيوس شبيون (والد شبيون الافريقي
بطل جامعة) واخوه اثنانوس شبيون وقتل الاثنان باسبانية سنة ٢١٢

(٣) كان عمره في ذلك الوقت ٢٥ سنة

وخسر سيفاكس في تلك المعركة ثلاثين الفا من رجاله وفر هاربا مع شردمة من فرسانه الى مريطانية .

ونحن نفهم من هذه الرواية ان سيفاكس كان في ذلك الوقت اى فى سنة ٢١٣ حليفا للرومانيين بينما كان ماسنيسا وابوه الملك غايا فى صف القرطاجيين .

واستمرت الحروب والمناوشات بين الفريقين وكان سيفاكس ينتصر تارة وينكسر اخرى ، وفى سنة ٢١٢ تم الصلح بينه وبين قرطاج ، واسترجع سيفاكس مملكته وصار كعادته ينتقل بين عاصمته الاولى صاغة وعاصمته الثانية قرطة .

ولما مات (غايا) وانتقل حكم الماسوليين الى ماسنيسا (فى خريف سنة ٢٠٦) (١) تصدى سيفاكس لمحاربته وقهره فى ثلاث وقائع واستولى على مملكته ، ومن ذلك الوقت اصبح سيفاكس فى منتهى القوة ، وفر ماسنيسا هاربا الى بلاد الغرامانت جنوب طرابلس واصبح اميرا شريدا يهيم على وجهه ويترصده الفرص للانتقام واخذ الثار (ووقعت كل هذه الحوادث سنة ٢٠٥) .

نوميديا الشرقية او ماسولة : الاقليد ماسينيسا

كانت نوميديا الشرقية او ماسولة يحدها شرقا التراب البونيقي ويحدها غربا راس بوقرعون او حدود نوميديا الغربية . وقد ذكرنا ان الاقليد سيفاكس استولى عليها وضمها الى مملكته واصبح على راس امبراطورية عظيمة تمتد من الحدود البونيقية الى وادى ملوية بينما اصبح ماسينيسا ملكا بلا مملكة واميرا شريدا منفيا يندب حظه ويتصيد الفرص لاختد الثار من عدوه الالد سيفاكس .

وهنا نشاهد القرطاجيين يبذلون كل جهدهم ويستعملون كل

(١) فى الحقيقة لما مات غايا فى بداية سنة ٢٠٦ لم يخله ابنه ماسنيسا بل خلله اخوه (ذلقاس) وكان اكبر فرد فى العائلة . ولم يلبث هذا الاخير ان مات بدوره فى صائفة تلك السنة نفسها ، فخله ابنه (قابوصة) وهو اكبر من ماسنيسا سنا . فثار فى وجهه احد الامراء من الاسرة المالكة وهو (مزطول) وقتله وتولى الحكم على الماسولين ، غير انه لم يعمل لقب الملك بل جعل على العرش (لاقوماز) اخا قابوصة وهو اصغر سنا من ابن عمه ماسنيسا . وكان هذا الاخير بقادس باسبانيا . فلما بلغته اخبار مزطول ولاقوماز ركب اليهما فى الحين وانتصر عليها وتربع على عرش ابيه وذلك فى خريف سنة ٢٠٦ كما ذكرناه .

الوسائل لاستمالة سيفاكس ليكون لهم حليفا قويا وعضدا متينا
 فزوجه صدر بعل بابنته الحسناء صونت بعل المعروفة في التاريخ باسم
 (صوفونيسبه) وقد كانت قبل ذلك خطيبة ماسينيسا
 اما ماسينيسا فخبراه يسعى في التحالف مع الرومانيين ضد
 البونيقيين . وضد حليفهم القوى سيفاكس .

وهو ما يمكن ان نسميه بقلب التحالف (renversement des alliances)
 فبعد ما كان ماسينيسا خطيبا لصوفونيسبه وحليفا للقرطاجنيين
 وكان سيفاكس مواليا وصديقا للرومانيين اصبح الامر عكس ذلك
 تماما وصار سيفاكس ، بعلا لصوفونيسبه وحليفا للقرطاجيين بينما
 اصبح ماسينيسا في صف الرومانيين .

وبعد ذلك كانت الحرب البونيقية الثانية وواقعة جامعة المشهورة
 (سنة ٢٠٢) والتي ابلى فيها ماسينيسا البلاء الحسن بجانب سبيون
 كما انتصر ماسينيسا قبل ذلك بايام قليلة على عدوه سيفاكس وسلمه
 اسيرا في قبضة الرومانيين ، واستولى على كامل مملكته من الحدود
 البونيقية الى الحدود الميطانية ، والله يهب الملك لمن يشاء وهو
 خير الرازقين .

ولم يكتف ماسينيسا بذلك بل اخذ يشن الغارات المتوالية على
 الاراضي البونيقية ويفتك الاملاك الحصبة الواحدة تلو الاخرى
 فاستحوذ على سواحل السرت الضغير بخليج قابس وهي الجهة
 التي كانت تعرف بجهة الاسواق التجارية ، وكانت مشهورة بمدخيلها
 الباهضة وكان ذلك سنة ١٦٢

ثم استولى على الجهات الفلاحية الحصبة كجهة دوق ، وجهة السهول
 الكبرى ، وهي جهة سوق الاربعاء وسوق الخميس (جندوبة) حيث
 يمر وادي مجردة ، وكان ذلك سنة ١٥٤ .

فاصبح نفوذه يمتد من اقصى خليج السرت الكبير الى حدود
 ميطانية او وادي ملوية . وبما ان ماسينيسا ولد سنة ٢٣٨ فقد كان
 عمره ٣٧ عاما لما انتهت الحرب البونيقية الثانية . ثم عاش بعد ذلك
 ما يزيد عن نصف قرن الى بداية سنة ١٤٨ فلم يشهد انهيار
 القرطاجيين سنة ١٤٦ وان النقود المالية التي ضربت في مدته وفي
 مدة ابنائه وحفدائه من بعده تمثلت في سن الاربعين او الخمسين بلامح

منتسقة ، وعين نجلاء ، وحاجب كث ، وشعر مجعد ، ولحية ملسنة ويقال انه كان في صغره شابا جميلا ، وكان طويل القامة وقد حافظ على صحة عجيبة حتى في شيخوخته اذ انه قاد جيشه بنفسه في واقعة كبيرة مع القرطاجيين (سنة ١٥٠) وعمره اذ ذاك ٨٨ سنة وانتصر انتصارا باهرا . ومن الغد وجده سبيون الايميلي واقفا امام خيمته وهو ياكل خبزا يابسا

وكان مع ذلك يعيش عيشة الترف والنعيم ، كما كان يعيش خصمه سيفاكس ايضا ، فكان له قصر فخم بقرطة ، وآخر بسيكا (مدينة الكاف) . وكان يولم فيها الولائم الفاخرة ، فتتصب الموائد وتوضع فوخها الوان الاطعمة في اوانى من فضة و سلال من ذهب . وتقع اثناء تلك المنادب حفلات موسيقية رائعة يشترك فيها المطربون القادمون من بلاد اليونان .

وكان ماسنيسا متشعبا ومتائرا ومصبوغا بمدينة قرطاج حيث قضى مدة طويلة من شبابه ، كما كان مفتتنا بمدينة اليونان الى حد جعله يربى ابنه (مستنبل) تربية يونانية .

وكان ماسنيسا حقيقة من الزعماء العظام الذين تركوا صفحة خائذة في سجل التاريخ والذين يحق لتونس ان تفتخر بهم وتمجد اعمالهم . فهو قد عجن شعبه بيديه القويتين وحاول ان يجعل من القبائل الليبية دولة موحدة ومستقلة . ويمكن ان نقول بان المغرب لم يكن في حياته ادنى واقرب منه في عهد ماسنيسا لتحقيق امنيته الغالية ، وهي تكوين امة موحدة لها كامل حريتها في التصرف في شؤونها ، وفي انماء مدينتها المستقلة ، اللهم اذا كان ذلك في ايام عز الصنهاجيين ونصرهم واولج ازدهارهم .

وحتى اذا لم يصل هذا الزعيم النوميدي الى هدفه بعد ما كاد يلمسه بيده ، وذلك لان سياسة روعة الاستعمارية حالت دونه ودون مرامه ، فعلى الاقل ابرزت محاولته للعيان واظهرت للتاريخ ما كان يمتاز به ذلك العاهل من خصال خارقة للعادة .

وقد اثبت استراين ان ماسنيسا مدن النوميديين وحبيب اليهم خدمة الارض والفلاحة ، وهذا يقيم الدليل على حسن سياسته وتدبيره اذ كان هذا الاقل يدريد ان يكون عاهلا باتم معنى الكلمة له اهداف قومية وسياسية ترمي الى تكوين شعب موحد ، ودولة مستقلة ، وهيكل

اقتصادى عظيم ، لا ان يكون مجرد رئيس لعدد من القبائل لا توجد بينها لحمه قوية ورابطة متينة .

لكن ليتسنى له ان يحافظ على اخلاص حلفائه ، وإن يخفف من حدة خصومه ، وإن يجهز جيوشه بالعتاد اللازم ، وإن ينشئ اسطولا بحريا محترما ، وإن يخلق دولة نوميديية اما بالوسائل الدبلوماسية السلمية او بالحرب والسلاح ، حتى تكون هذه الدولة قابلة لان تعيش وتزدهر وتلعب دورها فوق رقعة البحر المتوسط . . . ليتسنى له كل ذلك ، وغير ذلك ، لابد له من ميزانية تمونها موارد قارة ومنظمة وهذا امر ممكن بالنسبة لاهل القرار واهل الحضر المستقرين فى اراضيهم ومبازلهم فهم احسن المواطنين فى دفع الضرائب ، بخلاف اهل البدو المتنقلين ، فهم ابغض الرعايا من الناحية الجبائية .

والشئ المهم هو محاولة احياء البدوى المعتبر كمادة جبائية مية ، وذلك بتحويله وجعله من اهل القرار . وليس ذلك لعمري بالامر الهين السهل . واذا راينا ماسينسا يقدم على مثل ذلك العمل الجبار وينجح فيه بعض النجاح ، فعا ذلك الا لما كان يتتبع به من الخطوة والنفوذ ، وما كان يمتاز به من عزيمة فولاذية لا تنثنى .

فقبل ماسينسا ، وقد قلنا ذلك فى مكانه لما تحدثنا عن الليبيين ، كانوا لا يهتمون كثيرا بالفلاحة وها نحن نذكر لكم الآن ما قاله بوليبيس فى هذا الموضوع :

« قبل ماسينسا كانت نوميديية كلها لا تجدى نفعا ولا تاتى بفائدة وكانت تعتبر غير قادرة بطبيعتها على اعطاء شئ من المنتجات الفلاحية فكان ماسينسا اول واحد ، بل كان الرجل الوحيد الذى اظهر ان نوميديية قادرة على اعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه اية جهة اخرى ، وذلك لانه احيى مسافات شاسعة وتعهدها بالحرث والزراعة » .

وهذه ابلغ شهادة تدل ، خصوصا اذا اضفناها الى ما قاله استرابن ، على ان ماسينسا كان العامل الحقيقى والمتسبب الاصل فى تطور اقتصاد المغرب الاوسط وفى نفوه واازدهاره .

وكان من اللازم طبعا اقرار رجال القبائل وذلك بمنحهم ملكية الاراضى ، وب حمايتهم من غارات اهل البدو . وقد كان ماسينسا

يشجعهم على احياء الاراضى ، وعلى عزقها وعلى زراعة القمح والشعير والحبوب مثل البونيقين ، فهيا بذلك عن غير قصد ، ازدهار افريقية الرومانية (مطمورة رومة)

ومن المحتمل ان ماسنيسا جعل من الاراضى التى افتكها للبونيقين ضيعات فسيحة خاصة به ، فكان يستغلها بنفسه حتى يكون قنوة ومثالا حيا لغيره ، ويقول ديودورس الصقلي بانه كان ماهرا فى خدمة الارض واعمال الفلاحة الى حد انه ترك لكل واحد من ابنائه ارضا تبلسخ مساحتها الف هكتار تقريبا ، واننا نفهم اهمية ذلك اذا علمنا ان عدد ابنائه كان اربعة واربعين ولدا .

وكما انه اعان النوميديين على الاستقرار ، فهو قد ساعدهم ايضا على انشاء قرى محصنة ، ودربهم على حياة الانس وحسن المعاشرة واهتم بمسالة الاسكان . لكن هذه الحياة الحضرية المستقرة زادت فى تمكر الحالة بين اهل القرار واهل البدو ، وفى تكاثر الغزوات وتعدد الهجومات ، على الاخص من طرف قبائل جندالبه القاطنين بالسباسب والهضبات الجنوبية ، فكان ماسنيسا مضطرا الى توطيد الامن ودفع هذه الغارات بكل قوته حتى لا ينهار البناء الاقتصادى الذى شيده والذى اخذت تهدده القبائل الدوارة والمتنقلة

ومن حسنات ماسنيسا تركيب الجهاز الابجدي البونيقى على الرموز الصوتية القديمة التى كانت مستعملة عند الليبيين فأوجد بذلك الخط الليبى الجديد ، واول كتابة منقوشة على الحجر يرجع عهدها حسب تاريخها الى احدى عشرة مئة بعد موته .

ومن الناحية الدينية نرى ماسنيسا يحول اعتقاد رعاياه وبدون ان يصادم او يعاكس ذلك الاعتقاد ، يعطيه شكلا اسلمى وارقى واقرب للمدنية ، فيحجل النوميديين على عبادة آلهة اليونان مثل سيريس (Cérès) وديماتر (Déméter) وقوربه (Korè) ، اذ ان كل مدنية تعبر عن طموحها وامانيها تعبيرا دينيا ملائما ، والذى يلائم القرويين هو تقديس آلهة الزراعة والفلاحة

وبالجملة فان الاقليد ماسنيسا اراد ان يظهر فى مظهر ملك عظيم او ربما فى صورة اله . فقد بدا يظهر تقديس الملوك المتاهلين من مدته .

وبعد موته بعشر سنين اقيم له معبد بدوقة . وكان المذهب الذى يدين به ماسنيسا ، وينادى ويصرح به علانية للاجانب سواء كانوا

من الفينيقيين او من الرومانيين هو « ان افريقية لا يمكن ان تكون الا
للافريقيين وينبغي ان تبقى للافريقيين »

وكان هذا المذهب يروق كثيرا للنوميديين لما جبلوا عليه من كره
وبغض للاجانب . وكان من اللازم ، لآخر اجتهاد الى حيز الوجود ، ان
يستولى ماسنيسا على الاراضي البونيقية وعلى الاخص مدينة قرطاج
عاصمة الديار الليبية . ولو تم له ذلك لكان خاتمة اعماله ومشرف (١)
البناء الشامخ الذي شيده قطعة قطعة ، ولهد السبيل الى اخضاع
المريطانيين وادخال افريقية الشمالية بتعامها وكماها في طريق
الوحدة القومية .

وان هذا الاقليد المقتدر الذي رايناه يركب العوصاء وينجح في
عمل من اصعب الاعمال الا وهو اقرار اهل البدو من الليبيين ، لهو
جدير . بان ياتي . بالعجائب والمعجزات ، لولا معاكسة حكومة رومة
وعرقلتها لاعماله حتى لا تتكون هذه الدولة الليبية العتلاقة فتصبح
خطرا يهدد راحتها .

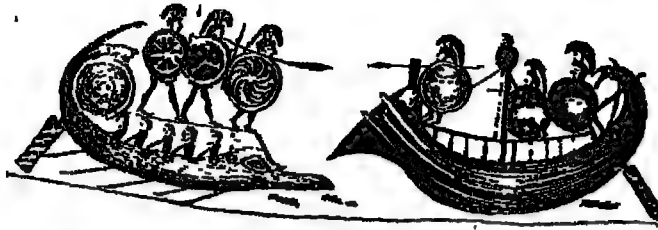
وحتى فى الحدود التى استقر فيها ولم يتعداها ، فهو قد خلق قوة
باعتة ومحركة لم تنته ولم تقف بعده بل تعادى مفعولها ، واستمرت
تساعد على التقدم والنمو والازدهار حتى فى القرن الثانى والى منتصف
القرن الاول قبل الميلاد .

ولمات ماسنيسا سنة ١٤٨ مثقلا بالسنين وبلاعمال الجلييلة ،
لم يجد المغرب اقليدا يتمتع بمثل خصاله الخارقة للعادة . فهو كما
قال ستيغان قسال « اكبر ملك بين كبار الملوك كيوتنف بن تاشفين
المرابطى ، وعبد المؤمن الموحدى ، والشريف المغربى مولاى اسماعيل
الذين كانوا يشبهونه من وجوه اخرى عديدة » .



(١) مشرف البناء هو اعل مكان فى البناء يشرف منه . ومشارف الارض معاليها

الحروب



نرى بهذه الصورة سفينتين كل واحدة ذات صفة من الجاذيف فقط ويظهر الجاذفون تحت الجسر ، والسفينة اليسارية مجهزة بشوكة (éperon) وله شكل سمكة الزجر (esturgeon)، ونرى في مؤخرتها ترسا كبيرا يحجب الربان .
 اما السفينة الاخرى فهي فنيقية ذات صار ، وتظهر على التروس علامات ورموز
 (راس ثور - سرطان - الخ ٠٠٠ ونرى العاريين مدججين بالسلاح .

قد اشرنا فيما تقدم الى شيء كثير مما يتعلق بحروب وبمعارك قرطاج اثناء الحديث عن الاقتصاد والسياسة وغير ذلك . ولم يبق الآن الا ان نبين تسلسل هذه الحوادث حسب ترتيبها التاريخي لتكون واضحة كل الوضوح وليتسنى الرجوع اليها بسهولة .
 والجدير بالذكر هو ان هذه الحروب نشأت :

اولا : عن التصادم بين القوتين البونيقية واليونانية ، وتسمى هذه الحروب (بحروب صقلية (١) les guerres de Sicile) ودامت من سنة ٥٨٠ الى سنة ٢٦٤

ثانيا : عن التصادم بين القوتين البونيقية والرومانية ، وتسمى هذه الحروب (بالحروب البونيقية les guerres puniques) ودامت من سنة ٢٦٤ الى سنة ١٤٦

(١) صقلية : جزيرة لها شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليها الاقدمون من اجل ذلك اسم « اتريناكريا » (Trinakria) اي « الرؤوس الثلاثة » ويفصلها بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينة وهو لا يكاد يتجاوز ٣ كم . ويفصلها عن البلاد التونسية معبر صقلية وعرضه ١٢٠ كم . ويسمح هذا المثلث الصقلي ٢٥،٤٦١ كيلومترا مربعا . وهذه الجزيرة تقيم الدليل باتجاه جبالها على ان افريقية واوروپا كانتا رتقا اي متصلتين قبل عهد التاريخ .

اولا : حروب صقلية او الكفاح بين قرطاج والاغريق

ان الفنيقيين كانوا اسسوا على السواحل الشمالية والغربية من جزيرة صقلية مراكز او مصارف تجارية فى النصف الثانى من القرن التاسع قبل انشاء قرطاج . ومن هذه المراكز :

Panorme (Palerme)	بانوم (بالومة)
Motyé	مطية
Solonte (Soloïs)	سولندس

وكانت هذه المراكز كلها قريبة من حلفائهم الليميين (les Elymes) القاطنين بسيجسته (Segeste) وايريكس (Eryx) وكانت متجمعة فى جهة من الجزيرة هى اقرب الجهات الى مدينة قرطاج (انظروا الخريطة)

ثم ان الاغريق اسسوا بدورهم مراكز اخرى ابتداء من نصف القرن الثامن . ومن هذه المراكز

(734) Naxos	نكسوس
(733) Syracuse	سرقوسة
(730) Messine	مسينة
(720) Catane	قطانية

على الساحل
الشرقى

(668) Himère (Himera)....	هيمار او هيمير
---------------------------	----------------

على الساحل
الشمالى

(668) Géla.....	غيليه
(627) Sélimonte.....	سالىمطة
(598) Camarine.....	كامرين
(580) Agrigente.....	جرجنتى

على الساحل
الجنوبى

٥٨٠ - الهجوم البونيقي الاول تحت قيادة مالى او مقليس

والسبب فى ذلك هو ان الاغريق حاولوا تأسيس مدينة جديدة فى منطقة نفوذ القرطاجيين ، يهددون بها حلفاءهم الليميين .
فجهزت قرطاج اسطولا يحمل جندا عتيدا على راسه القائد مالى .

فنجح في مهمته ، وتغلب على الاغريق ، وقتل رئيسهم بنشالوس (Penthalos) ومنعه من الانتصاب بتلك الجهة الاستراتيجية بالنسبة اليهم (وهذا القائد مالى هو الذى انهزم بعد ذلك في سردينية ، ثم قلب نظام الحكم بقرطاج كما ذكرناه لما تحدثنا عن الدستور البونيقي)

٥١٠ - اعاد داريوس (Dorieus) نفس تلك المحاولة ، و اراد ان ينتصب ايضا في منطقة نفوذ البونيقين وحلفائهم الليميين ولكنها كانت كذلك محاولة فاشلة مثل محاولته من قبل في الإنتصاب بساحل السرت الكبير بطرابلس . وقتل داريوس شهر قتلة سنة ٥١٠

٤٨٠ - الهجوم البونيقي الثاني تحت قيادة الملك عمقرط

كارثة هيمار

كان الاغريق في ما مضى لا يشتغلون في مستعمراتهم ببطولية الا بالزراعة والفلاحة ، ولذلك كان البونوقيون لا يخشون جانبهم ولا يقيمون لهم وزنا . ثم ان تلك المستعمرات الاغريقية أصبحت مراكز تجارية هامة تهدد القرطاجيين ، وتعوق توسعهم ، وتضايق نشاطهم التجارى . وبذلك اصبح التصادم بين المتزاحمين امرا حتميا لا مفر منه .

وكانت مدينة هيمار (أو حمير) من صف القرطاجيين .، وكان طاغيها ترلوس من حلفائهم . فعند الاغريق الى خلعه والاستيلاء على تلك المدينة . فكان ذلك التعدى حجة وسببا لنشوب الحرب مرة اخرى بين القرطاجيين والاغريق ، فجهزت قرطاج حملتها الثانية تحت امرة الملك عمقرط الماقونى ، وسيرته نحو صقلية . فتصادم تحت جدران هيمار مع الاغريق سنة ٤٨٠ . فكان نصيب هذه

الحملة الحذلان والفشل الذريع ، وانتصر الطاغية (جيلون) (١) على الملك عملقرط انتصارا مبينا . فانتحر عملقرط والقي بنفسه في النيران . (سنة ٤٨٠) (٢)

٤٠٩ - الهجوم البونيقي الثالث تحت قيادة حنبعل : الانتصارات

كان الاغريق بسالطة ، وكان الليميون حلفاء قرطاج بسيجسته . فاراد الاغريق التعدى على الليميين والهجوم عليهم فاستنجد هؤلاء الليميون او السيجستيون بحمايتهم فخف القرطاجيون الى نجدتهم ، وجهزوا جيشا يتألف من ١٠٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الملك حنبعل الماقتوني حفيد عملقرط الذى مر ذكره .

٤٠٩ - انتصر حنبعل بسالطة (جوان ٤٠٩) بعد حصار دام ثمانية ايام

• ثم احتل هيمار ودمرها تدميرا ، وذبح ٣٠٠٠ من الاسراء فى المكان الذى انتحر فيه جده عملقرط سنة ٤٨٠ .

• ثم رجع حنبعل ظافرا منصورا الى قرطاج .
٤٠٦ - فتجاسر بعد ذلك احد السرقوسيين يدعى (هرمقراط) وذهب فى سرذمة من الرجال الى مدينة سالطة ، ونزل بها واقام اسوارها ، فاعتبرت حكومة قرطاج هذا الصنيع تحديا ، وارجعت حنبعل الى صقلية مع القائد خيملكن بن حنون على راس جيش آخر . فحاصروا مدينة جرجنتى ، ودام الحصار مدة ثمانية اشهر مات اثناءها حنبعل . وابستسلمت المدينة بعد ذلك فى شهر ديسمبر ٤٠٦ فخرّبها خيملكن بعد نهب طويل وتعذيب وتقتيل .

(١) هذا الطاغية (جيلون) هو الذى كان اهتم كل الاهتمام بالوسائل الدفاعية فحصى مدينة سرقوسة ، اذ ادرك اهميتها من الناحية الاستراتيجية ، وقد كانت من قبل قرية صغيرة لا شان لها مبنية فوق جزيرة ارطاعة (Ile d'Ortygie) ، فجعلها قلعة منيعة ، وشيد امامها مدينة جديدة فوق جزيرة صقلية وحصنها بالاسوار . وعندما تمت هدم الاعمال اصبحت سرقوسة اكبر عاصمة بصقلية ، وحصنا منيعا من اقوى حصون العالم الهليني . (انظروا الخريطة)

(٢) وفى نفس ذلك اليوم انتصر الاغريق فى بلادهم على الفرس حلفاء البولقيين فى واقعة سلامين (سنة ٤٨٠) ثم انتصر الاغريق على الاترويين حلفاء البولقيين ايضا فى معركة قومة بابطالية (سنة ٤٧٤)

ثم اخذ وخرّب : غيلية ، وقمرين ، واصبحت جميع المدن الاغريقية جنوب صقلية اكاداس خراب ينقع فيها اليوم والغراب ...

٤٠٥ ب . • وانتهت هذه الحروب بانعقاد الصلح بين القرطاجيين وبين الطاغية دونيس (Denys) ملك سرقوسة نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم فى نصف من الجزيرة . وشيد القرطاجيون مدينة جديدة قرب هيمار المهذمة وسموها (ثرمينى)

من ٣٩٨ الى ٣٦٧ ب هجومات وانتصارات الطاغية دونيس :

الانكسارات

٣٩٨ - • ما كان الصلح من دونيس الا خدعة وكسبا للوقت . فما كانت تنقضى مدته المعينة حتى نكث العهد وشنها على القرطاجيين حربا شعواء ، فاستولى على :

غيلية وقمرين وجرجنتى وثرمينى وايريكس ... ثم اخذ فى النهاية معطية وهدمها تهديما .

٣٩٧ - • نزل خيملكن بجيشه فى بالرمة ، فانهمزم الطاغية دونيس امامه ، واقفل على نفسه ابواب سرقوسة .

• فشيد خيملكن مدينة جديدة جنوب انقراض معطية وسمّاها (ليلبة) Lilybée وتسبى اليوم مرصالا او مرسى على ٣٩٦ - • واستولى على مسينة وهدمها وتركها خرابا

• ثم استمر فى سيره الى ان وقف بجيشه تحت اسوار سرقوسة

• وكان معبد الاله (ديميتير) خارج الاسوار فاعتدى عليه خيملكن ونهبه . فرات قرطاج فى هذا التدنيس لمعبد مقدس اصل مصائبها وشقائها .

٣٩٥ - • وانتشر الوباء فى معسكر خيملكن ، وتضعضت احواله . فرأى دونيس الفرصة سانحة للخروج والهجوم ، فارتبك خيملكن ، وطاش صوابه ، وفر هاربا تاركاً رجاله لانتقام اعدائهم ، وفى النهاية انتحر .

٣٦٧ - • واستمرت الحروب بين قرطاج والاغريق كامل تلك المدة
الى ان مات دونيس بسر قوسة سنة ٣٦٧ ، وكان غالب ما امتلكته
قرطاج في الجزيرة تحت نفوذ الاغريق ولم يبق تحت نفوذها سوى
الجزء الكائن بين وادي حميرة شمالا ووادي حاليقوس جنوبا •
٣٤٥/٣٤٠ • وبعد موت دونيس انتهزت قرطاج فرصة
الحصومات القائمة حول الخلافة في الملك ، لاسترجاع جرجنتي وغيلية
لكن تدخل تيمولون الكورنتسي اجبر القرطاجيين الى الرجوع الى
حدودهم الاولى وراء وادي حاليقوس (٣٤٥/٣٤٠) وذلك اثر
انتصاره عليهم في معركة وادي القريضة (Crimisa) ، تلك المعركة
المشهورة التي اظهر فيها الفوج المقدس بسالة نادرة ، فقاوم شبان
هذه الفرقة مقاومة الابطال الى ان سقطوا عن آخرهم في ميدان الشرف

٣١٠ - اغاثوقليس ينقل الحرب الى افريقية (١٤ اوت ٣١٠)

(١٤ اوت ٣١٠ / ١٢ اكتوبر ٣٠٧) ولد اغاثوقليس بمدينة
ثرميني اي هيمار سابقا ، بمنطقة نفوذ قرطاج وذلك سنة ٣٦٠ ،
وصار سيد سر قوسة باعانة القائد البونيقي عملقرط (٣١٨) •
فتقوى اغاثوقليس بفط ذكائه وشدة دهائه ، وانقلب ضد القرطاجيين
وشرع يغزو اراضيهم بصقلية ، واشهرها حربا معلنة عليهم ، واخذ
يهدد مدينة جرجنتي ، فخلعت قرطاج لنجدتها وجهزت اسطولا وسيرته الى
صقلية ، فنزل الجيش بهضبة (اقنومة) بمضب وادي حميرة (١)
بين مدينتي جرجنتي وغيلية ، واستمرت ٥٠ سفينة حربية في
طريقها الى ان ارست قرب سر قوسة • ثم ارسلت قرطاج جيشا
كبيرا آخر في ١٣٠ سفينة تحت قيادة عملقرط بن جيسكن • فنزل
بجيشه بهضبة اقنومة ايضا • واتى اغاثوقليس وجعل معسكره
تجاههم على الضفة الاخرى من وادي حميرة • لكن قدوم قوات جديدة
من قرطاج ونزولها وراء جنود الاغريق تسبب في انهزامهم ، ورجع
اغاثوقليس الى سر قوسة ليتحصن بها ، وليستعد الى مجابهة حصار
داهم • وكان كما ذكرنا اسطول القرطاجيين قرب المدينة •

وهنا جد حادث فجائي خطير يعتبره المؤرخون والمتخصصون في

(١) وادي حميرة : الوادي المقصود هنا هو الذي يسيل بالجنوب ، وهناك ايضا
وادي حميرة بالجهة الشمالية وكانت توجد بمصب ذلك الوادي مدينة هيمار او مدينة
حمير التي هدمها حنبعل سنة ٤٨٠

فن الحرب عملا جريئا وفى منتهى الجسارة : اذ نقل اغاثوقليس ميدان الحرب الى افريقية وكان اول من فتح هذه الطريق التى سيسلكها من بعده روجلوس ، ثم شبليون الافريقى ، ثم شبليون الايميلى . واغتنم اغاثوقليس غفلة من اسطول الاعداء المرابط امام ابواب سرقوسة ، فانسل خفية ، واجر فى ١٤٠٠٠ من المقاتلين ، ملا بهم ستين سفينة واخذ معه ابنيه ارخاغاثوس وهيراقليد وكان ذلك فى ١٤ اوت ٣١٠ ، وارسى بالوطن القبلى (جزيرة ابى شريك) بجهة مقالع الحجر بالهوارية ، وهناك احرق سفنه حتى لا يتسرك لرجاله اى امل فى الفرار ، فاما ان ينتصروا او يهلكوا عن آخرهم (مثلما قال طارق بن زياد لاصحابه لما نزلوا بالاندلس : العدو امامنا ، والبحر خلفنا ، ولم يبق الا الانتصار او الموت !)

ثم هجم اغاثوقليس برجاله على مدينة ميغاليوبوليس (ولعلها مقصورة اى رادسى Maxula) واخذوها عنوة ، وبعد النهب والتهديم استمروا فى طريقهم يخربون ويحرقون كل شىء يعترضهم فى طريقهم من مدن واملاك وضيعات ، وقد راوا فى بلادنا الحصبة عنبا وحبا وحدائق غلبا ، فاندھشوا مما شاهدوه من جنات وخيرات وانعام راتعات ٠٠٠

ولما وصلت اخبار هذا النزول الى القرطاجيين اشتد بهم الفزع والخوف ، وهاجوا وهاجوا ، واضطربت احوالهم ، وجمعوا فى الحين من سكان المدينة نفسها اربعين الفا من المشاة ، والفا من الفرسان ، والفين من عربات الهجوم ، وخرجوا امام ابواب قرطاج حيث التقى الجمعان . فدارت بينهما معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصقليين ، وانهزم القرطاجيون وانقلبوا على اعقابهم مدبرين ، وتحصنوا بالمدينة . وقد اوجمتهم هذه الكارثة واعتقدوا انها نتيجة سخط الآلهة ، وبادروا بالتضحية بخمسائة من صفوة اطفالهم وفلذات اكبادهم القوا بهم فى النيران استرضاء للاصنام حتى يسكن غضبها .

اما اغاثوقليس فانه اقام معسكره فوق روابى البلقدير وترك فيه حامية ، ثم تمادى فى اكتساح البلاد ، واستولى على نابل ، وسوسة ورأس الديماس ، وكثير من المدن بتلك الجهة .

وانتهز القرطاجيون فرصة غيابه ، فتسلطوا على معسكره واقتفوا اثر رجاله الذين فروا هاربين الى تونس وحاصروهم هناك ٠٠٠

٣٠٩ - • وفى تلك المدة استمر عملقرط يحاصر سرقوسة بصقلية ، وفى احدى الليالى من صائفة ٣٠٩ وقع فى قبضة الاعداء ، فقتلوه ، وقطعوا راسه ، وارسلوه الى اغاثوقليس • فامتطى هذا الاخير فرسا ، ووقف امام معسكر الاعداء يرفع راس ملكهم شعار الغلبة والانتصار • فأغتم القرطاجيون لذلك غما شديدا ، وانكبوا على وجوههم ساجدين حسب العادة المألوفة عندهم ، لكنهم تجلدوا وتدرعوا بالصبر ولم يظهروا ضعفا ولا وهنا •

اما اغاثوقليس فقد طال عليه الامر ، ونفذ زاده ، وذهب ماله ، وساءت احواله • وقلت رجاله ، وبدأت تظهر فيهم علامات التمرد والعصيان • ففكر فى وسيلة تمكنه من جلب المدد وزيادة الجنود • وكان اوفيلاس القريناوى (Ophelas) واصله من مقدونية ، وهو احد رفقاء الاسكندر الاكبر ، ثم صار عضدا للملك بمصر بطليموس فغزا القرينية (la Cyrénaïque) سنة ٣٢٣ وصار عاهل برقة • • كان اوفيلاس هذا صاحب السيادة على المستعمرات الاغريقية بتلك الناحية يتصرف فى قوات عظيمة • فاوفد اليه اغاثوقليس رسولا يطلب منه التعاون معه فى محاربة القرطاجيين ويكون نصيبه مبن ذلك الاستحواذ على مملكة ليبيا لانه فى غنى عنها ولا يريد لها لنفسيه • • • • •

ففرح اوفيلاس بهذه المقدمات والاقتراحات الاولى التى وافقت اطماعه ، وناسبت احلامه ، فشرع فى جمع الرجال وحشد الجنود واعداد العدة بكل حزم ونشاط ، وهو لا يعلم ما خبائه له الاقدار • ولما انتهى من استعداداته ارتحل (١) على راس جيش كبير يتألف من ١٠،٠٠٠ من المشاة و٦٠٠ من الفرسان و ١٠٠ من عربات الهجوم و ١٠،٠٠٠ من الرجال والنساء والاطفال يحملون الاثقال فكانوا شبه قافلة او جالية تسير • وبعد مشاق كثيرة ، واتعب كبيرة دامت اياما طويلا ، اقام اوفيلاس معسكره على مقربة من معسكر الصقليين

ورحب اغاثوقليس بقلوم صديقه الملك اوفيلاس وبالغ فى خدمته وغمره باحسانه ، ووفر له كل اسباب الراحة ووسائل المتعة • • • غير ان ذلك كان منه مكرًا وخداعا اذ انه كان فى حاجة الى طاقة

(١) جمع اوفيلاس وناق واطاق اخباره عن بلاد الليبيين ووضع رحلة وصف فيها سواحل ليبيا •

بشرية اى الى جنود ورجال لا الى قائد او ملكا يضايقه فى اعماله وفى تنفيذ برامجه فترقب فرصة وجوده منعزلا عن رجاله فهجم عليه وقتله غدرا • واصبح بذلك على راس جيش كبير استعمله ففى غزوات جديدة ، فاستولى به على اوتيكة تم بنزرت حيث قام باشغال على غاية من الاهمية ، بانشاء حصون وقلاع ، وموانى ، ودار صناعة للسفن ، وكذلك اعتنى بتاسيس مدينة جديدة على البحر بالوطنين القبلى سماها اسبيس (Aspis) ، وهذه الكلمة يونانية ومعناها بالعربية (الترس) الذى يقال له باللاتينية (Clypeus) (قليبس) ومنها جاءت كلمة (قليبية) (Clypea) وهى اسم هذه المدينة الآن واقام اغاثوقليس فيها ايضا دار صناعة •

وانه بانشاء وتجهيز مرسى ببخروت من جهة ومرسى بقليبية من جهة اخرى على المعبر الفاصل بين صقلية وافريقية ، ضمن لنفسه مواصلات سهلة مع الجزيرة • وبما ان حصار سرقوسة ما زال مستمرا ، فقد قرر اغاثوقليس العزم على السفر الى صقلية ، خصوصا وقد اطمأن كل الاطمئنان على الحالة بافريقية وصار لا يخشى باسا من تلك الناحية • فسلم القيادة الى ابنه ارخاغاثوس وركب فى الفين من رجاله •

اما ارخاغاثوس فقد كلف احدى اعضاده وهو القائد ماخوس (Eumachos) بغزو جهات اخرى من افريقية • فقام بمهمته خير قيام واستولى على : دوقة • Tocai

وعلى مدينة الفلين (Phelliné) ولعلها عين الدراهم وعلى ماكنة قرب طبرقة (Meschela) وهى مدينة اسسها الاغريق لما عادوا من طروادة وعلى عنابة او بونة (Acra Hippou)

لكن القرطاجيين كانوا يتتبعون حركات اعدائهم بكامل اليقظة والانتباه • فانتهزوا فرصة غياب اغاثوقليس ووجود الصقليين كاغنم بدون راع ، فجهزوا جيشا كبيرا ، وهجموا عليهم من كل جانب ، وفتكوا بهم فتكا طريعا ، وفرقوا صفوفهم ، واهدوا جنودهم وقتلوا قائدهم ماخوس • اما ارخاغاثوس فقد نجا بنفسه وهو يعتثر فى اذيال الحبيبة والانكسار وارسل الى ابيه بصقلية يخبره بما حبل بهم من الويل والثبور • اما اغاثوقليس فهو لم يكد يصل الى الجزيرة ويشرع فى انتصاراته

على اعدائه حتى اتته الانباء المزعجة ، فنزلت عليه نزول الصاعقة وارغمته على الرجوع حالا الى تونس .

٣٠٧ - وهناك جمع فلول الجيش وهجم بهم على الاعداء ، لكن الدهر قلب له ظهر المجن ، فانتصر عليه القرطاجيون ، وانهزم معقهورا ، والذي زاد الطين بلة اشتعال النار في معسكره ليلا ، ففر هاربا ، وقرر العزم على العودة الى صقلية والرحيل وحده خفية وهكذا نجا بنفسه تاركا ابنه للتعذيب والتنكيل والقتل . وكان ذلك في ١٢ اكتوبر ٣٠٧

وقد انتهت هذه الحملة التي قام بها اغاثوقليس ضد افريقية في عقر دارها .٠٠٠ قد انتهت بالحيرة والانكسار ، ولكننا لو فكرنا قليلا لفهمنا ان هذا القائد العظيم قد ادرك هدفه ونجح في خطته لان هذا البطل السرقوسي لم يات افريقية فاتحا ، ولم يركب البحر غازيا ، بل ركب البحر ليلعب ورقته الاخيرة وينجو من خطر محقق بصقلية ، فنجح في ذلك ونجا من ذلك الخطر ، وكان يريد ان يحمل اعداءه على التفاوض معه في عقد الصلح ولكنهم صمدوا في وجهه ولم يظهروا خوفا ولا ضعفا ، وقاوموا مقاومة ايجابية بالحرب والسلاح وكان في عزمه باثشاء ميناء بنزرت وميناء قليبية ودار صناعة بكلتا المدينتين ، ان يكون اسطولا قويا ، وان يعزل قرطاج ويقطع عليها كل المواصلات من جهة البحر ليحملها على الرضوخ والاستسلام . ولكن لم يسعه الوقت ، ولم يساعده الدهر على ذلك .

وقد اشتهر اغاثوقليس بجسارة المقامر الذي يوشك ان يخسر كل شيء ، فيضاعف رأس المال ، ويقاوم مقاومة اليائس ، ولكن رغما عن ارادته القولاذية ، وعن رغبته في سوق عربة الدولة نحو المجد والنصر ، فان العنان كان نخرا ، والسوط محطما ، والفرس جثة هامدة لا حراك فيها .

وعلى كل فان حملة اغاثوقليس ، التي نالت شهرة كبيرة في التاريخ ، قد اقامت الدليل بكيفية محسوسة على ان ثقل ميدان الحرب الى ارض افريقية من شأنه احداث مشاكل خطيرة لحكومة قرطاج بدون ان يهدد كيائها تهديدا جديا اذا لم يكن معززا باسطول بحري اقوى من اسطولها .

٣٠٦ - ولا نغاد اغاثوقليس الى صقلية بادر بابرام صلح مع

القرطاجيين (سنة ٣٠٦) على ان يرجع اليه ما افتكه منهم من المدن مثل ثرميني ، وسالنتة ، وسيجسته ٠٠٠ وان يدفعوا له مقابل ذلك مبلغا من المال و ٢٠٠,٠٠٠ هذا من القمح (اي ١٠٥,٠٠٠ هكتولتر)

ولم يحارب اغاثوقليس القرطاجيين بعد الى ان مات بخلال مسموم سنة ٢٨٩ وعمره ٧٢ عاما

٢٧٨ : انتصارات الملك بيروس على القرطاجيين

بعد موت اغاثوقليس رجعت الحصومات والقتال من جديد في صفوف الاغريقين بصقلية ، واستثمر القرطاجيون ذلك ، وزادوا في اشغال نار الفتنة .

وفي سنة ٢٧٨ سيروا ١٠٠ سفينة وجيشا قويا امام سرقوسة لكن الاغريقين ، امام هذا الخطر الداهم استنجدوا بالملك بيروس Pyrrhus (١) الذي كان مقيما في ذلك الوقت بايطالية ، وكانت له نفس الشهرة التي كان يتمتع بها الاسكندر الاكبر . فقدم بنفسه الى سرقوسة صحبة افياله (٢٧٨) ، ولم يتجاسر القرطاجيون على اعلان الحرب في وجهه ، وارتحلوا عن المدينة خائبين ، واخذوا يفكرون في طريقة تمكنهم من استخدام الافيال في الحرب مثلما كان يستخدمها بيروس

٢٧٧ هـ وفي سنة ٢٧٧ اخذ بيروس في افتكسك المدن الواحدة تلو الاخرى ، وكانت تستسلم او تأخذ عنوة . واصبحت قرطاج تسعى في الصلح ، وتعرض على بيروس الانسحاب من الجزيرة

(١) بيروس Pyrrhus : هو ملك ايبير Epirus في الشمال الغربي من بلاد الاغريق . وكانت تارنتة (Tarentum) بجنوبي ايطالية لم تخضع للرومان بعد واستعانت عليهم بالاغريق ، فخف بيروس لنصرتها ، واتى معه باعظم تجديده في فن الحرب وهو الفيل الذي ادخل العرب في نفوس الرومان فصارعهم بهما راعا عنيقا، وانتصر عليهم انتصارات كثيرة . ولكن هذا النضال الطويل انتهى في آخر الامر باخلاق بيروس وسيادة رومة على ايطالية بأسرها .

ومن ذلك الوقت اشدت ساعد رومة ، وامتدت امامها افاق الطموح ، وبدأت الفكر في سيادة الدنيا كلها . وكانت الغاية التي يسعى اليها بيروس تهديم الفيدرالية الايطالية التي كانت رومة على راسها . وسيتبع في هذه السياسة اكبر المعجبين به وهو خنبعل ، مثلما سيتبع اغاثوقليس اكبر المعجبين به ايضا وهوشبيون الافريقي .

ما عدى (ليلية) التى ما زالت تحت نفوذها ، واعطاه مالا وسنفا
... وكان بيروس مستعدا للموافقة ولقبول تلك الشروط ، لكن
مستشاريه كانوا يحرضونه على المطالبة بمدينة ليلية ايضا ...
وهكذا لم تنجح المفاوضات وحاصر بيروس تلك المدينة المنيعه غير
انه لم يظفر بباطل ، ورجع الى سرقوسة ، واخذ يفكر فى كيفية نقل
ميدان الحرب الى افريقية مثلما فعله اغاثوقليس من قبله لكن حوادث
اخرى جدت بايطالية اجبرته على تأجيل برنامجه والتوجه الى بلاد
الرومانيين (سنة ٢٧٦)

٢٦٤ : مشكل مضيق مسينة : الانقلاب السياسى

بعد ما بارح بيروس جزيرة صقلية ، اخذ القرطاجيون فى استرجاع
مدنهم واحدة واحدة .

وفى ذلك الوقت نشبت عداوة كبيرة بين (مسينة) و (سرقوسة)
واشتدت الخلافات واشتعلت نيران الحرب بين المدينتين .

... وتلاخضان بيروس بدخوله صقلية املا فى بناء امبراطورية عظيمة قد ارتكب
هفوة سياسية كبرى ، وذلك انه الب ضده رومة وقرطاج فى آن واحد فكان ذلك سببا
فى خيبته واخفاقه ، وفى عودته الى بلاده ابير بدون طائل .

ومن جهة اخرى فان الحملة التى قام بها بيروس بايطالية ضد رومة كانت لها
نتائج على غاية من الخطورة ، وذلك لان رومة دخلت لأول مرة فى حرب ضد دولة
اغريقية ، وهى بذلك سترى نفسها مدفوعة فى وسط دوران لوالب السياسة الدولية
ولقد فتح بيروس امامها طريق العالم الاغريقى ، ولذلك ما لبثت ان ولجته .
ولكن قرطاج كانت تخشى ان تصيح رومة ، بالنسبة اليها دولة مزاحمة خطيرة ،
باستيلائها على المدن الاغريقية الموجودة بايطالية وصقلية .

ولذلك بعد ما كانت حليفة رومة حسب معاهدات رسمية ، نراها تقلب لها ظهر
المجن وتلتحق وتحالف ضدها مع مدينة (لوفر) Locres الاغريقية بايطالية .
فلم تعبأ رومة بذلك ، وقبلت الدخول فى الكفاح ، واستولت على لوفر ، ثم بعد
قليل على تارنتة (سنة ٢٧٢) . وفى سنة ٢٦٥ كانت ايطالية كلها رومانية الى الحد
الذى يكونه نهر بو .

ومدينة تارنتة التى ترقى الى رتبة حليفة رومة اصبحت من اهم قواعدها البحرية
التى تنظر نحو الشرق .

ومن ذلك الوقت صارت الحرب امرا لا مناص منه بين الجمهورية الرومانية التى
اصبحت باستيلائها على تارنتة ، دولة بحرية قوية وبين الجمهورية البونيقية التى
اصبحت عازمة على الدفاع عن هيمنتها البحرية مهما كانت التكاليف .

وفى سنة ٢٦٤ انتصر هيارون (Hieron) قائد السرقوسيين على خصومه المسينيين انتصارا باهرا ، فاستنجد هؤلاء بالقرطاجيين وكانوا يترقبون مثل هذه الاشارة بفارغ الصبر . فدخل القرطاجيون مدينة مسينة وانتصبوا هناك واصبحوا كأنهم فى ديارهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

وعجز اهل مسينة عن التخلص من هؤلاء الدخلاء وعن اخراجهم من مدينتهم بعد ما انشبو فيها مخالبيهم .

فاستنجدوا فى هذه المرة بالرومانين . واسروا اثناء ذلك قائدهم (حنون) ووعده باطلاق سراحه اذا التزم بمغادرة المدينة مع رجاله فرضى بذلك ، وبارح المدينة ، فحكمت عليه قرطاج بالاعدام صلبا لحيانته ،

٢٦٣ - وعزمت حكومة قرطاج على احتلال مسينة من جديد ولو ادى ذلك الى حرب مع رومة (وذلك سنة ٢٦٣)

وكان الاغريقيون بجزيرة صقلية على راي قرطاج واصبحوا من صفها ، واعلنوا انضمامهم اليها ، وحتى (هيارون) ملك سرقوسة فهو ايضا قد اعلن تحالفه مع القرطاجيين خوفا من الاستيلاء الرومانى وهو انقلاب سياسى خطير ، اذ ان الاغريقيين لما روا نفوذ رومة يقوى ويشتمد، ولما راوا امرها يتفاقم ، دخلوا تحت حماية قرطاج ، وتعاقبوا معها على دحر كل طارق جديد .

ولكن رومة كانت بدورها ترى الامر قد استتسب للقرطاجيين بكامل جزيرة صقلية، وانهم وصلوا امام ارضها وعلى مقربة من ديارها على معبر مسينة ، واصبحوا خطرا عليها فى الوقت الذى اشتد فيه ساعدوها ، واخذت ترمى بانظارها وراء البحر وتسرى مثلما رات قرطاج من قبل ، ان امتلاك جزيرة صقلية امر لا بد منه لبلوغ امانها فى التوسع والاستعمار .

وهكذا اصبح التصادم بين القوتين المتقابلتين ، وبين البهلاقيين العظميين رومة وقرطاج ، امرا حتميا لا مفر منه . فنشأت عن ذلك الحروب البونيقية .

قرطاج فى مقتبل فتوتها ، ورومة فى مستهل شبابها ، وصقلية - مفتاح السيادة - لا تبعد عن الاولى اكثر من خمسين ميلا ، وعن ايطالية اكثر من ميلين فالنضال بين هذين الشعبين قد اصبح قضية لا مفر منه ولا حيلة فى رده . . .

وكان بيروس على حق يوم قال لرفاقه وهو يبارح صقلية :
وما اروعها من حلبة للصراع نتركها بين قرطاج ورومة، (١)
الدكتور التوفيق الطويل (الكفاح بين رومة وقرطاج)

ثانيا : الحروب البونيقية : او الكفاح بين قرطاج ورومة

كانت هذه الحروب البونيقية صراعاً عنيفاً بين رومة وقرطاج
ابتدت هذه الحروب بصقلية (٢٦٤) وانتهت بتهديم قرطاج (١٤٦) :
قامت ١١٨ عاما .

الحرب البونيقية الاولى (٢٦٤ - ٢٤١)



مراكب الرومانيين في معركة مليس : الحرب البونيقية الاولى
(صورة جدارية بمدينة ميناوس)

٢٦٤ : ايطالية تهدد راس جسر بصقلية : مسينة

• علمنا ان القرطاجيين كانوا خرجوا من مسينة ، فاحتلتها جماعة
من سكان ايطالية ، فمدت رومة بذلك « راس جسر » بصقلية، حسب
التعبير العسكري الحديث .
وراي القرطاجيون ، كما راي حليفهم الاغريقى هيارون ملك
سرقوسة ان بقاء الايطاليين بتلك المدينة اصبح خطرا يهدد كامل
الجزيرة .

(1) « Quel beau champ de bataille nous laissons-là aux
Romains et aux Carthaginois. » (Pyrrhus)

٢٦٣ : حصار مسينة

• فجهز الحليفان حنون وهيارون حملة داهمت مسينة فاستنجد اهلهما بالرومانيين ، فارسلوا جيشا يقوده القنصل ابيوس كلوديوس فنزل هذا الجيش مرسى ريجيو • وانتصر كلوديوس على القرطاجيين فلادوا بالفرار ، ثم كر على حليفه هيارون فهزمه ايضا ، واقتفى اثره الى سرقوسة ، ثم فاوضه فى نكت عهد القرطاجيين • فرضى بذلك لما راي من قوة الرومانيين ، وقلب لقرطاج ظهر المجن ، واعلن مخالفة رومة واخلص لها الولاء •

ورجع القائد حنون القرطاجى لوطنه مذموما مدحورا ، فاتهم بالتقصير والحيانة واعدم صلبا •

٢٦٢ : حصار جرجنتى

• جهزت قرطاج حملة جديدة بلغ عدد رجالها ٥٦,٠٠٠ تحت قيادة حنون وحنبل بن جيسكون • ونزلوا بجرجنتى وجعلوها قاعدة اعمالهم الحربية ومستقر ذخائرهم • فمضى اليها الرومانيون، وحاصروها حتى ادرك جيشها الجوع وانقحط • ودارت بين الفريقين معركة انهزم فيها القرطاجيون ورجعوا خائبين • وسقطت جرجنتى فى ايدي الرومانيين •

٢٦٠ : معركة مليس البحرية

• قد اعد القنصل دوليوس اسطولا عظيما يتالف من مائة سفينة خماسية quinquerèmes (ذات خمسة طبقات من المجاذيف) وعشرين سفينة ثلاثية trirèmes (ذات ثلاث طبقات من المجاذيف) ما عدا السفن النائية birèmes (ذات طبقتين من المجاذيف) وهذه السفن كانت تسير بالقلوع او بالمجاذيف ، وتشتمل على راس rostrum ، وعلى دبابات محصنة ، وعلى خطاطيف او كلاليب corbeaux (تمكن من رمى المراكب المعادية (انظروا الصورة) • وواجه دليوس اسطول حنبل الذى كان واثقا من نفسه كل الوثوق ووقع اشتباك عنيف فى بحر مليس Myles شمالى جزيرة صقلية وفى هذه المعركة البحرية المشهورة استعمل دوليوس « غربانة » ، وهى الكلاليب التى كانت تعطل السفن المعادية وتحول الحرب البحرية الى صراع فوق جسور من الخشب • وهكذا انهزم حنبل وعاد الى

وطنه خائبا ، حيث استقبله الشعب استقبالا يليق بهزيمته
الشهداء ، فالقى القبض عليه وصلب .

٢٥٦ : نقل ميدان الحرب الى افريقية : روغولوس

• هيات رومة اسطولا قويا (٣٣٠ سفينة) وحشدت جموعا
كثيرة (٤٠,٠٠٠ مقاتل) لترسلهم الى قرطاج تحت قيادة القنصل
اتيليوس روغولوس (Régulus) . وتاهب القرطاجيون للقائهم عند
راس اقنومة (Cap Ecnome) (١) ومنعهم من الذهاب لبلادهم .
فدارت بينهم معركة دامية انتهت بانتصار الرومانيين .

ثم ان روغولوس بعد ما اصلح سفنه المعطبة ابحر مع رجاله نحو
افريقية ونزلوا بمدينة اسبيس (قليبية) التي كان انساها واعتنى
بها (اغاثوقليس) . فحاصروها واخذوها عنوة ، وتركوا فيها
حامية ، وشرعوا يدمرون ويخربون الجهات المجاورة ويعيشون في
الارض فسادا .

وتركهم القرطاجيون يفعلون ما يشاءون ويشتهون اذ جمعوا
قواتهم بمدينة قرطاج التي كانوا زادوا في تحصينها وتدعيم اسوارها
بعد ذهاب اغاثوقليس عنهم فاصبحت مدينة منيعة يلجؤون اليها وقت
الخطر ، فاكثفوا بالاستعداد للدفاع عنها عند الاقتضاء . واستمر
روغولوس في سلبه ونهبه وتهديمه الى ان وصل امام مدينة وذن (Oudna)

٢٥٥ : معركة وذن

• ولما طال الامر بالقرطاجيين الفوا جيشا تحت قيادة حنون
وبوستار وعملقرط (وكان هذا الاخير بصقلية فاستقدمته حكومة
قرطاج) فعسكروا بفيلتهم فوق تل يشرف على جيش عدوهم ،
وارتكبوا بذلك خطأ كبيرا لان الفيلة لا تقوم بدورها ولا تفيد في
الحرب الا اذا كانت في السهول المنبسطة . فنتج عن ذلك انهزام
القرطاجيين ، فولوا الادبار نحو مدينة قرطاج .
وتماذى روغولوس في تخريبه وفساده الى ان دخل تونس واقام
فيها معسكره مثلما فعل اغاثوقليس من قبله .

(١) راس اقنومة Cap Ecnome : هو راس الساحل من جزيرة
صقلية شرقي مدينة جرجنتي ويسمى الان Monte Serrato
Licata (انظروا الخريطة)



ولم يكن لروغولوس ما يكفيه من الجيش والعتاد والسفن للاقدام على حصار قرطاج . وكان يريد مثل اغاثوقليس حمل اعدائه على طلب الصلح .

وكان روغولوس قد خشى ان تنقضى سنة خدمته قبل ان تنتهى حرب افريقية ، فارسل بنفسه يعرض الصلح على القرطاجيين ، فاستجابوا له ، ولكنه تشدد فى وضع نصوص الصلح مخافة ان يابى مجلس رومة اقرارها ، فاعلنت قرطاج رفضها لتلك الشروط المصحفة .

٢٥٥ : انتصار زنتيبوس على روغولوس

زنتيبوس (Xanthippus) قائد ماجور وفد على قرطاج من اعظم مدرسة حربية وهى مدينة اسبرطة ، فادرك فى الحين قصور القادة البونيقيين وقلة خبرتهم بفن الحرب وعلى الاخص استعمال الافعال وشرع فى تدريب الجنود تدريبا حريبا ، وفى تهيئتهم للقتال . وبعدما انتهى من تمرينهم ، جمع الرجال والفيلة والتقى بروغولوس بسهل منبسط على ضفاف سبخة جريبة قرب هرقله وراء خليج الحمامات ، ورتب عسكره ترتيبا فنيا يركز على خبرة ومقدرة . واصطدم الجيشان ، وانتصر زنتيبوس على عدوه روغولوس واخذه اسيرا ، وقتل رجاله تقتيلا . وبعد هذا الانتصار الباهر ذهب زنتيبوس فى حال سبيله تاركا وراء للقرطاجيين امكانيتين جديديتين على غاية من الاهمية فى فن الحرب وهما :

- استعمال الافعال حسب القواعد الحربية .
- عملية التطويق بواسطة الفرسان .

وقد استفاد القرطاجيون من ذلك فيما بعد فاحرزوا على نتائج باهرة .

٢٥٤ : استيلاء الرومانيين على بالرمه

خسرت رومة الحرب بافريقية، وانتهت اعمال روغولوس بالخسران المبين غير ان الحرب بصقلية مازالت مستمرة . وفى آخر سنة ٢٥٤ انتصر الرومانيون انتصارا عظيما فاستولوا على مدينة بالرمه وهى اهم قاعدة واكبر مدينة بونيقية بالجزيرة ولم يبق للقرطاجيين سوى

طرابنة (Drépane = Trapani) وليبة (Lilybée = Marsala) وهي الآن مرصلا او مرسى على .

٢٥٠ : فشل صدر بعل في محاولة استرجاع بالرمة . ولم تك تلك خاتمة نكبات قرطاج بارض صقلية ، فهي قد جهزت جيشا عظيما فيه عدد كبير من الفيلة ، وجعلت على راسه القائد صدر بعل وذلك سعيًا وراء استرجاع مدينة بالرمة . لكن فيلته رجعت بالوبال عليه اذ انها عادت على اعقابها وداست جنوده والحقت بجيشه افدح الاضرار والخسائر . وانتهت المعركة بانهزام صدر بعل وبموته صلبا بعد عودته الى بلاده .

٢٤٩ : رومة تفقد اسطولها

• كان مرسى طرابنة ياوى اسطول القرطاجيين . فاراد القنصل بوليوس كلوديوس بولشر ان يباغته بسفنه ، فلم ينجح في خطته وخسر في تلك المعركة البحرية ما يقرب من مائة سفينة وانتصر القرطاجيون في هذه المرة وفقدوا انكساراتهم في مليس وراس اقنومة (١) .

وزيادة على ذلك فان الاميرال القرطاجى قرنلون هاجم الاسطول الرومانى الذى ارصى قرب ليبة ودمره تدميرا ، ثم اسطولا حربيًا آخر كان خارجا من سرقوسة . فلم يتجاسر هذا الاسطول الرومانى على الاشتباك معه في معركة ، وابتعد عنه قليلا ، لكن ثارت زوبعة اغرقته عن آخره ، بينما كان القرطاجيون لجبرتهم التامة باحوال الجو ، قد احتاطوا للامر قبل وقوعه واحتموا بالساحل الشرقى من الجزيرة ونجوا من كل خطر .

ومن ذلك الحين يثست رومة من محاولة السيادة فى البحر وملت من صنع السفن واعتراها الفتور فصممت على عدم تعويض السفن التى خسرتها . وهكذا استرجعت قرطاج هيمنتها البحرية من جديد

٢٤٦ : عملقرب برقة الشهير ، رب القتال برا وبحرا

• ثم ان الاقدار هيات لقرطاج قائدا ممتازا لم يات الزمان بمثله

(١) يقول بوليبيس : انه لا يلوم الا نفسه لان الفرائج المفسدة قد انلته بامتناعها من الاكل قبل المعركة ، فلم يكتوئ بذلك بل القى بها فى البحر قاتلا : ان لم تشا تاكل فما عليها الا ان تشرب !

لوحة ٤٨
انظر الصفحة رقم ٢٠٠/٢٠٦ من هذا الكتاب



البطل الكبير عملاق بركة

لوحة ٤٩
انظر الصفحة رقم ٢١٠ - ٢١١ من هذا الكتاب



القائد المشهور حنبعل بركة

كوحة ٥٠
انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من هذا الكتاب



القائد الروماني شبيون الالريفي الاكبر

لوحة ٥١
انظر الصفحة رقم ٦٧٧ من هذا الكتاب



الملك ماسينيوس

الهمم ابنه حنبعل . وهذا القائد المشهور فى التاريخ شهرة عالمية والمعروف بذكائه ومهارته وبطولته ولو كان فى باكر الشباب ، هذا القائد العظيم هو عملقار او عملقرط برقة ولكننى اتى متأخرا اى فى نهاية الحرب ، فوجد الامور بصقلية على غاية من الارتباك والفساد ، وكانت وسائله محدودة ، غير انه بدهائه النادر استنصر القليل والضعيف من امكانياته الى اقصى حد ، وكون من الضعيف قوة وصار يتلافى الاحوال بقدر الطاقة . فارتقى بجيشه جبلا مرتفعا قرب بالرمة كان يعرف بجبل (رقطة) وكان عبارة عن حصن منيع لا يمكن اقتحامه او الهجوم عليه ، فيه المروج والمرعى والاراضى الخصبة والانهار الجارية والهواء النقى وبجانبه جون صالح للسفن . فلبث على قمته ثلاث سنوات طوال ، واسطوله يجوب شواطئ ايطالية الجنوبية فينهب منها ما شاء ، ثم يعود اليه ليقدم له الزاد وجميع ما يحتاج اليه .

وفى نهاية السنوات الثلاث ، بارح عملقرط جبل (رقطة) ومضى بجيشه واسطوله ونزل ليلا بجبل ايريكس قرب مدينة (طرابنة) وربما كان يريد ان يخلصها من العدو الذى بازال يحاصرها . واقام عملقرط هناك عامين كاملين وهو يجتنب الحرب المنظمة ويقتصر على المناوشات التى كان فيها على جانب عظيم من المهارة ، وكانت وحدها فى مثل هذه الظروف تضمن النجاح بربح الوقت واغلاق العدو بدون تعرض الى الاخطار

وفعلايدات تظهر على رومه علائم الكلال والملل من طول هذه المقاومة ، خصوصا وان صناديقها وخزائنها اصبحت فارغة .

٢٤١ : ابرام الصلح

♦ وعزمت رومة على تجهيز اسطول لتضرب ضربتها الاخيرة وتعزل طرابنة وليلبة وجيش عملقرط ، وتحنع التحوين عنهم ، وتسدد فى وجوههم جميع الطرق والسبل . وبما انها اصبحت عاجزة ماليا ، فقد تكلف بعض الاغنياء بصنع هذه السفن وتجهيزها باموالهم الخاصة وقبلوا ان يقع خلاصهم بعد النصر النهائى . وكذلك القرطاجيون فقد جهزوا ايضا من جهتهم اسطولا جعلوه تحت قيادة حنون ليكون تحت تصرف البطل عملقرط . وفى ربيع ٢٤١ سار هذا الاسطول وارسى بجزر اغادى ثم توجه

من هناك الى جبل ايريكس حيث يقيم عملقرط . وكانت سفن حنون
مثقلة بالمؤن والعدد والذخائر التي كان يجعلها لجيوش صقلية
فبادر الرومانيون بالوقوف في طريقه ووقع اشتباك عنيف بين
الطرفين اسفر عن انهزام حنون . فكفر عن خطيئته بالموت صلبا .
ورجعت السيادة البحرية للرومان

وفهم عملقرط انه لافائدة في مواصلة المقاومة وان الصلح خير ،
اذ قد اخفقت المحاولات النهائية اليائسة . وفهت حكومة قرطاج ذلك
ايضا وعرفت بان قتالها في صقلية يجر عليها ويلاتقيلها وشرا
مستظيرا . ففوضت قائدها عملقرط واعطته النفوذ المطلق لعقد
الصلح مع القنصل كاتولوس .

وكان هذا القنصل في آخر ايام حكمه فاراد ان يكون انتهاء الحرب
على يديه فيترك له ذلك ذكرا حسنا

ودارت المفاوضات بين الطرفين حتى اسفرت عن معاهدة كان اهم
شروطها انسحاب قرطاج نهائيا من كامل جزيرة صقلية ، وذلك
بعد استيلاء دام ٢٧٤ عاما

وبهذه المناسبة القاسية اسدل ستار الحرب البونيقية الاولى

من نتائج الحرب البونيقية الاولى

(١) كفاح الليبيين والنوميديين للتخلص من الاستعمار

بدا هذا الكفاح في نهاية سنة ٢٤١ وانتهى في بداية سنة ٢٣٧ ،
ودام ثلاث سنوات واربعة اشهر

ان معاملة المستعمرين البونيقيين لرعاياهم الليبيين ابناء البلاد ،
وحتى النوميديين المعتبرين تحت حمايتهم ، كانت على غاية من الغلظة
والقساوة . فهم كانوا لا يحتلون بلدا الا وفرضوا على اهله البذل
والهوان ووضعوا ايديهم على كافة ما تنتج اراضيهم ، واخذوا
يتمصون اموالهم التي حصلوها بعرق جبينهم حتى يصيبهم الفقر ،
ويدركهم البؤس والجوع والظنى . ودرت هذه الطريقة على القرطاجيين
الذهب الكثير والمال الطائل، ولوانهم كانوا ينفقون الكثير منه في
الحروب مع اعدائهم ، خصوصا في هذه الحرب البونيقية الاولى التي
ضعفت احوالهم ، وافرغت خزائهم . فكانوا مضطرين الى زيادة
تشديد الوطاة على ابناء البلاد المساكين الذين اصبحوا مستخرين في
ايديهم كالانعام، يعتصرونهم كما يشاؤون، ويمصون دماءهم، ويتغلبون
كواهلهم بالضرائب المجحفة، ويجبرونهم على دفع جباية العشر وكانت

رتفع في اوقات الحرب الى ربع او الى نصف ما تنتجه فلاحتهم . كذلك العبيد الذين كانوا يقومون باعمال مرهقة فوق اراضي الطبقة . لاسترقاطية البونيكية ، وقد كانت من قبل اراضيهم فافتكوها منهم ، فهم ايضا كانوا ساخطين وناقمين ويترقبون الفرص للتحرر . الانتقام .

وقد جاء الوقت المناسب وحانت الفرصة الثمينة التي يجب غتنامها للوقوف في وجه الاستعمار البونيكي الغاشم، ذلك الاستعمار الذي كان متجسما في جميع سكان مدينة قرطاج غنيها وفقيرها ، باختلاف طبقاتهم ، وتعدد درجاتهم .

قد جاء الوقت وحانت الفرصة لان قرطاج اصبحت اليوم تتخبط في كثير من المصائب والمحن التي تراكمت عليها وداهمتها في آن واحد فزعزت اركانها وهدت كيائها ، فصار من السهل على هؤلاء المساكين ان يجهزوا عليها وهي في رمقها الاخير ، ويطعنوها الطعنة النجلاء ، ويضربوها الضربة القاضية ، ليتخلصوا من ظلمها وجبروتها ، ولتتمتعوا بعد ذلك بحياة الحرية والاستقلال .

ومن هذه المصائب التي نزلت على راس القرطاجيين انسحابهم النهائي من جزيرة صقلية ، وافلاسهم المدقع الذي جعلهم عاجزين عن دفع اجور جم غفير من الجنود المرتزقين الذين كانوا يعللونهم بالاماني ، ويصبرونهم بالوعود المعسولة .

والآن وقد وضعت الحرب اوزارها واسفرت عن انهيار قرطاج، فقد اصبحت عشرون الفا من الجنود الماجورين يطالبون بحقوقهم ، وكان غالب هؤلاء الجنود من الليبيين . وقد اصبحت حكومة قرطاج عاجزة عن دفع ديونها ، والوفاء بوعودها . فادى ذلك الى ثورة الجنود الماجور ولكن هذه الثورة لم تقتصر على الجنود ، بل هزت وحركت كافة الشغاليين والفلاحين من الليبيين والنوميديين . فاندمجوا في صفوفهم نساء ورجالا ، واصبحت قرطاج امام قوة عظيمة زاخرة تتربك من الماجورين المطالبين بدفع اجورهم القديمة والجديدة ، ومن ابناء البلاد الذين كانوا يثنون ويتالمون تحت نير الاستعمار .

وكان الذي تزعم هذه الحركة التحريرية البطل الليبي (ماطوس) فكان يعقد الاجتماعات ، ويدبر المكائد والمؤامرات ، ويخطب في الجماهير مشجعا ، ومنحسا ، وحائنا على المقاومة بثبات وعزيمة .

وكان (ماطوس) يقود النورة مع اثنين من اعضاءه اشتهر بالاقدام والنبات والحزم وهما : (اسبنديوس) وكان عبدا عند الرومانيين ففر هاربا والتحق بصقوف اعدائهم ، و (اوطاريت) الغالى ، وكان له تانير كبير فى المجالس لانه كان يحسن التكلم باللغة البونيقية الى يفهمها الكثير من الناس ، فكانوا يستصوبون آراءه ، ويستحسنون كلامه ، ويقاطعونه بعواصف من التصفيق .

وكان الناس يستمعون بكل انتباه الى كلام هؤلاء الزعماء الثلاثة وهم ماطوس واسبنديوس واطاريت ، ويصغون الى حديثهم ، الى الضربات والطعنات التى كانوا يكيلونها كيلا ضد اعدائهم القرطاجيين . ولكن بمجرد ما يقوم احد آخر ويفتح فاه ليأخذ الكلمة ، ينهالون عليه رجحا بالحجارة بدون ان يعرفوا هل كان يريد ان يؤيد هؤلاء الزعماء ام كان يريد ان يعارضهم .

وكانت عندهم كلمة مشهورة صاروا كلهم يعرفون مدلولها ومعناها ، حتى جماعة الماجورين من الاجانب باختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، وكانوا يقولونها مع اشارة باليد فيها قوة وعزم وشدة وصرامة وهذه الكلمة التى اصبحت قضاء مبرما محتوما يتسلط على كل من تقال فى شأنه هى « اضرب ! » فيكفى ان ينطق احدهم بهذه الكلمة المرعبة مع تلك الاشارة المشؤومة ، لتنقض جماعة من القتلة كالاسود الضواري ، على فريستهم المقصودة بالاشارة ، فيفتكون بها فتكا ويعزقونها اربا

وهكذا اصبحت هذه الجموع فى شدة هيجانها وغلجانها وتدفقها كالبركان النارى يتقد غضبا وحاسا . ووافد (ماطوس) وسلا الى المدن والقرى الافريقية والقبائل النوميدية يدعوهم الى الكفاح والمشاركة فى المقاومة . فلبوا نداه ودخلوا تحت لوائه وانضم اليه سبعون الفا من المقاومين .

وكان غالب الليبيين يرفضون الاستيلاء البونيقى لاسباب كثيرة منها الخدمة العسكرية الاجبارية والمشاركة فى الحروب البعيدة، ومنها على الاخص ثقل الضرائب المجحفة ، وسوء معاملة المكلفين باستخلاصها ، وكثرة سرقات وكلاء خزينة الدولة . وكان حرص القرطاجيين على المال لاحد له ، فكان يحلهم هذا الاضطراب على ارتكاب

المظالم ، والتعدي والاهانات والتطرف في السدة ، الشيء الذي دفع
الرعايا الليبيين اكثر من مرة الى التمرد والثورة .

فقد كانوا ثاروا مرة اولى في نهاية القرن الرابع (سنة ٣٩٦) بعد
كارثة سرقوسة ، لما فر القائد خيملكن وولى الادبار مستصحبا معه
مواطنيه من القرطاجيين فقط ، وترك بقية جنوده من الرعايا الليبيين
في قبضة العدو عرضة للتعذيب والقتل ٠٠٠

فاغضبت هذه الخيانة كافة الليبيين بافريقية ، واوغرت صدورهم
غيظا ، فاتجه مائتا الف من الثوار نحو مدينة قرطاج ، وطوقوها ،
وحاصروها ، وضيقوا عليها الحناق ، بعدما استولوا على تونس ،
واحرزوا على كثير من الانتصارات .

وثاروا مرة اخرى في سنة (٣٧٨) اثر انتشار مرض الطاعون في
المدينة ، وهو مرض الوباء الذي وقع جلبيه من سرقوسة .

وتحردوا لما حل اغاثو قليس بالاراضي الافريقية ، وتمردوا لما
جاء روغولوس ، وتمردوا وعاثوا فسادا ورفعوا راية العصيان في
كل مناسبة راوا فيها القرطاجيين في موقف حرج يندرها بالخطر .

وفى كل مرة يقع قمع هذه الثورات بمنتهى الوحشية والصرامة ،
الشيء الذي كون في النفوس احقادا وضغائن ازدادت يوما فيوما
وتناقلتها الالهالي جيلا بعد جيل ٠٠٠ الى ان ناداهم (ماطوس) وصاح
فيهم صحبته الداوية ، فهرعوا اليه من كل جانب ، وتضامن معه
كل الليبيين ، وايدوه ، وصاروا من حزبه ، ما عدى بنزرت واوتيكة
فانهما اخلصت الولاء الى قرطاج .

ولم تنس النسوة الليبيات ما كانت تفعله حكومة قرطاج بابائهن
وبعولتهن ، وما كانت تتركبه من الفضائح والوان التعذيب ، فاردن
المشاركة في المقاومة ، وتبرعن من تلقاء انفسهن وبدون تردد ، بجميع
حليهن وزينتتهن وبكل غال لديهن . فتجمعت عنده ماطوس
واسبنديوس اموال كثيرة لدفع ما كان يطلبه الجنود من اجورهم ،
ولمجابهة المصاريف اللازمة للمقاومة والكفاح .

وقسم الزعماء قواتهم ، فسيروا جيشا لمحاصرة اوتيكة ، وجيشا
آخر لحصار بنزرت ، واقامت فرق اخرى بمعسكر تونس تحت قيادة
ماطوس لعزل قرطاج ومنعها من كل اتصال بالخارج . (سنة ٢٤٠)

وقد نجح ماطوس في مهمته كل النجاح ، وضيق الخناق على قرطاج ، وسد في وجهها كل الابواب والمنافذ ، واقام جنوده بالجبال المحيطة بالمدينة من جهه ، وبالجسر الوحيد الذى كان منصوبا على وادى مجردة والذى كان الممر الوحيد فى ذلك التاريخ . فكان من المستحيل لا على جيش او فرقة او جماعة من الناس فحسب ، بل حتى على رجل بمفرده ان يتسلل او يحاول مغافلة الحرس والخروج من المدينة ، بل كان يؤخذ ويقتل لا محالة مهما بالغ فى التحفظ والحذر والفتنة . وكان اسبندىوس مكلفا بحراسة الجسر على راس جيش قوى . وكانوا زيادة على ذلك يلقون القرطاجيين ويتغلبون عليهم فى كل مناسبة بحرب المناوشات والكر والفر ، ونحن نعلم شدة براعتهم فى ذلك .

وبعد محاولات كثيرة فاشلة لتجات حكومة قرطاج فى نهاية الامر الى قائدها المشهور (عملقرط برقة) وكلفته بقمع الثورة وكبح جماح المقاومين . فالف جيشا يتركب من عشرة آلاف جندى واخذ معه سبعين من الافياء وجعل يفكر فى حيلة للخروج بهم من قرطاج ونحن نعلم ما كان يمتاز به هذا القائد العظيم من الدهاء والمقدرة . فقد لاحظ ان مصب وادى مجردة يمتلىء رمالا كلما هبت رياح شرقية وكذلك تتكدس الرمال وتتجمع على طول الساحل ، فيمكن حينئذ العبور من ذلك المكان بسهولة ، والخروج الى وراء الضفة الشمالية من النهر بدون حاجة الى السباحة . فلم يبح بذلك الى اى انسان ، بل ترك الامر مكتوما فى سره ، وامر جيشه بان يكون مستعدا وعلى اهبة للرحيل ، وبقي ينتظر الوقت المناسب الى ان جاءت الفرصة التى كان يترقبها ، فتسرع فى تنفيذ خطته ليلا تحت جناح الظلام ، وخرج برجاله من قرطاج بدون ان يلفت اليه الانظار . ولما اتى الصباح كان عملقرط يسير بجنوده متجها نحو الجسر .

اما اسبندىوس فانه لما بلغه الخبر لم يتردد لحظة واحدة بل استعد فى الحين للقتال ، وتقدم على راس جيش اول قادم من الجسر فيه ١٠,٠٠٠ مقاتل، وجيش ثان قادم من معسكر اوتيكه فيه ١٥,٠٠٠ مقاتل ، وكان ينوى استعمال الجيشين معا لتطويق القرطاجيين ومحققهم بين فكين من حديد .

وكان عملقرط قد نظم جيشه على الصورة التالية :

— الافياء الى المقدمة

- ويليهما الفرسان
- ثم فرقة المشاة الخفيفة (بأسلحة خفيفة)
- ثم فرقة المشاة الثقيلة (بأسلحة ثقيلة)

ولما رأى الاعداء هاجمين عليه من اليمين ومن الشمال، امر المقدمة بالتهقير بسرعة الى الوراء وجعل المؤخرة تنقسم الى قسمين وتقوم بحركة دائرة ليواجه قسم منها الجيش القادم من الجسر ، ويواجه القسم الاخر الجيش القادم من اوتيكة

ووقع كل ذلك بسرعة وترتيب ونظام محكم وبكيفية لم يتوقعها اسبندايوس وجنوده ، بل كانوا يظنون تهقير المقدمة فرارا وانهم اذا قطعوا فيهم وهجموا عليهم فلم يشعروا الا وهم امام فرفة المشاة الثقيلة اى امام جنود مدججين بالاسلحة فولوا الادبار وقتل منهم ستة آلاف ، واسر المغان ولاذ الباقون بالفرار

وبادر عملقرط الى جسر مجردة فاقام عليه جماعة من رجاله يحرسونه اما ماطوس فانه امر اسبندايوس واطاريت باقتفاء اثر القائد عملقرط وبتتبع حركاته ، وسار بنفسه الى حصار بنزرت ، واستمر ذلك الحصار الى ان انضمت اليه تلك المدينة وكذلك اوتيكة

اما عملقرط فقد انضم اليه امير نوميدى خطير يدعى (نارواس) مع عتشرين الفا من فرسانه الشجعان ، فكان من اكبر اعزاده ومساعديه ، اعانه على التغلب على اعدائه حتى النصر النهائي .

ونفهم من ذلك ان سبب نجاة الاستعمار اليونيقى من الدمار والانهيال ، وسبب خروجه سالما من هذه الثورة التى تركت ذكرا مشهورا فى التاريخ ، لم يكن سوى وجود الانقسام والمعاكسة والمزاحمة فى صفوف الافريقيين . وان هذا التناحر الذى لا يمكن تكرار وجوده هو الذى طالما عرفل المساعى نحو التحرير ، وجعل كل الجهودات فى هذا الميدان تذهب ادراج الرياح .

تم وقعت بين عملقرط واسبندايوس معركة اخرى دارت رحاها بنفريس (Néphérís) او (خنفة الحجاج) قرب زغوان ، انهزم فيها الثوار تاركين ١٠ ٠٠٠ من القتلى و ٤ ٠٠٠ من الاسراء . اما اسبندايوس واطاريت فقد لاذا بالفرار ، واطلق عملقرط سراح الماسوريين وصار يحرض الناس على ترك الثورة ويجلبهم اليه بكلامه المعسول .

وعقد الزعماء الثلاثة اجتماعا اثر ذلك استدعوا اليه جميع الثوار، وقرروا العزم اثناءه على مواصلة الكفاح بكل شدة وعنف وعلى التكنيل بكل من يقع فى قبضتهم من القرطاجيين ، وتعذيبهم بجميع انواع العذاب ، وقتلهم بعد ذلك شر قتلة ، وصرخوا بان كل من يرى رايًا يخالف ذلك يعتبر من الخونة ولا يستحق الا القتل . وفى ذلك الوقت وقف عدد من الحاضرين لياخذوا الكلمة ويبيّنوا نظريتهم فى الموضوع ، فصاح احد الثوار : (اضرب ! واذا بهم اشلاء ممزقة وجثث هامة ...

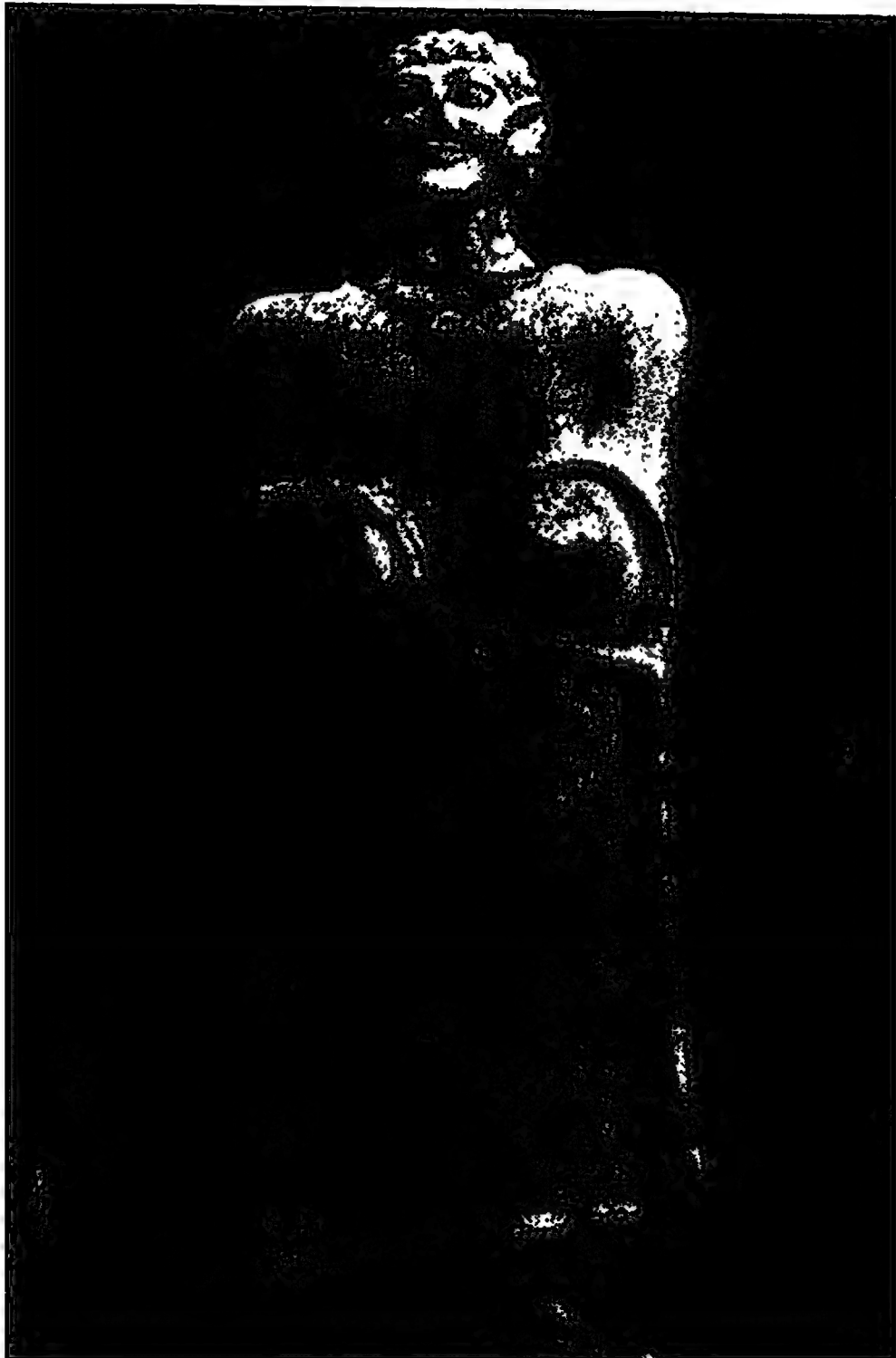
ثم جمع ماطوس واسبندوس جماعة من المقاتلين الابطال ومن بينهم فرقة يراسها فارس ليبي مغوار يسمى (زرجاس) فاخذوا يضيقون السبل على عملقراط متحاشين ملاقاته فى السهول المنبسطة خوفا من افياله ومن فرسان نارواس، ولكنهم كانوا يبوءون غالبا بالغشيل والحسرة ، ولا يقدرون ان يقيسوا انفسهم بقائد عظيم ومحنك من نوع عملقراط .

وفى آخر الامر جعل هذا الداهية بمناوراته العجيبة يدفع اعداءه شيئا فشيئا نحو جهة معينة الى ان الجاهم الى مضيق عظيم كان يسمى فجج المنشار (Défilé de la Scie) وهو مكان موجود على بعد ستة عشر كيلومترا غربى الحمامات وعلى مسلك قديم كان يربط تلك المدينة وزغوان ، تحيط به جبال تشبه قممها اسنان المنشار (جبل الجديدي وجبل منزل موسى ٠٠٠) وهناك حاصرهم ، وقطع مواصلاتهم حتى هلكوا عن آخرهم جوعا وعطشا ، وكانوا اربعين الفا او يزيدون . ولأجل ما امتازت به هذه الحرب من قساوة فاحشة ووحشية فضيعة تاباها الانسانية صارت تلقب فى التاريخ باسم الحرب التى لا تغتفر (la guerre inexpiable)

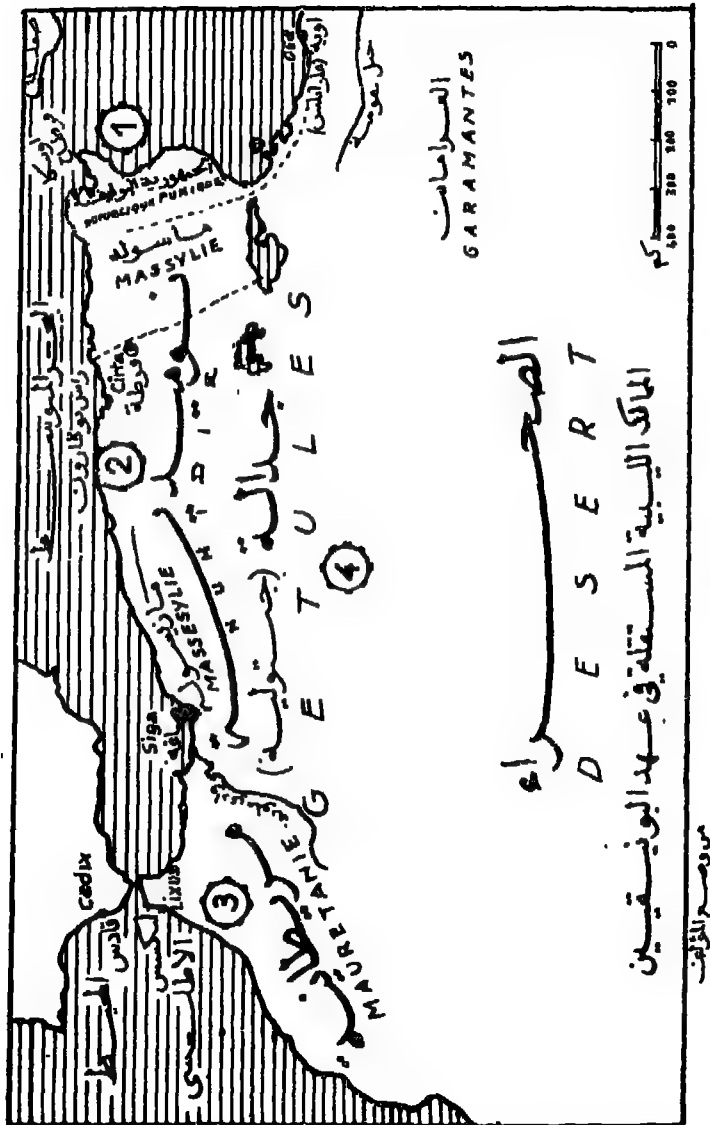
ولم يبق سوى ماطوس فى معسكره بتونس . فسار اليه عملقراط ومعه رفيقه نارواس وحاصراه محاصرة شديدة ودورا به الجنود من كل جانب ، وجعلا جيشا فوق تلال البلفيدير ، وجيشا آخر تحت قيادة عملقراط بين بحيرة تونس وسبخة السجومي ، لكن ماطوس تمكن من الافلات وتخلص من شرهم .

فاستمر عملقراط يقتفى اثره الى ان دارت بينهما معركة حاسمة قرب لمطة دافع فيها زعيم الثورة الليبية دفاع الابطال ، لكنه وقع اسيرا فى قبضة اعدائه . فاخذوه الى قرطاج حيث عذبوه عذابا مبرحا ، ومثلوا به تمثيلا فظيحا فاحشا ، ثم اعدموه وسط جذل القرطاجيين

لوحة ٥٢
انظر الصفحة رقم ١٦٣ من هذا الكتاب



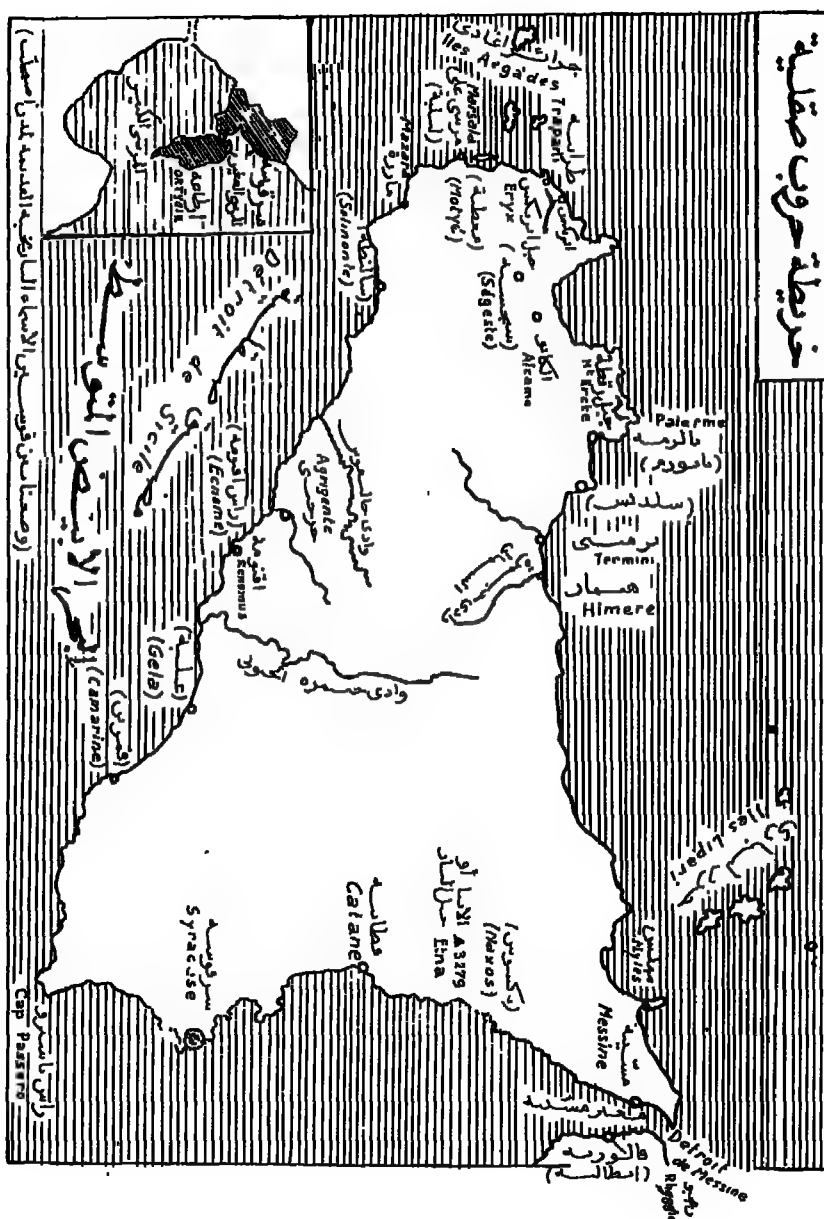
لوحة ٥٣
انظر الصفحة رقم ١٧٤ من هذا الكتاب



اصلاح خط : علوا ، افرا (واس بوترعون) عوض واس بوقادون)

من وضع المؤلف

انظر الصفحة رقم ١٨٤ من هذا الكتاب



لوحة ٥٥
انظر الصفحة رقم ٢٠٢ من هذا الكتاب



خريطة ثورة الجند الماجور ومعارك التحرير

بدأ هذا الكلاخ التحريرى فى نهاية سنة ٢٤١ وانتهى فى بداية سنة ٢٣٧ ودام
ثلاث سنوات واربعة اشهر

وفررحهم (سنة ٢٣٧) وكانت رومة انناء هذه الحرب الداخلية بافريقية تلازم الحيات ، بل كانت تظهر شيئا من العطف نحو قرطاج وكانت تمدها احيانا بقليل من المساعدة . غير انها في مقابل ذلك مدت يدها الى سردينية وكرسيكة وضمتها الى امبراطوريتها بلاحرب ولاقتال (سنة ٢٣٧)

وبموت ماطوس خمدت النورة ، وتنفس قرطاج الصعداء ، وصارت تفكر في تحسين حالتها السيئة ، وفي تعويض ما فقدته (صقلية وسردينية وكرسيكة) بتوسع جديد وبلاستيلاء على جبال الفضة بالاراضي الاسبانية .

- ب) الاستعمار البونيقي باسبانية -

ان عملقرط كان يريد ان يجعل الاستيلاء على اسبانية وسيلة لاعداد مقاومة جديدة وحرب ثانية ضد اعدائه الرومانيين . فان مناجم الفضة التي لا ينضب لمينها تجعله في مأمن من قلة النقود والدرهم ، الشيء الذي عرقل الاعمال في الحروب المتقدمة وكان سببا في الحيرة والفشل وان مناجم البشر تجعله يجند جنوده بكل سهولة ، ويجمع رجاله من بين رعاياه الجدد . ومن جهة اخرى فان اسبانية بعيدة عن قرطاج فلا يخشى من الحكومة البونيقية مراقبة تنسجم منها روائح الحسد والريية والشكوك ، وهي كذلك بعيدة عن رومة ، فلا يخاف من اعدائه تدخلا مسلحا يعرقل اعماله في بدايتها .

وبطلع النظر عن هذه الاسباب ، فان قرطاج كانت في حاجة ملحة الى وضع يدها على اسبانية لتفتح اسواقا تجارية جديدة ، ولتستغل مناجم الفضة لفائدها وعلى الاخص لتسد الغرامة الحربية التي التزمت بدفعها للغالب .

فبعدها نزل عملقرط بميناء قادس باسبانية سنة ٢٣٧ ، قضى تسع سنوات في القتال تارة والتفاوض اخرى ، فاخضع عددا كبيرا من القبائل والشعوب ، وعلى الاخص اقوام (التردوليين) المقيمين على الوادى الكبير واقوام (البسطلويين) المقيمين بالسواحل الجنوبية وانشأ قاعدة جديدة لغزواته وهي (اقرالوقه) (Acra Leuca) التي كان يسميها الرومان (لوقنتم) وهي قريبة من مدينة اليقنته (Alicante) ، ومن راس النوء (Cap Nao) واستمر في غزواته الى ان قتل في احدى المعارك سنة ٢٢٨

فخلفه في القيادة صهره صدربل . فاخذ بثار عملقرط ، وتمادى

فى الغزو والقتال والفتوحات واخضاع الشعوب ، ولكنه كان فى الغالب يصل الى غاياته باللين والاقناع والوسائل السلمية ، وهو ما يمكن ان نسميه بالغزو الادبى ، فنراه مثلاً يتزوج بابنة احد الملوك الايبيريين ليجعله من جانبه ، ونراه يؤسس عاصمة جديدة قرب مناجم الفضة ، ويسمىها (قرطاجنة) وينشئ فيها المعامل ، والمشاغل، والمصانع البحرية للسفن ، ودارا لضرب السكة، ويحصنها بالاسوار المنيعة ويبنى فيها قصرا من افخم القصور .

وامتد نفوذه الى نهر الآبرو (L'Ebre) ولما اراد غزو مدينة صاغنتة (Sagonte) استنجد سكانها برومة ، وكان ديبب الخيرة من هذا النصر المتعاقب يدب ويسرى فى عروقها ، فخفت ار حاية الصاغنتيين ، واقبلت على اسبانية تنذر بالشر الداهم ان مس حليفتها سوء ، او اصاب اهلها ضرر .

وجرت المفاوضات بين رومة وصدر بعل حتى انتهت بعقد معاهدة سنة ٢٢٦ نصت على ان يكون نهر الابرو حداً خاصلاً لا ينفى ان تتجاوزه قرطاج فى فتوحاتها شرقاً .

ولبث صدر بعل ثمانية اعوام وهو مستمر فى انتصاراته وبسط نفوذه الى ان اغتاله احد افراد القبائل السلتيه سنة ٢٢١

وخلفه فى القيادة حنبعل الشهير المذكر ، والذائع الصيت فى التاريخ ، وهو اكبر ابناء عمقرط برقة ، وكان عمره اذ ذاك ستة وعشرين عاماً . وكان الجيش يحبه الى حد العبادة والتقديس ، فاختروه للقيادة بالهتاف الحار وبدون تصويت .

ولما كان حنبعل صبياً لا يتجاوز عمره تسعة اعوام ، تقدم به ابوه الى المذبح المقدس حيث كان يقدم الضحايا قربانا للالهة بمناسبة تاهبه للرحيل الى اسبانية ، وطلب اليه ان يضع يده على الضحية ويقسم ان لا يخلو قلبه من بغض الرومان وكراهيتهم ما دام حياً . وسترينا الايام ان هذا الطفل سيبر بيمينه ، وسيلبث طول حياته يرسل عليهم الخوف والجزع ، ويملا قلوبهم بالرعب والفزع .

شرع القائد حنبعل فى مواصلة الفتوحات والانتصارات ، وكان مثل صدر بعل متزوجاً بامرأة اسبانية قسطنطية .

وفي سنة ٢١٩ سار الى حصار مدينة (صاغنتة) (١) الماخلة بدون مبرر شرعى تحت حماية رومة ، اذ هي كائنة جنوب نهر الابرو وحينئذ في منطقة نفوذ البونيقيين داخل الحدود المتفق عليها بما يزيد على خمسين ميلا (١٢٥ كيلو مترا) ودام هذا الحصار مدة ثمانية اشهر ، من الربيع الى الشتاء ، ثم سقطت المدينة في قبضة حنبعل ، وكانت صاغنتة مدة الحصار تستغيث وتستنجد برومة ، وهذا الذي اعتبره الرومانيون تحديا واعتداء هو الذي كان سببا في اشعال نار الفتنة من جديد ، وفي اعلان الحرب البونيقية الثانية

وارسلت رومة وفدا الى قرطاج للتفاوض في (مشكل صاغنتة) ، وتقدم الوفد الى اعضاء المجلس القرطاجي والقي عليهم السؤال التالي : « هل كان غزو حنبعل لمدينة صاغنتة تنفيذا لامر الحكومة ؟ » فابى المجلس ان يجيب اجابة صريحة ، وتملص مندوبه بالقول : « ان المعاهدة بين رومة وقرطاج لم يرد فيها نص بشأن صاغنتة » .

وعند ذلك طرح قنتوس فابيوس (Quintus Fabius) مندوب الوفد الروماني بديل ثوبه طبق عادتهم المألوفة ثم اشار بيده الى غضون ذلك الثوب قائلا :

« هنا الحرب ، وهنا السلم ، فماذا تريدون ؟ »

فارتفعت في المجلس صيحة تنطق بالتحدي الصارخ :

« انتم وما تشتهون ! »

فجمع مندوب الوفد الروماني ذيل ثوبه في قبضة يده ، وقذف به في وجوه الاعضاء القرطاجيين ، وقد تجسست في سحنه معالم الغضب والتحدى ، وقال : « الحرب تخيرنا ! »

فانطلقت اصوات الاعضاء صارخة : « قبلناها وسنصليكم ناراها »

الحرب البونيقية الثانية وحنبعل

بدأت هذه الحرب سنة ٢١٨ ، وانتهت سنة ٢٠١ : فدامت ١٨ عاما

١ - الحرب بايطالية

٢١٨ : ♦ في شهر ماي ٢١٨ خرج حنبعل من قرطاجنة في ستين الفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان و ٣٧ من الافياء .

(١) هي مدينة مرفيادرو الان (Murviedro) على الساحل الشرقي من اسبانية وجنوب نهر الابرو .

♦ قطع نهر الابرو واخضع الشعوب التي كانت تعيش بين ذلك النهر وجبال البيرنيت ، وبذلك تم استيلاؤه على كامل شبه الجزيرة تقريبا .

♦ ثم اقتحم جبال البيرنيت وتابع سيره الى شمال مصب نهر الرون الى شمال الدلتا ، فعبّرت جنوده وافياله فوق الارماث .
♦ وعند ذلك ارادت بعض القبائل الغالية المقيمة على الجانب المقابل ان تصده على التقدم ، فاستعمل معهم حنبعل دهاءه الحربى وبسدد شملهم (شهر اوت)

طفولة حنبعل



تمثال من البرنز
(١٨٦٩) يمثل
حنبعل وهو يفتق
نسرا كبيرا (رومة)
بكل همه وعزيمة
معاولا قتله .

وهو تمثال نادر
للنحات ايبينى يحسم
لنا ثبات حنبعل
وقوته وشجاعته
وشدة بنفسه
للموماليين . اما
النسر فهو آية
واعجوبة فى نحت
وفى مطابقتها لما جاء
فى علم الطيور .

♦ ثم جنح شمالا صاعدا على ضفاف نهر الرون حتى لا يلتقى بالجيش الرومانى الذى نزل فى ذلك النهر من مصبه الشرقى قادما من ايطالية عبر البحر تحت قيادة بيبليوس شيبون (والد شيبون الافريقى بطل جامعة) . وكان حنبعل يتحاشى الدخول فى معركة معه خوفا من اضاعه الوقت ، وذلك لان الحريف كان على الابواب ، ولا يمكن اجتياز جبال الالب الشاهقة فى ذلك الفصل بسبب تراكم الثلوج . وتعداى حنبعل فى سيره الى ملتقى نهر الرون بساعده الايزير .

♦ ثم تسلك برجاله وافياله واخراسه جبال الالب المخيفة ، واجتازها بعد اتعاب تشيب من هولها الرؤوس . ومن الصعب على كل واحد لم

ير جبال الآلب رأى العين ان يتصور او يتخيل في ذهنه حقيقة جمالها وعظمتها وهول منحدراتها • فان اعالي جبال الآلب وصفوحها حوالى القمم فى شتاء دائم ، وان ذروة الجبل الابيض مغطاة كامل السنة ببساط سحيك من الثلج •

فتصحيم حنبعل على اقتياد جيش جرار الى ايطالية عبر جبال الآلب ، بدلا من نقل الجنود على الجوارى فى البحر ، كان ولايزال معدودا من اعظم الاعمال واشدها جسارة •

♦ ولما وصل حنبعل الى معبر ضيق بجبال الآلب وهو فج سان برنارد الاصغر (Col petit St Bernard) الذى يبلغ ارتفاعه ٢١٥٧ م (١)

قاومه الجيليون المكلفون بحراسة ذلك المكان ، وصاروا يقذفونهم بالصخور ، فاهلكوا عددا كبيرا من الخيل والرجال والافياء •

ولما خرج حنبعل من تلك الجبال سالما بعد خمسة اشهر قضاه فى المسير ، منها خمسة عشر يوما فى تلك الجبال ، لم يبق معه سوى عشرين الفا من المشاة ، وستة الاف من الفرسان ، وواحد وعشرين من الافياء •

٢١٧ • وبعد نزوله من الجبال اخذ مع رجاله نصيبا من الراحة كانوا فى اشد الحاجة اليه تم دخلوا بلاد الطلبان فبدات بذلك المعارك والحروب نذكر اهمها :

♦ معركة تيسينو : (Bataille de Ticino)

فى الوقت الذى تقدم فيه حنبعل نحو سهول (بو) بايطالية ، اتجه بيبليوس شبيون نحو ضفاف نهر تيسينو (ساعدة بو من جهة اليسار) ليمنع القرطاجيين من عبوره • وشبيون هذا هو الذى كنا رايناه وتحدثنا عنه وقلنا انه دخل مصب نهر الرون ، فتحاشاه حنبعل خوفا من اضاعة الوقت فى محاربته • فقد رجع هذا القائد الرومانى على اعقابه ليمنع حنبعل من الدخول الى ايطاليا • لكن حنبعل ارسل عليه فرسانه النوميديين الابطال ، غربى نهر تيسينو وبفضل

(١) قد وقع خلاف فى ذلك بين المؤرخين ، وهناك ما يقرب من اربعمائة دراسة حول هذا الموضوع لمعرفة المكان الذى مر منه حنبعل وضبطه بغاية التدقيق • فهناك من يقول انه مر بفج سان برنارد الاصغر Col Petit St Bernard وهو ما ذهبنا اليه ، وهناك من يقول : بل مر بسان برنارد الاكبر Col Grand St. Bernard ، او جبل اجنيس Col Mont Cénis ، او فج الاجنيس Col d'Argentière او جبل جينيفر Col de La Traversette او فج ترافرسات M^t Genève (انظروا هذه الفجوج الستة على خريطة جبال الآلب بهذا الكتاب)

مناورات موفقة وحركات دائرة ، طوقوه تماما وهزموا جنوده واتخذوه جراحا بليغة ، ولولا شجاعة ابنه الشاب كورنيليوس (وهو الذى سيصير شبيون الافريقى بطل جامعة) ولولا وجوده هناك حتى اسرع لنجدته ، وحمله وعالجه لكان من الهالكين .

وهذا الانتصار الباهر الذى شاهده وعايه الغاليون بتلك الجهة ممكن حنبعل من تجنيد عدد كبير منهم انضموا اليه طمعا فى السلب والتهب ، وكانوا مبهوتين ومندهشين من قدرته وشجاعته التى لم يروا لها مثيلا . ولولا هؤلاء الجنود لكان من العسير عليه مواصلة الكفاح ضد الرومانيين

ولو ان حنبعل لم يفكر قط فى غزو ايطالية بالعدد القليل من رجاله وهو يعلم علم اليقين ان عدوته رومة يمكن لها ان تجمع بسهولة نحو ٧٥٠٠٠٠ مقاتل ، بل كان قصده الذى يفكر فيه فى سره هو القضاء شيئا فشيئا على وحدة ايطالية السياسية وتفكيك عرى تلك الوحدة . فلقد كان يريد ان يدرك هدفا سياسيا بوسائل حربية . فتلك الوحدة المبنية على اشتراك المصالح ، وعلى الايمان والغريزة الاجتماعية فى البشر ، يمكن تهديمها بمعاول الخوف والرعبة والشك والانانية ، وعند ذلك يكون له من الاعوان والانصار بقدر ما يتمنى وزيادة ولذلك كان حنبعل يصرح للايطاليين الخاضعين لحكومة رومة بانه نم ياتهم كعدو ، بل اتاهم ليخلصهم من نير الاستعمار الرومانى . وكان يطلب منهم ان يقولوا ذلك لآخوانهم ، وان يبنوا هذه الدعاية فيهم وان ينضموا اليه جميعا لفائدتهم فكانت سياسة حنبعل نفس سياسة بيروس من قبله تماما

♦ معركة ثربية (Bataille de Trebbia)

ثربية نهر جرافى من السواعد الموجودة على يمين بو . التقى حنبعل بجيش الفنصل الثانى سبروتىوس، زميل الفنصل الجريج بيبليوس شبيون، على ضفاف ذلك النهر فى يوم قر كئير الثلوج من ايام الشتاء فانتصر عليه ايضا بدهائه وحيله الحربية وقتل الكثير من جنوده واغرق الباقيين فى ذلك النهر

♦ معركة ترزيمان (lac de Trasimène)

اجتاز حنبعل بصعوبة كثيرة جبال الابينان بايطالية (Apennin)

ولما اراد عبور وادى ارنو (l'Arno) كان هذا الوادى طاغيا لتدفق المياه اليه من الثلوج التى كانت تذوب فوق قمم الجبال . وفى الواقع كانت هذه الجهة عبارة عن مستنقعات وآجام شاسعة يصعب المسير فيها . ومع ذلك فقد صمم حنبعل على اجتيازها مهما كانت التكاليف ، فعرض جيشه لاقتحام صعوبات واطار كثيرة وكان حنبعل يسير وسط المياه وهو راكب الفيل الوحيد الذى تبقى معه ، وكان حنبعل اذ ذاك مريضا اصيب بتورم فى عينه حتى انه فقدها ولذلك لقبه الرومانيون بالقائد الاعور le Chef Borgne

ثم بعد ما خرج حنبعل من تلك البحيرة التى كانت تعرف فى القديم باسم بحيرة ترزيمان وصارت اليوم تسمى بحيرة بيروزة Lac de Pérouse التقى بجيوش الفنصل (افلامينوس) فحاصروهم فى مضيق كائن بين الجبال الشاهقة من جهة وبحيرة ترزيمان من جهة اخرى ، وكانوا ثلاثين الفا ، فهلك نصفهم واسر النصف الباقي اما الفنصل افلامينوس فقد قضى نحبه فى تلك المعركة

سياسة الثانى

• وبعد هذه الكوارث والهزائم المتوالية عدلت الحكومة عن محاولة الدفاع عن ايطالية ، وحصرت قوتها ونشاطها فى الدفاع عن مدينة رومة ، مثلما راينا القرطاجيين يتركون اعاثوقليس وروغلوس يفعلان ما يريدان فى افريقية ويعينان فى الارض فسادا ، ويقتصرون على الدفاع عن مدينة قرطاج .

• وسلمت رومة قيادتها الى جندى حنكته التجارب ، ومارس الحرب ، وعرف اسرارها ، وصار ماهرا فى فتنونها ، ونصبتها ديكتاتورا (١) لا يحاسب عما يفعل ، ذلك هو كانتوس فابيوس ماكسيموس (Quintus Fabius Maximus)

(١) الديكتاتور (Dictator) ان نظام الحكومة برومة نظام برلماني ، لكن فى الاوقات الحرجة ، عند ما يشتد الخطر يعين الفنصلان حاكما خاصا يسمى الديكتاتور ويقلدانه سلطة مطلقة اكثر من اى ملك ، فيتصرف فى الامور تصرف العاهل فى النفوذ المطلق ، ويبت فيها كما شاء حسبما يراه بدون استشارة مجلس الشيوخ او الشعب ولا تتجاوز مدة عمله ستة اشهر ، ولا يحاسب عما يفعل لا فى مدة وظيفته ولا بعدها الا فيما يتعلق بخزينة الدولة .

وقد اقتنت حكومة قرطاج برومة لما قلت حنبعل النفوذ المطلق وعينته ديكتاتورا فى الحرب البونيقية الثانية (انظروا ذلك فى مكانه)

وكانت الحطة التي دبرها فابيوس وشرع في تنفيذها ، تركز على نظرية صحيحة ومعقولة ، وهو ان حنبعل لا يمكن له ان يتصل في المستقبل بمدد او نجدة ، وسوف يصبح عاجزا في النهاية عن تموين جيشه ، خصوصا وقد اتلف كل شيء حوله ، ولم يكتف فابيوس بذلك بل اصدر الاوامر والتعليمات لسكان جميع جهات ايطالية ليهجروا منازلهم ، ويحرقوا زرعهم وما عندهم من مؤونة وذخر ، وليلتجؤوا الى الحصون والقلاع ولذلك يرى فابيوس انه من الاحسن اجتناب الاشنباك والتصادم مع حنبعل في معركة منظمة والاقتصار على اقتفاء آثاره في كل مكان ، وملازمته ملازمة ظله ، لمضايقته بقدر الامكان ، وعرقلة اعماله بجميع الوسائل وتعطيل نشاطه من بعيد ، وترك الحوادث فيما عدى ذلك تجري مجراها وتسير سيرة .

وذلك لان فابيوس كان يتحقق تفوق فرسان حنبعل على فرسانه فلم يرتكب خطأ من سبقه من المسؤولين مثل شبليون ، وسبرونيوس وافلامينيوس الذين قبلوا المعركة وخسروها ، بل الحرب الذي اختارها واعدها فابيوس كانت حرب افناء بالوقت وطول المدة لاجرب ابادته بالسلاح والمعارك ، فكان يتتبع آثار حنبعل من بعيد ، ويراقب اعماله عن كثب ، وينتصر عليه في مناوشات كثيرة ، ويتركه هكذا يفرغ شيئا فشيئا ما عنده من جد وجهد الى ان يرمى آخر سهم في كنانته وعند ذلك يحكن الانتصار عليه بكل سهولة .

• وشامت الاقدار ان يصل حنبعل اثناء غزواته الى اغنى مكان عرفته الدنيا في زراعة الكروم ، وهذا المكان هو «سهل فالرنة» (Plaine de Falerne) ما بين قالة Culex والبحر فشرع في تخريبه واتلافه كما فعل بغيره من الاماكن وكان فابيوس يتتبع حركاته وسكناته من بعيد كما ذكرناه ، ويعرف ان حنبعل لا بد له من المرور بفج في جبل قاليقولة (Mont Callicula) فمكث في انتظاره امام ذلك المخنق الضيق معتقدا كل الاعتقاد انه ظفر بعدوه في هذه المرة ، وان ساعة النصر قد دقت ، وان حنبعل اصبح في قبضة يده اسيرا .

لكن حنبعل كان خصب القريحة ، سريع البديهة لا يرتضى في الفخ مثلما توهمه فابيوس بل يوجد عليه ذهنه بانواع شتى من الحيل

والمكايد فى اشد اوقات الضيق ، فما احس بتحرج الموقف حتى هيا
الحيلة التى تفتح له ولجيشه باب النجاة والخلص . فلم يتورط فى
ذلك الممر الضيق بل استراح قليلا الى ان اتى الليل وجن الظلام . .
وفى ساعة متأخرة من الليل لاحظ فابيوس الجنود القرطاجية
وهم يتسلقون سفح الجبل على ضوء مشاعل كثيرة اوقدوها ، وكانوا
يسرعون فى مشيتهم ، واحيانا يعدون عدوا ، ويظهر عليهم شدة الهيجان
فامر رجاله بتسلى الجبل ايضا للالتحاق باعدائهم ، ولما بلغوا القمة
اندهشوا لما راوا انفسهم ، لا امام حنبعل وجنوده ، بل امام قطعان من
البقر هائمة على وجوهها ، وقرونها تحمل حزما مشتعلة من العساليج
الجافة . . .

ورأى فابيوس هذا المشهد العجيب وهو وحده فى معسكره ، فحار
فى امره ، ولم يجرؤ على ان يبرحه حتى اصبح الصباح ، ونجا
حنبعل بجيشه ، وخرج من المضيق سالما .
اما فابيوس فقد ناء بثقل هذه الصدمة ، لانها اثارت عليه خصومه
الذين اخذوا يهاجمون سياسته فى مجلس الشيوخ ، ويعيبون عليه
تفويت الفرص ، واتلاف المزارع ، وتخريب الديار ، واتهمه بعضهم
بالخيانة ومد يد المساعدة الى العدو ، واخذوا يقولون بان حنبعل لا
يمس املاكه بسوء ، وذلك لتواطئه معه . وفى الحقيقة فان سياسة
فابيوس كانت فيها نقطة ضعف لا يمكن نكرانها ، وهى كونها
تقتضى نمنا غاليا ، وتتطلب تضحيات جسيمة .
وهكذا اخذ نفوذ فابيوس يسقط ويتضاءل شيئا فشيئا ، واخذت
سياسة الاشتباك فى المعارك مع حنبعل تتغلب على سياسته ، الى ان
ظهرت براءة فابيوس ، وتبين للعيان صواب رايه وبعد نظره ورشاد
سياسته بعدما حلت بهم كارثة كانه (Cannes)

٢١٦ - مجزرة كانه

• وفى سنة ٢١٦ دارت معركة كبيرة دامية قرب مدينة كانه بين
قوات رومة وقوات حنبعل نصب فيها هذا القائد لاعدائه فخا اوقعهم فيه
عند الملحمة والاشتباك ، فطوقهم بجنوده من كل جانب ، وسد فى
وجوههم ابواب النجاة ، واجال فيهم السلاح الى ان افناهم عن
آخرهم ، وكان عددهم ٧٠ ٠٠٠ من المشاة ، و ٦ ٠٠٠ من الفرسان
ولم يخسر حنبعل فى هذه المعركة سوى ٧٠٠ ٥ مقاتل اكثرهم من
الغاليين .

• ويتعجب المؤرخون من كون حنبعل لم يستغل انتصاراته المتوالية ، ولم يستثمر على الاخص هذا الفوز الباهر بكافة اللزحف على رومة وهى فى حالة دهشة وذهول وارتباك • فهناك واقع او تاثير ابيكولوجى لم يستفد منه حنبعل ليضرب ضربته القاضية برومة •

وكذلك اصحاب حنبعل وقادته وضباطه فانهم كانوا ايضا يرون الوقت مناسباً ، والفرصة سانحة للزحف على رومة ، وكانوا قد التفتوا حوله مترقبين منه ادنى اشارة للمسير نحو العاصمة ، وكان مهربل يقول له : « اننا لقد انتصرنا انتصارا باهرا ، واني لوكد لك انك ستقيم احتفال هذا النصر بعد خمسة ايام بالكابيتول • فلننطلق فى الحين ولنفاجىء رومة حتى يعرف الرومان اننا اصبحنا فيها قبلما يعرفون اننا سائرون اليها ! »

ولكن حنبعل لم يشاركهم فى هذا التفاؤل وهذا الاندفاع ، بل كان يؤثر الثانى والاتقاد وعدم التسرع ، الشىء الذى جعل مهربل يجيبه بهذه الكلمات الماثورة : « ان الآلهة لا تهب جميع النعم لرجل واحد ، فانت تعرف طريق الوصول الى النصر ، ولكنك لا تعرف كيفية الاستفادة منه ! »

وهكذا اعتقد الناس ان حنبعل لم يكن مصيبا فى تفويت هذه الفرصة الثمينة دون ان يغتنمها وينتفع بها • ولكنه فى الواقع لم يكن مخطئا ، بل كان على حقيقة اذ كان ينظر نظرة خبير ماهر يعرف عواقب الامور ، ويقرأ لكل شىء حسابه ، ويعلم ان الاستعدادات الكافية لم تتوفر بعد للقيام بحصار طويل تحت اسوار رومة المنيعه ، وكان يابى التهور والاندفاع والقاء الجيش فى المهالك ، ويريد قبل كل شىء تحقيق الوسائل اللازمة ، واعداد العدة لضمان النجاح والنصر •

ومن الوسائل التى كان يفكر فيها حنبعل بفكره الواسع ، وينظر اليها بنظرته الشاملة ، ويسعى الى تحقيقها قبل الهجوم على رومة :

– التحادى فى تهديم الوحدة الايطالية

– جلب النجدة والمدد من افريقية

– جلب النجدة والمدد من اسبانية

– التحالف مع مقدونية

– استرجاع صقلية

وبعد تحقيق ذلك البرنامج ، وطرق جميع تلك الابواب ، يصبح

الاستيلاء على رومة من اسهل الامور وايسرها
فان حنبعل قد بنى المستقبل على عدد كبير من الآمال . وان اهم
اعتراض نعترضه عليه في هذا التفكير هو تعدد تلك الآمال وكثرتها،
اذ ان الكلية اذا تألفت من جزئيات كثيرة تصبح عرضة للتصدع في
مجموعها اذا اختلت جزئية واحدة منها .
فلنتامل في هذه النقاط الخمس لنرى هل نجح فيها حنبعل ام لم
ينجح :

(١) • تهديم الوحدة الإيطالية

ان انتصارات حنبعل وعلى الاخص فوزه الاخير في معركة كانه
اعانت حنبعل على تفكيك عرى الوحدة الإيطالية اذ دفعت القبائل في
وسط ايطالية وجنوبها والمدن الآهلة بالسكان الى عصيان رومة
والخروج من حلفها ، والانتصار له ، والانضمام اليه ، والسعى في ركابه
وما كان لهذا التقرب من سر سوى روعة النصر ، واغراء الغلبة ،
وايحاء الرهبة

ففي قابو Capoue وهي اعظم مدينة في ايطالية بعد رومة ،
بدا الشعب يظهر بالهتاف لقرطاج ، ويطلب الانضواء تحت علمها ،
ويرسل وفدا يطلب من حنبعل زيارة المدينة . ولما اتصل ذلك الوفد
بحنبعل وابلغه الدعوة ، خف الى اجابة الطلب ، واعتبر هذا النجاح
فوزا يفوق انتصاره في معركة كانه

واقام حنبعل بمدينة قابو ، وجعلها قاعدة اعماله ، بل عاصمة
تضاهى وتنافس مدينة رومة ، وعاش فيها ما يزيد عن خمسة اعوام
في نعيم ورغد من العيش ، الى ان فقد جيشه النشاط ، وادركه
الفتور والركود ، وفسده العيش بعيدا عن ميدان الحرب وساحة
القتال ، مثلما يفسد الصدا آلة من الحديد اذا تركت مدة طويلة
سدون استعجال

وهذه الايام الحلوة اللذيذة التي قضاها حنبعل بقابو مع رجاله هي
التي عبر عنها المؤرخون في شيء من التهكم بقولهم « ملذات قابو »
(Les délices de Capoue)

واتبع مصير قابو معظم الجهات بالوسط والجنوب ، وانضم سكانها
الى حزب حنبعل ، ودخلوا تحت لوائه ، فاصبح في صفه سكان
البريتيوم (Britium) وابولية (Apulie) ومعظم السحنيين (Samnites)
واللوقانيين (Lucaniens)

واستمرت بعض الجهات الاخرى في اخلاصها ولوائها للرومان مثل

نيلة Nola ونابلي (Naples) وقومة (Cumae)

ب () • جلب النجدة والمدد من افريقية

اما حنبعل فهو لم يترك الوقت يذهب سدى بل ارسل اخاه الاصغر (ماقون) الى قرطاج يطلب العون والمدد ليضرب ضربته الحاسمة فلما مثل ماقون بين يدي اعضاء مجلس الشيوخ ، شرع يصف لهم روعة المعارك والانتصارات ، ويحدثهم عن عدد القتلى والمأسورين ولم يكتف بالقول ، بل اتى بالمؤيدات والبراهين المحسوسة فصب امامهم كمية كبيرة من الخواتم التي كان يتحلى بها افراد الطبقة العليا من غرسان العدو .

ولكن ماقون ختم بيانه المتع بطلب المال والرجال للوصول الى النصر الحاسم والفوز النهائي .

فتصدى له (حنون) ونهض لمقاومته ، وكان زعيم الحزب المطالب بالسلم في مجلس الشيوخ ، وخصما لدودا لدعاة الحرب مثل آل بركة فالقى خطابا بليغا بين فيه اصراره على استنكار الحرب ، وانهال على ماقون باسئلته الحرجة التي افجسته واخرست لسانه ، فلم يجد لها جوابا : « انكم تتبجحون بالانتصارات ٠٠٠ لكنكم تطلبون مع ذلك النجدة والمدد فماذا كنتم تطلبون لو كنتم خاسرين ومنهزمين ؟ ثم هل انضمت الى جيوشكم مدينة واحدة من المدن الرومانية ؟ او رجل واحد من اللاتينيين (١) ؟ او هل اتاكم انباء من رومة تعلن عن رغبتها في طلب الصلح او في التفاوض معكم ؟ »

فلم يستطع ان يجيب ماقون عن هذه الاسئلة الا بالنفي . فقال حنون : « انكم اذن لم تتقدموا خطوة واحدة بالنسبة لليوم الذي بداتم فيه حربكم

ولذلك فانه لا يمكن لي ان وافق على ارسال مدد يكون سببا في زيادة عدد الضحايا ، وفي تكبد خسائر جديدة »

وبعد اخذ ورد وجدال طويل ، قرر المجلس ارسال مدد ضئيل كان عبارة على اربعة آلاف جندي من النوميديين ، واربعين فيلا ، ومبلغ زهيد من المال .

(١) كانت ايطالية تنقسم في ذلك الوقت الى قسمين :
اولا : الارض الرومانية (le territoire romain) بالجهة الوسطى من ايطالية ومركزها رومة ، وهي تشتمل على ٣٥ قبيلة من المواطنين
ثانيا : اما بقية ايطالية فهي تكون « الارض الحليفة » (le territoire allié) « والمدن الحليفة » (les cités alliées) وسكانها كانوا لا يعتبرون من المواطنين وكان (حنون) يقصد بكلامه القسم الاول الذي لم ينضم منه شيء الى حنبعل

فأخذ ماقون كل ذلك ، وانطلق به الى اسبانية ليؤلف جيشا
متركبا من عشرين الف جندي واربعة آلاف فارس، يذهب به الى ايطالية
ج (جلب النجدة والممد من اسبانية

كانت الحوادث تجرى باسبانية لفائدة الرومان ، فكان بوبليوس
شبيون واخوه اقناووس (١) يحرزان على انتصارات باهرة ضد
القرطاجنيين . فقد استولوا على معظم الجهات ، وتقدما الى جنوب
اسبانية ، واعادا بناء مدينة صاغنته التي كان هدمها حنبعل
ولما استعد ماقون للرحيل الى ايطاليا على راس جيش يحده حنبعل
راى المسؤولون القرطاجيون ان استخدام هذا الجيش بميادين الحرب
باسبانية يخدم قضية قرطاج ويفيد مصلحتها اكثر من ارساله
الى ايطالية

ومن جهة اخرى فان السردنيين اخذوا يظهرن لقرطاج استعدادهم
للتخلص من الاستعمار الروماني اذا وجدوا شيئا من المساعدة .
ولذلك تقرر فى النهاية ان يبقى ماقون وجيشه للحرب باسبانية
وان يجهز جيش آخر يعادله فى العدة والرجال ويسير الى سردينية
وهكذا وقع القاء جيشين كبيرين على هدفين لم تكن لهما اهمية
تذكر بالنسبة للهدف الاصلى وهو رومة . . . وقع ذلك بينما كان
حنبعل يتلطف حسرة فوق الميدان الحقيقى ، ويترقب بفارغ الصبر
اقل مساعدة للتغلب على رومة والانتصار عليها ، اذ بذلك الانتصار
يتم الفوز بسهولة فى بقية الميادين الثانوية الاخرى ، وكان لسان
حاله يقول :

(لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى !)
فلو كان هذا القائد العظيم يتصرف فى الامكانيات والوسائل
الحديثة للاتصال السريع مثل الطائرات ، والبرق ، والهاتف ،
لرايناه يقلب الارض والسماه لاقتناع حكومة قرطاج ومنعها من ارتكاب
الاغلاط الشنيعة التى تجر وراءها الولايات والمصائب ، ولكن ما حيلته
وقد عاش فى زمن لا تصل فيه الاخبار الا بعد وقوع الحوادث بمدة
طويلة ، اى بعد فوات الفرص وعندما يصبح تدارك الهفوات امرا مستحيلا
والذى زاد فى الطين بلة كارثة سردينية : فان السرية التى وقع
ارسالها الى صقلية لم تكن محظوظة ، اذ ثارت عليها الزوابع ودفعتها
الى جزر البليجار (les Baléares) ثم بعد اتعاب كبيرة وصلت امام
سردينية ، فخرج عليها القنصل (تيتوس مانوس طور قاطوس) ،

(١) الاول هو والد شبيون الافريقى بطل جامعة ، والثانى عمه

وبعد معركة عنيفة دارت الدوائر على القرطاجيين ، فقتل منهم من قتل ، واسر منهم من اسر ، ونم يسلم منهم احد .
وهكذا لم يتصل حنبعل لا بنجدة افريقية ، ولا بنجدة اسبانية ، بل كانت كلها آمالا لم تتحقق ٠٠٠ ولو سارت هذه الجنود الى ايطالية مثلما تقرر ذلك في بداية الامر ، لكانوا غيروا سير الحوادث وبدلوا مجرى التاريخ .

وقد اتى نشاط بوبليوس شبيون واخيه اقناووس باسبانية باعظم النتائج لفائدة رومة ونضر حنبعل ، لانه زيادة على الانتصارات المحلية قد سد على عاصمة الرومانيين باب البلاء والخطر ، اذ اجبر القوات القرطاجية على البقاء لمقاومته وعدم الالتحاق بحنبعل .

د (التحالف مع مقدونية

ان انتصارات حنبعل كان لها تأثيرها ووقعها في نفس فيليب المقدوني (١) ، فاخذ يسعى في التقرب الى هذا القائد القرطاجي الذي زعزع اركان رومة ، واستحر يهددها في عقر دارها . فارسل وفدا يرأسه سينوفان الايني (Xénophane) ، ونزل هذا الوفد براس لاقينومة (Cap Lacinium) بايطالية ، واخذ طريقه للاتصال بحنبعل ، لكنه وقع مع رفاقه في قبضة جنود الرومان ، فذهبوا بهم الى بريتور (٢) او قاضي (Præteur) مدينة لوقرة (Luceria)

(١) فيليب المقدوني - من سنة ٢٢٠ الى ١٧٨ - هو فيليب الخامس ملك مقدونية تحالف مع حنبعل ضد عدوتها رومة ، وحاول طرد الرومانيين من ايليرية (l'Illirie) ولكنه فشل في جميع محاولاته وجلب لنفسه عداوات كثيرة . وبعد سلسلة من النواكب والتكبت كان مضطرا الى قبول صلح مهين (٢٠٥) مع رومة التي انتصرت على قرطاج ، ثم انقلبت عليه واوقعت به سنة ٢٠٠ ق.م .

(٢) البريتور (Præteur) : بعد قبول طبقة الرعا (plébéiens) في القنصلية سنة ٣٦٧ بعد ما كانت القنصلية قبل ذلك التاريخ حيسا على جماعة الاشراف (patriciens) ، وقع في مقابل ذلك احداث هيئة قضائية جديدة خاصة بالاشراف فقط وهي البريتورية (Prætoriat) ، وفصلت السلطة القضائية المدنية عن مشمولات القنصلية التي اصبحت مشتركة ، وادخلت ضمن مشمولات تلك الهيئة الجديدة الخاصة بالاشراف ، واصبح البريتور (præteur) زميلا للقنصل (Consul) يقوم مثله وفي غيابه بحفظ نظام المدينة ، وبرئاسة مجلس الشيوخ وهيئة الالعب العمومية

وفد بدا العمل ببريتور واحد ، ثم في سنة ٢٤٢ ارتفع ذلك العدد الى اثنين ، ثم الى اربعة ، ثم ستة ، ثم ارتفع في عهد أغسطس الى عشرة ، ثم بعد ذلك الى ثمانية عشر وقد شاركت طبقة الرعا في البريتورية ايضا ابتداء من سنة ٣٣٧ ومن مشمولاتها الخاصة تسليم الراسيم وصيغ الاحكام (formules) وتعيين الحاكم ، واصدار الاوامر (édits)

وفد لعب البريتور دورا هاما في نشر الشرائع والقوانين وعلى الاخص القانون القفاني (droit prætorien, jus prætorium)

فاوهموه بانهم اتوا مبعوثين من طرف ملكهم للتفاوض مع حكومة رومة في شان عقد محالفة . فرحب القاضى بقدمهم عند ذلك ، واکرمهم غاية الاكرام ودلهم على احسن طريقة للوصول الى رومة بدون ان يصطدموا بالقرطاجيين

وبهذه الحيلة تمكن سينوفان ومن معه من الاتصال بحنبعل وابرام اتفقا على غاية من الاهمية ، قام فيه حنبعل واركاب حربه مقام الحكومة القرطاجية نفسها . وكان حنبعل يعتبر ان اتفاقا من هذا النوع خير له بكثير من انتصاره في معركة كانه . غير ان هذا الاتفاق لا يمكن ان يكون مسنوفى الشروط وقابلا للتنفيذ والنطبق الا اذا كان مديلا بتوقيع ملك مقدونية ، ولذلك رجع به سينوفان وبصحبه ثلاثة مفوضين يحتلون حنبعل لحضور المصادقة على تلك المعاهدة . وابحروا جميعا من راس لاقينومة بدون ان يعوقهم عائق ، لكن لما خرجوا من خليج تارنتة وقعوا في قبضة طرادات رومانية ، فحاول سينوفان استعمال الحيلة مرة اخرى للتخلص من الضباط ، لكن اقتضض امره بوجود القرطاجيين معه . فالقوا عليهم القبض ، وفتشوا المركب ظهرا لبطن الى ان عثروا على نص المعاهدة ، ووجهوا الجميع الى رومة . وبعد ما اجرى مجلس الشيوخ بحثا مدققا فى تلك القضية تايدت التهمة الموجهة ضدهم ، وظهرت خطورة هذه الوثيقة الديبلوماسية، وساعتظنونهم بملك مقدونية، وصارت تقرا له الفحساب ولكن فيليب الخامس لم يقف عند ذلك الحد ، بل اوخذ رسلا آخرين الى حنبعل ، فاتصلوا به ، ونجحوا فى مهمتهم كل النجاح وابرمت المعاهدة وتم التوقيع عليها من الجانبين . . . غير ان وقتا طويلا ضاع فى الذهاب ، والاياب ، والمفاهمات ، واعادة الاعمال من جديد فضاعت بذلك الفرص التحينة واصبح هذا الاتفاق فى النهاية خاليا من كل فائدة حقيقية بالنسبة لكفاح حنبعل بايطالية . . . فهو ايضا امل ضائع بنى عليه حنبعل تصميمه مثلما بناه على النجدة المنتظرة من قرطاج ، والمدد المتروك من اسبانية . . . ولكنها كانت كلها آمالا لم تتحقق !

٥) . - استرجاع صقلية

١٨١ فى صقلية فقد جدت حوادث على غاية من الاهمية ، اذ ان هيارون ملك سرقوسة كون قبل موته سنة ٢١٦ مجلس وصاية ينركب من خمسة عشر وصيا لان حفيده (هيارونيموس) كان قاصرا اذ كان عمره ١٤ عاما فقط .

وفى سنة ٢١٥ صار عمره ١٥ عاما ، فاعلن صهره ادرانودور بصفة رسمية بلوغه سن الرشد ، وحل مجلس الوصاية باستقالته منه ، فانتقلت السلطة ظاهريا الى الملك الشرعى هيارونيموس ، اما فى الحقيقة فقد تسلمها ثلاثة من اقاربه وهم : ادرانودور ، وصواب ، وثرصون ، وانقسموا من الناحية السياسية الى قسمين : فاما ثرصون فقد كان مرنكزا على الحلف الرومانى و متمسكا باذيال رومة ، واما ادرانودور وصواب وكذلك هيارونيموس فقد كانوا يحيلون الى حنبعل ويخلصون له الولاء ، وكانوا يريدون التخلص من رفيقهم الثالث ثرصون واخيرا تمكنوا من قتله والفتك بجميع انصاره بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال الملك الصغير هيارونيموس . وارسل لهم حنبعل رسولين يمثلانه وهما هيبوقراط واخوه ابيسيد الاغريقيان من الاب والقرطاجيان من الام ، وكانا يتمتعان بثقة حنبعل .

ونشأت اثر ذلك قلاقل واضطرابات كثيرة دامت الى خريف سنة ٢١٤ ، واسفرت عن قتل هيارونيموس والقضاء على كامل افراد أسرته ، اذ ذهبوا ضحية مؤمرات الحزب الجمهورى وهو الحزب الموالى لرومة ، ثم عن تدبير ثورة معاكسة للحزب الجمهورى نظمها ممثلا حنبعل وهما هيبوقراط واخوه ابيسيد . فهيجا الصقليين على الرومانيين ، وحرضاهم على التمرد والعصيان والمقاومة ، واستعاناهم على الاستيلاء على سرقوسة ، وانتهت تلك الثورة بانتخابهما واليين ، وبفرض ذلك الانتخاب من طرف الجمهور واعتباره شرعيا وان لم يكن كذلك فى الحقيقة . وكان فوزهما فوزا عظيما وانتصارا باهرا لرئيسهما حنبعل .

وكان حنبعل يقيم فى ذلك الوقت بمدينة اربينو (Arpino) جنوب ايطالية ليكون قريبا من حوادث صقلية من جهة وحوادث مقدونية من جهة اخرى ، اى من الحوادث التى كانت تهمة وتهم قضيته اكثر من كل شىء آخر .

ونحن نرى كيف توصل حنبعل بدهائه ، وبالرغم من قلة وسائله وامكانياته ، الى ربط الصلة بين اربينو وقرطاج بواسطة صقلية ، ولو ان هذا الرباط مازال واهيا وضعيفا فى بدايته ، ولكنه سوف يشتد ويقوى عندما ياتى اسطول قرطاج الذى اخذ يتاهب ويستعد للسفر الى صقليته ، وعندما تصل القوات والسفن من مقدونية طبر نص المعاهدة .

ويظهر ان حنبعل قد حسن الموقف وجعله يسمح بالتفاوض كانه
استعمل لذلك عصاة سحرية ، ولذلك كانوا يلقبونه بالساحر
(le Magicien)

لكن هل تتحقق هذه الآمال ؟ من سوء حظ حنبعل والقرطاجيين
جميعا انها كلفت مجرد آمال واحلام ، ولم يتحقق منها شيء : فلم
يات اسطول قرطاج ، ولم تصل سفن فيليب المقدوني ، ولم ترد قواته
وجيوشه . ولم تدم صقلية طويلا . تحت نفوذ حنبعل . وما حيلة هذا
القائد . وقد حسب حسابا . ودبر تدبيرا للوصول الى نصر محقق لاشك
فيه ، ولكن حالت الاقدار بينه وبين ما كان يؤمله ويتخناه . ويحلم به
طويل حيلته ؟

والذي زاد في الطين بله هو استيلاء القنصل الروماني مارسالوس
على سرقوسة سنة ٢١٦ بعد حصار طويل ورغما عن جميع الوسائل
التي ابتكرها العالم الجليل ارخميد (١) والمعونة الكبيرة التي قدمها
للدفاع .

وبعد استيلاء القوات الرومانية على سرقوسة بقليل ، اى في نفس
تلك السنة (٢١٢) قتل الشيبونان في المعارك التي دارت باسبانية
ولو شاءت الاقدار ان يكون موتها منة فقط قبل ذلك التاريخ لما
بقيت القوات القرطاجية معطلة باسبانية ، ولما وقعت سرقوسة في
قبضة الرومان ، ولسلكت حياة حنبعل وحياة شبيون الاثريقي مسلكا
آخر ، ولتغير مجرى التاريخ بصفة عامة . . .

(١) Archimède (٢٨٧/٢١٢) : عالم من اكبر علماء الدنيا
لا في زمانه فقط بل في كل الازمان ، ولد بسرقوسة وله اكتشافات علمية كثيرة
تعرف باسمه . وكان هذا العالم بقود الدفاع لما زحف الرومانيون على مسقط راسه
تحت قيادة مارسالوس . فمنعهم من الدخول ، ودام الحصار مدة ثلاثة اعوام . وكان
ارخميد اناء ذلك الحصار الطويل يبتكر آلات حربية عجيبة باستخدام اكتشافاته
العلمية . فاخترع مجانيق ضخمة تقذف النبال والحجارة من مسافة بعيدة ، واخترع
« عقارب » او ابلى من حديد ترفع السفن في الفضاء ثم تلقى بها في قعر البحر ،
او ترفع الفرسان من خيولهم وترمى بهم على الارض ، واخترع مرايا ملهبة تشعل
النار من بعيد . في مراكز المحاصرين . . . ولكن بعد ذلك الحصار الطويل والدفاع
العجيب ، تمكنت الجنود الرومانية من الدخول والاستيلاء على سرقوسة واصدر
مرسئوس الاوامر الصارمة لابقاء هذا العالم الجليل بقيد الحياة حتى لا تمتد اليه
الايدي بسوء ، ولكن قتلوه غلظا بينما كان منكبا على حل مشاكله العلمية .

ولكن الاقدار هي التي تسيّر الكون ، وهي تعز من تشاء ، وتذل
من تشاء . . .

الاسلحة التي استعملت في هذه الوقائع (انظروا الصور صفحة ٢٥٧)

المنجنيق : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لقف الحجارة او لرمى
النبال ، وكانت هذه الالة ترمى بقذائفها التي يبلغ وزنها احيانا ٨٠
كيلو غراما الى مسافة ٥٠٠ او ١٠٠٠ متر . وكانت هذه الالة
مستعملة عند الاغريق والمقدونيين والقرطاجيين والرومانيين
العرادة : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لرمى النبال والقذائف
التي لا يتجاوز وزنها ٢٥٠ رطلا على مسافة ١٢٠ او ١٥٠ مترا . وكانوا
يحملونها فوق عربة خاصة ،

الكبش : آلة من الات الحرب كانت تستعمل في الحصار وتقف
على جدران الحصون فكانها كبش ينطح ، وكانت تتركب من خشبة
طويلة وضخمة تنتهي بكتلة حديدية في شكل راس الكبش وتستعمل
اما معلقة في جهاز كالدبابة او محمولة بايدي الجنود
وقد استعملت كل هذه الالات عند العرب ايضا .

٢١٢ - الى الهاوية !

ويمكن ان نقول بانه ابتداء من سنة ٢١٢ ، اى ابتداء من سقوط
سرقوسة في قبضة الرومان ، قلب الدهر لحنبعل ظهر المجن ، فاخذ
نجم سعده في الافول ، وزهر حظه في الذبول ، وتوالت عليه النكبات
والمصائب من كل جهة وجانب :

٢١١ ● **خسر حنبعل عاصمته الاولى قابو** ، وكان اهلها تحت
حمايته ورعايته ، وكان قد وعدهم بان يجعل من مدينتهم « رومة
الجديدة » ، لكن حاصرهم الرومانيون ، وسدوا في وجوهم كل
الابواب ، وبانغوا في تجويعهم فصمدوا ، وتجلدوا ، وتدرعوا
بالصبر مدة طويلة ، وصاروا يستغيثون بحنبعل ويطلبون منه
النجدة ، وحاول هذا الاخير ان يمد لهم يد المساعدة ، واستعمل
لذلك جميع الوسائل والحيل ولكنه لم ينجح . . . وفي نهاية الامر
استسلموا الى الرومانيين ، فصبوا عليهم جام سخطهم وغضبهم ،
وانتقموا منهم شر الانتقام . وكان هذا الانتصار الروماني يعتبر
طعنة قوية ضربت شهرة حنبعل في الصميم ، واسقطته من عليائه ،
وضاعفت مطامع اعدائه

٢١١ • انتخب كرنليوس شبيون قائداً باسبانية

وبعد الاستيلاء على قابو بمدة قليلة وقع انتخاب كرنليوس شبيون وتعيينه في وظيفة بروقنصل باسبانية رغماً عن حداثة سنه ، إذ كان عمره لا يتجاوز ٢٧ عاماً .

وهنا ظهر على المسرح بطل جديد القى بسيفه في كفة الميزان .
فهذا القائد الروماني كان يتمتع بنفس الحصال التي جعلت من حنبعل البطل المفوار ، الذي لا يشق له غبار . وإذا كان حنبعل قد من الحديد ، فانه يحق لنا ان نقول اذن : ما للحديد الا الحديد !

والتحق شبيون باسبانية لقيادة الجيش مكان ابيه وعمه اللذين سقطا هناك في ميدان القتال .

٢١٠ • خسر القرطاجيون باسبانية مدينة قرطاجنة

لقد سجل شبيون باسبانية انتصارات باهرة ، واستولى على مدينة قرطاجنة الكائنة وسط مقاطعة مناجم الفضة .

٢٠٩ • خسر حنبعل بايطالية مدينة تاونته (Tarente)

وهي المدينة التي كان استولى عليها حنبعل سنة ٢١٥ اى بعد مجزرة كانه بسنة تقريبا .

٢٠٩ • خسر اخوه صدربعل باسبانية معركة باقولية (Béculte)

جهز صدربعل جيشا كبيرا ليسير به الى اخيه حنبعل بايطالية . فاعترضه شبيون واراد ان يعطله على المسير ودارت معركة بين الجانبين بجهة (باقولية) وانهزم صدربعل امام شبيون ، ولكن هذا الاخير لم يقدر على منعه من السير بجيشه الى ايطالية ، في الوقت الذي كان فيه حنبعل في اشد الحاجة الى النجدة .

٢٠٧ • سقط صدربعل قتيلا في معركة ميتور (Métaure)

سلك صدربعل نفس الطريق التي سلكها حنبعل تقريبا ، واجتاز جبال البيرينيت وتخطى جبال الالب ، ودخل ارض ايطالية ليلتحق باخيه .

ولكن القوات الرومانية داهمته قرب نهر ميتور على بحر الادرياتيقي وكان على راس تلك القوات القنصلان كلوديوس نيرو (Claudius Nero)

وليفيوس سالياتور Livius Salinator فاضطربت نار الحرب بين الأفريقين ، وكان النصر حليف الرومانيين ، وسقط صدر بعل بساحة القتال صريعا يتخبط في دمه ، ففصلوا رأسه عن جسمه ، واتقوا به في معسكر أخيه .

فلما رآه حنبعل صاح في لوعة الياس ومرارة الاسى : د آه يا قرطاج ! انى ارضح تحت عبء آلامك ! »

ونحن لا ندرى ماذا كان يخبئه القدر لو اتصل صدر بعل بأخيه ، وواصل القتال معه في هذا الوقت الذى خارت فيه رومة ، واصابها الانحلال ، وثار عليها الكثير ممن كانوا يقاتلون في صفوفها وشقوا فى وجهها عصا الطاعة ، وابوا مواصلة دفع الاموال لانهم كلوا وملوا من ذلك

ولكنها الاقدار تفعل منا تشاء

٢٠٧ • تم استيلاء شبليون على اسبانية وطردهم القرطاجيين منها

واستمر شبليون فى تقدمه وانتصاراته باسبانية حتى اصبح معظمها فى قبضة يده ، واطرد منها القرطاجيين ونجح فى مهمته كل النجاح ، خصوصا وقد تسلط على عواطف الاسبانين ببشاشته ، وليته ، وحسن معاملته ، الى ان صاروا يحبونه ويعجبون به كل الاعجاب .

٢٠٥ • انتخب شبليون قنصلا ونقل ميدان الحرب الى افريقية

وفى سنة ٢٠٥ انتخب شبليون قنصلا وبادر بنقل ميدان الحرب للمرة الثالثة الى افريقية ، منلما فعل اغاثوقليس وروغولوس من قبله . فنزل قرب اوتيكة سنة ٢٠٤

٢٠٣ • ولبت حنبعل بعد انتصار كانه نحو اربعة عشر عاما يطوف ارض ايطاليا ، ويضرب فى مناكبها ، فيفوز حينئذ ، ويخفق احيانا ، الى ان استقدمته حكومة قرطاج ، ودعته الى الرجوع الى افريقية على جناح السرعة ، لانقاذ البلاد من هجمات كرنيليوس شبليون الذى نقل ميدان الحرب الى البلاد الافريقية . فركب حنبعل البحر مع رجاله ونزل بلمطة (قرب ملىنة سوسة) فى صائفة سنة ٢٠٣

فكانت المدة التى قضاها حنبعل فى الكفاح من يوم خروجه من قرطاجنة باسبانية الى ان نزل بافريقية تقرب من ستة عشر عاما

ثانياً - الحرب بافريقية

٢٠٤ ● نزل شبليون قرب اوتيكة على راس ٢٠ ٠٠٠ مقاتل ، وعسكر بالقرب من تلك المدينة ، واجتمع بحليفه ماسنيسا ملك نوميديا الشرقية الذي سيساعده على الانتصار بمشراكة فرسانه الابطال ، مثلما ساعد ناراواس ، فيما مضى ، القائد البونيقي عملقرط. ضد زعماء الحركة التحريرية فكان ذلك سببا في فوزه وانتصاره على المقاومين . غير ان ماسنيسا كان عكس ذلك يعاون القوات الرومانية ليتمكن بذلك من طرد المستعمرين البونيين ، ثم يفكر بعدها في طريقة تمكنه من التخلص من رومة وارجاع افريقية الى الافريقيين مثلما كان يكرهه في كل مناصبه .

٢٠٣ ● في ربيع سنة ٢٠٣ انتهب شبليون غفلة من صدر بعل قائد القوات البونيقية ومن حليفه سيفاكس ملك نوميديا الغربية ، واضرم النار في معسكريهما ، فهلك الجيشان ، واسفر الحريق الهائل عن قتل ٤٠ ٠٠٠ من الجنود واسر ٥ ٠٠٠

٢٠٣ ● وفي شهر جوان اخذ سيفاكس وصديقه بعل يعدان العدة للهجوم على عدوهما ، لكن خاب مساعهما ، وانتصر شبليون عليهما بجهة جندوبة او الدخلة اي بسهولة سوق الاربعاء ٠٠٠ تم عسكر شبليون بتونس واخذ يهدد مدينة قرطاج .

اما الاقليد ماسنيسا فانه اخذ يجده في اثر سيفاكس الى ان التقى عليه القبض واخذه اسيرا ، ودخل عاصمة قرطلة (وهي قسنطينة الآن) مظفرا منصورا .

وتزوج بالاميرة صوفونيسبة امراة سيفاكس ، وكانت خطيبته ، وكان يهواها ، لكن هذا الزواج لم يدم اكثر من ليلة واحدة ، وذلك لان شبليون كان يخشى تلثير هذه الاميرة البونيقية على بعلها الجديد ، فامر ماسنيسا ان يسلمه اياها فحن الحين كبقية الاسراء ، ولكن الاميرة اختارت الانتحار على الذل والعار ، وتجرعت كاسا من السم الزعاف ، وسقطت جثة هامدة لا حراك فيها

٢٠٣ ● وفي صيف ٢٠٣ نزل حنبعل بلمطة كما اشرنا اليه قبل هذا ، ثم من هناك توجه الى حدرموت (سوسة) ثم سافر الى قرطاج ومنحه مجلس الشيوخ لقب « قائد ديكتاتور » له النفوذ المطلق ،

ولا يسال عما يفعل ، ثم عاد الى سوسة واخذ يجمع الجموع ، ويستعد للحرب والنزال ، وكان يعتمد فى ذلك على عدد من انصاره وحلفائه ، مثل الامير (مزطول) الذى هو من اسرة ماسنيسا ولكنه كان فى خلاف معه ، ومثل الملك (فرمينة) بن الملك سيفاكس الذى وعده بالرجال والمؤونة ...

ويظهر ان البرنامج الذى سطره حنبعل لنشاطه كان يتخلص فى النقاط الثلاث التالية :

— الالتحاق بالمدد والنجدة فى ناحية من نواحي الجهة الوسطى بالبلاد التونسية ،

— ثم السير لقتال ماسنيسا الذى كان فى ذلك الوقت يحارب لفائده الخاصة حوالى مدينة قرطه ، والظفر به قبل التحاقه بالرومانيين الذين كانوا يترقبون قدومه ،

— الايقاع بشبيون ورجاله بعد عزلهم عن حليفهم .
لكن شبيون قد توقع كل ذلك ، فكانه قرا ما كان يجول بخاطر عدوه . فكان من المتحتم عليه حينئذ احباط اعماله ، وافساد هذا البرنامج ، واجتذاب نتائجها وعواقبها الوخيمة .

ولذلك خرج شبيون من معسكره فى الوقت الذى خرج فيه حنبعل من سوسة لينفذ خطته .

وكان شبيون يعرف ان خصمه ، بعد خروجه من سوسة ، سوف يتجه نحو الشمال الغربى لاجتياز سلسلة جبال الظهيرية الكبرى التى تفصل بين الساحل وافريقية ، وذلك بالدخول فى مسلك من مسالكها المعروفة .

واذا نزل شبيون من مقره اى من الجهة الشمالية الشرقية متجها نحو الجهة الجنوبية الغربية ، فانه يمكن له ان يجرؤ على انتظار حنبعل عند خروجه من احدى تلك المسالك التى تفتح شمالا على سهول سليانة ويكون شبيون عند ذلك معززا بحليفه ماسنيسا اذ ارسل يحثه على الالتحاق به فى ذلك المكان بكل سرعة ، وعند ذلك يبادر بالايقاع بخصمه قبل وصول نجدة فرمينة اليه

وكان حسابه صحيحا ، فنفته حرقا ، وتم الامر مثلما توقعه تماما ...

ولما خرج حنبعل من ثغرة الظهيرية ، اى من الفج الذى سلكه ، فاجاته مفاجاتان : وجود شبيون هناك فى انتظاره ، وانضمام ماسينيسا اليه وكان يظنه ما زال بعيدا .

فالتقى هناك حنبعل قرطاج بحنبعل رومة ، وتقابلا وجها لوجه وظهرتا على المسرح تحت انظار العالم باسره واصبحت المعركة بينهما امرا محتوما لا مفر منه ولا مهرب ، وكانت جامعة لها ميدانا .
ولكن اين كانت توجد جامعة هذه ، واين كان موقعها ؟ قد اثبت المؤرخون وجود جامتين اثنتين : جامعة الصغرى (Zama Minor) وجامعة الكبرى (Zama Major) او جامعة ريجيا (Zama Regia) مثلما وجدت لبتييس الصغرى (Leptis Minor) وهى لمطة قرب سوسة ، ولبتييس الكبرى (Leptis Major) وهى لبدة بطرابلس الغرب ، ومنلما وجدت طبربة الصغرى Thebourba Minus وهى طبربة بجهة مجاز الباب ، وطبربة الكبرى (Thebourba Majus) وهى هنشير القصبات بجهة الفحص ، ٠٠٠ ومنلما نجد اليوم ايضا القلعة الصغرى والقلعة الكبرى) .

وان عاصمة يوبا الاول كانت بدون شك جامعة الكبرى او جامعة ريجيا (اى الملوكية) ، وهى غير جامعة المعروفة الآن ولكنها فى جهتها ولا تبعد عنها كثيرا

وقد وقع العثور اخيرا ، قرب مدينة مكسر ، على احجار نذرية منقوشة كتب عليها اسم جامعة ريجيا ، الشيء الذى مكن من ضبط موقعها بكيفية مدققة قرب الضريح القائم بقصر طوال الزوامل (Ksar-Toual-Zouameul) ، فى اعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماصوج (شمالا) والجبال الملاصقة لصرد مكسر من جهته الشمالية (جنوبا) والذى يصل بين سهل سليانة وسهل السرس

وهذا المكان الذى يوجد به قصر طوال الزوامل ، والذى كانت توجد به جامعة الكبرى او جامعة ريجيا ، هو فعلا على الطريق الرابطة بين حدرموت (سوسة) وسيكا (الكاف) ، وهى الطريق التى كان سلكها حنبعل ٠٠٠ وهو حينئذ المكان الذى كان مسرحا للمعركة المشهورة التى دارت بين شبيون الافريقى وحنبعل ، والتى انتهت بها الحرب البونيقية الثانية

٢٠٢. معركة جامة

فى شهر اكتوبر سنة ٢٠٢ دارت معركة جامة بين القائدين
العظيمين شبيون وحنبل .

وكانت جنود شبيون منظمة ، تؤلف مع قائدها كتلة متحدة
كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

بخلاف جيش حنبل ، فانا ، اذا استثنينا القداماء المدربين الذين
رافقوه من ايطالية ، نجده مؤلفا من فرق وقع جمعها وتلفيقها من
هنا وهناك ، وفى مدة وجيزة فهو يتركب من اجناس مختلفة . وله
يكن حنبل يعتمد الا على اصحابه القداماء فى الجندية والذين استصحبهم
معه من ايطالية . وقد ابقاهم حوله فى المؤخرة وامرهم بان لا
يشاركوا فى المعركة الا فى النهاية ، وان لا يمدوا يد المساعدة الى
الاخرين الذين جعلهم فى المقدمة ، بل اوصاهم بالفتك بهم ، وبتقتيلهم
اذا ما فكروا فى الانهزام او حاولوا الفرار امام العدو . وهكذا كانت
صفوف المقدمة فى جيش حنبل بين نارين او بين عدوين : الرومان
من الامام ، وقداماء جنود حنبل من خلف . وفعلنا فلن المصفوف
الامامية لما تقهقرت وانهزمت تحت تأثير صدمة الجنود الرومانية ،
وجدت نفسها تتقاتل مع قداماء جنود حنبل ، هنل الذى خلص من
الدب فوق فى الجب ا

ومن اهم اسباب خيبة حنبل وانكساره عدم وجود الانسجام
والتعاون والتكتل فى صفوفه مثلما كان ذلك موجودا فى صفوف
اعدائه .

وقد جعل حنبل فى مقدمة جيشه صفاف من الفيلة وارلد ان
يستعملها مثلما تستعمل الدبابات فى ايلما Tanks . او المصفحات
(los blindés) غير ان شبيون قد احتاط لذلك من قبل فرتب جنوده
ترتيبيا خاصا وجعل فيهم فجوجا حتى يمكن لها ان تمر خلالها بدون
ان تدوس العساكر وبدون ان تحدث فيهم المقتلة التى كان ينتظرها
حنبل .

ولذلك فان حنبل لم يتوصل من استعمال الافئال الى ما كان
يؤمله ، بل اندفعت بعض الافئال فى المعابر والفلول التى اعددها
شبيون بدهائه ونظمها بمهارته فاجتازت الصفوف الرومانية بدون

ان تحدث ضررا يذكر . وانزعج الكثير منها من دورى الابواق ، فجفلت ورجعت على اعقابها ، وهجمت على الجناح الايسر من جيوش حنبعل ، اى الفرسان النوميديين ، واتجهت بقية الافيال هاربة نحو الجناح الايمن اى الفرسان البونيقيين ، فرارا من وابل النبال والحراب التى كانت تمطرها بها جيوش الرومانيين والتى كانت تشبعهما وخزا وجروحا ، فكانت وبالا على اصحابها لا على اعدائها .

واستنمر ماسنيسا ولاليوس ما حدثته هذه الافيال من بليلة واضطراب فى صفوف القرطاجيين ، فحملا على فرسان حنبعل المرتبين فى المينة والميسرة ، فهزماهم .

ولم يكن حنبعل فى الحقيقة يعتمد كثيرا على فرسانه لان عددهم كان قليلا جدا ، وكان شبليون متفوقا عليه بكثير فى ذلك بفضل مساعدة ماسنيسا ومشاركة كتائبه وفرسانه . ولذلك فبمجرد هجوم فرسان الرومان تحت قيادة ماسنيسا الملك النوميدى من جهة ولا لايوس القائد الرومانى من جهة اخرى ، انهزم فرسان حنبعل امام تلك الصدمة العنيفة ، فطاردهم ماسنيسا ولاليوس على مسافة بعيدة . وبينما كان حنبعل منهمكا فى الاشتباك الحاسم مع عدوه ، ويحاول التغلب عليه باعانة قدماء جنوده المدربين قبل رجوع ماسنيسا ولاليوس من مطاردتهم ٥٥٠ وكان اوشك ان يفوز وان يتغلب عليه ٥٥٠ واذا بماسنيسا ولاليوس يحملان عليه من خلف ، وهى نفس التكتيك الحربى الذى استعمله حنبعل فى معركة كانه وانتصر به على اعدائه ، وها هو اليوم يستعمل شبليون ضده نفس تلك الطريقة الفنية فتحقق حنبعل انه خسر المعركة ، وفر هاربا الى مدينة سوسة مع اركان حربه

٢٠١ - معاهدة الصلح

ثم جمع حنبعل فلول جيشه ، ومضى الى قرطاج وهو على غاية من الحسرة والاسى ، وارسلت الحكومة فى طلب الصلح من رومة ، فكان نص المعاهدة يشتمل على الشروط والالتزامات التالية :

١) ان تستبقى قرطاج ممتلكاتها فى افريقية، وان تتمتع باستقلالها
٢) ان تسلم كافة الاسراء ، والهاربين من الجندية ، والغارين من الحرب

(٣) ان تسلم ما تملكه من سفن حربية ، باستثناء عشرة سفن ثلاثية (trirèmes) تستبقهاها ، وتسلم كذلك كافة افيالها مع التحجير المطلق عليها بان تروض افيالا للحرب فى المستقبل .

(٤) ان لاثيرحربا خارج افريقية او داخلها بدون اذن من رومة

(٥) ان يسترد الملك ما سنيسا كل ما يملكه هو واسلافه

(٦) ان تعد قرطاج جيش رومة بالمؤن والاجور حتى يتم الاتفاق على معاهدة الصلح وتضع الحرب اوزارها

(٧) ان تدفع غرامة حربية تبلغ عشرة آلاف وزنة اوبية من الفضة (١) تدفع اقسطا موزعة على خمسين سنة (٢٠٠ وزنة فى كل عام)

(٨) ان يتخير قائد الرومان مائة رهينة من ابناء القرطاجيين تسلم الى رومة ضمانا لتنفيذ المعاهدة وصفاء الجو بين البلدين

وهكذا : خسرت قرطاج صقلية فى الحرب البونيقية الاولى ٢٤١
- وخسرت سردينية وكورسيكا اثناء الثورة التحريرية انحراب
اليونيقية الاولى ٢٣٧

(١) الوزنة الاوبية (talent euboïque) : سميت كذلك نسبة الى اوبه (Eubée) وهى جزيرة من جزر الارخبيل اليونانى ، وهذه الوزنة فارسية الاصل ادخلها صولون فى النظام النقدي باثينة واوبه .

فى القرن السابع قبل المسيح ضربت النقود باثينة واوبه حسب النظام الوزنى الاوبى (système pondéral euboïque) الذى يقابله النظام الوزنى الايجينى (système pondéral éginitique) كسبة الى جزيرة اخرى قرب اثينة تسمى ايجينة (Egine) وهذا النظام يرجع الى اول عهد ظهرت فيه النقود اى الى بداية القرن السابع قبل المسيح - النظام الايجينى : قطعة عشرة دراهم ايجينية فضة (didrachme) وزن ١٢.٥٧ غراما ، وكانت تسمى هذه النقود الاولى بالسلحفاة (tortue) وتتركز فى وزنها على اثن الايجينى (mine) الذى يزن ٦٢٨ غراما .

- النظام الاوبى : اتى بعد النظام السابق ، واستعمله الاسكندر الاكبر ، وانتشر فى العالم الهلينى باسره ، وهو يرتكز فى ميزانه على اثن الاوبى الذى يساوى ٤٣٦ غراما فقط ، والجزء من المائة منه هو الدرهم (drachme) ويوزن حينئذ ٤.٣٦ غرامات ، وقطعة اربعة دراهم (tétradrachme) وهى اكثر النقود استعمالا وانتشارا وزن ١٧.٤٤ غراما .

والوزنة الاوبية تساوى ستين منا او ٢٦.١٦٠ كيلوغراما .
والوزنة ذهبيا تساوى عشر وزنات فضة .

— وهي تخسر الآن اسبانية بلاد معادن الفضة ٢٠١
ولم يبق لها حينئذ الا ما تملكه بافريقية من البحر الى حدود مملكة
ماسينسا التي اصبحت تعد الى وادي ملوية .
واستمر حنبعل ماسكا زمام الحكم بقرطاج، فهاجم محكمة القضاة
لانها اغتصبت من الشعب سلطانا لم يكن لها ولا ينبغي ان يكون لها،
بل لا يكون الا للشعب وحده ، فصار منصب القاضي يحرز عليه
بالانتخاب ويستمر عاما واحدا . ثم تناول حنبعل حياة الشعب
الاقتصادية فنظم الصادرات والواردات ، وإقام المراقبة الشديدة على
الضرائب ، واقتصد في المصاريف ، وافتك الاموال من احرزوا عليها
بكيفية غير مشروعة، فهان بذلك دفع الغرامة الجزية ، واهتم اهتماما
كبيرا بتحسين الفلاحة ، وشجع على غراسة الزياتين لتكوين موارد
ومداخيل جديدة للبلاد ، فانتعشت الامة وتحسنت احوالها .
ولكن ذلك لم يرق لخصومه من طبقة الاغنياء ، فاخلوا يناضلونه
ويقاومون خططه ، ويدبرون له المكائد ، ويدسون الدسائس لاثارة
الحكومة الرومانية عليه ، ويتهمون عندها بكونه يعد العدة لاشعال
نار حرب اخرى بتضامنه مع ملوك الشرق ، ويحثونها على المطالبة
بتسليمه اليها .

وشعر حنبعل بكل هذه الدسائس والمناورات ، فاستقر عزمه
على الفرار (سنة ١٩٥) . ولما اتى المساء ، امتطى جواده وانطلق به
الى منزله على الشاطئ قرب المهديّة، فاستقبلته سفينة اعددها الرحيله،
وابحر الى جزيرة قرقنة ، وإعلن للمتصلين به ان الحكومة قد انتدبته
سفيراً في مدينة (صور) . ومن هناك ابهر الى آسيا الصغرى ،
واستمر في مقاومة الرومان بجميع الوسائل ، الى ان نزل ضيفا على
الملك (بروسياس الثاني) صاحب مملكة بثينة (Bythynia) فشعر
بانه ينوي تسليمه الى الرومان ، فخير الانتحار بشرب السم (سنة
١٨٣ ق م) على ان يقع في قبضة اعدائه حيا .

والامر الغريب هو ان علوه (شبليون الافريقي) الذي كان انتصر
عليه وقهره في واقعة جامة ، مات في نفس تلك السنة مضطربا
عليه من حكومته ، ومطرودا من بلاده التي لم تعترف له بالجميل
حتى انه لم يقبل ان يدفن برومة وامر ان يكتب على قبره :
« ايها الوطن الناصر للجميل ، لن ننال عظمى ! »

نص قراءة

كان حنبعل الجندي الصادق الذي لازيف فيه ولاعاب عليه ،
تملاه الشجاعة فى غير تهور ، وتبدو سرعة بدهته ، وخصوبة
ذكائه ، ونفاذ بصيرته فى المنازق الحرجة والازمات المضيقة .
وكان اذا حط عليه التعب واضطلعت بحمله مناكبه فى غير
استيلاء ولاشكوى ، وكان يأنف احتمال البرد القارس ، والحر
اللافح ، حتى ليبدو وكأنه لا يحس اثرهما ولا يعابيهما . . .
فاما رغبته فى الطعام والشراب فكانت لاتتجاوز حاجته الطبيعية
اليهم ، وضمان العيش بما يتييسر له منهما . وقد كان يهزأ
بسلطان النوم ولا يخضع له الا اذا اتاحت له ظروف عمله لحظة
يختلس فيها راحته ، حتى اذا دعاه العمل لبي دعاءه ، ومضى
اليه موفور الهمة والنشاط ، وكان اذا تهيأت له ظروف النوم
اللقى بنفسه انى كان وحيثما اتفق ، وكثيرا ما كان يمر به
الجنود وهو ملقى على الارض ملتفا بردائه الحربى بين صفوف
مقدمة جيشه ، وهو الرجل الذى تهيأت له الامامة ، وسعت له
الزعامة ، وروع رومة طيلة العهد الذى عاشه ، حتى اقضى عليها
مضجعها ، وطير النوم من اجفانها ، ولم يكن له لباس فاخر
يميزه على بقية جنده ، ولكنه كان مفرطا فى عنايته باسلحته
واهتمامه بالخيال التى يعطى صهوتها فى ساحة الوغى .
فان عيب على اخلاقه : وفظاظته وجشعه وتخطيه لحدود
الامانة . . . فتلك مثالب قادة الحرب الذين عاشوا معيشتهم ،
وتنفسوا الجو الذى كان يتنفسه . وقد كان رجل واجبا كثيرا
منه رجسلا مجدا .

اما فى ساحة القتال فكان حنبعل اشجع رجاله واقواهم على
مدوام الكفاح . فانه اول يتقدم للطعن وآخر من يبقى بميدان
القتال ، وبهذه الحصال العالية استولى على قلوب جيوشه

عن الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح)

الحرب البونيقية الثالثة

من سنة ١٤٩ ق.م. الى سنة ١٤٦ ق.م.
وانتهت هذه الحرب بتهديم قرطاج

١ - نهضة قرطاج

قد التعتشت قرطاج ، وعاد اليها ازدهارها ، وتحسنت احوالها الاقتصادية بعد عشر سنوات فقط من ابرام المعاهدة ، حتى انها عرضت على رومة ، قبيل اشتباكها في حرب ضد ملك سورية انطاخس الثالث Antiochos III سنة ١٩١ ، ان تدفع لها مسبقا وفي مرة واحدة بقية الغرامة الحربية ، وان كانت الشروط تسمح لها بدفعها اقساطا على اربعين عاما، كما عرضت عليها ان تعينها باسطول بحرى اذا سمحت لها باعداده وتجهيزه . ولكن رومة قبضت المال ورفضت بناء الاسطول حتى لا تبقى مدينة لقرطاج ورهينة فضلها واحسانها ، وحتى لا تفتح لها باب صنع السفن فيصعب بعد ذلك سده ونعسر مراقبته .

ولما حل مبعوث رومة (قاطون) بارض افريقية سنة ١١٥٣ اندهش من خصب الاراضى ومن ازدهار البلاد وهذا يدل على ان البونيقيين قد اهتموا باحياء الاراضى وبالنشاط الفلاحى اكثر من كل شيء آخر ، وهو الطريق الذى مهد لهم وارشدهم اليه حنبعل فى المدة الوجيزة التى قضاها فى الحكم .

اما التجار البونيقيون فقد عادوا شيئا فشيئا الى نشاطهم التجارى ، واخذوا يجوبون البحر ، ويفتحون اسواقا جديدة خصوصا نحو الشرق

٢ - اعتداءات ماسنيسا

وكان ماسنيسا نعم الخليف لرومة يكفيها مؤونة تعطيل تلسك النهضة وعرقلة ذلك الازدهار الفلاحى ، ووضع حد لتقدم المرسى

التجارى ، فصارت رومة تسجعه على التوسع على حساب قرطاج خصوصا وان معاهدة سنة ٢٠١ تمنعها من الدفاع عن نفسها بدون رخصة من رومة .

ففى كامل المدة الفاصلة بين الحربين الثانية والثالثة (اى من ٢٠١ الى ١٤٩) كان ماسنيسا (٢٣٨ - ١٤٨) لايفك لحظة واحدة عن مشاغبة قرطاج ، ومضايقتها ، والتعدى على حقوقها ، وافتكاك الاراضى والاملاك منها قطعة قطعة ، وكان يقول ويكرر دائما :

« ان القرطاجيين ما هم الا اغانب فى بلادنا ، فقد كانوا استولوا غصبا على املك اجنادنا ، ولذلك يجب ان نسترد منهم بجميع الوسائل ما كانوا افتكوه منا بالقوة »

وكانت قرطاج تشتكى الى رومة فى كل مرة ، وتستغيث ولا تغاث . فان نص المعاهدة يمنعها من اشهار الحرب بدون اذنها ، وعلى الاخص ضد حليفها ماسنيسا ، ومن جهة اخرى فهى تلتجئ الى رومة لتكون حكما وتكف عنها اذاه ، فتحمل رومة كانها لاعينارات ولا اذنا سمعت ، بل كانت تساعده خفية على التمدادى فى اعتداءاته المتوالية :

- فى ١٨٢ : اسنحوذ على ارض بجهة الحدود الغربية كان افتكها ابوه (غايا) من القرطاجيين ، وكان ارجعها لهم سيفاكس .
- فى ١٧٤ : استولى على ٧٠ مدينة او قلعة بونيقيّة

- فى ١٦٢ : استولى على اراضى (امبوريا) الحصبة اى جهة السرت .
- فى ١٥٤ : استولى على اراضى الدخلة (جهة سوق الاربعاء) وسوق الحميس) وعلى جهة دوقة

وفى هذه المرة ارسلت رومة احد ساستها وهو (قاطون) للاستفسار عن اسباب الخلاف بين قرطاج وماسنيسا . فلما حل بالاراضى البونيقيّة راعته موارد الرزق فيها ، وادهشت مظاهر القوة التى توفرت لها ، واذهجه اسطولها المجهز باكمل المعدات ، واقلقه مخازن اسلحتها الملائى بالدخائر .

فلما عاد الى رومة ، ومثل امام اعضاء مجلس الشيوخ ، اخذ يدعو الى تهديم قرطاج ، وكانت النعمة التى لا يمل تردادها والتى ختم بها خطبه : لا بد من تخريب قرطاج ! (Delenda Carthago)

٣ - نشوب الحرب بين قرطاج وماسنيسا (سنة ١٥٠)

واستمر ماسنيسا فى اعتداءاته وتهجماته ، واسرف فى عدوانه ،

وافرط في احتقاره ثقرطاج واستخفافه بشانها ، حتى امتلا الاناء ،
وطمح الكيل ، وتكهرب الجو ، وصار ينذر بالخطر

وقد كون ماسنيسا داخل قرطاج نفسها حزبا يؤازره ، وانصارا
يؤيدونه ولا يوافقون على مقاومته واشهار الحرب في وجهه .

فقام الحزب الديموقراطي (المنتصر للحرب) بتطهير البلاد من
هؤلاء الخونة انصار ماسنيسا ، ونفى منهم اربعين عضوا ، وحمل
الشعب على ان يقسم غير حائث ولا متردد الا يسمح لهؤلاء الخونة
بالعودة الى ارض الوطن . (وكان ذلك في شتاء سنة ١٥٠) فاسرع
هؤلاء الاربعون الى الملك ماسنيسا ، واخذوا يؤججون نار حقده ،
ويحثونه على الايقاع باعدائهم .

فارسل ماسنيسا ابنه ماسيبسة وغولوسة الى قرطاج مطالبا
بارجاع اتباعه الى ديارهم ولكن البطريق قرثل (١) (Boétarque Carthelon)
منع الايبرين من دخول المدينة . وهجم (عمقرط السمني) ،
احد زعماء الحزب الديموقراطي ، على غولوسة وهو في طريق العودة
الى ابيه فقتل جماعة من خفرائه .

فخرج عند ذلك ماسنيسا على راس كتائبه النوميديية ، رغما عن
كبر سنه ، اذ كان عمره اذ ذاك ٨٨ سنة ، وسار لحصار مدينة
اوروسقبة (Oroscopta) (٢) التي كانت مطمح انظاره ، ولو
لم يكن له عليها ادنى حق . فاقرت حكومة قرطاج عزمها على قتاله ،
فجهزت جيشا يتألف من ٢٥ ٠٠٠ مقاتل ، وجعلته تحت قيادة
البطريق صدربعل . فلما اقترب من جيش ماسنيسا ، انضم اليه
ضابطان نوميديان وهما قاسيس وصوباس ، على راس ٦ ٠٠٠ من
الفرسان ، وكانا قد هربا من جيش الملك لاستيائهما من اعمال
ابنائهم ، ففرح صدربعل بهذه النجدة التي اتت في الوقت المناسب ،
وعززت صفوفه التي لم يكن فيها سوى ٤٠٠ فارس فقط .

وانتصر صدربعل في بعض المناوشات ، وتقهقر الملك ماسنيسا
بنظام حتى طوح بعوده في بطاح مقفرة تحيط بها تلال وعرة المتحدر
لا يصل اليها المدد الا بتعب ومشقة . فاختار ماسنيسا سهلا منبسطا

(١) البطريق أو البوطارق (Boétarque) : هو قائد الجيش عند الاغريق وعند
الروم ، وصار يسمى كذلك ايضا عند القرطاجيين .
(٢) اوروسقبة : مدينة مجهولة

وعسكر فيه برجاله • اما صدر بعل فقد اقام معسكره فوق ربوة عالية رآها مركزا مناسبا • وقد تضاعف جيشه بانضمام جم غفير من الرجال هرعوا اليه من كل مكان الى ان بلغ عدد رجاله ٥٨٠٠٠ مقاتل وكان ماسنيسا على راس جيش يعادله تقريبا او يزيد عليه بشيء قليل •

وفى مساء ذلك اليوم قدم شبليون الايملى (١) من اسبانية وقد اتى فى طلب افيال من الملك ماسنيسا • فرحب الملك بقدمه واکرم مثنواه •

ومن الغد دارت معركة طاحنة بين الفريقين شهدها شبليون من اعلى ربوته ، وهو يتخيل نفسه الاله جبتر يشرف على معركة طروادة من اعلى جبل ايدة (mont Ida)

ودامت هذه المعركة الى الليل ، وكانت الحسائر جسيمة من الجانبين ، وظهر تفوق النوميديين فى آخر النهار •

وتدخل شبليون بين العدوين ، وقبل القرطاجيون ان يدفعوا الف وزنة من الفضة ، مائتين عاجلة ، والبقية اقساطا • ولما اضاف الملك الى هذا رغبته فى تسليم الهاريين ، رفض القرطاجيون ذلك الطلب واتقطعت المفاوضات بدون ان يحصل اى وفاق •

— وتسلم شبليون افياله ، وقفل راجعا الى اسبانية ، وتركهم فى قتالهم •

— وبقي الجيشان متقابلين فى جهة قفراء لا شىء فيها •
— وامر ماسنيسا بحفر خندق حول الربوة التى يقيم بها عدوه واصاب القحط جيش صدر بعل ، واشتد بهم الجوع بكيفية لا تحتمل ، فاضطروا الى اكل الخيل والدواب ، وفطكت بهم الاوبئة ، واشتدت حرارة الصيف ، فانهدت قوى الجيش ، وهلك الكثير من افراده ، وانقطع كل رجاء وامل • ورضوا فى النهاية بالتفاوض مع ماسنيسا • فاشتراط عليهم تسليم الهاريين ، وارجاع المبعدين الى

(١) شبليون الايملى (Scipion Emilien) : ولد سنة ١٨٥ ومات مقتولا سنة ١٢٩ هو ابن (بول ايميل) ودخل اسيرة الشيبونيين بالتبني ، وسمى قنصلا قبل السن القانونية سنة ١٤٧ ، فكان بطل الحرب البونيقية الثالثة والمعول الذى هزم مدينة قرطاج وتركها اثره بعد عين •

ديارهم ، ودفع ٥٠٠٠ وزنة من الفضة تدفع اقسطا موزعة على خمسين عاما . فقبلوا هذه الشروط مرغمين .

« وامر من هذا وانكى ان المعاهدة قد اوجبت على صدر بعل ان يمر وجنده من ورائه على معسكر العدو عزلا من كل سلاح ، عارين الا من قميص يستر اجسامهم ٠٠٠ وقبل البطريق هذه المهانة البالغة ابقاء على حياته ، فلوث بهذه الذلة شرفه العسكري ، ولطخه بادران العار الذي لن ينساه التاريخ . »

وعاد انصار ماسنيسا من جديد الى قرطاج بعدما ابعدهم الحزب الديموقراطي .

واستولى الملك النوميدي على مدينة (اروسقبة) وعلى جهات اخرى مجاورة .

وانحصرت من ذلك اليوم حدود الجمهورية البونيقية فيما سترته رومة منها سنة ١٤٦ ، وقد اراد شبليون الايميلي ضبطها وتحديدتها بصفة نهائية وقارة ، فامر بحفر خندق يفصل بين التراب البونيقى والتراب النوميدي ، وهو المعروف باسم « فوسا ريجيا » (la fossa Regia) وقد غرزت في مكان تلك التخوم انصاب امر بوضعها الامبراطور (وسبازيانوس) بعد حفر ذلك الخندق بمائتين وعشرين سنة

ويمكن التوصل الى معرفة ذلك الحد باتباع الآثار التي اشرنا اليها والتي تدل على انه كان يبدأ بمصب وادي تسقى (Tusca) او الوادي الكبير قرب طبرقة ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ، ويترك خارجة عنه السهول الكبرى او سهول دخلة جنوبيه بجهات سوق الاربعاء وسوق الخميس وهي التي استولى عليها ماسنيسا في المدة الاخيرة ، كما يترك خارجة عنه ايضا مدينة باجة (Vaga) ، ثم يقص وادي مجردة ، ويمر بين وادي سليانة ووادي خلاد وهما ساعدتا وادي مجردة على ضفته اليمنى .

وقد وجدت قرب تبرسق (على الشمال الشرقي منها) انصاب من التي اقيمت بمكان الخندق ، فواحد منها عثر عليه على بعد ١٨ كم من تبرسق بمكان يعرف بهنشير البغالة ، ووجد آخر على بعد ١٣ كم قرب ضريح الولي سيدي عبد الله ابي البهائم .

لقد وجدنا قرب البحر تبرزسقى ايضا (ولكن على الجنوب الشرقى منها)
نصب آخر على بعد ١٢ كم . وهذا يدل على ان تبرزسقى كانت كذلك
خارج الجبل .

ثم يتجه الحد بعد ذلك نحو الشرق كما يشته وجود نصب آخر
على مسافة كيلومترين ونصف جنوب هنشير الاسوار بجنوب جبل
زعوان ، على عشرة فراسخ (اربعين كيلومترا) تقريبا غرب خليج
الحمامات .

ثم يتجه الحد نحو الجنوب الشرقى ، او بالاحرى نحو ما بين الجنوب
والجنوب الشرقى ، ويستمر في سيره غير بعيد عن الساحل الى ان
ينتهي في البحر هنشير طينة (Tacnac) جنوب صفاقس
(انظروا الخريطة)

٤. الحكم على قرطاج بالاعدام

ان قرطاج ، باشهارها الحرب على ماسنيسا ، خالفت شرطا من
شروط المعاهدة ، وخرقت الاتفاق المبرم بينها وبين رومة ، وكونت
سبيبا او موجبا في الرجوع الى القطيعة والعداوة ، وفي اثاره الفتنة
من جديد .

فاخذت رومة تتاهب لخوض غمارها .

وقد شمت قرطاج الخطر ، فبادرت باصدار حكمها بالاعدام على
الذين تسببوا في الحرب ضد الملك ماسنيسا ، ونفذت عليهم ذلك
الحكم ، ما عدى صندربعل ، فهو قد فر هاربا وافلت من الموت (وربما
كان ذلك بلمانة الحكومة) ثم اوفدت قرطاج رسلا الى رومة لتعلن
براءتها من الحرب وتعلم بان المسؤولين الذين اشعلوا نارها قد
نالوا جزاءهم .

ولكن اعضاء المجلس قالوا للرسل :

« لماذا حكمتم عليهم بالاعدام بعدما انهزمت وخسرت المعركة ، ولم
تحكموا عليهم في بداية الاعمال العدائية ؟ »
فلم يجد الرسل جوابا .

وصوت المجلس في جانب الراى القائل بان بيانات المبعوثين
كانت اعدارا ملفقة ، لا يمكن قبولها ، ولا تسمح بالعفو عن جريمة
قرطاج .

فانزعج السفراء، ولحقهم الإنذهال، وسئلوا الاعضاء عما ينبغي ان يفعلوه ليكفروا عن خطيئتهم . والتوا بالاجابة: « يجب ان تردوا عليهم بجواب كله غموض . فليظنوا انهم قد فعلوا ما يجب ان تقوموا بارضاء الرومان به . » ولما سمعوا هذا، فزادهم هذا الجواب حيرة على حيرتهم ، ولحقوا الى بلادهم، ينجرون اذبال الحيرة والانكسار .

وكان ماسنيسا يعول على ضم قرطاج الى الملكة جزلة على الخلاصه المتناهي رومة ، ولكن مجلس الشيوخ كان يخطئ الى يترز يوما ما حنبل تان من الارومة النوميديا الماصولية . وان يتخذ من قرطاج قاعدة لحرب جديدة ضد رومة . ولذلك صمم على محق قرطاج ومحو آثارها من الدنيا .

غير ان المجلس اجل التصريح بالحكم الذي اليوم الذي يكون فيه القرطاجيون عاجزين كل العجز عن اتيادة مقاومة . وبينما كان المجلس منهمكا في مفاوضاته اتته رسل من مدينة اوتيكة يشعرونه بان مدينتهم تسلم نفسها اليهم . وللدخل تحت حكمهم وكان ذلك ممها نكاية بقرطاج لما كانت تكنه نجوهم امن الحقد والغيرة منذ مدة طويلة .

ربيع ١٤٩ • جهزت رومة جيشا يتالف من ٨٠ ألف من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان و ١٥٠ سفينة حربية منها ٥٠ سفينة خيماسية ما عدى المراكب التي كانت مشحونة بالعدد والاثقال ، وسيرت كل ذلك الى اوتيكة في ربيع سنة ١٤٩ .

وكان القنصل مانيليوس (Manilius) على رأس القوات البرية ، والقنصل قنسورينوس (Censorinus) على رأس القوات البحرية ، وكان شبيون الايميلي (Scipio Aemilianus) قائدا على الاسطول . وكان يرافقه في هذه الحملة صناعه المؤرخ المشهور بوليبيس (Polybe) .

وقد ادركت قرطاج خطورة الموقف ، فاميلت الى رومة بالامانة . وحينئذ من انيل السنينها واشهر فيميو قلاتها . وفي الاثناء غلب مجلس الشيوخ ، واملا في ايقاف تيار الحرب . فاطلبوا الجمهور في الطاعة والاستسلام . وساجدا سالوا قيدهم رغبة طالعهم .

ولكن القنصل لم يكفه ذلك بل طلب ان تسلم اليه جميع الاسلحة والعدد الحربية وادوات القتال . فلاحظت قرطاج بانها مستعدة لقبول كل الشروط والخضوع الى جميع الاوامر ، ولكن كيف يمكن لها بعد ذلك ان تقاوم صديربعل المحكوم عليه بالاعدام والذي اصبح يهددها على راس عشرين الفا من المقاتلين ؟

فاجاب القنصل بان رومة تتولى حمايتها والدفاع عنها وقت الحاجة . فاضطرت قرطاج الى تسليم ٢٠٠ ٠٠٠ من الاسلحة الخفيفة و ٢ ٠٠٠ من الاسلحة الثقيلة او المجانق ، وجميع ما عندها من السفن ، فوقح نقل كل ذلك الى اوتيكة .

وبعدما تمت هذه الاعمال التمهيدية ، وتحقق القنصل من ان قرطاج اصبحت كجسد بدون روح ، عزلاء من كل سلاح ، وعاجزة كل العجز عن ابداء اية مقاومة ، صرح بحكمة القاسى الذى بقى مكتوما الى ذلك الوقت ، وقال :

ان رومة تامرکم بان تبارحوا مدينة قرطاج نهائيا ، اذ تقررو تهديتها ، وان تقيموا فى اى مكان آخر يروق لكم ، على شرط ان يكون بعيدا عن البحر بشعائين استاداً 80 stades (اى خمسة عشر كيلو مترا تقريبا)

ذلك هو الحكم بالاعدام الذى اصدرته رومة على قرطاج ووقع به التصريح رسميا وعلاية امام القرطاجيين حتى يقع الشروع فى التنفيذ . فنزل على آل قرطاج نزول الصاعقة

« واما الشعب خارج الابواب فقد اشتعلت نار الغضب فى اعصابه ، وغلت مراجل الانتقام فى راسه ، فهجم على قاعة المجلس وقد فقدوه واستولى عليه مس من الجنون ، وانقض على الاعضاء الذين كانوا ينصحون بتسليم الراهائن والاسلحة والاسطول والمعدات الحربية ، واعمل فيهم اسنانه واظفاره وايديه وارجله . وكل ما امتدت اليه قوته التى تغلى وتستعر حتى مزق بعضهم اربا اربا ، ومثل بجثثهم وراح يطوح فى اشلائهم ٠٠٠ وهجم على الرسل الذين لاذنب لهم الا انهم حملوا هذه الانباء الاليمة وبلغوها ، فصب الشعب عليهم جام غضبه ، وتولاهم بعذابه فى وحشية احالت المجلس جحيما .٠٠٠

ثم انطلق الى الشوارع يبحث عن الطليان الذين شغلهم التجارة او استلزمتم اعمالهم البقاء بين جدران المدينة ، وانقض عليهم ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، وافترس من وقع منهم فى يده افتراسا وحشيا ٠٠٠ ، (١)

٥ - دفاع المستعيت او تنازع البقاء

آخر الربيع • ولكن القرطاجيين امة بحرية لا يمكن لها ان تعيش بعيدة عن البحر • فبما ان قرطاج حكم عليها بالموت ، فهي تريد ان يدفع العدو ثمن حياتها غاليا • فاغلقت ابوابها وصمدت فى وجه القوات الرومانية طيلة ثلاثة سنوات كاملة ، بقوة لم يكن قط يتوقعها مجلس النسيوخ برومة ولم يقرأ لها ادنى حساب ، وبعزيمة ثابتة ، وارادة راسخة ، فكان دفاعها دفاعا هائلا رائعا لم يرو التاريخ مثله فى اى زمان او مكان

وقد تسلم الرئاسة قائدان وهما صدر بعل الذى كان محكوما عليه بالاعدام ، وصدر بعل آخر ابن احدى بنات ماسنيسا ، فتكلف الاول بالعمليات الحربية خارج المدينة وتولى الثانى الدفاع عن قرطاج

ويدات الاستعدادات بكل حزم ونشاط ، فاحالوا المعابد والمساحات المقدسة الى مصانع يعمل فيها النساء والرجال آناء الليل واطراف النهار • فكانوا يصنعون فى كل يوم مائة ترس ، وثلاثمائة سيف وخمسمائة حربة ، وثلث مائة سهم ، واقصى ما يمكن اعداده من المجانيق ، وبما انهم لم يجلوا حبالا لهذه الآلات الثقيلة ، قطعت النساء شعورهن وجعلنها للمجانيق حبالا ، وللفسى اوتارا ، كما تبرعن ايضا بجميع ما يملكن من ذهب وحلى •

وبينما كانت هذه الاعمال تجرى على قدم وساق بالمدينة ، كان صدر بعل يرسل المؤونة التى يجمعها من الخارج •

ولكن كثيرا من المدن انضمت الى الرومان اقتداء باوثيكة ، وذلك مثل حدرموت (سوسة ، ولبتيس (لمطة) ، وتبسوس (راس الديماس ، واشولة (جعنة)

(١) الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة)

« اما هيبوزرت (بنزرت) ، و كلوبيا (قليبية) و نابليس (نابل)
فقد ايسيرت ، مخلصه ومنبأ نعمة القرطاج تمدها يد المساعدة
صيف ١٤٩ . وبعد اسابيع ، قبل فصل الصيف بجدة قليلة ،
ظهر مانيليوس و قنسورينوس امام اسوار المدينة بجيشهما واسطولهما
وكانا يظنان ان المسألة هينة ، ويكفى لذلك نصب السلاسل وتسلق
الاسوار بكل سهولة لاعتقادهما بان المدينة عزلاء عن كل سلاح .
لكنهما شاهدا ما ادهشهما ، وما لم يكونا قط يتصورانه ، فكانا
مضطرين الى التقهقر والرجوع الى الورا ، وتدبير خطة الحصار تدبيرا
جديا .

وكان اظهر القرطاجيين حماسة ، وأبرزهم اقداما واشدهم باسا
فامباس خيميلكن (Himilcon Phameas) قائد كتائب الفرسان البونيقية
فقد هجم مرة على الرومانيين وهم يقطعون الاشجار وقتل منهم
ما يزيد على خمسمائة رجل .

وكانت القوات الرومانية تستعمل المجانيق والاكباش لتهديم
الاسوار ، ولكن الذي يهدمه الرومان في النهار يعيد القرطاجيون
بنائه في الليل ، ولم يكفهم ذلك بل تجاسروا مرة على الخروج واشعال
البار في تلك الآلات الهدامة وبعد محاولات كثيرة فاشلة عدل
الرومانيون على التحاكي في الهجومات واقتنعوا باقامة حصار طويل
كله مشاق واتعب ، خصوصا وقد صارت حرارة الشمس لا تطاق ،
فكثر المرض وانتشر في جنود الرومانيين .

خريف ١٤٩ . ثم ان القنصل قنسورينوس رجع الى ايطاليا
لترئاسة عمليات الانتخاب فاستولى في طريقه على جزيرة الجامور ،
التي كانت امام خليج قرطاج (اكتوبر ١٤٩)

وحاول القرطاجيون في احدى الليالي الهجوم على معسكر الاعداء ،
فجاوزوا خندق الرومان ، وتقدموا الى السياج ، وشرعوا في قلع
الواحد واوتاديه ، فشبعر الرومانيون بالخطر من هذه المباغته ، لكن
خرج شببيون من باب مقابل للمجهة التي وقع عليها الهجوم ، وحمل
على القرطاجيين ففرقهم وبدد شملهم .

وكانت هذه المفاجأة المزعجة درسا وانذارا للمستقبل ، فبادر
القنصل الروماني ببناء جدران متينة مكان السياج الخشبي ، كما
اقام حصنا صغيرا على البحر لحماية عمليات انزال المؤن التي كانت
تاتيهم بها مراكبهم .

وبعد ان تمام تلك الاعمال اخذ معه ١٠٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ من

الفرسان ، وشرع فى غزو داخل البلاد لجمع الحطب والعلف والمؤونة
وكان (فامياس) كالشيطان ، يترصده فى كل مكان ، ويهجم
بغثة من مكنه على الجنود كلما وجد فيهم غفلة ، ويلحق بهم اضرارا
جسيمة ، ويفتك بهم فتكا ذريعا ، ثم يخفى بسرعة ويتوارى عن
الانظار .

وكان صدر بعل مقيما بعسكره قرب نفريس (Néphéris) فوق
هضبة منيعة تطل غربا على خنقة الحجاج حيث تمر اقرب طريق تربط
بين قرطاج وخليج الحمامات ، فكان صدر بعل يشرف على المواصلات
برا مع الساحل الشرقى الذى توجد به مدينة نابل المحافظة على
اخلاصها وولائها للبونيقيين .

فعقد مانيلوس عزمه على السير اليه والايقاع به . ولما توغل
الجيش فى ذلك المكان الموحش اشتد القلق بشبيون لما شاهده من
كثرة الشعاب ، والغياض ، والادغال ، والمنحدرات الوعرة ، زيادة
على وجود الاعداء فوق التلال . واستمر الرومانيون فى زحفهم الى
ان اقتربوا من معسكر صدر بعل ، ووصلوا امام مجرى واد (وهو
وادى بوعبيد) كان من اللازم النزول فيه للخروج الى جهته المقابلة .
فادرك شببيون فى الحين خطورة تلك العملية واثار الرجوع الى
الوراء . فاخذ زملاؤه يسخرون منه ومن تخوفاته ، ويصفونه بالجبن ،
ويقولون بان التقهقر بمرأى من الاعداء ، يزيدهم طمعا فيهم ،
ويشجعهم على الهجوم عليهم .

وقطع مانيلوس ذلك الوادى مع رجاله ، ودارت معركة طاحنة بين
القرطاجيين والرومانيين ، ولما اراد هؤلاء المرور من الوادى اثناء
رجوعهم ، اختل نظامهم ، فهجم عليهم صدر بعل وفتك بهم فتكا
ذريعا ، وجندل ثلاثة من كبار القواد الذين كانوا يستخفون بصائح
زميلهم ، واستمر صدر بعل فى تقتيلهم والتكيدل بهم ، وهم لا
يدافعون عن انفسهم لما نالهم من الحيرة والاضطراب . ولما راي
شبيون خطورة الموقف ، قسم كتائبه الى فصيلتين ، وامرهم بالهجوم
على العدو بالتعاقب ، فبمجرد ما تعود فصيلة بعد قذف حرا بها
ومزاريقها ، تهجم الفصيلة الاخرى ، وهذا التعاقب المطرد لا يترك
للعدو مهلة او راحة فيضطر الى كف الاذى عن الفرق الاخرى .
وهكذا تمكن القائد شبيون من انقاذ الموقف ، ولولا تدخله لهلك
الجنود عن آخرها .

وفى انشاء ذلك التجات فرق اخرى من الرومانيين الى ربوة ، فتوجه اليهم صدر بعل واحاط بهم من كل جانب فاصبح من المتعذر انقاذهم . فاجمع الآخرون على خذلانهم ، والتخلي عنهم ، وقالوا بانه لا يمكن ان تقع المجازفة بالكل فى سبيل انقاذ اقلية لا شان لها . اما شبليون فانه لم يوافق على هذا الراى ، وصرح بانه سيخلصهم جميعا او يهلك معهم . واخذ كوكبة من فرسانه ، وسار نحو ربوة اخرى مجاورة للتي حاصرها صدر بعل ، واويهمه بمناوراته العجيبة انه يريد تطويقه ، ففر هاربا برجاله ، ونجت الجنود الرومانية من الهلاك .

ولما عاد الى الجيش ، اقتبلوه بالاجلال والاکرام ، وتوجوه بالكليل الاعشاب ، وكان عنوان الشرف عند الرومانيين ، لا يمنح الا للابطال ممن امتازوا بالمائر والمفاخر .

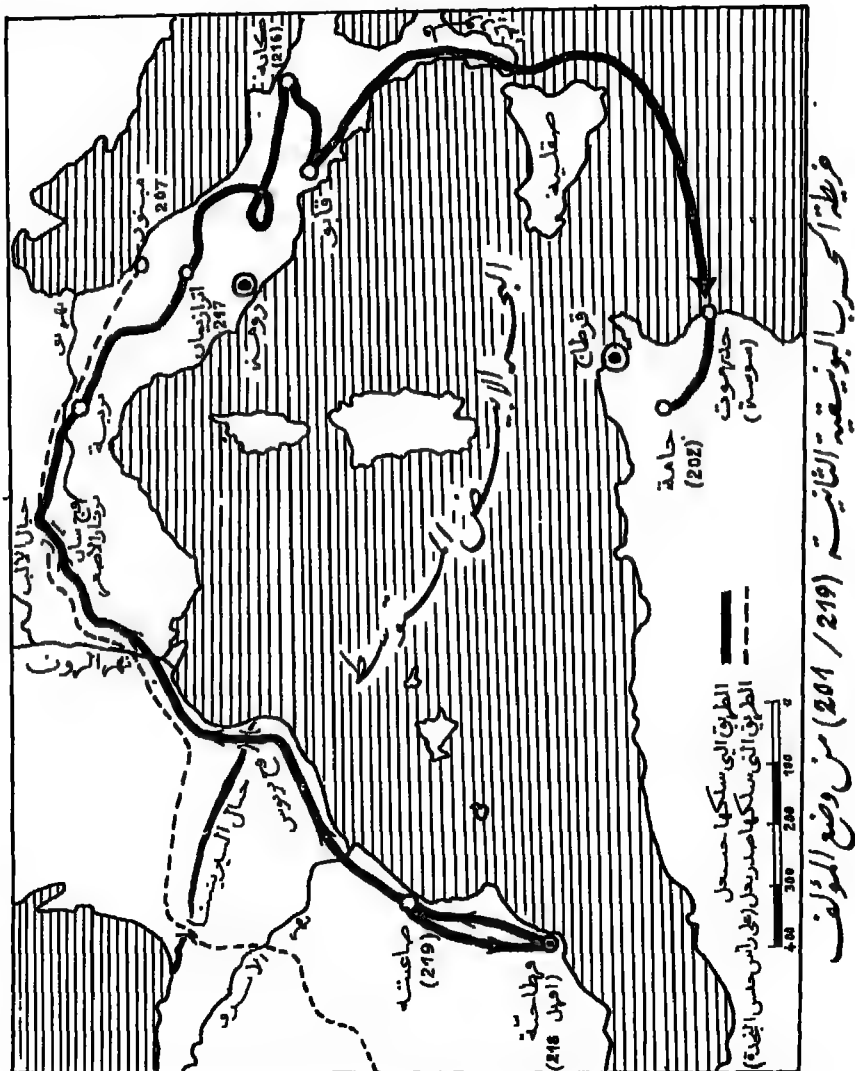
ووصلت تلك الاخبار الى مجلس الشيوخ برومة ، فازداد اعجابهم بشبيون وبشجاعته وذكائه ، رغما عن حداثة سنه .

فى بلدية شتاء ١٤٨ • مرض ماسنيسا مرضا عضالا ، واحسن بدنو اجله ، فاستقدم صديقه شبليون لعاصمة مملكته قرطة كى يوصيه بابنائيه خيرا . فاسرع شبليون اليه ، ولكنه وصل بعد موته بيومين . فقسم السلطة على ابنائه الثلاثة : فقلد ميسيبسا السلطة الادارية ، وولى غولوسة قيادة الجيش ، وخصص مستعنبعل بالسلطة القضائية . وبعدما انتهى من تلك الاعمال الهامة ، اخذ طريق العودة ، مصحوبا بالملك غولوسة ، وبمدد عظيم من القوات النوميديّة . وكان غولوسة خبيرا بحرب المناوشات والهجوم من المكامن ، الامر الذى اظهر فيه عدوه (فاماياس) تفوقا كبيرا وبراعة نادرة . فامكن له حينئذ ان يستعين به عليه .

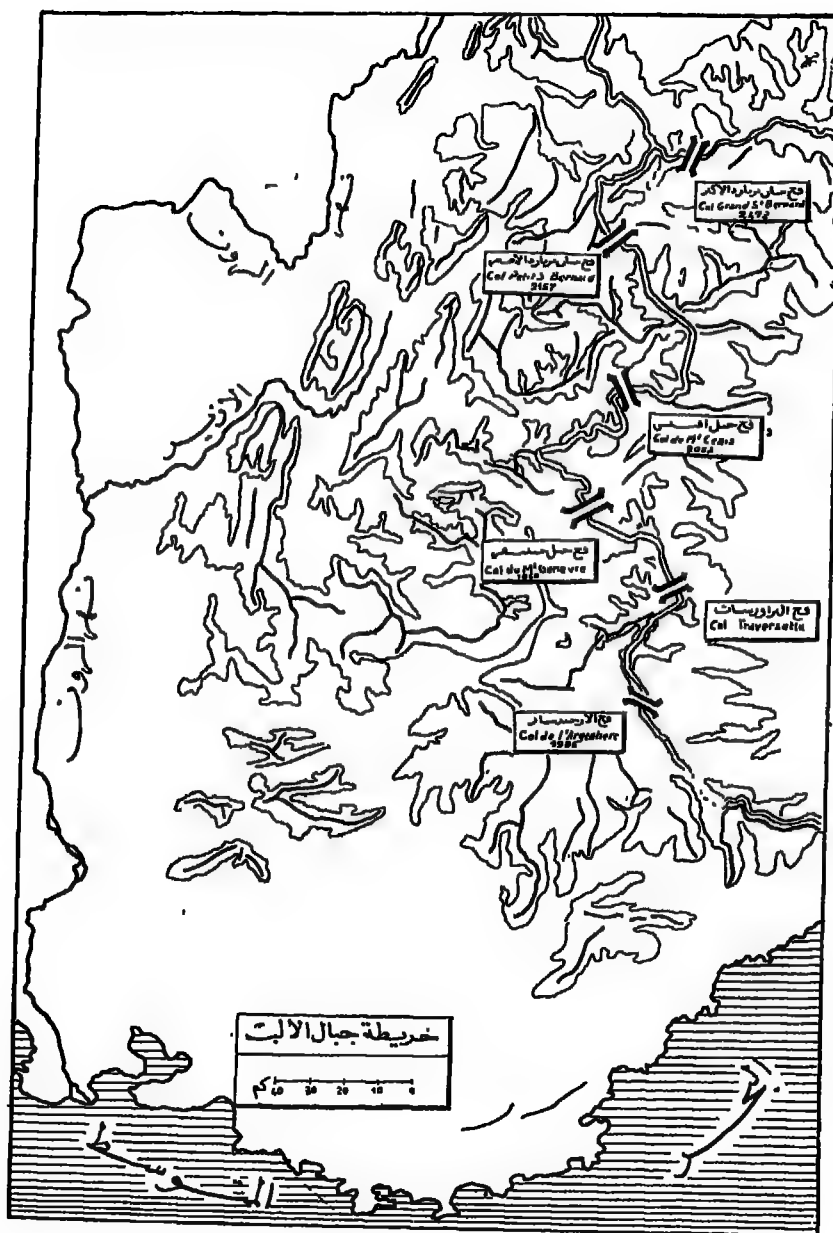
ولما راي الافريقيون ما اصبغ فيه شبليون من شدة وقوة وبأس ، اخذوا ينضفون الى صفوفه بعد ما كانوا يخلصون الود لقرطاج .

وفى تلك المدة اغار مانيليوس على بلدة تازاغة (Tezaga) ولعلها تازركة ، واوقع بها ، واشبعها سلبا ونهباً .

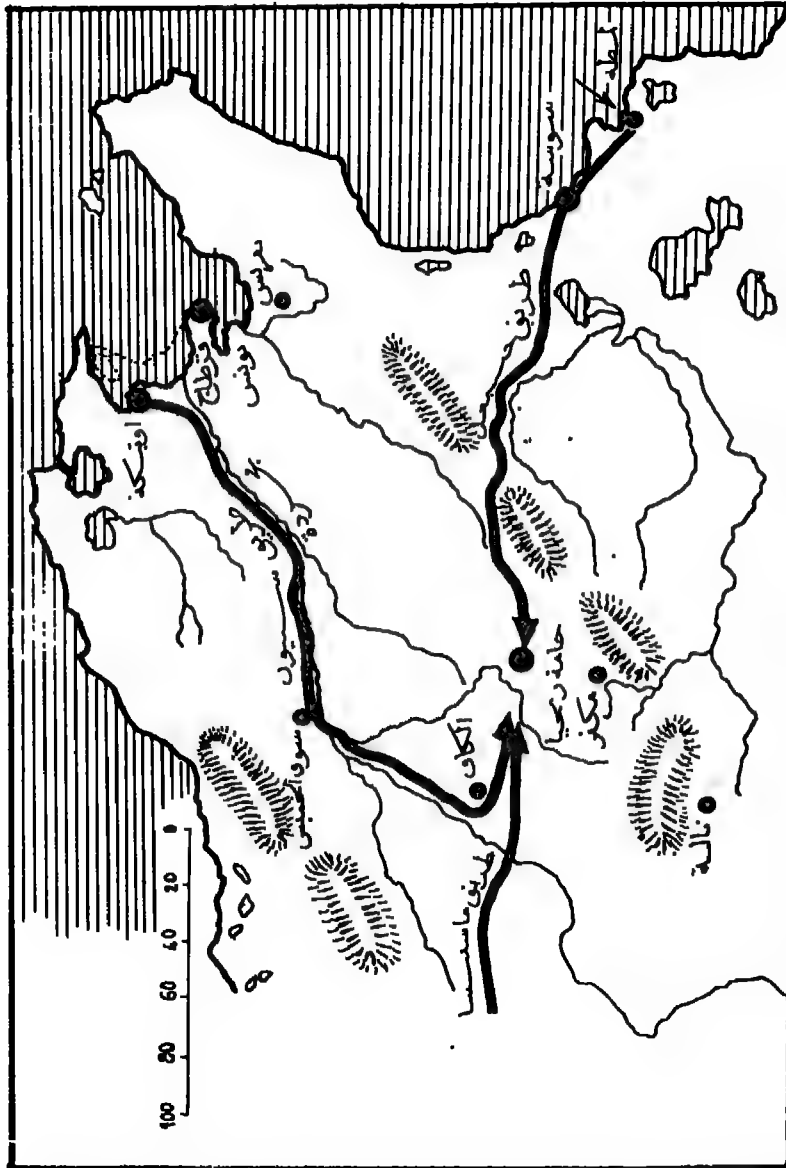
والتقى شبليون ذات يوم بعدوه (فاماياس) وكان يفصل بينهما مجرى سيل عميق ، فاقترب كل واحد من صاحبه (بل من



لوحة ٥٧
انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب



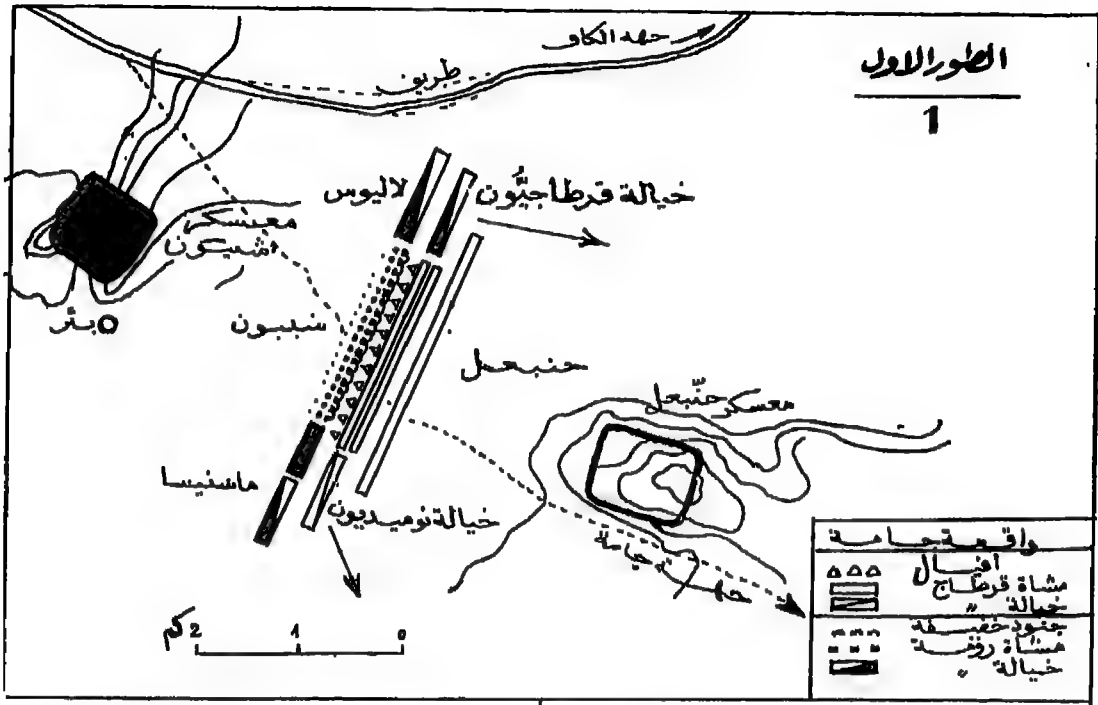
لوحة ٥٨
انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب



خريطة تنقلاات حنبعل وشييون وما سينا قبل معركة جامة

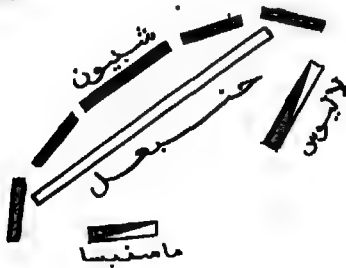
لوحة ٥٩
انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب

رسم لواقعة جامعة



الطور الثالث

3



الطور الثاني

2



عدوه !) على الضفة التي من جهته ، ولما وصلا الى مدى الصوت ،
اخذهم شبيون الكلمة وقال : « بما انك عاجز عن انقاذ بلادك فلماذا
لا تفكر في انقاذ نفسك ؟ »

فاجاب الآخر : « كيف يمكن لي ذلك بعدما الحقته بكم من الاذية
والمضرة ؟ »

فقال شبيون : « كن واثقا ومطمئنا ، فاني عفوت عنك ، وسترى
مننى ومن حكومتى كل خير . »

فائر عليه شبيون بكلامه ، واشتم منه رائحة الصدق والنصح
وبخلوص النية ، فانضم اليه مع رجاله ، فكان ذلك نصرا عظيما ،
وفوزا كبيرا سجلته رومة لشبيون .

في ربيع ١٤٨ . وفي آخر ربيع سنة ١٤٨ وقع تعويض مانيليوس
بالقنصل بيزو (Calpurnius Piso) ورجع مانيليوس الى رومة ،
وسبقه اليها شبيون صحبة رفيقه الجديد (فاماياس) الذي جادت
عليه رومة بالهدايا الثمينة جزاء عن سلوكه الحسن ، ووعده
بإضعافها ان تمادى في اخلاصه ، ووعدها ببذل حياته في خدمتها ،
وعاد الى افريقية ، والتحق بمعسكر الرومانيين .

في صيف ١٤٨ . اما القنصل بيزو فقد قضى كامل الصيف
والخريف في مهاجمة المدن التي لم تنعزل عن قرطاج مثل قليببية
ونابل وبنزرت . فلم تستسلم منها الامدينة نابل ، فعاث فيها فسادا
وبالغ فني نهبها رغما عن وعده الصريح لاهلها بانه لا يمسهم بسوء .

اما قليببية فقد هجم عليها من البر والبحر ولكن بدون جدوى . واما
بنزرت فقد نصب عليها حصارا طويلا استمر الى آخر الخريف ، ولكنها
صمدت في وجهه ، وقاومته ، واحرقت آلاته الحربية ، فارتحل عنها
في آخر الامر لقضاء فصل الشتاء باوتيكة .

في شتاء ١٤٧ وبينما كان بيزو يقضي راحته بمدينة اوتيكة ،
كان مجلس الشيوخ برومة مهتما بانتخاب شبيون قنصلا رغما عن
عدم بلوغه السن القانونية اي ٤٣ سنة (١)

(١) ولد شبيون سنة ١٨٥ فكان عمره حينئذ ٣٨ عاما لما انتخبوه قنصلا (اي
قبل السن القانونية بخمسة اعوام) .

وفى تلك الاثناء كان القرطاجيون يحاولون بجميع الوسائل وجود حلفاء من البريطانيين بالمغرب ، او من النوميديين ، وكانوا يقولون لهم بان رومة ستتقلب ضدهم ، وتستولى عليهم ، وتبذل كل جهدها فى اخضاعهم واستعمارهم اذا خرجت منتصرة وظافرة من حرب قرطاج

فى وبيع ١٤٧ • رجع شبيون الايميل الى افريقية بصفته قنصلا واخذ معه فى هذه المرة ايضا صديقه بوليبيس المؤرخ المشهور ولايوس وهو ابن القائد لايوس الذى كان رافق شبيون الافريقى فى الحرب البونيقية الثانية •

وبقدمه متمتعا بكامل النفوذ والسلطة اخذت الحوادث بافريقية شكلا جديدا ، وصارت تدور بحزم وجد ونشاط •

• فهو قد امر جنوده بان يتسوروا الحائط من جهة حى مجارة (Magara) وهى صاحبة قرطاج تقيم فيها الطبقة الثرية المترفة •

ومما ساعده على تنفيذ خطته وجود برج قديم مهجور ملاصق لذلك السور ، فاحتله الرومانيون ، وتسلكوا منه الى السور، ونزلوا الى الحى ، واسرعوا الى احد الابواب ففتحوه على مصراعيه ، فاندفع اليه شبيون على راس اربعة آلاف مقاتل ، واستقروا بتلك الناحية من المدينة ، وفر القرطاجيون مذعورين ، نحو قلعة بيرصة (Byrsa) المحصنة ، وكذلك الجيش الذى كان معسكرا هناك ، فهو قد تقهقر بدوره واحتوى باسموار المدينة • واضرم شبيون النار فى المعسكر الذى هجره القرطاجيون ، ثم حاول اقتحام الاسوار فلم يفلح لقوتها ومناعتها • فقرر العزم على مواصلة الحصار

وعاد شبيون الى مكانه الاول بعنق شبه الجزيرة التى تربض المدينة على ارضها ، وامر بحفر خندق يبلغ طوله ٤٥٠٠ متر على بعد غلوة (اى رمية سهم) من الاسوار ، ثم حفر خندق آخر مماثل له من ناحية البر ، ثم خندقين بالعرض على حاشية البحر شمالا والبحيرة جنوبا ، فاخذ هذا العمل فى مجموعه شكل حفرة مستطيلة مترامية الاطراف فاحاطها شبيون بالاطواد ، واقام من ورائها اسوجة على ثلاث جهات ، اما الجهة الرابعة المواجهة لقرطاج فقد بنى بها حائطا سمكه ٦ اقدام وارتفاعه ١٢ قدما بخلاف شرفاته ، وبنى ابراجا على مسافات متساوية ومتقاربة ، وجعل فى الوسط برجاً مرتفعا تعلوه بناية

خشبية ذات اربع طبقات فكان مرصدا يرى منه الانسان كل ما يقع في المدينة . وتم هذا العمل الجبار في عشرين يوما وعشرين ليلة كان الرومانيون اثناءها يشتغلون ، ويحاربون ، وياكلون ، وينامون بالتناوب . واقام الجيش بذلك المعقل الضخم الذى منع القرطاجيين من كل اتصال بالخارج عن طريق البر . وكان شبليون يريد بذلك ان يمنع عنهم المدد ، وان يحرمهم الغذاء الذى كان يفد عليهم من ناحية البر ، الى ان يستسلموا او يهلكوا جوعا

ولاحظ شبليون ان المؤونة صارت تاتيهم عن طريق البحر ، فصمم على ان يسد فى وجوههم ذلك الباب الوحيد الذى ما زال مفتوحا ، وذلك بسد مدخل المرسى بجون الكرم . فامر بجلب الصخور العظيمة وشرع فى بناء عرمة ضخمة ليمنعهم من كل اتصال بالخارج بحرا ، مثلما منعه من ذلك برا ، ودام هذا العمل شهورا طولا (فى صيف ١٤٧)

وكان القرطاجيون فى ذلك الوقت يشتغلون نساء ورجالا ، آناء الليل اطراف النهار ، لصنع اسطول جديد ، ولفتح ترعة تكون مدخلا جديدا للمرسى الحربى . وكانت هزم الاعمال تجرى بكيفية سرية وبدون ان يعلم بها العدو

وفى ليلة من الليالى ، بينما كان الرومانيون مطمئنين غافلين ، لم يشعروا الا وقد طلع عليهم اسطول لا عهد لهم به خرج من قناة لم تكن موجودة من قبل ، وكان هذا الاسطول يتالف من خمسين بارجة حربية .

فقام القرطاجيون فى سفنهم بحركات خفيفة لمجرد التباهى والابهة والظهور ، وعادوا الى اماكنهم ، ولو داهموا اعداءهم فى ذلك الوقت بينما كانوا فى اشد الدهشة والذهول ، لكبدوهم خسائر فادحة ، ولالحقوا بهم اضرارا جسيمة بل لتمكن لهم ان يستولوا على جميع القوات البحرية الرومانية ولكنهم اضاعوا تلك الفرصة الثمينة ، وفوتوها ولم يفكروا فى انتهازها لفائدتهم .

ومن الغد شرع شبليون فى الهجوم على تلك المحطة البحرية الجديدة اذ اراد ان يجعلها قاعدة عملياته الموجهة ضد المرسى . وكان من السهل عليه الوصول الى ذلك المكان المسطح بالسير على الارض المرتفعة المتكونة من السد او العرمة التى تم بناؤها بالصخور .

فامر بالاتيان بالآلات الحربية الثقيلة وباستعمال الكباش فاحدثوا
فى السور اثلاما عديدة

وعندما اقبل الليل خرج جم غفير من القرطاجيين كلهم عراة ،
مجردون تماما من ثيابهم ، فارتموا فى البحر وصاروا يمشون او
يسبحون الى ان استولوا على الجزء من المحطة الذى كان احتله الرومانيون
وتركوا فيه حامية لكنهم لم يشعروا بقدمهم ، وهناك اشعل
القرطاجيون مشاعلهم واضرموا النار فى الآلات الحربية . وكانوا ،
لشدة ما نالهم من الجوع والالم ، يرمون ويهجمون كالحیوانات الضارية
ويزدادون حقا وعنادا وشراسة كلما اصابتهم النبال واثخن
ابداهم العارية جراحا .

اما الرومانيون فقد هالهم ما راوه ، ولم يصبروا على المقاومة
طويلا ، بل عبروا طريق السد وفروا هاربين نحو معسكرهم حيث
زرعوا الرعب والقوا الذعر والهلع فى القلوب .

ولما طلع النهار اعاد شبليون الكرة ، وهجم بالات حربية اخرى
وتنكن من الاستيلاء على كامل المحطة .

فى خريف ١٤٧ . وفى شهر اكتوبر من سنة ١٤٧ طلب صديعل
من غولوسة ان يضرب له موعدا ، ولما تقابل معه اخذ يلتبس منه
التوسط لايقاف القتال ، والتدخل لدى شبينون لكى يعذل
عن تهديم المدينة .

فاجابه غولوسة بان طلبه هذا يدل على غباوة كبيرة ، اذ كيف
يعقل ان يقبل شبينون اليوم طلبا كان رفضه سابقا لما عرضه عليه
السفراء القرطاجيون قبل نشوب الحرب .

وتقابل صديعل معه مرة ثانية بعد ذلك بثلاثة ايام ، ولكن
ذهبت جميع محاولاته سدى .

فى شتاء ١٤٦ . واستمر ضرب الحصار على قرطاج .

ولكن جيوش القرطاجيين ما زالت كثيرة خارج المدينة ،
تسعى فى اىصال بعض المؤونة الى قرطاج بطرق ملتوية ، وزيادة
على ذلك فهى ربما تتجاسر فى يوم من الايام ، وتحمل على المعسكر
الرومانى . فهى خطر هائم . ولذلك عزم شبينون على تطهير البلاد
من تلك العشوش الفاسدة ، فارسل فرقا تجتأب البلاد طولاً وعرضا

وزحف بنفسه على المعسكر الذي ما زال مقيما قرب نفريس ،
وضرب الحصار عليه ، وكلف القائد لاليوس ، والملك غولوسية
بتشديد الحناق عليه : اما شبليون فقد كان ينتقل بسرعة بين قرطاج
ونفريس ذهابا وايابا ليسيير الاعمال ، ويشرف عليها بنفسه .

ودام حصار نفريس مدة ٢٢ يوما ، ثم فتحوها عنوة فشهدت
مجزرة من افضع المجازر :

وان نجاح الرومانيين في تلك الحملة الموفقة على نفريس ، ساعد
كثيرا على سقوط قرطاج ، اذ تضعفت احوالها من كل جانب ،
وانقطع عنها المدد والغذاء انقطاعا كليا ، فاشرف من فيها على الهلاك
جوعا .

في ربيع ١٤٦ . وفي شهر افريل ١٤٦ امر شبليون بالحملة
الكبرى على مرسى قرطاج ، وبدأت تلك الحملة من المحطة التي كان
استولى عليها الرومانيون منذ ما يقرب من سنة ، وكان الهجوم
موجها نحو المرسى الحربي المستدير ، والذي يجيئ به حائطان ، فمد
الرومانيون جسورا استحضروها في وقتها ، ومروا عليها ، وقطعوا
تلك الحواجز بكل جراحة ، ولم يصادفوا مقاومة شديدة من طرف
القرطاجيين الذين اضناهم الجوع ، وانهك قواهم ، وضعضع احوالهم
واصبح المرسى الحربي تحت تصرف الرومانيين .

ثم تقدم شبليون برجاله الى الساحة العمومية الكبرى التي كانت
مجاورة للمرسى الحربي ، فاستولى عليها وقضى ليلته هناك ، تاركا
جنوده تحت السلاح .

ولما طلع الفجر ، امر ٤٠٠٠ من جنوده بالسير الى معبد ابولون
والتمسك عليه ، واستعد لاكتساح القلعة المنيعة (بيرصة) .
فاتجه نحوها على راس رجاله ، وشقوا الشوارع الثلاثة المؤدية
الى تلك القلعة ، واخذوا يقتحمون منازلها ، ويصعدون بطبقاتها
الست ، ويقتتلون مع سكانها ، في البيوت ، وفي الشوارع ، وعلى
السطوح . وكانوا يستولون على البيوت بيتا بيتا بعد مقاومة عنيفة
وقتل شديد ، وكنت لا تسمع في كل مكان الا الانين ، والعيول ،
والصياح ، ولا ترى الا مناظر العذاب والموت .

وامر شبليون باضرام النار في ذلك الحى .

ثم تقدم بجيوشه نحو القلعة (بيرصة) واخذها عنوة .

• واستمرت قرطاج تشتعل مدة عشرة ايام كاملة • وسمح شبيون لرجاله بنهب المدينة فانهمكوا في ذلك مدة ايام عديدة •
وسلم شبيون ما كان في المكتبات الى ملوك نوميديا ثم انزل اللعنات على مدينة قرطاج وامر بتهديمها • فخربوا بنيانها ، وقوضوا اركانها ، وتركوها قاعا صفصفا (١٤٦)
ولم يتمالك شبيون من التاثر لهذا المشهد المريع ، فدمعت عيناه ، وقال متمثلا بهذا البيت لهوميير :
(طروادة سوف تلقى بدورها يوم نحس)
اي ان رومة سيأتي يومها وتدور عليها الدوائر !
وانجر عن سقوط قرطاج زوال الامبراطورية البونيقية وانقراض دولتها •
وكذلك هدموا جميع المدن التي كانت مؤازرة ومناصرة لقرطاج (بنزرت وقليبية ونابل)
اما المدن التي كانت في صف الرومانيين مثل اوتيكة وسوسة ولطة فقد منحتها رومة حريتها فصارت تعرف باسم « المدن الحرة »
وتركت رومة لنفسها الجزء من البلاد التونسية الذي كان تحت نفوذ القرطاجيين في الحرب الاخيرة ، وقد كنا وضعنا حدوده بكل تدقيق • وبذلك نشأت ولاية افريكا (Africa) الرومانية وعاصمتها اوتيكة رغما عن كونها مدينة حرة •

قراءة

النار ولا العار !

امتد الحرص على الحياة الى صدر بعل « القائد الاكبر ، فحاول الهرب من رفاقه ، والتقى بنفسه ، فاذا هو جاث على ركبتيه يلتمس العفو عند قدمي شبيون او قبل القائد الظافر ضراعتة ، وسار به يعرضه على انظار الفارين (les transfuges) فصبوا على الخائن لعناتهم ، وحصبوه بسخطهم ، ووثب الى نفوسهم عزم مبعثه الياس ومصدره انقطاع الرجاء ، فلو قدوا في المعبد

نارا ، وخيروها على الضراعة للقائد الظافر ، وقبول الذلة والهوان حرصا على الحياة. وبدأ المعبد وكأنه مرادق من نار .

فتقدمت زوجة صدر بعل ، وقد ارتدت افخر ما لديها من ثياب. ، وتحلت بأجمل ما تحلك من ادوات الزينة ، ووضعت طفليها الى جانبها ، والتفتت الى شببيون وقالت له فى مرارة الياس وجنون الجزع :

« اما انت يا بطل رومة ، وفخر رجالها ، فلا اطلب الى السماء ان تنزل نقمته بك ، لانك لم تفعل الا ما اقتضته نوااميس الحرب وسنن الانتزاع .

اما هذا صدر بعل ، هذا الحائن لوطنه ، وآلهته ، وزوجه ، فانى اضرع الى السماء ان تصليه عذابا وتكالا »

ثم التفتت الى زوجها ، وهى تصر اسنانها ، وقالت له ، والغيظ يطل من عينيها :

« ايها الدنى الحائن الجبان ، الاستقبل انا مع طفلى الموت بين ثنايا اللهب ، ونتخذ النار الحامية مقبرة لنا ، وانت ، قائد قرطاج العظيم ، تتوج انتصار العدو بخيانتك البشعة ، وتكلم ظفرك بهوانك ومذلتك ؟ »

ثم صاحت : « النار ولا العار ! »

وغيببت الحنجر فى جسم كل من طفليها ، وقذفت بحثيئهما الى اللهب المندلع

وفعلت بنفسها ما فعلته بهما .

الدكتور توفيق الطويل

(قصة الكفاح)

خلاصة ما تقدم

الحروب البونيقية

سببها : امتداد نفوذ القرطاجيين بالبحر المتوسط وعلى
الاخص بصقلية التي هي قريبة من ايطاليا ، الشيء الذي
ازعج رومة وجعلها تفكر في الهيمنة بدورها على البحر المتوسط
ولا يكون ذلك الا بمقاومة قرطاج والتغلب عليها .

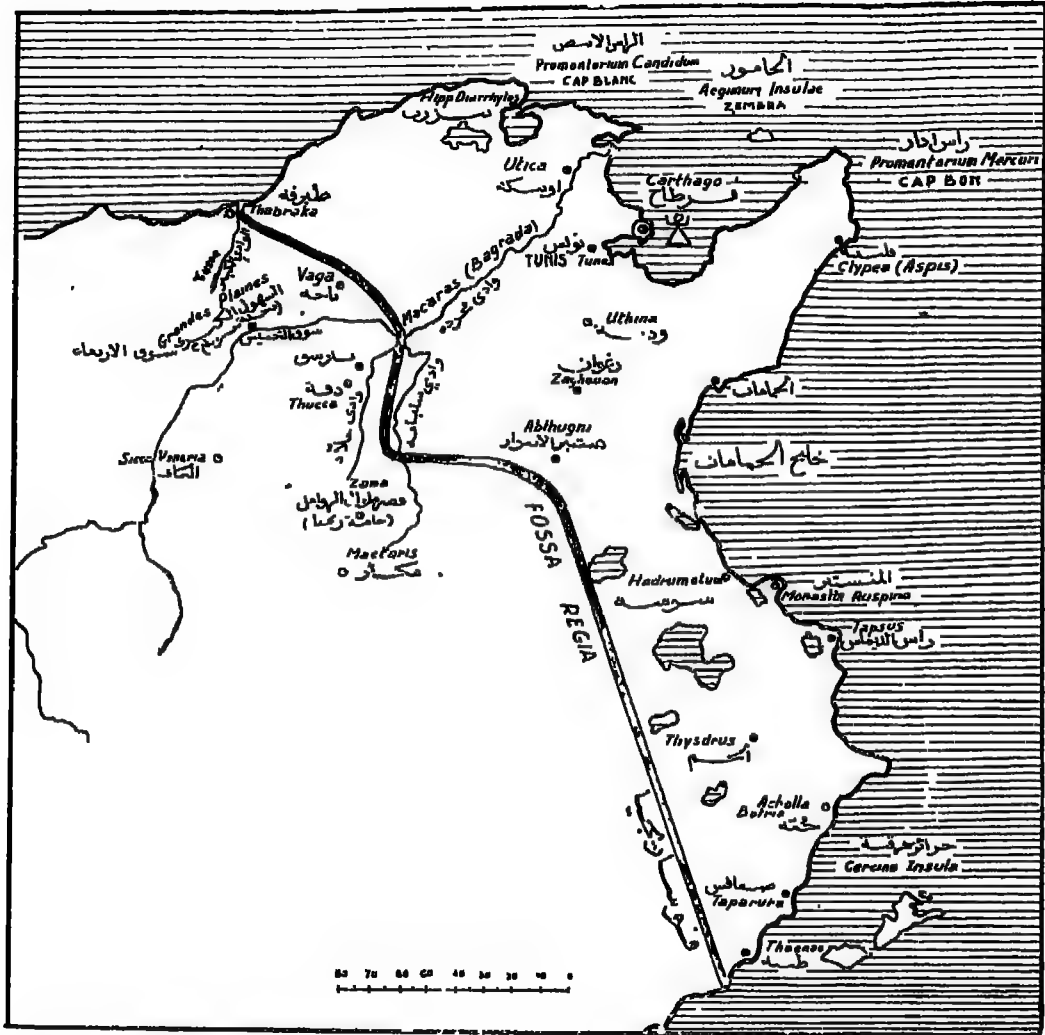
ودامت هاته الحروب ٢٨ سنة (من ٢٦٤ الى ١٤٩ ق م)
وهي تنقسم الى ثلاثة حروب :

الحرب البونيقية الاولى (٢٦٤ - ٢٦١ = ٣ سنوات) سببها
حروب متوالية وقعت بين القرطاجيين الذين كانوا مستعمرين
الجهة الغربية من صقلية (المواجهة لقرطاج) وبين الاغريق
الذين كانوا مستعمرين الجهة الشرقية من صقلية (المواجهة
لرومة) ، وكان النصر تارة للاغريق وتارة للقرطاجيين ...
الى ان استولت قرطاج على (مسينه) سنة ٢٦٨ فصارت وجها
لوجه امام رومة . وعند ذلك احدثت هاته الاخيرة بالخطر ،
فدخلت في المعركة في صف الاغريق طبعاً ، وكانت تلك هي
الحرب البونيقية الاولى التي دامت من ٢٦٤ الى ٢٦١ . وكانت
جنود القرطاجيين مؤلفة من الماجورين تحت قيادة (علقاد)
وانتهت هاته الحرب بانتصار الرومان فخسرت قرطاج جزيرة
صقلية وسلمتها الى رومة ، وعاد الجند الماجور الى افريقية .

ثورة الجند الماجور والكفاح التحريري

كانت حكومة قرطاج عاجزة عن دفع اجور جنودها بعد
عودتهم من صقلية فثار الجند وانظم اليه جم غفير من الليبيين
وعلى راسهم زعيم الحركة التحريرية الليبية (ماطوس) وهو
يقود معه سبعين الفا من الليبيين للتخلص من ضغط قرطاج
التي افكت اموالهم واثقلت عليهم وطأة الضرائب ورتجت بهم
في السجون واساءت معاملتهم . فكلفت قرطاج القائد

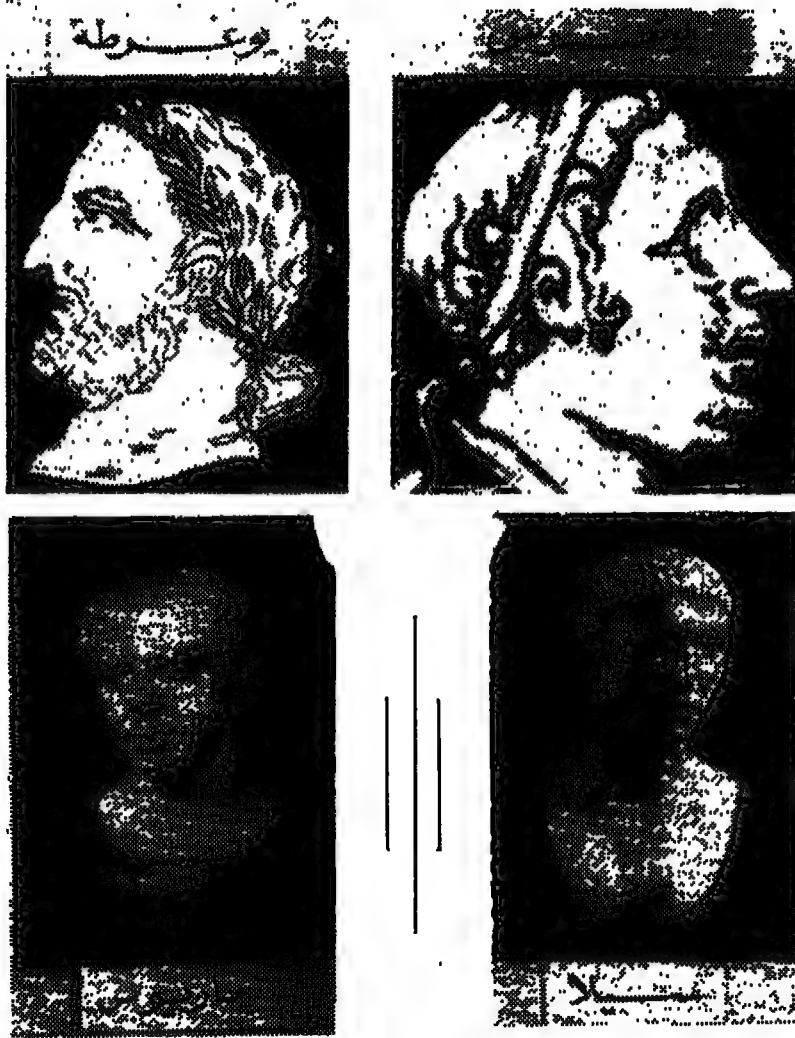
لوحة ٦٠
انظر الصفحة رقم ٢٤١/٢٩٥ من هذا الكتاب



فوسا ريجيا FOSSA REGIA (من وضع وصنع المؤلف)

او الحدود المحدود الموطاة - المودنة (في آخر العهد الويسى) (أحد الويسمة الثالثة)
او الحدود الروماسة - المودنة (في أول العهد الروماني) أفريقيا

لوحة ٦١
انظر الصفحة رقم ٢٨١ من هذا الكتاب



- من فوق : فلاك يوغرطة وحليفه الخائن بوخوس
- من تحت : ماريوس وعضده سيلا

لوحة ٦٢
انظر الصفحة رقم ١٦٩ والصفحة رقم ٢٨١ من هذا الكتاب



لرستان الملك يورطة (عهد قزاقانوس) وهم من التويميين كانوا يركبون الخيل بلا سرج ولا بجام

لوحة ٦٣
انظر الصفحة رقم ٢٦٣/٢٦٢ من هذا الكتاب

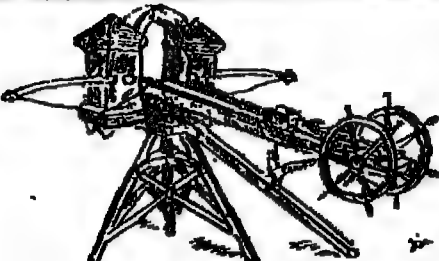
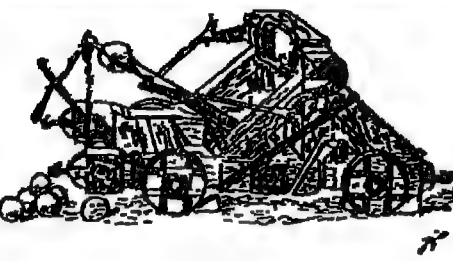
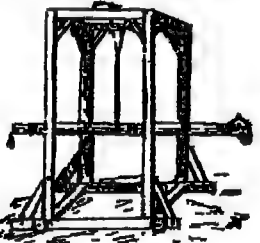



خريطة ايطاليا القديمة

الآلات الحربية الثقيلة عند القرطاجيين والرومان

المنجنيق : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل للقف الحجارة او لرمى النبال ، وكانت هذه الآلة ترمى بقذائفها التي يبلغ وزنها احيانا ٨٠ كيلو غراما الى مسافات بعيدة نحو ٥٠٠ او ١٠٠٠ متر . وكانت هذه الآلة مستعملة عند الاغريق والمقدونيين والرومان والقرطاجيين

- العرادة : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لرمى النبال او القذائف التي لا يتجاوز وزنها ٢٥٠ رطلا على مسافة ١٢٠ او ١٥٠ مترا ، وكانوا يعملونها فوق عربة خاصة

	
<p>الحَرَادة La baliste</p>	<p>المنجنيق La catapulte</p>
	
<p>الكبش المعلق Le béliet suspendu</p>	<p>الكبش اليدوي Le béliet à bras</p>

الكبش : آلة من آلات الحرب الثقيلة كانت تستعمل في الحصار ، وتلقف على جدران الحصون ، فكانها كبش ينطح . وكانت تتركب من خشبة طويلة وضخمة تنتهي بكتلة حديدية في شكل رأس الكبش ، وتستعمل اما معلقة في جهاز كالدابة - او محمولة بايدي الجنود .

(عملقار) بمقاومتهم ، فظهر في ذلك مقدرة فائقة ، ودهاء كبيراً حتى حاصرهم في جبال قرب الحمامات وافنأهم عن آخرهم .

الحرب البونيقية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢ = ١٦ سنة)

اقسم (حنبعل) ، وكان طفلاً صغيراً عمره تسع سنوات ، اقسام امام الآلهة وبمحضر ابيه القائد عملقار ، ان يكون طول حياته عدواً لرومة . ولم يخلف ما عاهد عليه الآلهة اذ ان حياته كانت كلها صراعاً عنيفاً بينه وبين عدوته وعدوة بلاده .

اجتاز (حنبعل) جبال الألب الشاهقة ومعه جيش كبير وفيلة ، ودخل ايطاليا ، وانتصر على الرومانيين في وقائع حربية كثيرة اشهرها واقعة (كانه) ، واستولى على كل ايطاليا تقريباً ما عدى مدينة رومة والجزء الرومانى اللاتينى من ايطاليا وجعل مركز قيادته العامة مدينة (قابو) ٥٠٠ لهم تارنتة واقام هناك سنين طويلة يترقب المدد من قرطاج ليضرب ضربته القاضية برومة ويتم له النصر النهائى . لكن لم يات به اى مدد ا

وكان وجود حنبعل ببلاد الرومان قد اقلق بال حكومة رومة ، فرمت بقائدها (شبيون) وقذفته على ارض افريقية فارتعدت افرائصها بدورها ، وانتقل الخوف اليها

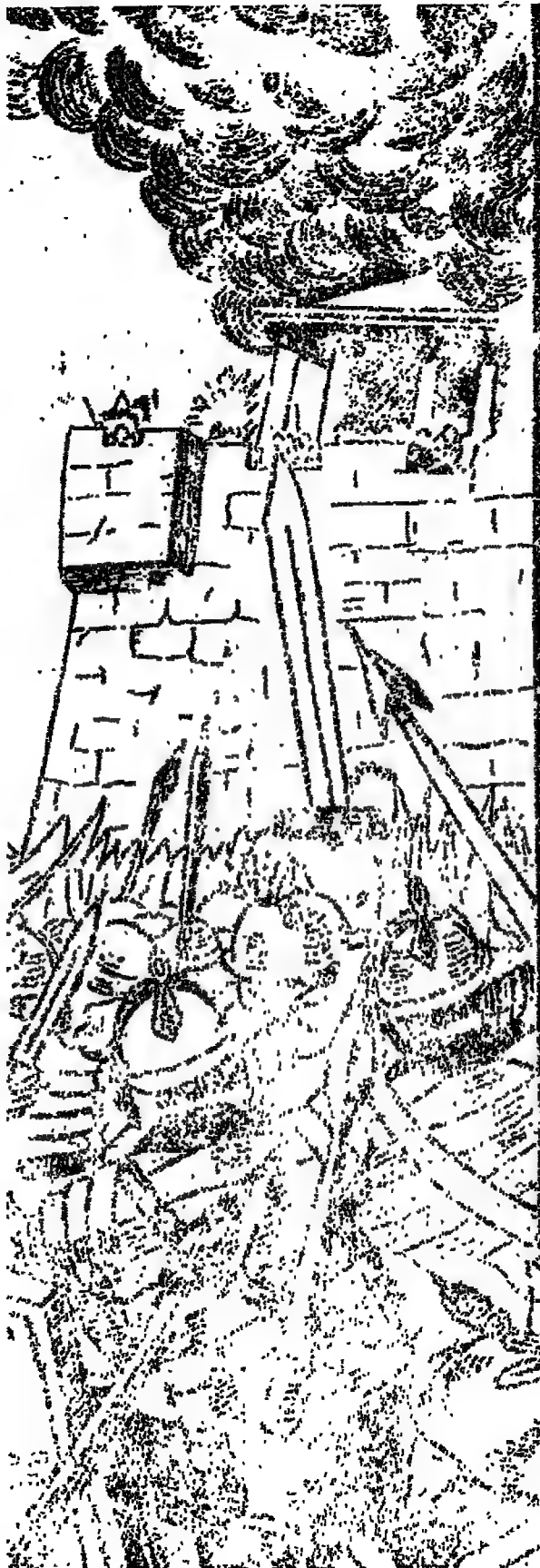
فاستقدمت في الحين قائدها حنبعل من بلاد الرومان ليصفى حساب هذا العدو المزعج . لكن (شبيون) قد استمال بحيلته ودهائه اعظم امير من امراء الليبيين النوميديين وهو الاقليد (اى الملك) ماسنيسا فصار هذا الملك من اكبر انصاره وحلفائه . اما قرطاج فقد تحالفت مع ملك آخر من ملوك نوميديا وهو (سيفاكس) ملك مدينة قرطبة (قسنطينة اليوم بالجزائر) وزوجته بالاميرة القرطاجية الشهيرة (سوفونيسبة) لكن (ماسنيسا) انتصر على خصمه سيفاكس واحرق معسكره واخذ اسيراً وسلمه لشبيون فبل مجيء حنبعل . تم بعدما قدم حنبعل التقى به شبيون على راس جيشه ومعه ماسنيسا على راس فرسانه النوميديين في مكان قرب مكنر يقال له

جامعة (زاما ريچيا) وانتصر عليه ايضا (سنة ٢٠٢) وبذلك انتهت الحرب البونيقية الثانية وكانت شروط الصلح قاسية جدا على قرطاج . اما ماسنيسا حليف الرومان ، فقد ضم اليه جميع مملكة خصمه (سيفاكس) فصار على راس امبراطورية شاسعة جعلته يفكر فى تكوين وحدة مغربية كبيرة ومستقلة . وقد التزمت قرطاج لرومة ضمن شروط الهدنة بعدم اشهار الحرب على حليفها ماسنيسا

الحرب البونيقية الثالثة : ١٤٩ - ١٤٦ = ٣ سنوات

لكن ما لبثت قرطاج ان استرجعت قوتها ، واستعادت مكانتها حتى انها دفعت لرومه جملة واحدة الغرامة الحربية الثقيلة التي كانت التزمت بدفعها اقساطا ، الشيء الذى حير بال عدوتها . وكان احد كبار مجلس الشيوخ برومة وهو (قاطون) يكرر دائما فى خطباته ويردد دون انقطاع كلمته المشهورة (هدموا قرطاج ا) فانتهزت رومة مناسبة وجود مناوشات حربية بين قرطاج والمليك ماسينيسا ، فارسلت جيشها تحت قيادة (شبيون الاصغر) . فركنت قرطاج فى اول الامر الى الصلح رغما عن قساوة الشروط ، وسلمت كامل اسطولها واسلحتها وعتادها .

وكان ذلك خديعة من طرف الرومان ، اذ انهم بعدما تحصلوا على الاسلحة اشترطوا عليهم الخروج من عاصمتهم قرطاج ليقع تهديمها ، واختيار مكان آخر يكون بعيدا عن السواحل وعندئذ فهم القرطاجيون انه لم يبق لهم الا المقاومة والحرب . وفى الحين انقلب ذلك الشعب من رجال تجارة ومال ، الى ابطال حرب وقتال واطهروا نساء ورجالا شجاعة لم يذكر التاريخ مثلها ودام الحصار مدة ثلاث سنوات ثم بعد الحملة الاخيرة استمرت المقاومة فى السوارع والديار مدة اسبوع كامل . وفى آخر الامر استسلم القائد (صديرعل) لعدوه (شبيون) فلم تتحمل زوجته ذلك الموقف المخجل فالقت بنفسها فى النيران وهى تسبه وتلعنه لانه لم يمت موة الابطال . وانتهت الحرب البونيقية الثالثة (١٤٦) بتخريب قرطاج .



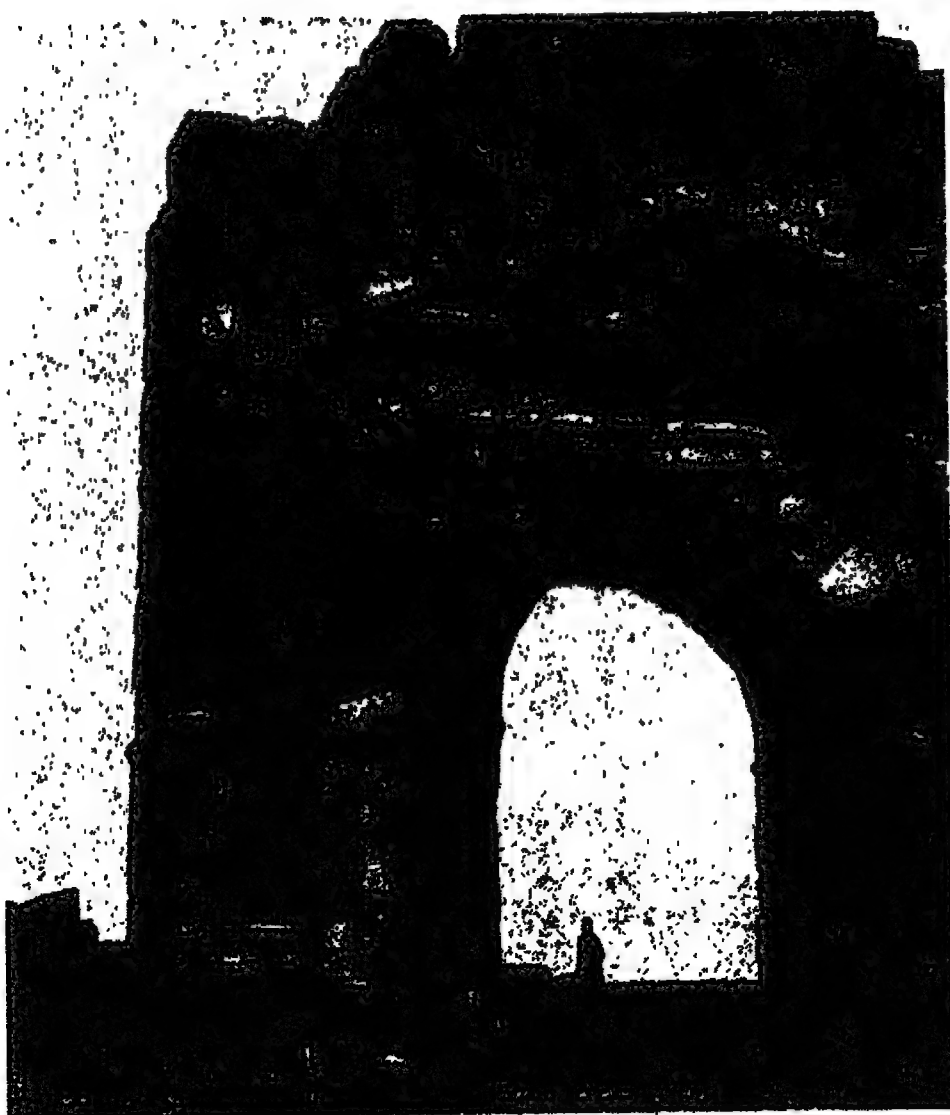
الحرب
التيقنية

الثالثة

انتهت

بتحريب
قسطاجنة

المدنية الافريقية والنوبية والموريطانية بالمغرب العربي في عهد الرومانين



التعريف بايطالية ورومة والرومانيين

ان رومة فى وسط ايطالية ، وايطالية فى وسط العالم القديم ، اذ انها تشق البحر المتوسط فى وسطه ، وبعبارة اخرى ، تتوسط البحر المتوسط ، فهي حينئذ فى وسط الوسط . وهذا الموقع المركزى الممتاز هو الذى جعلها تبسط نفوذها ، وتمد سلطانها على كامل حوض ذلك البحر .

على ان موقع رومة الممتاز ، او توسط ايطالية ، لم يكن فى الحقيقة السبب القوى او الجوهري فى عظمة الرومانيين ، او لم يكن السبب الوحيد على الاقل ، وان السبب الحقيقى فى ذلك يرجع الى خصال اخلاقية ، وفضائل ادبية سامية مكنت رومة من الصعود بسرعة ، وذلك مثل الثبات ، والشجاعة ، والاقدام ، والغيرة القومية ، والتفانى فى سبيل الوطن ، وحب النظام ، والطاعة والامتثال للوامر ، وكذلك الشعور بشئ من النخوة القومية تلك كلها محركات وعوامل قوية رفعت الجمهورية الرومانية الى اعلى الالاق .

وايطالية هى شبه جزيرة طويلة ، تمتد من جبال الالب الى قرب البلاد التونسية ، بين البحر الادرياتيقي شرقا ، والبحر التيرانيانى غربا .

وتنقسم ايطالية الى جهتين واضحتين : ايطالية الاقليمية (اى البرية) شمالا ، وايطالية البحرية (وهى شبه الجزيرة) جنوبا .

فاما ايطالية الاقليمية ، اى سهول بو ، فقد استولت عليها من قديم الزمان اقوام الغاليين (Gaulois) ولذلك لقبوها باسم « غالية امام الالب » (Gaule Cisalpine) لتمييزها عن « غالية وراء الالب » (Gaule transalpine) وهى فرنسة اليوم

واما ايطالية البحرية التى شبهوها بالسحواء اى بحذاء طويل (botte) ، فهي وحدها التى كانوا يطلقون عليها فى القديم اسم (ايطالية) . وقد اقام بها اقوام مختلفة :

١ - **الاثرورويون** (Les Etrusques) في الشمال ، اى في جهة اثروريا (Etrurie) ، وهى الجهة التى تسمى الآن تسكانة (Toscane) بين نهر التيبير ونهر ارنو ، واهم مدنها بلنسة (فى القديم Vulsinies واليوم Bolsena) ، ثم تجاوزوا نهر التيبير ، وامتدوا على الساحل الغربى ، واستولوا على جهة كمبانيا (Campanie) على خليج نابلى ، واهم مدنها قابو (Capoue) .

وكانوا اصحاب مدنية عريقة لها شبه كبير بالمدنية الفينيقية ، وكانوا فى تقدم محسوس من النواحي الفلاحية ، والصناعية والتجارية ، وكانت لهم مصاهر يعالجون فيها معادن الحديد المستوردة من جزيرة آلبه (Ile d'Elbe) وهم الذين كانوا ابتكروا بناء المنازل المشتملة على صحن الدار ، اى على ساحة بدون سقف (atrium) فقلدهم الرومانيون فى ذلك ، ثم قلدها بدورنا الرومانيون ، وبيننا ديارنا على ذلك الشكل بالبلاد التونسية .

٢ - **الاغريقيون** (Les Grecs) فى جنوب ايطالية وفى شرق صقلية ، وهو ما يعرف باسم اغريقيا العظمى (La Grande Grèce)

واهم مدنها : نابلى وتارنته بايطالية ، وسرقوسة بصقلية . وفى هذه المدن المزدهرة بصناعاتها وبتجاريتها ، والممتازة بموقعها فى جهات خصبة على البحر ، كانت تلمع الحضارة الاغريقية وتشبع بانوارها ، وكانت تجرى حياة ملآنة بالرياضة البدنية ، والثقافة العقلية ، والرقة الشعرية ، وبالفلسفة والادب ، وبالموسيقى والفن ، مثلما كانت تجرى ببلاد اليونان تماما .

٣ - **اللاتينيون** (Les Latins) فى الوسط . كانوا شعوبا وقبائل متخشنة ، كلهم رعاة وفلاحون بين شعبيين متمدنين ، الاثروري شمالا ، والاغريقى جنوبا ، تشع منهما حضارة لامعة ، وتنبعث منهما انبعاثا . وكانوا ينقسمون الى اربعة شعوب ، وكل شعب الى قبائل ، وهذه الشعوب هى :

- اللاتينيون (Latins)

- والصابيون (Sabins)

- والابريون (Ombriens)

- والسمنيون (Samnites)

فاما اللاتينيون فانهم كانوا يقيمون بارض لاطينيا (Latium) وتقرا لاسيوم) اى بسهل نهر التيبر (تيبريس) بين النوريا واغريقيا العظمى ، فاخذوا عنهما الحضارة والمدنية ، وتعلموا الفلاحة والزراعة وفن البناء ، واقتبسوا المؤسسات السياسية والدينية ، فكونوا **الدولة الرومانية** بعد تاسيس رومة .

واما الصابيون والابريون والسمنيون ، فقد كانوا يسكنون جبال الابروز (Abruzzes) التى تحيط بسهل لاطينيا وترتفع حوله كانها اسوار من صخور ، فكانوا فقراء ، منعزلين عن كل حضارة ، بعيدين عن كل اختلاط ، وكانوا على غاية من الشراسة والفظاظة والغلظة .

- رومة والدولة الرومانية

وفى ارض لاطينيا (Latium) ، قرب مصب نهر التيبر ، ترتفع مجموعة مؤلفة من سبع هضاب ، ومن بينها هضبة اعلى منها جميعا ، وهى هضبة البالاتن (Palatin) يبلغ ارتفاعها ٥١ مترا ، فكانت هذه الهضاب المنيعة شبه الحصون الطبيعية ، تشرف على الطريق المذهبة من الشمال الى الجنوب .

وتذكر الاسطورة والرواية المانورة التى تناقلها الرومانيون جيلا بعد جيل ، ان رومولوس (Romulus) هو الذى انشا مدينة رومة فى ٢١ افريل ٧٥٤ فوق هضبة البالاتن

ثم اخذ نفوذ رومة يتسع ويمند شيئا فشيئا ، واخذت الدولة الرومانية تنشا وتكبر وتنمو وتترعرع .

النظام الملوكى

وكانت حكومة رومة فى بديهة امرها حكومة ملوكية ، وكان رومولوس مؤسس رومة اول ملك بتلك المدينة ، ولم يكن الملك وراثيا ، بل كانوا ينتخبون الملك بالتهليل والتهافت وبدون تصويت . وكان مجلس الشيوخ موجودا من ذلك الوقت ، وكان يحدد سلط الملوك وكذلك مجالس الشعب . وفى عهد الملك السادس سرفيوس تالوس Servius Tellus (من ٥٧٨ الى ٥٣٤ ق.م) وقح تقسيم الشعب الرومانى الى ١٩٣ وحدة مائوية (centuries) . والوحدة المائوية او السنتورية كانت عبارة عن وحدة ادارية او عسكرية مؤلفة من مائة شخص او مائة جندى عند الرومان القدماء وذلك بالنسبة للمرتبة الاستثنائية او مرتبة الفرسان (Chevalliers)

ومن عدد من الاشخاص يفوق المائة طبعا تعادل ثروتهم ثروة وحدة الفرسان التي اصبحت وحدة قيس تقاس عليها بقية الوحدات الاخرى بحيث تكون كل وحدة مائوية متساوية فى الثروة هى والاخرى ، ويكون طبعا عدد الفقراء اكثر من عدد الاغنياء لتاليف وحدة مائوية (une centurie)

والاغنياء فى هذه الوحدات المائوية هم الذين كانوا يدفعون الضرائب ويستخدمون فى الجيش اكثر من غيرهم ، بينما كانت الدرجة الاخيرة وهى طبقة الفقراء (Prolétaires) معقاة تماما من الضرائب ومن الخدمة العسكرية

وهذا الجدول يبين تقسيم الشعب كله الى ١٩٣ وحدة مائوية والى سبعة اقسام حسب تفاوت ثروتهم :

العدد	الدرجات حسب الثروة	الوحدات المائوية
١	- الدرجة الاستثنائية : مرتبة الفرسان (١)	١٨
٢	- القسم الاول (المشاة الاغنياء)	٨٠
٣	- القسم الثانى (صفار الملاكة)	٢٦
٤	- القسم الرابع (صفار الملاكة)	٢٠
٥	- القسم الثالث (صفار الملاكة)	٢٢
٦	- القسم الخامس (صفار الملاكة)	٢٦
٧	- طبقة الفقراء (لا يملكون شيئا)	١
	المجملة ١٩٣	

ومن هذا الجدول نفهم ان الاغلبية كانت تحصل بمجرد تصويت النمائى عشرة وحدة مائوية التابعة للفرسان ، والثمانين وحدة مائوية التابعة للمشاة الاغنياء (المجملة ٩٨ صوتا) ، ويقع الاستغناء تماما عن تصويت الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة ، ونفهم حينئذ بكيفية جليلة واضحة كيف ان زمام الامور كان بيد الطبقة الارستقراطية اى طبقة الاغنياء .

ثم اتى بعده الملك طارقينوس وهو الملك السابع والاخير (مات (١) مرتبة الفرسان : الذين يملكون فرسا

(سنة ٤٩٤) وكان جائرا ومستبدا على الاغنياء ، ومائلا للفقراء والضعفاء ، فصار الاغنياء يكرهونه ويبغضونه ويطرصدون القرص للانتقام منه والقضاء عليه ، الى ان وقعت فضيحة ابنه سكستوس الذى اعتدى على شرف ابنة عمه العفيفة الطاهرة لوكريس ، وهتك سترها ، فانتهزت الطبقة الارستقراطية تلك الفرصة واتارت عليه سخط الشعب والجيش ، فاطرد هو وابنه ، والفى النظام الملوكى ، وحل محله النظام الجمهورى (سنة ٥٠٨) .

فدام هذا النظام الملوكى ما يقرب من قرنين ونصف ، اى من تاسيس رومة سنة ٧٥٤ الى سنة ٥٠٨

النظام الجمهورى

ثم اعقبه النظام الجمهورى المرتكز على طبقة الاشراف (Les patriciens) وكانوا وحدهم معتبرين من الشعب الرومانى . اما طبقة الرعاى (Les plébéiens) فانهم كانوا لا يعتبرون من الشعب بل يعتبرون كالاغانب ، ولا يشاركون فى الحكومة ، وفى الامور الدينية ، ولا يقترونون بالاشراف .

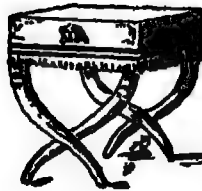
وكان زمام الحكم فى قبضة مجلس الشيوخ المتركب كله من الاشراف .

وفى كل سنة يقع انتخاب قنصلين من الاشراف لمدة عام واحد فكانا يقومان مقام الملك ، ويقودان الجيش ، ويراسان مجلس الشيوخ ومجلس الشعب .

وكان الشعار الذى يميزهما : الحلة (la robe prétexte) وهى



٣ - الجنادة (حراس القنصل)



٢ - كرسى الماج



١ - الحلة والعصا

حلة بيضاء ذات حاشية من ارجوان ، وعصا من العاج ، وكرسی من العاج ، (la chaise curule) ، والجنادة (les licteurs) وهم اثنا عشر جنديا او حارسا يحمل كل واحد منهم حزمة مربوطة من العصي ، شددت فيها فاس للدلالة عما يتمتع به القنصل من حق القتل او الابقاء بقاء الحياة .

وكان الرومانيون يسمون كل سنة من السنوات باسم القنصلين اللذين كانا يعملان طيلتها، فكانت قوائم القناصل (fastes consulaires) عبارة عن رزنامة الرومانيين .

وهناك شبه كبير بين نظام الحكم بالجمهورية الرومانية ، وذلك النظام بالجمهورية القرطاجية .

وقد قاومت الطبقة الضعيفة وكافحت مدة طويلة تقرب من القرنين للحصول على المساواة في الحقوق مع طبقة الاشراف . وفي النهاية انتصرت وصارت تتمتع بجميع حقوق المواطن المدنية سنة ٣٦٧ ، والدينية سنة ٣٠٠ ، فاصبح الشعب الروماني موحدا ، واصبح كل افراده متساوين امام القانون، واصبح المواطنون ينقسمون الى اغنياء وفقراء بعد ما كانوا ينقسمون الى اشراف ورعا . اما حق الانتخاب فبعد ما كان يشترط فيه النبل والاشرف ، اصبح يقاس بالثروة والغنى الى ان يصير مرتبطا بمسألة السكن فقط ، وهذا هو السير التدريجي نحو الديمقراطية .

واليك سلسلة انتصارات هذه الطبقة الضعيفة التي اصبحت قوية بفضل ثباتها وتكتلها .

١ (تعيين محامين ونواب يدافعون عن حقوقهم يسمون المنبريين (tribuns)

٢ (الاعتراف بحقوق النزواج والمصاهرة بين الطبقتين العليا والسفلى .

٣ (الحق في المشاركة في وظيفة الوكالة المالية (Questure)

٤ (الحق في المشاركة في مجلس الشيوخ (Sénat)

٥ (الحق في المشاركة في القنصلية (Consulat)

٦ (الحق في المشاركة في البريطورية (Prétoriat)

٧ (الحق في المشاركة في مرتبة الحبر الاعظم (Grand Pontificat)

وقد تغير النظام السياسي تغييرا محسوسا ابتداء من القرن الرابع ، فصارت السلط مقسمة بين :

- ١ - القناصل (Les Consuls)
- ٢ - والقضاة المدنيين (Les Prêteurs)
- ٣ - ووكلاء الاحصاء (Les Censeurs)
- ٤ - ووكلاء المالية (Les Questeurs)
- ٥ - ونظار الابنية والملاعب (Les Ediles)
- ٦ - والمنبريين (نواب الرعاع) (Les Tribuns)
- ٧ - ومجلس الشيوخ (Le Sénat)
- ٨ - والشعب (Le Peuple)

- فاما القنصل ، وهو ارقى درجات حكام الدولة ، وعلى راس جميعها ، فهو خلف ملوك العهد القديم ، وقائد الجيش ، وصاحب السلطة القضائية الجنائية ، والمكلف باعداد القوانين بمشاركة مجلس الشيوخ .

ولم تدخل طبقة الرعاع في القنصلية الا ابتداء من سنة ٣٦٧ وبعد كفاح مبرر .
- وبجانب القنصل الذى يمارس القضاء الجنائى ظهر ، ابتداء من سنة ٣٦٧ ، الـبريطور لممارسة القضاء المدنى ، واصبح زميلا للقنصل . ولم تشارك طبقة الرعاع فى الـبريطورية الا ابتداء من سنة ٣٣٧ بعد كفاح مبرر آخر .

- واما وكلاء الاحصاء (سنسور) فان تسميتهم تقع لمدة ثمانية عشر شهرا ، ويتكفون باحصاء الاهالى وتقسيمهم من ناحية ثروتهم وباعداد الميزانية ، وبمراقبة الاخلاق العامة ، فهم المكلفون بحفظ النظام الاخلاقى . (Police des mœurs)

- واما وكلاء المالية (كستور) : فهم المكلفون بادارة الشؤون المالية وبحفظ النظام الجنائى (Police criminelle) وعددهم ثمانية : اثنان بايديها مفاتيح خزينة الدولة ، واثنان يرافقان القنصلين فى الحروب ، واربعة يتكفون بالاسطول .

- واما نظار الابنية والملاعب (ايديليس) فهم مكلفون بحفظ نظام البلدية (Police municipale) وبمراقبة الابنية ، وادارة شؤون الالعب العمومية ، والاهتمام بتموين المدنية

- واما تعيين المنبريين او نواب الرعاع (تريبونوس) فقد ظهر

ابتداء من سنة ٤٩٣ بعد كفاح طويل قامت به طبقة الرعاى ، وهو اول انتصار احرزت عليه هذه الطبقة ، ولكن دور هؤلاء المحامين عن حقوق هذه الطبقة الضعيفة اخذ يتجسم ويضبط بدقة ووضوح فى ذلك القرن الرابع ، فاصبحت مقاعدهم موجودة فى مجلس الشيوخ وعدم المصادقة عن القوانين،(droit de veto) واستمر لهم حق الرفض فلا يمكن عند ذلك اصدارها .

واما مجلس الشيوخ فهو ما زال يتألف من ثلاثمائة عضو ، ولم تقبل مشاركة طبقة الرعاى او العوام فيه الا ابتداء من سنة ٤٠٠ ق م . وكان هذا المجلس عبارة عن هيئة استشارية للنصح والارشاد وابتداء الرأى ، تحت تصرف القضاة والحكام السامين ، ولا يمكن له ان يبدى او يعيد بدون تدخلهم . فهو يعد القوانين ولكن الكلمة النهائية لمجالس الشعب ، ويضبط حدود الوظائف العمومية ولكنه لا يسمى القضاة والحكام ، وكان من مشغولات نظاره على الاخص تسيير السياسة الخارجية ، ومراقبة اموال خزينة الدولة .

— واما الشعب (le peuple) فكان يعقد مجالسه الانتخابية (Comices) لانتخاب القناصل وكبار الموظفين فى الادارة والقضاء ٠٠٠ او مجالس اخرى لاعلان الحرب او للمصادقة على القوانين التى اعدتها مجلس الشيوخ .

وقد اخذ الاطار السياسى والادارى يتسع شيئا فشيئا بحسب التوسع الاستعمارى والفتوحات فاحدثت مثلا :

وظيفة البروقنصل (Proconsul) : وهو لقب كان يحمله الولاة الرومانيون الذين كانوا مكلفون بادارة شؤون ولاية او بروقنصلية (Proconsulat) بجميع ما يتمتع به القنصل نفسه من سلطة ونفوذ ، وكان يجمع فى شخصه كل السلط العسكرية والمدنية والقضائية . وكان البروقنصل فى الغالب قنصلا قديما انتهت مدة عمله ، فيتعين فى خطة بروقنصل .

النظام الامبراطورى (Empire)

وانتهى النظام الجمهورى بالتزاحم المشهور بين يوليوس قيصر وبمبايوس ، وبالحرب الداخلية التى نشأت عن ذلك التزاحم ، وبانتصار قيصر على خصمه بمبايوس سنة ٤٨ ق م . وباستيلاء الديكتاتور

قيصر على جميع النفوذ ولمدة الحياة الى ان اغتاله بروتوس سنة ٤٤
ثم نشبت بعد موته حرب اهلية اخرى ٠٠٠ وفى سنة ٢٩ ق.م. بدا
حكم الاباطرة ، وبدا النظام الامبراطورى الاستبدادى الفردى مكان
النظام الجمهورى الديمقراطى

وفى عهد الاباطرة قسمت الولايات او املاك الدولة الى :

ـ **ولايات واملاك امبريالية** (للامبراطور خاصة)

ـ **ولايات واملاك قنصلية او سيناتورىة** (للدولة والشعب)

وظهر حاكم جديد بجانب القنصل وهو :

الآغا او نائب الامبراطور (légat) يختاره الامبراطور ويعينه
بنفسه ويحمل لقب :

ـ **البروقيراطور (Procurator)** او وكيل الامبراطور ، وهذا

اللقب كان يحمله الموظفون الرومانيون الذين يكلفهم الامبراطور
بنيابته فى الولايات . فكان (البروقيراطور) مندوب الامبراطور او
وكيل الامبراطور (ومن ذلك اتت الكلمة الفرنسية بروكيرو
procureur اى الوكيل)

وكان البروقيراطور اى الوكيل مكلفا باستخلاص بعض المحاصيل
والاموال لفائدة صندوق الامبراطور وخزينته الخاصة ، وبإدارة
شؤون الولايات والاملاك المعتبرة من املاكه الخاصة .
او لقب :

ـ **البروبريطور (Propraetor)** وهو لقب يحمله الولاة

الرومانيون الذين كانوا يقومون بوظائف واعمال البريطور (Praetor)
وكان البروبريطور (مثل البروقيراطور) يختاره الامبراطور ويعينه
بنفسه على راس ولاية امبرالية ليقوم بنفس الاعمال التى يقوم بها
البروقيراطور . وكان الفرق بينهما يتعلق لا بالوظيفة والنفوذ بل
بالمرتبة ، فبينما كان البروقيراطور من مرتبة الفرسان فقط
(rang équestre) كان البروبريطور من مرتبة الاعيان بمجلس الشيوخ
(rang sénatorial)

وبالجملة فان اصحاب السلطة العليا اى الولاة (Les Gouverneurs)
على راس الولايات الرومانية (Provinces) كانوا على ثلاثة اصناف :

١ ـ **البروقنصل (Proconsul)** وهو فى الغالب قنصل قديم يقوم
بابعاء القنصل على راس الولايات القنصلية وتسمى ايضا الولايات
السيناتورىة (provinces sénatoriales)

٢ ـ **البروبريطور (Propraetor)** وهو فى الغالب بريتور قديم

يقوم بأعمال البريطور على راس الولايات الامبرالية (provinces impériales) التي كانت معتبرة من املاك الامبراطور الخاصة
٣ - البروقيراتور (Procurator) من مرتبة الفرسان فقط ، وهو
وكيل الامبراطور على راس الولايات الامبرالية ايضا
فاننا نجد مثلا :

- البروقنصل : على راس ولاية او بروقنصلية افريكا (اى البلاد
التونسية اليوم)

- البروبريطور : على راس نوميديا (الجزائر الشرقية)
- البروقيراتور : على راس مريطانية القيصرية (الجزائر الغربية)
- البروقيراتور ايضا على راس مريطانية الطنجية (المغرب) (١)
وقد ظهرت كل هذه الوظائف بمناسبة الفتوحات ووجود ولايات
رومانية فى حاجة الى نظام ادارى ونظام سياسى .
الفتوحات :

وقعت هذه الفتوحات على مرحلتين :
المرحلة الاولى : الفتوحات داخل ايطالية لتكوين الوحدة الايطالية
وللوصول الى ذلك الهدف اخضعت رومة الاثروريين ، وقبائل ايطالية
الوسطى ، فوقف فى وجهها السمنيون ، فاشهرت عليهم رومة
حروبا طويلة دامت ما يزيد عن نصف قرن الى ان تغلبت عليهم
وجعلتهم تحت سلطتها ، ثم تصدت الى مدن اغريقيا العظمى ، وكانت
كل مدينة امة براسها ، ووطنا مصغرا ، ودولة مستقلة ، فاستولت
عليها الواحدة تلو الاخرى ، وبسطت نفوذها على كمبانيا ، فانزعجت
تارنتة من هذا التقدم المنذر بالخطر ، وارادت عرقلة وابقافه عند
حده ، فتحالفت مع نابلى ، لكن هذه المدينة ارغمت بدورها على قبول
السيطرة الرومانية (سنة ٣٠٤) وعند ذلك استنجدت تارنتة
بالمملك بيروس ، ودارت معارك طاحنة بين الرومانيين وهذا الملك
(من ٢٨٠ الى ٢٧٥) انتهت بسقوط تارنتة .
وبذلك اصبحت رومة سيده ايطاليا بأسرها .

اما النظام السياسى والادارى بايطالية فقد كان على غاية من
التنوع ، فلم تمنح المدن والاطان المحتلة حقوقا متساوية ، بل
قسمتها حسب الاحوال والظروف الى :

(١) مريطانية القيصرية (Maurétanie Césarienne) : سميت كذلك نسبة
الى عاصمتها (فيصارية) وهى شرشالCaesarea = Cherchel وكذلك مريطانية
(Maurétanie Tingitane) الطنجية نسبة الى عاصمتها طنجة(Tingi = Tanger)

- اوطان ومدن متمتعة « بالحق الروماني »
- اوطان ومدن متمتعة « بالحق اللاتيني »
- اوطان ومدن فيديرالية
- اوطان ومدن حليفة

- اوطان ومدن في شكل « ولايات رومانية » الخ . . .
 واما صفة المواطن الروماني (citoyen romain) وحق المواطن (Jus civitatis = droit de cité) فقد اخذت تتسع دائرته شيئا فشيئا :

- ففي البداية كان لا يوجد مواطن البتة خارج رومة
- وفي سنة ٨٧ ق . م . صار جميع الايطاليون يتمتعون بصفة المواطن الروماني .
- وفي سنة ٤٧ ق . م . منح يوليوس قيصر حق المواطن سكان (غالية امام الالب) Gaule Cisalpine
- وفي سنة ٦٨ بعد الميلاد عمم الامبراطور سرفيوس سلبيسيوس حق المواطن على جميع الغاليين
- وفي سنة ٢١٣ بعد الميلاد جاء الامبراطور ماركوس انطونيوس الملقب بقارا قلا ، ابن سبتييموس سافاروس الافريقي، وسن دستورا جديدا منح به حق المواطن الروماني لجميع شعوب الامبراطورية الرومانية ولو كانوا من الاجانب . وبهذا الدستور الخطير فقدنا شخصيتنا ، وتجنسنا رغم انوفنا ، ودخلنا في القومية الرومانية .
- المرحلة الثانية :** الفتوحات خارج ايطالية او الفتوحات الاستعمارية والذي يهمننا منها الان هي الفتوحات التي كانت نتيجة الحروب البونيقية والتي كنا تحدثنا عنها في مكانها ، اي :

- | | | |
|--|---|--|
| <ul style="list-style-type: none"> صقلية (سنة ٢٤١) سردينية (سنة ٢٣٧) اكوزيكة (سنة ٢٣٧) | } | <ul style="list-style-type: none"> - بعد الحرب البونيقية الاولى |
| <ul style="list-style-type: none"> - اثناء الحرب البونيقية الثانية : اسبانية (سنة ٢٠٦) - بعد الحرب البونيقية الثالثة : افريقية (سنة ١٤٦) | | |
- وهكذا كانت رومة قرية صغيرة متواضعة ، ثم صارت مدينة عظيمة ، ونراها الآن اصبحت عاصمة امبراطورية شاسعة تشمل اسبانية ، وبلاد اليونان ، وآسيا ، وافريقية ، واصبح يحق لها ان تسمى البحر المتوسط بحرهما (Mare nostrum)
- فلننظر كيف كانت الممالك الافريقية بعد موت الملك ماسنيسا ، وكيف استولى عليها الرومانيون تدريجيا الى ان بسطوا نفوذهم على كامل تراب شمال افريقية .

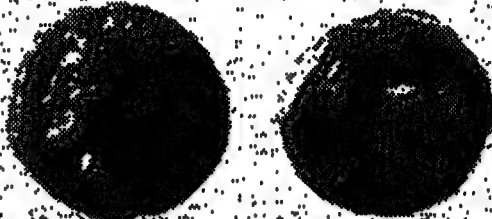
لوحة ٦٤
انظر الصفحة رقم ٢٨٤ من هذا الكتاب



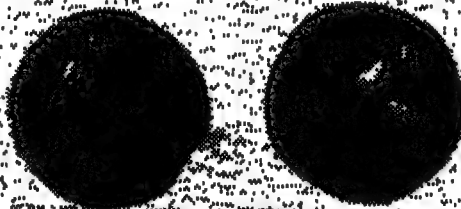
كوحة ٦٥

انظر الصفحة رقم ٢٧٤/٢٨٦ من هله الكتاب

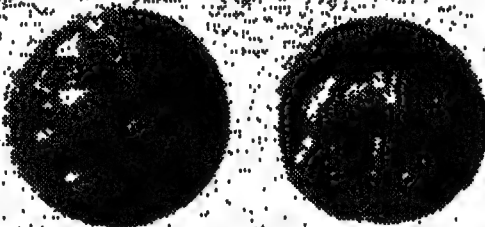
نفسه والملحكة الازرقية في عهد الرومانيان
١. ماسينا



ماسينا - مسكة من البرونز، بالوجه: مطر جانيس ماسينا
ومو الحى ومكمل باوراق الدفلى - بالقفا: فريش والمبارق ولده نصيب
٢. ماسينا



ماسينا - مسكة من البرونز، بالوجه: مطر جانيس ماسينا (الحى)
ومكمل باوراق الدفلى - بالقفا: فريش والمبارق ولده نصيب
٣. ماسينا



موسطة - مسكة من البرونز - بالوجه: رامس موسطة ومو امير ومكمل
ماوراة الدفلى - بالقفا: فريش والمبارق ولده نصيب

لوحة ٦٦

انظر الصفحة رقم ٢٨٦/٢٧٤ من هذا الكتاب

عملة الملكية الأردنية في عهد الرومان
١. دينا الأول



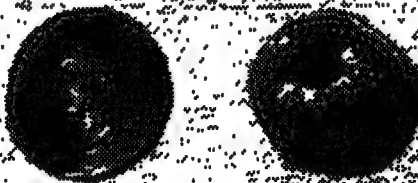
دينا الأول - سكة من فضة - بالوجه : (١) الملك دينا مع صورة ذلك الملك وهو على وسعوه بعد وشمس وعليده تاج وشمس له وهو لا يفسد دونه عليه رداءه بالتمتد معيدونك رواق دينا عهدة

٢. دينا الثاني



دينا الثاني - سكة من فضة - بالوجه : (١) الملك دينا مع صورة ذلك الملك وهو على وسعوه بعد وشمس وعليده تاج وشمس له وهو لا يفسد دونه عليه رداءه بالتمتد معيدونك رواق دينا عهدة

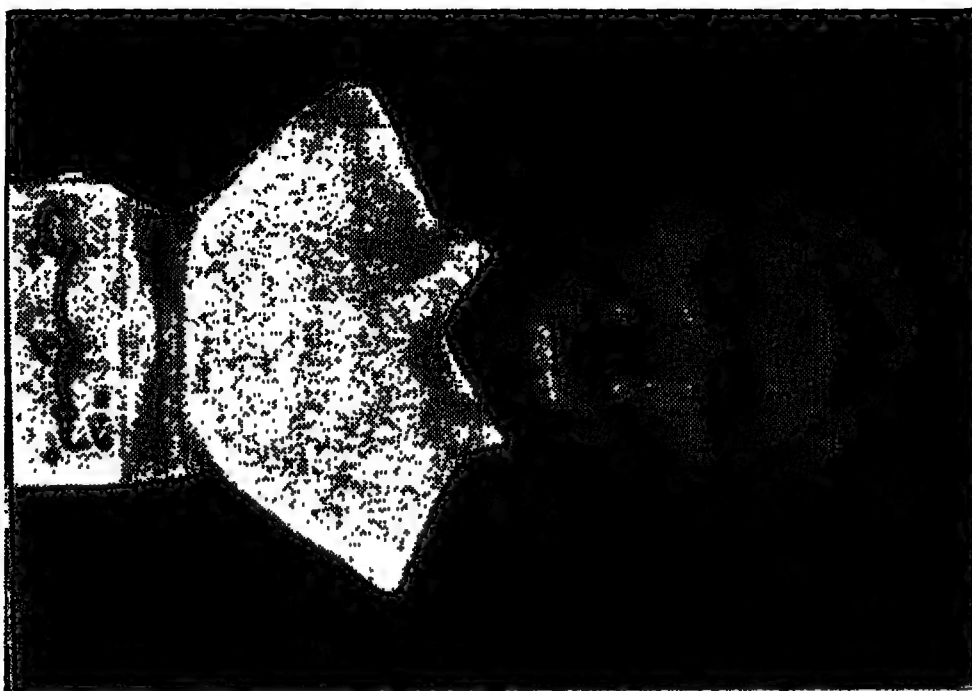
٣. دينا الثالث



دينا الثالث - سكة من فضة - بالوجه : (١) الملك دينا مع صورة ذلك الملك وهو على وسعوه بعد وشمس وعليده تاج وشمس له وهو لا يفسد دونه عليه رداءه بالتمتد معيدونك رواق دينا عهدة

لوحة ٦٧
انظر الصفحة رقم ٢٨٤ من هذا الكتاب

اللوحة



اللوحة



جدول

القيصرية او الاباطرة فى العهد الامبريالى

دور الامبراطورية الاعلى (Haut-Empire)

(من ٢٩ ق ٠ م الى ٢٨٤ بعد الميلاد)

اولا - مدة العائلة اليوليوسية (Dynastie des Jules) : ٢٩ ق ٠ م الى ٦٨ بعده

١ - اكتوبريوس اغسطس (Octave Auguste) : ٢٩ ق ٠ م / ١٤ بعد الميلاد

٢ - تيبيريوس كلوديوس (Tibère) : ١٤ - ٣٧

٣ - كاليغولا (كاليفولا) : ٣٧ - ٤١

٤ - كلوديوس (تيبيريوس دروسوس) (Claude) : ٤١ - ٥٤

٥ - نيكس نرو كلوديوس (Néron) : ٥٤ - ٦٨

ثانيا - مدة العائلة الفلافية (Flaviens) : من ٦٩ الى ٩٦

٦ - فلافيوس فسبسيانوس (Vespasien) : ٦٩ - ٧٩

٧ - تيتوس فلافيوس صابينوس (Titus) : ٧٩ - ٨١

٨ - تيتوس فلافيوس دوميسيانوس (Domitien) : ٨١ - ٩٦

ثالثا - مدة العائلة الانطونية (Antonius) : من ٩٦ الى ١٩٣

٩ - نيرفا (Nerva) : ٩٦ - ٩٨

١٠ - تراجانوس (Trajan) : ٩٨ - ١١٧

١١ - هادريانوس (Adrien) : ١١٧ - ١٣٨

١٢ - تيتوس اوريلوس (Antonin) : ١٣٨ - ١٦١

١٣ - ماركوس اوريلوس (Marc-Aurèle) : ١٦١ - ١٨٠

١٤ - كومودوس (Commode) : ١٨٠ - ١٩٢

رابعا - الاباطرة فى القرن الثالث (Empereurs du IIIe siècle)

١٥ - سيبتيوس سالفاريوس (Septime Sévère) : ١٩٣ - ٢١١

١٦ - كاراكالا (Caracalla) : ٢١١ - ٢١٧

١٧ - ايلجابال (Elagabale) : ٢١٨ - ٢٢٢

١٨ - الاسكندر سالفاريوس (Alexandre Sévère) : ٢٢٢ - ٢٣٥

الفوضى العسكرية (Anarchie militaire) : ٢٣٥ - ٢٨٥

ماكسيموس و غورديانوس الخ ...

ثم ياتى دور الامبراطورية الاسفل (Bas Empire)

١٩ - ديوكليسيانوس (Dioclétien) : ٢٨٤ - ٣٠٥

الرابع (la tétrarchie)

٢٠ - قسطنطين الاكبر (Constantin) : ٣٠٦ - ٣٣٧

(نقل عاصمة الحكم من رومة الى بيزنطة)

الممالك الافريقية

بعد موت ماسنيسا

فى بداية سنة ١٤٨ ق . م . مات الملك النوميدي ماسنيسا تاركاً مملكة شاسعة ، مترامية الاطراف الى ابنائه الثلاثة ميسيبسا ومستعنبل ، وغولوسة . وقدم شبيون اليميلى الى مدينة قرطبة بطلب من الملك ماسنيسا لما احس هذا الاخير بدنو اجله ، ووصل بعد موته بقليل ، وقسم السلط على الامراء الثلاثة على الصورة التالية: اخذ ميسيبسا ، وهو اكبرهم سناً ، السلطة الادارية ، ومستعنبل السلطة العدلية ، وغولوسة السلطة العسكرية وقيادة الجيش .

ورجع شبيون بعد ذلك الى محاربة القرطاجيين واخذ معه الملك غولوسة مع قواته العسكرية وفرسانه فكان له خير عون واكبر مساعد على الانتصار فى الحرب البونيقية الثالثة التى انتهت بتهديم قرطاج .

وبعد ذلك الانتصار اكتفت رومة مبدئياً بالاستيلاء على ارض حكومة قرطاج (افريكا) ، لان ابناء ماسنيسا كانوا كلهم طوع امرها ، ورهن اشارتها ، وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها ، فلم تر فائدة فى زيادة الاستيلاء على مملكتهم التى كانت تستغلها بدون عناء ولا كلفة ولا نفقات ، وكانت تعتبرها تحت تصرفها ، مثلما كانت تصرف فى الملك غولوسة وفى قواته العسكرية فربحت بهم الحرب ضد القرطاجيين .

وتخلفت رومة لابناء ماسنيسا عن بعض فضلات الغنيمة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فتركت لهم مكتبة قرطاج ، وتنازلت لهم عن بعض الاراضى .

ميسيبسا

ومات غولوسة ومستعنبعل بعد ذلك بسنوات قليلة ، وانفرد ميسيبسا وحده بالملك ، وكان اذ ذاك شيخا مسنا ، وكان ولوعا بالعلم والفلسفة ، كثير الاجتماع بالعلماء اليونانيين ، حريصا على تجميل مدينة قرطه ، وكانت علاقته طيبة مع رومة ، حتى انه وضع تحت تصرفها جيوشه وافياله وقموحه وكل خيرات بلاده ، ومد لها يد المساعدة بالمال والرجال ، والزاد والعتاد ، في مناسبات كثيرة جدا يطول ذكرها . ففي سنة ١٣٤ مثلا سير الى شبيون الايميلي جيشا يتالف من ١٢ فيلا ، ومن عدد من الفرسان ، وحامل القسي ، وحامل المقاليح ، تحت قيادة ابن اخيه يوغرطة لتهديم نومنسنة (١)

بعد ميسيبسا : آذربعل - هيامبسال - يوغرطة

ومات ميسيبسا سنة ١١٨ وهو شيخ طاعن في السن تجاوز الثمانين ، وخلف ابنين صغيرين شرعيين وهما: آذربعل وهيامبسال وكان اخوه الهالك مستعنبعل ترك ايضا ولدين ، احدهما شرعى وهو (غودة) وكان ممرضا ، ضعيف العقل ، خفيف النعامة ، والآخر ابن سفاح ولد له سنة ١٥٤ من التسرى ، وهو (يوغرطة) ، وكان جميلا ، قويا ، ذكيا ، محبا للرياضة البدنية ، ولوعا بركوب الخيل ، والصيد والقنص ، بارعا في فنون القتال ، وهى كلها خصال جعلته محبوبا في قلوب جميع النوميديين . انظر اللوحة رقم ٦١

وكان ميسيبسا يخشى جانبه ويود التخلص منه حتى لا يزاحم ابنه في الملك ، ولكنه لم يتجاسر على قتله ، فسيره على راس النجدة التى مد بها شبيون الايميلي املا فى التخلص منه بتلك الوسيلة ، فيهلك ضحية شجاعته وعدم مبالاته بالاحطار .

(١) نومنسنة (Numance) : مدينة باسبانيا قرب منابع نهر دورو ، اسسها الغاليون ، وكانت جمهورية صغيرة مستقلة هاجمها الرومانيون مرات عديدة بدون جدوى ابتداء من سنة ١٣٨ ولم يتغلبوا عليها الا باعانة يوغرطة النوميدي الذى هدمها سنة ١٣٣ ق م .

ولكنه ، عكس ذلك ، اظهر مفدرة فائقة ، ونال اعجاب شبليون
الايميل اذ قام احسن قيام بجميع المهمات الدقيقة والمأموريات الصعبة
التي كان كلفه بها ذلك القائد الروماني ، وصار في مدة قليلة يحسن
التكلم باللغة اللاتينية ، الامر الذي امال اليه ايضا قلوب الرومانيين
وبعد سقوط نومنس في صائفة سنة ١٣٣ ، شكره شبليون ، واكرمه
امام افراد الجيش ، وصرفه مبعجلا معظما بعد ما سلمه رسالة خاصة
الى ميسيسيسا يمجده فيها اعماله .

فادرك ميسيسيسا انه لا يمكن له بعد ذلك ان يمسه بمكرهه ، فالتجأ
الى استمالته وجلبه اليه ، وتبناه سنة ١٢٠ ، فاصبح يوغرطة اميرا
شرعيا له الحق في المشاركة في الملك . وكتب ميسيسيسا قبل وفاته
وصية نص فيها على جعل الملك من بعده الى آذربعل وهيامبسال
ويوغرطة ، تم من بعدهم الى غودة .

- التخلص من هيامبسال -

وبعد وفاة ميسيسيسا اجتمع الامراء الثلاثة بمدينة دقة للتفاوض ،
وكان هيامبسال اصغرهم سنا ، فاغلظ القول على ابن عمه يوغرطة ،
وشتمه واحتقره لكونه نغيلا (١) في نظره ، غير اهل لمرتبة الامراء
ساقطا شرعا عن الوراثة . ثم اخذ مكانه عن يمين اخيه آذربعل
حتى لا يكون يوغرطة جالسا في الوسط ، اي في الصدارة ومكان
الشرف . فاسر يوغرطة كل ذلك في نفسه وعزم على الانتقام .

ولم يحصل اي اتفاق بين هؤلاء الامراء الثلاثة لتقسيم السلط ،
فعدلوا عن محاولة البحث عن حل يمكن من العمل المشترك وقرروا ان يقيموا
قسمة الدخائر والاموال بينهم اولا ، ثم قسمة المملكة ، حتى يستقل
كل واحد منهم بقسطه ، واقتروا على موعد الاجتماع من جديد ،
وانصرف كل واحد في حال سبيله ، ولم يكن يوغرطة مسرورا بهذا
الانقسام الذي يؤول لا محالة الى الضعف والانحلال والخسران المبين
في الوقت الذي كان يحلم بتنفيذ خطة الملك ماسنيسا الرامية الى
تكوين دولة افريقية قوية ، موحدة ، تجمع بين كل اقطار شمال
افريقية . وان تنفيذ هذا البرنامج لا يمكن له ان يتم الا بموت
هيامبسال وآذربعل اللذين اصبحا حجر عثرة في سبيله

وكان هيامبسال يقيم ببلدة (اثميدة) على مقربة من دقة عند
رجل نوميدي . وكان هذا النوميدي من اعوان يوغرطة ، فاغراه

(١) التفيل : هو ابن الحرام

بالمال وامره باغتيال هيامبسال ليلا بمساعدة جماعة من رجاله .
فكان الامر كذلك واتوه براس ابن عمه (سنة ١١٨) . وهكذا
تخلص يوغرطة من الاول ، ولم يبق الا دور الثاني !

- التخلّص من آذربعل -

ثم دارت معركة بين يوغرطة وآذربعل ، انهزم فيها هذا الاخبر ،
ففر هاربا الى الولاية الرومانية بافريقية ، ومن هناك سافر الى رومة
للاستنجاد بها على خصمه ، وكان يوغرطة قد اوفد هو الآخر رسله
الى رومة مثقلين بالاموال والهدايا . ولما وقف آذربعل امام مجلس
الشيوخ مستصرخا شاكيا ، اجاب رسل يوغرطة بان هيامبسال
لم يقتله الا اتباعه الذين نازروا عليه لسوء سلوكه ، وفساد طبعه ،
وقساوة قلبه . اما آذربعل فهو الظالم والمعتدى . ولما انهزم واصبح
عاجزا عن الاذية ، ذهب الى رومة باكيا وشاكيا . ولذلك فان الامير
يوغرطة ، ذلك الرجل الذي ما زال على عهده القديما ايلي معكم البلاد
الحسن في حرب نومنسنة ، يلتبس من حضرات اعيان مجلس الشيوخ
ان يحكموا بعدم سماع اندعوى .

وبعد الاخذ والرد قرر المجلس ارسال عشرة مفوضين الى نوميديا على
راسهم اويميموس لاجراء البحث في القضية على عين المكان ولقسمة
المملكة بين الامبرين (سنة ١١٧) . فاشتروا يوغرطة بالمال
وجعلهم من جهته فحكموا ببراءته . ثم قسموا المملكة النوميديا الى
قسمين : قسم شرقي يمتد من حدود الولاية الرومانية الى قرطبة
بدخول تلك العاصمة ، وكان هذا القسم من نصيب آذربعل ، اختاره
الرومانيون لوداعته ومسالمته ولين جانبه فجعلوه من جهة ولايتهم ،
وقسم غربي يصل الى حدود مريطانية الى وادي ملوية كان من
نصيب يوغرطة . ولم يكن هذا الاخير راضيا بالقسمة او موافقا عليها
غير انه تظاهر بالخضوع والقبول والامثال خداعا وتصنعا ريثما
يحين الوقت لتنفيذ خطته .

وبعد ذلك بارب سنوت هاجم يوغرطة مملكة ابن عمه مدعيا بانه
اراد اغتياله ، وبعد معركة دارت رحاها بين الطرفين بالقرب من قرطبة
ودامت الى سحابة متأخرة من الليل ، انهزم آذربعل والتجأ الى عاصمته
الحصينة . فحضر يوغرطة الحصار على تلك المدينة . وكان الايطاليون القاطنون
بها يمدون يد المساعدة الى الملك المغلوب ، ويشدون ازره ، ويدافعون

عن المدينة بكل مجهوداتهم • وكان آذربعل انشاء ذلك الحصار يستنجد
برومة ، وينادى ويستغيث ، وكانت رومة ترسل رسلا ولجانها
الى يوغرطة ليكف عن القتال ، وكانت تدعوه الى الهدوء والرزاة
والطاعة ، وتحذره من عاقبة الجور والبغى والعصيان • فكان يوغرطة
لا يكثر بوعدها ووعيدها ولا يقيم لتهديداتها وزنا •

وبعد حصار دام ما يقرب من سنة اشهر استسلم آذربعل • فنكل
به يوغرطة اشد التنكيل وقتله شر قتلة (سنة ١١٢) ثم انتشرت
جنوده في شوارع المدينة ، واخذوا يقتلون كل من صادفوه وهو
يحمل السلاح ، سواء كان ايطاليا او نوميديا ، ففتكوا بالاطاليين
فتكا ذريعا •

- يوغرطة ورومة

واصبح يوغرطة بعد انتصاره على آذربعل على راس مملكة شاسعة،
مترامية الاطراف ، وامبراطورية افريقية شامخة الذرى ، وتلك اول
مرحلة خطاها يوغرطة في سبيل تنفيذ برنامج ماسنيسا ، ولكين
رومة لم تتركه هادئا مطمئنا فوق عرشه ، بل اتخذت عصيانه ، وقتله
لابن عمه ، وفتكه بالاطاليين اسبابا واعذارا لاشهار الحرب في وجهه ،
فدامت تلك الحرب ست سنوات (١٠٥/١١١) •

وان المقاومة العجيبة التي قام بها يوغرطة ضد رومة ابرزته في
مظهر امير جليل من اعظم واكبر الامراء الذين عرفهم التاريخ في تلك المدة
ونحن نتخذ من تاريخ يوغرطة ائمن درس في نزعة الافريقيين
نحو توحيد البلاد ، وانشاء دولة مستقلة، وتكوين امبراطورية مغربية

• وان اول جيش ارسلته رومة لمحاربة يوغرطة كان تحت قيادة
القنصل باسطينا (I. Calpurnius Bestia) في سنة ١١١ • واقتصر
هذا الجيش على احتلال بعض المدن ، غير انه لم يصل الى مدينة باجة
(Vaga) حتى وقع اعلان الصلح بفضل ما قدمه يوغرطة من
اموال لاعدائه ، اسكن بها قعقة السلاح ، وكفى بها النوميديين
القتال • وتركت له رومة كامل مملكته ما عدا لبدة بطرابلس
(Leptis Magna) فهي قد انفصلت عن حكومة يوغرطة واصبحت
مدينة حرة وحليفة وصديقة لرومة •

• وافتضح بعد ذلك امر باسطينا وجماعته ، فقررت حكومة رومة

محاكمتهم ، واستقدمت يوغرطة كشاهد لاثبات جريمتهم • ومثل يوغرطة امام مجلس الشيوخ ، ولكنه رشى قبل ذلك احد المنبريين وهو بابيوس (le tribun Bæbius) واعطاء مبلغا كبيرا من المال • ولما طالبوا يوغرطة بالكلام لانارة المجلس ، واطهار الحقيقة ، قام بابيوس ومنعه من ان ينطق ولو بكلمة واحدة ، وذلك رغما عن كثرة الجلبة والمضجيج وتهديد الناقمين على مثل هذه الاعمال • وانقضى المجلس بدون ان يقع الوصول الى اية نتيجة •

وكان (ماسيو) بن غولوسة ، يقيم برومة في ذلك الوقت وهو ابن عم يوغرطة فبلغ هذا الاخير ان ماسيو يحاول حمل الحكومة الرومانية على تمكينه من التربع على عرش اجداده مكان ابن عمه الذى اساء السلوك ولم يحسن التصرف • فقامت قيامة يوغرطة وكلف احد اتباعه باغتيال ذلك المزاحم الجديد ، فتمكن من قتله في وسط رومة •

وبارح يوغرطة مدينة رومة وهو يقول : « مدينة معروضة للبيع ، ستتلاشى عن قريب لو تجد شاريا » ولكن هذه الجريمة التى وقع ارتكابها فى قلب رومة كانت سببا فى اثاره الحرب من جديد •

⊙ - وفى سنة ١١٠ انتصر يوغرطة على الجيش الرومانى الذى كان يقوده القنصل البينوس (Albinus) ، ثم تركه هذا الاخير تحت قيادة اخيه اولوس (Aulus) فانتصر عليه يوغرطة وذلك فى معركة قالمة (Calama = Guelma) وهى المشهورة بمعركة سوتول (Suthul) (بلدة قريبة من قالمة)

وامر يوغرطة اعداءه المغلوبين بالمرور جميعا من تحت نير اعترافا منهم بالاستسلام والرضوخ والاذعان • فكان وقع تلك الفضيحة على رومة والرومانيين اشنع واشد بكثير من الهزيمة نفسها • ووقع اتهام اولوس ايضا بالارتشاء وارتكاب الحيانة من اجل المال • وبهذه الهزيمة الشنعاء انتهى دور الرشوة والبرطلة ، واتى دور الحزم والجد والنزاهة ، وذلك ابتداء من سنة ١٠٩ وهى السنة التى تسلم فيها ميتيلوس اقيادة (Caecilius Metellus) •

يوغرطة وميتيلوس

كان ميتيلوس من اسرة شريفة عريقة فى المجد ، عدت ستة قناصل

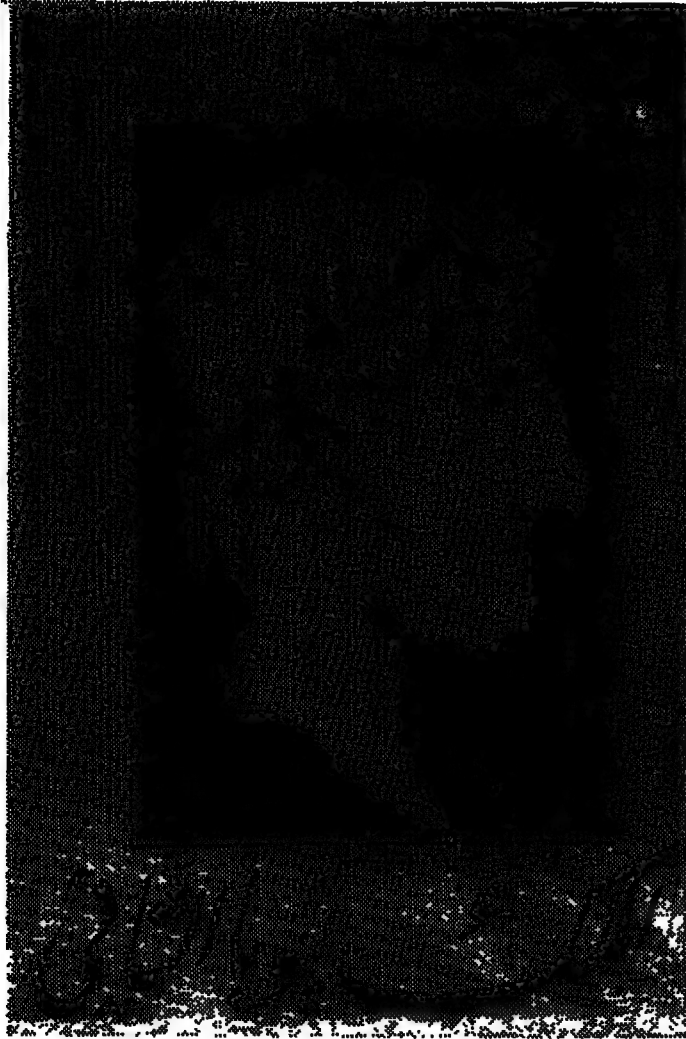
من قبله ماعدى الوظائف العليا الاخرى ، فكان فوق كل الظنون والشكوك لاياتيه الباطل من يمينه ولا من خلفه ، وكان معه عضده المتين مثال النزاهة والاستقامة ايضا ماريوس (Marius) فبدأ هذا القائد قبل كل شيء بارجاع النظام الى نصابه فى الجيش بعدما تصدع بناؤه وتشوهت سمعته وتضعضعت احواله بالتبرطل والارتشاء والعجز المنهاى .

وقد حاول يوغرطة اغراءه بأمال مثل من تقدموه ولكن بدون جدوى وتقدمت الجنود الرومانية بدون مقاومة فى الاراضى النوميديّة الى ان استولوا على باجة . ثم دارت معركة طاحنة بينهم وبين جنود يوغرطة قرب وادى ميتول (Muthul) وهو وادى تاسة (١) انهزم فيها يوغرطة برجاله (اوت سنة ١٠٩) بعدما كبد اعداءه خسائر فادحة . ثم احتل ميتيلوس مدينة الكاف (Sicca) وحاول بعد ذلك القيام بحملة فجائية على مدينة جامة ولكنه فشل واضطر الى الرجوع على اعقابيه (اكتوبر ١٠٩)

وبعد انتهاء سنته القنصلية (١٠٩) ، جدد له مجلس الشيوخ قيادة الجيش بنوميديّة لمدة عام آخر (١٠٨) تحت لقب بروقنصل . وفى شتاء سنة ١٠٨ اغتلم اهالى باجة فرصة الاحتفال بعيد الالهة سيريس وهو عيد الزراعة، وفتكوا بجميع الرومانيين واهلكوهم عن آخرهم ، ولما بلغ ذلك ميتيلوس اسرع الى تلك المدينة وامر بنهبها . تم توغل فى السباسب مقتفيا آثار يوغرطة الى ان ادركه فى (طالة) وهو مكان مجهول ، ربما كان قريبا من ففصة ، وهو على كل حال غير مدينة تالة التى نعرفها اليوم (٢) . وكان يوغرطة قد اعتصم بها وجعل فيها اولاده وذخائره وامواله . وبعد حصار دام اربعين يوما ، تمكن الرومانيون من الاستيلاء على تلك المدينة ، لكنهم لم يجدوا اثرا لا ليوغرطة ولا لاولاده ولا لامواله . اما حماة تلبك المدينة فانهم اجتمعوا كلهم فى القصر الملكى ، وبعد اكل اللحوم

(١) وادى تاسة : من الرواغب (او السواعد) الموجودة على يمين مجرّة السفلى ينبع بحيرة السرس ، ويفترق سهل السرس والكريب
(٢) طالة : يقول سالسطيوس ان طالة (Thala) كانت مدينة عظيمة ، غنية أهلة بالسكان ، فوق ارض ليست بوعرة المنحد ، لكن كانت تحميها اسوار منيعة وكان يوغرطة جعل فيها ابناؤه الصغار وذخائره وامواله ، وحول هذه المدينة تمتد انقفار واقرب نهر (لكن لم يذكر سالسطيوس اسمه) يبعد عن المدينة بخمسين ميلا (اى ٧٤ كيلو مترا) - وهذه الاوصاف لا تنطبق على تالة التى نعرفها اليوم .

لوحة ٦٨
انظر الصفحة رقم ٢٨٦ من هذا الكتاب



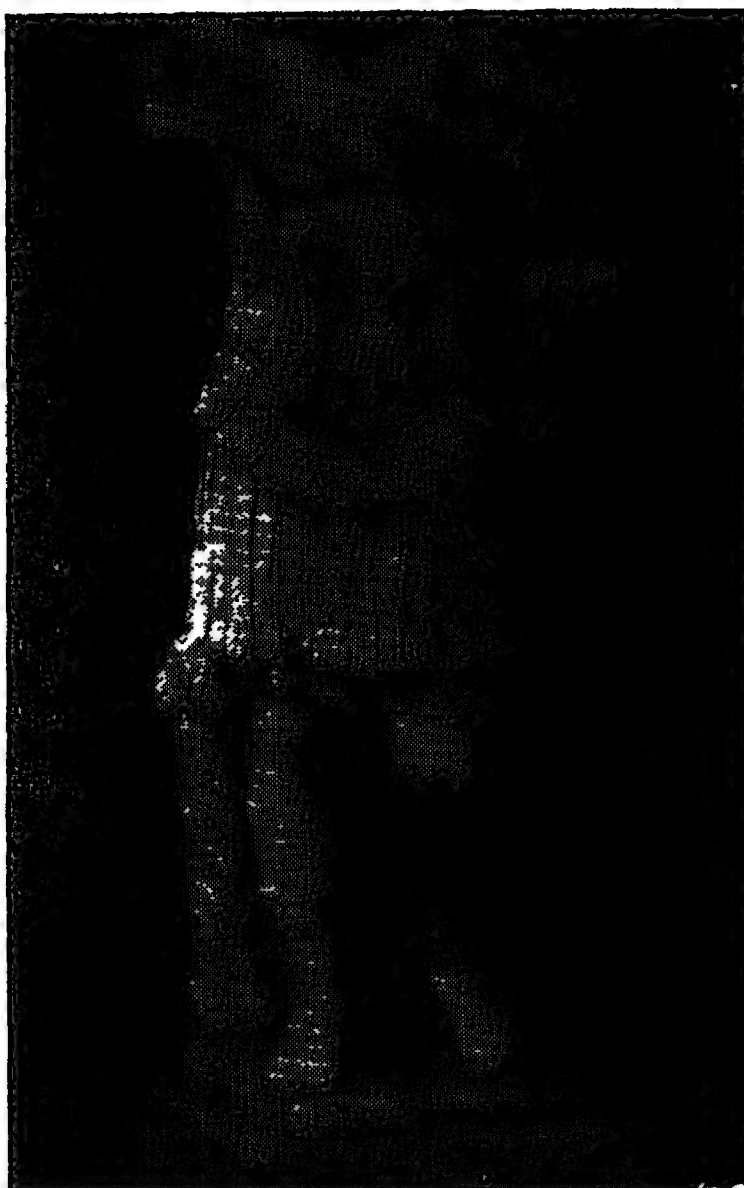
يوبا الثاني بن يوبا الاول : ولد سنة ٢٠ ق م ومات سنة ١٨ بعد الميلاد

لوحة ٦٩
انظر الصفحة رقم ٢٨٦ من هذا الكتاب



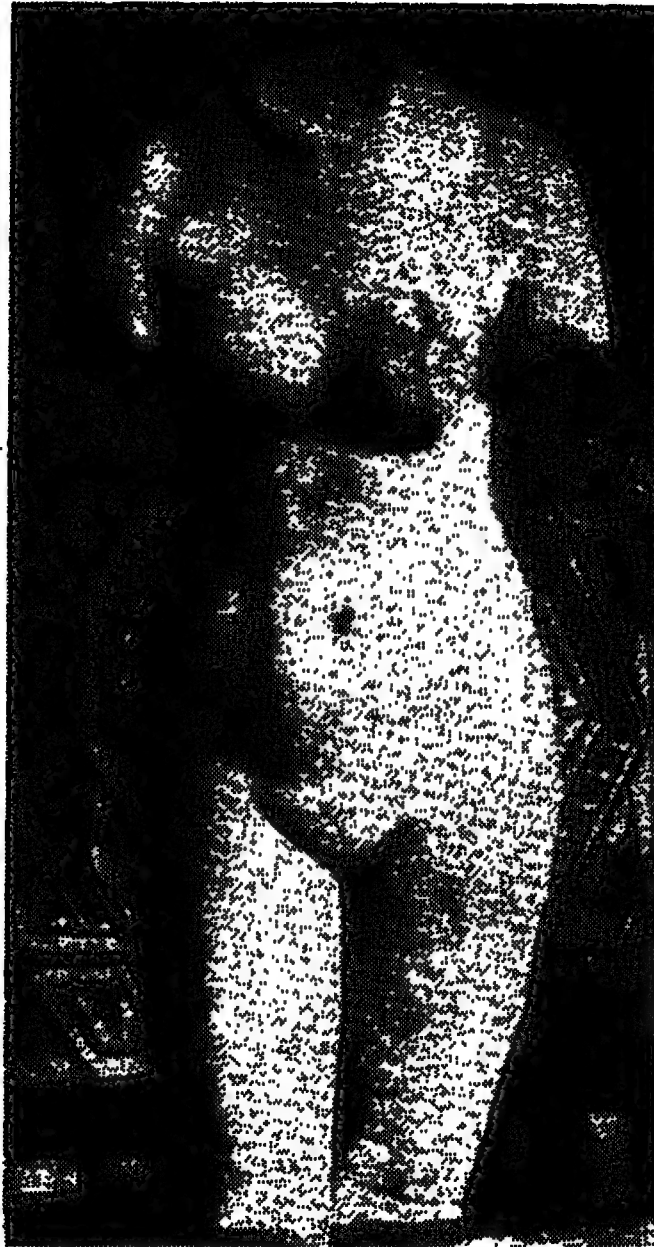
القيصر اغسطس : كان اول من سعى في توطيد الاستعمار الروماني .
فهو قد اعتنى بالتعليم ، وبالطرق ، وبناء المعالم الجميلة والهيكل
الجميلة ، وبوسائل الزراعة والرى والمواصلات ... وهو ولى نعمة الملك
يوبا الثانى

لوحة ٧٠
انظر الصفحة رقم ٣٥٥/٢٨٨ من هذا الكتاب



تمثال فائق الكبر من الرمر للقيصر اغسطس وهو متدوع
من متحف شوشال

لوحة ٧١
انظر الصفحة رقم ٢٨٨/٣٥٥ من هذا الكتاب.



تمثال نصلي من الرمس للينوس (Vénus) الرومانية ، او ألفروديت
(Aphrodite) الاغريقية الالهة الحب والجمال ، وجدت بمدينة شرشال ،
مقر حكم الملك يوبا الثاني ، وهي الآن بمتحف ستيفان قسالة بعاصمة
الجزائر .

والشرب والقصف ، اضرمو الحريق فى ذلك المحل ، فالتهمتهم
النيران واصبحوا رمادا . وهدم ميتيلوس تلك المدينة ولم يترك لها
اثرا . ثم تمكن الرومانيون بعد ذلك من احتلال مدينة قرطه ، واتخذوها
مستى (سنة ١٠٨) . وتم بذلك استيلاؤهم على الجهة الشرقية
والجهة الوسطى من نوميديا .

اما يوغرطة فانه اخذ يسعى فى ايجاد اعداء آخرين لرومة يستعين بهم
على مقاومة الرومان ، فجمع الجنود من قبائل جدالة (les Gétules)
بالجنوب تم اخذ يحث هامه بوخوس ملك مريطانية ، ويحث افراد دائرته
ومستشاريه على الدخول فى الحرب والمقاومة بجانبه ضد الرومانيين
الذين اصبحوا خطرا لاعليه فحسب ، بل عليهم جميعا . ونجح بعض
النجاح فى اقناعهم وفى تحريك شعورهم وهكذا زحف
النوميديون والمريطانيون صفا واحدا على قرطه

وفى تلك الاثناء ، بينما كان ميتيلوس يستعد للقاء هذا
الجيش ، بلغه نبا تسمية ماريوس قنصلا ، وتكليفه بقيادة الجيش
بنوميديا مكانه . فنزل هذا الخبر عليه نزول الصاعقة ، ورجع الى
رومة ساخطا غاضبا (سنة ١٠٧)

- يوغرطة وماريوس (انظر اللوحة رقم ٦١) -

كان ماريوس ينتعى الى اسيرة بوجوازية من اصل حقير ، وكان
جنديا فظا غليظا ، قليل الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك شجاعا خبيرا
بامور الحرب والقتال . وكان قد قام بحملة ضد طبقة الاشراف
والنبلاء ، وايد حزب الشعب ، وكون اتباعا وانصارا فى طبقة التجار
والعمال والرعاع ، فتكن بفضل مساعدتهم من الفوز فى الانتخابات .
وكان يعطف كثيرا على (غودة) الذى سوف يصبح ملك نوميديا
مكان اخيه يوغرطة ، بقدر ما كان ميتيلوس يهينه ويحتقره .

واصلح ماريوس نظام الجيش متمشيا به نحو الديمقراطية ،
فدخل الفقراء فى الفرقة الرومانية ، واعد بذلك الطريق الى تلك
الجيش الجديدة التى تتالف من رجال يتخذون الجندية حرفة ، والتى
لا تعب برومة بل تربط مصيرها بمصير قائدها ، والتى ستصير فيما
بعد هى التى تولى وت عزل الاباطرة (ابتداء من سنة ١٩٢ بعد الميلاد ،
الى بعد وفاة كومودوس)

وجمع ماريوس بهذه الطريقة جموعا كثيرة ، شرع فى تدريبها
تدريباً عالياً على فنون الحرب وابوابه .

● سنة ١٠٧ : كارثة قفصة :

كان اهم عمل قام به ماريوس فى تلك السنة ، للتاثير على الافكار ،
زيادة عن كثرة القتل والنهب والتخريب فى كل مكان ، دخوله
مدينة قفصة بغتة ، والفتك بجميع سكانها ، وتهديمها ، واحراقها ،
بدون ان يفقد رجلا واحدا من جنوده .

● سنة ١٠٦ : الاستيلاء على حصن تاوريوت (على وادى الملوية)

وفى سنة ١٠٦ تمادى ماريوس فى سيره حتى بلغ وادى الملوية
وهو الحد الفاصل بين نوميديّة ومريطانية واستولى على حصن فوق تل
منيح (تاوريوت Taourirt) كن اخفى فيه الملك يوغرطة ذخائره
وامواله .

وفى ذلك التاريخ قدم اليه سيلا (Sylla) مبعونا من رومة
فكان له عضدا متينا ، لا يخبرته الحربية اذ كانت مفقودة فيه ،
ولكن بمقدرته الدبلوماسية .



بوخوس

سيلا متطيا جوادا

● سنة ١٠٥ : التغلب على يوغرطة (بفضل دبلوماسية سيلا)

وقعت بعد ذلك مقابلات كثيرة بين سيلا والملك بوخوس ، بعضها
بمحضر نائب عن يوغرطة يقع فيها التفاوض فى شان ايقاف القتال
وابرام الصلح ، وبعضها سرية تقع ليلا بين الرجلين راسا لراس
لتدبير المكيدة ليوغرطة . واخيرا وقع الاتفاق على استدعائه ليقع
تقديمه الى سيلا تمهيدا للصلح . وكان الامر كذلك ، وقدم يوغرطة
بدون سلاح ، وخف بوخوس وسيلا للملاقاته ، وكان بوخوس قد

جعل كميناً بالقرب من مكان المقابلة ، وهكذا تم اللقاء القبض على ذلك الزعيم الكبير بالغدر والخيانة (فى صيف سنة ١٠٥) ويقول الاستاذ جوليان فى كتابه تاريخ افريقية الشمالية :

« ان ماريوس لم يغتفر لسبب ذلك النجاح ، منلما ان القائد بيجو لم يحتمل من لاموريسيار انتصاره على الامير عبد القادر . فان ماريوس ، مثل بيجو فيما بعد ، كان يشعر فى نفسه بانه فقد قسطا كبيرا من عظمتة ومن قيمته امام الفكر العام ، وذلك لان الذى وضع حدا لحرب طويلة مشكوك فى نتيجتها دامت ثلاث سنوات ، لم يكن انتصار ماريوس فى حومة الميدان ، بل ديبلوماسية سبلا . »

او ليس من اعظم الفضائح المخجلة التى سجلها التاريخ استدعاء يوغرطة للتفاهم معه فى شروط الصلح ، ثم اثناء القبض عليه بالحيلة والخديعة لما لبي النداء وقدم مسالما بدون جند ولا سلاح ؟

وان ذلك لم يمنع ماريوس من اقامة احتفال النصر يوم تسميته قنصلا من جديد فى اول جانفى ١٠٤ . وكان يوغرطة يسير امام عجلة المنتصر مرتديا القميص الارجوانى ، يوغرطة ذلك البطل الذى قاوم الجمهورية الرومانية مدة سبع سنوات ، والذى ارغم خيرة جنودها على الانحناء امامه والمرور من تحت النير مطاطىء الراس ، يوغرطة ذلك الزعيم النوميدي الذى اصبح اسمه ، من خلال القرون ، يوقظ فى نفوس الرومانيين الشعور بالحزى والعار والخوف والهلع .

وبعد الاحتفال بعيد النصر سيق يوغرطة الى سجن اتوليانوم (Tullianum) تحت قصر الكابيتول ، فمكث فيه ستة ايام لا يدق طعاما ولا شراب ، ولم يرحه من احوال الجوع والآلام الا حبل المخنقة . مات يوغرطة فى اليوم السابع من شهر جانفى سنة ١٠٤ ، ولكن ذكر يوغرطة استمر خالدا فى نفوس الافريقيين ولم تمحه قط يد المنون ، وكذلك ايضا استمرت افريقية الشمالية موجودة ، فهى لم تضمحل ولن تضمحل . . .

بعد يوغرطة : هيامبسال الثانى وماسنيسا الثانى

واحرز الحائن بوخوس جزءا من نوميديا الغربية اجرا على غدره وخيانتة ، واما نوميديا الشرقية ، بدخول مدينة قرطه ، فقد كانت من نصيب الامير غودة (اخى يوغرطة) . وبعد موت غودة (سنة ٨٨ ق م) تولى الملك ابنه هيامبسال وماسنيسا ، اذ تمكن هذا

الآخر من استرجاع مملكة آبائه من الملك بوخوس الحائن . وفى سنة ٨١ ، تحت ظل الثورات والقلقل بين حزب ماريوس وحزب سيلا ، تمكن أحد الأمراء النوميديين (حيرباص) من خلع الملكين هيامبسال وماسنيسا ، واستولى على كامل مملكة نوميديا وانتصب اقليدا ، واصبح يؤيد حزب ماريوس (les Marianistes) وكان حزبا منظما مقره بالوطن القبلى تحت قيادة الوالى الرومانى (دوميسيوس نوباربوس) Domitius فتكلف بمبايوس من طرف الديكتاتور سيلا (خصم ماريوس) بالذهاب الى افريقية للتنكيل بهم جميعا فسافر الى افريقية سنة ٨٠ ، وفى مدة وجيزة انتصر على دوميسيوس وقتله ، وخلص (حيرباص) وارجع هيامبسال وماسنيسا الى عرشيهما

يوبى الاول

وبعد وفاة هيامبسال سنة ٦٧ انتقل الملك الى ابنه يوبى الاول فاختد نوميديا الشرقية واستمر ماسنيسا بنوميديا الغربية . وفى مدتهما وقعت القلاقل الداخلية وانتشبت الحرب المدنية بين القيصرين (انصار قيصر) واليمبايوسيين (انصار خصمه بمبايوس) كما سنبينه فى مكانه . ولم تقف شمال افريقية موقف الحياد من تلك الحصومة التى لا ناقة لها فيها ولا جمل ، بل اختار يوبى الاول وماسنيسا الثانى حزب بمبايوس واصبعا من اكبر المؤيدين لليمبايوسيين ، اما بوخوس الاصغر وبوغود ملكا مريطانية فانهما لعبا ورقة قيصر وايداه تاييدا فعلا ، فحارب بوغود اليمبايوسيين باسبانية ، وحاربهم بوخوس بافريقية لما قدم قيصر اليها للانتقام من اعدائه ، ووقع بهم فى معركة تابسوس (راس الديماس) سنة ٤٦ ق.م . والتجأ يوبى الاول الى الانتحار .

ومن ذلك التاريخ اصبحت نوميديا الشرقية (مملكة يوبى الاول) ولاية رومانية ثانية صارت تعرف باسم (افريكا نوبا) اى ولاية افريقية الجديدة .

واما بوخوس فقد جازاه قيصر على اخلاصه ومساعدته اياه واعطاه جزءا كبيرا من نوميديا الغربية (مملكة ماسنيسا) اتسعت بها حدود مملكته شرقا الى قرب مدينة قرطبة .

وكان من انصار قيصر ايضا المغامر الايطالى سيتىوس (Sittius)

فخصصه بمملكة جعلها سدا يفصل بين الولاية الرومانية الجديدة وبين مملكة بوخوس .

وبعد ما وقع اغتيال الديكتاتور قيصر (سنة ٤٤ ق م) تمكن احد ابناء الملك ماسنيسا الثانى وهو الامير (اراييون) من استرجاع مملكة آباءه التى استحوذ عليها سيتيوس من جهة وبوخوس من جهة اخرى ، ولكنه لم يلبث حتى قتله الوالى الرومانى سكسيوس (Sextius) ، ورجع بوخوس الى ممتلكاته ، بل زاد توسعا من الناحية الغربية ايضا ، لانه فى سنة ٣٨ استولى على مملكة بوغود . ومن ذلك الحين اصبحت مريطانية تمتد من المحيط الاطلسى الى وادى المسافة (L'Amphaga) او الوادى الكبير الذى يمر من مدينة قرطبة . ومات بوخوس ملك مريطانية سنة ٣٣ ق م . ولم يترك وارثا ، فكلف (اوقطاف) (Octave) (١) بتلك المملكة والييين (préfets) رومانيين بصفة مؤقتة ، قاما بمهمتهما من سنة ٣٣ الى سنة ٢٥ ق م . وانتهم (اوقطاف) تلك الفرصة لانشاء ست مستعمرات بمريطانية الشرقية قرب موان قديمة :

- | | |
|----------------------|---------------------------------|
| ١ - جيجل | Igilgili (Djildjelli) |
| ٢ - بجاية | Saldæ (Bougie) |
| ٣ - ازفون | Rusazus-Azeffoun (Port Gueydon) |
| ٤ - راس ماتفو | Rusguniæ (ou Cap Matifou) |
| ٥ - قبة سيدى ابراهيم | Gunugu (Koubba de Sidi Brahim) |
| ٦ - تنس | Cartennas (Ténès) |
- ونلاث مستعمرات داخل تراب المملكة :
- | | |
|-----------|----------------------------|
| تيكلات | Tubusetu (Tiklat) |
| حمام ريغة | Aquæ Calidæ (Hammam Rirha) |
| مليانة | Zucchabar (Millana) |
- ومستعمرتين بمريطانية الغربية
- | | |
|----------------------------|-----------------|
| ارزيلة (بين طنجة والعرائش) | Zilis (Arzila) |
| سيدى على بوجنون | Valentia Banasa |
- (على وادى سبو ، بين القنيطرة والقصر الكبير)

(١) اوقطاف : اوقطافيانوس (Octavianus) اول امبراطور برومة بعد انهاء العهد الجمهورى ، تسلم النفوذ بعد يوليوس قيصر والثالوثية الثانية ، وهو الذى سيرف فيما بعد باسم القيصر اغسطس

وفي سنة ٢٥ ق م . انهى القيصر اغسطس (اوقطاف)
مامورية الواليين ، وارجع تلك المملكة الى ما كانت عليه اى مملكة
مريطانية الافريقية ، ونصب بها الملك يوبا الثانى .

يوبا الثانى وكليوباترة :

يوبا الثانى هو ابن الملك يوبا الاول ، ولد سنة ٥٠ ق م . ولما
انتحر ابوه سنة ٤٦ كان عمره اذ ذاك اربع سنوات . فاخذته يوليوس
قيصر معه الى رومة ، وظهر فى موكب النصر ، واستمر برومة
واعطوه اسم قايس يوليوس (Caius Julius) ولو انه ترك
ذلك الاسم لما صار ملكا واصبح لا يعرف الا باسم الملك يوبا
(Rex Iuba) وقد اعتنت بتربيته وتهذيبه الاميرة اوقطافيا (اخت
القيصر اغسطس) . ولما كبر منحوه الحقوق المدنية الرومانية
فاصبح مواطنا رومانيا ، وزوجوه بكليوباترة سيلينه (اى القمر)
Cléopâtre Séléné . وكليوباترة هذه هى ابنة كليوباترة المشهورة
ملكة مصر وانطونيوس احد افراد الثالوية الثانية وخصم (اوقطاف)
ولدت سنة ٤٠ ق م . مع اخيها التوام الاسكندر ، فسموها قمرا
(سيلينه) ، وسموه شمسا (هيليوس) ، وافر ابوها انطونيوس
بانها ابنته واعترف بها لما تزوج بالملكة سنة ٣٦ ق م . وبعد موت
ابويها ظهرت فى موكب النصر الذى اقامه (اوقطاف) فى ١٥ اوت
سنة ٢٩ احتفالا بانتصاره على مصر وعلى ملكتها كليوباترة ، وقد
آوتها وربتها (اوقطافيا) اخت القيصر اغسطس وزوج انطونيوس
الاولى التى انزل عنها بعلمها وهجرها ثم طلقها . وهى التى طلبت
من اخيها ان يزوج ابنة كليوباترة المصرية بابن يوبا النوميدي ،
فان هذا الامير وهذه الاميرة اللذين اخذا ، يوم موكب النصر ،
مكان اب وام ماتا مودة مفاجئة بعد الانكسار والقهر ، سيكونان معا
بدون شك من اخلص واصدق اعوان العظمة الرومانية . وكان
بناؤه بها سنة ٢٠ ق م . وكانت ملكة باتم معنى الكلمة ، اذ وقع
تقليدها السلطة الملكية ، فكانت تلبس التاج شعار الملك ، وتحمل
لقب الملكة فوق النقود حيث يظهر اسمها فى الغالب منقوشا مع
صورتها ، فهى كانت تعتبر حينئذ شريكة زوجها فى الملك . وقد
ولد له منها ولد سنة ٥ ق م . سموه بطليموس Ptolemaeus
ou Ptolémée وماتت كليوباترة فى ٢٢ مارس سنة ٥ بعد الميلاد .

وكان يوبا الثانى ملكا جليل القدر ، عظيم الشان ، يميل الى مظاهر العز والابهة ، كيف لا وهو ذو نسب كريم من سلالة الملك ماسنيسا الشهير (١) ، وبعل ملكة من اسرة البطلمة وعاهل المريطانيين جميعا مع طائفة كبيرة من قبائل جدالة . (اللوحة رقم ٦٨)

وكان مغرما بالتمثيل ، فكان فى بلاطه عدد من الممثلين والممثلات مع القوائم بالتجميل والاكسية والازياء . وكانت حاشية الملك جامعة لكل طوائف البشر ، اذ هو بنفسه قد ورث عن مدنيات مختلفة : فهو نوميديى باصله ومنبته ، وهو يونيقيى بما كان لقرطاج من الجاذبية على ابناء جنسه منذ قرون طويلة ، رومانى بسنوات طفولته وشبابه التى قضاها بعاصمة الدنيا ، وبالروابط المتينة التى تربطه بالقيصر اغسطس ، اغريقى بتربيته وحسن ذوقه ، وبميوله الفنية والادبية ، مصرى بزواجه .

ولم ينكر الملك يوبا اهله ولا وطنه ، بل كان محبا لبلاده ، فخورا باجداده ، يصرح رسميا ويكرر بانه ابن يوبا الذى كان من اكبر واشد اعداء يوليوس قيصر والد الامبراطور اغسطس .

وكان قدماء المؤرخين يقولون بان يوبا الثانى كان مشهورا بتأليفه وتصانيفه وعماله الفكرية المفيدة اكثر من اشتهاره بالملك . وهو كان حقيقة اديبا عالما جديرا بثناء واعجاب معاصريه والاجيال التى اتت بعده ، فهو يعتبر من اكبر المؤرخين ، وكان ايضا عالما بالجغرافيا والطبيعات والشعر والفنون المختلفة .

وكان له شغف كبير بعلم اللغات ، وكان يعتقد ان اللغة اللاتينية كانت اغريقية الاصل ثم وقع تحريفها ، فكان يبذل كل ما فى وسعه لاكتشاف اشتقاقات يونانية لكثير من المفردات اللاتينية . وكان يميل الى جمع الكلمات الغريبة الموجودة فى مختلف اللغات واللهجات من هندية وعربية وحبشية وافريقية . . . وكانت له مكتبة ضخمة وجماعة كبيرة من الناسخين والمدونين والملخصين والمنتخبين . . .

ولم يقتصر يوبا على الكتب ، بل نظم بعثات علمية وكلفها بالبحث عن اصل منبع نهر النيل ، وعن اصل الجزائر الحالدات او جزر الكانارى .

(١) هو يوبا الثانى بن يوبا الاول بن هيا ميسال بن غودة بن مستعبل بن ماسنيسا بن غايا . . . ويتصل نسبه بالبطل هيراقليس .

والف. هذا الملك كتباً كثيرة في فنون وعلوم شتى ، نذكر منها
(كتاب الليبقيات • (Les Libyca)) في ثلاثة اجزاء يشتمل على مواد
مختلفة تتعلق بإفريقية من جغرافيا وتاريخ واساطير ميتولوجية
وطبيعية وغير ذلك • • • وكتاب حول جزيرة العرب Les Arabica
وتاريخ الرومان ، وكتب كثيرة في فنون الرسم والتشخيص
والموسيقى ، وكتب في اللغة • • • وهي مصنفات كثيرة لكن اسم
يصلنا منها شيء •

قد اختار يوبا الثانى مدينة يول (Iol) وهي شرشال الآن ،
وجعلها عاصمة مملكته وسماها قيصرية (Caesarea) على شرف
القيصر اغسطس واعترافاً له بالجميل لانه ولى نعمته ، واقام فى
تلك العاصمة معبداً لتقديس الامبراطور اغسطس الى ان مات
هذا الاخير سنة ١٤ بعد الميلاد ، ثم انتقل ذلك التقديس لابنه
وخلفه تيباريوس بصرف النظر عن استمرار تكريم القيصر الهالك

* * *

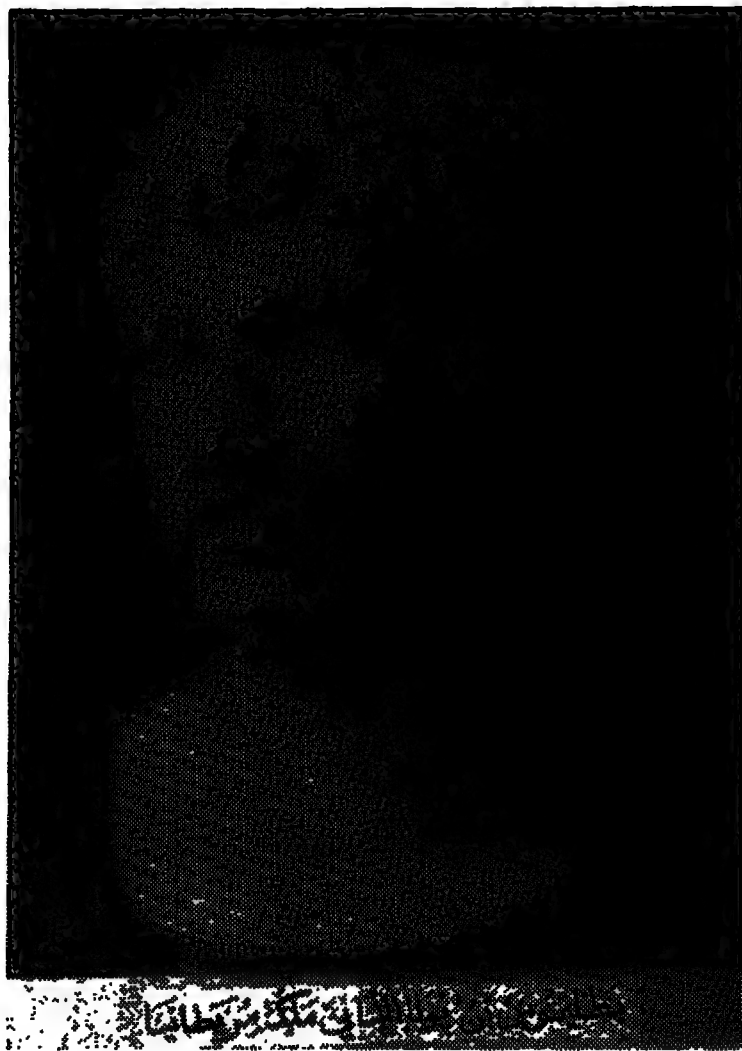
وقد وجد ايضا بشرشال تمثال كبير من المرمر يمثل القيصر
اغسطس وهو لابس درعه ويده اليمنى ممدودة فى هيئة الخطيب الذى
يؤمى ويشير الى جنوده ليحمسهم بينما كانت يده اليسرى تمسك
رمحاً • اما الراس ، التى كانت عملية نحته ونقشه على حدة ، فانه
لم يقع العثور عليه • وان هذا التمثال الجميل ، بطرازه واسلوبه
وهيئته العامة ونقوش درعه ، لجدير فى آن واحد بالقصير اغسطس
وبالملك يوبا • (انظروا اللوحة رقم ٧٠)

وعثروا ايضا ، اثناء نبش شرشال على صورة بدية تمثل ليفى
(Livia) زوجة اغسطس ووالدة تيباريوس ، وتمثيل اخرى كثيرة
منها تمثال فينوس الالهة الحب والجمال • (انظروا اللوحة رقم ٧١)

* * *

ولم يكتف يوبا بتجديد القيصر اغسطس والتقرب اليه ، بل قام
بأعمال جليلة لفائدته ، واعانه بكل مجهوداته على قمع الثورات ،
واخجاد القلاقل والفتن ، وردع كل تمرد وعصيان •
ففى سنة ٦ بعد الميلاد ثارت قبائل جلدالة وشق المتمردون عصا
انطاعة فى وجه الرومان ، وقاموا حتى على الملك نفسه ، فخرّبوا الديار
وفتكوا بعدد كبير من الرومانيين ، فكان الملك يوبا مضطراً الى
مقاومتهم ، والى الاستنجاد بالقوات الرومانية •

لوحة ٧٢
انظر الصفحة ٢٨٩ من هذا الكتاب

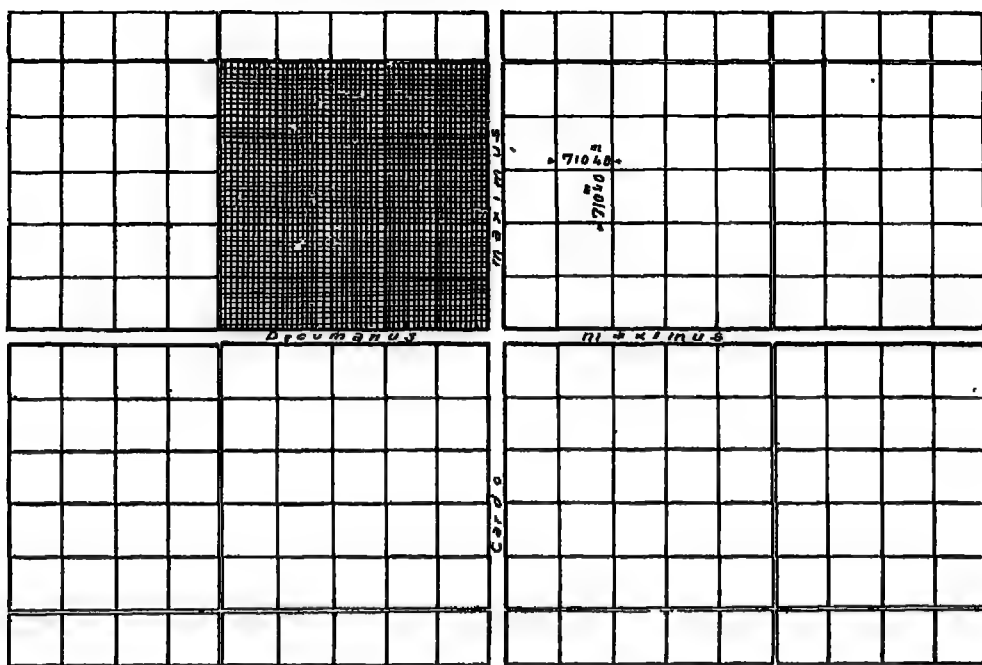


الملوك الريقيون

انظر الصفحات ٢٧٤ الى ٢٩١

[illegible]

لوحة ٧٤
انظر الصفحة ٢٩٦/٢٩٧ من هذا الكتاب



كيفية تقسيم الاراضي - (Centuration) $\frac{1}{100\ 000}$



آثار المسح والتقسيم قرب مدينة الجبم (انظر صفحة ٢٩٧)

وفى سنة ١٧ ، اى فى عهد تيباريوس نشبت ثورة كبيرة فى تلك الناحية كان يقودها الزعيم النوميدي البطل تاكفاريناس ، ودامت تلك الثورة ثمانى سنوات من سنة ١٧ الى سنة ٢٤

فكانت القوات الرومانية تقاوم الثائرين ، وكانت جنود الملك يوبا تحارب فى صفوف الرومانيين .

ولكن الملك يوبا الثانى مات فى آخر سنة ٢٣ بعد الميلاد بدون ان ينتصر لا هو ولا رومة على ذلك الزعيم المكافح فى سبيل تحرير بلاده من الاستعمار الاجنبى .
 وخلفه بعد موته ابنه الوحيد بطليموس .

الملك بطليموس :

كان بطليموس يشارك اياه فى شؤون المملكة ، وكان يحمل لقب الملك فى حياة ابيه ابتداء من سنة ٢٠ وعمره اذ ذاك ٢٥ سنة ولما مات والده كان لا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره .
 فورث منه الملك ولكنه لم يرث عنه خصاله وميوله ، بل كان متهاونا ، مهمل ، كسولا ، اقتصر طيلة مدته التى دامت ١٧ سنة على التمتع بحياة البذخ والرفاهية ، تاركا شؤون الدولة وكامل السلطة بيد اتباعه . (انظر اللوحة رقم ٧٢)

الزعيم المقاوم تاكفاريناس

فى نهاية مدة يوبا الثانى ثار البطل تاكفاريناس على الرومان كما قدمنا وذلك سنة ١٧ . وكان هذا الزعيم المجاهد فى اول الامر جنديا فى جيوش الرومان ، فانتهمز تلك الفرصة ليتفرس ويتمرس ولكنه فى ذلك الوقت نفسه كان يقوى ويذكى ما كان يشعر به فى نفسه من بغض وحقد نحو الاعداء المكتسحين ولما صار ماهرا فى ابواب الحرب واسرار القتال هرب من الجندية ، ونظم بنفسه جيشا وطنيا من ابناء البلاد التونسية جعله تحت قيادته ، وحارب القوات الاستعمارية مدة ثمانى سنوات مثلما كان فعل الامير يوغرطة من قبله وقد اشعل تاكفاريناس بدهائه نار الفتنة والثورة ضد الرومان فى كامل تراب شمال افريقية من ميطانية (المغرب الاقصى) الى برقة (طرابلس الغرب) حتى جعل الاستعمار الرومانى على قاب قوسين او ادنى من الانهيار .

وفى نهاية الامر ، بينما كان تاكفاريناس يأخذ نصيبا من الراحة فى قصر قديم خرب وسط غابة كثيفة فى جهة سور الغزلان (Aumale) وكان يعتقد فى نفسه انه فى مامن من الاعداء ، اذ داهمه فجأة البروقنصل الرومانى (بوبليوس دولا بالة) بخيله ورجله فدافع تاكفاريناس عن نفسه دفاع الابطال ، وهجم على الاعداء كالاسد الكاسر ، حتى سقط فى ميدان الشرف ، بعدما كبدهم خسائر فادحة ، وحدث فيهم مجزرة كبيرة (سنة ٢٤ م) وبموتهم خمدت الثورة ، ولكن لمدة قصيرة فقط لتعود من جديد ، طبق العادة المألوفة عند الافريقيين ، اى فترة سكون وركون تعقبها فترة كفاح ومقاومة ، فاذا احسوا بالضعف وبغلب العدو عليهم ، خدمت نارهم حتى تخالها صارت رمادا ، لكن بمجرد ما تهب عليها ريح مؤاتية ، تعود من جديد اشد لهيبا واغوى شواظا ، وهكذا دواليك حتى النصر النهائى .

فبعد يوغرطة تاكفاريناس (سنة ١٧) ، وبعد تاكفاريناس ايدامون (سنة ٤٠) ، وبعد ايدامون قبائل الفارامانت (سنة ٧٨) ، وبعد الفارامانت قبائل الناسامون (سنة ٨١) ، ثم ثورة المريطانييين (سنة ١١٨) تم خمود تلك الثورة ، ثم نشوبها من جديد (سنة ١٣٨) ثم (سنة ١٤٤) ، ثم ثورة اوراس (سنة ١٥٠) ، وهكذا الى ما لا نهاية له . . . ما دام الاجنبى موجودا على ارض الوطن !

٢٦ قتل بطليموس ونهاية المملكة المريطانية (سنة ٤٠ م) .

وكان بطليموس فى صف الرومانيين يقاوم الزعيم الثائر تاكفاريناس بكل همة وعزيمة ، ويعين البروقنصل بوبليوس دولا بالة (Publius Dolabella) اعانة فعالة حتى مكنته من الانتصار على عدوه (سنة ٢٤) . فارسلت له حكومة رومة زخارف النصر نذكر منها كرسى العاج، والصولجان ، واكليل الذهب ، والحلة المطرزة

تم ان القيصر غايوس (Gaïus César) الملقب بقاليقولا (Caligula) تقلد الامبراطورية برومة سنة ٣٧ م وهو من ذرية انطونيوس افراد الثلاثية الثانية ، مثلما كان بطليموس ايضا من ذريته عن طريق امه كليوباترة ، فكان قاليقولا ابن خال بطليموس ، وكان بطليموس ابن خالة قاليقولا . وكان هذا الامبراطور معتوها واحمق فذات يوم من الايام بينما كان هذا القيصر يقيم حفلة بسرورة

اذ دخل الملك النوميدي وهو يرتدى حلة الارجوان النى كانت لباس
الابهة الخاص بالباطرة فاستلقت بطليموس انظار جميع الحاضرين .
وامتلا قاليقولا غيرة وحقدا واعتزته نوبته الجنونية ، فامر فى الحين
بالقاء القبض عليه واعدامه (سنة ٤٠ م) وبموت بطليموس فقدت
المملكة البريطانية استقلالها الموهوم والخيالى ، ووقع تحويلها الى
ولايتين رومانيتين جديدتين ، وهما : ولاية مريطانية القيصرية
(مملكة بوخوس سابقا) ، وولاية مريطانية الطنجية (مملكة
يوغود سابقا) .

ونشا عن هذا الاغتيال وهذا الالحاق حركة تعرد امتدت الى
الاطلس وكان يقودها ايدامون عتيق بطليموس ، واستعرت تلك
الحركة التعردية ما يزيد على العامين حتى قضى عليها القائد الرومانى
بولينوس (Suetonius Paullinus)

وبذلك اصبحت افريقية الشمالية باسرها تحت نفوذ رومة ، ودام
الامر كذلك مدة اربعة قرون تقريبا ، من سنة ٤٢ الى سنة ٤٣٠ ،
اى الى زحف الوندال . (انظر الخريطة باللوحه رقم ٧٦)

والآن نريد ان نعرف مراحل هذا الاحتلال، وان نفهم كيف اتسعت
شيئا فشيئا حدود الولايات الرومانية .



العربة الرومانية

حدود الولايات الرومانية بافريقية الشمالية

نريد الان ان نبين حدود افريقية الرومانية فى الزمان وفى المكان وان نذكر تاريخ كل مرحلة من مراحل الاستعمار والاستيلاء ، او التخلّي والانجلاء .

فما لاشك فيه ان الجمهورية الرومانية لم تكن تملك شيئا بافريقية قبل منتصف القرن الثانى ، اى قبل سنة ١٤٦ ق.م. وان مخالطتها لافريقية لم تكن الا مخالطة حرب وقتال ضد قرطاج . ولما حملت الظروف والاحداث الحربية الرومانيين على انزال قواتهم بالتراب الافريقى للغزو كما وقع ذلك فى الحرب البونيقية الاولى مع روغوس ، وفى الحرب الثانية مع شبيون الافريقى ، فقد تم ذلك بدون نية الاحتلال والاستقرار ، بل كان الرومانيون باجمعهم وعن آخرهم يرتحلون بمجرد انتهاء العمليات الحربية .

اما بعد الحرب البونيقية الثالثة (سنة ١٤٦) فلم يكن الامر كذلك لان فى هذه المرة ، بعد ما هدم الرومانيون قرطاج لاعتقادهم بان تهديمها اصبح الوسيلة الوحيدة للتخلص من مزاحمة بان خطرها ، وبعد ما قضوا نهائيا على البونيقيين ، احسوا بضرورة بقائهم بافريقية حتى لا تعود تلك المزاحمة من جديد فى شكل آخر ، وتحت اسم آخر ومع رجال آخرين .

فضمت رومة اليها ارضا تقابل تقريبا ثلث البلاد التونسية من الجهة الشمالية الشرقية ، وجعلت منها ولاية (افريكا Africa) او افريقية باتم معنى الكلمة

واصبحت افريقية الشمالية تشتمل على الاقطار التالية :

- ١ - افريقية (القطر التونسى) وسكانها الافريقيون
- ٢ - نوميدية (الجزائر الشرقية) وسكانها النوميديون
- ٣ - ميطانية وتنقسم بدورها الى :
 - ١ - ميطانية القيصرية (الجزائر الغربية) وعاصمتها شرشال
 - ب - ميطانية الطنجية (بلاد المغرب) وعاصمتها طنجة

ويقول بعض المؤرخين بان رومة لم يكن فى نيتها فى ذلك الوقت الاستيلاء على تلك القطعة الصغيرة والمحدودة كتوطئة وتمهيد لامبراطورية اعظم شانا واكبر اتساعا ، او بعبارة اخرى لم تكن لها نية التوسع الاستعمارى تدريجيا ، بل ان احتلال تلك الارض الافريقية البونيقية كان يعتبر ضروريا بالنسبة اليها وكافيا لوقاية ايطالية وصيانتها .

ولم يكن الرومانيون الذين اقاموا بافريقية البونيقية يفكرون اذ ذاك فى الهجرة نهائيا الى تلك الديار واستوطانها جيلا بعد جيل ، بل كانوا يريدون ان يحتلوا بانفسهم ذلك المركز الجغرافى الممتاز ، حتى لا تستقر فيه دولة اخرى ، فكان عليهم يرمى الى غاية وقائية واحتياطية لا الى غاية استعمارية واستيلائية ، وكان الغرض من هذا الاحتلال لا الاحتلال نفسه ، بل منع احتلال آخر . . . ويقول هؤلاء المؤرخون بان مجلس الشيوخ بقى محافظا على هذه السياسة طيلة القرن الاخير للجمهورية ، ولم تفكر رومة بناتا فى مسألة الاستيلاء ، بل كانت عدوة للتوسع والحاق الاراضى وضمها الى ترابها ، وحتى اذا اضطرت الى اشهار حرب على افريقية ، فان ذلك كان منها كرها لمقامة هجوم او تعد . . . ويقارنون بين موقف مجلس الشيوخ هذا ، وبين موقف فرنسا بعد سنة ١٩٣٠ ، اذ انها كانت اقتنعت واكتفت بايقاف تيار القرصنة وسلب المراكب ، ولم تفكر لحظة واحدة فى استعمار الجزائر ا فكانهم يقولون بان رومة ، وكذلك فرنسا فيما بعد ، جلستا حول المائدة بدون شاهية للاكل ، وبدون اية فكرة فى تناول الطعام ، ثم تحركت فيهما تلك الشاهية ، وطفغ عليهما ، لما شاهدتا الالوان اللذينة ، فسال لعابهما ، وتحركت اشداقهما ، وشرعنا فى الازدراء والالتقام !

على ان هذه النظرية ربما كانت قابلة للمباحثة والمحاجة بالنسبة الى رومة بعد سنة ١٤٦ ، وكذلك بالنسبة الى فرنسا بعد سنة ١٨٣٠ اذ ان النزعة الاستعمارية وفكرة التوسع والاستيلاء كانت موجودة ومتغلغلة فيهما فى ذلك الوقت .

— فاما فرنسا فقد كانت سنة ١٨٣٠ فى مزاحمة ومسابقة استعمارية واسعة النطاق مع انكلترا والروسيا .

واذا كانت روسيا قد اختارت بلاد القوقاز ، وانكلترا اختارت بلاد الهند ميلانا لتوسعهما الاستعمارى ، فلماذا لا تختار فرنسا هى ايضا افريقية الشمالية ، ولماذا لا تستولى على الجزائر ؟

واما رومة فهي قد استولت على ما خلفته لها جمهورية قرطاج ، واكتفت بذلك موقتا ، ولم تتجاسر على مد يدها الى ما هو اكبر ، لان (غولوسة) ملك نوميدية كان يحارب في صفها والى جانبها في الحرب البونيقية الثالثة ، مثلما كان حارب ابوه ماسنيسا من قبل ، في الحرب البونيقية الثانية ، في صف شبيون الافريقي والى جانبه . فلولا ماسنيسا لما انتصر شبيون الاكبر في معركة جامة ، ولولا غولوسة لما انصر شبيون الاصغر على القرطاجيين ذلك الانتصار النهائي فكيف يجوز لرومة ان تمد يدها الى مملكة حليفها بالامس الذي كان سببا في فوزها ونجاحها ؟ وما فائدتها من هذا الاحتلال ما دام الملك مخلصا اليها كل الاخلاص وما دامت مملكته معتبرة شبه حماية رومانية تستغلها رومة بدون مصاريف ولا نفقات ؟

على ان رومة كثيرا ما كانت تخلف العهد ، وتنكث الميثاق ، ولا تقيم للحلف وزنا ، فنراها مثلا تتحالف مع مصر والاعريق للايقاع بمقدونية ، وبعد ما تنتصر على الملك فيليب المقدوني (حليف حنبعل) وبعدما تدخل مقدونية تحت سلطتها (سنة ١٩٧) نراها تنقلب ضد الاعريق ، وتفتك بهم فتكا ذريعا ، وتقتل منهم ما يزيد على مائة وخمسين الفا ، وتهدم مدينة كورنتس (Corinthe) في نفس السنة التي هدمت فيها قرطاج اى سنة ١٤٦ ، وتدخل بلاد الاعريق تحت نفوذها وهيمنتها . . .

ويمكن لنا ان نقول بان سقوط قرطاج مكن الرومانيين من كامل شمال افريقية ، ولم تبق مساحة الحوز والتملك سوى مساحة وقت فقط ، وهو وقت لم يطل كثيرا ، لان رومة لم تترقب فرص الاستيلاء على القبائل النوميدية ، بل هجمت على ليبيا (طرابلس) واستولت على قرينى (Cyrène) سنة ٧٤ ، وبعد ذلك باربع واربعين سنة (اى سنة ٣٠ ق م) تناولت على مصر مملكة البطالمة وضممتها الى ولاياتها الرومانية .

ولكن ما لنا ونية الرومانيين او الفرنسيين هل كان فيها قصد التماهى في الاستيلاء ام لم يكن فيها ذلك القصد ؟ فالذى يهمنا هو الواقع التاريخي ، وهذا الواقع يثبت بان فرنسا استولت على الجزائر اولا ، ثم توسعت فضمت اليها تونس ، ثم زادت توسعت فضمت اليها المغرب ، وهكذا استولت على كامل شمال افريقية . وكذلك الواقع التاريخي يثبت ايضا بان رومة استولت في البداية

على ما خلفته جمهورية قرطاج بعد زوالها ، ثم توسعت ، ثم زادت
توسعت ٠٠٠ الى ان استولت على كامل شمال افريقية .
ونريد الآن ان نعرف مراحل ومدى هذا التوسع التدريجي وكيف
وقع مد السلطة الرومانية على كامل تراب شمال افريقية :

اولا : في عهد الجمهورية (من سنة ١٤٦ الى سنة ٢٩ ق م)

أ - سنة ١٤٦ : بعد تهديم قرطاج

افريكا (Africa)

ان ولاية افريكا التي نشأت سنة ١٤٦ بعد تهديم قرطاج كانت
صغيرة جدا . ونحن نعلم كيف كان ماسنيسا يفتك الاراضي البونيقية
ولم يترك للقرطاجيين الا ارضا ضيقة الحدود ، وهي التي ضمتها رومة
بعد الحرب البونيقية الثالثة وسمتها افريقية الرومانية (Africa romana)
وقد بينا كيف تبدا تلك الحدود من مصب الوادي الكبير (Tusca)
قرب طبرقة ، وتنتهي جنوب طينة على السرت الصغير اى خليج
قابس ، وقلنا ان هذه الحدود كانت معينة ومعلمة بخندق كبير كان
امر بحفره شبليون الايملى على طول حدود المملكة اللنوميديّة ، وهو
المعروف باسم (الخندق الملكى) (Fossa regia) ويمكن تقدير
المساحة التي كانت تحتوى عليها تلك الحدود بخمسة وعشرين الف
متر مربع تقريبا ، اى الثلث الشمالى الشرقى من القطر التونسى .
وبمجرد ضم تلك الولاية الافريقية وقع الشروع فى مسحها اى فى قياسها
وتقسيمها وتسجيلها حسب وحدات ماثوية او سنثورية (Centuries)
وكل وحدة ماثوية تكون مساحتها ١٠٠ فدان (١) اى ٥٠
هكتارا او ٥٠٠٠٠٠ متر مربع .
وتقسم الوحدة الماثوية الى ١٠٠ قطعة عائلية او ضيقة ، وتسلم

(١) نصف الفدان : (jugerum) : كان عبارة عن قطعة مستطيلة طولها ٢٤٠
قدما ، وعرضها ١٢٠ قدما ، فتكون مساحتها ٢٨٠٨٠٠ قدم مربع ، او ما يزيد بقليل
على ٢٠٥٠٠ متر مربع .
وان الكلمة اللاتينية (jugerum) اى نصف فدان مشتقة من الفعل
(jungere) الذى يدل على عملية القرن بين الثورين للحراث ، وهو نفس المعنى
الموجود ايضا فى كلمة (الفدان) التي تدل على واحد على الثورين يقرن بينهما
للحراث ، وعلى مساحة قدرها مائتا قصبه مربعة .
وبما ان القصبه هى عشرة اذرع او خمسة امتار ، فان القصبه المربعة تكون ٢٥
مترا مربعا ومائتا قصبه مربعة تساوى ٥٠٠٠ متر مربع
ونصف الفدان (un jugerum) يكون عبارة عن ٢٥٠٠ متر مربع

كل ضيعة الى عائلة فيتوارثها بافرادها خلفا عن سلف ، ولذلك اطلقوا عليها اسم (ملك الارث) (heredia) وتكون مساحتها حينئذ فداناً او ٥٠٠٠ متر مربع .

١ وحدة مالوية	(centurie)	= ١٠٠ ملك ارث	100 (heredia)
		= ١٠٠ فدان	200 (jugères)
		= ٥٠ هكتارا	(50 ha)
		= ٥٠٠٠٠٠ متر مربع	
١ ملك ارث	(heredium)	= فدان واحد	(2 jugères)
		= ٥٠٠٠ متر مربع	

وكان المسح (l'arpentage) يقع على الصورة التالية : لو فرضنا انهم يريدون قسمة مساحة ارضية الى وحدات متساوية بواسطة شبكة من خطوط مستقيمة ، فانهم قبل كل شيء يمدون خطا على الطول كانوا يطلقون عليه اسم (decumanus maximus)

ثم يمدون خطا عموديا على العرض يشق الاول في وسطه ويسمى (Cardo maximus)

ثم يمدون عددا من الخطوط الموازية لهذين الخطين الرئيسيين طولاً وعرضا بكيفية تجعلها تقسم تلك المساحة الى وحدات مائوية اى الى مربعات طول ضلعها ٧١٠،٤٠ م . ومساحتها ٥٠ هكتارا او ما يقرب من ٥٠٠٠٠٠ متر مربع (اى مائة فدان)

وان ما سميناه خطوطا كان في الواقع سبلا ومسالك من الاملاك العامة ، فالطريقان الرئيسيان كانا اعرض بكثير من المسالك الفرعية المتوازية ، وبعد كل اربعة مسالك متوازية تجد مسلكا خامسا اعرض منها (انظروا اللوحة رقم ٧٤)

ثم بعد انتهاء المساحين من اعمال القيس والمسح يقع رسم المخطط او التصميم وتسجل به اسماء اصحاب الاراضى والضيعات .

وان الوثائق التاريخية التى تشهد بتقسيم الاراضى الى (سنتوريات) بالولايات الافريقية كثيرة جدا ، واقدمها عهدا قانون عقارى مؤرخ في سنة ١١١ ق م . ، ويشير هذا القانون الى القيام بهذا التقسيم ، والى توزيع حصص على افراد الجالية الرومانية التى حاول كايوس سمبرونيوس غراقوس (Caïs Sempronius Gracchus) ان يعمر بها مدينة قرطاج لما قدم الى افريقية سنة ١٢٢ ، وسعى في إعادة بناء عاصمة البونيقين واقرار الجالية الاستعمارية فيها ، ولما عاد الى رومة ،

حل عليه خصومه، ورموه بخرق القدسيات وتدنيسها، لان قرطاج كانت تعتبر بلادا ملعونة عندهم ، فحاول كايوس الدفعا عن موقفه باستمعاع العنف ولكنه لم ينجح ، فالتجأ . الى الانتحار (سنة ١٢١) ورموا بجثته فى نهر التيبير ، والحقوا باسمه اللعنات ، واهلكوا ثلاثة الاف من اتباعه . . . (١)

ونفهم من ذلك ان مسح ارض قرطاج ، وغيرها من الاراضى بجهاب اخرى ، حتى املاك الافريقيين من ابناء البلاد ، كما يشير اليه ذلك القانون ايضا ، يرجع عهده الى سنة ١٢٢ ق م .

وقد وقع تعميم عمليات المسح على كامل تراب الولاية ما عدى المدن السبعة التى كانت منحتها رومة حريتها مجازاة لها على قطع صلتها بقرطاج وانفصالها عنها اثناء الحرب البونيقية الثالثة ، وهذه المدن السبعة هى : اوتيكة ، وحدرموت (سوسة) ، ولبتيس الصغرى (المطلة) وثابسوس (راس الديراس ، قرب المهدية) ، واشولة (جمة او راس بوطرية) واسولة (انشيلة شمال صفاقس) ، وثوداليس وراء خليج بنزرت (عين طلة ٩) ولم يات دور هذه المدن ، وكذلك ايضا بعض الجهات الاخرى فى جنوب سوسة كالجبهة الموجودة على مقربة من مدينة الجلم مثلا ، او فى جنوب الولاية بصفة عامة . . . لم يات دورها الا بعد الجمهورية ، اى فى العهد الامبراطورى . ويمكن ان نقول بان الاعمال الاولى المتعلقة بالمسح والتقسيم لم تتجاوز المفيزة ، بل وقفت امام اراضى سوسة ، سواء بالنسبة للاملاك الرومانية او بالنسبة لاراضى المدن الحرة .

وقد اهدى م . صوماني ، وهو يتأمل صدفة فى صور شمسية التقطت من الطائرة لفائدة ادارة الاحباس بتونس ، الى آثار ظاهرة وواضحة باحدى تلك الصور لاهم عمل من اعمال المسح والتقسيم وقع القيام به قرب مدينة الجلم ، وقد شملت هذه الاعمال مساحة تبلغ

(١) اعادة بناء قرطاج : لم تتحقق اعادة بناء مدينة قرطاج ولم يتم تعميرها بالسكان الا سنة ٣٩ بعد الميلاد ، فى عهد الامبراطور اغسطس الذى كانت له القوة الكافية والشجاعة لتحدي شعور الرومانيين واحتقار وساوسهم الدينية ، فهو الذى اظمها على انقاض المدينة القديمة وعمرها بالمهاجرين من الرومان . فكانت قرطاج الرومانية عاصمة لولاية افريقية بعد اوتيكة ، وسطعت انوارها فى سماء الامبراطورية الى ان غزاها الوندال فى القرن الخامس بعد الميلاد (فى ١٩ اكتوبر ٤٣٩) ودام استلاؤهم عليها مائة عام ثم انتزعها منهم القائد البيزنطى « بليشار » (سنة ٥٣٤) وبقيت قرطاج تحت حكم بيزنطة الى ان ادرکها الفتح الاسلامى على يد حبيب بن المغيرة الذى امر بهدمها وتغريبها سنة ٧٨ للهجرة الموافقة لسنة ٦٩٨ م .
والله يري الارض ومن عليها وهو خير الوادين

١٥٠٠٠ هكتار تقريبا ، وقع تقسيمها الى حصص او سنتوريات او وحدات مائويه ذات خمسين هكتارا (انظروا اللوحة رقم ٧٤)
وكذلك وقعت اكتشافات جديدة هامة من دراسة الخرائط القيمة
التي رسمتها المصلحة الجغرافية للجيش والتي وقع التوصل بواسطتها
الى معرفه عملية اخرى على غزية من الروعة ، وتعتبر من اهم عمليات
التقسيم القديمة لتحديد قطع مربعة طول ضلعها ٢٤٠٠ قدم او
٤٠ ، ٧١٠ م .

والذى مكن من الاهتداء اليها وجود انصاب على عين المكان
بالجنوب التونسي قرب شط الفجاج ووذرف ، وبالبحت والتنقيب
تبين ان الحط الممتد على انطول (decumanus maximus) كان
يتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ويذهب من نقطة
على الساحل كائنة بين مدينة سكيكدة (Rusicade = Philippeville)
ومدينة عنابة (Hippo Regius = Bône) الى ان يصل قرب قابس . اما
الحط الممتد على العرض (Cardo maximus) الذى يقطعه عموديا وحسب
زاوية قائمة بجهة تالة ، فهو ينتهى فى انشمال الشرقى قرب الوطن
القبلى .

ومن غير شك ان هذه العملية الواسعة النطاق ، وقع القيام بها
بعد سنة ٤٦ ق . م . اى بعد انشاء افريكا الجديدة (Africa Nova)
كما سنراه بعد قليل ، وذلك لان الحط الممتد على الطول من الشمال الغربى
(بين عنابة وسكيكدة) الى الجنوب الشرقى (قرب قابس) هو
بتمامه وكماله خارج عن حدود الولاية القديمة ، اى خارج عن خندق
(فوساريچيا) .

وقد كانت انيطت هذه العملية الواسعة بمهنة مساحين عسكريين
ولذلك لا يستبعد ان يكون مرور الحط الممتد على العرض بمدينة حيدرة
(Ammædara = Haïdra) امرا مقصودا لا من مجرد باب الصدفة ، وذلك
لان حيدرة كانت محل اقامة فرقة (جوقة افريقية) فى عهد الامبراطور
اغسطس (من ٢٩ ق . م . الى ١٤ بعده)

وبالاختصار نفهم مما تقدم عمليات المسح والتقسيم (centuration)
بدات مع بداية الاحتلال ، واستمرت مدة سنوات طويلة ، وما زالت
انارها باقية على الارض تشهد باهميتها وروعيتها .

ب (سنة ١٠٥ ق ٠ م : بعد الانتصار على الملك يوغرطة

لما مات الملك ميسيبسا بن ماسنيسا سنة ١١٨ ترك المملكة لابنيه هيامبسال وأذربعل ، وليوغرطة ابن اخيه الهالك مانسطبعل ، والذي تبناه ورباه في قصره كاحد اولاده .

فتخلص يوغرطة اولاً من هيامبسال باغتياله ليلاً ببلدة ثرميدة قرب دقة (سنة ١١٨) ، ثم تخلص من أذربعل الذي التجأ الى مدينة قرطه ، فحاصره يوغرطه الى ان سلم اليه نفسه ، فقتله شر قتلة (سنة ١١٢) وذلك رغم تحذير وانذار رومة . ولم يكتف يوغرطه بذلك بل قتل بالإيطاليين الذين كانوا قاطنين بقرطه لانهم كانوا من انصار أذربعل . فلم تر حكومة رومة بدا من اعلان الحرب عليه (سنة ١١١) .

فاخذ يوغرطه يقاوم الاعداء تارة باستعمال الحيلة ، وشرائهم بالمال ، وتارة باستعمال قوة السلاح . ونلاحظ هنا ان رومة كانت في ذلك التاريخ على غاية من الانحطاط والتدهور الاخلاقي . فان اشرافها قد فقدوا كل شعور بالنبل والشرف ، واصبحوا لا يفكرون الا في جمع المال بوسائل شرعية او غير شرعية ، فكثر الرشوات والحيانات ، وصارت الوظائف والمناصب سبيلاً ووسائط للثراء بانتهاب الخزينة وباستلاب الناس اموالهم ، وتعددت الثورات ، وتكرر القتل والاغتيال وسفك الدماء حتى ان يوغرطه استعمل بريق الذهب ولمع الفضة اكثر من مرة لربح دعواه .

— فهو قد استعمل الرشوة لما وجهت اليه رومة لجأنا للبحث في قضيته مع ابني عمه (سنة ١١٧) ، فحكمت له وجعلت الحق من جانبه .
— واستعمل الرشوة لما سيرت اليه جيشاً لمحاربته (سنة ١١١) ، فتم الصلح بينه وبين قواد الجيش بدون قتال ولا انزال . . .

— واستعمل الرشوة لما وقع استدعاؤه الى رومة للمحاكمة (في آخر سنة ١١١) ، فتوجه اليها (مثقلاً ملأناً) ورجع منها (مخففاً فارغاً) ولكنه اشترى اعضاء كانوا من جهته يدافعون عنه في المجلس ويظهرون براءته ومما يدل على استخفافه بهم انه تجرأ على قتل (ماسيوة) ابن عمه غولوسة في رومة نفسها ، لما بلغه انه كان

يدس الدسائس لتصير ملكا على نوميديا . وبفضل المال ارتكب تلك
الجناية الشنيعة ولم يخش حسابا ولا عقابا . وهذا هو الذي جعله
يقول بكل احتقار لما غادر إيطاليا : (ان رومة مبتاعة لمن يريد شرائها
بالمال !)

واخيرا عينت رومة لقيادة الجيش قنصلا حازما نزيها وهو ماريوس
(سنة ١٠٧) ولكنه لم يظفر بعدوه الا بعد ما يقرب من ثلاث سنوات
ولم يقع ذلك في ساحة القتال ، بل تم بالحيلة وبحمل حليفه
(بوخوس) ملك مريطانية على خيائته والغدر به ، فسلمه اليه اسيرا
(سنة ١٠٥) .

وبعد انتصار رومة على عدوها يوغرطة ، لم تقع زيادات تذكر في
تراب ولاية افريكا ، بل اكتفى الرومانيون بوضع نفوذهم على موانئ
طرابلس .

اما لبتيس الكبرى (لبدة) التي كانت داخلية في مملكة يوغرطة
فهي قد اعلنت انفصالها عن ذلك الملك ابتداء من سنة ١١١ ، وطلبت
من رومة ان تعتبرها مدينة صديقة وحليفة وجرة . فكان الامر كما
ارادت ومن ذلك التاريخ لم تقع تحت نفوذ النوميديين .

ج) سنة ٤٦ : بعد انتصار قيصر على بمبايوس افريكا الجديدة و افريكا القديمة

في منتصف القرن الاخير قبل المسيح حدثت قلاقل سياسية
بإيطالية كان لها صداها واثرها بأفريقية .
ففي سنة ٦٠ وقع اجتماع بين :

- يوليوس كايوس قيصر (Jules César)
- وكنييوس بمبايوس (Cneius Pompeius)
- وماركوس ليسينيوس كراسوس (Marcus Crassus)

والفوا الثلاثية الاولى (le 1er triumvirat) أي حكومة الثلاثة او
الثالوث . وتقلد يوليوس قيصر ولاية غالية ، وتقلد كراسوس ولاية
سوريا ، وبمبايوس ولايتي اسبانية وافريقية .

وزاد قيصر في تميتين تحالفه مع زميليه كراسوس وبمبايوس ،
باتخاذ ابن الاول عضدا له ونائبا ، وبتزويج الثاني بابنته .
- لكن كراسوس مات سنة ٥٣

- وفي سنة ٥٢ ، سمت رومة بمبايوس قنصلا اوحده . اما
يوليوس قيصر فقد سلبت منه القيادة لتخوفها من شعبيته ومن الخطوة
الكبيرة التي وصل اليها ، وانتصاراته الباهرة التي احرز عليها بغالية
من سنة ٥٩ الى سنة ٥٢ .

وفي العام بعده (سنة ٥١) عرض يوليوس قيصر على مجلس
الشيوخ انذاره الاخير مطالبا بتخلي بمبايوس عن القيادة ، او بارجاعها
اليه ريثما يقع اجتماع المجالس الانتخابية .

- لكن مجلس الشيوخ اجابه بالرفض
- فقطع يوليوس قيصر نهر الروبيكو (سنة ٤٩) وهو الحد
الفاصل بين ولايته بغالية امام الآلب وبلاد ايطالية ، ولا يمكن ان
يتعداه وال على راس جيشه الا باذن من رومة . ولذلك صارت
العبارة (قطع الروبيكو) (il franchit le Rubicon) تستعمل بالنسبة
لكل من اقدم على امر خطير بعد تردد . . .

وقد تردد يوليوس قيصر في اول الامر ، ولكنه تشجع بعد ذلك ،
وقطع ذلك النهر بكل جسارة وهو يقول : (قد حتم الامر !) ، فذهبت
مثلا . . (Alea jacta est = le sort en est jeté) وزحف على
رومة . . .

واعلن مجلس الشيوخ ان يوليوس قيصر اصبح عدو الشعب .
واندلعت نار الفتنة الداخلية والحرب المدنية ، وانقسم الناس الى
حزبين : الى (بمبايوسيين) اي انصار بمبايوس ، و (قيصريين)
اي انصار قيصر .

وفر بمبايوس الى الشرق ، فالتحق به قيصر في بلاد اليونان
ودارت بينهما معركة بفرزالة (Pharsale) بجهة ثاساليا ببلاد اليونان
انتصر فيها قيصر على خصمه انتصارا باهرا (٩ اوت سنة ٤٨)
ونجا بمبايوس بنفسه وفر هاربا الى مصر ، وبمجرد نزوله قتله
اعوان بطليموس .

ويقال ان قيصر لم يتمالك من التائر والبكاء لما اتوه براس خصمه

وكان يوبا الاول ملك نوميديا الشرقية بمبايوسيا ، اى من
انصار بمبايوس .

وكان جيش البمبايوسيين بافريقية قويا يزيد على ٤٠ ٠٠٠ من
المشاة و ١٥ ٠٠٠ من الخيالة تحت قيادة قيسيلوس ميتيلوس شبيون
وبورسيوس قاطون ، محتشدتين حول اوتيكة وسوسة ، ما عدى
القوات العظيمة التى كان يتصرف فيها الملك يوبا الاول .

وبعدما انتصر يوليوس قيصر على خصمه بمبايوس ، وبعدما قضى
تسعة اشهر اسير بجال كليوباترة ملكة مصر ، ركب الى افريقية ، ونزل
قرب سوسة (٢٨ ديسمبر ٤٦ ق م) للانتقام من يوبا الاول
ومن انصار بمبايوس ، وكان على راس ٣٣ ٠٠٠ من المشاة و ١٥٠
فارسي فقط ، وكان معتمدا على مساعدة بوخوس الاصغر ملك نوميديا
الغربية ، فاسعفته الاقدار زيادة عن ذلك بنجدة غير مترقبة ، ومدد
غير منتظر تحت قيادة بوبليوس سيتيوس (Publius Sittius)

وهو مغامر ايطالى ارتكب برومة فضائح مشينة ، واعلن افلاسا مزيفا ،
واتهم بالاحتيال والتدليس ، فبارح رومة ، ونزل بافريقية ليلعب
الورقة القيصرية ، والى جيشا جعله تحت قيادته ، ودخل فى
الحرب ضد البمبايوسيين لما كان قيصر فى اشد الحاجة الى المساعدة .

اما قيصر فانه التقى باعدائه قرب المنستير (Ruspina) ،
ثم قرب المهدية بجهة قصور الساف ، واخيرا اقام معسكره بنابسوس
(Thapsus) اى راس الديراس (فى ٤ افريل ليل) . وفى ٦ افريل
قام بهجوم عنيف ، وحمل على اعدائه حملة منكرة ، فهزمهم ، وبدد
سملهم ، وفنك بهم فتكا ذريعا ، وانتحر شبيون وقاطون . اما يوبا
الاول فانه فر هاربا الى عاصمته (جماريجا) وانتحر ايضا بشرب
السم ليسلم من انتقام قيصر وبطنسه .

وبذلك الانتصار الذى يرجح الفضل فيه الى اعانة (سيتيوس)
سكنت الثورة ، وانتهت المقاومة ، واستتب الامن .

وغير قيصر النظام بافريقية تغييرا عميقا : فجعل من نوميديا
الشرقية ولاية جديدة اخذت اسم (افريكا الجديدة Africa nova)
سيقع ضمها بعد عشرين سنة (اى فى سنة ٢٧) الى الولاية الاولى
التي صارت تعرف باسم (افريكا القديمة Africa vetus)

وانشا بين مريطانية وافريكا الجديدة امارة فاصلة تبرع بها على (سينيوس) مكافاة له عن مساعدته الفجائية ، فاصبح هذا المفامر، بين عشية وضحاها ، اميرا وملكا بعدما كان مفلسا وجانيا .

وبعد موت سينيوس (سنة ٤٣) يقع الحاق تلك الامارة ببقية الولاية الرومانية ، بحيث ان افريكا القديمة وافريكا الجديدة وامارة سينيوس ، يتكون من مجموعها فى سنة ٢٧ ق م . ولاية بروقنصلية واحدة .

وافريكا الجديدة كانت ملاصقة شرقا لافريكا القديمة الغربية ، اى الحندق الملكى او فوسا ريجيا ، اما حدها الغربى فهو خط يمر غربى عنابة (ما بين عنابة وسكيكدة) ، وغربى قالمة ٠٠٠ ويشمل جنوبا سواحل السرت .

واول وال عينه قيصر على راس افريكا الجديدة كان سالسطيوس (Caius Sallustius Crispus = Salluste) وهو مؤرخ لاطينى من الصابينين ولد سنة ٨٧ ق م . وكان من انصار قيصر ، فولاه الحكم بالولاية الجديدة ومنحه لقب (بريتور) واستمر فى الولاية من سنة ٤٦ الى سنة ٤٥ ، وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية . ونلاحظ بهذه المناسبة ان سالسطيوس هذا هو الذى الف كتابة المعروف « حروب يوغرطة »

وصارت مريطانية تمتد من المحيط الاطلسى الى وادى المساقبة (Ampsaga) او الوادى الكبير الذى يجتمع بوادى الرمل (Rumei) ويمر بمدينة قرطبة . وكان ملك مريطانية فى ذلك الوقت بوخوس الاصغر . وبالجملة فان هذه التغييرات التى احدثها يوليوس قيصر جعلت افريقية الشجالية تنقسم الى :

١ - افريكا القديمة : تعتمد من البحر الى فوساريجيا

٢ - افريكا الجديدة من فوسا ريجيا الى غربى عنابة وقالمة وعلى راسها الوالى الاول سالسطيوس من اكبر اصدقاء قيصر وانصاره

٣ - امارة سينيوس : تصل الى نهر المساقبة او الوادى الكبير الذى يمر بمدينة قرطبة

٤ - مريطانية الشرقية او القيصرية وملكها بوخوس الاصغر وكان من انصار قيصر فى مقاومة البمبايوسيين بافريقية .

٥ - مريطانية الغربية او الطنجية وملكها بوغود وكان من انصار قيصر فى مقاومة البمبايوسيين باسبانيا وكانت المملكة المريطانية مستقلة ، ولكن لفظيا وفى الظاهر فقط اما فى الحقيقة والواقع فهى كانت تحت الحماية الرومانية . والذى يدل على ذلك هو تعيين ولاية رومانين عليها مدة ثمانى سنوات (من ٣٣ الى ٢٥) بعد موت بوخوس وفى سنة ٢٥ ، لما اراد الامبراطور اغسطس ارجاع تلك المملكة الى امير افريقى اى لىبى الاصل ، كان ذلك الامير (يوبا الثانى) الذى نشأ وترعرع وتربى فى رومة ، والذى اعتنت بتربيته اخت الامبراطور نفسه فصار مواطنا رومانيا ، ومتشبعاً بالثقافة اللاتينية وبالروح الرومانية ، ولا يمكن له ان يتبع سياسة تخالف او تغاير سياسة الامبراطور . فسمى يوبا الثانى مدينة شرشال (قيصرية) (Caesarea) على شرف يوليوس قيصر ، واتخذها عاصمة ملكة ودام ذلك الاستقلال المجازى او الوهمى الى سنة ٤٠ بعد الميلاد اى الى عهد الامبراطور قاليقولا

ثانيا - فى عهد الامبراطورية

(من سنة ٢٩ ق.م الى سنة ٤٣٩ بعده)

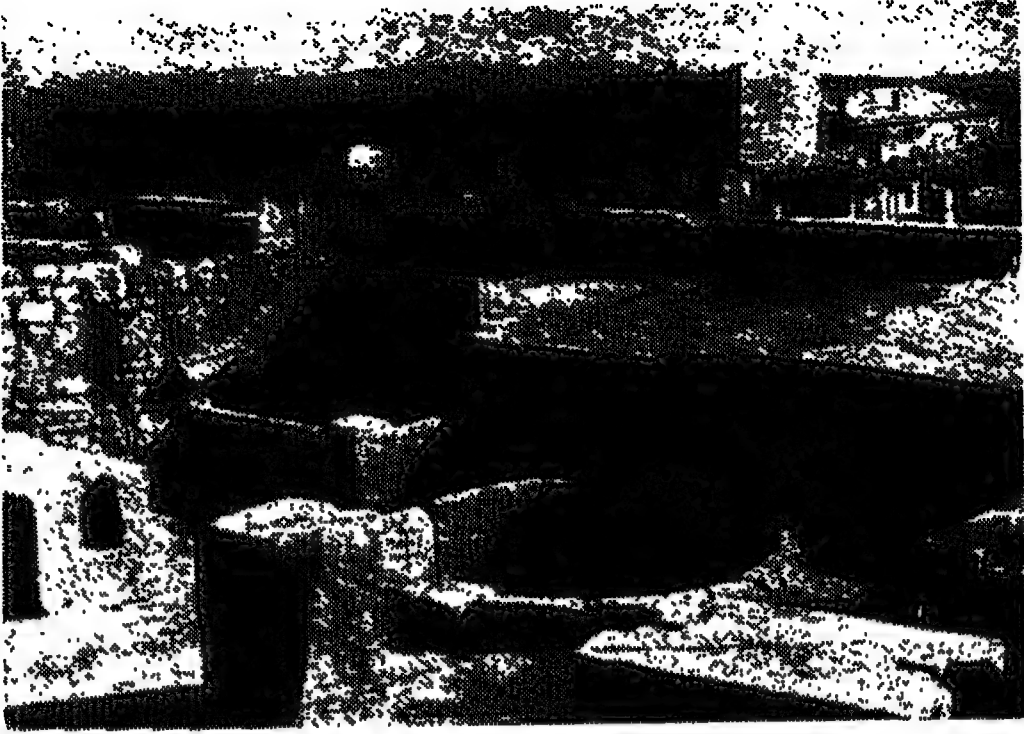
١ - سنة ٤٠ بعد الميلاد : بعد قتل الملك بطليموس :
الاستيلاء على كامل افريقية الشمالية

توفى يوبا الثانى سنة ٢٣ بعد الميلاد ، وضرجه يعرف اليوم يقبر الرومية قرب شرشال بعمالة قسنطينة وفى ايامه (سنة ١٧) ثار الزعيم النوميدي تاكفاريناس على الرومانيين لتحرير البلاد من الاستعمار الاجنبى ، ومات يوبا الثانى والثورة ما زالت على قدم وساق وتولى الملك ابنه بطليموس وذلك فى عهد الامبراطور تيباريوس (٣٧/١٤) ، واقتصر طيلة مدته التى دامت ١٧ سنة (٢٣/٤٠) على التمتع بحياة البذخ والرفاهية ، تاركا السلطة بيد اتباعه .

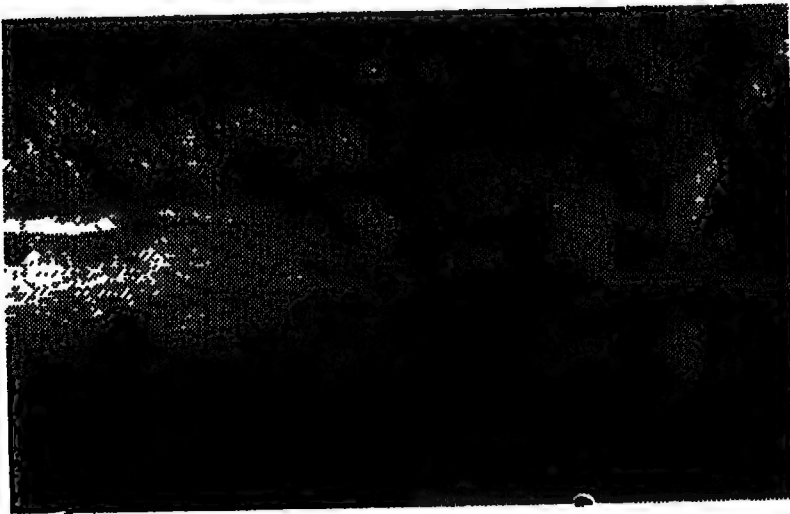
وكان البطل المقاوم تاكفاريناس مستمرا فى ثورته الى ان هلك سنة ٢٤ فى معركة دارت بينه وبين البروقنصل (دولابال) . وكان الملك بطليموس فى صف الرومانيين يقاوم الثائر تاكفاريناس

لوحة ٧٥

انظر الصفحة رقم ٣٢٨/٣٥٤ من هذا الكتاب



آثار معصرة للزيت بمدينة ماداوروش بالجزائر



آثار معمل للدبغ بمدينة تيمبازة بالجزائر

لوحة ٧٦

خريطة الت

روماني

انظر الصفحة رقم ٢٩١ من هذا الكتاب

لوحة ٧٦

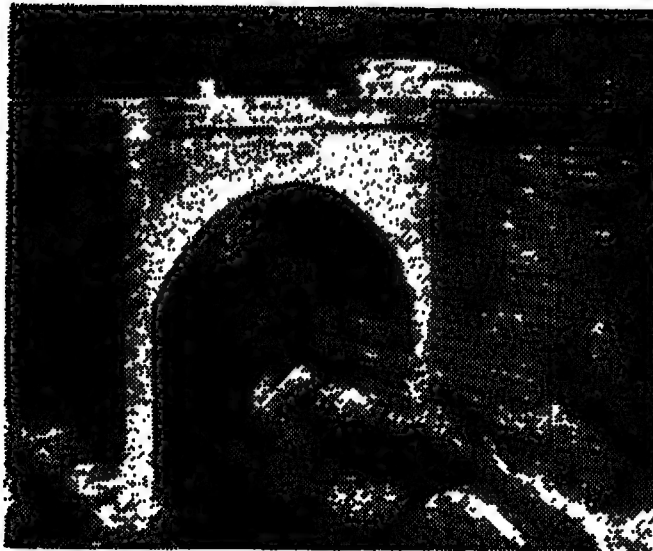
انظر الصفحة رقم ٣٠٥ من هذا الكتاب



لوحة ٧٧
انظر الصفحة رقم ٣٣٣ من هذا الكتاب



جسر وادي جلف بشمال انقيروان



جسر (القنطرة) وهو جسر روماني بالجزائر

بكل همة ونشاط ٠٠٠ فكان جزاؤه على إخلاصه ان استقدمه كايوس قيصر (الملقب بقاليقولا) الى رومة ، وافر بقتله ، وكان قاليقولا اذ ذاك فى حالة اختبال ، وجعل المريطانيتين ولايتين رومانيتين . ومن ذلك التاريخ اصبحت افريقية الشمالية باسرها بلادا رومانية واستمرت كذلك الى ان استولى الوندال على عنابة (سنة ٤٣٠) ثم على قرطاج (سنة ٤٣٩) .

والآن نريد ان نضبط الحدود الجديدة لافريقية الرومانية بعد ضم مملكة مريطانية سنة ٤٠ ، وهى حدود يمكن معرفتها وتعيينها بكل وضوح ودقة بفضل سلسلة الحصون والحواجز والمتارس التى اقامها الرومانيون على التخموم وسموها ليمس (limes) اى الحد المادى ، وما زالت آثارها موجودة الى اليوم ، ولذلك يمكن لنا ان نتبع هذه الحدود كما ياتى ، مبتدئين بالجنوب الشرقى (انظر اللوحة ٧٦)

— بالساحل الجنوبى من السرت الصغير ، وهو ما يقابل بلاد طرابلس فى الوقت الحاضر ، كان الرومانيون لا يحتلون الا بعض الموانى . وكانت الارض الرومانية الى قابس لا تبتعد كثيرا عن البحر

— وفى غربى قابس ، وقفت اعمال مسح الاراضى وتقسيمها ، وكذلك وقف الاستعمار الرومانى على الضفة الشمالية لشط الفجاج

— وبعد ذلك يتجه الحد من الشرق الى الغرب ، ويمر بالمدن التالية :

- — قفصة — CAPSA (Gafsa) —
- — فريانة — THELEPTE (Feriana) —
- — تبسة — THEVESTE (Tebessa) —

— وابتداء من تبسة يتجه من الجنوب الشرقى الى الشمال الشرقى ، شمال اوراس ، ويمر بالمدن التالية :

- — خنشلة — MASCULA (Khenchela) —
- — تيمقاد — THAMUGADI (Timgad) —
- — تازولت (لمباز) — LAMBAESIS (Lambèse) —
- — زانة — DIANA (Zana) —
- — سراية — ZARAI (Zraia) —
- — سور الغزلان — AUZIA (Aumale) —

- — سور جواب — Rapidum (Sour Djouab) — ●
- — برواغية — THANARAMUSA (Berrouaghia) — ●

— وبالوصول الى برواغية نكون قد وصلنا بالحد الى وادى شلف
(Chinalaph = Chélf) فى المكان الذى يغير فيه ذلك الوادى
اتجاهه ، فبعد ما كان يذهب من الجنوب الى الشمال ، يصير يتجه
من الشرق الى الغرب ، فيندمج الحد فيه ويمر معه بالمدن التالية :

- — مليانة — ZUCCHABAR (Méliana) — ●
- — دبيرى — OPPIDUM NOVUM (Duperré) — ●
- — مدينة الأصنام — CASTELLUM TINGITATUM (Orléansville) — ●

— ثم يزيد الحد اتجاهها نحو الغرب او بالاحرى نحو الجنوب الغربى
ويمر من :

- — غيليزان — MINA (Relizane) — ●
- — بيريقو — CASTRA NOVA (Perrégaux) — ●
- — السينغ — TASACCORA (St Denis du Sig) — ●

— ثم يقطع وادى ملوية (Mulucha = Moulouya) بالقرب من
مصبه ، وينتهى فى المدينة البونيقية :

- — مليلية — RUSADDIR (Melilla) — ●

— ويختفى الحد هناك ، ثم يظهر على ساحل المحيط الاطلسى ،
من مضيق جبل طارق الى سلا ، فيشمل :

- — طنجة — TINGI (Tanger) — ●
- — العرايش — LIXUS (Larache) — ●
- — سلا — SALA (Salé) — ●

وان منظر افريقية الرومانية ، فى اول الامبراطورية ، يبدو هكذا
فى مجموعه جليا واضحا ، فى شكل كتلة ارضية كبيرة تطابق
البلاد التونسية تقريبا ، تمتد شرقا بشقة مستطيلة على ساحل
طرابلس ، وغربا بزاوية عظيمة ، تستدق تدريجيا ، وينتهى طرفها
فى مدينة مليلية ٠٠٠ ثم ، بدون اى اتصال برى بما تقدم ، جملة
من المراكز والمصارف والمستعمرات على المحيط الاطلسى .

ب - زيادة التوسع نحو الجنوب

لكن الإباطرة الرومانيين شعروا بالحاجة الى زيادة الامتداد وتوسيع منطقة النفوذ نحو الجنوب ، بقدر ما كان ينمو عدد السكان وتزدهر حالة الفلاحة والزراعة .

وهذه الحركة التوسعية بدأت تظهر في اوائل القرن الثاني ، ثم انجلت بوضوح في آخر ذلك القرن وفي بداية القرن الثالث .
ففي سنة ٢٢٨ كان الليمس اى الحد الروماني اقرب للجنوب مما كنا ذكرناه : فكانت مراكز الحراسة الرومانية تصل الى جنوب سهول جفارة الساحلية ، زيادة عن المراكز الاخرى التي وقع احداثها بالواحات مثل بونجم وغدامس ، وكان التجار الرومانيون يذهبون حتى الى فزان .

— ثم من جهة الجنوب صارت المستعمرة الرومانية تشمل الضفة الجنوبية من شط الفجاج وواحتى نفطة وتوزر ، بين شط الجريد وشط الغارسة .

— ثم يتجه الحد ، كما بيناه آنفا ، من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، لكنه صار ، من ايام تراجانوس ، يشمل الاوراس ، ومارت مراكز الحراسة الرومانية تقام بالواحات الكائنة على تخوم الصحراء :

- | | | |
|--------------------------|---|-----------|
| ● — A D-MAJORES(Négrine) | — | ● — نقرين |
| ● — BADIAS (Badès) | — | ● — بادس |
| ● — GEMELLAE | — | ● — جمالة |
| ● — GEMELLAE (Doucen) | — | ● — دوسن |

— ومن دوسن ، يتجه الحد نحو بوسعادة ، وبوغار .
— وابتداء من بوغار يتبع الحد طريقا استراتيجيا نظم بدون شك في بداية القرن الثالث ويمر امام فج معروف يسمى (ثنية الاحد) وامام تاهرت ، ثم بالمدن التالية :

- | | | |
|---|---|-----------------------------|
| ● — Frenda | — | ● — فرندة |
| ● — COHORS BREUCORUM(Dominique Luciani) | — | ● — تاغرمرت |
| ● — (Saïda) | — | ● — سعيدة |
| ● — (Chanzy) | — | ● — شانزى |
| ● — ALTAVA (Lamoricière) | — | ● — حجر الروم |
| ● — POMARIA (Tlemcen) | — | ● — تلمسان (مدينة التفاح) |
| ● — NUMERUS SYRORUM (Marnia) | — | ● — لله مغنية |

وامام ذلك الحد المحصن وقع احداث مراكز حراسة ، اهمها مركز مسعد (Messaad) ، بجبال اولاد نايل ، وهذا المركز كان يسمى قصر او حصن دمد (Castellum Dimmidi) لان وادى دمد (Oued Demmed) كان يمر هناك . وتاسيس هذا المركز تم فى سنة ٢٠١ فى عهد سبتيموس سافاروس .

— اما بالمغرب الاقصى فان الاحتلال الرومانى صار فى القرن الثانى والثالث اكثر كثافة ، وامتن تلاحما بالنسبة للسواحل او لداخل البلاد ، واصبحت مراكز الحراسة يتكون من مجموعها مثلث رؤوسه طنجة والرباط وفاس ، وكان المركز الامامى جنوبا مدينة ازمو (Azemmour) ، وهى مصرف بونيقي قديم (Azama)

ومن اشهر المدن الرومانية فى داخل بلاد المغرب مدينة وليلى او قصر فرعون (Volubilis) وهى ليبية الاصل يرجع عهدها الى العصر النبوليتى ، ثم اختلط سكانها بالعنصر البونيقي ، ثم صارت مقرا للملك يوبا الثانى ، وابنه الملك بطليموس ، ثم للوكلاء (بيروقراطور) الرومانيين ، ونمت وازدهرت على الاخص فى القرنين الثانى والثالث ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم (قصر فرعون) .

وقد ادار بها ماركوس اوريليوس Marcus Aurelius (١٦١/١٨٠) سورا ما زالت آثاره موجودة الى الآن ، وشيد بها كومودوس Commodus (١٨٠ / ١٩٢) ببناءات ضخمة ، وزينها ماركوس قارقانة Caracalla (٢١١ / ٢١٧) بقوس النصر والكايتول وبنى بها كنيسة ...

فيمكن ان نقول حينئذ بان النفوذ الرومانى قد زاد فى هذين القرنين تقدما وتوسعا .

ولكن الشيء الذى ينبغى ملاحظته هو استمرار وجود قبائل جبلية فى الداخل محافظة على استقلالها وغير قابلة « للترمين » ، فصارت فيما بعد « اعشاش » التمرد والثورة والعصيان . ويقول الاستاذ المؤرخ ح.ح. عبد الوهاب فى ذلك (كتاب خلاصة تاريخ تونس) : « ... الا ان الرومان غفلوا مدة انتصارهم عن امر مهم جدا وهو اخضاع بعض القبائل البربرية التى انحازت الى الجبال المتبعة ، وحافظت على شعائرها القومية ولغتها وعوائلها . فلم يكن للمتغلب تاثير عليها . ومن هذه القبائل انبعثت الثورات

المعديدة فى وجه الرومان ، فكانت احدى العوامل العظمى فى سقوط سلطنتهم ، اذ بتعاقب الايام وظهور الضعف فى الدولة الحامية ، تسنى للمعنصر البربرى مقاومتها ونكت عهدها كلما سنحت لهم الفرص بذلك . ونظير هذا فى تاريخ الاسلام تلك الزلة السياسية التى ارتكبها الفاتحون للانديس ، حيث تهاونوا بامر الاسبان الملتجئين زمن الفتح الى اعلى جبال استورية ، واسس الافرنج هناك ملكا حصينا انحدروا منه الى السهول التى بايدى المسلمين ، فافتكوها شيئا فشيئا الى ان زحزحوهم من مكانهم ، وفى الآخر اطردهم من عموم الجزيرة ، وبذلك زال ملك المسلمين من الانديس . »

ولكن قبل انهيار سلطانهم ، وزوال ملكهم ، ادخل الرومانيون بافريقية نظاما سياسيا واداريا محكما ، وحسنوا الحالة الاقتصادية ، وبنوا مدينا رومانيا لا يستهان به . وهو ما سنحاول بيانه .



النظام السياسى والادارى بافريقية الرومانية

مما يجب ملاحظته قبل كل شىء ، هو ان هذا النظام كان يمتاز
بخصلتين هامتين :

اولا : مرونة الادارة الرومانية وطواعيتها المعجبة فهى كانت لا
تميل الى المبادئ القارة والثابتة التى لا تتغير ولا تتكيف حسب الاحوال
بل تطبق بكيفية آلية فى جميع الظروف والمناسبات ، وكانت لا تسعى
 وراء التناسق والاطراد ، ولا تريد ان تدخل الاشخاص والاشياء
 فى اطار واحد يكون مقروضا على الجميع .

ثانيا : تشريك الاهالى وابناء البلاد فى الامور الادارية وفى اوسع
 نطاق ، وذلك بالنسبة للقرنين الاول والثانى من النظام الامبراطورى
 الرومانى .

وكانت هذه القاعدة العامة متبعة ايضا فيما يتعلق بالنظام
 العسكرى : مرونة وتعاون ، فكانت رومة تكلف الجنود من الاهالى
 بحراسة الحدود مثلا او بحفظ النظام (انظر اللوحة رقم ٨٤)

اولا - النظام الادارى بافريكا فى عهد الجمهورية

قررت حكومة رومة سنة ١٤٦ ان يكون بافريكا احد القضاة
 السنويين الذين كانوا يحملون لقب بريطور (Praetor) او قاضيا
 قديما انتهت مدة عمله ويحل لقب بروبريطور (Propraetor) اى
 « النائب » الذى « يقوم مقام البريطور » وذلك لان عدد البريطوريين
 كان لا يتجاوز ستة فى ذلك الوقت ، وهو لا يكفى لتسييد جميع
 المراكز بالولايات البريطورية . فكان يقع تعيين هذا النائب لمدة عام
 مبدئيا ، ومع امكانية التحديد . وبما ان الوالى كان لايجوز له مبارحة
 مركزه قبل وصول خلفه ، فان الحكومة كانت تقتصر فى الغالب
 على عدم تعويضه ، فيتم التمديد هكذا بدون حاجة الى اية اجراءات اخرى
 - وفى سنة ٨١ ق م٠ لما تولى الديكتاتور سيلا (Sylla)

منصب القنصلية برومة اصدر قانونا جديدا (lex Cornelia) رفع به عدد البريتورين الى ثمانية عوض ستة ، ومنحهم لقب بروقنصل عوض بروبريطور مع ما يتبع ذلك من الامتيازات الخاصة بالقناصل مثل تقليدهم السلطة القنصلية (l'imperium) التي هي اعلى درجات السلطة ، ومنل منهم الحق في استصحاب ١٢ حارسا (licteurs) يحملون عصيهم المربوطة عوض ستة فقط . . .

ودامت هذه الحال مدة ثلاثين سنة بعد صدور ذلك القانون .

— وفي سنة ٥٢ ، لما تولى بومبايوس منصب القنصلية للمرة الثالثة اصدر قانونا آخر (lex Pompeia) جرد به هؤلاء القضاة من لقب بروقنصل ، فاكتفوا بلقب بروبريطور كما كانوا في البداية . وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، اى في شهر جانفي ٤٩ اشتعلت الحرب المدنية التي وضعت افريقية في ظروف استثنائية .

ونفهم من هذا ان افريقية الرومانية كانت في عهد الجمهورية ولاية صغيرة ، قليلة الاهمية ، لذلك لم يتول عليها الا موظفون من مرتبة دون مرتبة القنصل ، وهي مرتبة البريطور .

وقد ائتت مناسبات هامة دعت حكومة رومة الى تعيين القناصل بافريقية ، غير ان ذلك كان لظروف استثنائية ، وللقيام باموريات خاصة .

فنرى مثلا ان رومة ارسلت القنصل (قاطون) الى افريقية سنة ١١٨ ق م . وذلك لما بلغها موت الملك ميسيبسا بن ماسنيسا ، فكلفته بمهمة تنظيم الخلافة في الملك ، ولكن ذلك القنصل مات بدوره بافريقية في نفس ذلك العام .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، تعاقب على الولاية الافريقية عدد من القناصل كانوا مكلفين بتسيير الحرب ضد الملك يوغرطة ، وهم :

- كلبرنيوس باسطيا : سنة ١١١ (بصفة قنصل)
- بستيميوس البييتوس : سنة ١١٠ (بصفة قنصل)
- كيسيليوس ميتيلوس : سنة ١٠٩ (بصفة قنصل)
- « » : سنة ١٠٨ (بصفة بروقنصل)
- كايوس ماريوس : سنة ١٠٧ (بصفة قنصل)
- « » : سنة ١٠٦ (بصفة بروقنصل)
- « » : سنة ١٠٥ (بصفة بروقنصل)

وكانوا يعينون ، لا لولاية افريقية (Africa) بل لولاية نوميديا (Numidia) التي كانت بلاد العدو في ذلك الوقت . اما الافريكا فكانت دائما تحت نفوذ واليها الذي كان في مرتبة البريتور ، ولو انه كان مرؤوسا للقنصل او للبروقنصل الذي كان يدير العمليات الحربية ، وكان تحت نفوذه وامره . . .

وقد زار افريكا ايضا بمبايوس المشهور (Pompée) بعد تقليده السلطة القنصلية (l'Imperium) ومنحه كامل امتيازاتها ، وذلك في مناسبات ثلاث :

المناسبة الاولى : في سنة ٨١ (وكان القنصل اذ ذاك سيلا الذي اصدر القانون في رفع عدد البريتورين الى ثمانية وفي تعويض لقب بروبريتور بلقب بروقنصل) في تلك السنة اراد الوالي الروماني [دوميسيوس توياربوس] ان يشق عصا الطاعة في وجه حكومته وان يركب راسه مع ملك نوميديا (جيرباس) فستمرت روعة اليهما بمبايوس على راس جيش ، فقام بمهمته على احسن وجه وانتصر في معركة خاطفة ، ولما عاد ظافرا الى عاصمة اوتيكة اتاه امر من سيلا بالبقاء هناك الى ان يقدم البروبريتور ليحل محله . ومن هذا نفهم ان بمبايوس كان يقوم بوظيفة الوالي ، ولما انتهت الحرب ورجعت المياه لمجاريها ، عاد الحكم بافريكا الى سعادته .

المناسبة الثانية : في سنة ٦٧ : اشتدت القرصنة بالبحر المتوسط واصبحت بلاء لا يطاق ولا يحتمل ، فصدر قانون في انشاء قيادة خارقة للعادة لمدة ثلاث سنوات (٦٧ - ٦٦ - ٦٥) لمقاومة لصوص البحر . وكان ذلك القانون ينص على ان الشخصية القنصلية التي تتولى القيادة تبسط نفوذها لا على البحر المتوسط فقط ، بل على الجهات الساحلية وعلى مسافة ٧٤ كيلو مترا من البحر (وهي بالنسبة الى افريكا عبارة عن كامل الولاية) واختاروا لتلك القيادة بمبايوس ، فكان يحمل لقب بروقنصل ويقود خمسمائة سفينة حربية وجيشا مؤلفا من ١٢٠٠٠٠ مقاتل و ٢٥٠ من الاعضاء برتبة ملازم (او قائم مقام) (lieutenant) يحملون لقب الآغا (legatus = légat) فاختص كل واحد منهم بولاية بحرية ، وكان المكلف بالدفاع عن السواحل الافريقية

النائب كورنيليوس مارصليينوس ، حتى ان القرطيين بطرابلس اقاموا له تمثالا اعترافا منهم بالجمل « للمنقذ الاكبر » ، وكان الملوك الحلفاء ، ومن بينهم ملوك نوميديا ومريطانيا ، مطالبين بمد يد المساعدة الى هذه الحملة الواسعة النطاق .

اما بمبايوس فانه ركب متن البحر وتوجه الى صقلية وافريقية وسردينية ، واقام بها محطات للسفن ومقرات للحرس ، ولم تمض اربعون يوما حتى طهر البحر المتوسط من كل اللصوص .

المناسبة الثالثة : في سنة ٥٧ : وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تكونت اتناهما الثلاثوية (Triumvirat) المؤلفة من يوليوس قيصر وكراسوس وبمبايوس (سنة ٦٠ ق م) رجعت القرصنة الى ما كانت عليه من قبل ، واخذت لصوص البحر تغور على القموح الداهية في طريقها من صقلية وسردينية وافريقية الى رومة ، خصوصا وقد كان القمع في ذلك الوقت قليلا عزيزا ومرتفع الثمن ، فاصدرت حكومة رومة قانونا في منح بمبايوس النفوذ المطلق لمدة خمسة اعوام وتكليفه بمهمة التموين والتزويد بالحبوب وحراسة جميع الموانى وجميع الاسواق

وزودته رومة بالمال والرجال والعتاد والسفن الحربية ، ومنحته السلطة البروقنصلية في ايطالية وفي خارج ايطالية ،

فخرج في مارس سنة ٥٦ ، وكان الناس يظنون انه متوجه الى سردينية ، لكنه ذهب الى مدينة لوقا (Lucques) بجهة تسكانة ، حيث اجتمع بقيصر وكراسوس لزيادة توطيد وتمتين معاهدة الثلاثوية ثم قصد بعد ذلك سردينية ، ثم صقلية ، ثم افريقية ، وجمع قمحا كثيرا .

وفي سنة ٥٢ تسمى بمبايوس قنصلا اوحد لمدة خمسة اعوام . . . فكان ما كان من اندلاع الثورة الداخلية ، ونشوب الحرب الاعلى التي اسفرت في النهاية عن انتصار الديكتاتور قيصر ، وعن انشاء ولاية جديدة بافريقية وهي (افريكا نوبا) عاصمتها جامعة ريجيا او دقة ، وكان سالسطينوس اول من تقلد الولاية بها كما ذكرناه في مكانه .

ثانيا - النظام الادارى بالولايات الافريقية فى عهد الامبراطورية

قد درس الاستاذ البارتيلى هذا الموضوع دراسة قيمة ، نقتطف منها ما يلى :

ان افريقية الشمالية كانت كلها رومانية فى عهد القياصرة او الابطاطرة ، ولكنها لم تكن فى اى وقت من الاوقات عبارة عن وحدة ادارية ، ولم يوجد فى اى وقت موظف سام ، او وال عام له وحده المسؤولية والنفوذ بكامل شمال افريقية من طرابلس الى المغرب الاقصى وكذلك لم توجد مدينة يمكن اعتبارها العاصمة بالنسبة لكامل البلاد او مركزا او قاعدة لانشاءات عامة ومشتركة ، بل كان شمال افريقية عبارة عن ولايات منفصلة •

وهذه الولايات كان عددها ، فى عهد النظام الامبراطورى ، اربعة :

- افريقية البروقنصلية ، او افريكا

- نوميديا

- مريطانية الشرقية (او القيصرية)

- مريطانية الغربية (او الطنجية)

١ - فاما افريقية البروقنصلية فكانت تشمل بلاد طرابلس وبلاد تونس وطريدة ارضية صارت اليوم جزائرية وكانت تعتمد بجانب الساحل الشمالى الى مسافة قليلة غربى عنابة وكانت سوق اهراس وقالة ، وقبسة ، تابعة ايضا لتلك الولاية

فكانت حينئذ تتألف من الجزء الذى كان فيه النفوذ الرومانى اكثر توسعا وكثافة ، ويتركب من الجهة التى كانت متأثرة من قبل ومنذ مدة طويلة بالمدينة البونيقية وبحضارة قرطاج ، حيث تقدمت الحياة الفلاحية والتجارية قبل قدوم الرومان ، فكانت تلك الجهة عبارة عن بلاد آمنة ، هادئة ، مطعنة يتولى امرها بروقنصل يقيم بقرطاج ، وتقع تسميته مبدئيا لمدة عام ، ولذلك اطلقوا عليها اسم «البروقنصلية» وان النظام الامبريالى باجمعه يتركز على تصور وهمى لتقسيم السيادة بين الامبراطور والشعب المتعثل فى مجلس الشيوخ ، باعتبار

السلطتين متعادلتيْن • وبناء على هذه النظرية قسم القيصر اغسطس
مجموع العالم الرومانى الى قسمين من الولايات :

١ - الولايات السيناتوريه ، يتولى امرها البروقنصل الذى يعينه
مجلس الشيوخ ، وتصب مداخيلها فى خزينة الدولة (aerarium)

٢ - الولايات الامبريالية : يتولى امرها البروبريطور او
البروقيراطور الذى يسميه الامبراطور حسب ارادته وتصب مداخيلها
فى صندوقه الخاص

هذا التفريق فى السلط كان ظاهريا اكثر منه حقيقيا ، اذ اصبح
المجلس فى الواقع ، بعد مدة قليلة فى قبضة الامبراطور ، وصار
اسما بلا مسمى ، وهيكلا بلا روح •

ومن جهة اخرى فان اغتصاب النفوذ بكيفية تدريجية نقص شيئا
فشيئا من حصة الاستقلال الادارى الذى بقى لمجلس الشيوخ فى البداية ،
فاننا نرى مثلا البروقيراطور ، وهو عون القيصر المباشر ، يحل
محل وكلاء المال (les questeurs) فى مختلف مصالح وفروع الادارة
المالية بالولايات السيناتوريه • الا انه كان هناك فرق جوهري بين
القسمين من الولايات ، ذلك لان الولايات التى تركها الامبراطور تحت
تصرف مجلس الشيوخ كانت كلها هادئة مطعنة ومتائرة بالروح
الرومانية اكثر من الاخرى ، فكانت فى غنى عن الجنود الحامية ، وذلك
لان القيصر اغسطس كان يريد قبل كل شئ الاحتفاظ لنفسه
خاصة بحق التصرف فى القوات العسكرية ، ولذلك احتاط للامر
ولم يجعل فى حصة مجلس الشيوخ الولايات التى كان وجود
القوات فيها امرا لازما •

فبلادنا النونسية كانت حينئذ ولاية مدنية خالية من الجنود
والقوات العسكرية ، ممتازة بكثافة سكانها وبازدهار اهلها
وبتشبعها بالحضارة الرومانية •

٣ - امانوميديّة التى كانت حدودها تصل غربا الى مصب الوادى

الكبير ، فقد كان الوالى بها هو الآغا (legatus = légat) (١) فكان نائب الامبراطور ، وخليفته ، وقائد فرقة الجوقة (la légion) وهى الركن الاساسى والعنصر الاصلى الذى يتألف منه جيش الاحتلال بافريقيا وهذا الآغا كان يحمل لقب « بروبريطور » وكان يسميه الامبراطور مباشرة ، ويتركه غالبا فى منصبه مدة سنوات كثيرة .

وان ولاية نوميدية لم تكن لها فى الحقيقة حياة رسمية كولاية مستقلة تحل ذلك الاسم الا ابتداء من السنوات الاولى للقرن الثالث ، وكانت ، الى ذلك التاريخ ، تابعة فى الظاهر الى افريقية البروقنصلية .

لكن بما ان وجود فرقة عسكرية بولاية بروقنصلية او سيناتوروية هو امر يتنافى مع القواعد التى سنّها القيصر اغسطس ، وبما انه من الامور المشاذة والمخالفة للنواميس جعل البروبريطور ، المكلف من طرف الامبراطور نفسه بقيادة عسكرية هامة ، تحت حكم وسلطة البروقنصل الذى يعينه مجلس الشيوخ ، فلهذه الاسباب كلها ، وقع عمليا ، ابتداء من حكم قاليقولا ، اى من سنة ٤٠ ، الفصل والتمييز بين افريقية البروقنصلية الحقيقية وولاية آلاغا التى كانت جرت العادة بتسميتها (ولاية نوميدية) قبلما يقع الاعتراف رسميا بتلك التسمية

ففى تلك الولاية كان نفوذ آلاغا الرومانى (légat) او البروبريطور كاملا ومطلقا ابتداء من سنة ٤٠ ، ولم يكن يحاسبه احد على اعماله الا الامبراطور نفسه . اما خضوعه لسلطة البروقنصل فكان مجرد خيال قبلما يقع الغاؤه نهائيا فى آخر القرن الثانى . وكان البروبريطور ، زيادة عن القيادة العسكرية ، يضطلع بججميع اعباء الوالى ، اى بالسلط الادارية والعسكرية .

(١) هذه الكلمة اللاتينية (legatus = légat) هى اسم مشتق من الفعل (legare = léguer, déléguer) ، ولها معان مختلفة حسب المقام :

- السفير (ambassadeur) وهو ليس المعنى المقصود هذا
- فى عهد الجمهورية : القائم مقام (lieutenant) الذى يصاحب القائد الاعلى وهو ليس المعنى المقصود هنا ايضا .
- فى عهد الامبراطورية : الوالى (Gouverneur) المكلف بولاية امبريالية تابعة للامبراطور وبقيادة فرقة عسكرية (وهو المعنى المقصود هنا) وليس من المستبعد ان تكون كلمة آغا او لاغا مأخوذة من (légat) اذ تفيد كلاهما معنى واحدا وهو « قائد فرقة عسكرية »

سكانها اصلهم من قدماء المحاربين الذين كانوا مع القائد المغامر وكانت اقامته بمركز القيادة العامة بحيدرة اولاً (Ammaedara) ثم بتبسة (سنة ٨٠) ثم بلمباز (Lambèse) (سنة ١٠٠) (انظر اللوحة رقم ٩٣) و من تلك النقطة كان الأغا بروبريطور يدير الولاية ، ويصدر الاوامر ، ويفود الفرق المستفردة لحماية الحدود ، نحو (مسعد) غرباً وعلى الليمس (limes) الى الحد الليبي والتونسي جنوباً وشرقاً .

وان قسماً هاماً من التراب الخاضع لنفوذه قد فقد منذ زمن طويل صبغة الولاية العسكرية التي بغيت موجودة في الجهة المتاخمة لاوراس ، وذلك القسم الهام هو الجهة القريبة من البحر والتي نجد بها العاصمة النوميدية القديجة قرطبة . غير ان الحائق تلك الناحية المدنية بمنطقة البروبريطور العسكرية له ما يبرره ، وهو ان معظم سكانها كان اصلهم من قدماء المحاربين الذين كانوا مع القائد المغامر سيتيوس (Sittius) وعمر بهم مدينة قرطبة وبقية المدن المجاورة ، في عهد يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق م . ومن جهة اخرى فان هذه المدن كانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال البلدي ، في جهة هادئة مطمئنة منصرفة نحو نشاطها التجاري ، الشيء الذي يجعلنا نفهم ان وجود الأغا بروبريطور مع قواته العسكرية بجهة مطووعة بعيدة في الجنوب النوميدى كان امراً معقولاً ومطابقاً للوضعية في ذلك التاريخ ٣ - اما مريطانيا الشرقية او القيصرية ، فهي كانت تمتد من الوادى الكبير الى وادى الملوية ، وكانت تعرف بهذا الاسم نسبة الى عاصمتها قيصرية (Caesarea) وهي شرشال اليوم ، وكانت تسمى يول (Iul) في عهد البونيقيين . فهي حينئذ قطعة ضيقة قليلة العمق جنوباً يحصرها البحر شمالاً ، والهضاب العليا جنوباً . وكان الوالى والحاكم بها هو البروقيراطور او وكيل الامبراطور ، فكان يجمع في شخصه كل الامتيازات المدنية والعسكرية ، وكان من مرتبة الفرسان فقط ، بينما كان البروقنصل او البروبريطور من المرتبة السيناتورية او مرتبة الاعيان بمجلس الشيوخ .

٤ - وكذلك مريطانية الغربية او الطنجية التي كانت تمتد غربى وادى الملوية الى المحيط الاطلسي ، فهي كانت كذلك تحت حكم وكيل الامبراطور او البروقيراطور ، مثل ما هو موجود بمريطانية القيصرية وكان ذلك الوالى يقيم بعاصمته طنجة

وهكذا قسمت حكومة رومة ارض افريقية الشمالية الى اربع ولايات منفصلة ، وجعلت فيها ثلاثة اشكال مختلفة لنظام الحكم : البروقنصلية

والبروبريطورية ، والبروقيراطورية • ونحن نرى فى ذلك التقسيم ، وفى ذلك التنوع مظهرا من مظاهر الشعور بعدم الثقة والاطمئنان لا فى شان الرعايا ولا فى شان الولاة ، وهذا هو تطبيق المبدأ الاستعماري العتيق : « فرق تسد ! »

ونحن نجد مثل ذلك تماما فى الاستعمار الفرنسى ، فان فرنسا قسمت شمال افريقية الى ثلاث مناطق : تونس والجزائر والمغرب ، وجعلت شكلين من نظام الحكم : شكل الحماية مع تسمية مقيم عام بالنسبة لتونس والمغرب ، وشكل المستعمرة مع تعيين وال عام بالنسبة للجزائر ، واقامت الحواجز والعراقيل لمنع كل اتصال وتزاور وتعارف بين ابناء وشعوب تلك الاقطار ، فكان الواحد منا لا يرى الاخر الا فى البلاد الاجنبية وعلى الاخص فى باريس ، وهكذا فرقت فرنسا بدورها لتسود ...

ولو تأملنا الآن فى حالة الجماعات والافراد بداخل كل ايااسة لراينا نفس ذلك التنوع ، ونفس تلك المرونة :

— فان المدينة يمكن لها مثلا ان تكون مستعمرة رومانية (colonie romaine) ، اى ان يتحتج سكانها بجميع حقوق المواطنين الرومانيين ، فتعتبر تلك المدينة كجزء من رومة كائن وراء البحر ، ويعتبر اهلها كانهم رومانيون من صميم رومة •

— والمدينة التى ليست بمستعمرة ، يمكن لها ان تكون بلدييه رومانية (municipe romaine) ، ومعنى ذلك انها تكون على شكل المدينة المستعمرة ، لها انظمة مأخوذة عن انظمة رومة ، ولها مجلس بلدى فى شكل مجلس الشيوخ ، ولها حكام بلديون (duumvirs) من نوع القناصلة ، ولها نظام الابنية والملاعب (édiles) ووكلاء المال (questeurs) مثلما هو موجود برومة تماما لكن الاملاك العقارية بهذه المدن لا تكون معفاة من الضرائب مثلما نراه فى المدن المستعمرة •

— والمدينة التى ليست لامتعمرة ، ولا ببلدية رومانية ، يمكن لها ان تكون بلدية لاطينية (municipe latin) اى لها نفس الانظمة والمؤسسات الموجودة بالبلدية الرومانية ، لكن لا يتمتع سكانها

الا بحق المدينة اللاتينية (droit de cité latine) اى بحقوق مدنية
منقوصة بالنسبة لحق المدينة الرومانية (droit de cité romaine)

وخارج هذه الاصناف كلها ، توجد البلديات الاجنبية (communes
pérégrines) ، وهى اجنبية بالنسبة لرومة ، ولكنها اهلية
بالنسبة الينا ، وحياة البلدية الاجنبية (او الاهلية) كانت تكنسى
اشكالا مختلفة : فاحيانا يكون هناك شيخ قبيلة تكتفى رومة
بالاعتراف بنفوذه على قبيلته ، واحيانا تستمر البلدية على النمط
البونيقي ، وتكون السلطة حينئذ فى يد الاسباط (suffètes)
واحيانا تحدث رومة مجلسا بلديا جديدا يمكن ان يتطور فيما بعد
ويصبح مجلسا بلديا من الصنف اللاتينى او الرومانى ...

فكانت هناك حينئذ درجات كثيرة بعضها فوق بعض ، وكان من
الممكن لكل بلدية ان تتطور وتوسع او تنزل فى سلم تلك
الدرجات حسبما تستحقه .

وبجانب هذا التنوع الكبير بالنسبة للجماعات ، نجد تنوعا آخر
منه بالنسبة للأفراد ايضا . فان حالتهم ليست قارة وجامعة لا تتبدل
ولا تتغير او ليست محددة بكيفية ثابتة ونهائية ومرتبطة بمرتبة
البلدية التى ينتعون اليها ، بل يمكن لكل فرد ان يرتقى بفضل
مجهوداته ووسائله الخاصة ، ويكون محل رعاية شخصية تسمو به
فوق مستوى مواطنة ، فيمكن للغريب الاجنبى (بالنسبة لرومة
طبعا) ان يتمتع بحق المواطن اللاتينى ، ويمكن للمواطن اللاتينى ان
يتمتع بحق المواطن الرومانى ، والمواطن الرومانى بدوره يمكن له ، اذا
تعوق على اقرانه وامتاز على غيره فى الوظائف البلدية ، ان ينال من
الامبراطور رتبة الفارس ، وان يحرز على تسميته فى وظائف الدولة
تم يزيد صعودا فى سلم المراتب الى ان يصير قنصلا او امبراطورا ،
وهى اعلى المراتب ، وقد امكن لبعض المواطنين الليبيين ان يصلوا
اليها مثل سبتيموس سافاروس

وبهذه الكيفية كونت رومة فى الافريقيين حركة ارتقاء وصعود نحو
الحياة الرومانية ، وزرعت فى نفوسهم حب التضاحم ، وروح المنافسة
والمباراة . وبذل الجهد ، للندرج فى سلم المعالى والرقى .

والذى ينبغي ملاحظته هو ان رومة الامبريالية ، لم تتمكن من الاستيلاء على افريقية ، ومن استعثارها ، ومن احيائها الا بفضل اعانة الاهالى ومساعدتهم الفعالة .

ومن اهم الوسائل التى ضمننت بها رومة لنفسها مساعدة الاهالى تنظيم مسالة تقديس الامبراطور ، فكانوا فى كل مدينة افريقية يقيمون قداسا دينيا ، لا لتقديس شخص الامبراطور وذاته ، بل لتقديس الرمز الموجود فى وظيفته السامية ، وما تكتسيه تلك الوظيفة من صبغة الهية مقدسة . وفى عاصمة كل ولاية كان يجتمع الشيوخ او مندوبو المدن المختلفة لاقامة مثل ذلك القداس الامبريالى ونجد التعاون مع الاهالى ايضا فى الميدان العسكرى .
فان الجيش الرومانى سواء بافريقية او بغيرها من البلدان كان يتألف من عنصرين هامين :

١ - الجوقة او فرقة الجوقة (la légion) ولا يكون فيها الا المواطنون الرومانيون .

٢ - الفيالق المساعدة (les corps auxiliaires) ويكون فيها غير المواطنين من ابناء القبائل الافريقية او غير الافريقية التى ما زالت بعيدة عن كل حضارة وتمدن . ويحرز الجندى المساعد فى الغالب على صفة المواطن الرومانى عند تسريحه من الجندية ، اى بعد ما يقضى ٢٥ سنة فى الخدمة العسكرية ، وهى مدة كافية لثمينه .
وان افريقية كانت بها جوقة عسكرية تتألف من ٥,٥٠٠ جندى مع سرية (cohorte) وهى عبارة عن عشر ذلك العدد (٥٠٠ جندى) يقع تسييرها الى قرطاج لتحفظ الامن وتكون حرسا للبروقنصل .
اما الفرقة فهى كانت توزع على المراكز المختلفة بنوميديا مع جعل النواة الاصلية بمركز القيادة العامة بلمباز (Lambèse) . وتنضم الى الفرقة الرومانية التى تتألف كلها من المشاة ، كتائب النوميديين وعساكر الرجالة ، وكان عددهم جميعا يقارب عدد جنود فرقة الجوقة (٥.٠٠٠ رجل واكثرهم من الفرسان)

وفى مريطانية الشرقية ومريطانية الغربية لا نجد فرقة رومانية ، بل تتألف القوات العسكرية كلها من الفيالق المساعدة ، وجملة عدد رجالها ١٥ ٠٠٠ تقريبا .

اما البروقنصلية (اى البلاد التونسية) فهى كانت كما ذكرناه ولاية مدنية خالية من الجنود ، ولذلك كانت ، زيادة عن السرية

لوحة ٧٨
(انظر صفحة ٣٣٣/٣٣٢)



انصاب الاميال (صالحة ٣٣٣)

لوحة ٧٩
انظر صفحة ٣٣٠ من هذا الكتاب



معبدة المياه او (النلفية) بزغوان يظهر من وراء الخوض الكبير

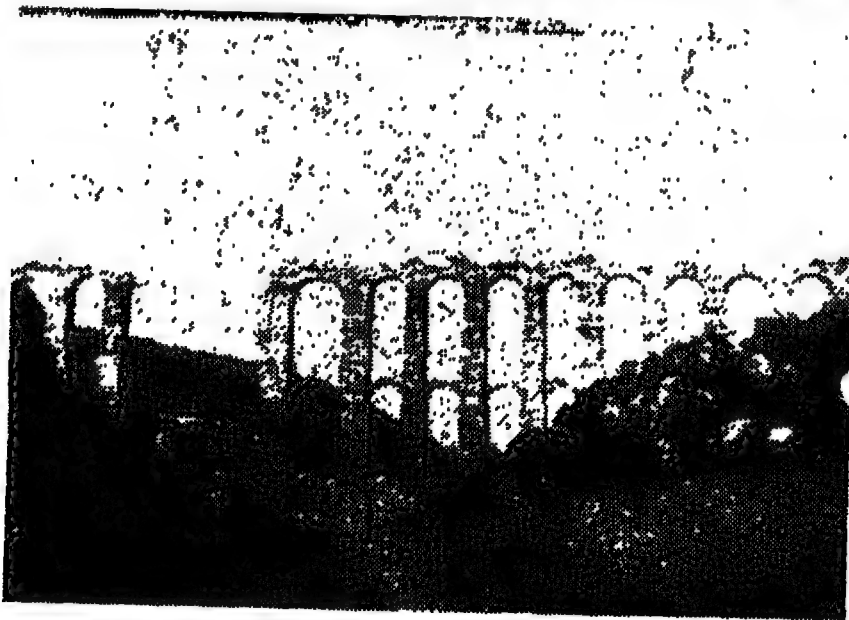


معبدة المياه او النلفية بزغوان - مدخل الخلوة

لوحة ٨٠
(انظر صفحة ٣٣٠ / ٣٣١)

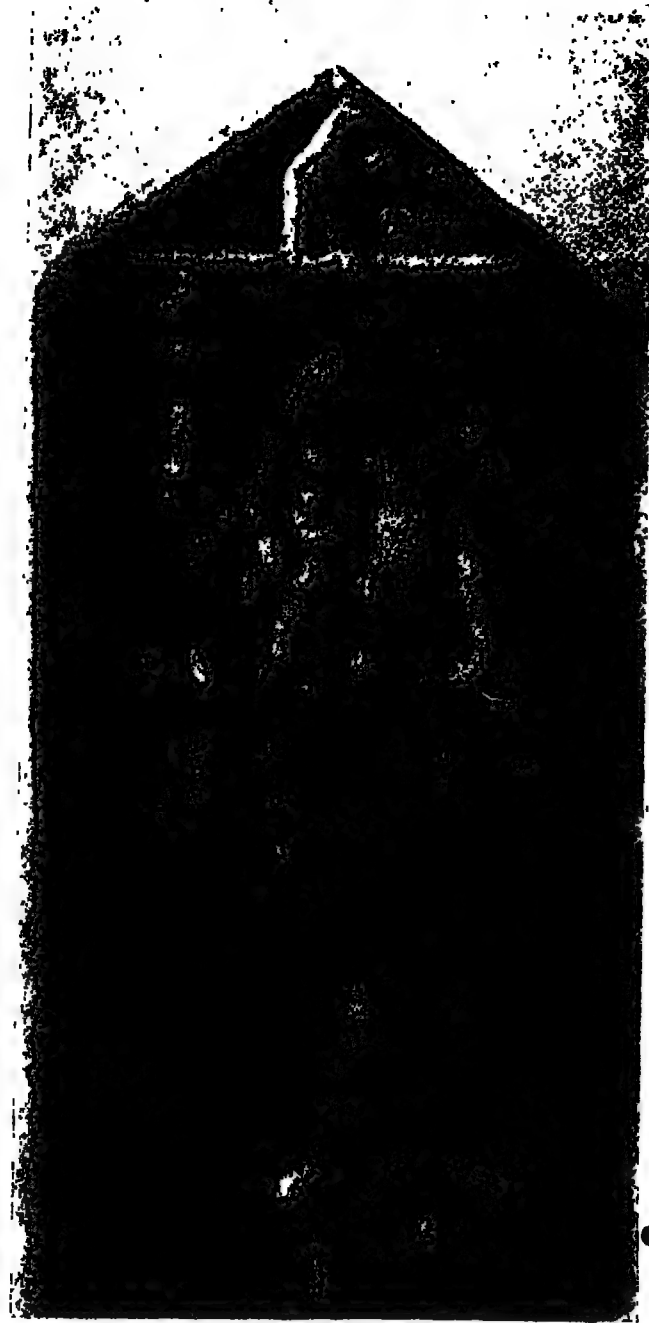


فناء جلب المياه من زغوان الى فرطاج (الحنايا) - ويظهر داخل تلك القنطرة الصغيرة واضحا



فناء شرشال (الحنايا) بالجزدلر

لوحة ٨١
(انظر صفحة ٣٢٤ / ٣٦٠)



الاعمال الفلاحية في عهد الرومان

هذه الحجرة المنقوشة وجدت باتجاه الكائنة بين مكش وجامة وهي
تمثل الالة (SATURNE) الذي اخذ مكان بعل حمون القرطاجي
ونرى ضمن هذه النقوش بعض الالات الفلاحية مثل المحراث البدائي
(L'ARAIRE) الذي ما زال مستعملا عندنا بالبلاد التونسية ، كما
تمثل هذه النقوش ايضا الحصاد بالمنجل كما هو موجود عندنا الان ..

الصفيرة التي اشترنا اليها ، لا تستخدم الا قوات الشرطة المكلفين
بحفظ النظام بمدينة قرطاج ، وهذه القوات هي **الشحنة المدنية (١)**
(cohorta civile) التي كانت ترسلها رومة الى قرطاج وتتألف من
الف شرطي .

وهكذا فصل الى عدد ٢٧ ٠٠٠ رجل بالنسبة لكامل قوات الاحتلال
بافريقية الشمالية

٥ ٥٠٠ جندي روماني بنوميدي (الجوقة)
٥ ٠٠٠ من الفرسان والرجالة النوميديين ينضمون الى الجوقة
١٥ ٠٠٠ من الافريقيين بمريطانية الشرقية ومريطانية الغربية
٥٠٠ السرية بقرطاج (جنود رومانيون : حراس البروقنصل)
١ ٠٠٠ قوات الشرطة بقرطاج من الرومانيين

٢٧ ٠٠٠ الجملة

وهذا التجنيد كان احسن وسيلة للترمين واكبر سلاح لقمع
الثورات وتوطيد الاستعمار الروماني .

فالجندي ، بعدما يقضى خمسة وعشرين عاما في الخدمة العسكرية
خاضعا للنظام الروماني ، متكلم بالغة اللاتينية ، ممتازا بعدادات
وروح وافكار الرومانيين ، نراه يترمن بطبيعة الحال ، ويصطبغ
بالصبغة الرومانية ، ويصبح بعد ذلك متعلقا اشد التعلق بذكرياته ،
ومخلصا كل الاخلاص للرومانيين ، ولذلك تعتد عليه رومة لقمع
الفتن واخعاد الثورات .

وهكذا كان الافريقيون يحفظون النظام والامن بافريقية لغائدة
المستعتر الاجنبي ، وكانت رومة تستخدم الافريقي المترمن ليفرض
الاستعمار ، او ما كانوا يسمونه بالسلام الروماني ، على اخيه الافريقي
الذي لم يجد الترمين اليه سبيلا . (انظر اللوحة رقم ٨٤)
وبالجملة فان الشيء الجدير بالملاحظة والاعتبار في هذا النظام
الاداري هو :

١- الاقتصاد في الوسائل المستخدمة من جهة
٢- مرونة الطرق والاساليب المستعملة من جهة اخرى وهذا
التدبير الاداري العجيب هو الذي مكن البلاد من ازدهار اقتصادي
كانت تضرب به الامثال ، وهو ما سنحاول شرحه وبيانه .

(١) الشحنة : من اقامهم الوالي او الملك لضبط البلد وهم المعروفون بالبوليس

الحياة الاقتصادية

كيف كان الاقتصاد قبل مجيء الرومان ؟

قبل مجيء الرومان ، اى فى العهد البونيقي ، كان الاقتصاد يرتكز على نوعين من النشاط : التجارة والفلاحة .

فالتجارة هى التى كانت فى المكان الاول ، وكانت مطبوعة بطابع خاص ، وكانت من نوع مبتكر عرفت به قرطاج دون غيرها ، وانبتت عليه ثروتها الطائلة ، وكانت هذه التجارة تفتصر على ان يكون البونيقي جوال بحار ، و « جواب آفاق ترامت سفرته » ومخرت سفنه البحر طولا وعرضا ، وذلك لان القرطاجيين لم يكونوا اصحاب فن صناعى مثل الاغريق ، بل كانت مصنوعاتهم خشنة وخالية من كل جودة ، وكانت فى اكثرها مخصصة للاستهلاك المحلى ، وكان التجار البونيقيون يكتفون بان يكونوا عملاء نقل ، ومجهزى مراكب ووسطاء يحملون المواد الاولى او البضائع المصنوعة من جهة غير قرطاجية الى جهة غير قرطاجية اخرى .

وفى المكان الثانى بعد التجارة نراهم قد اهتموا بالفلاحة وهو الشئ الذى دفعهم الى الاستيلاء على داخل البلاد التونسية والليبية .

فضمنوا قوتهم ومعاشهم بزراعة القمح والشعير والزيتون والكرم والفلال والبقول . وكذلك النوميديون ايضا فانهم اهتموا بالامور الزراعية اقتداء بالبونيقيين ، وتحولت القبائل البدوية شيئا فشيئا من حياة الرعاة المتنقلين الى حياة الفلاحة المستقرين .

التجارة فى عهد الرومان

هكذا كانت الحال لما استولت رومة على افريقية فتغيرت وضعية هذا الاقتصاد بالنسبة لندى قبل . فان هدم قرطاج ومرسى قرطاج انجر عنه انهدام التجارة البونيقية .

وحتى بعد إعادة بناء قرطاج من جديد فى عهد القيصر اغسطس
فان تجارة تلك العاصمة لم ترجع على الشكل الذى كانت عليه
فى الماضى . فقد كان البونيقيون يمخرون البحر بسفنهم ، ويخططونه
طولا وعرضا لنقل المواد الاولية والبضائع المصنوعة فى الخارج ، اما
فى عهد الرومان فقد صار كل جزء من العالم يعرف كيف يستغل
ويستثمر امكانياته وموارده الطبيعية ، فلم يبق بعد ذلك داع لحمل
المواد الاولية مثلا من اسبانيا الى بلدان الشرق ، او حمل البضائع
المصنوعة من بلدان الشرق الى اسبانية ، وان التيارات التجارية لم
تعد كذى قبل تخرق كل بلدان البحر المتوسط ، بل صارت تنج
كلها نحو نقطة واحدة مركزية ، وهى رومة . فاصبح مجهزو
السفن والتجار بقرطاج او بغيرها من الموانى الافريقية لا يقومون
بعمليات البيع والشراء ولا يتعاملون الا مع ايطالية ، وحيانا مع
اسبانية ، وصارت افريقية الرومانية لا تقيم ازدهارها على نقل السلع
والمواد الاجنبية ، كما كان ذلك فى عهد البونيقيين ، بل صارت
تكونه من منتجاتها الخاصة ، واصبحت كل الولايات ، سواء
البروقنصلية ، او ولاية نوميدية ، او ولاية مريطانية ملكا فسيحا
متراعى الاطراف ، ينبغى احياءه واستغلاله بتعاون متين بين السكان
الاصليين والرومان المحتلين : وزيادة على تصدير المواد الغذائية
والفلاحية فان افريقية كانت ترسل الى رومة المرمر النوميدي الرفيع
باتمان باهضة ، والخشب النفيس وهو خشب العفص والسندروس
والحجارة الكريمة ، هذا فى القرن الاول ، اما فى القرن الثانى فانها
زيادة على تلك المواد النفيسة ، صارت تستغل مناجم الحديد والرصاص
المحتوى على الفضة ، والنحاس ، وكانت تصدر كل ذلك الى رومة
وكذلك ايضا كميات كبيرة من الحطب الصالح للبناء او
لتسخين الحمامات .

وان النوميديين الذين حملهم ماسنيسا على النبات والاستقرار
فوق اراضيهم هم الذين اصبحوا فى القرن الثانى والثالث من اغنياء
الفلاحين ، يعيشون عيشة رومانية ، ويجودون على العالم الرومانى
بالاباطرة . فان الافريقيين المشهورين بكثرة قابليتهم للاستيعاب
والتمثل ، بمجرد اختلاطهم بالرومانيين ، ساروا بخطى سريعة فى
طريق الحضارة والمدنية ، واصبحوا لهم خير اعوان لحياء البلاد
بالحرث والزرع .

الفلاحة :

يمكن ان نقول ، استنادا على الوناتق التي وقع العثور عليها ، بان الاستغلال الفلاحي تم على مرحلتين :

– المرحلة الاولى كانت مرحلة القمح ، ودامت الى آخر القرن الاول بعد المسيح .

المرحلة الثانية كانت مرحلة الزيتون وبدأت مع القرن الثاني بعد الميلاد

القمح

ان القرن الاول للميلاد يظهر كانه احصى بزراعة القمح . ويقول كايوس بلينيوس الاكبر (١) في كتابه (التاريخ الطبيعى) ، وهو تاليف نشر سنة ٧٧ ، اى فى القرن الاول : « ان الطبيعة منححت ارض افريقية بتمامها وكمالها الى سيريس (٢) ، ولم تجعل الزيت والتمر من نصيبها ، بل ان كل سعادة البلاد فى الحصاد »

فمن غير شك ان هذا القول فيه شئ من المبالغة والمغالاة ، ولكنه لا يخالو من حقيقة ، وهو على كل حال يدل على ان الحبوب ، وعلى الاخص القمح هو التى كانت الانتاج الاساسى فى ذلك التاريخ ، وكانت تتركز عليها تجارة التصدير ، وكان الشعير خاصا باستهلاك الفقراء من الاهالى ، وكان شجر الزيتون والكرم حينئذ فى تراجع وتقهقر بالنسبة لعهد القرطاجيين .

وكانت افريقية الشمالية ، وعلى الاخص البروقنصلية (اى البلاد التونسية) فى نظر الرومانيين ، تعتبر ارض حبوب ، حتى ان سالسطيوس كان ينعته بقوله : « ارض خصبة تنتج الحبوب » (ager frugum fertilis) وكانوا يلقبون افريقية بمطور رومة ،

(١) كايوس بلينيوس الاكبر Caius Plinius = Pline l'Ancien : هو كاتب روماني عالم بالتاريخ الطبيعى ، ولد بمدينة قومه سنة ٢٣ ، وهلك اثر توران بركان الفيروف سنة ٧٩ ، وهي الكارثة التاريخية العظيمة التى اندثرت ودفنت فيها مدينتا هرفلانوم وبمبايوس . وهو مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى فى ٣٧ جزءا .

(٢) سيريس : Cérés هى الالهة الحصاد والفلاحة والزراعة عند الرومان تقابل (ديمتر) عند الاغريق ، ومن ذلك الاسم اتت كلمة céréales بمعنى الحبوب .

وان خصب ارض افريقية فى ذلك التاريخ كان مضرب الامثال
وكان ناشئا عن كثرة وجود الفسفاط فى التربة بكيفية طبيعية حتى
ان المؤرخين كانوا يقولون بان الحبة الواحدة كانت تنبت باقية
مؤلفة من ٤٠٠ ساق

وبما ان بلاد ايطالية اقبلت فى ذلك الوقت على زراعة الاشجار
وتربية الحيوانات ، فان الحبوب اللازمة لمعيشة رومة صارت تاتيها
من اقطار ماوراء البحار اى سردينية وصقلية وافريقية ، وهى التى
كانت تسميها بولايات الحنطة او « الولايات الحنطية » (les provinces
frumentaires)

وكان تموين العاصمة الرومانية بالقمح لمدة سنة كاملة يسمى
بالحصة السنوية او « الانونة » (annone) وان جانبا كبيرا من القمح
الذى كانت تقدمها ولاية افريقية لفائدة تلك الحصة السنوية او
« الانونة » كان يطلب من السكان تحت عنوان ضريبة : فكان وكيل
المالية (le questeur) الذى يعثل الدولة يتقاضى تلك الضريبة من
المزارعين المكلفين باستخلاصها فى مقابل نسبة مائوية على الجبايات
المتجمعة لديهم . وان جانبا آخر يقع اقتناؤه عن طريق الشراء . اما
الاعشار التى تفرض على اراضى الرومانيين فهى تبقى ملك العشارين
(les publicains) الذين اشتروها من حكومة رومة بالمزايدة ،
وبعد دفع الضرائب وخلص الاتاوات فالباقى هو ملك الفلاح يتصرف
فيه كما يشاء .

وكانت الدولة الرومانية لا تشتري القمح من المنتجين مباشرة ،
بل كانت تتصل بالشركات التى تتصرف فى الاعوان والمستخدمين
والوسطاء ووسائل النقل اللازمة لعملياتهم التجارية ، فكانت الدولة
تعقد معها الصفقات لتزويد العاصمة بكميات معينة من الحبوب .
ومن غير شك ان العشارين ، وكبار التجار فى القمح ، ومجهزى
المراكب ، كانوا فى الغالب يتشاركون ، واحيانا يختلطون مع بعضهم
للاحتفاظ بالصفقات التجارية الهامة لفائدة الحصة السنوية الرسمية
فحسب ، بل حتى للتصدير لحسابهم الخاص والبيع فى الاسواق
الحرة برومة او بغيرها من مدن ايطالية . فالفلاحة الافريقية كان
لها حينئذ رواج محقق واسواق مضمونة ، وكان المنتجون يربحون

ارباحا لا باس بها ، لكنها اقل بكثير من ارباح المضاربين والمحتكرين
وتجار السوق السوداء الذين كانوا فى الغالب يتواطؤون ليفرضوا على
الفلاحين اسعارا زهيدة . وعلاوة على القمح والشعير كانوا يزرعون
بافريقية العلس او الخندوس وهو نبات يشبه القمح ، بالفرنسية
l'épeautre ، وباللاتينية : spelta (١) والكرسنة
(بتشديد النون) وهو نبات له حب فى غلف تعلفه الدواب
(la vesce)

وكذلك كانوا يزرعون النباتات الغذائية ، مثل : الحمص ، والسلجم
(يشبه اللفت : spelta) والفلول والخرشوف ، والبطنخ ، والهليون
(السكوم) ، والثوم والبصل ، والترفس ، والكمون وجميع انواع البقول

مواد غذائية اخرى

ان بلينيوس ، فى الواقع ، لم يذكر بعد القمح كثيرا من المواد
الغذائية الاخرى الصالحة للتصدير ، بل اقتصر على ذكر التين مثلا
وبعض . مار الاخرى كالرمان ، وبعض الفواكه النادرة والغريبة
عند الرومانيين كالعنب والتفاس

الاشجار

اما الاشجار فهى كانت موجودة بكثرة ، اذ لم تسلم الطبيعة ارض
افريقية كلها الى سيريس الالهة الزرع كما ادعاه غلطا بلينيوس الاكبر
فان القرطاجيين وغيرهم من الفنيقيين الذين استقروا بتلك البروع
لم يهملوا قط غراسة الكروم والزيتاين واشجار التين والرمان ،
وقد استمرت زراعة الاشجار كذى قبل تقريبا فى عهد الرومانيين
فكنت تجد ببلادنا اشجار التين ، والرمان ، واللوز والاجاص
والسفرجل ، والاترنج ، والجوز الى غير ذلك غير ان الشيء الذى
كان يهيجن على الميدان الفلاحى طيلة القرن الاول هو اهتمام الحكومة
الرومانية اهتماما زائدا بزراعة الحبوب وحث الفلاحين ، واحيانا

(١) العلس : يقول الافصح فى فقه اللغة : « العلس حنطة جيدة سمراء عسرة
الاستنقاء جدا ، لا تنقى الا بالناحيز وهى طيبة الحنيز يجىء دليقها خشنا ، وسنبلها
لطاف ، وهى مع ذلك قليلة الربيع ، وقيل العلس مقترن الحب حبتان حبتان لا يتخلص
بعضه من بعض حتى يبق بالمواجن وهى المهاديس ، وهو كالبر ورقا وقصبا . »

جبرهم وادغامهم ، على الاقبال على تلك الزراعة فكانت توجه نشاطهم نحو ما كان يوافق ويفيد مصالح رومة .

الزيتون

اما في القرن الثاني فان القمح لم يبق متفردا بالمكانة الممتازة دون غيره ، بل صار الاهتمام منصرفا على الاخص نحو زراعة الزيتون والكروم ، وذلك لعدة اسباب منها ترك حرية الاختيار للفلاحين ، وكذلك شدة احتياج رومة للزيت والحمور ، فزال تفوق القمح ، وتعاذلت بافريقية اهمية هذه الزراعات المعتبرة اساسية بالنسبة للعالم القديم ، وهي الحبوب ، والزيتون والكروم واصبحت كميات كبيرة من الزيت تصدر الى رومة لاستعمالها في الاكل ، والاستصباح والتجميل وقت الاستحمام . وان كثرة الجرار التي وقع العنور عليها في كل مكان بالعالم الروماني ، وكذلك كثرة اطلال المعاصر القديمة المنتشرة بافريقية تقيم الدليل على كثرة وجود الزيتون والزيت في ذلك العهد (انظروا صورة اطلال معصرة مادوروش ببلاد الجزائر)

تربية الحيوانات

كانت تربية الحيوانات تشمل الافراس المغربية ، والبغال والحمير والبقر والاعنام والمعيز وانواع الطيور من دجاج واوز ، وبط وحمام وغرغر وكذلك خلايا النحل لانتاج العسل الرفيع اما الجمل فهو لم يظهر الا في آخر القرن الثاني . وكانت افريقية تزود رومة كالعادة بالحيوانات الضارية وعلى الاخص الاسود والنمور والفهود والادباب لاستعمالها في المسارح والملاعب . ففي عهد القيصر اغسطس قتلوا منها ٣٥٠٠ في حفلة دامت ٣٦ يوما . ولذلك كانت هذه الحيوانات تعرف عندهم بالحيوانات الليبية او الافريقية وكانوا يصطادون الافعال ، الى ان اضمحلت تماما من بلادنا فكانوا يستعملونها ايضا في الملاعب ، وللطبخ لان ارباب الدوق اللطيف والخبراء بالاطعمة الفاخرة يجدون لذة كبيرة في اكل عراضيف خرطومها ، ويستفيدون من انيابها اي من عاجها .

الصناعة :

اما الصناعة فهي ، علاوة عن الاشياء اللازمة للاستهلاك المحلي

كانت تهتم بكل ما هو صالح للتصدير من مواد اولية كالمرمر ،
والاخشاب الرفيعة ومعادن الحديد والرصاص كما تقدم ذكره ،
ومن مصنوعات كالانسجة . وكانت هناك ايضا معامل لدبغ الجلود
(مثل تيبازة بالجزائر) ، ومعاصر لاستخراج الزيت مثل معاصر
ماداuros (انظر اللوحة رقم ٧٥) ، ومصانع لنسج وصبغ الاقمشة
الارجوانية واشهرها المصنع الذى انشاء يوبا الثانى بجزيرة تجاه
مدينة السويرة (Mogador) وكانت هذه الجزيرة تعرف باسم جزيرة
الارجوان (Purpurariae insulae) تسكنها بعض قبائل
جدالة (Gétules) ، وقد اخذ ارجوان جدالة وكذلك الاقمشة
المصنوعة والمصبوغة بذلك ارجوان شهرة عظيمة وصيتا بعيدا فى
رومة كما تدل عليه الابيات التى تغنى بها هوراسيوس (Horace)
واوفيدوس (Ovide) فى ايام القيصر اغسطس ، وما قاله غيرهما
من بعدهما .

ولكن هذه المعطيات الاخيرة التى ذكرناها لاتفقد افريقية طابعها
الاصلى ، ولا تغير شيئا من صبغتها الحقيقية التى جعلها بلادا فلاحية
قبل كل شىء ، وان اهتمام رومة كان متجها نحو انماء الشروة
الفلاحية بها اكثر من انشاء المعامل او التفتيش عما فى بطن الارض
من مناجم ومعادن .

وقد اعتنت رومة على الاخص بمسالة المياه ومسالة الطرقات .

مسالة المياه

ان كثيرا من الاعمال المتعلقة بالمياه قد وقع القيام بها من زمن
القرطاجيين ، وكان لرومة الفضل فى تعهد وصيانة ما وجدته وفى
انشاء اعمال جديدة اخرى كانت جزيلة الفائدة عظيمة الاثر .

فهى قد شيدت على الاخص القنوات لجر المياه وجلبها الى المدن ،
وبنت الصهاريج لحزنها بالمزارع ، وفجرت الآبار الارتوازية بالواحات
وكان الرومانيون ينشؤون مدنهم ومراكز استعمارهم فى الغالب
قرب العيون .

وكانوا يعتنون كل الاعتناء بنوع من البناءات الفخمة تعرف عندهم باسم « الننفيات » (nymphæum = nymphée) كانوا يزخرفونها ويزوقونها بأبدع انواع الزينة ، ويجلبون اليها المياه بواسطة القنوات (aqueduc) فيجعلون فيها عينا فوارة يكرسونها (اى يخصصونها) « للننف » (nymphé) وهى الالهة المياه او ابنة الماء ، وكانوا يستعملون ذلك المكان الفاخر ، فى آن واحد ، كمعبد ومستودع للماء ، ومحل للاجتماع والمذاكرة ، او للسكون والاستراحة وكانت « الننفية » تلحق احيانا بقصور العظماء او بالحمامات (١)

وبما ان مستودع الماء (او الحاووز) (٢) كان اهم جزء فى « الننفية » صرنا نسمى الحيانا « الننفية » حاووزا ، او الحاووز « ننفية » باقامة البعض مقام الكل او الكل مقام البعض .

فمدينة لمباز (Lambèse) كانت فيها « ننفية » زالت تماما واندurst آثارها ، وبمدينة تيبازة (Tipasa) ، بين الجزائر وشرشال كانت توجد ايضا « ننفية » فيها عين فوارة يتسلسل منها الماء ويجرى فى حدود على دج ، بين اعمدة من المرمر . وقد وقع كشف الغطاء عن تلك العين لبديعة سنة ١٩٥٠ ، وهى تعتبر من اجمل واروع الآثار الموجودة فى ذلك النوع بافريقية الشمالية ، والحاووز الذى تنتهى اليه القناة كان يبدو فى شكل نصف دائرة طولها ٢٤ مترا من الامام .

وكانت عين الماء تمر احيانا من تحت قوس النصر بعد خروجها من « الننفية » او من الحاووز ، كما كان ذلك بحمام الدراجى (Bulla Regia) او بهنشير سيدى خليفة بالنفيسة (Aphrodisium) واهم واعظم بناه رومانية اقيمت بالبلاد التونسية هى المعروفة

(١) لا يستبعد ان يكون اسم حمام الالف فى الاصل : حمام (الننف) اى حمام الحوريات (Thermes des Nymphes) لا كما يقولون : حمام غسوا الشم المعروف وهو (الانف) .

(٢) الحاووز (Château d'eau) : من حاز الشيء اى ضمه وجمعه : هو مستودع المياه تجتمع اليه ثم توزع فى امكنة عديدة .

عندنا بخنايا قرطاج (١) ، وكانت تجلب المياه من عين جارية بسفح جبل زغوان (Mons Zeugitanus) ومن عين أخرى تبعد عنها بنحو ٤٠ كم وهي عين جوقار فى سفح جبل سعيان على مقربة من دشرة ابن سعيان ، وهي عين ما زالت الى اليوم تزود الحاضرة بمياهها . (انظر اللوحة رقم ٨٠)
واطلال « الننفية » او معبد الالهة العين بزغوان توجد بمكان يسميه الاهالى (عين القصبة)

وان هذا المعبد (معبد المياه) لالطف واظرف بناية بافريقية الشمالية، يكتنه صدع عريض يشق الجبل شقا . (انظر اللوحة رقم ٧٩)

فمن وراء الحوض البيضى الشكل الذى يجمع مياه العين ليصبها فى القناة ، يرتفع معبد المياه او « الننفية » فى شكل نصف دائرة عرضها ٣٠ مترا ، وهي مقامة على مصطبة مسطحة ، ومسندة الى حائط سميك وفى وسط ذلك التجويف اقيم المعبد فى شكل كوة معقدة (اى ذات عقد او قوس) وكان فى التقديم يوجد فيها تمثال الالهة العين والمياه والامطار : « الننف جونى (Junc pollicitatrix pluviarum) وهذا المعبد ينقسم الى قسمين : الدهليز تعلوه قبة ، والحلوة او المقصورة (la cella) (١) حيث كانت ربة العين

(١) الخنية ج الخنايا (من البناء) : ما كان منحيا كالقوس ، وسميت تلك الفتحات بالخنايا لانها كانت مقامة على الاقواس . وكان يبلغ ارتفاعها احيانا ٢٠ م . لما تقطع وادى لميان .

وان هذه الخنايا وقع بناؤها حوالى سنة ١٣٦ فى عهد هارويالوس ، ثم وقع اصلاحها مرة اولى فى عهد سبتيموس سافاروس ، وبعد ذلك ، فى سنة ٤٣٩ ، الحق بها الوندال اضرازا جسيمة ، فاهتم بليشار بترميمها بعد ما نذر الونداليين . ثم تهدمت وتعلبت من جديد فبأثر الخلفاء الفاطميون (العبيديون) اصلاحها . وتهدمت ايضا سنة ١٥٧٤ ، واعاد محمد باى ترميم البعض منها بواسطة مهندس فرنسى وتم ترميمها كلها سنة ١٨٧٣ . ونحن لا نعرف من هو المهندس الذى اراد تعويض الخنايا التى تمر بوادى لميان وذلك باستعمال ممص (siphon) واتخذ هذا السبب الواهى علرا لتهديم الخنايا الجميلة فى ذلك المكان وتخريبها . فكان ونداليا اكثر من الونداليين ، فاين تلك الخنايا الرائعة من المص الحفير الذى يضعه ذلك المهندس فكان حقيقة من المفسدين الذين لا يقدرون الفن حق قدره !

(١) الحلوة او المقصورة (la cella) : المكان المخصص بالمعبد لاقامة تمثال اله او الالهة ، ويسميه الرومانيون « cella » باللفة اللاتينية ، كما نقول بيت « الصلاة » او « المصل »

وعلى يمين المعبد وعلى شماله رواقان ، كل واحد منهما مركّز على ١٣ عمودا كورنثسيا ، وكذلك كوات اخرى كثيرة رتبت ودبرت بمهارة فى الجانب الداخلى وفى الحواجز وكانت تاوى تماثيل مختلفة وفى الجانب الخارجى درجات يقع النزول بواسطتها الى الحوض .

هذا فيما يتعلق « بالنفنية » ، اما الحنايا فهى كانت تجتاز اراضى متشعبة ترتفع تارة وتنخفض اخرى ، وذلك على مسافة ٩٠ كيلومترا . وقناة الحنايا مسقفة بغطاء عقدى الشكل فىه نقوب للتهوية والتنظيف وهى تعطى ٤٠٠ ليترة فى الثانية او ما يقرب من ٣٥ مليونا من اللترات فى اليوم . ويصل الماء الى صهاريج المعلقة (Citernes de la MALGA) وعندھا اربعة . وهذه الصهاريج كانت تمتلئ فى البداية بمياه الامطار ، ثم فى القرن الثانى اثر عام كان فيه الجفاف شديدا ، امر الامبراطور هادريانوس (١١٧ / ١٣٨) ببناء القناة او الحنايا لجلب المياه من عين زغوان ومن عين جوقار الى تلك الصهاريج ، ومن ثم تتفرع لتزود الاحواض العمومية والينابيع والحمامات وغير ذلك ٠٠٠

واعظم قناة بالجزائر هى حنايا شرشال وطولها ٢٨ كيلو مترا ، تجتاز واديا (اى منفرجا) بواسطة جسر كبير يبلغ ارتفاعه ٣٥ مترا ، يتألف من ١٧ حنية ذات ثلاث طبقات (انظروا اللوحة رقم ٨٠) وقد اهتم الرومانيون كل الاهتمام بمسألة السقى والرى . فانهم اقاموا الاسداد فى الشعاب لحبس المياه ، واقاموا الحواجز لتوجيهها نحو السهول ، ثم نظموا مجموعات من الجداول والسواقي والتقسامات لتوزيعها بين الحقول .

ولمنع سيل المياه فوق المنحدرات استعملوا طريقة الزراعة حسب رصافات او مدرجات (terrasses ou paliers) تعطل اندفاع المياه ، وثبتت التربة الصالحة للحراثة . وان آثارها ما زالت موجودة يمكن رؤيتها بالطائرة فى الجبال المحيطة بسهول زغوان والنفضية ، او بجبل ابن يونس قرب قفصة .

وبالجملة فان تدبير المياه كان اهم عمل قامت به الدولة الرومانية فى افريقية الشمالية

الطرق

من اكبر عوامل الازدهار الاقتصادي بافريقيه في عهد الرومان اتساع شبكة طرقاتها التي مازالت بعض آثارها ظاهرة . وان الكثير من هذه الطرق كان من انجاز اليد العاملة العسكرية . ونذكر منها :

— الطريق المؤدية من حيدرة (Ammaedara) الى قابس (Tacapas) ولبدة (Leptis Magna) وقع إحداثها سنة ١٤ بعد الميلاد

— الطريق الرابطة بين تبسة (Theveste) وعنابة (Hippo Regius) في عهد آل فلانيانوس (٩٦/٦٩)

— الطريق الناهبة من تبسة (Theveste) الى تيمقاد (Thamugadi) وقع إحداثها في عهد تراجانوس (١١٧/٩٨)

— الطريق من قرطاج الى تبسة ولماز ، في عهد هادريانوس (١٣٨/١١٧)

— الطريق من ستيف الى سور الغزلان (Auzia = Aumale) وقع الشروع فيها في عهد هادريانوس ايضا . . .

وكانت شبكة الطرق كثيفة خصوصا بالبروقنصلية (اي البلاد التونسية) . وكانت قرطاج نقطة الانطلاق ، فتذهب منها :

طريقان نحو عنابة احدهما بجانب الساحل ، فتمر من بنزرت وطبرقة وقالة ، والاخرى بجانب ضفة مجردة اليسرى وتمر من طبرقة (Thuburbo Minus) وحمام الدراجي (Bulla Regia) وشمتو (Simitthu)

— طريق الى تبسة طولها ٢٧٥ كيلومترا وكانت من اهم الطرق ومحل عناية خاصة ، تمر من مجاز الباب (Membressa) وتستور (Tichilla) وعين تنقع (Thignica) وتبرسق (Thubursicu Bure) والكاف (Sicca Veneria) ومدينة (Althiburos) وحيدرة (Ammaedara)

— طريق الى لبدة تمتد والساحل على مسافة طولها ٨٢٣ كيلومترا وتمر من السوق البيضاء (Pupput) وسوسة (Hadrumète) وطرابلس (Oea) ولبدة (Leptis Magna)

— طريق نحو شط الجريد تنتهي الى قابس (Tacapas) ومن غير شك كانت الجسور كثيرة :

— فان الطريق التي تخرج من مدينة القنطرة (El Kantara) الكائنة

بجنوب الجزائر ، ما بين بسكرة وبطنة ، تدخل في الصحراء من فيج
بديع رائع كانه باب من ابواب الجنوب يسميه الجزائريون « فم
الصحراء » ، ويسميه الكاتب والرسام الفرنسي فرومنتان (Fromentin)
١٨٢٠/١٨٧٦ « باب الذهب » ويسميه الرومانيون « حذاء هيراقليس »
(Calceus Herculis) اشارة الى الاسطورة القائلة بان ذلك الفج كان
فتحه هيراقليس لمان ضفن الجبل (اى لما ضربه برجله) . والذي يهمننا
الان من ذلك هو ان هذه الطريق تمر من هناك فوق جسر روماني له
قنطرة (اى حنية) طول انفراجها ١٠ امتار وعرضها ٥ امتار ، وله
عقد ذو ثلاثة عروق (اى ثلاثة خطوط ناتئة ومستديرة) وبه رسوم
فى شكل الورود ، ورأس قرس منقوش على الغلق (اى على الحجر
المجول فى وسط العقد) (انظر اللوحة رقم ٧٧)
- اما جسر باجة المعروف باسم « جسر تراجانوس » (Pont de Trajan)
فهو مقوس بعض التقويس فى شكل « ظهر حمار » طوله ٧٠ مترا
وعرضه ٧،٣٠ م ، وهو يمر على وادى باجة فوق ثلاث حنايا ويحمل
الطريق الذهبية من قرطاج الى عنابة عبر حمام الدراجى (Bulla Regia)
وقد كان بناؤه فى عهد تيباريوس سنة ٢٩ ، اما تسميته بجسر
تراجانوس فهي لا تركز على شيء صحيح . . .

- وجسر شمتو الذى يقطع وادى مجردة لا يبلغ طوله الا ٥٠ م
فقط ، ولكن له خمس حنايا .
- وهناك جسر آخر على وادى جلف قرب فم العفريت بشمال
القيروان له سبع حنايا ، ومنه تمر الطريق الذهبية من قرطاج الى
قابس ، والملاحظ ان دعائم هذا الجسر مسلحة بصفتائح مبنية لكسر
قوة التيار (انظر اللوحة رقم ٧٧)

- انصاب الامبال (Bornes milliaires) : لقد زالت غالب الطرقات الرومانية
ولم يبق منها الا اثار قليلة الاهمية ، لكن انشواهد والادلة التى رسم بها الرومانيون
طرقاتهم بعد كل ١٤٨٠ م. لبيان مسافة الامبال . وقد عثر على كثير من هذه الانصاب
او الاعمدة وعليها ارشادات هامة تتعلق بالمسافات واسماء الامكن والباطرة .
- فيوجد نصب بمتحف الانار بمدينة الجزائر ارتفاعه ٥٠ م ، نقش عليه تكريم
اللمدانيين ، اى سكان لدية القديمة (Lambdia) وهى الدية الان (Médéa)
جنوب الجزائر ، موجه منهم فى سنة ١٩٨ بعد الميلاد الى الامبراطور سبتيموس سافاروس
(٢١١/١٩٣) .

- والعمود الموجود بمدينة قسنطينة يبلغ ارتفاعه ٢٢،٣٣ م ونقش عليه تكريم على
شرف الاباطرة : ايلابال (٢١٨ / ٢٢٢) ، واسكندر سافاروس (٢٢٢ / ٢٣٥)
وكذلك المسافات من فيج الصيود (Vatari) بمقاطعة قسنطينة الى قرطاج
وعنابة ، ولجاز ، وتبسة (انظر اللوحة رقم ٧٨)

نظام الاراضى والحياة القروية

— الضيعات الصغيرة —

ان صغار الفلاحة من الاهالى كانوا موجودين بكثرة ، حتى قبل الاستيلاء الرومانى ، سواء بالاراضى القرطاجية او بالبلاد النوميدية ولما اتت رومة تركتهم فى اراضيهم واموالهم وارزاقهم ، واكتفت بمطالبتهم بدفع الضريبة العقارية .

وزيادة عن ذلك اخذت رومة جزءا من الارضى التى صارت ملك الدولة (اما لانها كانت كذلك فى عهد البونيقيين ، او لانها كانت املاكا خاصة للطبقة الارستقراطية القرطاجية او النوميدية فصادرتها رومة وفت الاحتلال) وقسمته الى ضيعات صغيرة وزعتها على قدماء المحاربين ، مثل الذين عمروا مدينة ستيف او جميلة او تيمقاد . وكان مثل ذلك موجودا بكثرة فى نوميدية ومريطانية اكثر من البروقنصلية (اى البلاد التونسية)

— الضيعات الكبيرة (latifundium) — الجمع : latifundia)

اما الضيعات الكبيرة فقد تكونت فى الغالب بعد الاستيلاء الرومانى فمن غير شك كانت هناك ايضا املاك كبيرة عند القرطاجيين والنوميديين ، غير ان الاسر التى كانت بيدها تلك الضيعات والتى كان بيدها فى الوقت نفسه زمام الحل والعقد ، هى التى تحولت عبه الحرب ، زمن الاحتلال ، ونالتها العقوبات والمصادرات . ويمكن ان نقول بان الاراضى ، فى بداية عهد الاحتلال ، كانت مقسومة بين صغار الملاكه من الاهالى الذين ابقتهم رومة فى اراضيهم ، وبين ملك الدولة التابع للشعب الرومانى . فاخذت رومة جزءا من ملك الدولة وقسمته واقطعت كما ذكرنا

قدماء المحاربين والفلاحة « المعمرين » كل تلك الاراضى ، واحتل افراد الطبقة الارستقراطية ضيعات عريضة واسعة بتساهل وتسامح الحكومة الرومانية ، والقسم الذى لم يقع الاستيلاء عليه من طرف هؤلاء الاغنياء واستثمر ملك الدولة ، اصبح ، فى عهد القياصرة ، ملك الامبراطور (Saltus) ولذلك كان اصحاب الاراضى والاملاك فى العهد الامبريالى على ثلاثة درجات :

- الملاكه والفلاحة الصغار ، على الاخص بنوميديا ومريطانية
- الملاكه الكبار ارباب الضيعات الواسعة على الاخص بالبلاد لتونسية
- الملاك الذى هو اكبر من الجميع وهو الامبراطور

وكانت الضيعات الصغيرة تبتلعها تدريجيا الاملاك الكبيرة بتكديس وضم رؤوس اموالها ، وكانت بعض الاملاك الكبيرة تدخل مسن حين لآخر ضمن ملك الامبراطور اما بسبب انقراض اصحابها او بسبب مصادرتها تنفيذا لاحكام صادرة

وكان الملاك الصغير يقيم بارضه ويحرنها ويباشرها بنفسه ، اما الملاك الكبير فكانت اقامته فى الغالب برومة ، مثل الامبراطور نفسه او بجهة اخرى من جهات ايطالية ، وكان يتعاقد مع مزارع بكريه ارضه او مع شركة المزارعين فيجعل فيها هذا المزارع فلاحا مستاجرا هو « المعمر » فيقيم فيها ، وتتوارثها ابناؤه من بعده ، ويقوم بخدمتها واستغلالها على ان يكون للمزارع او لشركة المزارعين نصيب من غلتها . وكان المزارع احيانا هو العشار (publicain) وجمعية المزارعين هى شركة العشارين ، يضمنون لانفسهم العشر بمال معين يدفعونه للحكومة فى مقابل تمتعهم بذلك الجزء من الربح .

ذلك هو النظام الذى كان مطبقا على الاراضى الممتدة بجهات وادى مجردة ودقة وسوسة وطرابلس ، وبجهات عنابة وتبسة . وكان وكيل املاك الامبراطور عبارة عن عون من اعوان التنفيذ مكلف بمراقبة الاعمال والحرص على احترام ما جاء بكراسة الشروط من طرف المزارع او الفلاح المستاجر ، ولو ادى ذلك الى ارغامهم وجبرهم على الطاعة بالسياط والمقارع والعصا او بالسجن .

وبالجملة فقد كنا نرى الاصناف التالية :

— صغار الملاكه من الاهالى او قدماء المحاربين

- مزارعين (افرادا او شركات قوية)
 - عددا كبيرا من المستاجرين او المعمرين يستغلون اراضي كبار الملاك او اراضي اكبرهم وهو الامبراطور ويدفعون نصيبا من الغلة اما للمزارعين (افرادا كانوا او شركات) وحيانا لو كيلا املاك الامبراطور مباشرة وبدون واسطة
 - عمالا يشتغلون بالمياومة واكثرهم بدون مقر ثابت .
- حياة اصحاب القصور كما تحكيها الفسيفساء (١)**

ان احسن الآثار التي ترشدنا الى ما كانت عليه حياة الطبقة الارستقراطية من الاهالي ارباب القصور الريفية ، هي الفسيفساء التي كانت تزين منازلهم



- وفي طبرقة وقع العثور على ثلاثة مناظر فسيفسائية تمثل الصورة الموجودة في الوسط مسكنا في شكل برج لرب المحل وقع بناؤه في آخر الساحة وقيم بجانبه برجان بشكل مربع وسقف هرمي يصل بينهما رواق ذو اقواس ، وحول ذلك المسكن حديقة للتنزه وروضة مزينة بالازهار ترخرف فوقها الطيور ويتبختر فيها

(١) نقلا عن كتاب تاريخ افريقية الشمالية لشاري الندى جوليان .

التدرج الجميل ، بينما يقوص البط والاوز في ماء الخدير .
والصورة الموجودة عن اليمين تمثل اسطبلا كبيرا وسط الكروم
الزياتين ، تظهر من ورائه هضبة تقع عليها طيور من الجبلان . وفي
الامام فرس يؤكدف (اى يرخس الارض بحوافره) ورعاية تفزل
الصوف بمغزلهما تحت ظل السروة ، وهى فى الوقت نفسه تراقب
خرافانها .

والصورة الموجودة عن اليسار تمثل بناية واسعة هى بدون شك
مخازن الزيتون ومستودعات دنان الحنور ، وامامها زريبة الدواجن
وبركة الاسماك .

كل ذلك يشير الى اقطاعية هامة منظمة ومديرة لانتاج الحنبر
والزيت ، ولتربية الخيل والماشية والطيور الداجنة



ووجدت فستيفساء بوذنة تمثل مناظر عرضية مختلفة : تمثل
بناوحا متوكلها على عصاه امام عتبة دار المعمر ، يرعى قطيعا من
الحرفان والمعيز والبقر ، وبالقرب منه نرى فلاحا يدفع محراثا يجره
ثوران ، وتمثل الصورة فى وسطها رجلا يملا جرنا فيخرج الماء
من البئر بواسطة « عود البئر » اى الرافعة ، ونرى فرسا يشرب من

ذلك الجرن وحمارا يتقدم ببطء تحت ضرب العصا ، وحول ذلك كلبه مناظر تتعلق بالصيد : فنرى ثلاثة فرسان يحملون على اسد ، ورجلا كامنا ومستترا تحت جلد عنزة يترصد الحجلان ، وآخرين يتغلبون على خنزير برى ويطعنونه بحربة صديد .



اما الفسيفساء المتعلقة « بالسنينور يوليوس » والتي وقع اكتشافها بقرطاج سنة ١٩٢٠ ، فهي تمدنا بإرشادات قيمة حول ترتيب بضعية كبيرة وحول اشغال اهلها : ففي الوسط نرى قصرا فخما ذا أبراج ورواق معمد، وقد جهز كالقلعة او الحصن لدفع الهجمات ورد الغارات، وتحيط به حدائق فيها اشجار السرو والنخيل ، ورياض وبساتين تقع فيها العناية بزراعة الزياتين والحبوب بدون احمال الكروم وتربية المواشى . ويراقب السيد يوليوس كل الاعمال من مكانة المرتفع . وهو يبذل كل مجهوداته في الصيد مع اتباعه وحاشيته وخدمه وكلابه . اما زوجته ، المعروفة بلباسها الفاخر وحليها الثمينة ، فهي تميل كثيرا الى الجلوس والاستراحة في النسيم على مقعد البستان ، فتقضي ساعات طويلة

وهى تروح بمروحتها ، وتاكل الثمار المبردة وتفرج على الهرج والهنجان المستمر بالزينة ، وتتقبل بسرور ظاهر بواكير الازدهار وغلال الارض ونتاج الحيوانات .

فان رب هذا البيت وقرينته يعيشان عيشة الاغنياء المترفين ، وفى خدمتهم جم غفير من الاعوان والفلاحين يتبدلون كل ما فى وسعهم لاجابة رغباتهم قبل التعبير عنها ولتنفيذ اوامرهم بمجرد الاشارة ، وهم يكدون ويعملون كامل يومهم ولكنهم يعيشون فى البؤس والشقاء ساكنين فى اكواخ حقيرة .

حياة الطبقة الفقيرة

ان هذه الألواح من الفسيفساء تصور لنا ما فى خدمة الارض من كد وعناء . فليس هؤلاء الاقطاعيون الكبار هم الذين احيا الاراضى وكونوا منها ثروتهم الطائلة ، بل الذى كون وانتج هو الفلاح الصغير اى من كان يملك قطعة صغيرة من الارض ، او كان مستاجرا او عاملا فلاحيا يشتغل فى ضيعة كبيرة تابعة للاستقراطية الرومانية والاهلية

وهؤلاء الاقطاعيون الاغنياء الجبابرة وفى مقدمتهم الامبراطور نفسه ، فهم كانوا لا يعيشون فوق اراضيهم ، بل كانوا يقيمون بالمدن الكبيرة وكانوا يكلفون النظر والوكلاء بمراقبة املاكهم والاهتمام بصالحهم .

وفى بعض الاحيان يصبح الفلاح الفقير غنيا وصاحب املاك مثلما وقع لرجل حصاد بسيط كان يعيش بمدينة مكثر وهو الذى حكى لنا حياته فقال :

« انى ولدت فى اسرة فقيرة ، وكان والدى لا يملك دخلا ولا مسكنا ، فكنت من يوم ولادتى اخدم ارضى فلا ارتاح انا ، ولا ترتاح هى . وعندما ياتى زمن الحصاد ، ويذهب الحصادون الى قرطة عاصمة النوميديين للعمل بالاجرة ، كنت اول واحد يحصد زرعه . ثم انى فارقت بلادى ومكثت مدة اثنى عشر عاما احصد لغيرى تحت

شمس من نار ، ثم كنت مدة احد عشر عاما اراس فرقة من الحصادين
 واجز القمح فى حقول النوميديين . وبفضل مجهوداتي ومثابرتى
 على الكد والعمل مع الاكتفاء بالقليل ، اصبحت املك دارا وضيعة
 وانى اليوم اتقلب فى النعمة ورغد العيش ، وكذلك ايضا بلغت المراتب
 السنية والدرجات العالية ، فانتخبت للمشاركة فى مجلس الاعيان
 بمدينة نيدا ، ومن فلاح بسيط اصبحت موظفا اقوم بمهمة الاحصاء
 ومراقبة الاخلاق العامة ، ويسرنى كثيرا انى رايت اولادى وحفدى
 ومد ولدوا تم كبروا وترعرعوا املئى ، فكانت حياتى هادئة مطمئنة
 محترمة من طرف الناس جميعا . »

فنحن نرى ان الحظ قد اسعد صاحبنا هذا ، ولكن كم من آخرين
 يقضون كامل حياتهم فى البؤس والشقاء والعذاب يحصدون لفائدة
 كبار الاغنياء تحت « شمس من نار »



اطلال المدن والبنائات الرومانية

ان ثروة افريقية فى عهد الرومان كانت تتركز على ركن اساسى وهو الفلاحة . وهذه الفلاحة هى التى علمت الاهالى معنى الحياة المنزلية فى البيت ، فاصبحوا اهل حضر وقرار ، وبنوا المنازل والديار واقتدوا بالمعمرين الرومانيين ، وقلدوهم فى حياتهم ، وفى بناء مساكنهم فى المدن ، او فى المزارع والحقول ، وترمنوا شيتافشيتا وهذا هو السبب فى وجود مدن كثيرة بافريقية من النوع الرومانى ، وزيادة عن المزارع المنقودة والمداشر والقرى ، وفى وجود كثير من الديار والمنازل بجميع ما يتبعها من المرافق مثلما كان يوجد برومة فى العهد الامبريالى . وآثار تلك المدن وتلك المنازل مازالت ظاهرة ، واطلالها مازالت موجودة فى كل مكان ، وهى تجعلنا نتصور تصورا محسوسا الاطار المادى الذى كانت تدور فيه الحياة بافريقية ، وشكل المدن وهيئتها العامة ، واهم اصناف البنايات العظيمة والهياكل التى كانت تزينها ، ودرجة الفن والاتقان التى وقع الوصول اليها فى ذلك التاريخ .

وان سكان هذه المدن كانوا تجارا ، او اصحاب مصانع، او ارباب فلاحية وكان هؤلاء يذهبون كل صباح الى اراضيهم للقيام باشغالهم الفلاحية ثم يعودون فى المساء الى المدينة او يقيمون مدة فى الحقول ومدة اخرى فى المدينة للتمتع بحقوقهم وامتيازاتهم المدنية التى كان لها اعتبار كبير فى ذلك العهد .

ويمكن ان نقسم هذه المدن الى ثلاثة اقسام :

– المدن البحرية

– المدن الفلاحية

– المدن العسكرية

– المدن البحرية : فاما المدن البحرية فانه يصعب فى الغالب تصور هيئتها القديمة ، بسبب ما لحقها من التغيير سواء من جراء انتقال مجرى الاودية ورسوب كميات كبيرة من الغرين ادخلت

تغييرا كبيرا على رسم الساحل وشكله ، مثلما وقع فى خليج قرطاج او اوتيكة الذى ردم وادى مجردة جانبا وافرا منه ، حتى ان الجزء من الخليج الذى كان بجانب قرطاج شمالا صار اليوم بحيرة (سبخة اريانة) ، واند اوتيكة التى كانت على الساحل اصبحت الآن بعيدة عن البحر بحيث لا بد من اجهاد القوة الخيالية اجهادا كبيرا لتصور الخطوط القديمة لبعض الاماكن ، ولتشخص المرسى الحربى والمرسى التجارى من رؤية الغديرين الصغيرين الموجودين بجهة صالمبو جنوب قرطاج ٠٠٠ او من جراء زيادة البناءات الجديدة التى ازالبت تماما كل الاثار القديمة ، مثلما وقع بسوسة ، وبزرت ، وسكيكدة .

وان الذى يمكننا من تصور الماضى اكثر من البناءات هو الوثائق الكثيرة المنقوشة : نذر وهدايا للآلهة ، خواتم كمركية من رصاص وصولات مكتوبة على شقاف اوانى الفخار ٠٠٠

المدن الفلاحية : اما المدن الفلاحية فهى كانت فى الغالب عند نشأتها قرى صغيرة ، ثم اتسعت بطبيعة الحال . ونذكر منها دقة ، ومكثر ٠٠٠ وقد راينا كيف ترقى احد الفلاحين بمجهوداته الخاصة وبكده يمينه وعرق جبينه الى ان بلغ المراتب العالية .

المدن العسكرية : ونصل اخيرا الى المدن العسكرية وهى موجودة بكثرة فى بلاد الجزائر (اما القطر التونسى فقد كان بلادا مدنية لا عسكرية) . ونذكر من هذه المدن على سبيل المثال :

- تيمقاد : (Thamugadi) مدينة قدماء الجنود ، اسست باذن من تراجانوس سنة ١٠٠ ، فخطت بالزيج (١) . وسطرت بالمسطرة فكانت طرقاتها منظمة تتكون منها مربعات صحيحة على غاية من الاتقان فهى مدينة وقع تصوير رسمها اولا على الورق فى مكتب المهندس ثم وقع الشروع فى انجاز ذلك على عين المكان ، فكان كل شئ فيها مدبرا من قبل ، ومبيننا ومشيدا عن قصد فى مكانه المعين وبشكله المعين (انظر اللوحة رقم ٨٤/٨٣)

- لمباز : (Lambaesis) ان القسم المنظم فيها على النمط الذى وصفناه هو المعسكر فقط . واهم اثر ما زال قائما فيه هو « البريطوريوم » او مقر البريطور والقائد الاعلى للجيش الرومانية . (انظر اللوحة رقم ٩٣)

الزيج : هو خيط المهندس او البناء يمه على الارض او على الخائط

أما المدينة التي برزت بعد ذلك بالقرب من المعسكر فهي خالية من الدقة الهندسية التي نجدها في تيمقاد .

— وهناك مدنية أخرى جديرة بالذكر وهي جميلة (Cuicul) التي كانت في البداية مدينة قدماء الجنود أيضا مثل تيمقاد ، وكانت مثلها أيضا في ترتيبها ، ونظامها ، وشكلها الهندسي ، لكنها تخلصت فيما بعد من تلك القيود ، وتحررت وازدادت اتساعا متخذة في توسعها الاشكال التي تفرضها البقعة ، فكانت بذلك خير مثال للمدينة الحية التي لا تقتيد بشكليات المساحين والمهندسين .

— اجزاء المدينة —

— **الساحة العمومية (le forum)** ان الركن الاساسي والمركز الحيوى في كل مدينة ، مهما كان نوعها ومهما كانت هيئتها الخاصة ، هو الساحة العمومية ، فهي وحدها قلب المدينة النابض تمثل تلك الحياة الحضرية ، حياة المدن التي كانت المشاركة فيها تعتبر على غاية من الاهمية .

وهذه الساحة هي عبارة عن رحبة مبلطة ، لا تدخلها العربات ، تحيط بها البناءات العمومية والدكاكين التي تزين مدخلها الاقواس والدرج الجميلة . وهذه الساحة هي في الغالب ، وكلما كان ذلك ممكنا ، ملتقى الطريق الكبير على الطول (decumanus maximus) والطريق الكبير على العرض (cardo maximus) الذي يقطع الاول عموديا ويؤلف معه الساحة المربعة .

وتقام في الساحة العمومية هياكل شرفية يزداد عددها شيئا فشيئا : تماثيل القياصرة والباطرة ، تماثيل الرجال العظام ، من المواطنين ، اصنام تمثل آلهة او تمثل القديس شفيع المدينة .

وان الساحة العمومية الموجودة باطلال بوغراة (Gighti) على بعد ١٠٤ كم جنوب قابس ، اى باقصى الجنوب التونسي ، تظهر على غاية من الجمال ، تحيط بها على ثلاث جهات ، اروقة مقامة على اعمدة كورنثسية ، وبها ابنية وصروح مزينة بابدع انواع الزينة باستعمال رخام مختلف الالوان والاشكال .

— وكذلك مساحة بلدة مدينة (بتشديد الياء) (Althiburos) قرب ابيه كسور على طريق تاجروين ، فهي ايضا مبلطة وتحيط بها اروقة جميلة .

— و « فوروم ، دقة (Thugga) هو ساحة مستطيلة الشكل

(٤٥ م × ٢٥ م) تحيط بها صف اعمدة على ثلاث جهات اقيمت
فى عهد تيتوس اوريليوس فيلفيوس (Titus Aurelius Fulvius ou
(Antoine le Pieux) (١٣٨ / ١٦١)

ـ وساحة عنابة (Hippo Regius) بديعة فاخرة يبلغ طولها ٧٦ م
وعرضها ٣٤ م . ولها منظر رائع خلاب برواقها المبلط بالرخام ،
واعمدتها الكورنتسية التى ترفع الاطناف الجانبية ، وقاعدات تماثيلها
المنصوبة فى فسحة (l'area) (انظر اللوحة رقم ٨٢)

ويمكن للمدينة الواحدة ان يكون بها اكثر من ساحة ، وبالاخص
اذا امتدت ، واتسع نطاقها ، وانتقل مركز حركتها ، وعند ذلك
تكون الساحة الاصلية هى التى يوجد فيها قصر البلدية (Curia)
حيث يعقد المجلس البلدى اجتماعاته . ولا بد من وجود ساحة
مسقفة او اكثر (basiliques) تظلل الناس من الشمس
وتقيهم من المطر ، وهناك تفصل الحصومات والدعاوى ، وتعالج
المشاكل المختلفة وتعقد الصفقات التجارية .

ـ المعابد (Temples) . والكابتول (Capitole)

وتشيد معابد كثيرة فى جميع احياء المدينة لآلهة مختلفة . وفى
المدن الكبرى يشيد اكبر معبد وهو الكابتول ، مثلما هو موجود
بسببيللة (Sufetula) ، فانك ترى بها المعابد الثلاثة التى وقع
بناؤها لآلهة الكابتول وهى ثلاثة : جوبتر كبير الآلهة ، وجينون الالهة
النور ، ومينرفا الالهة الحكمة والفنون (انظر اللوحة رقم ٨٥)

وكذلك الكابتول بدقة (Thugga) الذى وقع اهداؤه للنالوث
جوبتر، وجينون ومينرفا ، وبه كتابة منقوشة تشير الى ان هذا المعبد
وقع بناؤه فى عهد مركوس اوريليوس سنة ١٦٦ ، من مال اثنين
من سكان المدينة . وان الاعدة الستة الكورنتسية التى تزين رواق
المدخل تحمل سقفا مثلثا (Fronton) يزينه نقش بارز دون
البنصف (Bas-relief) (١) (انظر اللوحة رقم ٨٥)

ـ الاسواق

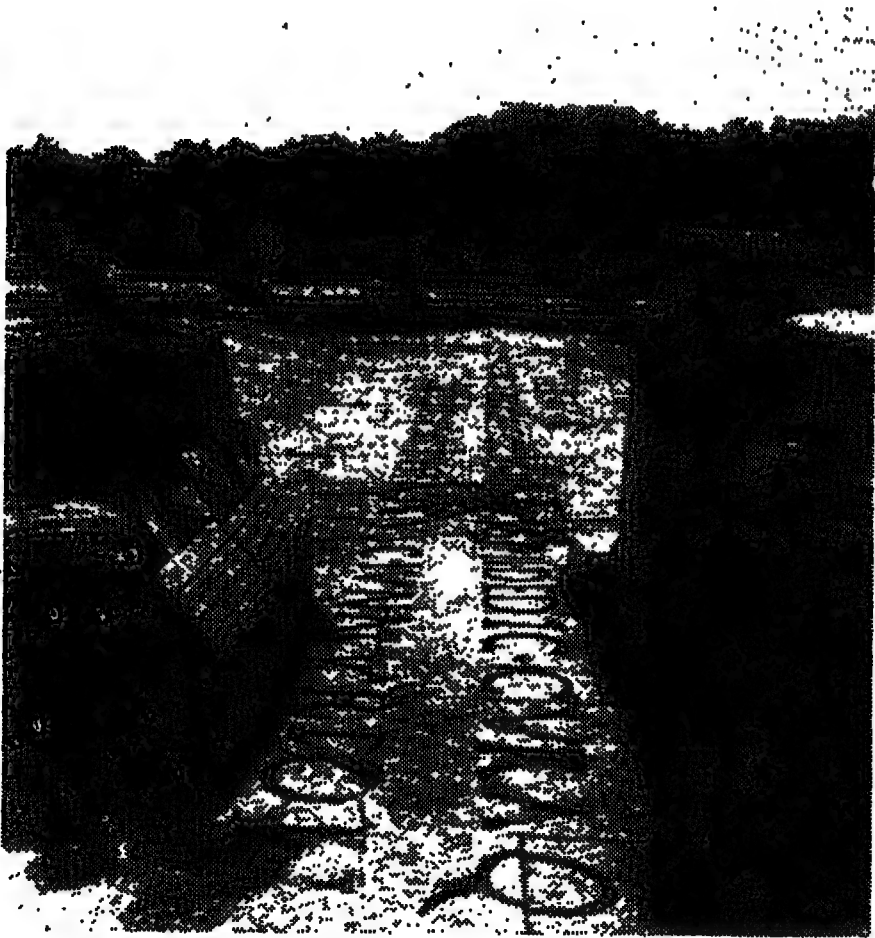
ولابد من وجود الاسواق ايضا للبيع بالتفصيل، اما البيع بالجملة
فهو يقع فى الفضاء المسقف ، وهذه الاسواق كانت تبدو فى شكل
ساحات تحيط بها دكاكين صغيرة للتجارة .

(١) يكون النقش احيانا بارزا تماما (Bas-relief)

او بارزا نصفيا (Demi-relief)

او بارزا دون النصف (Haut-relief)

لوحة ٨٢
انظر الصفحة رقم ٣٤٤ من هذا الكتاب



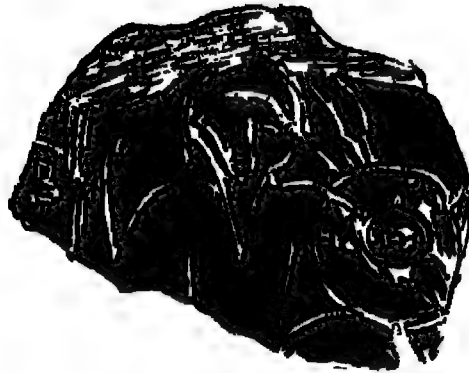
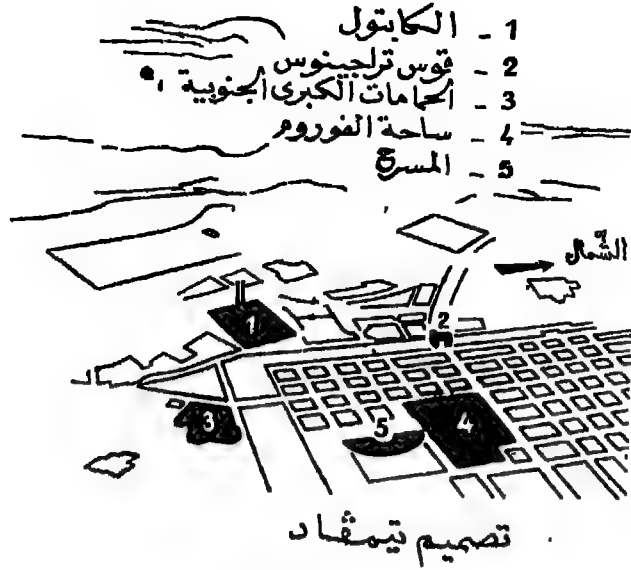
الساحة العمومية (الفوروم) بمدينة عنابة (كتابة منقوشة على البلاط)

لوحة ٨٣
انظر الصفحة رقم ٣٤٢ من هذا الكتاب



اطلال مدينة تيمقاد الرومانية بالجزائر

لوحة ٨٤
انظر الصفحة ٣٤٢ من هذا الكتاب



جندي افريقى مكلف بحراسة الحدود
(انظر الصفحة رقم ٦٣ / ١٦٩ / ٣١٠ / ٣٢٠)

هذه الصورة المنقوشة على نصب موجود بمتحف الجزائر ، تمثل جنديا ليبيا (اى بربريا) له لحية ملسنة ، وهو متعمم بشيء يشبه العمامة القبايلية ، ويعمل ترسا مستديرا وحريتين . وهذا الجندي هو من غير شك من الاعوان التى كانت تكلفهم دومة بحفظ الامن فى منطقة القبائل .

لوحة ٨٥
انظر الصفحة رقم ٣٤٤ من هذا الكتاب



سيطة المعابد الثلاثة الكاينولية



دقة معبد الكاينول

- المسارح والملاعب

كان الرومانيون يهتمون كثيرا بوسائل اللهو والتسلية ويشيدون لذلك بنايات فخمة شامخة يمكن تقسيمها الى ثلاثة انواع :

(١) المسرح (Theatrum) : وهو عبارة عن بناية فى شكل نصف دائرة يحتل قطرها مانسميه عادة «بخشبة المسرح» (la scène) (١) ولكنها كانت فى ذلك الوقت مبنية بالحجارة ، وتحتل الدكات او المصاطب (les gradins) نصف الدائرة، وكان المسرح يستعمل لتمثيل الروايات من نوع المأساى (tragédies) وهى الروايات الفاجعة او الحزنة ، والمهازل (comédies) هى الروايات الهزلية المضحكة ، والمسرحيات الفكاهية القصيرة (mîmes)

(٢) الملعب (Amphitheatrum) من اليونانية Amphi بمعنى حول و theatron بمعنى المسرح وهى عبارة عن بناية عظيمة فى شكل مستدير او اهليلجى تحتل دكاته كامل محيط الدائرة ، وفى الوسط يكون الميدان (l'arène) المعد للمصارعة والملاكمة والعراك بين المصارعين او مع الحيوانات الضارية . (انظر اللوحة رقم ٨٩) ويحيط بالميدان جدار قصير يفصل بينه وبين مقاعد المتفرجين ويسمى بالحاجز (le podium)

وان اكبر ملعب فى رومة نفسها هو المعروف بالكلوزى (Colosseum = Colisée) وانه سمي كذلك لوجوده بالقرب من تمثال نيرون الفائق الكبر (Colossus = Colossé de Néron) (٣) الميدان (Circus) وهو فى شكل اهليلجى مستطيل جدا ، ومعد لمشاهدة العاب الفروسية والمثاثر البهلوانية ، وسباق الخيل او العربات

فالعواصم والمدن العظيمة والمشهورة بثروتها تجتمع فيها هذه المعالم بانواعها المختلفة : فانك تجد بمرطاج مثلا : الملعب ، والمسرح والميادين فى وقت واحد .

(١) ان هذه الكلمة (la Scène) مأخوذة من اللاتينية (Scena) واليونانية (Skênê) ومعناها الخيمة والسراق ، لان ذلك القسم من المسرح كان فى القديم يغطى ويظل بخيمة وينصب عليه سراق (اى خيمة) ، فيمكن حينئذ ان نطلق بدورنا على ذلك المكان الخاص بالممثلين اسم (السراق) وهو ترجمة حرفية لكلمة (Scène)

ـ **فاما الملعب (l'Amphithéâtre)** فقد وقع تشييده غربى ببرصة وقد وصفه الادريسي ، وهو من مؤرخى القرن الثانى عشر ، فقال بانه يتألف من ٥٠ طاقا تقريبا (اى ٥٠ قوسا) بنيت فوقها خمس طبقات من الاقواس منضدة بعضها فوق بعض فى شكل وفى ابعاد الطبقة السفلى ، وهى كلها مبنية بحجارة عديمة المثال ونادرة الجمال . وفى اعلى كل طاق او قوس يوجد عقد مستدير مزين برسوم تمثل اشخاصا او حيوانات او سفن منقوشة بكامل الاقنار ومنتهى الفن ، وكانت السجون او المحابس (les carceres) مغلقة بمسالف او اشواف (des herses) وموجودة تحت الحاجز (le podium) اى الجدار الفاصل بين الميدان ومقاعد المتفرجين .

وفى ذلك الملعب وقع القاء النصارى المسيحيين والمسيحيات الى الحيوانات المفترسة ، فاستشهدوا بعد ما ذاقوا من العذاب الوانا : ففى سنة ٢٠٣ اى فى عهد اسكندر سافاروس وقع القاء القبض على القديسة فيليسييتى (Ste Félicité) وكانت حاملا ، وعلى القديسة بربتوة (Ste Vibla Perpetua) ، هى ورضيعها ، وعلى جماعة اخرى من النصارى المعتنقين دين المسيح عليه السلام ، والقوا بهم امام الوحوش الكاسرة التى مزقتهم اربا اربا واقرستهم ... وفى الوقت الحاضر لم يبق من ملعب قرطاج سوى الميدان ، والبناء التحتانى كالسجون والدهاليز وبعض المصاطب .

ـ **واما المسرح (le théâtre)** فان اطلاله مازالت موجودة بمنحدر الهضبة من الجهة الجنوبية المقابلة للبحر ، ويقول توتريليانوس بانه وقع تشييده فى القرن الثانى ، والقى فيه ابوليوس خطبه منوها بعظمة ذلك المحل ، وجمال مرمر مصاطبه ، ورشاقة اعمدته ، وارتفاع بنيانه ، ورونق حيطانه .

وان هذا المسرح قد هدمه الوندال فيما هدموا ، ولم يبق من نصف الدائرة الا آثارها ، ومن المكان المعد للتمثيل الا بناؤه التحتانى واضمحلت المصاطب التى كانت من المرمر الابيض ، والدرايزونات الجميلة ، وذهب بلاط الطبقة الارضية ، وجدران المكان المعد للتمثيل وقد وقع ترميم ذلك المسرح واصلاحه ، ومثلت فيه بعض الروايات ، منها رواية « سوفونيسبة » للكاتب والمؤرخ المعروف الاسناذ عثمان الكعاك .

- وكان يوجد بقرطاج مسرح نان مسقف (l'Odéon) معد على
الارض للشعر والغناء والموسيقى ، وقع بناؤه باعلى الهضبة فى بداية
القرن الثالث ، ولم يبق منه الا اثنان تحتانى ، رفع الردم من
فوقه اخيرا . وكانت مصاطبه مبنية كلها فوق الارض بخلاف مصاطب
المسرح المتقدم ذكره فهى كانت منفورة فى الهضبة . وقد وجدت فى
ذلك المكان تماثيل كثيرة ، واعمدة من المرمر الوردى او الاخضر ،
وتيجان كورننسية ، وقطع من الاطناف المنقوشة ، ومن صفائح
المرمر ، مما يدل على ان هذا الاوديون كان يضاهى المسرح بهاء
وجلالا وعظمة

- اما الميدان (le Cirque) فقد كان موجودا بين الملعب
وقرية دوار المنبط ، ومازال يظهر منه الطريق المرسوم والحصى
بالفرسان وراكبى العربات (la piste) ، وكذلك الشوكة
(spina) اى النتوء او الجدار القصير الذى كان يتوسط الميدان
ويمتد فيه طولا كالعمود الفقري ، والذى كانت تدور وتجول حوله
العربات (les chars)

- وفى شرشمال ايضا نجد اطلال الملعب الذى كان طوله ١٢٠ م
وعرضه ٧٠ م ، ونجد كذلك مسرحا وقع الانتهاء من ترميمه سنة
١٩١٧ ، واشىء المهم فيه والجدير بالملاحظة هو تحويله الى ملعب فى
آخر القرن الثالث .

- واحيانا تقع المفاهمة بين مدينتين لنوزيع المصاريف : فانك
تجد بمدينة الجم (Thysdrus) ملعبا ولا تجد بها مسرحا ، وتجد
بدقة (Thugga) مسرحا ولا تجد ملعبا . وكذلك ايضا تجد
بتيقباد مسرحا ولا تجد ملعبا ، (انظر اللوحة رقم ٨٦) ، بينما
انك تجد بلمباز ملعبا ولا تجد مسرحا .

- فملعب تيسدروس (الجم) اهليجي الشكل ، (انظر اللوحة
رقم ٨٧/٨٨) وهو اضخم واعظم بناية رومانية فى كامل شمال
افريقية ، يبلغ طوله ١٤٨ م وعرضه ١٢٢ م ، وارتفاعه ٣٦ م . وكان
يسع ستين الفامن المتفرجين . وكان فى آخر القرن السابع عشر
قائم الذات صحيحا سالما ، ثم ان حمودة باى فى ذلك التاريخ احدث
فيه ثلعة كبيرة ليتمكن من كبح جماح النوار الذين اعتصموا
وتحصنوا به .

وعلى بعد كيلومتر فقط جنوب ذلك الملعب توجد آثار ملعب آخر
ا قدم منه ، ثم من جهة الشمال الشرقي توجد آثار ميدان (Cirque)
طوله ٥٥٠ م وعرضه ٩٥ م .

— اما مسرح دقة (انظر اللوحة رقم ٨٦) فهو يشتمل على ٢٥
صفة من الدكات او المصاطب فى اعلاها رواق باقواس ، ونرى امام
المدخل دواقا ذا اعمدة كورنتسية يستعمل كدرجة يجول فيها
المتفرجون بين الفصلين من الرواية . وفوق هذه الاعمدة نقرا كتابة
طويلة تشير الى ان هذا المسرح بناه احد الاغنياء من ابناء دقة
على نفقته الخاصة وذلك بين سنة ١٦٦ وسنة ١٦٩

— الحمامات (les Thermes) : ولا تخلو مدينة من الحمامات الفسيحة
الفاخرة ، اذ كانت هذه الحمامات المكان الذى يقضى فيه الانسان اوقات
فراغه ، فلقد كانت تقوم مقام المقاهى والنواذى ، فلا يصلح للاستحمام
فقط ، بل يستعمل لتمارين الرياضة البدنية ، والمطالعة ، والحديث ،
والذاكرة ، واللعب . . . فكان الرومانى او الافريقى المترمن يقضى
فى الحمامات جل اوقاته بعدما ينتهى من اشغاله التى تعالج فى الساحة
العمومية ، ولا يذهب الى منزله الا لينام .

حاننا نجد فى مدينة تيمقاد بالجزائر « الحمامات الشرقية الصغرى »
وفىها جميع المرافق من قاعات الانتظار والراحة ، وبلانات حارة ،
واخرى باردة او بخارية ، وخزائن الملابس ، واحواض ، ومراحيض
وغرف التسخين واشعال الوقود . . . وغير ذلك ، وهى ما زالت
ظاهرة يمكن مشاهدتها . ونجد بها ايضا « الحمامات الشرقية الكبرى »
التي وقع بناؤها فى النصف الاول من القرن الثانى ووقع توسيعها
والزيادة فيها سنة ١٦٧ ولكنها تهدمت واصبحت اطلالا .

— وحمامات قرطاج (Thermes d'Antonin le Pieux) (١) التي وقع بناؤها
فى نصف القرن الثانى بين سنة ١٤٥ وسنة ١٦٢ هـ بناية فسيحة جدا تقل
قيمة وعظمة عن حمامات قاراقالا المشهورة برومة ، وكان يبلغ طولها
٢٠٠ م تقريبا ، وكان بها قسم مخصص للرجال وقسم للنساء
وكانت تاتيها المياه من الصهاريج الكبرى (les Grandes Citernes) قرب

(١) ان كلمة درمش (Dermèche) جاءت من كلمة (Thermis) أى الحمامات

الحمامات

البرج الجديد وتلك الصهاريج هي التي حل محلها اليوم مستودع مياه قرطاج العصرية

— وحمامات بيلا ريجيا (Bulla Regia) او حمام الدراجي لها منظر رائع خلّاب ، وقد ازيل عنها الردم بتمامه وهي جديدة بان تزار وتمتد الحمامات الرومانية بافريقية في مساحات شاسعة : ٦٢٠٠ متر مربع بجميلة ، ٣٠٠٠ بلمباز ، ٤٠٠٠ بتييمقاد ٠٠٠ اما حمامات انطونان بقرطاج فهي تحتل مساحة تبلغ هكتارين (٢٠٠٠٠ متر مربع) وحمامات لبدة بطرابلس ثلاثة هكتارات (٣٠٠٠٠ متر مربع) (انظروا الصورة باللوحه رقم ٩١)

اهم المدن الرومانية بافريقية

ان الاغنياء من الافريقيين كانوا ينفقون جزءا كبيرا من ثروتهم في سبيل ترتيب بيوتهم الانيقة وتنظيم مدنهم ، وان افراد الطبقة الارستقراطية من الرومانيين او الافريقيين كانوا يقيمون بالمدن والعواصم ، ويقلدون رومة في نظامها ورفاهيتها وعظمة بناءاتها .

— اهم المدن ببلاد طرابلس : (ليبيا)

ثلاث مدن على سواحل السرت بلغت اوج عظمتها في مدة سبتيموس سافاروس وهي :

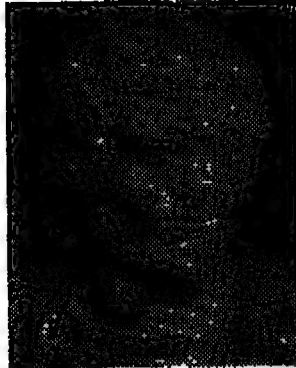
- مدينة طرابلس (Oea = Tripoli) في الوسط
- سبراطة (Sabratha Vulpia) نحو الغرب
- لبدة (Leptis Magna) نحو الشرق

— فاما مدينة طرابلس فلم يبق فيها قائما الا قوس نصر ذو اربع واجهات ويسمى قوس ماركوس اوريليوس (١) (Arc de Marc-Aurèle) يستعمل الآن كمكان للتجارة ، وتارة للسينما . او غير ذلك ٠٠٠

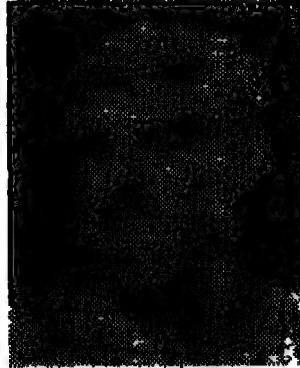
(١) ان قوس النصر ، وهو مدخل المدينة الرومانية ، يكون بصفة عامة ذا فتحة واحدة مثل قوس تراجانوس (سنة ١١٦) بمكنتر (الصورة صفحة ٢٦١) ، وقوس سبتيموس سافاروس (سنة ١٩٥) بحيدرة ، وقوس قارا خالا (سنة ٢١٦) بجميلة ، وقوس اسكندر سافاروس (سنة ٢٢٨) بدقة ، وقوس ديوكليسيانوس بسيطة ، ويكون احيانا ذا فتحتين ولكن بقلة كما هو موجود بانونة بالجزائر وكثيرا ما يكون ذا ثلاث فتحات ، فتحتين صغيرتين تتوسطهما فتحة كبيرة ، مثل قوس تراجانوس بتييمقاد ، وقوس سبتيموس سافاروس بلمباز ، وقوس انطونان بسيطة (صورة الغلاف من هذا الكتاب تمثل فتحة الكبرى) ، وقليل ما يكون ذا اربع فتحات مثل قوس ماركوس او ريليس بلويا (طرابلس) وهو يعتبر حقا من اهم الهياكل الرومانية (انظروا الصورة باللوحه رقم ٩٠) .

- وعلى بعد ٧٠ كم من مدينة طرابلس غربا توجد مدينة سبراطة وفيها معبد الكابتول ، وكنيسة لالنصارى .

- ولكن اعظم ثروة تاريخية توجد فى لبلدة مسقط راس الامبراطور سبتيموس سافاروس : ارضفة بالمرسى ، قوس نصر جميل ذو اربع واجهات ، حمامات ، ساحة عمومية (فوروم) ، مسرح ، منعب ، ميدان .



ابنه قارا قالا



سبتيموس سافاروس

ولبلدة ايضا كنيسة سافاروسية منقوش بها اسم سبتيموس سافاروس سنة ٢١٠ باعلى الاعمدة الثلاثة من الغرانيت الوردى المجلوب من مصر (فى آخر الصورة على اليمين) ومن جهتي مدخل صدر الكنيسة ، عماد مزين باكاليل الاقنتوس (١) وافنان الحلباب (٢) والكرم (انظروا الصورة باللوحة رقم ٩٢)

- اهم المدن بالبروقنصلية : (البلاد التونسية)

كانت البروقنصلية تشتمل على مدن كثيرة العدد نذكر منها :

- اوتيكة (Ulrique) : عاصمة الولاية الرومانية ابتداء من سنة ١٤٦ ق.م الى ان خلفتها قرطاج سنة ٣٩ بعد الميلاد .
- تضاءلت قيمتها شيئا فشيئا لارتداد موانئها تدريجيا بالرمال : آذر قناة كانت تجلب المياه من جبل كشباطة على ١٠ كم غربا ، صهاريج ، ملعب كبير (٢٠٠ م × ١٠٠ م) اضمحلت مصاطبه .

(١) الاقنتوس (acanthé) نبات ورقه على غاية من الجمال ، الشئ الذى جعل النحاتين يزینون به رؤوس الاعمدة الكورنثسية .

(٢) الحلباب (lierre) : نبات متسلق تدوم خضرته فى الصيف

- **قرطاج (Carthago)** : العاصمة الكبرى : تحدثنا عن آثارها
- ♦ **قابس (Ticapas)** : ميناء السرت الصغير (آثار قليلة)
- ♦ **بوغراة (Gighti)** : ساحة الفوروم ، معبد الكابتول ، سوق ، حمامات . . .
- ♦ **راس الديماس (Thapsus)** : حيث انتصر يوليوس قيصر على يوبا الاول (آثار رصيف كبير لوقاية المرسى واطلال غير واضحة)
- ♦ **لمطة (Leptis Minor)** : مدينة فنيقية ، ثم رومانية . تم ببنزطية تلفت آثارها : صهاريج ، اسداد ، قناة ، سور
- ♦ **المنستير (Ruspina)** : حمامات رومانية منقورة في الصخر ، دهايز ، ودير للنصارى (monastère) حوله المسلمون الى رباط في القرن التاسع ، ومنه اتت تسمية هذه المدينة بالمنستير .
- ♦ **صفاقس (Taparura)** : استعملت انقاضها واطلالها لتشييد المساجد وبناء القصباء
- ♦ **سوسة (Hadrumète)** : مدينة فنيقية استعملها حنبعل قاعدة لعملياته الحربية ضد شبيون ، تم رومانية رفعها تراجانوس الى درجة المستعمرة ، ولقبت بالمدينة الحصبة (Frugifera) لكثرة القمح والخيرات بحقولها ، وصارت في آخر القرن الثالث عاصمة ولاية جديدة مستغلة وهي ولاية مزاك (Byzacène) ثم صارت من اكبر المدن البيزنطية وسماها قيصر الروم (يوستينيان) باسمه (Justinianopolis) ، لم يبق اى اثر فيها للبنايات القديمة
- ♦ **بنزوت (Hippo Diarrhytus)** لم يبق شئ من آثارها البونيقية او الرومانية (ربما حمامات رومانية ؟)
- ♦ **المدينة القديمة (Thelepte)** اطلال مسرح عرضه ٦٠٠ م . حمامات ما زالت قائمة ، كنيسة كبيرة ذات خمسة صحنون
- ♦ **سبيطة (Sufetula)** مشهورة بمعابدها الثلاثة (الكابتول) ، وساحتها المستطيلة (٦٠ م على ٧٠ م) ذات الاروقة والاعمدة ، وحماماتها ، وقوس نصرها وبقايا مسرحها ، وكنائسها بالجهة الشمالية الشرقية وباحداها بيت العماد به « جرن العماد » اى الحوض ، وهو كله مفروش بالفسيفساء (انظر اللوحة رقم ٩٥)
- ♦ **حيدرة (Ammadara)** كان معسكرا في عهد القيصر اغسطس ثم انتقل ذلك المعسكر الى تبسة سنة ٧٥ في عهد

فسباسيانوس وآثار حيدرة واطلالها كثيرة جدا : قوس نصر سبتيموس سافاروس (سنة ١٩٥) مسرح وقع ترميمه سنة ٢٩٩ ، ضريح ، قلعة بيزنطية (٢٠٠ م على ١١٠ م) بنيت حولها جدران رائعة وتسعة أبراج مربعة وبرج مستدير .

♦ **الكاف** (Sicca Veneria): ويسمى ابن ابى دينار (شقبنارية) فى كتابة المؤنس ، وانما وصفت بفينيرية لوجود معبد مشهور فى تلك المدينة دشن لالهة شرقية شبهها الرومانيون بفينوس (Veneris) الالهة الجمال والحب . وكانت مدينة الكاف تحتل مركزا استراتيجيا ممتازا لانها كانت تشرف على المواصلات من نوميدية الى البروقنصلية . وتوجد بمدينة الكاف آثار كنيسة ما زال صدرها قائما (انظر اللوحة رقم ٩٤)

♦ **المدينة** (Althiburos) بتشديد الياء : فيها اطلال رومانية هامة جدا على ضفة وادى المدينة : ساحة مبلطة ومحاطة بالاروقة ، طرقات مبلطة ايضا ، معبد الكابتول ، بيوت رومانية ، مسرح كبير من عهد كومودوس تحيط به اقواس ما ازل البعض منها قائما ، قوس نصر هادريانوس بفتحة واحدة كان بناؤه سنة ١٣٨ .

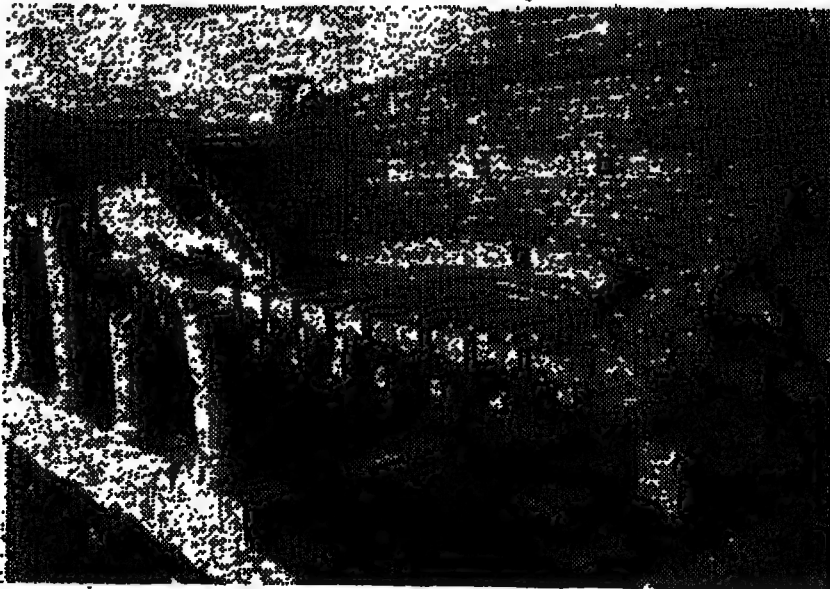
♦ **مكثر** (Mactaris): ملعب احتلت الاكواخ جانبا منه ، ساحة الفوروم وهى مازالت مبلطة ، قوس نصر تراجانوس كان بناؤه سنة ١١٦ ثم انصق به برج مربع فاصبح قلعة بيزنطية ، كنيسة كبيرة فيها قبور بيزنطية ، ويوجد بيت العماد (baptistère) وراء صدر الكنيسة (Abside) ، اطلال الحمامات ما زالت قائمة وواضحة ، معابد كثيرة ، متزاوف اى محل ارتياض (gymnase) اهتمت ببنائه جمعية شبان مكثر سنة ٩٥ ، يتالف من ميدان للرياضة الجسدية (palestre) واحواض كبيرة للسباحة (piscines) وكنيسة كبيرة (basilique) وقاعات عديدة ، وحمام . وعلى بعد كيلومتر واحد من مكثر : قناة فوق ١٢ قنطرة او حنية كانت تجلب مياه عين سوق الجمعة الى الحاووز اى الى مستودع المياه ، واطلال معبد ابولون (Apollon) حامى المدينة .

♦ **هنشير القصبات** (Thuburbo Majus): انشاها القيصر اغسطس فيها اطلال كبيرة : معبد الكابتول (سنة ١٦٨) ، ساحة الفوروم المربعة (٤٥ م لكل جهة) اروقة على ثلاث جهات ، معابد كثيرة ، حمامات الشتاء بالجهة الشرقية ، وحمامات الصيف بالجهة الغربية ، ثلاثة ابواب جبارة فى آخر المدينة وباب رابع داخلها بجهة الجنوب

لوحة ٨٦
انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من هذا الكتاب

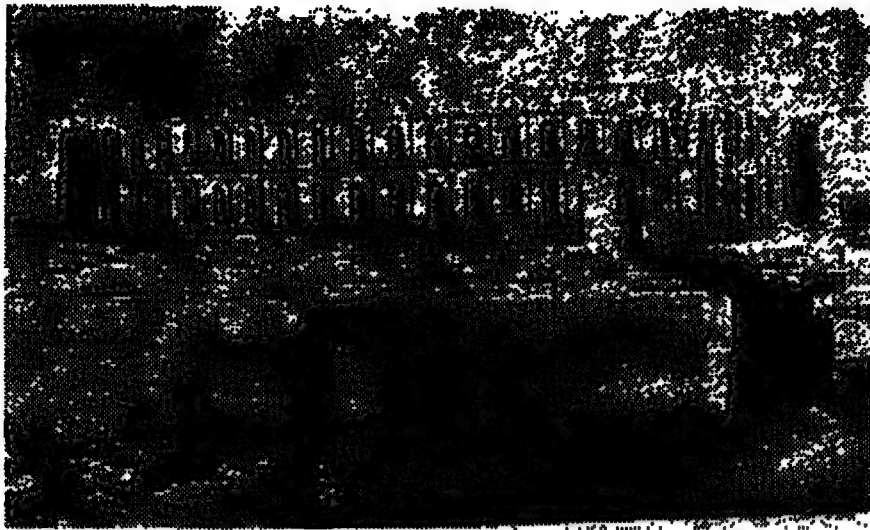


أطلال المسرح الروماني ببلقة (تونس)



أطلال المسرح الروماني بتيماقاد (الجزائر)

لوحة ٨٧
انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من هذا الكتاب

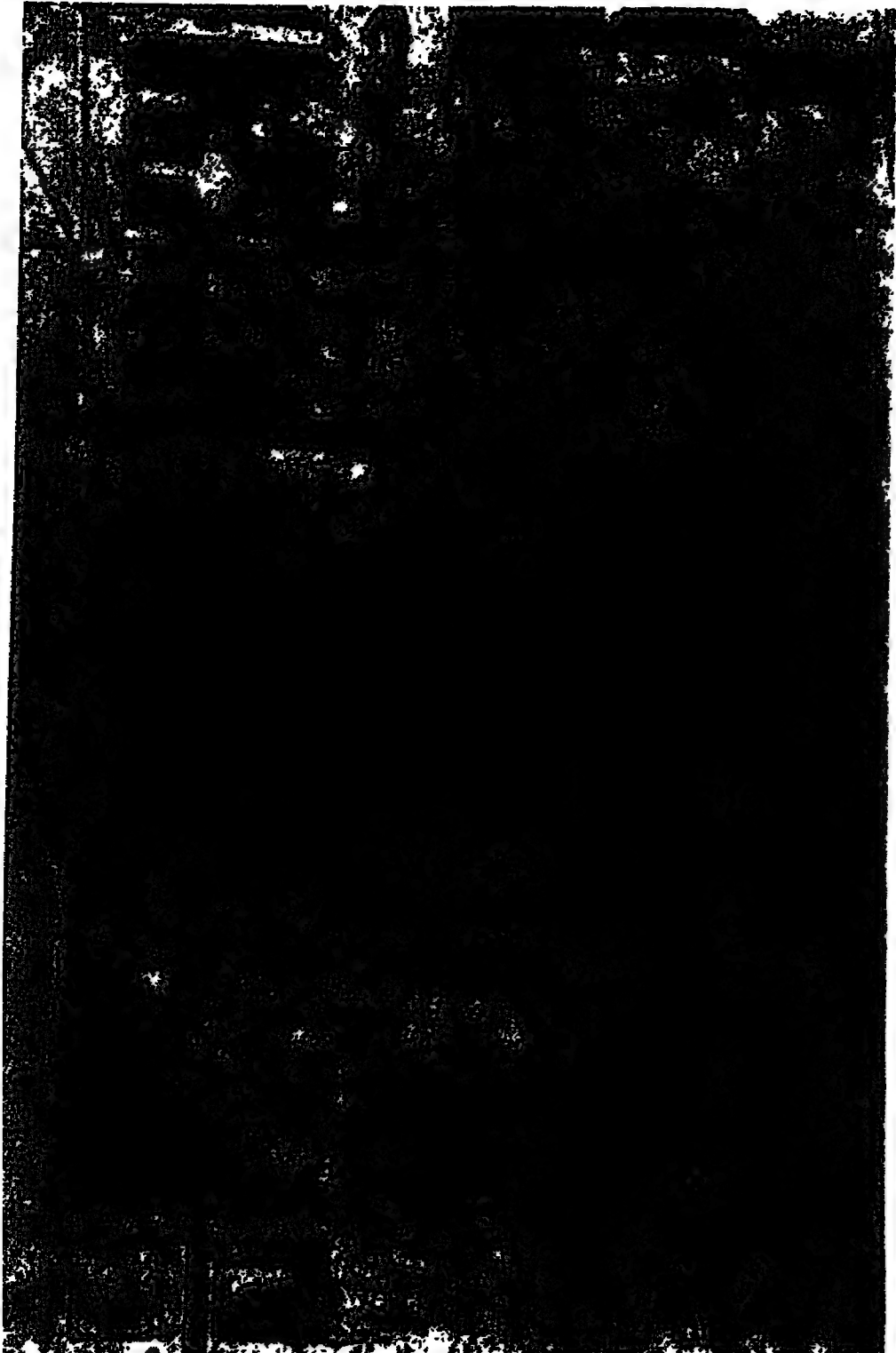


لوحة ٨٨
انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من هذا الكتاب



الجيم : الملقب الروماني

لوحة ٨٩
انظر الصفحة رقم ٣٤٢ من هذا الكتاب



الملعب : نرى التصارعين وهم يتناززون ويتجادلون في ميدان الملعب امام جم غفير من التفرجين

♦ **دقة (Thugga)** : بلدية مستقلة في عهد سبتيموس سافاروس ، آثارها كثيرة : مسرح مازال قائما (انظروا الصورة)
معبد الكابتول (انظروا الصورة) ، ساحة الفوروم ، معبد سيلستيس
وقع بناؤه في عهد سبتيموس سافاروس ، اطلال قناة تجلب المياه .

♦ **طبرسق (Thubursicum Bure)** : باب روماني كبير ، قلعة
بيزنطية .

♦ **عين تنقع (Thignica)** : قوس نصر صغير ، معبد ما زالت
بعض جدرانها قائمة اما اعمدته الكورنتيسية فهي منتشرة على الارض ،
قلعة بيزنطية ذات خمسة ابراج مربعة .

♦ **حمام البراجي (Bulla Regia)** : حماماتها رائعة ،
صهاريج كبيرة يسكنها الآن بعض الفقراء من الاهالي ، بيوت رومانية
كثيرة مزينة بالفسيفساء ، آثار ساحة الفوروم ، معبد الكابتول ،
كنيسة ، معبد ابولون ، مسرح ، ملعب ، ثلاثة قصور تحت الارض
مزينة بالفسيفساء وسميت باسماء تدل على تلك الزينة : قصر الصيد في
البر ، قصر الصيد في البحر ، قصر امفيتريت الالهة البحر .

♦ **شمثو (Simitthu)** : المشهورة بالمرمر النوميدي الجميل
ذي اللون الوردى والاصفر : ساحة الفوروم مبلطة (٤٠ م على ٢٣ م)
مسرح مازال قائم الجدران ، حمامات تاتيها المياه بواسطة قناة تحملها
تارة اقواس وتختفي تارة اخرى تحت الارض ، آثار جسر على وادي
مجردة ، ملعب كله مدفون تحت التراب .

وكانت المدن الآتية تابعة للبلاد التونسية (البروقنصلية) ايضا :
♦ **قالمة (Calama)** : مسرح روماني وقع تجديد بنائه سنة
١٩٠٨ على اساس مسرح عتيق ، بقايا حمامات رومانية .

♦ **خميسة (Thubursicu Numidarum)** : تبعد ٩٥٠ م على منابع وادي
مجردة ، آثار كثيرة واسعة : باب روماني جبار ، قاعة قضائية او
محكمة ذات ٢٦ عمودا ضخما ، قاعات اخرى عديدة ، معبد الكابتول ،
معبد آخر تحيط به اعمدة من مرمر شمثو ، مسرح ما زال في هيئة
حسنة تمثل فيه الروايات احيانا ، اطلال حمامات . . .

♦ **سوق هراس (Thagaste)** : مسقط رأس القديس
اوغستينوس (Saint Augustin)

♦ **ماداوروش (Madauros)** : كانت مدارسها ذائعة الصيت
زاوول فيها القديس اوغستينوس تعلمه ، وهذه المدينة هي التي ولد

فيها الكاتب الروائي أبوليوس (Apulée) الذي ألف روايات كثيرة أشهرها رواية « الحمار الذهبي » (L'Ane d'Or) أو المسوخ (Les Métamorphoses) في ١١ جزءا صور فيها الحياة المغربية تصويرا دقيقا كله ألوان جذابة وحقائق لاذعة . وتوجد في هذه المدينة آثار رومانية منها الحمامات العريضة الواسعة ومعاصر الزيت التي وقع تجديد معصرة منها ، والكنيسة الكبيرة من عهد البيزنطيين .

♦ تبسة (Theveste) : فيها قوس النصر المعروف باسم قوس قاراقالا أو « الباب القديم » ، ويحيط بها سور بيزنطي أحد أبوابه القوس المتقدم ذكره ، وبها معبد يرجع عهده إلى أيام آل سافاروس .

— المدن النوميدية :

• قرطبة أو قسنطينة (Cirta) : عاصمة سيفاكس وماسينيسا ويوغرطة ، هدمها ماكسنس (Maxence) سنة ٣١١ لما تار على الاسكندر الامبراطور الافريقي . ثم اهتم القيصر قسطنطينيوس (Constantin) باعادة بنائها وسماها باسمه (قسنطينة Constantine)

• سيكادة (Rusicade = Philippeville) : اسمها فينيقي الاصل بها صهاريج رومانية ، ومسرح روماني طوله ٤٠ م ، ٨٢ م يارى ما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ متفرج ، وهو اكبر من مسرح تيمقاد ومن مسرح جميلة

♦ القل (Chullu) كانت مصرفا تجاريا للفينيقيين ثم صارت مستعمرة رومانية مشهورة بصيغة الارجوان

♦ خنشلة (Mascula) كانت من المدن الرومانية المشهورة شمال شرقي اوراس

♦ لمباؤ (Lambaesis) نجد في تلك المدينة المعسكر الروماني الذي وقع بناؤه في عهد هادريانوس في اوائل القرن الثاني

(١) اوديليوس فاليريوس ماكسنسيوس (Aurelius Valerius Maxentius) امبراطور روماني من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣١٢ ، ولما لجأ الاسكندر البانوني (Pannonien Alexandre) الى قرطبة وجعل نفسه امبراطور افريقية بها ، تار عليه ماكسنسيوس ، وقهره ، وحكم مدينة قرطبة وذلك سنة ٣١١ .

طوله ٢٠٠ م . ثم بعد ذلك ، قبل سنة ١٤٦ ، بنى الجنود معسكرا آخر (praetorium) اوسع من الاول (٥٠٠ م على ٤٢٠ م) وهو المستعمل الآن كسجن الاصلاح او اصلاحية ، وما زالت اطلال الحمامات بلمباز تظهر فيها قاعات البلانات الحارة واضحة ، وبلمباز ايضا ملعب اهليجي الشكل وقع بناؤه فى عهد ماركوس اوريليوس ، وقوس نصر من ايام كومودوس .

♦ **تيمقاد (Thamugadi) :** مدينة رومانية اسسها تراجانوس سنة ١٠٠ ، وهدمها الالهالى فى اوائل القرن السادس ، تم اعادة البيزنطيون بناء جانب منها ، ولكنها تهدمت من جديد اثناء الفتح الاسلامى ، والحالة التى هى عليها الآن ترجع حينئذ الى آخر القرن السابع . وفيها قوس نصر يعرف بقوس تراجانوس ولكنه فى الحقيقة يرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث ، وحمامات ، ومرحاضات ، ومسرح ٠٠٠ ولكن تيمقاد مشهورة اكثر من كل ذلك بمكتبتها التى هى وحيدة من نوعها .

♦ **جميلة (Cuicul) :** اطلال رومانية فى ارض ذات كسور وفى مكان رائع رهيب : معابد مختلفة ، ساحة اولى ، ثم ثانية ، مسرح (سنة ١٦١) يسع ٣٠٠٠ متفرج ، قاعة البلدية ، معبد الكابتول ، حمامات كبيرة (سنة ١٨٣) ، قوس نصر قاراقالا (سنة ٢١٦) . وبلغت جميلة اوج عظمتها فى النصف الاول من القرن الثالث .

— مدن مريطانية القيصرية —

♦ **قيصرية او شرشال (Caesarea) :** هى العاصمة واكبر المدن الساحلية ، وهى مدينة ايول (Iol) التى اسسها الفينيقيون فى القرن الرابع ق . م . ثم كبرها وحسنها الملك يوبا الثانى وسمّاها قيصرية اعترافا بجميل القيصر اغسطس وجعلها عاصمة مملكته مريطانية : بها ساحة رومانية وحمامات ومسرح وملعب وميدان وبها تماثيل كثيرة على غاية من الجمال مثل تماثيل اغسطس وتماثيل فينوس الالهة الجمال (انظروا اللوحة رقم ٧١/٧٠)

• سلسلة من الموانى الصغيرة المتتابعة : جيغل (Igilgili) ، بجاية (Saldæ) ، تقزيرت (Imnium) ، دلس (Rusucuru) ، ماتيفو (Rusguniae) ، الجزائر (Icosium) ، وهى العاصمة فى

الوقت الحاضر ولم يكن لها شأن يذكر في الماضي ، تيبازة (Tipasa) :
اطلال ملعب طوله ١٠٠ م ٥٠ وبنية بهاعين فوارة تحدثنا عنها في مكان
آخر ، ومسرح ما زال على هيئة حسنة ، وحمامات واحواض للسباحة
وغير ذلك من الآثار ، قبة سيدي ابراهيم (Gunugu) بها
اطلال رومانية ، تنس (Cartennae) اكتشف فيها سنة ١٩٣٦
كنز كله اشياء من الذهب يرجع عهدا الى الرومانيين وهي الان
بمتحف الجزائر ، سان لان (Portus Magnus) ومنها اتت الواح
الفسيفساء الجميلة الموجودة بمتحف وهران . قد رفع الردم ايضا على
ديار وحمامات رومانية بتلك المدينة .

• ونذكر ايضا ، فوق نجد نوميديّة : اسطيف (Sitifis) ،
وقد ذهب شكلها القديم واخذت شكلا جديدا عصريا ، عين الروي
(Horrae) (١) ، سور الغزلان (Auzia) سور جواب (Rapidum)
• ونذكر في النهاية على الخطوط العسكرية : عين تيموشانت
(Albulas) (٢) حمام بوججر (Dracones) ، السيق (Tasaccura) ، غليزان
(Mina) للغة مغنية (Numerus Syrorum) ، تلمسان (Pomaria)

- مدن ميطانية الطنجية -

كانت الحياة تنحصر على الاخص في الموانى ، ونذكر منها :
♦ طنجة (Tingi) وهي العاصمة ومن اقدم مدن المغرب
كان فيها السكان من العصور النيوليتية او عصور الصوان ، وذكرها
حنون في رحلته سنة ٣٥٠ ق م .
♦ العرايش (Lixus) كانت مركزا فنيقيا ثم قرطاجيا ، ثم
مستعمرة امبريالية في عهد الرومان ، وبنى الالهالى بعد ذلك بلدة
تشميش فوق اطلال ليكسوس الرومانية . بها آثار قديمة منها السور
وقصر رومانى مزين بالفسيفساء ، ومقابر يونانية
♦ قصر فرعون او ويلي (Volubilis) ان هذا الاسم (ويلي)
بربرى الاصل ، وكان بذلك المكان سكان من العصر النيوليتي اختلط

(١) هي غير Horrae Caelia اي هرقله (Hergla) الموجودة قرب مدينة
سوسة بالبلاد التونسية .
(٢) كان العرب يسمون ذلك المكان (قصر ابن سنان) .

بهم فيما بعد العنصر البونيقي ، ثم صارت تلك المدينة دار اقامة للملك يوبا الثاني ، وبطليموس ثم للولاة الرومانيين ، وتوجد بها آثار رومانية كثيرة : سور بناء ماركوس اوريليوس طوله ٣٥٠ م . وهو مازال قائما ، به ثمانية ابواب واربعون حصنا ، قوس نصر قاراقالا ، ساحة الفوروم (القرن الاول) « معبد الكابتول (سنة ٢١٧) ، حمامات غالينيوس ، ديار رومانية فسيحة ، معاصر للزيت ، تحف فنية ذات قيمة عظيمة منها كلب من البرنز ورأس من المرمر

ونفهم من كل ما ذكرناه ان الحياة المادية كانت تجرى بافريقية المترمنة مثلما كانت تجرى برومة ، وكان هذا الترمين سطحيًا فقط (اذ بقى ابن البلاد افريقيا صميما) ويبدو في شكلين بارزين من اشكال التطور والرقي :

— شكل العيشة الرفيعة التي يعيشها الافريقى المتمول فى خيمته المنظمة حسب النظام الرومانى والنوق الرومانى ،

— شكل الحياة البلدية بالفوروم والحمامات والبنائيات الفخمة على نمط ما هو موجود برومة .

ولذلك نقول بان الافريقى قد « ترمين » ولكنه لم يترمن فقط فى حياته المادية واساليب عيشه ، بل ترمين ايضا فى شعوره ، وفى اخلاقه ، وذلك لانه صناع يشعر بفكرة التضامن ، والتنازر ، والتعاقد وصار يشعر بانه فرد من جماعة له مكانه وله رتبته فى الهيكل البلدى الذى هو عضو منه وجزء من اجزائه .

ونحن لا نقول بان فكرة الجماعة كانت مفقودة عند الافريقيين ، بل انها كانت موجودة ، ولكنها كانت تكتسب شكلا آخر ، شكل العصبية القبائلية ، شكل الشق ضد الشق ، والحزب ضد الحزب ، والصف ضد الصف ، وكانت « الجماعة » تعتبر وسيلة من وسائل الدفاع والمقاومة اكثر مما كانت تعتبر وسيلة من وسائل الحياة الاجتماعية . كانت تعتبر سلاحا للهجوم والفتك بالغير اكثر مما كانت تعتبر اداة عمل مشترك .

فقد ترمين الافريقى فى حياته المادية ، وقد ترمين فى شعوره واخلاقه وسنرى انه لم يترمن فحسب ، بل انه تلمن فى لغته ولهجته وتصبيره وتنصر فى معتقده ودينه ، انه ترمين ، وتلمن ، وتنصر ، ولكنه استمر ليبيا افريقيا صميما ، وهذا ما سنحاول بيانه . . .

الحياة العقلية والدينية

— الحياة العقلية

قبل مجيء الرومانيين الى افريقية كانت هناك لغتان مستعملتان : اللغة الليبية وهي لغة ابناء البلاد الاصلية ، واللغة البونيقية وهي لغة القرطاجيين التي لم تنحصر في منطقة نفوذ قرطاج ، بل انتشرت وعمت وصارت مستعملة حتى في نوميدية ومريطانية زمن استقلالهما

وفي مدة الاحتلال الروماني لم تضمحل اللغة الليبية واللغة البونيقية ، ولكن اصبحت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية المستعملة في المحاكم والمجالس ، والمذاكرات والمناقشات البلدية ، والمراسلات والمفاهيم الادارية ، واصبح كل فرد في غالب الاوقات مثنوى اللغة ، اى يتكلم بالليبية واللاتينية ، او بالبونيقية واللاتينية ، فكان يستعمل اللغة الليبية او البونيقية في حياته العائلية ، وفي علاقاته مع خدمه واقربائه وجيرانه ، ويستعمل اللغة اللاتينية في الامور الهامة والرسمية ، وشؤون الحياة العمومية .
والذى اعان على انتشار اللغة اللاتينية :

١ (الخطة العسكرية : اذ كان الجندي الافريقى يصير يحسن التكلم باللاتينية بطبيعة الحال بعد ما يفضى مدة طويلة في الجندية .

٢ (المدارس : غير ان الدولة كانت لا تتدخل في مسألة التعليم ونشره الا نادرا وبصورة استثنائية ، والبلديات هي التى كانت تهتم باعداد محلات التعليم ، واكتداب المعلمين ، ودفع رواتبهم واجورهم ، واذا كانت البلدية فقيرة او متقاعسة وغير مكثرثة بنشر الثقافة ، يتطوع احد الاغنياء او جماعة من الافراد بتأسيس مدرسة والقيام بشؤونها وتحمل نفقاتها .

ولم يكن التعليم الروماني مشتملا على درجات واضحة من ابتدائي وثانوى وعال ، واذا تكلمنا على جامعة او على كلية قرطاج ، فما ذلك الا مجرد قول وتعبير جرت به العادة لا اكثر ولا اقل . غير انه كان

هناك تدرج في التمارين حسب سن الطفل ومقدرته ومعلوماته ، فيقع
الابتداء بالقراءة والكتابة تحت جلد مقرعة المعلم (انظروا الصورة)



العقاب البدني عند الرومان

ثم يقع الانتقال الى تفسير نصوص الشعراء والمؤرخين ، تم التدريب
على الخطابة ، واللقاء ، والجدل . وان ارقى هذه التمارين واعلاها
درجة ، اى ما كان منها موجهها الى الطلبة المتقدمين فى السن والمعرفة ،
يتلقاه هؤلاء الطلبة بالمدن الكبرى مثل قرطاج وقرطبة حيث كانت
الحياة الفكرية مزدهرة ، والتنافس مستمرا ، والكتب موجودة بكثرة
... ولو انك تجد مدارس لا بأس بها حتى فى المدن الاخرى التى
هى اقل شانا ، فكنت ترى الاطفال ياتون من بعيد لمزاولة دروسهم
فى مدرسة ماداوروش (Madaure) المشهورة

وكانت كل مدينة تشجع ابناءها على التعليم وتحنهم عليه بجميع
الوسائل ، وتقيم الاحتفالات لتمجيد الناجحين منهم ، الذين اصبحوا
من النحاة البارزين او من فطاحل علماء البيان ، وكانوا ينتدبونهم
لمراتب الشرف ، ويقيمون لهم التماثيل ، ويسجلون ما احرزوا عليه
من نجاح مدرسى وفوز ادبى .

وان افريقية لم تبرز للوجود نبغاء محليين فقط ، بل انجبت اعلاما
ذاع صيتهم فى الدنيا باسرها ، لا فيما يتعلق بالادب النصرانى فقط
ذلك الادب الذى كان للافريقيين فيه مركز ممتاز ومكان مرموق ،
بل حتى فى الادب الوثنى ايضا ، وذلك ابتداء من القرن الثانى .
ويمكن ان نذكر من بين فحول الخطابة والبيان فى ذلك التاريخ ،
العالم النحيرى افرنطوس القسنطينى (le rhéteur Fronton)
المولود بقرطبة وكان استاذ الامبراطور ماركوس اوريليوس ، وقد
حصل على شهرة كبيرة وادرك فى ميدان الادب ما يمكن اعتباره المثل
الاعلى حسب فهم معاصريه ، واننا اذا وجدنا اليوم فى مؤلفاته شيئا

كثيرا من التكلف والتصنع والادعاء وفساد الذوق ، فانه يجب ان لا ننسى بان تلك النقائص كانت تعتبر فى عصره من الكمالات والمحاسن ، ولذلك كان افرنطوس يعد فى حياته فريده عصره ومن اكبر فناني زمانه . ونذكر ايضا الكاتب الروائى الشهير ابوليوس (Apulee) المولود بمدلوروش سنة ١٢٥ والذى كان معروفا بقريحته العجيبة ، ونبوغه النادر ، وولعه بالنظر الى الاشياء لمعرفة اسرارها ، وشغفه بكل فلسفة وبكل مذهب فى التصوف ، فقد كان فنانا رقيقا وخطيبا بليغا ، ذرب اللسان ، خصبا فى ايجاد الالفاظ وابتكار المعانى ، وهو مؤلف الرواية الفلسفية الحالدة (الحمار الذهبى)

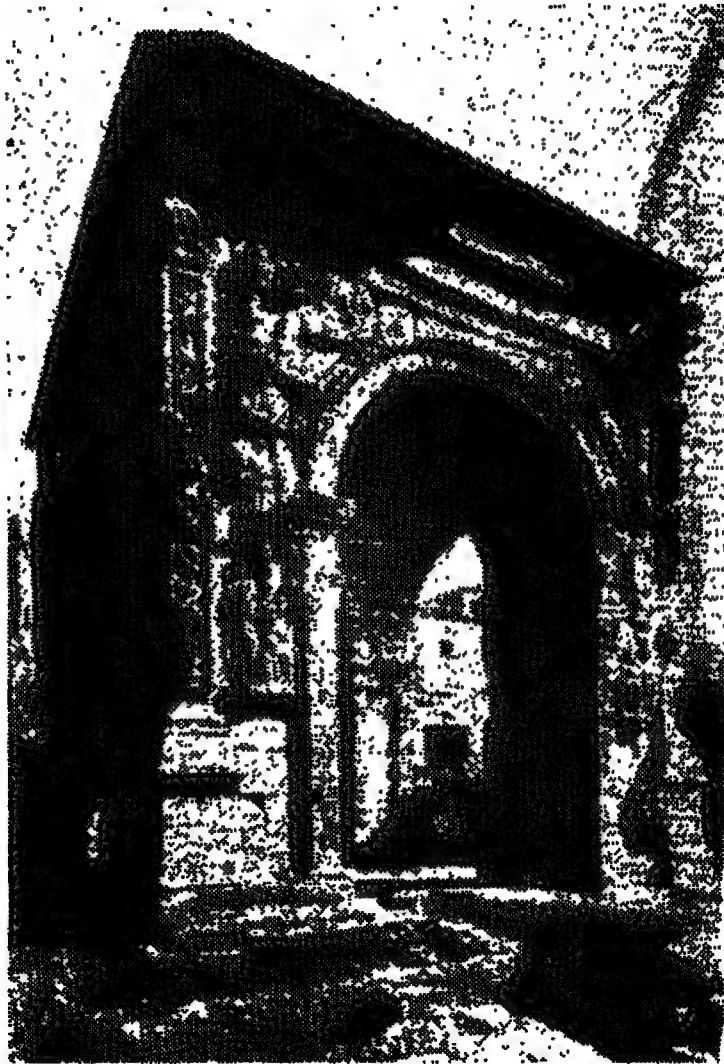
ومن هذا نفهم ان الافريقيين فى وسعهم وفى مقهورهم الوصول بسهولة الى ثقافة عالية ، وتحقيق احسن نموذجات فى العلوم الادبية والاقيان بالعجائب ، لكنهم عاجزون على ابداء مواهبهم والتعبير عن افكارهم ما داموا راكدين فى حدود لغتهم الخاصة ، وكابتين حواسهم ومنكمشين على انفسهم ، ولا بد لهم حينئذ من تلقى ثقافة اجنبية تكون لهم بمثابة الحميرة ، وعند ذلك تبرز مواهبهم الكامنة ، فهذا الملك هيامبسال لم يؤلف كتبه فى التاريخ باللغة الليبية بل الفها باللغة البونيقية ، ويوبا الثانى الف كتبه باللغة اليونانية او الرومانية فقبل مجيء الرومان كان عندنا ادب ليبي باللغة البونيقية ، وفى عهد الرومانيين وجد عندنا ادب ليبي باللغة اللاتينية ، وبعد الفتح الاسلامى صار عندنا ادب ليبي باللغة العربية ، وكذلك فى عهد الاستعمار الفرنسى ظهر عندنا ادب ليبي باللغة الفرنسية .

١- الحياة الدينية

لم يكتف الافريقيون باستعمال لغة الغالبين ، بل اخلوا عنهم ايضا معتقلهم ، ودانوا بدينهم ، وتمذهبوا بمذهبهم ، اذ ان الدين جزءا متعما للحضارة الرومانية .

غير ان كثيرا منهم كانوا محافظين على اعتقاداتهم القديمة من تقديس الجبال والعيون والمغاور والاشجار وعبادة الحيوانات وجميع قوات الطبيعة ، او كانوا منعكفين على عبادة الالهة القرطاجيين ، اى تانيت التى اصبحوا يسمونها سيلستيس او الالهة السماوية ، وبعل الذى صاروا يسمونه ساترنس المعروف بمنجله .

لوحة ٩٠
انظر الصفحة رقم ٣٤٩ من هذا الكتاب



طرابلس : قوس ماركوس اوريليوس ذو الواجهات الاربع

لوحة ٩١
انظر الصفحة رقم ٣٤٩ من هذا الكتاب



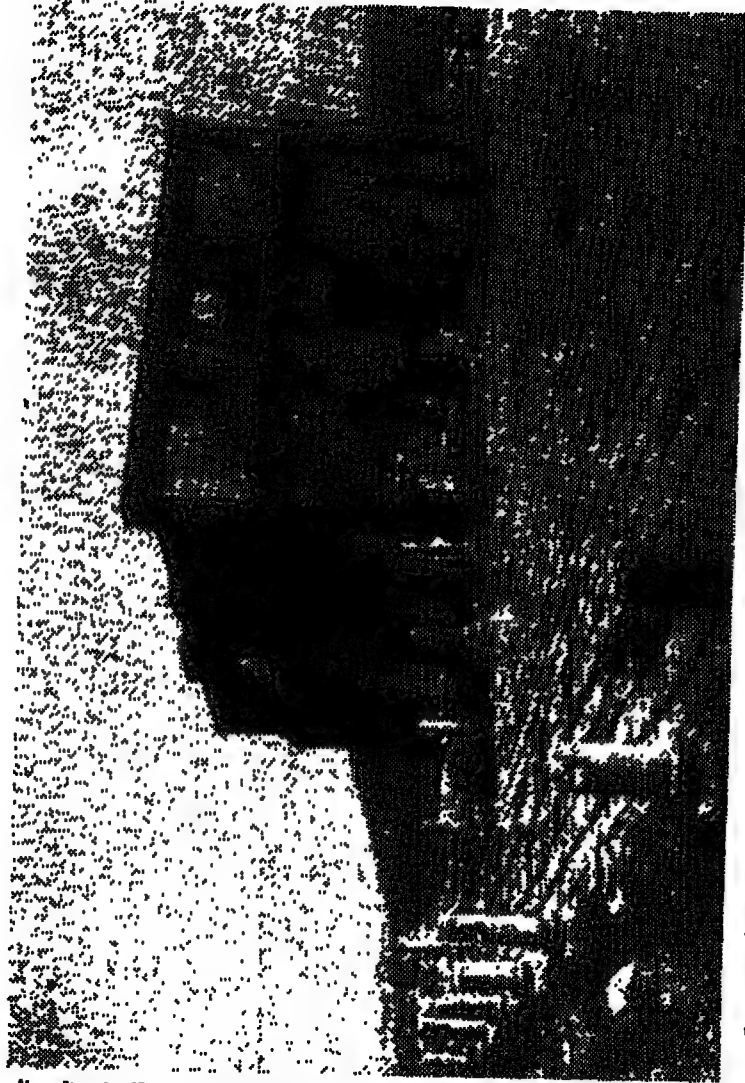
لبنة (طرابلس) : منظر عام لآثار المهنات الرومانية (على مساحة فلاة هكتارات)

لوحة ٩٢
انظر الصفحة رقم ٣٥٠ من هذا الكتاب



كينة (طرابلس) : اطلال كنيسة سالاروسية

لوحة ٩٣
انظر الصفحة رقم ٣١٧/٣٤٢/٣٥٥ من هذا الكتاب



مباز : « البريتوريوم » أو دار البريتور والقاتل الاعلى للجيش الرومانى (الواجهتان الشمالية والجنوبية)

مباز : « البريتوريوم » أو دار البريتور والقاتل الاعلى للجيش الرومانى
(الواجهتان الشمالية والجنوبية)

أما الطبقة الارستقراطية فهي نبذت في الغالب هذه المعتقدات القديمة وعوضتها بالهة الرومانيين وفي طليعتها البابلوث الكابتولي (la triade capitoline) : جبترو.جيتون ومينرفا ، ثم آلهة أخرى منها : مارس (Mars) اله المستعمرات العسكرية ، وهرمس (Mercure) اله التجارة والصناعة وعلى الأخص بأعبه الزيت ، وسيريس اله الحصاد ، وباخوس اله الخمر ، ونبتون اله الانهار والبحار ، واسكولاب اله المياه المعدنية الحارة ، وفينوس الإهة الجفال ٠٠٠ زد على ذلك عددا كبيرا من الآلهة الشرقية اى آلهة مصر وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العجم ، فكانت كل هذه الآلهة تعبد برومة وكذلك ايضا بافريقيا الشمالية ، ادخلها الموطفون الاجانب والجنود والتجار ، وهذا يدل على ان الدين برومة كان يحتاز بالتسامح وعدم النعصب ، وكان يقبل الاديان الأخرى (ما عدى المسيحية في اول الامر) وكان الرومانيون المثقفون يعتقدون ان جميع الاديان الخاصة ما هي الا اشكال مختلفة للدين العالمى ، وان إنباء الآلهة والآلهات ما هي الا تعيين اصل الهى وأحد متفرق فى العالم . وكان العوام من الشعب يعتقدون من جهة أخرى انه بقدر مايزداد عدد الآلهة التى يعبدونها ويقدسونها بقدر ما يضمنون لانفسهم حماة يحمونهم ويصرفون عنهم الشر والاذى ٠٠٠ فكان ذلك الموقف الفلسفى من طرف المثقفين ، وهذا الاعتقاد الخرافى من طرف البسطاء يؤيدان ويؤولان عحليا الى نتيجة واحدة وهى قبول الاديان المختلفة والترحيب بها كلها .

ولكن تقديس الامبراطور كان فوق كل عبادة ، وكان له المكان الاول ، وكان يمتاز بجواكبه الرائعة التى يهنرغ اليها الناس من كل فج ، ويقع فيها التطواف ، وتقدم الضحايا والفرايبين ، وتهينبها الاطعمة المقدسة وتنقلب المدينة الى حانة او خبارة ، وينهمك الناس فى الفساد والفحشاء والدعارة والفجور .

وفى ذلك التقديس اشارة للوقاء ، وميثاق للأخلاص ، وعهد للولاء نحو الامبراطور .

- الديانة اليهودية -

ان اليهود كانوا بدون شك رافقوا الفنيقيين فى سفراتهم الى الموانى والمصارف التجارية بافريقية ، وان تبشمت يهود فلسطين من

ايام الفرس جلب الى افريقية والى العالم الرومانى باسره عددا كبيرا من المهاجرين ، وقد وقع تقدير عدد اليهود المبشرين فى العالم فى القرن الاول من الميلاد بما يفوق ستة او سبعة ملايين ، منهم مليون بمصر ، وكان عددهم مرتفعا ايضا بطرابلس ، وكانوا يعيشون احرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم ، ويقومون بدعاية كبيرة تحت ظل بيعتهم ، وكان التبشير ضاربا اطنابه والوثنيون يعتقدون دين اليهود بكثرة ، تم انتشرت الديانة اليهودية فى بعض القبائل بالجنوب الغربى من البلاد التونسية .

— الديانة النصرانية —

لقد بدا التبشير بالانجيل حول بيع اليهود فى اول الامر ، بالمدن والموانى الساحلية ، وعلى الاخص بقرطاج ، ثم انتشر فى الحقول وفى داخل البلاد . ويمكن ان نقول بان النصرانية بدأت تظهر بافريقية فى آخر القرن الاول ، ولكنها لم تبرز حقيقة فى التاريخ الا فى آخر القرن الثانى . فان صبيحة تترليانوس المشهورة : « نحن لم نخلق الا البارحة ، ومع ذلك اصبحنا نملا كل مكان ! » هى من خطابه الذى القاه سنة ١٩٧ ، ومن ذلك نفهم ان المسيحية قد تقوت واشتد ساعدها على الاخص فى النصف الثانى من القرن الثانى ، ففى ذلك التاريخ اصبحت متمركزة فى البروقنصلية .

وكانت حياة المسيحيين الاولين بافريقية لا تختلف كثيرا عن حياة بقية النصراني المنبشرين فى مدن البحر المتوسط ، فكانوا يجتمعون بدار الاسقف (١) (l'évêque) للاصغاء الى تلاوة الانجيل وتفسيره ، وللصلاة جماعة ، ولتناول القربان المقدس ، وكان المطران (l'évêque) رئيس الجميع ، يساعده فى عمله القسوس (les presbytes) او الكهنة (les prêtres) ، والقارئ (le lector) وهو من درجة الكهنوت الصغرى والمكلف بحفظ الكتب المقدسة ، والشمامسة (les diacres) المكلفون بالنواحي المادية المتعلقة بالشعائر وهوما يسمى بالتشميس (l'office de diacre) وبقي النصراني مدة طويلة وهم يقيمون شعائر دينهم بدون معارضة او تقليق من طرف السلطة الرومانية التى كانت تتركهم

(١) الاسقف (l'évêque) : فوق القسيس ودون المطران ، وكثيرا ما تطلق هذه الكلمة على المطران ايضا (l'évêque)

وشانهم مثلما كانت تتسامح عادة مع الاديان الاخرى باختلاف انواعها ، فكانوا يجتمعون في محلهم الخاص ، ويقبضون معاليم الاشتراكات ، ويكسبون الاملاك والمتاع ، وكانت لهم مقابرهم الخاصة بهم والمنفصلة عن جبابين اليهود او مدافن الوثنيين، فكانت مقابرهم غير مسقفة ، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم ايضا في دهاليز تحت الارض كانوا يسمونها بالسرايب (cryptes) ثم الدياميس (catacombes) ، واشهرها الدياميس الموجودة بمدينة سوسة وفيها ما يزيد على عشرين الفا من قبور النصارى ، يرجع عهد اقدمها الى آخر القرن الثاني .

ويظهر ان في ذلك التاريخ تقريبا بدأت السلطة الرومانية في اتخاذ وسائل القسر والقهر ضد النصارى . فاول عملية من عمليات القمع كانت سنة ١٨٠ ، القى فيها القبض على اثني عشر نصرانيا حكم عليهم القنصل بالاعدام ، فضربت اعناقهم بقرطاج .

وبعد ذلك بثلاثة وعشرين سنة اي في سنة ٢٠٣ اتهم ستة اشخاص من سكان طبرية (Thuburbo Minus) . باعتناق المسيحية فعذبوا والقى بهم امام الحيوانات المفترسة بلعب قرطاج ، وان حجج استشهادهم التي اصبحت لها قيمة الوثائق التاريخية سجلت لنا اسماءهم :

- ١ - فيبيا بربتوة Vibia Perpetua (كانت ترضع ابنها)
- ٢ - فيليسييتاس Felicitas (كانت حاملا)
- ٣ - ريفو كاتوس Revocatus
- ٤ - ساتور نينوس Saturninus
- ٥ - سيكوندولوس Seccndulus
- ٦ - ساطوروس Satorus

وان بربتوه لم ترض بنيد دينها رغما عن جميع تضرعات افراد اهلها وتوسلاتهم .

غير ان نتيجة هذا القمع كانت عكس ما ارادته السطة الرومانية اذ تضاعف عدد المشايخ للنصرانية .

وفي عهد قارقالا سنة ٢١٦ ، تم في بداية عهد داسيوس (Decius) سنة ٢٤٩ حكم على عدد كبير من النصارى بالاعدام او بالنفي وفي تلك المدة (سنة ٢٥٣) انتشر الطاعون بقرطاج وفتك بالعباد

٢٥٩/٢٥٧ وفى صدرت اوامر الامبراطور فاليريانوس (Valerianus) ضد المسيحيين وعلى الاخص افراد هيئة الاكليرس (١) فوق الحكم على عدد كبير من المطارنة والاساقفة والقساوسة والشمامسة بالتفتى او بالسجن او بالاعدام ، وكان من بينهم القديس سيبريانوس (Saint Cyprien) مطران مدينة قرطاج ، وقع ابعاده اولا الى قرية ثم ضرب عنقه بقرطاج فى ١٤ سبتمبر ٢٥٨

٣٠٣ . ولكن الاضطهاد المبيد حقيقة هو الذى وقع فى سنتى ٣٠٤ و ٣٠٤ اثر الاوامر التى اصدرها ديوكليسيانوس (Diocletianus) والى تنص على وجوب تقديم الضحايا والقرايين للالوهة الرسمية من طرف جميع المسيحيين ، وعلى وجوب تهديم كنائسهم واتلاف كتبهم المقدسة واحراقها بالنار . واعدم بافريقية مئات من المسيحيين لامتناعهم من تقديم القرايين للقيصر والالهة ، وامتلل عدد كبير منهم فى المظاهر خوفا من التعذيب والقتل .

٣. الشيع والنحل النصرانية - اللونانوسية

قد ظهرت بالشرق شيع ونحل كثيرة من بداية المسيحية ، ثم انتشرت فى البلاد الافريقية وكونت لها انصارا واتباعا . ونذكر من بين هذه النحل :

- **المنطانوسية (Montanisme)** ابتدعها منطانوس الفريجي (Montanus) سنة ١٦٠ او ١٧٠ ، ويقول هذا المذهب باستمرار تدخل وتوسط روح القدس او البيرقليط (Paraclet) لاتمام الاسفار الالهية . وقد انتشرت هذه البدعة بافريقية وايطالية ، وتمذهب بها ترترليانوس سنة ٢٠٠ وصار من اشد المتعصبين لها والمدافعين عنها ثم انه اقلع عنها ونبذها بعد ذلك .

- **المارسيونية (Marcionisme)** ابتدعها الفيلسوف مارسيون (Marcion) من مدينة سينوب باسيا الصغرى (تركيا) . وتقول هذه البدعة بان العالم من صنع « الصانع » (le démiurge) او الاله العادل ويعارضه الاله الخير (بتشديد الياء) . فان الاله العادل او « الصانع »

(١) اكليرس (برفع الراء) Clergé : هم رجال الكنيسة les ecclésiastiques
مثل المطارنة (les évêques) ، والاساقفة (les presbytes) والقساوسة
(les diacres) والشمامسة .

هو الذى اصطفى بنى اسرائيل وكرمهم وميزهم على العالمين وانزل عليهم كتب العهد القديم (اى التوراة) ولكن انتهت قدرته بظهور الاله الخير الذى يتجسد فى يسوع المسيح ويمنح البشرية هبة الخلاص والفداء (Rédemption)

وقد كثر عدد المارسيونيين بايطالية وافريقية ومصر الى سنة ٢٥٠ تقريبا ثم اخذ فى النقصان شيئا فشيئا الى ان زال واضمحل تماما فى القرن العاشر .

- المانوسية (manichéisme) ابتدعها مانى (Manès ou Mani) الذى حاول من بلاد الفرس الجمع بين المسيحية والوثنية الشرقية ، وبنى مذهبه على الثنوية (le dualisme religieux) اى على وجود اثنين (dithéisme) او عنصرين اذليين : عنصر الخير المتمثل فى النور ، وعنصر الشر المتمثل فى الظلمات والمطابق للمادة . وقد نشبت حرب حامية الوطيس بين هذين العنصرين من اليوم الذى تأثرت فيه المادة باشعاع النور فارادت ان تصعد الى مستواه . وقد خلق اله الخير الانسان الاول (آدم) فتغلبت عليه قوى الظلمات وجبسته فى المادة . وان البشرية التى تولدت منه هى ايضا محبوسة فى المادة ولا يمكن لها الخلاص الا بالمعرفة الحقة . وان نشر هذه المعرفة الحقة بين البشر هو مشروع الخلاص والانتقاذ والفداء (Rédemption) الذى قام به يسوع المسيح .

وبعبارة اوضح فان مذهب مانى يعتبر ابليس صانع المادة والشر والكتب القديمة (التوراة) ويجعله معارضا للاله خالق الارواح والخير والكتب الجديدة (الانجيل)

وقد انتشرت المانوسية ايضا بافريقية وبنجوب ايطالية ، وانتسب اليها القديس اوغستينوس (سنة ٣٨٤) قبل توبته واهتدائه الى الله بفضل دعاء امه مونيقة (Sainte Monique) وابتهالاتها .

- الارىوسية (Arianisme) ابتدعها اريوس (Arius) المولود بالاسكندرية سنة ٢٨٠ والذى بدا فى نشر مذهبه سنة ٣٢٣ وهو مذهب الوجدانية الذى ينفى الوهية « كلمة الله » (le Verbe)

(١) تعتبر « كلمة الله » عند الكاثوليك الاقنوم الثانى (اى الشخص الثانى) من الثالوث الالهى (Sainte Trinité) وهذه الاقنوم الثلاثة التى تتركب منها الذات الالهية هى : الاب ، والابن او كلمة الله ، وروح القدس .

المجسدة في يسوع المسيح • فبينما كان اليسوع معتبرا في نظر الكاثوليكين الها ثانيا وابن الاله بوحدة الجوهر تجمعت فيه كل صفات الالهية ، يرى اريوس وانشياعه انه ليس باله خالد قدبر لا اول له ولا آخر •

ولم ينتشر هذا المذهب بكثرة بافريقية ولكنه سوف يصير المذهب الرسمي وسوف يفرض فرضا في عهد الونداليين •
- **الدوناتوسية (Donatisme)** وزعيمها في هذه المرة افريقي من بلادنا اسمه دوناتوس (Donatus) وان الدوناتوسية ظهرت بافريقية في بداية القرن الرابع اثر الاضطهاد الفضيع ضد المسيحيين واوامر ديوكليسيانوس (٣٠٣ / ٣٠٤) ، وقلنا ان عددا كبيرا من المسيحيين عذبوا وقتلوا ، وان عددا آخر امتثلوا لتلك الاوامر خوفا من التعذيب والقتل

وكان هناك من بين الشمامسة (les diacres) من فرطوا في الكتب المقدسة وسلموها للوثنيين يعثون بها ويحرقونها • فكانت الحملة الدوناتوسية موجهة ضد رجال الكنيسة الذين ضعفوا وهنوا ولم يشدوا ازر الشهداء ، ضد الشمامسة الذين سلموا الكتب الاواني المقدسة للوثنيين فخانوا الامانة وخانوا العهد (les traditeurs) ويرى الدوناتوسيون ، وعلى راسهم زعيمهم دوناتوس الاكبر ، ان هؤلاء الاشقياء ينبغي ابعادهم عن الكنيسة

وكانوا يتهمون منصور يوس (Mensurius) مطران قرطاج وقاسيليانوس احد شمامسته بمعاملتهم معاملة حلم ولين ورحمة • ولما مات منصور يوس وانتخب شماسه قاسيليانوس (Cécilien) مطران قرطاج وكان من اكبر المبغوضين لدى الدوناتوسيين ، قامت قيامة هؤلاء ولم يعترفوا بتسميته (سنة ٣١١) وانفصلوا حينئذ عن الكنيسة الحفنية واصبحوا من « المنشقين » او من « الخوارج » ، وصاروا يعلنون بان كنيستهم هي « كنيسة القديسين الاطهار » (l'Eglise des Saints) بخلاف كنيسة الكاثوليك فهي « كنيسة ابناء الاثم والخطية » (les fils des pêcheurs) واستمر هذا الصدد ، والانقسام في الكنيسة الافريقية طيلة القرن الرابع

وقد انكرت الدوناتوسية وحكمت ضدها مجامع كثيرة منها مجمع آزل (Concile d'Arles) سنة ٣١٤ • • • ولكن الذي ضربها الضربة

القاضية هو الاجتماع الرهيب الذى انعقد فى قرطاج سنة ٤١١ •
واستمرت الدوناتوسية رغم ذلك متكششة مجهولة الى الفتح الاسلامى
العربى •

والجدير بالملاحظة هو ان الدوناتوسية لم تكن مذهباً جديداً (doctrine)
ضد مذهب آخر ، او بدعة (hérésie) او نحلة (Secte)
مثلما رايناها فى المذاهب والبدع والنحل المتقدمة ، بل كانت مجرد
« خروج وانفصال وانسحاق » (un Schisme) عن الكنيسة
الكاثوليكية وعن رجالها الذين كانت تعتبرهم غير شرعيين ولا تعترف
بتسميتهم ولا باهليتهم •

ومن وراء هذه الحمية وهذه الحماسة الدينية كان يوجد فى النفوس
محرك آخر كامن منذ مدة طويلة يترقب الفرصة لينفجر ، وهذا المحرك
القوى هو بغض الطبقات الرومانية المحظوظة والارستقراطية ، ومقت
العناصر الاجنبية المستعمرة من الرومانيين ومن لف لفهم •

وقد انضمت الى الدوناتوسيين عصابات من اللصوص من نوع
« الفلاقة » كانوا يعرفون باسم « الدوارين » (Circoncillions) اى
الذين يدورون ويحومون حول البضائع (١) • فكانوا يبعثون الاغنياء
والسادات ، واذا صادفوا احدهم وهو راكب عربته ووراءه عبيده ،
فانهم ينزلونه ويأمرون عبيده بالركوب مكانه ويجبرون سيدهم على
العدو وراءهم على قدميه • وكانوا يفتخرون باعمالهم هذه ويقولون
بانهم اتوا لارجاع العدل الى نصابه ، ونشر المساواة على وجه الارض ،
ومناهضة كل حكم قائم فى البلاد على البغى والعدوان •

وكانت صيحتهم الداوية « لله الحمد ! » (Deo laudes) تستعمل
كاشارة للحريق والسلب والنهب والاغتيل ، وكان يسميها القديس

(١) هناك شبه كبير بين عصابات «الدوارين» (Circoncillions) والدوناتوسيين
(Donatistes) بافريقية من جهة ، وبين :

- عصابات « الباقوديين » (Bagaudes) او ثورة الفلاحة القرويين بغالية
الرومانية ، تلك الثورة المعاصرة والمائلة للدوناتوسية وكثيرة « الدوارين »
بافريقية ، وهى كانت ثورة موجهة ضد الاستيلاء الرومانى بغالية اى فرنسا القديمة
- وبمصابات « الجاكيوية » (Jacqueries) ، بفرنسا فى القرون الوسطى ، سنة . . .

١٣٥٨) ، وهى ثورة الفلاحة القرويين ضد النبلاء والاشراف •
- وبمصابات « مجدى المهاد » (les Anabaptistes) بالمانيا من سنة ١٥٢١ الى
سنة ١٥٤٠ تقريبا وهى ثورة المتصبيين من النصارى مع انضمامها الى ثورة الفلاحة
القرويين ايضا •

اوغستينوس «بوق المجازرة» (la trompette des massacres)
 قال دوناتوسية كانت فى الحقيقة ثورة اجتماعية. وفى الوقت نفسه
 حركة عصيان وتمرد ومقاومة فى سبيل التحرير ، وتعبئة عامة وتجند
 بالجملة ضد الامبراطورية ، ضد اللاتينية ، واصبحت حينئذ سلاحا
 قويا فى يد المقاومين النوميديين للتخلص من نير الاسعمار الاجنبى .
 وقد استمر الانشقاق حتى بعد موت دوناتوس سنة ٣٥٥ ،
 واستمرت نتائجها خصوصا من طرف القبائل الرحالة وسكان الجبال
 الذين لم يثأروا بالمدينة اللاتينية . . .

- القديس اوغستينوس (Saint Augustin)

ان التسيع والبدع والنحل الافريقية وجدت فى سبيلها اكبر معارض
 والد خصم واشد مهاجم فى شخص مطران عبرى فذ وهو القديس
 اوغستينوس الذى تمكن بفضل نبوغه ومقدرته وطول باعه فى ميادين
 المجادلة والخطابة والتحرير من بعث روح الحياة الجديدة فى الكنيسة
 الافريقية المتألما .

قد ولد اوريلوس اوغستينوس سنة ٣٥٤ (١) بسوق اهراس
 (Thagaste) وهى مدينة كانت تابعة للبروقنصلية فى ذلك التاريخ
 اى للبلاد التونسية ، وكان ابوه بطريقوس (Patricius) وننيا
 وكانت امه القديسة مونيقة (Sainte Monique) مسيحية من النساء
 الصالحات . وعاش اوغستينوس فى الوثنية وتعاطى اللعب واللهو
 والمجون مدة من الزمان ، ودرس البلاغة والفصاحة والبيان بمسقط
 راسه ثم بقرطاج ثم بميلانو بايطالية (سنة ٣٨٤) وكان اذ ذاك
 ينتسب الى المانوسية (manichéisme)

وكان رئيس الاساقفة (Archevêque) بتلك المدينة هو القديس
 امبرواز (Saint Ambroise) فكان لخطبه الوعظية وقع حسن واثر عميق
 فى نفس اوغستينوس . فاعجب بفصاحة الخطيب فى اول الامر ،
 ثم صار كلامه يأخذ بمجامع قلبه وكأنه يكشف عن نفسه غشاوة ،
 واصبح يشعر بميل وانجذاب نحو المذهب الكاتوليكي . وعند ذلك
 بدا باصلاح سلوكه وتهذيب حياته ، وبعد بليلة واضطرابات مؤلمة رجع
 الى الله واهتدى الى عقيدة امه القديسة مونيقة التى كانت تبكى بكاء
 مريرا بسبب ضلاله وغيه . وما كان اشد فرح تلك الوالدة المسكينة لما

(١) ومات اوغستينوس بعنابة سنة ٤٣٠ اثناء حصار الوندال .

لوحة ٩٤
انظر الصفحة رقم ٣٥٢ من هذا الكتاب



آثار كنيسة بالماق وما زال صندل الكنيسة قائما

LE K.P. Vestige d'une basilique chrétienne. L'église est détruite



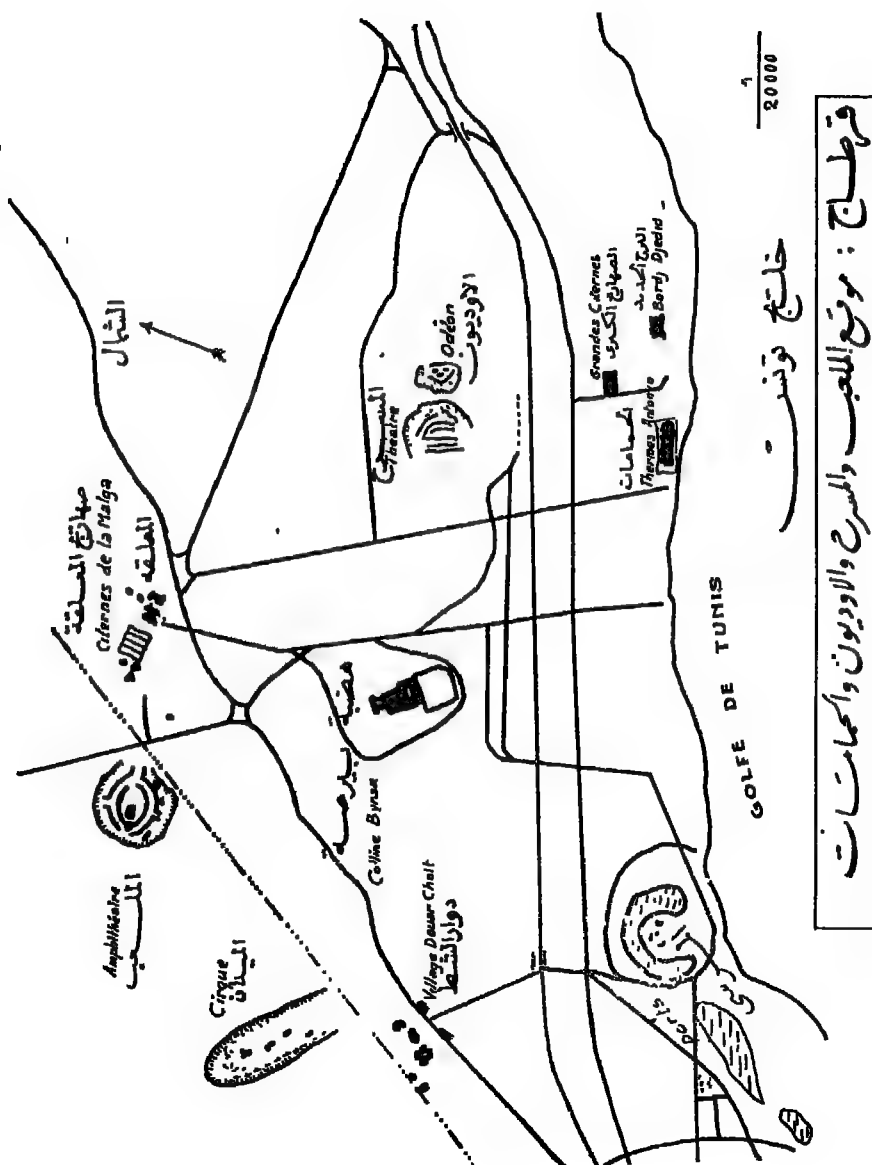
لوحة ٩٥
انظر الصفحة رقم ٣٥١ من هذا الكتاب

م



م

لوحة ٩٦
انظر الصفحة رقم ٣٤٦ / ٣٤٧ من هذا الكتاب



لوحة ٩٧
انظر الصفحة رقم ٣٧١ من هذا الكتاب



الامبراطور غرديانوس الاول الافريقى

قبل اوغستينوس المعمودية (١) من القديس امبرواز سنة ٣٨٧ وكان عمره اذ ذاك ٣٣ سنة ، ومن ذلك التاريخ كانت حياته كلها عبادة وتقوى وصلاحا وتبشيرا ، فتبرع بجميع ما يملكه من متاع الدنيا على الفقراء والمساكين ، ورقاه اسقف عناية الى درجة القسوس سنة ٣٩١ رغما عن امتناعه ، ثم اتخذه معاونا له سنة ٣٩٦ ، وبعد ذلك بمدة قليلة خلفه على الكرسي الاسقفي بمدينة عناية ، فكان كثيرا ما يزور صديقه الاسقف اوريليانوس (Aurélien) جنليق (٢) قرطاج

واشتهر القديس اوغستينوس بنشاطه وبالمجهودات الجبارة التي كان يبذلها لارجاع وحدة الكنيسة بمقاومة النحل والشيع وجميع اسباب الانقسام وعلى الاخص الدوناتوسية ، وهو الذي تسبب في عقد مجمع قرطاج سنة ٤١١ حضره مئات من الاساقفة الكاثوليك والدوناتوسيين وانتهى باتفاق وقع اثباته في دستور ٣٠ جانفي ٤١٢ وينص هذا الدستور على وجوب رجوع المنشقين في حجر الكنيسة والا يقع الحكم عليهم بمصادرة املاكهم وبالتعذيب والجلد والنفي ، وقد سجل من ذلك التاريخ رجوع عدد كبير من المنشقين القاطنين بالبروقنصلية الى حضيرة الكاثوليكية . ولكن استمرت بالولايات الاخرى اعشاش كثيرة من هؤلاء الخوارج يدبرون مقاومة خفية عنيدة متواصلة ضد السلطة الاجنبية المحتلة انتهت بتفويض اركانها وبانهيار الحكم الروماني ببلادنا الافريقية

(١) المعمودية (baptême) : اول اسرار الدين المسيحي وباب النهرانية، وهي الفصل بالماء باسم الاب والابن وروح القدس ، ويقع ذلك في بيت العماد من الكنيسة (le baptistère) ، ويقال : عمده فتعمد اي غسله بماء المعمودية .
(٢) الجنليق (Primat) : هو متقدم الاساقفة

✍

نهاية الحكم الرومانى بافريقية

ان افريقية التى ريناها حتى الآن هى افريقية القرن الاول والقرن الثانى وبداية القرن الثالث ، وهى فى ايام خيرها وازدهارها ونظامها وسلمها ، وهى المتشعبة بالثقافة الرومانية والحضارة الرومانية ، وهى التى وصلت عن طريق احد ابنائها وهو سبتيموس سافاروس المولود بلبدة طرابلس الى رئاسة الامبراطورية باسرها .

ونريد الآن ان نعرف كيف تفككت عزها ، وان ننظر فى الاسباب التى جعلت الطابع الرومانى ينطمس ويندثر بدون ان يترك وراءه . انرا مع انه كان يبدو فى الظاهر قويا متينا نابتا .

١) الاسباب الدينية : قد ذكرنا ، لما تحدثنا عن المسيحية بافريقية ، ان بوادر التشويش وعلائم التفكك بدأت تظهر من نهاية القرن الثانى لما تكاثرت الكنائس واصبحت تصادم الاضطهادات ، وخصوصا لما انشق الزعيم الدينى الافريقى (دوناتوس) وكون حزبا عتيدا من الحوارج لمناهضة الحكم الاجنبى فى البلاد .

وان الدين المسيحى اتى بافكار انسانية جديدة تدعو الى الاخوة والعدل والمساواة ، فلم يبق بعد ذلك مجال لطغيان الاباطرة الرومانيين ولتآلههم وحمل الناس على تقديسهم . فنزلوا من عليائهم واصبحوا فى صف البشر . . .

٢ - الاسباب السياسية : ومن جهة اخرى فان الجنود هم الذين صاروا يعينون ويسمون القياصرة ، ويولون ويعزلون ، وفى الغالب يقتلون ويعدمون المتزاحمين حسب مشيئتهم وارادتهم . وبما ان الجنود لا يتفقون على راي واحد ، فان السلطة صارت تفتك بالحرب والسلاح . مثال ذلك :

لما عينت الفرقة العسكرية بايليريا (Pylrie) سبتيموس سافاروس امبراطورا (سنة ١٩٣) عينت فى الوقت نفسه فرقة سوريا امبراطورا آخر ، وعينت فرقة بريطانيا امبراطورا ثالثا ، وعينت فرقة اخرى امبراطور رابعا . . . فسار سبتيموس سافاروس الى رومة وحارب

جميع مزاحميه ، ضرب عنق الاول سنة ١٩٤ ، وتغلب على الثاني سنة ١٩٧ ، واستمر كذلك الى ان فضى عليهم جميعا ، وقضى على اتباعهم وانصارهم بالقتل والنفي . . .

واصبح الامبراطور اسيرا في قبضة عساكره مضطرا الى استمالتهم واغرائهم بالمال خوفا من شرهم ، حتى ان سبتيموس سافاروس كان ينصح ابنه قارقالا بقوله : « مول جنودك واسخر من الباقي ! »

وان نظاما سياسيا لا يركز على دستور بل يركز على رغبات الجنود يؤول لا محالة الى الفوضى والانحيار .

وقد نشبت نورات وفتن لما عينت الفرقة العسكرية بمدينة الجيم غورديانوس امبراطورا مع ابنه غورديانوس الثاني وذلك سنة ٢٣٥ بعد اغتيال اسكندر سافاروس وصادقت رومة عليهما ، غير ان فرقا اخرى اختارت ماكسيموس وهو قاتل ولى نعمته اسكندر سافاروس (اتق شر من احسنت اليه !) وفي آخر الامر وقع قتلهم جميعا من طرف جنودهم ! كما قتل من اتوا بعدهم !

وكان ذلك التاريخ (اى سنة ٢٣٥) بداية عصر الاضطرابات والفنن والفوضى العسكرية والاغتيالات فى كامل انحاء العالم الرومانى واستمر ذلك الى سنة ٢٨٥ اى دامت هذه الفوضى مدة خمسين سنة وهى تعرف فى التاريخ باسم الفوضى العسكرية *Panarchie militaire*

وفى عهد غالينوس *Galienus* (سنة ٢٥٤) صارت كل فرقة عسكريه فى كل ولاية رومانية تنادى بامبراطورها الخاص ، وبلغ عدد الجبابرة الذين كانوا يتزاحمون ويتشاجرون على الكراسى نحو الثلاثين وكانوا كلهم يتتابعون ويتعاقبون وسط الحروب المدنية والتهديم والتخريب ، ولذلك صارت تلك المدة تعرف فى التاريخ بمدة الثلاثين طاغية *(la période des Trente Tyrans)*

٣ - **الاسباب الاقتصادية :** ان الازمة الاقتصادية زادت فى الطين بلة ، فقد قل الذهب بعد آل سافاروس ايضا ، فنسب ذلك فى قلة ضرب السكة اى فى قلة النقود ، وفى ضعف نسبة الذهب الداخلى فى عمليه الامتزاج ، فقد انحطت تلك النسبة فى ايام غالينوس الى خمسة فى المائة ، وصارت تلك السكة عبارة عن مجرد معدن نقدي لقيمة له فى ذاته ، شبه الاوراق المالية . وكذلك ارتفعت اسعار المعيشة ارتفاعا فاحشا ، وصارت الضرائب تدفع عينا لا نقدا ،

ولا يخفى ما فى ذلك من صعوبات ونفقات تثقل كاهل الميزانية وتنقص من مواردها ، زيادة عما فى ذلك من تقهقر ورجوع الى الوراء ، وحتى الموظفين والجنود فانهم صاروا يتقاضون اجورهم ورواتبهم عينا ، وصارت الدولة تلتجئ غالبا الى تسخير ارزاق الناس ومصادرة املاكهم .

وبالجملة فقد كان النظام الاقتصادى على غاية من الفساد والتدهور والفوضى .

٤ - **الاسباب الاجتماعية :** كان المجتمع بافريقية خاليا من كل انسجام وتماسك وتلاحم . فانك كنت ترى المعمر الرومانى (واحيانا الافريقى المترمن) يتمتع بثروة طائلة ، ويتنعم فى ضيعته بجميع اصناف الحيرات وانواع الملذات ، وكنت ترى العبيد وهم يثنون ويتالمون ولا يرجعون ، وكان نصيبهم التعب والشقاء والحربان ، وكنت ترى بالجلال المجاورة عددا كبيرا من ابناء البلاد يطلون ويشرفون من بعيد على تلك الاراضى الخصبة ، والمروج الخضراء ، والضيايع المزدهرة ، وهم يعلمون انها كانت لهم ولائهم واجدادهم ، ولكنها افترقت وانتزعت منهم ، واصبح يتمتع بها الاجنبى المفتصب ياكل ثمارها ويعيش تحت ظلالها ، وهم ينظرون ويموتون حسرة ولوعة واسى ، وفى صدرهم بركان يتاجج من السخط والغضب .

فلهذه الاسباب كلها من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، انهار النفوذ الرومانى ، وبقدر ما يكون السمو والعظمة يكون السقوط والانحطاط ، تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وكان ابناء البلاد فوق الجبال يترصدون الفرص لطرد العدو من ارضهم ومن ديارهم ، وكانت الاسباب التى ذكرناها تعتبر ظروفًا مناسبة لاندلاع الثورات التحريرية ولانبعاث الكفاح القومى .

الثورات التحريرية : لقد جدت فى الثلثين الاخيرين من القرن الثالث حوادث خطيرة لم تعرفها ولم تعهدها الاجيال السابقة .

فان الحركات التمردية بدأت تظهر بافريقية بعد اسكندر سافاروس اى سنة ٢٣٥ ، ولم تنته قط من ذلك التاريخ .

فقد شاركت افريقية فى جميع الثورات والحروب والاضطرابات مدة « الفوضى العسكرية » التى دامت خمسين سنة كما ذكرناه (٢٣٥ / ٢٨٥) . واى شئ يفيد الحركات التحريرية احسن من الفوضى والفتن والاضطرابات عند المستعمر نفسه ؟

وكانت عناصر التشويش (بالنسبة للرومان طبعاً !) تتركب من :
 - القبائل التي لم يجد الترمين اليها سبيلاً ، وهي القبائل
 المتمردة ، القاطنة في الادغال وفي الجبال ، مثل اوراس وجه القبائل ،
 او المقيمة بالتخوم الجنوبية الصحراوية ،
 - المنتسقين عن الكنيسة الكاثوليكية ، اي الدوناتوسيين الذين
 تعللوا بالانقسام الديني واتخذوه ذريعة لتكوين الهرج والتشويش ،
 فكانت حركتهم في حقيقة الامر كفاحاً قومياً تحت غطاء المذاهب
 والخصومات الدينية

- عصابات « الدوازين » او « الفلاقة » كما نسميهم اليوم ، وهم
 جماعات الفقراء والبؤساء والمساكين الذين اصبحوا ناقلين عن المجتمع
 يريدون السقي من الاغنياء والانتقام للضعفاء والمظلومين
 - الافريقيين المترمين الذين كانوا يشعرون بكفائهم وبقدرتهم
 على تسيير الامور بانفسهم ، ويريدون التخلص من النفوذ الاجنبى ،
 وكان زعمائهم وقادتهم ينطلقون الى الحكم الذاتى والاستقلال .
 والآن فلنستعرض هذه النورات التحريرية استعراضاً سريعاً :

من ٢٥٣ الى ٢٦٢ : ثورات بنوميديية ومريطانية دامت عشر
 سنوات .

بدات هذه الاقلاقل بتمرد قبائل البابار (Bavares) القاطنة
 بمرتفعات بابور بين سكيكدة وفسنطينة ، تحت قيادة اربعة من
 زعماء النوميديين اتحدوا في كفاحهم مع « قبائل الحلف الحماسى »
 (les Quinquégentiens) ، وهي خمس قبائل متحالفة تسمى
 اليوم (بالقبائل les Kabyles) وتقيم بالجهة الكائنة بين بجاية
 شرفا ومدينة دلس غربا وجينال جرجورة جنوبا والبحر المتوسط
 شمالا . وانضم اليهم القائد (فاراكسن) مع جنوده الابطال القادمين
 من مرتفعات بلعباس . وزحف هؤلاء المتحالفون بكليتهم على نوميديية
 وغزوا اراضيها واخذوا معهم عددا كبيرا من الاسرى . حتى ان
 القديس سيبريانوس كان مضطرا الى جمع مبلغ كبير من المال
 لافتداء النصارى وعلى الاخص العذارى اللاتي كان يخاف عليهن
 من الاعتصاب .
 واستمرت الثورات والمعارك متواصلة في سور الغزلان (٢٥٥) ،

ولاموريسيار (٢٥٧) ، وفى آخر حدود مريطانية الشرقية حيث قتل فاراكسن (٢٥٩) ٠٠٠ ولم تخدم نار الفتنة الا فى سنة ٢٦٢

من ٢٨٩ الى ٢٩٨ : ثورات اخرى بالقبائل دامت ايضا عشر سنوات •

كانت هذه الاضطرابات اشد واقوى من التى تقدمتها ، فهى قد امتدت بالجنوب الى جبال الحضنة ، وهدم الثوار سور جوباب (Rapidum) ، وكادوا يحتلون مدينة بجاية (Saldæ) •

وقد وقع كل ذلك فى عهد القيصر الرومانى ديوكليسيانوس Dioclétien (٣٠٥ / ٢٨٤) • وان هذا الامبراطور قد شعر بانه عاجز بمفرده عن اخماد نار الفتنة المشتعلة بجميع انحاء العالم الرومانى ، فغير نظام الحكم برومة وجعله مقسما على اربعة قياصرة او اباطرة ، وهو ما يسمى « بالرابوعية » (la tétrarchie) وكان احد هؤلاء القياصرة يسمى ماكسيميانوس (Maximien) ويلقب بهرقل (Hercule) فقدم الى افريقية ليقود بنفسه حملة اضطهادية ضد قبائل الحلف الحماسى •••

٢٩٨ - ٣٠٥ : اصلاحات ديوكليسيانوس

فى آخر القرن الثالث (اى من سنة ٢٩٨) وفى بداية القرن الرابع كان الحكم برومة فى يد امبراطورين عرفا بقوة العزيمة والمقدرة على تسيير شؤون الدولة ، وهما :

- ديوكليسيانوس (Dioclétien) : من ٢٨٤ الى ٣٠٥

- قسطنطين الاكبر (Constantin) : من ٣٠٦ الى ٣٣٧

فاما الاول وهو ديوكليسيانوس ، فقد غير نظام الحكم كما ذكرناه وجعله يركز على « الرابوع » وهو ايضا قد قسم افريقية الشمالية الى عدة ولايات صغيرة لتسهيل ادارتها من جهة وللتنقيص من سلطة الولاة من جهة اخرى حتى يكون فى مامن من طمعهم وطموحهم ••• فان الولايات كانت اربع ، وهى :

(١) البروقنصلية ، وعاصمتها قرطاج

- ٢ (ولاية نوميديا ، وعاصمتها لمباز
٣ (ولاية مريطانيا القيصرية وعاصمتها قيصارية (شرشال)
٤ (ولاية مريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة
فأصبح عددها ثمانية ، وهي :

- ١ (ولاية زغوان (Zeugitane)او البروقنصلية
باتم معنى الكلمة ، وعاصمتها قرطاج
٢ (ولاية مزاق (Byzacène) وعاصمتها سوسة
٣ (ولاية طرابلس (Tripolitaine) وعاصمتها
لبدة
١ - البروقنصلية

- ٤ (ولاية نوميديا الشمالية، وعاصمتها قرطبة
٥ (ولاية نوميديا العسكرية ، وعاصمتها لمباز
٢ - ولاية نوميديا

- ٦ (ولاية مريطانيا الاسطيفية ، وعاصمتها
اسطيف
٧ (ولاية مريطانيا القيصرية ، وعاصمتها
قيصارية (شرشال)
٣ - ولاية مريطانيا
القيصرية

- ٨ (ولاية مريطانيا الطنجية ، وعاصمتها طنجة
٤ - ولاية مريطانيا
الطنجية

وقد وقع فصل الولاية الاخيرة (وهي مريطانيا الطنجية) عن
بقية افريقية وربطها والحاقها بولايات اسبانية . والسبب في
ذلك هو ان ممر تازة ، وهو الممر الوحيد للذهاب من مريطانيا القيصرية
الى مريطانيا الطنجية اصبح صعب المسلك في آخر القرن الثالث
بالنسبة للجنود الرومانية ، وصار الاتصال بين مريطانيا الطنجية
وبقية العالم الروماني ممكنا فقط بواسطة مضيق جبل طارق ، وصار
المغرب الاقصى عبارة عن (راس جسر) بالنسبة لولايات اسبانية

اما الثانى ، وهو قسطنطين الاكبر ، فهو لما تسلم زمام الحكم برومة (١) ضم نوميديا العسكرية الى نوميديا الشمالية ، فاصبحتا ولاية واحدة عاصمتها مدينة قرطبة التى سماها باسمه فصارت من ذلك التاريخ تعرف بمدينة قسطنطينة او قسنطينة (٢) وهو الذى اصدر امر ميلانو Edit de Milan (سنة ٣١٣) فمنح الناس حرية الدين والمعتقد ووضع بذلك حدا لاضطهاد النصارى ، خصوصا وقد اعتنق هو ايضا الدين المسيحى فيما بعد .

غير ان الحالة لم تتحسن بذلك فى افريقية بل ازدادت تعكرا ، اذ ان الفتن والاضطهاد والاعتداءات قد زالت بين الونيين والمسيحيين ولكنها انفجرت فى صفوف النصارى انفسهم ، وذلك بانتشار النحل والشيع الكثيرة ، وعلى الاخص بظهور الدوناتوسية ، ثم بتحالف الدوناتوسيين القائمين على الكاثوليك مع « الدوارين » الثائرين على المجتمع .

٣١١ - الدوناتوسيون (Les Donatistes)

كنا تحدثنا عن الدوناتوسية وقلنا انها كانت فى البداية والاصل انشفاقا وخروجا عن الكاثوليكين لانهم اظهروا الضعف والجبن ، وخانوا الرسالة ، وسلموا الكتب المقدسة الى الونيين . وقد وقع

(١) لما تغل ديو كليسيانوس وكذلك زميله ماكسيميانوس عن الحكم باختيارهما سنة ٣٠٥ انتهل اسكندر البانوى (L. Domicius Alexander) نائيب افريقية تلك المناسبة وحمل جنوده على تسميته امبراطورا . فسار اليه ماكسنسيوس (Maxence) وهو ابن الامبراطور ماكسيميانوس المستقل الذى كان قدم الى افريقيا وحارب « حلف القبائل الخمسة » قلنا ان ماكسنسيوس سار الى اسكندر وحاصره فى مدينة قرطبة الى ان تغلب عليه وقتله ، وبعد السلب والنهب خرب المدينة وهدمها ، وعاث فى البلاد فسادا بالتقتيل والنهب والتخريب فخلف بذلك ذكرا سيئا فى نفوس الافريقيين .

ولما عاد الى رومة وتصادم مع قسطنطين الاكبر ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت بانهزام ماكسنسيوس وموته غرقا فى نهر التيبر ، نزل قسطنطين جثته من الماء ، وقطع راسه ، وارسله لقرطاج كتخلة تسر القلوب ، اذ هو راس ذلك الرجل الذى كان الافريقيون يبغضونه ويلعنونه .

ثم ان قسطنطين اعاد بناء مدينة قرطبة وسماها باسمه (قسنطينة) (٢) وكذلك لما انتقل فيما بعد الى مدينة بيزنطة (Byzance) وجعلها عاصمة امپراطوريته مكان رومة سماها باسمه فصارت تعرف بقسطنطينوبل (عاصمة البيزنطيين) ثم اسطنبول (تركيا) .

هذا الانقسام اثر الانتخابات الاسقفية التي دارت بقرطة سنة ٣٠٥ ،
وخصوصا اثر الانتخابات التي اجريت بقرطاج سنة ٣١١ ، والتي
اسفرت عن تسمية قاسيليانوس (Cassilianus) اسقفا بقرطاج ،
وهو الرجل المبغوض من الشعب ، والمتهم بتشتيت شمل المتظاهرين
وجلدتهم بالسياط لما تجمهروا امام سجن الشهداء اثر اضطهادات
ديوكليسيانوس المشهورة (٣٠٣ / ٣٠٤) ، والمتهم ايضا بتجريح
النصارى الذين سجنوا لتجاهرهم بالايان المسيحى ، فهو حينئذ
يعتبر من اكبر الخونة .

وكانت نتيجة هذا الانشقاق وجود اسقف كاثوليكي وكنيسة
كاثوليكية ، واسقف دوناتوسى وكنيسة دوناتوسية فى كل مكان ،
وكانت الفتنة والاعتداءات مستمرة بين الفريقين .
وكان فى صف الدوناتوسيين رجال شدداء اقوياء يزرعون الرعب
والفرع فى القلوب ، وهم عصابات « الدوارين »

- « الدوارون » (Les Circoncillions) -

كان هؤلاء الناثرون فى بداية الامر يقومون بحركتهم التمردية
والثورية خارج صفوف الدوناتوسيين ، بل كان الدوناتوسيون
يستنكرون اعمالهم .
لكن لما صارت الكنيسة الكاثوليكية تعتمد على الحكومة ، وكانت
السلطة تناصرها وتشد ازرها ، اضطر الدوناتوسيون بدورهم الى
التضامن مع عصابات « الدوارين » وآلت المسالة فى النهاية الى تحالف
الكنيسة مع الدولة من جهة ، وتحالف الدوناتوسية مع عصابات
(الدوارين) من جهة اخرى

٣٧٢ - ٣٧٥ : تمرد الامير (فيرموس)

ثم جدد حوادث اخرى اذ مات الزعيم الدينى دوناتوس الاكبر
سنة ٣٥٥ ، وخلفه (بارمينيانوس)

• وفى سنة ٣٧٢ ثار الامير فيرموس (Firmus) وهو ابن
احد رؤساء او ملوك « القبائل المتحالفة » واتار قبائل جرجورة ، وضم
اليه الدوناتوسيين ، وعصابات (الدوارين) واخذ يقود الحركة ويوقد
نار الفتنة فى كافة انحاء مريطانية ، والتف حوله جم غفير من
المقاومين وجعلوه ملكا عليهم .

فاستولى فيرموس على قيصارية (شرشال) واحرقها ، وكذلك استولى على مدينة الجزائر (Icosium) وانتصر على الرومانيين في معارك كثيرة .

ولتدارك هذا الامر، وتلافى هذه الحالة عين الامبراطور فالنتينيانوس (Valentinien) قائده تيودوز (Théodose) لمحاربة الناصر فيرموس . فكان احسن واقطع سلاح استعمله تيودوز للتغلب على عدوه والظفر به هو ما يمكن ان نسميه اليوم « بمصلحة الاستعلامات » (Intelligence Service) او بعبارة اخرى « صندوق دنائير » الرنانه او « الفرسان الذهبية » (la Cavalerie de Saint Georges)

فهو قد اوجد وكون ضد فيرموس مزاحمين ومنافسين من بين ضباطه وحاشيته وافراد اهله وعشيرته ، واوقد نار الحسد في قلب اخيه جيلدون .

ولما احس الملك والزعيم فيرموس بالغدر والخيانة ، وشعر بانه سيقع تسليمه حيا الى عدوه ، اختار الانتحار خنقا ، فلم يحمل الى عدوه القائد الروماني تيودوز الا وهو جثة هامدة لاجراك فيها (سنة ٣٧٥)

- جيلدون (Gildon) اما جيلدون الذي دبر المكيدة ضد اخيه فيرموس ، واوعز بها الى القائد الروماني تيودوز ، فهو قد جنى ثمرة غدرة وخيائنه ، فاستدعته حكومة رومة الى العاصمة الإيطالية سنة ٣٨٦ ، وقلدته منصب كونت افريقية (Comte d'Afrique) على راس الولاية العسكرية واصبح قائدا اعلى لاركان الحرب ورئيسا للجند الروماني ، واختار له اسما رومانيا اقتداء باخيه فيرموس ، وسمى نفسه (ليسسيوس كيتوس جيلدونيكوس) ، وجمع ثروة طائلة ، واستمر في اخلاصه المتناهي وولائه لرومة مدة ما يزيد عن عشر سنوات ، ثم انقلب ضدها دفعة واحدة (سنة ٣٩٦) واشعل نار الفتنة من جديد ، وقاد ثورة ملتبهة ضد المحتلين . فاستعانت عليه رومة باخيه الآخر (مقزيل) ، وكانت نهاية جيلدون (او جيلدونيكوس) مثل نهاية اخيه فيرموس تماما : اي الانتحار . . . ولكن بعد الغدر والعار .

(١) الفرسان الذهبية (او فرسان سان جورج) : في الاصل كناية عن نقود انقلترة لان صورة الملك سان جورج فوق فرسه كانت منقوشة على قطع النقود الذهبية الانقلتزية ، وكثيرا ما كانت انقلترة تستعمل في حروبها بدل هذه الفرسان من المال مكان الفرسان من الرجال

وقد كونت مصادرة املاكه وامواله لحزينة الدولة ارباحا باهضة وجسيمة جدا ، حتى ان الحكومة كانت مضطرة الى انشاء مصلحة خاصة لتصفية الحسابات وضبط التركة (Comes patrimonii Gildoniaci)

- مقزيل (Mascezel)

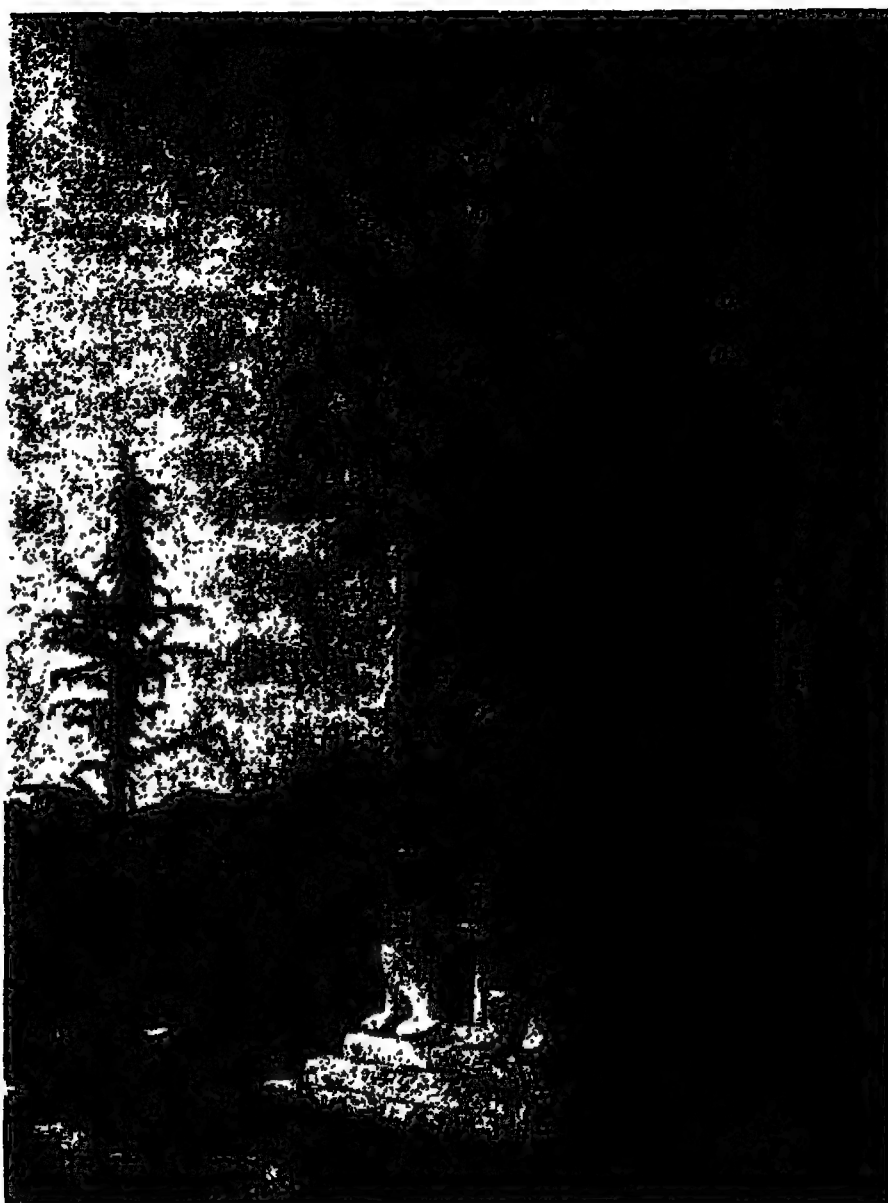
اما مقزيل فقد وقع استدعاؤه الى رومة مثلما كان وقع استدعاء اخيه جيلدون من قبل ، ولكن حكومة رومة في هذه المرة اودت به في داهية ولم يعرف احد كيف تلاشى وخسفت به الارض .

ونفهم من هذا ان القوات الاجنبية ، في كثير من المواقف والظروف لا يمكن لها ان تتغلب على الزعماء من ابناء البلاد الا بمساعدة واعانة ابناء البلاد انفسهم : فانه لم يقع التغلب على ماطوس الا باعانة نارواس ، ولم يقع التغلب على سيفاكس وحنبعل الا بمساعدة ماسنيسا ، ولم يقع التغلب على يوغرطة الا بمساعدة بوخوس ، ولم يقع التغلب على فيرموس الا بمساعدة جيلدون ، ولم يقع التغلب على جيلدون الا بمساعدة مقزيل ، وهلم جرا . . . ويمكن الاتيان بامثلة كثيرة ، وكثيرة جدا من هذا النوع . وان في ذلك لموعظة وعبرة لمن يعتبر !

ويقول المؤرخ المحقق الاستاذ ح . ح . عبد الوهاب : « كانت نتيجة هذه القلاقل اختلال امور الرومان بمستعمراتهم وضعف نفوذ حكاهم ، حتى ان احد ولااتهم على افريقية وهو الكونت (بونيفاس) انف من البقاء على الطاعة لوحشة جرت بينه وبين بعض رجال رومة ، فسق عصا الطاعة في وجه الحكومة سنة ٤٢٧ ، واستنجد (بالوندال) المتغلبين اذ ذاك على اسبانية . فكان قدومهم الضربة القاضية على ملك الرومان بافريقية »

وقد استولى الوندال على افريقية في عامين (سنة ٤٢٩ وسنة ٤٣٠) من مضيق جبل طارق الى ما بعد عنابة ، وفي سنة ٤٣٩ اخذوا قرطاج .

وان سنة ٤٣٠ تعتبر في آن واحد تاريخ نهاية الحكم الروماني بافريقية الشمالية ، وتاريخ نهاية الترمين .



- اطلال رومانية بالقصرين -

ضريح كبير ذو ثلاث طبقات يضم رفات فلافيوس الثاني والفراد عائلته ، كما
يوجد عل بعد كيلومتر ونصف ضريح آخر تهدم اكثره ، فسميت هذه المدينة
باسم هاذين الضريحين او (القصرين)

افريقيا الشمالية في عهد الوندال



فسيفساء وجدت بقرطاج تمثل ونداليا على فرسه وهو خارج من منزله
(متحف لندن) British Museum

استيلاء الوندال

(من ٤٣٠ الى ٥٣٤ : اى قرنا كاملا)

٤٧٧ - ٤٣٠ :	1 Genséric	١ - جنسريق
٤٨٤ - ٤٧٧ :	2 Hunéric	٢ - حنياريق
٤٩٦ - ٤٨٤ :	3 Gunthamund	٣ - غاثاموند
٥٢٣ - ٤٩٦ :	4 Thrasamund	٤ - ثاساموند
٥٣٠ - ٥٢٣ :	5 Hildéric	٥ - حلداريق
٥٣٤ - ٥٣٠ :	6 Gélimer	٦ - جلمار

الوندال : هم اقوام من اصل جرمانى زحفوا هاجمين على غالبية (فرنسا) ثم على اسبانية ، فخلفوا فيها اسمهم (وندالوسية = اندلوسية = اندلس) ثم دخلوا ارض افريقية سنة ٤٢٩ وعدددهم ثمانون الفا ، منهم عشرون الف مقاتل ، تحت قيادة ملكهم جنسريق جنسريق (Genséric) او على الاصح (جيز ريش) كان عمره اذ ذاك ما يقرب من ثلاثين عاما ، وكان قصير القامة ، به عرج بسبب سقوطه مرة من اعلى فرسه ، وكان يجمع بين الشجاعة والفروسية ، وبين الدهاء والحيلة والمقدرة الدبلوماسية ، الامر الذى ادهش وحير العقول فى ذلك التاريخ .

الاستيلاء على افريقية : حاصر جنسريق مدينة (هيبو او بونه) عنابه ، وقد مات القديس اوغستينوس اثناء ذلك الحصار (سنة ٤٣٠) . تم استولى جنسريق ورجاله على نوميدية .

وفى سنة ٤٣٥ ابرمت معاهدة صلح بين الرومان والوندال ، اعترف الرومانيون فيها لاعدائهم بحق الاستقرار بنوميدية مطمئنين غير ان جنسريق لم يكن يعتبر تلك المعاهدة الا كهدنة تمكنه من الاستعداد لمواصلة هجوماته . وفعلا تراه فى سنة ٤٣٩ يحاصر مدينة قرطاج ويستولى عليها بدون ان يصادف مقاومة .

ثم وقع عقد صلح آخر سنة ٤٤٢ ، لكن جنسريق لم يحترمه ايضا بل استعمله كوسيلة لتنفيذ خطته وللوصول الى غايته .

فتوحات الوندال : لم يفز الوندال عند حد افريقية بل جهزوا جنودا كثيرة غالبها من النوميديين واستولوا على طرابلس ، وعلى جزر البحر الابيض المتوسط ، وهجموا على ايطالية ، واحتلوا مدينة رومة سنة ٤٥٥ ، ونهبوها نهبا منظما مدة خمسة عشر يوما ، ثم رجعوا الى قرطاج غانمين ظافرين ، ومعهم كثير من السبايا والاسرى ومن جعلتهم الامبراطورة نفسها وابنتاها .

ومات جنسريق سنة ٤٧٧ تاركا لابنائيه امبراطورية عظيمة شاسعة

سياسة الوندال بافريقية

— قد افنك الوندال جميع الاراضي والضيعات والمزارع الحصبة ، والبنائيات الضخمة التي كانت للدولة الرومانية لو بيد الاغنياء والطبقة الارستقراطية من الرومانيين ، واقتسموها بينهم ، وجعلوا يستغلونها مع اعفائهم من دفع الضرائب التي كانت تثقل كاهل ابناء البلاد وحدهم — سوجد هدم الوندال ما خلفه الرومان من حصون وقلاع واسوار خشية من ان يستعملها الثوار والمتمردون من الافريقيين كمكامن يلتجئون اليها

— وكان الوندال متمسكين بمذهب مسيحي يسمى (الاروسية) مغاير لمذهب الكاثوليك الذي تتبعه كنيسة رومة ، ولذلك كانوا يضطهدون رجال الدين الكاثوليكى بافريقية ، ويقبضون على رهبانهم ، ويصادرون اموالهم ، ويهدمون كنائسهم .

— اما معاملتهم لابناء البلاد فقد كانت فى الغالب لينة ، فيها شيء من اللطف والمجاملة ، الامر الذى استمال قلوبهم ، واحيى فى نفوسهم الشعور بالكرامة وبالعزة القومية .

القبائل والممالك الافريقية فى عهد الوندال : (انظر الخريطة رقم ٩٨)

ان القوات العظيمة التى كان يعتمد عليها الملك جنسريق هى العصابات المسلحة والمتمردة من الافريقيين ، التى جعلها فى قبضته وصار يتصرف فيها حسب ارادته ورغبته ، وذلك بتشريكها فى

اعمال القرصنة واللصوصية ، فهو قد مكن هؤلاء الشجعان من السواحل الاوروبية على البحر المتوسط يشنون الغارة عليها وينهبون كما يشاؤون . وكان يقع النزول في السفن ، وقسمة الاسلاب والغنائم بمدينة قرطاج بمحضر جنسريق وتحت نظره ومراقبته ، وبهذه الطريقة امن شرهم وجعلهم تحت امره ونهيه

وقد التجا العرب فيما بعد الى نفس هذه الحيلة لابعاد عناصر الهرج والهيجان لما سيروهم لفتح اسبانية او لفتح صقلية .

وكذلك في العهد البونيقي فان حنبعل استعمل نفس هذه الوسيلة وهذا التدبير لما اخذ معه الفرسان النوميديين لغزو ايطاليا ، او لما كلف الجنود بغراسة الزياتين بالساحل . . .

فهي حينئذ طريقة معروفة ، جرى بها العمل مرات كثيرة بافريقية ولكنها لا تخلو من الخطر اذا طال استعمالها . فهي قد كانت ناجحة ومفيدة بالنسبة لجنسريق ما دامت القرصنة موجودة وما دامت الغنائم تجمع وتكدس ثم تقسم . ولكن بمجرد ما انتهت تلك القرصنة الوندالية انعكست الوضعية تماما ، واصبح هؤلاء البدويون يشبعون نهمهم ، ويرضون غريزتهم الحربية ، ويشفون غلتهم التمردية في البلاد نفسها ، لعدم وجود ما يغذيها في الخارج . وعند ذلك ، فقط انهيار النظام الروماني ، وفي ذلك الوقت اعلنت قبائل اوراس استقلالها وتجردها عن سلطة الوندال ، وكان ذلك بعد موت جنسريق (سنة ٤٧٧) وقبل موت ابنه حنياريق (سنة ٤٨٤)

تم ما لبثت القبائل الاوراسية بعد تورطها وعلان استقلالها ان نزلت من الجبال الى السهول المجاورة ، ودمرت وخربت بعض المدن الرومانية مثل تيمقاد (Thamugadi) وباغاي (Bagai) واستولت على الجهات الحصبة الكائنة غربي اوراس والمتاخمة لمملكة الحضنة . وكانت قبائل اوراس تخضع للملك اسمه (يوضاس) حسبما اورده

المؤرخ بروكوبس ، ويسميه المؤرخون المتأخرون مثل كاركويسنو (يابيداس) (١)

وكانت هناك قبائل او ممالك أخرى مثل مملكة النمامشة شرقي اوراس ، ومملكة الحضنة غربها وكان ملكها يسمى (ارتاياس) ، ومملكة آلطاوة (٢) وصافار جنوب وهران كان ملكها يسمى (مازونة) ، ومملكة أخرى جنوب شرشال وكان ملكها يسمى ماستيناس .

ويمكن ان نقول بان الجموع الصاخبة والمتمردة من الدوناتوسيين ومن عصابات « الدوارين » قد اصبحت الآن تحت نفوذ ملوك منهم ، وبعبارة أخرى فان الحكم الديكتاتوري كان النهاية الطبيعية التي انتهت اليها الفوضى . فان الشيء الذي ظهر ونشأ من جديد بنوميديا قبل اى شيء آخر هو القبيلة النوميديا القديمة الخاضعة لحكم امير او اقليد ، على الشكل الذي عرفناه قبل الاستيلاء الروماني ، منذ خمسة قرون ، اى فى ايام ماسنيسا وسيفاكس . ومن غير شك ان هذا الشكل من النظام السياسى هو الذى كان يوافق ويناسب مقتضيات الطبيعة والارض والمناخ وعقلية الشعب ، فعاد ذلك الشكل الى اصله بمجرد اضمحلال النفوذ الروماني ، وحلت افريقية الليبية (او البربرية) محل افريقية الرومانية . ومن السهل ان نعرف تاريخ ذلك التعويض بالضبط ، فهو قد تم بعد موت الملك جنسريق الذى كان بسياسته ودهائه يلهى القبائل البدوية الرحالة ويشغلهم بالقرصنة والغزوات واللصوصية خارج البلاد ، وبهذه الطريقة صدهم عن القضاء على الحياة الرومانية ، ووقى هذه الحياة الرومانية من التلاشى والاضمحلال .

(١) وهذا الملك (يوضاس) هو الذى اغار ايضا على السهول النوميديا الشمالية سنة ٥٣٥ (اى فى عهد البيزنطيين) ووصل بقبائله الى جنوب قسنطينة ، واخذ يكتسح البلاد ويغرب ويدمر ويقهر السكان ويقودهم للأسر ، وشرع القائد البيزنطى صولومون فى مقاومته ومطاردته الى ان انتصر عليه سنة ٥٣٩ ، ولكنه لم يكن انتصارا نهائيا لان القلوم الافريقى معروف فى الدنيا بأسرها بكونه ينكمش ردها من الزمن حتى تمر العاصلة ، وحتى يتقوى من جديد ، ثم يعود الى الميدان مرة أخرى ، فهو يبدو خصمه كأنه مات ولكنه يرجع حيا . . . وهكذا رجع الملك يوضاس الى الثورة والكفاح من جديد سنة ٥٤٦ ، وسنرى قبائل اوراس مستمرة فى المقاومة ضد العرب تحت قيادة كسيطة ثم الكاهنة . . . وهى مازالت الى يومنا هذا تقاوم وتكافح ونشاطها فى الوقت الحاضر موجه ضد الاستعمار الفرنسى الغاشم (٢) آلطاوة (Altava) : وهى الآن مدينة لاموريسياراو حجر الروم قرب تلمسان شرقا

ولما مات جنسريق خلفه ابنه حنياريق ، غير انه كان شرسا احمق ، سخيف العقل ، قليل الذكاء والفهم ، فلم يستمر فى سياسة ابيه ، ففقدت افريقية فى ايامه طابعها الرومانى ورجعت الى شكلها الليبى او النوميدى الذى كانت عليه قبل مجيء الرومان .

وهناك اكتشاف اترى ليس يبعد يؤيد تماذى الحياة الرومانية الى آخر القرن الخامس ، فان البيرتينى (M. Albertini) كان قدم فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٨ الى مجمع الخطوط والرسوم ، مجموعة من الواح خشبية (٤٥ لوحة) كتبت عليها نصوص بالحبر ، وقع العثور عليها بالحدود التونسية الجزائرية على بعد مائة كيلو متر تقريبا جنوب تبسة ، وخمسة وستين كيلو مترا غربى قفصة .

وان البيرتينى قد توصل الى قراءة تلك النصوص ، فهى كلها عقد بيع ، تتعلق عقدة منها ببيع معصرة ، وتعلق العقد الاخرى ببيع ضيعات للزراعة . وليس العقار نفسه هو الذى كان يشمل البيع ، بل الاستغلال فقط اى الحق فى الزراعة .

وان جميع هذه اللوحات كانت مؤرخة تتراوح تواريخها بين ٤٩٣ و ٤٩٦ اى بعد موت جنسريق بعشرين عاما ، او بعبارة اخرى ، فى عهد الملك (غاثاموند) الذى خلف عمه (حنياريق) فى الحكم سنة ٤٨٤ . (انظر اللوحة رقم ٩٩)

والشئ الوحيد الذى يدل فى هذه اللوحات على وجود الوندال هو اسم الملك لا غير .

ونفهم من ذلك ان الافريقيين المترمين ، وهم السواد الاعظم من السكان ، قد استمروا يعيشون فى عهد ملوك الوندال مثلما كانوا يعيشون فى ايام الرومان . وينبغى حينئذ ان لا نتأثر بالاشاعات الكاذبة التى روجها رجال الكنيسة الكاثوليكية لما دنسوا اسم الوندال والصقوا به معنى التوحش والتهديم والتخريب .

فان جنسريق قد ضرب حقيقة افراد الارستقراطية الرومانية صربة قاسية سواء كانوا من العوام او رجال الدين ، لكنه لم يمس الفلاح بسوء ، لان الفلاح هو الاساس الذى يركز عليه الازدهار الاقتصادى ويتوفر به المدخول الجبائى . ولكن الشئ الذى كان ينقص هؤلاء الفلاحين هو حمايتهم من غارات وهجمات العصابات المسلحة والقبائل الرحالة .

وقد تكاثرت هذه الفارات وهذه الهجومات في عهد الملك (غاثاموند)
تكانرا مهولا ، وعلى الاخص بجهة مزاق (وهى التى نسميها اليوم
بجهة الساحل بالبلاد التونسية) وبالجهة التى وجدت فيها هذه
الالواح المكتوبة . فان هذه الجهات كلها قد دمرت وخربت ووقع
الفتك بسكانها والاعتداء على اهلها من طرف هؤلاء القبائل ، حتى
اضطر الكثير منهم الى الهروب والبحث عن ملجأ آخر ، ومن غير شك
ان صاحب هذه الالواح كان من جملة من نجوا بانفسهم ولاذوا بالفرار

ويقول (البرتيني) بان الضيعات والمزارع المباعة كانت معينة
بكل دقة فوق تلك الالواح ، فهى مبينة باسمائها (المكان المسمى
كذا ٠٠٠) ومعرفة بعدد اشجارها (وهى فى الغالب اشجار التين
والزيتون) ومحددة بجيرانها مع سرد اسمائهم حسب ترتيب الجهات
الاربع . وكثيرا ما كان يرد ذكر قنوات الري او المنحدرات لوصف
تلك الحدود .

فما لا شك فيه انها كانت تتعلق بمزارع وقع مسحها ، وتسجيلها
وسقيها ، وزراعتها بكل عناية واهتمام .

ويقول (البرتيني) بان وجود اطلال المؤسسات الرومانية ، وآثار
المعاصر للزيت ، وبقايا حيطان صغيرة لسد مجرى السيول ، ان كل
ذلك يدل دلالة قطعية على ان تلك النواحي كان بها سكان مستقرون
يعتنون بخدمتها وزراعتها ، وانها كانت عامرة ومزدهرة .

اما الآن فان تلك الربوع صارت خرابا ، فهى اراضى قبيلة
« اولاد سيدي عبيد » ، تلك القبيلة التى تشقها الحدود التونسية
الجزائرية وتقسمها الى شطرين بدون ادنى مبرر ولا وجه معقول .
وان اولاد سيدي عبيد من فقراء اهل البادية يعيشون فى الفاقة
والاحتياج فوق ارض بور ، اشجارها قليلة نادرة ، وماؤها مفقود ،
ورمال اوديتها ناشفة

وان هذا الفرق الكبير وهذا التضاد بين الحاضر وآثار الماضى لا
يوجد فقط بارض اولاد سيدي عبيد ، بل كذلك بكامل الجهة القبليّة
بالبلاد التونسية ، بجنوب وادى مجردة .

فسباسب الحلفاء الموجودة الآن هناك ، حيث ترعى الاغنام تحت
حراسة الرعاة ، كلها ملآنة بالآثار الرومانية المنتشرة هنا وهناك
والتي تشهد بوجود فلاحة قديمة وحياة استقرار .

ومن غير شك ان ائتلاف تلك الربوع لم يكن نتيجة تغيير في الطقس او في المناخ ، بل كان حدثا بقريرا ، اى ناشئا عن تخريب البشر . ومما يؤيد ذلك انه كلما وقع الاعتناء بجهة من تلك الجهات المتاخلة الا ودبت فيها الحياة من جديد ، وعادت خصبة ومزدهرة مثلما كانت في الماضي ، وهو ما رايناه مثلا حول مدينة صفاقس . فمن الممكن حينئذ احياء تلك الاراضى من جديد باتباع سياسة فلاحية متواصلة ، وتنسيق جميع المجهودات ، وانشاء المشاريع الكبرى للرى ، وتوطيد الامن ، وضمان المستقبل ، وانشاء حياة قارة مرتكزة على دعائم واسس متينة . وقد كانت كل هذه الشروط متوفرة في عهد الامبراطورية الرومانية ، ولكنها زالت بزوالها ، فاحتلت السباسب مكانها القديم ورجعت الى اصلها الاول .

وان ائتلاف هذه الاراضى الجنوبية لم يقع دفعه واحدة وفي يوم واحد ، بل تم في مدة طويلة ، وان النواح (البرتيينى) تؤيد لنا بانه بدا في مدة الملك الوندالي الثالث (غاثاموند)

ظهور القبائل الجمالة

(اذا نزل الشقاء بارض قوم تراكت المصائب والهموم)
ففى نفس الوقت الذى ترك فيه الوندال ارض افريقية للأفريقيين ، جد حادث على غاية من الخطورة والاهمية غير وجه افريقية تماما ، وهو ان عناصر الهرج والتشويش اتصلوا بنجدة هائلة مريعة ، الا وهى القبائل الجمالة الكبرى من « اهل الوبر والبادية »

وقبل ذلك التاريخ لم يكن الجمل معروفا بالبلاد التونسية ، ولم يحدثنا عنه احد من المؤرخين ، بل كانوا كلهم يذكرون الافراس النوميديّة المشهورة ، والافياء الافريقية التي كانت تستعملها قرطاج في حروبها ، وتأخذ منها العاج لتجاريتها ، ولم يرو لنا احد وجود الجمال في الحروب البونيقية ، او في حروب يوغرطة . . . ولذلك يمكن اعتبار عدم وجود الجمل في افريقية العتيقة امرا ثابتا لا جدال فيه

فالجمال عربى الاصل ، كان يعيش في بلاد العرب ، وكان موجودا في آسيا . ويظهر ان اول من ساعد على تربيته وانتشاره بافريقية هو الامبراطور سبتيموس سافاروس ، فهو افريقى من مدينة لبدّة (Leptis Magna) بطرابلس ، ولا يجهل احد فائدة الجمال

« سفائن انصحراء » لازدهار الافتصاد بطرابلس . فان مسالة توطين الجمال كانت حيوية بالنسبة الى تلك الجهة التي كان يحيطها الامبراطور بعطفه ورعايته ، ويشملها بضروب عنايته ، والننى كان يركز اقتصادها على قوافل الصحراء والاتصال المستمر بغدامس والغرامانت والعزاز والجهات الممتدة الى وراء الصحراء .
ولما ظهر الوندال بافريقية كانت تربية الجمال فى كامل اقبالها وازدهارها بطرابلس .

وبدا استعمال الجمل فى الحرب لاول مرة فى معركة مشهورة دارت بين (ناساموند) الذى تولى الحكم بعد اخيه (غاثاموند) من سنة ٤٩٦ الى سنة ٥٢٣ ، وبين امير افريقى على عابه من الذكاء والنشاط يعرف باسم (قابايون) ، وقد دارت هذه المعركة فى مكان بين فابس وطرابلس ، والشئ الجدير بالذكر والاعتبار فى هذه المعركة هو دور الجمال فى الحرب ، وهو ما وصفه بكل دقة المؤرخ بروكوبس (Procopé) فقد قال :

ان جنود (قابايون) كانوا ينتظرون اعداءهم فى معسكر مستدير لم يكن جداره سدا من التراب ، بل كان خطا دفاعيا حيا من الجمال ، وكان خطا دفاعيا مستمرا ، متلاحما ، فى عمق اتنى عشر بعيرا . وفى داخل الدائرة وقع حشد النسوة والاطفال ، والشيوخ ، والقبيلة باجمعها ، مع المؤن والذخائر ، والاموال ، والحيايم ، والامتعة . اما المقاتلون فقد توزعوا على محيط الدائرة بين الجمال ، ويكفيهم انقاء نظرة الى ورائهم ليعلموا ان المعركة هى مسألة حياة او موت لا بالنسبة اليهم فقط ، بل بالنسبة الى الجميع ، وبالنسبة الى كل شئ عزيز لديهم ، فليس هناك امل فى الفرار ، او شئ وسط بين اللاحق والانتصار .

ويقول بروكوبس بان الجيش الوندالى لا يحسن حرب المشاة والقتال على الاقدام ، بل كان الونداليون فرسان خيل سلاحهم السيف والرمح وفنهم الحربى الحملة الشديدة او الكر . ولكنهم لا يعرفون كيف تكون الحملة على سور من الجمال ، وقد حاولوا الكر والهجوم مرات ، ولكن افراسهم كانت تخاف من منظر الجمال ومن رغائها فتعود على اعقابها ، وكان الافريقيون يرشقونهم ببابل من النبال ، وهم فى مخابثهم بين الجمال ، واخيرا انهزم جنود الوندال وتفرقوا

شذر مذر ، واقتفى (قابايون) اثرهم برجاله وافنوههم عن آخرهم
وقد وصف لنا بروكوبس معركة اخرى من هذا النوع دارت بين
قبيلة من الجمالة والجيش البيزنطى الذى كان يقوده صولومون
وان المؤرخ الكبير العلامة ابن خلدون الذى كان يكتب فى القرن
الرابع عشر وصف ايضا هذا النوع من التكتيك الحربى وسماه
« بالمجودة » او الصف • فهو يقول :

« ومن مذاهب اهل الكر والفر فى الحروب ضرب من المصاف
وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجا
للخيالة فى كرمهم وفرهم يطلبون به نبات المقاتلة ليكون ادم
للحرب واقرب الى القلب • وقد يفعله اهل الزحف ايضا
ليزيدهم ثباتا وشدة • فقد كان الفرس وهم من اهل الزحف
يتخذون القيلة فى الحروب ويحملون عليها ابراجا من الخشب
امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها
وراءهم فى حومة الحرب كانها حصون فتقوى بذلك نفوسهم
ويزداد ونوقهم •
واما اهل الكر والفر من العرب واكثر الامم البدوية الرحالة
فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذى يحمل طعائهم فيكون فئة
لهم ويسمونهم المجودة ، وليس امة من الامم الا وهى تفعل ذلك
فى حروبها وتراه اوثق فى الجولة وآمن من الغرة والهزيمة • »

ولقد كان المقاومون والثوار فى آخر مدة الاستيلاء الرومانى مثل
فيرموس وجيلدون ومن معهما من الرجال ، لقد كانوا كلهم قبائل
جبلية ، وكانوا يزرعون الرعب فى القلوب وهم فى جبالهم لا يبتعدون
عنها كثيرا ، وكانوا يخالطون ويعاشرون الرومان منذ قرون طويلة ،
وكانوا دوناتوسيين ، اى مسيحيين على كل حال ، ولذلك كان من
الممكن التفاهم معهم لايجاد حل يضمن التعايش ، واليكم مثلا لذلك :
ففى مدة الاستيلاء الوندالى كان يوجد ، بالجهة الغربية من مريطانية
القيصرية ، ملك من الملوك المريطانيين يسمى (مازونة) اسس مملكة
بجهة (صافار) قرب لاموريسيار وشانزى ، بناحية وهران ، وهذا
الامير مازونة يلقب « بملك المغاربة والرومان » (Roi des Maures
et des Romains) وهذا يدل على امكانية التعايش بين العنصرين ،
والتفكير فى استخدام العنصر الاجنبى والاستفادة منه لا فى ابادته ومحقه •

لكن القبائل الجمالة التي ظهرت فى عهد الوندال قادمة من الصحراء كانت قبائل بدوية رحالة ، تحمل فى نفسها بغضا غريزيا نحو اهل القرار ، واصحاب المزارع والديار ، فلا يمكن بتاتا ان يحصل اى وفاق او تفاهم بين « اهل الوبر » و « اهل الحضر »

وقد ظهر هذا العنصر الكبير من عناصر الفساد والتتويش والتهديم فى مدة الوندال ، وفى الحين شرع فى التخريب والتدمير واهلك الحرث والنسل .

ففى مدة الملك (حلداريق) ، وهو قبل الاخير ، انتصر الامير (انطلاس بن غنغان) على جيوش الوندال والحق بهم خسائر جسيمة ، وكانت جنود هذا الملك من قبائل الفراشيش (Frexes) وهى قبائل جبلية ، وانضم اليهم قبائل لواتة (Lewate) وهى قبائل جمالة معروفة بطرابلس . . .

وان الجهة التى اضحت فريستهم ، وتسلمت عليها شهواتهم ، وعانوا فيها فسادا هى جهة مزاق (Byzacène) اى جهة الساحل فهى اصبحت باكملها فى حوزهم وتحت تصرفهم ، وقد خربوا جهة رصفة (Ruspae) وهى بلدة كائنة ازاء جبنيانة على ساحل البحر ، وكانت فى ذلك التاريخ مركز الاسقف فلغنس (١) فهلموها وقتل الاسقف فلغنس سنة ٥٣٣ واستمروا يكتسحون البلاد ، ويفتكون بالعباد ، ويسلبون وينهبون ، ويدمرون . . . حتى خلت الديار من اهلها ، وفر غالب السكان الى بيزنطة ولم تسلم من التخريب الا مدينة سوسة (Hadrumète) وسلقطة قرب المهديّة (Sullectum)

(١) القديس فلغنس (Saint Fulgence) : اسقف بلدة رصفة (Ruspae) ازاء جبنيانة على شاطئ البحر ، ولد بنبات (Thélepte) اى المدينة القديمة سنة ٤٦٨ ومات برصفة سنة ٥٣٣ . وكان فى بداية الامر جابى الخراج والضرائب ، ثم صار راهبا واعتكف بدير فى نواحي لا تالبت) ، ثم خرج هائما على وجهه (سنة ٤٩٧) اثر غارة قامت بها بعض القبائل البدوية ، والتجأ الى سيكالفيريا (الكاف) حيث اعتزم الإقامة والاعتكاف ، لكن فطن بوجوده قسيس اريوسى فقبض عليه واذاقه من العذاب الوانا ، فبارح الكاف والتحق بمكانه الاول مغبرا جوار القبائل المغاربة على قساوة الاريوسيين ، ثم انه ذهب الى رومة سنة ٥٠٠ ، ثم وقع انتخابه رغم ابدائه اسقفا برصفة سنة ٥٠٧ ، ثم نظاه الملك ثيوداموند الى سردينية ، لسم ارجعه الملك حلداريق سنة ٥٢٣ الى رصفة ، ومات بها سنة ٥٢٣ .

وكان اكبر خصم واشد مهاجم للاريوسيين ، ولذلك كان يلقب بالهستينوس زمانه

وان الملك (جلمار) وهو آخر ملوك الوندال لم يكن بقرطاج لما نزل (بليشار) بافريقية على راس جنوده البيزنطيين بل كان بالجنوب ، اى بجهة مزاق ، يقاوم قبائل لواتة وانفراشيش التى كان يقودها الملك انطلاس فاصبح على ابواب قرطاج بفبائله الجبلية والجمالة (١)

فقد اضمحلت وانتهت افريقية الرومانية وحلت مكانها افريقية الليبية (او البربرية)

وقد وقعت هذه الثورة فى عهد الملوك الونداليين الذين اتوا بعد جنسريق ، وتمت وانتهت عند قدوم البيزنطيين وعلى راسهم القائد المشهور (بليشار)

(١) مما يؤيد ان الملك انطلاس قد استولى على مزاق (Byzacène) اى على « جهة الساحل » بالبلاط التونسية ، وجوده واقلته بتلك الجهة فى عهد البيزنطيين كما اورده بروكوبس . وفى سنة ٥٣٥ ، لا انتصر القائد البيزنطى صولومون على بعض القبائل الممردة بنوميديا ، كان انطلاس يقم بمزاق مع قبائله ورجاله ، وكان فى ذلك التاريخ صديقا مخلصا للبيزنطيين فاعترفوا له بالنفوذ والسلطة على تلك الجهة ، واستمر الامر كذلك الى سنة ٥٤٦ .

ثم انقلب انطلاس ضد البيزنطيين ، وتحالف مع اعدائهم واشعل نار الثورة ودخل فى الحرب والمقاومة . فسيرت اليه حكومة بيژلطة قائدها المشهور « ثروغليطة » (Jean Troglita) فتقلب على الملك انطلاس واتصم عليه ، لا بالحرب والسلاح ، ولكن باغراء القبائل بالمال ، حتى انه بعد سنة ٥٤٨ انقطع الحديث عن انطلاس ولم يبق له ذكر يذكر .



جلمار آخر ملوك الوندال

تظهر صورته النصفية منقوشة فوق هذه القطعة من النقود الفضية ، وهو لابس التاج والدرع « قطر الدائرة ١٧ مليمتر »
(متحف لندن British Museum)

لوحة ٩٨
أقلتر الصفحة رقم ٣٨٣ من هذا الكتاب



Handwritten text in a cursive script, likely a form of Arabic or Persian, written on a dark background. The text is arranged in several lines, with some characters appearing to be stylized or abbreviated. The script is dense and difficult to decipher without specialized knowledge of the language and script.

لوحة ١٠٠ :انظر الصفحة رقم ٣٩٣ من هذا الكتاب

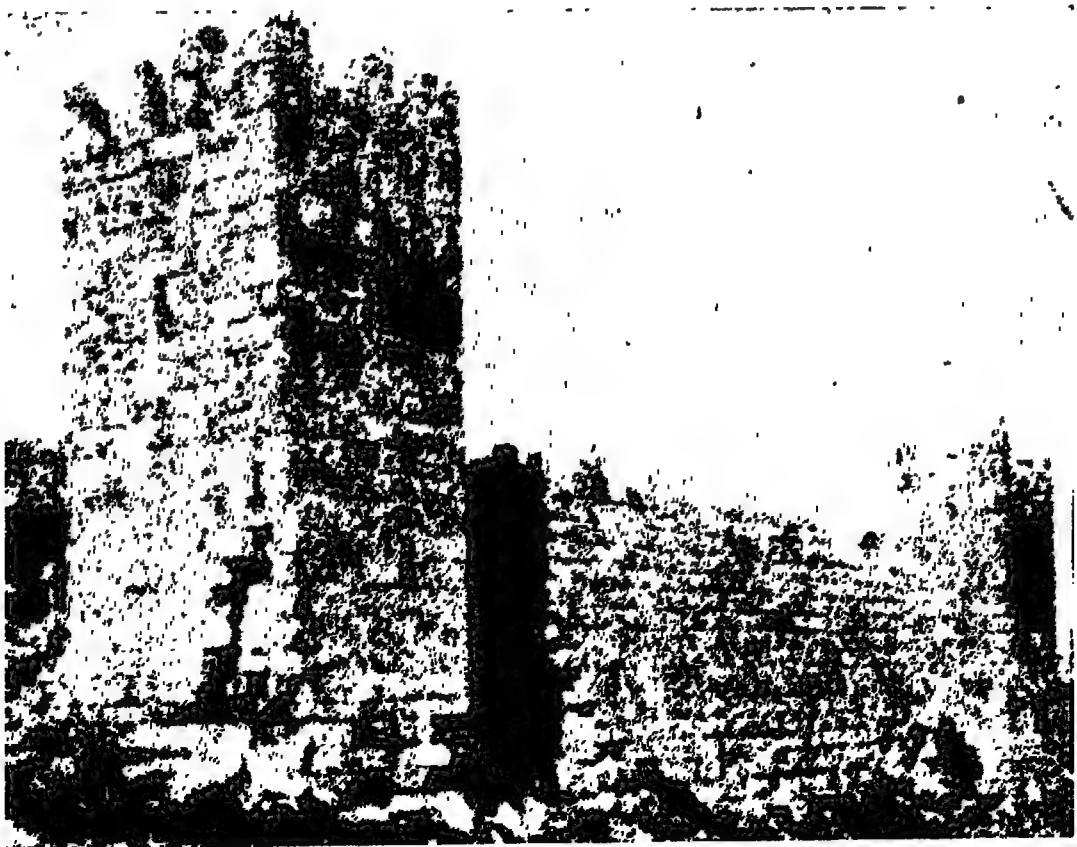


لوحة ١٠٠ :انظر الصفحة رقم ٣٩٣ من هذا الكتاب

لوحة ١٠١
انظر الصفحة رقم ٣٩٤ / ٣٩٥ من هذا الكتاب

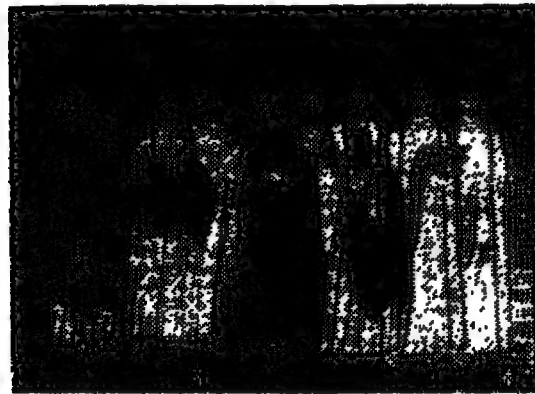


الباب البيزنطي أو باب صولومون بتبسة



قصر لسة البيزنطي

افریقیا الشمالية فی عبدالبیز فطین



جوستنبان قبر بزنگه و افراد حاشیبه و نری علی یمنه بالقائد (بلیشار)

الاستيلاء البيزنطى

من سنة ٥٣٤ الى سنة ٦٤٢ (نحو قرن آخر)

- انتصار الجيش البيزنطى :

كسر (بليشار) علوه وهزمه بدون عناء كبير وذلك بساحة سيدى فتح الله قرب تونس ، ودخل مدينة قرطاج ، وتم الحاق افريقية بامبراطورية بيزنطة سنة ٥٣٤ مع ابقاء قرطاج عاصمة للولاية .

وقد ساعدته الظروف على هذا الانتصار السريع الذى لم يكن يتوقعه او يحلم به ، ومن جملة تلك الظروف المساعدة :

- فساد سمعة (جلمار) ملك الوندال وسخط الشعب عليه ،
- اشتغال اسطول الوندال (١٢٠ سفينة حربية) بقمع ثورة بسردينية ،

- اشتغال الملك جلمار نفسه بقمع ثورة بالساحل كان يقودها الملك انطلاس على راس قبائل الفراشيش الجبلية وقبائل لواتة الجمالة -
- اتقسام الوندال انفسهم وعدم تكتلهم ، وذلك لان جلمار لم ياخذ مكان سلفه حلداريق على كرسى المملكة الا بعد ما القى عليه القبض وادعه السجن وقلب نظام الحكم فى ١٥ جوان ٥٣٠ . . .

- الثروات القومية التحريرية :

لم تكد حكومة بيزنطة تستقر بالبلاد حتى قام فى وجهها الزعماء المغاربة للتخلص من هذا الاستعمار الجديد . فتوالى الثورات وتتابعت الهجومات والغزوات ، واستمر التمرد والهيجان ، الامر الذى حمل الحكومة البيزنطية على الاهتمام بتنظيم الجيش ، وبتحصين البلاد .

١ - تنظيم الجيش : كان الجند متالفا من مشاة وخيالة موزعين على اربع شعب عسكرية مراكزها :

- لبدة (لشعبة طرابلس)

- قفصة (لشعبة مزاك)

- قسنطينة (لشعبة نوميديا)

- شرشال (لشعبة مريطانيا)

وكانت السلطة العسكرية في يد (بطريق) مقره قرطاج ومعه رئيس اركان حربه وعدد كبير من افراد هيئة الادارة الحربية .
وكان هذا البطريق يجمع احيانا بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية المتمثلة في الوالي .

وكان يطلق على الوالي لقب اكسرخوس (Exarque) ويطلق على الولاية اسم « اكسرخوسية » (Exarchat)

٢ - تحصين البلاد : وقد وجهت الحكومة عنايتها ايضا نحو تحصين البلاد وانشاء القلاع والحصون والمعازل الكثيرة الممتدة على التخوم لصدد غارات القبائل المغربية ، خصوصا وقد هدم الوندال ما اُنشاه الرومانيون كما ذكرناه في مكانه . وما زالت آثار هذه الحصون والقلاع موجودة بتبرسق ، وباجة ، وحيدرة ، ولمسة ، وتبسة ... وهي تقيم الدليل على نشاط المهندسين البيزنطيين ، ولكنها تقيم الدليل ايضا على اهمية خطر الهجومات التحريرية التي اجبرت المستعمرين على اخذ مثل هذه الاحتياطات الكبيرة ، ولو انها لم تكن كافية لحمايتهم فقد استمرت الهجومات والنزوات والغارات تتواصل وتتابع بكامل الشدة ، واستمرت محاولات المستعمرين لمقاومتها وفتحها .

ونفهم من ذلك ان المغاربة سكان بلاد افريقية الشمالية لم ينحملوا قط ، حتى في اقدم العصور ، وجود مستعمر اجنبي فوق ارضهم ، بل كانوا يقاومون ويكافحون ويضحون بحياتهم سعيا وراء نيل الاستقلال . واذا كان الشعب يابى الرضوخ الى حكم المستعمر ، فلا يمكن ان تصده عن ذلك قوة الجيش ، ولا مناعة الحصون
(اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر)

وبجدر بنا ان نذكر بهذه المناسبة اسماء بعض الابطال من
اجدادنا الذين حاربوا لنحرير بلادهم :

— فهذا (ماطوس) نراه قد تزعم الحركة التحريرية ضد
البونيقيين اثر الحرب البونيقية الاولى ، واشعل نار الفتنة
لمقاومتهم ، ولولا انضمام الامير النوميدي نارواس الى القائد
البونيقى علقروط لكان انتصر على اعدائه .

— وهذا (ماسنيسا) فهو قد حارب مع الرومان لطرد
الفنيقيين وسعى بعد ذلك في تكوين وحدة مغربية تجمع بين
اقطار وشعوب شمال افريقية ، لكن لم تتركه رومة ينجز برنامجها
— وهذا (يوغرطة) فهو قد حارب الرومان لاجراجهم من
بلادهم ، ولولا خيانة حليفه وقريبه بوخوس لربما كان حقق
حلم جده ماسنيسا

— وهذا (تاكفاريناس) فهو قد حارب الرومان لطردهم
واجلائهم عن ارض الوطن في عهد الملك يوبالثناني والملك بطليموس
— وبعد ظهور المسيحية تزعم الكفاح التحريري عن طريق
الدين المقاوم الكبير (دوناتوس) ، ثم اتى بعده (فيرسوس)
ثم (جيلدون)

— وفي عهد الوندال ظهرت القبائل الجبلية والقبائل الجمالة
بملوكها وامرائها وقوادها ، مثل (يوضاس) و (يابيداس)
و (ارثاياس) و (انطلاس) وغيرهم . . .

. . . وفي عهد البيزنطيين الذي يهمننا الآن لم تنفك القلاقل
والغزوات والغارات تحت قيادة الامراء الابطال ، ونذكر منهم :

— (يوضاس) ملك اوراس الذي مر ذكره فهو كان يقاوم بنوميديا
— و (كوتزيناس) : كان يحارب البطريق (صولومون) بافريقية
اي بالبلاد التونسية ويقول : « ان الله مع الذين يحاربون للصوص
لاسترجاع اموالهم وارضيتهم » .

— والقائد الباسل (سطوزاس) : كان يجمع الجموع ويبلي البلاء
الحسن بمبراسة (مجاز الباب) ، وكان يوقد حماس رجاله بخطبه
المؤثرة ويقول : « كيف ترضون بحياة الذل والعبودية والهوان ؟ »

ـ والامير (انطلاس) : كان يحارب بجهة مزاق مع قبائل الفراشيش وقبائل لواتة ، وهو الذى قتل البطريق والوالى البيزنطى (صولومون) المتقدم ذكره ، ولم يتغلب عليه بعد ذلك القائد (يوحنا ترولغيطه) المعين من طرف حكومة بيزنطة سنة ٥٤٦ ، ولم ينجح فى اخماد نار الفتنة وفتح ذلك الهيجان المستمر الا باستعمال سياسة التفرقة بين القبائل وبين زعماء التحرير . . .

ولم يكن تحمس هؤلاء الزعماء واحساسهم الوطنى خاليا من قصد الدفاع عن ارض الوطن ، ومن نية الذود عن حياضه مثلما ذهب اليه المؤرخ المستشرق (ايميل قوتى) لما ميز فى كتابة بين وطنية الشرفيين المرتكزة على علائق القرابة والدم ، ووطنية الغربيين التى تعتمد بالاخص على المكان والمناخ والوسط الجغرافى (١) ، بل كانوا يقاومون ويجاهدون لطرد المستعمرين عن ارضهم ، واقصائهم عن بلادهم ، وكانوا يقولون ويرددون ما كان يقوله ماسنيسا ويوغرطة من قبلهم « بان ارض افريقية للافريقين ولن تكون ابدا لسواهم »

(١) الاستاذ قوتى (Emile-Félix GAUTIER) (١٨٦٤ - ١٩٤٠) : من اسئلة كلية الاداب المشاهير بالجزائر (١٩٠٢) ، ومن المستشرقين المدققين والمؤرخين المحققين ، له دواية ومعرفة بتاريخ شمال افريقية ، وله فى تاريخ العرب زمن فتوحاتهم وتاريخ اسكان بالشمال الافريقى انكار شاذة ونظريات مبتكرة يذهب فيها احيانا مع ميوله وعواطفه ، وهو المؤلف لكتاب «قرون المغرب المظلمة» (Les Siècles Obscurs du Maghreb)



الذى طالعت ما احتوى عليه من غريب الافكار والمعاني . واستنكرنا البعض منها ، ونؤمل احاطة القراء عند الامكان بمحتويات ذلك التاليف مع نقدها بقدر انصافه . وان وفاة هذا الاستاذ (سنة ١٩٤٠) قد تركت فراغا عظيما لان دراسته بالرغم عن شلوذها كانت من انفس الدراسات لما اشتملت عليه من المعانى الطريفة والاداء المبتكرة . فالاستاذ قوتى لا يتخذ فى آرائه المذهب للتى اتخذها المؤرخون قبله ولا ينحو نحوهم .

ونريد اليوم الاشارة الى مسألة اتت عرضا فى ذلك التاليف وشرحها الاستاذ قوتى شيئا من الشرح وهى الميز بين الاحساس والشعور الوطنى Le patriotisme عند الشرقيين والمغربيين ، فالاستاذ يرى ان الوطنية ليست من نوع واحد فى الشرق والغرب ، بل هى عند الشرقيين ترتكز على علائق القرابة وروابط الدم ، وعند الغربيين تعتمد بالاخص على المكان والمناخ ، فهى فى الشرق من (النوع الجنسى)

وهي في الغرب من (النوع الجغرافي) ، ولذلك ترى الامم الشرقية تعبر عن بلادها في القالب بنسبتها الى جنس من يسكنها ، فيقولون « بلاد العرب » و « بلاد الفرس والعجم » و « بلاد الاغريق واليونان » ، ولا يقولون « عرايا » (Arabie) او « فرسيا » (Perse) او « اغريقيا » (Grèce) الى غير ذلك فهم الى اعتبار القوم الساكنين بتلك الاصقاع اقرب ، والى الاعتناء بهم اميل ، بخلاف الاوروبيين مثلا ، فان الذي يهمهم قبل كل شيء هو الارض والمكان ، ولذلك تراهم يعبرون عن اسم البلاد باسم الصقع والاقليم ، فيقولون : « فرنسا » ولا يقولون بلاد الفرنسيين ، و « انكلترا » و « المانيا » ولا يقولون بلاد الانكليز او بلاد الالمان ، الى غير ذلك

ثم يذهب الاستاذ قوتبي حسب عادته في الاستنتاج والبحث عن الاسباب ، فيقول ان علت ذلك في نظره ان امم الشرق في القالب من القبائل الرحالة ورواد المناجع ، فهو لا يتفائلهم من مكان الى مكان في البحث عن تلكا لحواناتهم لا يحنون الى مكان واحد ولا ترتبط به اشخاصهم بخلاف الغربيين ، وان الاحساس الوطني هو في الامم وليد الحوادث التاريخية وحالة المجتمعات من الوجهة السياسية والاقتصادية والدينية ، ولذا ترى ذلك الاحساس يتكيف ويتنوع حسب تلك الحوادث وتلك الحالات المختلفة .

فالوطنية عند القبائل الرحل ليست شبيهة بالوطنية عند الامم القاطنة ببلاد واحدة ، والوطنية عند الامم الشديدة التدين ليست شبيهة بالوطنية عند الشعوب التي ضعف فيها المعنى الديني ، وفي كل ذلك ... فالوطنية اذن تختلف حسب الشعوب والامم اختلافا عظيما . واذا اعتبر الانسان هاته الكلمة من دون اعتبار فحواها الحقيقية بالنسبة لكل امة على حدة ، فقد اعتبر لفظا فضحا اجوف لا يلد تينا ، بل له مدلول عام كلفظ « القماش » مثلا له مدلول عام ، لان الاعمشة في الواقع تختلف اختلافا عظيما من الحز والديباج والسندس والاستبرق الى احقر الاعمشة وبسط الاسجة واقلمها قيمة . فاذا تكلمت عن القماش ، وفخرت القماش ، وذكر فضل القماش فانك لم تات الا ببعض العموميات . اما اذا اردت التحقيق والتدقيق وجب عليك بيان النوع والشكل ، وذلك هو الامر الصعب الذي يلدغ بك الى البحث والتنقيب والتأمل

لكن يمكن ان نقول ردا على هذه النظرية : ان الالمان ، وهم من الغربيين قد حنوا الى اجناسهم في الاصقاع الاخرى النائية عنهم ، مثل حينئذ الى من تضمه جغرافية بلادهم واحسوا بالروابط التي تربطهم مع بني الالمان القاطنين في مشارق الارض ومغاربها وبالجامعة التي تجمعهم ، وكان ذلك اساس المذهب النازي ، ومن اشد الاسباب التي دعت الى اثاره الحرب الكبرى الاخيرة ، فهل هاته الفكرة فكرة شرقية ؟ وهل هاته العاطفة عاطفة شرقية ؟

- بعكس ذلك المسلمون في فلسطين احسوا برباطتهم مع الاقليم اذلى نشاوا فيه فهم لا يفتون عنه بديلا ولو عوضوا عنه بما اتسعت به المعمورة من ارجاء فسيحة ولو طلب منهم النزوح الى اقليم احسن مناخا ، واشد بهجة ، لا رضوا بذلك ولما قبلوه ولما عدلوا عن المطالبة بتقويض المهضومة فهل يقال اذن ان قوميتهم وعاطفتهم الوطنية لاتصال لها بالارض والاقليم ، وهي لاتعتبر الا العلائق الجنسية وروابط الدم والقرابة ؟ فلو كان ذلك كذلك لنزح مسلمو فلسطين الى بعض القارات مثل نزوح اليهود الى بلادهم ولاستعاضوا عن بلادهم بغيرها من بلدان المعمورة خصوصا وان الانكليز واليهود يسهلون عليهم ذلك ويوفرون عليهم بلا شك سائر الاسباب المادية والادبية لارضائهم بكل ما يتيسر من وسائل .

- فساد المعاملة مع الاهالى -

والذى زاد فى الطين بلة فساد السلوك مع الرعاية . فان الحكومة البيزنطية قد اتقلت كاهل السكان من ابناء البلاد بالضرائب الثقيلة المجحفة ، وافتكت اموالهم ظلما وعدوانا ، وعاملتهم بكل شدة وقساوة . ومن جهة اخرى فقد تعشى الارتشاء فى جميع طبقات الحكام والموظفين وكثر الفساد وسامت الاحوال ، الشىء الذى اوغر عليهم الصدور ونفر القلوب .

- تدهور سلطة البيزنطيين :

كان (جرجير) آخر البطارقة البيزنطيين الذين حكموا البلاد التونسية . فهو قد شق عصا الطاعة فى وجه حكومته مثلما كان فعل (بونيفاس) من قبله فى آخر مدة الاستعمار الرومانى ، ونقل مقر حكمه من قرطاج الى سبيطلة وجعلها عاصمته ، وذلك من غير شك استعدادا لمجابهة هجوم العرب الذى بدا يشعر بخطرته الداهم .

- فنوم الفاتحين العرب :

وفى سنة ٦٤٠ م . استولى العرب بسهولة على البلاد المصرية ، ووقع اقتبالهم بحفاوة ، واعتبارهم منقذين ومحررين من عسف البيزنطيين وظلمهم وطفياهم الجبائى والدينى .

تم تمادوا فى تقدمهم نحو برقة وطرابلس ، بدون ان يحرك الاكسرخوس (جرجير) ساكنا ، وبدون ان يقوم باى رد فعل رغما عن كونه مسؤولا عن امن الولاية البيزنطية بافريقية وعن الدفاع عنها

غير ان العرب لم يتابعوا تقدمهم اكثر من ذلك لان الخليفة عمر رضى الله عنه كان متخوفا ومتشائما من التوغل فى الاراضى الافريقية .

- وفى سنة ٦٤٤ م . تولى (عثمان بن عفان) الخلافة وسمح رضى الله عنه بمواصلة الفتوحات . فبدأت الغزوة الاولى سنة ٦٤٧ م . ٢٧ هـ .

الغزوة الاولى او غزوة العبادلة السبعة :

امر الخليفة عثمان عامله على مصر وهو عبد الله ابن ابي سرح

بالمسير الى افريقية ، فقصدها واصطدم بجيوش جرجير المؤلفة من الروم والافريقيين وذلك قرب عاصمته سبيطلة ، ودارت معركة بين الفريقين اسفرت عن انهزام جيش الروم وقتل البطريق جرجير . (١) وبعد جمع الغنائم الوافرة ، صالح عبد الله ابن ابي سرح اعداءه على مبلغ كبير من المال ، وقفل راجعا بجيشه الى مصر . (٢)

ومن الملاحظ هنا ان العرب لم يكن ليتهم لهم من نصر مبين على البطريق جرجير وجيشه لو لم يساهم ابناء البلاد من الافريقيين فى صفوف العرب . فلقد تربص الافارقة بالاستعمار الرومانى حتى اذا سنحت لهم الفرصة انضموا الى صف من جاء لمحاربة المستعمر وتخلوا عنه وضربوه الضربة القاضية لانهم اعلم بنقط ضعفه من غيرهم . وهكذا هزم جيش جرجير رغم تفوقه فى العدد وتحصنه بالقلاع وامتلاكه للذخيرة والمؤونة .

على ان الافريقيين لم يعملوا على اخراج الروم من بلادهم ليحل محلهم مستعمر آخر ، كما ان ماسنيسا من قبل لم يقاوم القرطاجيين ولم يحارب فى صف الرومان ليحل الرومانيون محلهم ، بل كان يفكر فى تحرير بلادهم وفى تكوين مملكة افريقية مستقلة . وان سكان البلاد لا يريدون ابدال مستعمر بمستعمر . فسواء اكان المغتصب فنيقيا او رومانيا او بيزنطيا او عربيا . . . فكلهم مفتصبون ومستعمرين فى نظرهم . وقد ادرك العرب ذلك ، فلم يفكروا فى احتلال افريقية فى ذلك الوقت ، كان الاقدام على حملة كهذه تعتبر من الامور الصعبة التى كانت تخيف العرب ، حتى اذا عقدوا العزم على فتح افريقية رايناهم يجهزون اقوى الجيوش ويجعلون على راسه اشهر القواد وهو (عقبة بن نافع) وذلك سنة ٦٧٠ م / ٥٠ هـ . وهى سنة تاسيس جامع القيروان وتاسيس مدينة القيروان وفتح افريقية فتحا عربيا اسلاميا .

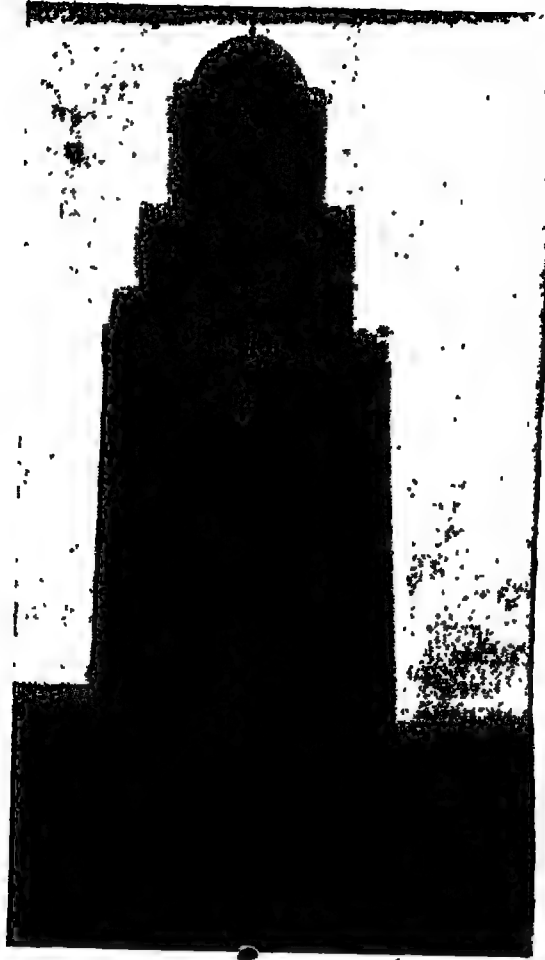
(١) الذى ينبغى ملاحظته بالنسبة للوندال وكذلك بالنسبة للبيزنطيين على حد سواء هو انهم لم يحتلوا البلاد الافريقية الا احتلالا جزئيا نافعا : فان الوندال قد قضوا على النفوذ الرومانى بالبريقة الشمالية ولكنهم لم يقيموا نفوذهم مكانه ، بل استرخوا تحت تاثير المناخ والحياة اللينة وتركوا ابناء البلاد يسترجعون قوتهم واستقلالهم وهو ما يوضح سرعة سقوطهم وبنيانهم . . . وكذلك البيزنطيون ايضا ، فانهم اقتنعوا بالقليل ، وتركوا جهات كثيرة داخل البلاد او بالناحية الغربية خارجة عن نفوذهم وسيطرتهم ، ولذلك لم يثبتوا طويلا امام هجوم العرب .

(٢) تعرف هذه الفتوة الاولى بغزوة (العبادة السبعة) لمشاركة سبعة من الصحابة اسمهم (عبد الله) وهم : عبد الله بن ابي سرح - عبد الله بن النضير - عبد الله بن عباس - عبد الله بن جابر - عبد الله بن عمر بن الخطاب - عبد الله بن مسعود - عبد الله بن عمرو بن العاص .

ومن ذلك الوقت يبدأ تاريخ افريقية الشمالية العربية المسلمة او :

تاريخ المغرب العربي الكبير

(وهنا ينتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى بحول الله)



الله اكبر !

المراجع

المراجع العامة

اولا

1. — ابن خلدون : المقدمة والتاريخ
2. — ح . ح . عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس
3. — St Gsell : Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord
Tome I : Les temps primitifs - La colonisation phénicienne et l'Empire Carthaginois (1914).
Tome II : L'Etat Carthaginois (1920).
Tome III : Histoire militaire de Carthage (1928).
Tome IV : La Civilisation Carthaginoise (1920).
Tome V : Les Royaumes indigènes : Organisation sociale, politique et économique.
Tome VI : Les Royaumes indigènes : Vie matérielle, intellectuelle et morale.
Tome VII : La République romaine et les rois indigènes.
Tome VIII : Jules César et l'Afrique - Fin des royaumes indigènes.
4. — Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord (1956).
5. — V. Piquet : Les Civilisations de l'Afrique du Nord (1915).
6. — J. H. Breasted : Conquête de la Civilisation (1945).
7. — P. H. Antichan : La Tunisie - Son passé et son avenir (1884).
8. — Vivien de St Martin : Le Nord de l'Afrique dans l'Antiquité (1863).
9. — E. F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord (1952).
10. — E. Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale.
11. — J. Pirenne : Les grands courants de l'Histoire Universelle.
12. — J. Klein : La Tunisie.
13. — H. Baumann et D. Westermann : Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique.

الليبيون

ثانيا -

14. — عثمان الكعاك : البربر
15. — G. H. Bousquet : Les Berbères.
16. — Gl Brémont : Berbères et Arabes : La Berbérie.
17. — A. Erman : L'Egypte des Pharaons.
18. — Léon Balout : L'Afrique préhistorique.

19. — E. G. Gobert : El Mekta (près de Gafsa) station princesps du Capsien (Karthag t. III 1951-1952).
20. — Reygasse : Etudes de la Paléonthologie maghrébine (nouvelle série).
21. — Reygasse : Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord.
22. — Hespéris : Institut des Hautes Etudes Marocaines - Tome XXIV (1927) et Tome XXIX (1942).
23. — Solignac : L'Atlantide et le Sud Tunisien (Revue Tunisienne 1931).

الفنيقيون

ثالثا -

- ٢٤ - الدكتور توفيق الطويل : قصة الكفاح بين روما وقرطاج.
- ٢٥ - أحمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.
25. — Dr. G. Conteneau : La Civilisation phénicienne (1949).
26. — C. Autrin : Phéniciens (Histoire Antique de la Méditerranée 1920).
27. — Jean Huré : Histoire de Sicile (1957).
28. — Le P. G. G. Lapeyre : Carthage (1946).
29. — Lapeyre et Pellegrin : Carthage punique (1942).
30. — Claude Poinssot : Les ruines de Carthage (1958).
31. — M. Beulé : Fouilles à Carthage (1861).
32. — Dr Carton : Sanctuaire punique à Carthage (1929).
33. — Henri Lhote : Le Sahara (1937).
34. — H. Van Loon : La Conquête des mers (1947).
35. — G. Picard : Le monde de Carthage.
36. — G. et C. Ch. Picard : La vie quotidienne de Carthage au temps d'Hannibal (1958).
37. — G. P. Baker : Annibal (1952).
38. — Capitaine Hart : Scipion l'Africain (1934).
39. — Colette Picard : Carthage (1951).

الرومان

رابعا -

41. — Gaston Boissier : L'Afrique romaine.
42. — Cagnat : L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs.
43. — P. Mesnage : La romanisation de l'Afrique.
44. — E. Albertini : L'Afrique romaine.
45. — Toutain : Les cités romaines de Tunisie.
46. — Christian Courtois : Timgad, antique Thamugadi (1951).

47. — P. Battifol : Le Catholicisme de St Augustin.
48. — Alfarc : L'évolution intellectuelle de St Augustin.

الوندال — خامسا

49. — E. F. Gautier : Genséric.
50. — Christian Courtois : Les Vandales et l'Afrique.
51. — Ch. Saumagne : La paix vandale.
52. — Albertini : Actes de vente du V^e siècle (Tebessa).

البيزنطيون — سادسا

53. — Général L. M. Chassin : Bélisaire.
54. — Ch. Diehl : L'Afrique Byzantine.
55. — J. Fargoire : L'Eglise byzantine.



تدارك أغلاط مطبعية

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٣	٩	المدينة	المدينة
٣	١٠	تؤدة	تؤدة
٤	٨	= سنة	= ٦٦٨ سنة
٣٠	٢٦	ليتصروا	ليتصروا
٣٨	١٣	Gaspien	Gaspien
٣٩	١٨	Dr Gobbet	Dr Gobert
٣٩	٢١	Chellieu	Chellien
٣٩	٢٢	Acheulieu	Acheulien
٣٩	٢٩	Atérieu	Atérien
٤١	١٤	Tyqique	Typique
٤١	١٥	le burin	le burin à angles
٤١	٢٠	microburiens	microburins
٤٢	١٤	مع من نزح	مع من نزحوا
٤٢	٣٢	nouveaux	nouveaux
٤٣	٢٠	الهيكل العظيمة	الهيكل العظيمة
٤٣	٢١	حسب عاداتهم	حسب عاداتهم
٤٨	١١	زاد واستولى	زاد استولى
٤٨	٢٣	سنة ٩٤٢ ق م	سنة ٩٢٤ ق م
٥١	٤	Zanèkes	Zauèkes
٥١	١٠	بلاد الجرايد	بلاد الجريد
٥١	٢٨	غابة مقنة	غابة مأكنة
٦٠	٢٣	ميلاد	ميلا
٦٠		المنوروغرافيا	الخوروغرافيا
٦٧	٢٢	اقل استقرار	اقل استقرارا
٧٠	١٠	قبور (مقنة)	قبور (مأكنة)
٧١		الخريطة تمثل	الخريطة التي تمثل
٧١	٢٩	بقبور (مقنة)	بقبور (مأكنة)
٧٣	٥	صور تمثل نقوش قديمة	تحت «وسائل الايضاح»

الصفحة	السطر	النقطة	الصواب
٧٦	١٧	الاسلحة ن الحجارة	الاسلحة من الحجارة
٨٢	١	انشاؤها	انشؤها
٨٥	٧	خمسمائة اسيرا	خمسمائة اسير
٩٣	٢٧	مبورقة	مبورقة
٩٤	٣٠	بالزفت والقاز	بالزفت والقار
٩٦	٣٠	حواز	حواجز
٩٨	٧	سبعمائة مترا	سبعمائة متر
٩٨	١٨	اشار الى ذلك	اشار اليها
١٠٢	١٧	آدار	راس آدار
١٠٦	١٠	قد قبلت الوضعية	قد قبلت الوضعية
١٠٦	١٧	بمفاجاة مؤلة	بمفاجآت مؤلة
١٠٨	٨	وكان يقعد	وكان يقعد
١٠٨	٢٥	الحل والعقدة	الحل والعقد
١٠٩	٢٠	فى تلك المرة	فى تلك المدة
١١٣	٢٠	اى مدى الحروب	اى مدة الحروب
١١٦	اسطر كثيرة	الهة - الالهة	الاهة الالهة (مؤنث اله)
١١٦	٩	الالهة (جبراء)	الالهة (جبراء)
١١٨	١٩	لانها وجبت	لانه وجد
١٢٠	١٠	تمثل كانها	تمثل كاهنا
١٢٠	٢٥	(بعل سمين)	(بعل آسمين)
١٢٢	٥	الشياطين	الشياطين
١٢٥	١٤	سبراطة	صبراتة
١٢٦	١٥/٩	سبراطة	صبراتة
١٢٦	٣١	مليون دينار	مليون فرنكا او الف دينار
١٢٧	٣٠	الرومانيين بنبنون	اليونانيين
١٢٧	٣٢	بنبتون	بنبتون (Neptune)
١٣٠	٩	كبير يسمى (Char des Dieux)	كبير يسمى (عربة الالهة)
١٣٠	٣٣	هوير كان	هو بر كان (Char des Dieux)

الصفحة	السطر	الخط	الصواب
١٣١	١٨	قل ضبط	فى ضبط
١٣٥	٢٢	(استرميند)	(استرميند)
١٣٦	٣٠ (١)	(1) (Foyle)
١٤٢	١١	الجهة القرينية	الجهة القرينية
		(اى ولاية برقة)	(اى ولاية برقة)
١٤٦	٤	وما يلزم اصلاح	وما يلزم لاصلاح
١٤٧	٣	وتصبر	وتصير
١٥١	٢٥	بخدر الجوار	بخدر الجوارى
١٥٣	١٨	مستقرين	وكانوا مستقرين
١٥٨	٢١		(سطر يقع الغاؤه تعاما)
١٥٨	٢٢		(سطر يقع الغاؤه تعاما)
١٥٨	٣١	الشعيد المحمص	الشعير المحمص
١٥٩	٣٤	ويقال (ايباش الشجرة	ويقال (اباش الشجرة)
١٦٠	٢٠	وخرشفها	وخرشوفها
١٦٥	٧	وبيض	وبيضة
١٧٠	٣٣	القليس	القلس
١٧٢	٩	وقراراته	وقراراته
١٧٤	١٣	الجمهورية اليونيقية	الجمهورية البونيقية
١٧٤	٢٨	الاستقراطية	الارستقراطية
١٨٠	١٥	من الخطوة	من الخطوة
١٨٣	٣	وله	ولها
١٨٣	٢١	ويسمح	ويمسح
١٩٠	١٣	فغزا القرينية	فغزا القرينية
		(اى ولاية برقة)	(اى ولاية برقة)
١٩٣	١	على ان يرجع اليه	على ان يرجع اليهم
١٩٣	٢٠	او تاخذ	او تؤخذ
١٩٧	٢٤	rostrum	rostrum
١٩٧	٢٨	« غربانه »	« غربانه »
٢٠٥	٢١	فانهما اخلصت	فانهما اخلصتا
٢٠٦	٣٢	فى المقدمد	فى المقدمة

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٢٠٩	١٣	لا ينصب	لا ينضب
٢١٦	١٥	بل الحرب الذي	بل الحرب التي
٢٢٣	١٩	وصارت	وصارت رومة
٢٢٤	١٥	مؤمرات	مؤامرات
٢٣٣	٢٧	والالتزامات	والالتزامات
٢٣٦	٢٠	على اخلاقه	على اخلاقه
٢٣٦	٢٥	اول يتقدم	اول من يتقدم
٢٤٢	١٠	Tacnac	Taenae
٢٤٤	١٢	صرح بحكمة	صرح بحكمه
٢٦٥	١٩	الفقراء (صغار الملاكه)	الفقراء: لا يملكون شيئا (١)
٢٦٩	٥	وعدم المصادقة على القوانين (droit de veto)	واستمر لهم حق الرفض (droit de veto)
		واستمر لهم حق الرفض	وعدم المصادقة على القوانين
٢٦٩	٢٢	كانوا مكلفون	كانوا مكلفين
٢٨٧	١٧	وعماله	واعماله
٢٩٣	١٨	بعد سنة ١٩٣٠	بعد سنة ١٨٣٠
٢٩٥	١٥	المملكة اللنوميديّة	المملكة النوميديّة
٣٠٣	٣	وضحاها	وضحاها
٣١٣	١	حتى ان القرنين	حتى ان القرنين
٣١٧	١		يلغى السطر الاول بتمامه
٣٢٢	٨	ومخترت	تمخر
٣٢٦	٤	خندوس	خندروس
٣٢٦	٩	Spelta	rave
٣٢٦	١٠	الترفس	الترفاس
٣٢٧	١٤	مادوروش	ماداوروش
٣٢٧	٢٠	بالحيوانات	بالحيوانات

(١) تسرب ذلك الخطا في بعض النسخ فقط لا في جميعها

الصواب	الخطا	السطر	الصفحة
التي تثبت وجودها انبثا قطعا هي الانصاب الملية التي رسم بها ... اقيم بجانبه يوليوس بواكير الازهار زيادة ومبنا .	التي رسم بها افيم بجانبه بويليوس بواكير الازهار وزيادة ومبنا	٢٥ ١٣ ٥ ٢ ٨ ٢٥	٣٣٣ ٣٣٦ ٣٣٨ ٣٤١ ٣٢٩ ٣٤٢
(Haut-relief)	(Bas-relief)	٣١	٣٤٤
(Bas-relief)	(Haut-relief)	٣٣	٣٤٤
بخشبة او منصة المسرح تصلح تستعمل صبراتة صبراتة	بخشبة المسرح يصلح يستعمل سبراتة سبراتة	٥ ١٢ ١٣ ١٩ ١	٣٤٥ ٣٤٨ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠



جدول اللوحات

عدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
١	راس ليبي	٦٣
٢	سلم الادوار التاريخية	١٥
٣	توالى الهجومات على القطر التونسي	٤٥
٤	المليبيون كما رسمهم المصريون	٧١/٣٦
٥	خريطة جزيرة اقريطس والبحر الايجي والشعوب القديمة	٥٠
٦	محاربة رمسيس الثالث لشعوب البحر	٤٧
٧	اسراء يهود فلسطين اتر غزوة شيشوق الاول	٤٨
٧	الكاهنة (كرمانة) زوجة شيشوق الاول	٤٨
٨	خريطة مصر القديمة	٤٩/٤٨
٩	خريطة قبائل البرانس والبتتر والمثمين	٣٤
١٠	الطور الحنشي	٣٩
١١	الطور العتيري والوهراني والقفصي	٣٩
١٢	خريطة الطور القفصي والطور الوهراني	٤١
١٣	الحوانيت او اللحد المحفورة في الصخر	٥١
١٣	رسم بقبر منقور في الصخر بغابة ماكنة قرب طبرقة	٥١
١٤	خريطة برشارد : جزيرة الاطلنطس قرب وذرف	٥٤
١٤	خريطة هرمان : الجنوب التونسي بين القرن ١٣ والقرن ١٢ ق م	٥٥
١٤	خريطة هرمان : الجنوب التونسي بين القرن ٦ والقرن ٤ ق م	٥٥
١٥	خريطة هرمان : الجنوب التونسي بين القرن ١ والقرن ٣ بعد الميلاد	٥٦
١٥	خريطة هرمان : الجنوب التونسي بين القرن ٨ والقرن ١٢ بعد الميلاد	٥٦
١٦	الحجرتان المنقوشتان بالخط الليبي والبونيقي (دقة)	١٥٧/٤٤

عدد اللوحة	ما تحتله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
١٧	النقش الصخرى : الكبش المقدس	٣٧
١٨	مساكن الرحالة او المتنقلين	٥٩
١٨	مساكن المستقرين او اهل القرار	٦١
١٩	النوالة بالمغرب الاقصى	٦٠
١٩	الكهوف بمطماطة	٥٩
٢٠	الفن الليبي : الرسم والنقش على الصخور	٣٧
٢١	خريطة فنيقيا	٧٨
٢١	رسم مدينة صور الفنيقية	٩٢/٨٣
٢٢	خريطة : شعوب الشرق في العصور التاريخية القديمة	٧٨
٢٣	الموقع الجغرافي لفنيقيا وتونس	٧٩
٢٣	خريطة : المراكز التجارية الفنيقية	٧٩
٢٤	اسطورة جلد الثور	٨٨
٢٥	صور مرسومة بقبور بونيقي بجبل المزة	
٩٩	(الوطن القبلي)	٩٩
٢٦	رسم قرطاج في عهد الفينيقيين	٩١
٢٧	رسم قرطاج في الوقت الحاضر	٩١
٢٨	آثار الخط الدفاعي او السور الاول بقرطاج	١٠١
٢٩	المسوخ او الوجوه المستعارة	١٢٢
٣٠	رسم مثالي للمرسى الحربى والمرسى التجارى بقرطاج	٩٤
٣١	مرسى قرطاج كما تتصوره من خلال وصف المؤرخين	٩٧/٩٤
٣١	آثار المرسى التجارى والمرسى الحربى : البحيرتان ٩٤ (تتبع اللوحة ٣١ صفحة بها شروح لفهم الصور)	
٣٢	عريسة بعل	١٢١
٣٣	تانيت	١١٧/١١٦
٣٤	بعل حمون	١١٨/١١٥
٣٥	نصب نذرى يتعلق باحراق الاطفال	١٦٤/١٢٠

عدد اللوحة	ما تحتلها اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٣٦	خريطة : رحلة خيملكن	١٣٤
٣٧	خريطة : رحلة حنون	١٢٧/١٢٤
٣٨	المراكز التي اسسها حنون في رحلته	١٢٨
٣٩	البيتيل	١٣٧
٣٩	الاعمدة اليونية والاعمدة الكورنتسية	١٥٧
٤٠	سفينة تجارية قرطاجية مشحونة قللا من الفخار	١٤٩
٤١	سفينة نقل	١٧٠/١٤٩
٤٢	سفينة حربية	١٧٠/١٤٩
٤٣	مركب نسائي اسمعله الرومان في الحرب	
	اليونانية الاولى	١٩٧/١٧١
٤٤	اشجار الارز بلبنان (فنيقيا في القديم)	١٥٠
٤٤	صندوق قرطاجي من خشب وجد بمدينة قصور	
	الساف	١٥١
٤٥	منسط من عاج ، ونقود قرطاج	١٥٦/١٤٦
٤٦	مواس وجدت بقبور القرطاجيين	١٦٢
٤٧	ضريح بدقة من بناء القرطاجيين	١٥٦
٤٨	البطل الكبير عملقرط برقة	٢٠٦/٢٠٠
٤٩	القائد الشهير حنبعل برقة	٢١١/٢١٠
٥٠	الفائد الروماني شبيون الافريقى الاكبر	٢٣٢
٥١	الملك ماسنيسا	١٧٧
٥٢	ابسط لباس بونيقي	١٦٣
٥٣	خريطة : الممالك الليبية المستقلة في عهد	
	البونقيين	١٧٤
٥٤	خريطة : حروب صقلية	١٨٤
٥٥	خريطة : نورة الجند الماجور ومعارك التحرير	٢٠٢
٥٦	خريطة : الحرب البونيقية الثانية	٢١٢
٥٧	خريطة : جبال الآلب	٢١٣
٥٨	خريطة : تنقلات حنبعل وشبيون وماسنيسا	
	قبل معركة جامة	٢١٣

عدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٥٩	رسم لواقعة جامعة	٢١٣
٦٠	فوسا ريچيا	٢٩٥/٢٤١
٦١	يوغرطة - بوخوس - ماريوس - سيليا	٢٨١
٦٢	فرسان يوغرطة النوميدون	٢٨١/١٦٩
٦٣	خريطة ايطاليا القديمة	٢٦٣/٢٦٢
٦٤	الملك يوبا الاول	٢٨٤
٦٥	نقود الممالك الافريقية : ماسنيسا - ميسيبسا	
	يوغرطة	٢٨٦/٢٧٤
٦٦	نقود الممالك الافريقية : يوبا الاول - يوبا الثانى	
	+ كليوباترة	٢٨٦/٢٧٤
٦٧	يوليوس قيصر وبمبايوس	٢٨٤
٦٨	الملك يوبا الثانى	٢٨٦
٦٩	القيصر اغسطس	٢٨٦
٧٠	تمثال فائق الكبر للقيصر اغسطس وهو متدبر	٣٥٥/٢٨٨
٧١	تمثال نصفى من المرمر لفينوس	٣٥٥/٢٨٨
٧٢	الملك بطليموس	٢٨٩
٧٣	جدول الملوك الافريقيين	٢٩١/٢٧٤
٧٤	كيفية تقسيم الاراضى	٢٩٧/٢٩٦
٧٤	آثار المسح والتقسيم قرب مدينة الجم	٢٩٧
٧٥	آثار معصرة للزيت بمدينة ماداوروش	٣٥٤/٣٢٨
٧٥	آثار معمل لدبغ الجلود بمدينة تيبازة	٣٢٨
٧٦	خريطة التوسع الرومانى بافريقية الشمالية	٣٠٥/٢٩١
٧٧	جسر وادى جلف شمال القيروان	٣٣٣
٧٧	جسر القنطرة بالجزائر	٣٣٣
٧٨	الطرق الرومانية	٣٣٢
٧٨	انصاب الاميال	٣٣٣
٧٩	معبد المياه او الننفية بزغوان	٣٣٠
٧٩	معبد المياه بزغوان : مدخل الخلوة	٣٣٠
٨٠	حنايا زغوان وحنايا شرشال	٣٣١/٣٣٠

عدد: اللوحة	ما تحتله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٨١	الاعمال الفلاحية فى عهد الرومان	٣٢٤/٣٦٠
٨٢	الساحة العمومية (الفوروم) بمدينة عنابة	٣٤٤
٨٣	اطلال مدينة تيمقاد الرومانية بالجزائر	٣٤٢
٨٤	تصميم تيمقاد	٣٤٢
٨٤	جندى من الاهالى مكلف بحراسة الحدود	٣١٠
٨٥	سببلة : المعابد الثلاثة الكايبتولية	٣٤٤
٨٥	دقة : معبد الكابتول	٣٤٤
٨٦	دقة : اطلال المسرح الرومانى	٣٤٨
٨٦	تيمقاد : اطلال المسرح الرومانى	٣٤٨
٨٧	الجم : الملعب الرومانى	٣٤٧
٨٨	الجم . الملعب الرومانى	٣٤٧
٨٩	المتصارعون وهم يتبارزون فى الملعب الرومانى	٣٤٦
٩٠	طرابلس : قوس ماركوس اوريليوس ذو اربع واجهات	٣٤٩
٩١	لبدة : منظر عام لاطلال الحمامات الرومانية	٣٤٩
٩٢	لبدة : اطلال كنيسة سافاروسية	٣٥٠
٩٣	لمباز : البريطوريوم : مقر القائد الاعلى	٣٥٥/٣٤٢/٣١٧
٩٤	بقايا آثار كنيسة الكاف	٣٥٢
٩٥	آثار بيت العماد والجرن بكنيسة سببلة	٣٥١
٩٦	قرطاج : موقع الملعب والمسرح والاديون والحمامات	٣٤٧/٣٤٦
٩٧	الامبراطور غرديانوس الافريقى	٣٧١
٩٨	خريطة : الممالك الافريقية فى القرنين الخامس والسادس	٣٨٣
٩٩	كتابة وندالية : عقدة بيع مكتوبة على لوح	٣٨٦
١٠٠	نزول القائد بلبشار على راس جيشه البيزنطى	٣٩٤/٣٩٢
١٠١	الباب البيزنطى او باب صولومون بتبسة	٣٩٦/٣٩٥
١٠١	قصر لمسة البيزنطى	٣٩٥

فهرس الكتاب

الموضوع	ص
القسم الاول : مقدمات	
كلمة الناشر	٣
البرامج الرسمية	٥
الحصص والبرامج	٦
توجيهات	١٤
من الحاضر القريب الى الماضي البعيد	١٥
ما هو التاريخ ؟	١٨
كيف نعلم التاريخ ؟	٢٤
القسم الثاني :	
الليبيون	
التعريف بالليبيين	٣٤
حياتهم حسب ابن خلدون (٣٦) - اطوار مدنياتهم البدائية (٣٨) - دخولهم للتراب المصري (٤٦) احتكاكهم بالمدنية المصرية (٤٩) - اتصاتهم بالشرق (٥٠)	
المدنية الليبية	٥٧
الصيد وتربية المواشى (٥٨) - الرحل والمستقرون - المسكن (٥٩) - الماكل والملبس والاسلحة (٦٢)	
العائلة والقبيلة والشعب	٦٤
العائلة (٦٤) - القبيلة (٦٥) - الشعب اوفيديرالية القبائل - الاقليد (٦٧)	
درس مثالي اول	٧٠
درس مثالي ثان	٧٣

ص	الموضوع
	<div style="border: 1px solid black; padding: 10px; text-align: center;"> القسم الثالث : المدنية الليبية البونيقية </div>
٧٨	التعريف بفنيقية والغنقيين موفع فنيقية - هجوم الهكسوس (٧٨) - استيلاء مصر على فنيقية - تخلص فنيقية من الاستعمار المصري - ازدهار مدينة صور - المراكز التجارية (٧٩) - مملكة صور بفنيقية - اغتيال الكاهن عاشر باص زوج عليسه (٨٣) - هجومات الاشوريين (٨٤)
٨٦	تاسيس قرطاج رواية جوستينيوس (٨٦) - انتحار عليسة (٨٩) كيف نفسر ذلك الانتحار (٩٠) - موقع قرطاج (٩١) - عظمة قرطاج - قرطاج خليفة صور (٩٢) - مرسى قرطاج (٩٤) - المرسى التجارى (٩٥) - المرسى الحربى (٩٦) - الساحة العمومية - البيوت والاسوار (٩٨) بيرصة (١٠١)
١٠٣	النظام السياسى وشكل الحكومة بقرطاج من البداية الى نصف القرن السادس (١٠٣) من النصف الثانى للقرن السادس الى نهاية النصف الاول من القرن الخامس : آل ماقون (١٠٤) - الثورة (١٠٥) - من النصف الثانى للقرن الخامس الى نهاية القرن الرابع (قبل الحروب البونيقية) - الملكان او السبطان (١٠٧) مجلس الشيوخ - محكمة المائة - الهيئات الخماسية (١٠٨) الشعب (١٠٩) - الجمعيات - القرن الثالث والثانى (من الحروب البونيقية الى تهديم قرطاج) : آل برقة - انسلطة العليا (١١٠) - مجلس الشيوخ - مجلس الثلاثين - مجلس العشرة - الشعب - ملاحظات حول النظام السياسى بقرطاج (١١١) - مقارنة بين الدساتير بقرطاج واسبرطة ورومة (١١٢)

الموضوع	ص
الحياة الدينية	١١٤
اهمية الدين عند القرطاجيين (١١٤) - الآلهة (١١٥) : مقارنة بين آلهة قرطاج وفنيقية واليونان والرومان (١١٦) القسيسية او الكهنوت (١٢٠) - العرافون (١٢١) - المسوخ (١٢٢)	
الاسفار والرحلات	١٢٣
الصحراء (١٢٣) - رحلة حنون (١٢٧) - نظرية ستيفان قسال (١٣١) - نظرية ايميل قوتية - نظرية كاركو بينو (١٣٢) - رحلة خيممكن (١٣٤)	
الحياة الاقتصادية	١٣٨
التجارة (١٣٨) - من سنة ٨١٤ الى سنة ٥٧٤ (١٤١) - من سنة ٥٧٤ الى سنة ٤٨٠ (١٤٢) - من سنة ٤٨٠ الى سنة ٤٠٩ (١٤٤) - من سنة ٤٠٩ الى سنة ٢٦٣ (١٤٥) - من سنة ٢٦٣ الى سنة ١٤٦ (١٤٦) الصناعة - صناعة المعادن (١٤٩) - صناعة الخشب : النجارة (١٥٠) - صناعة الحياكة والنسج - الصباغة (١٥١) - صناعة الاديم او الجلد المدبوغ (١٥٢) - صناعة الخرف (١٥٣) - صناعة الزجاج (١٥٥) - الصياغة - الهندسة المعمارية والبناء (١٥٦) - الفلاحة (١٥٨)	
العادات والحياة اليومية	١٦٢
النظافة (١٦٢) - اللباس (١٦٣) - الطعام (١٦٥)	
الجيش والاسطول	١٦٦
الجيش (١٦٦) - الاسطول البحري (١٧٠)	
الممالك الليبية والنوميديّة في عهد البونيقين	١٧٢
معنى ليبيا في القديم : وحدة شمال افريقية (١٧٢) : - النوميديون والمريطانيون والجيتوليون (١٧٣) - الجمهورية البونيقية وعاصمتها قرطاج (١٧٤) - نوميديّة الغربية او مازيسولة : الاقليد سيفاكس (١٧٥) - نوميديّة الشرقية او ماسولة : الاقليد ماسنيسا (١٧٧)	

الموضوع	ص
الحروب :	١٨٣
أولا : حروب صقلية والكفاح بين قرطاج والاغريق - الهجوم البونيقي الاول تحت قيادة ملقيس (١٨٤) - الهجوم البونيقي الثاني تحت قيادة الملك عمقرط : كارثة هيمار (١٨٥) - الهجوم البونيقي الثالث تحت قيادة حنبل : الانتصارات (١٨٦) - من سنة ٣٩٨ الى ٣٦٧ هجمات وانتصارات الطاغية دونيس وانكسارات القرطاجيين (١٨٧) - اغاثوقليس ينقل الحرب الى افريقية (١٨٨) - انتصارات الملك بيروس على القرطاجيين (١٩٣) - مشكل مضيق مسينة : الانقلاب السياسي (١٩٤)	
ثانيا : الحروب البونيقية او الكفاح بين قرطاج ورومة (١٩٦) - الحرب البونيقية الاولى - ايطالية تمرد راس جسر بصقلية : مسينة (١٩٦) - حصار مسينة - حصار جرجنتي - معركة مليس (١٩٧) - نقل ميدان الحرب الى افريقية : ريغلوس - معركة وذن (١٩٨) - انتصار زنتيبوسي على ريغلوس - استيلاء الرومانيين على بالرمة (١٩٩) - فشل صدريل في محاولة استرجاع بالرمة - رومة تفقد اسطولها - عمقرط برقة الشهير (٢٠٠) - ابرام الصلح (٢٠١) - من نتائج الحرب البونيقية الاولى : كفاح الليبيين والنوميديين للتخلص من الاستعمار (٢٠٢) - الاستعمار البونيقي باسبانية (٢٠٩)	
الحرب البونيقية الثانية وحنبل (٢١١) - الحرب بايطالية (٢١١) - معركة تيسينو (٢١٢) - معركة نريية - معركة تريمان (٢١٤) - سياسة التناهي (٢١٥) - مجزرة كلثنة (٢١٧) - تهديم الوجود الايطالية (٢١٩) - جلب المنجدة والممد من افريقية (٢٢٠) - جلب النجدة والممد من اسبانية (٢٢١) - التحالف مع مقدونية (٢٢٢) - لستر جلع صقلية (٢٢٣) - الى الهاوية : حشر حنبل علسته الاثلي قباو (٢٢٦) - اغتخبه شبيون قاندا باسبانيا - خسر القرطاجيون باسبانية مدينة قرطاجنة - خسر	

الموضوع	ص
<p>حنبل بايطالية مدينة تارنعة - خسر اخوه صدر بعل باسبانية معركة باقولية - سقط صدر بعل قتيل في معركة ميتور (٢٢٧) - استيلاء شبيون على اسبانية وطرد القرطاجيين منها - تسمية شبيون قنصلا - نقل ميدان الحرب الى افريقية (٢٢٨) - الحرب بافريقية (٢٢٩) معركة جامة (٢٣٢) - معاهدة الصلح (٢٣٣) - موت حنبل وشبيون (٢٣٥)</p> <p>الحرب البونيقية الثالثة (٢٣٧) - نهضة قرطاج - اعتداءات ماسنيسا (٢٣٧) - نشوب الحرب بين قرطاج وماسنيسا (٢٣٨) - الحدود او فوسا ريجيا (٢٤١) - الحكم على قرطاج بالاعدام (٢٤٢) - دفاع المستعيت او تنازع البقاء (٢٤٥) - تخريب قرطاج (٢٥٣) - النار ولا النار (٢٥٤) - الآلات الحربية الثقيلة في ذلك التاريخ (٢٥٧)</p>	
<p style="text-align: center;">القسم الرابع المدنية الافريقية والنوميديّة والمريطانية في عهد الرومانيين</p>	
<p>التعريف بايطالية ورومة والرومانيين :</p> <p>الانوروريون - الافريقيون - اللاتينيون (٢٦٣) - رومة والدولة الرومانية - النظام الملكي (٢٦٤) - النظام الجمهوري (٢٦٦) - النظام الامبراطوري (٢٦٩) - الفنوحات (٢٧١) - القياصرة او الباطرة في العهد الامبريالي (٢٧٣)</p>	٢٦٢
<p>الممالك الافريقية</p> <p>بعد موت ماسنيسا (٢٧٤) - ميسجيمما - بعد موت ميسجيمما : آذربعل وهيامبممال ويوغرطة (٢٧٥) - التخلص من هيامبممال (٢٧٦) - التخلص من آذربعل (٢٧٧) - يوغرطة ورومة (٢٧٨) - يوغرطة وميتيلوس</p>	٢٧٤

الموضوع	ص
(٢٧٩) - يوغرطة وماريوس (٢٨١) - كارثة قفصة (٢٨٢) - التغلب على يوغرطة : سيلا (٢٨٢) - بعد يوغرطة : هيامبسال الثانى ومانيسا الثانى (٢٨٣) - يوبا الاول (٢٨٤) - يوبا الثانى وكليوباترة (٢٨٦) - الملك بطليموس - الزعيم المقاوم تاكفاريناس (٢٨٩) - قتل بطليموس ونهاية المملكة الميريطنانية (٢٩٠)	
حدود الولايات الرومانية بافريقية الشمالية	٢٩٢
افريكا : بعد تهديم قرطاج (٢٩٥) - مسح الاراضى وتقسيمها وتسجيلها (٢٩٥) - بعد الانتصار على الملك يوغرطة (٢٩٩) - بعد انتصار قيصر على بمبايوس وعلى يوبا الاول : افريكا الجديدة (٣٠٠) - بعد قتل بطليموس : الاستيلاء على كامل افريقية الشمالية (٣٠٤) ضبط الحدود الجديدة (٣٠٥) - زيادة التوسع نحو الجنوب (٣٠٧)	
النظام السياسى والادارى بافريقية الرومانية	٣١٠
النظام الادارى بافريكا فى عهد الجمهورية (٣١٠) - ميتيلوس وماريوس بافريقية (٣١١) - بمبايوس بافريقية (٣١٢) - النظام الادارى بالولايات الافريقية فى عهد الامبراطورية (٣١٤) - الولايات السيناتورى والولايات الامبريالية (٣١٥) - نوميديا (٣١٥) - ميريطنية الشرقية وميريطنية الغربية (٣١٧) - حالة الجماعات بداخل كل ايالة (٣١٨) - حالة الافراد (٣١٩) - تقديس الاباطرة (٣٢٠) - الجيش الرومانى (٣٢٠) - الشحنة المدنية (٣٢١)	
الحياة الاقتصادية	٣٢٢
كيف كان الاقتصاد قبل مجيء الرومان ؟ (٣٢٢) - التجارة فى عهد الرومان (٣٢٢) - الفلاحة : القمح (٣٢٤) - مواد غذائية اخرى (٣٢٦) - الاشجار (٣٢٦) - الزيتون - تربية الحيوانات - الصناعة (٣٢٧) - مسالة المياه (٣٢٨) - الحنايا والتقنات - النخفية - الحاوز	

الموضوع	ص
(٣٢٩) - حنايا زغوان (٣٣٠) - حنايا شرشال بالجزائر (٣٣١) - الاهتمام بمسألة الري - الزراعة حسب رصقات او مدرجات (٣٣١) - الطرقات الرومانية (٣٣٢) - الجسور (٣٣٣) - انصاب الاميال (٣٣٣)	
نظام الاراضى والحياة القروية	٣٣٤
الضييعات الصغيرة (٣٣٤) - الضييعات الكبيرة (٣٣٤) - املاك الامبراطور (٣٣٥) - المزارع والمعم والعشار (٣٣٥) - حياة اصحاب القصور كما تحكمها الفسيقساء : بطبرقة (٣٣٦) - بوذنة (٣٣٧) - السنيور يوليوس (٣٣٨) - حياة الطبقة الفقيرة (٣٣٩)	
اطلال المدن والبنائيات الرومانية	٣٤١
الحياة المنزلية - المدن البحرية (٣٤١) - المدن الفلاحية (٣٤٢) - المدن العسكرية : تيمقاد - لمباز (٣٤٢) - جيلة (٣٤٣) - اجزاء المدينة : الساحة العمومية (٣٤٣) - المعابد (٣٤٤) - الاسواق (٣٤٤) - المسارح والملاعب (٣٤٥) - المسرح والملاعب والميدان (٣٤٥) - الحمامات (٣٤٨) - اهم المدن الرومانية بافريقية (٣٤٩) اهم المدن ببلاد طرابلس (ليبيا) : مدينة اويا (طرابلس) - صبراتة - لبدنة (٣٤٩) - اهم المدن بالبروقنصلية (٣٥٠) - اهم مدن نوميديا (٣٥٤) اهم مدن مريطانية القيصرية (٣٥٥) - اهم مدن مريطانية الطنجية (٣٥٦) - الترمين (٣٥٧) اهم مدن مريطانية القيصرية (٣٥٥) - اهم مدن مريطانية الطنجية (٣٥٦) - الترمين (٣٥٧)	
الحياة العقلية	٣٥٨
الحياة العقلية - الخدمة العسكرية - المدارس (٣٥٨) - التعليم (٣٥٩) - افرنطوس القسنطيني (٣٥٩) - ابوليوس (٣٦٠) - الحياة الدينية (٣٦٠) - الوثنية (٣٦٠) - الديانة اليهودية (٣٦١) - الديانة النصرانية (٣٦٢) - شهداء النصرانية (٣٦٣) - الشيع والنحل	

الموضوع	ص
(٣٦٤) - المنظائوسية - المارسيونية (٣٦٤) - المانوسية (٣٦٥) - الاويومعية (٣٦٥) - الدوناتوسية (٣٦٦) - عصابات الدواوين (٣٦٧) - القديس اوفستينوس (٣٦٨)	
نهاية الحكم الروماني بأفريقية	٣٧٠
الاسباب الدينية (٣٧٠) - الاسباب السياسية (٣٧٠) - الاسباب الاقتصادية (٣٧١) - الاسباب الاجتماعية (٣٧٢) - الثورات التحريرية (٣٧٢) - ثورات البابار وقبائل الحلف الحامسي (٣٧٣) - فاواكسن (٣٧٣) - ثورات اخرى بالقبائل (٣٧٤) - الرابونية (٣٧٤) - اصلاحات ديوكليسيانوس : تقسيم افريقية الى ثمان ولايات (٣٧٥) الدوناتوسيون (٣٧٦) - الدواوين (٣٧٧) - الامير فيرموس (٣٧٧) - اخوه جيلدون (٣٧٨) - اخوه مقزيل (٣٧٩) انتهاء الحكم الروماني (٣٧٩)	
القسم الخامس	
أفريقية في عهد الوندال	
الاستيلاء الوندال	٣٨٢
الوندال - جنسريق - الاستيلاء على افريقية (٣٨٢) - فتوحات الوندال - سياسة الوندال بأفريقية (٣٨٣) - القبائل والممالك الافريقية في عهد الوندال (٣٨٣) - خنياريق (٣٨٦) - غنثاموند (٣٨٦) - ظهور القبائل الجمالية (٣٨٨) - تساموند (٣٨٩) - المنعرجة بينه وبين قابابون (٣٨٩) - المجبورة (٣٩٠) - الملك خلداهريق (٣٩١) - الامير انطالام (٣٩١) - الملك جلمار (٣٩٢) - دخول البيزنطيين (٣٩٢) - راسهم بليشار - انتهاء الوندال (٣٩٢)	



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

الموضوع	ص
<div style="border: 1px solid black; padding: 5px; text-align: center;"> القسم السادس افريقية فى عهد البيزنطيين </div>	
انتصار الجيش البيزنطى (٣٩٤) - التورات القومية	٣٩٤
التحريرية (٣٩٤) - تنظيم الجيش (٣٩٤) - تحصين	
البلاد (٣٩٥) - ابطال التحرير (٣٩٦) - نظرية ايميل	
قوتى فى وطنية الافريقيين (٣٩٧) - فساد المعاملة مع	
الاهالى - تدهور سلطة البيزنطيين (٣٩٩) - ظهور	
العرب : الغزوة الاولى او غزوة العبادلة السبعة (٣٩٩)	
- انتهاء البيزنطيين (٤٠٠) .	
- المراجع	٤٠٢
- الخطا والصواب	٤٠٥
- جدول اللوحات	٤١٠
- فهرس الكتاب	٤١٥



انتهى طبع هذا الكتاب يوم الجمعة

١٦ أكتوبر ١٩٥٩

طبعة الأولى

LA CIVILISATION DU MAGHREB ARABE DANS L'HISTOIRE

1. — DE LA PREHISTOIRE A LA FIN DES BYZANTINS

A. SFAR



دار النشر - بوسلامة

Editions BOUSLAMA 18 Rue Docteur Cotton - Tunis

مطبعة العمل - تونس